

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

قُرْبَة
بانتشيكوفو
سُكَّانها

لَمْ الْعَم



0098635



Bibliotheca Alexandrina





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الثالث

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

• قرية ستيا انتشيكو قو وسكانها
• حلم العم

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

يضم هذا المجلد الثالث من « أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة » ، روايتين هما : « قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » و « حلم العم » . ولئن لم تنشر الرواية الأولى الا فى شهرى تشرين الثانى وكانون الأول (نوفمبر و ديسمبر) من عام ١٨٥٩ ، أى بعد نشر الرواية الثانية ، « حلم العم » ، فقد بدأ دوستويفسكى كتابتها قبل الأولى بزمان طويل . يقول دوستويفسكى فى رسالة تاريخها سنة ١٨٥٩ ان الشخصيات الرئيسية فى هذه الرواية كان قد رسم ملامحها وحدد صفاتها قبل ذلك بخمس سنين ، أى بعد الخروج من المعتقل رأسا ، ومعنى ذلك أنه فى السنين الأولى من اقامته بمدينة سيميپالاتنسك انما تصور هذه الرواية :

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها

١٨٥٩

سبق أن لاحظ النقاد أن هذه الرواية الهجائية تقتفى أثر مسرحية « تارتوف » لمولير ، حتى ان شخصية فوما فومتش هي ، كما قال موشمولسكى ، شخصية تارتوف نفسه ، والكولونيل روستانف يقابل أورجون ، وأمه تقابل مدام برنيل ، وابن أخى الكولونيل والفتاة ناستنكا ، اللذان يعارضان فوما ، يذكران بشخصيتى دانيس والمير ، كما أن كليانت تستحيل الى باخشاياف الذى يساعد فى فضح «تارتوف» الروسى .

ورغم أن هذا العمل من أعمال دوستويفسكى قد كتب على صورة رواية ، فانه أشبه بمسرحية هزلية (ملهاة) على طراز المسرحيات الهزلية الفرنسية الكلاسيكية ، حتى انها تلتزم القواعد الكلاسيكية الثلاث :

وحدة الحدث ، وحدة المكان ، ووحدة الزمان . ان الأحداث الرئيسية تجري في مدى يومين .

تبدأ الرواية بعرض نماذج الشخصيات ويؤدى الصراع بين المبادئ المتعارضة الى انتصار « تارتوف » في أول الأمر : فالكولونيل يستغفر ويطلب العفو . وتجتمع الشخصيات كلها في الفصلين الرابع والخامس ، وتنبتق الفضيحة الأولى : البنية ساشا تثور على فوما فومتش الذى يريد أن يحتفل بعيد ميلاده في غير يومه . ثم يتفجر الصراع الثانى في الفصل السابع ، حين ينفذ صبر الحادم جافريلا الذى يرغم على تعلم اللغسة الفرنسية ، فيعلن الحقيقة للطاغية الذى يضطهده ويسومه سوء العذاب قائلا له انه انسان شرير مسعور . وينبجس صراع ثالث في هذا الفصل نفسه حين يتجرأ ابن أخى الكولونيل فيصف فوما بأنه سكران . هكذا تتطور الرواية تطور مسرحية خاتمتها سعيدة ، فيرد فوما الى الصواب والحذر ، فيمثل دور الانسان المحسن الخير ، ويقبل أن يتزوج الكولونيل الفتاة ناستيا ، ويحقق السعادة للجميع . ان تأليف الرواية على هذا النحو الذى يضم محاورات حية جدا يجعل اقتباسها للمسرح أمرا سهلا ، وذلك ما نجح فيه نجاحا باهرا « المسرح الفنى بموسكو » بإشراف ستانسلافسكى .

فى رسالة كتبها دوستويفسكى لأخيه فى الثالث من شهر أيار (مايو) ١٨٥٩ يقول الكاتب عن هذه الرواية : « لا شك فى أن هذه الرواية عيوباً كثيرة ، ولعل طولها أن يكون أكبر هذه العيوب . ولكننى على يقين من أنها تنعم فى الوقت نفسه بمزايا عظيمة ، وأنها خير أعمالى قاطبة . لقد كتبتها خلال عامين متواصلين (مع انقطاع عنها لكتابة « حلم العم » . وأحسب أننى أجدت صياغة بدايتها ووسطها ، أما ختامها فقد كتبته على عجل . ومهما يكن من أمر فقد أودعتها كل روحى ، أودعتها لحنى ودمى . لست أزعم أننى عبرت فيها عن كل ما بنفسى ، والا كنت أقول سخفا . فما يزال هنالك أشياء كثيرة يجب أن أعبر عنها . ثم ان هذه الرواية تفتقر الى عنصر القلب (أعنى عنصر الهوى كما نجد هذا العنصر فى قصة تورجنيف « أولاد الذوات ») . ولكنك واجد فيها شخصيتين نموذجيتين أحسنت تصويرهما تصويرا أرى أنه كامل لا مأخذ عليه ، وهما شخصيتان روسيتان حقا لم يحسن الأدب الروسى تصويرهما

الى الآن » • ان هاتين الشخصيتين النموذجيتين هما شخصية فوما فومتش وشخصية الكولونيل روستانف •

في سنة ١٨٦٠ أشار الناقد الروسى دوبروليوبوف الى أن « الأشخاص المجروحة كرامتهم يظهرون عند دوستوفسكى فى نموذجين اساسيين : الانسان الوديع ، والانسان الشرس » • فاما روستانف الذى ما ينفك يلقي المذلة والهوان من أمه ومن فوما فومتش فانه ينتمى الى النموذج الأول ، وأما فوما فومتش فانه ينتمى الى النموذج الثانى • أن الكولونيل روستانف رجل وسيم الطلعة معجب الى القلب ، نبيل الاندفاعات ، طيب الى غير حد ، مرهف العواطف الى حيث يقول : يجب على المرء أن يضاعف لطفه ورقته فى معاملة من أحسن اليهم • فهو يريد أن يرضى جميع الناس : يخضع فى كل أمر من الأمور لأمه التى تستبد به وتطفى عليه وتصفه بأنه أنانى ، ويخضع لفوما فومتش الدنيء الذى يعجب الكولونيل بعلمه وثقافته اعجاباً ساذجاً لأنه لا يملك هو الا حظاً ضئيلاً من العلم والثقافة ، وهو يحس مع ذلك ، من فرط تواضعه ، أنه أنانى وأنه آثم • فلما أظهره ابن أخيه على آرائه فى أن طبيعة الانسان طيبة أصلاً ، ولما روى له شعر نكراسوف فى الفتاة الضائعة التى تبعث بعثاً جديداً ، تأثر تأثراً شديداً وافتتن افتتاناً عظيماً ، فهتف يقول : لماذا الانسان خبيث شرير يا رب ؟ لماذا أنا شرير خبيث فى أحيان كثيرة جداً ، مع أن فعل الخير جميل هذا الجمال كله ؟ وهو يشعر أمام جمال الطبيعة بنشوة كبرى ، لأنه يستشف فيها عظمة الخالق • وهو يحب المربية الفقيرة المعذمة ناستنكا حبا مثالياً ، فيه انكار لذاته وإيثار لغيره ، ويرى أنه أكبر سناً من أن يستطيع تزوجها ، بل انه لمستعد ، حتى لا يفضب أحد منه ، أن يتزوج على مضض ، فتاة غنية واثرة هى تاتيانا ايفانوفنا التى تشبه أن تكون مجنونة ، ثم لا يمنع زواجه السخيف هذا بها الا أن الشاب أوبنوسكين قد اختطفها وهرب بها • ان هذا الانسان الخجول الوديع لا ينسى وداعته الا مرة واحدة ، حين يعمد فوما فومتش الى اهانة حبه بقسوة ، فيغضب ويثور ويتمرد فيطرد الواشى النمام شر طردة وقد استبد به الاستياء والحقد ، كما فعل المسيح حين طرد انتجار من المعبد • ان روستانف هو النموذج الأول للمسيحى الحق الذى يصوره دوستوفسكى • انه يحقق المثل الأعلى المسيحى بأفعاله دون أن يتكلم كثيراً عن الدين ، يغفر لمن يسيئون اليه ، ويزرع الخير حوله • انه صورة

أخرى للروح المسيحية الحقبة التي ستتجسد في شخصية الأمير ميشكين بطل رواية « الأهل » . ومع ذلك فإن هذه الشخصية الإيجابية ليست بارزة في هذه الرواية بروز الشخصية السلبية ، شخصية فوما فومتش ، وليس فيها من الحياة ما في تلك الشخصية السلبية : ان هذا المنافق الذي يدعى التقى والورع زورا وبهتانا ، ويدعى اصلاح جميع من حوله مؤنبا مقرعا ، وناصحا واعظا ، قد أحسن الكاتب تصويره كما أحسن موليير تصوير شخصية « تارتوف » . هو انسان أراد أن يكون أديبا فأخفق فأحنقه الاخفاق وألقى في نفسه الضغن والموجدة ، ثم صار الى طفيلي يتخذ الجترال مهرجا له ، فامتلاّت نفسه بغضا وحسدا ورغبة في التسلط والسيطرة ، واصبح طاغية يسخر بكل من حوله ويتهمك عليهم ويستهزئ بهم ، ومنهم الكولونيل والخدام الشيخ جافريلا والغلام الساذج فالالي . وهو يعظ بالأخلاق ويتكلم في اندين ويدعى أنه سيعتفك ناسكا في مغاور كييف بعد أن ينهي تأليف كتابه الأدبي العظيم . ولكن ذلك كله ليس الا كذبا ونفا ، فهو لا يكتب شيئا ولا يريد بحال من الأحوال أن يترك الماوى المريح والمطعم الطيب والمترب الشهى الذي وجده في ستيبانتشيكوف . وهو يستطيع بالحيلة أن ينتصر على كل عفة وأن يذل كل معارضة وأن يتغلب على كل ثمرد ، وحتى بعد أن طرد عاد وفي ذهنه خطة محكمة وحيلة بارعة ، هي أن يبارك زواج الكولونيل ليمن عليه وليسبند به ما عاش .

ولعل من الشائق أن نلاحظ أن هذه « الشخصية السلبية » تشبه أن تكون صورة كاريكاتورية ضارية للكاتب الروسي الكبير جوجول الذي كان دوستوفسكي قد قرأه كثيرا وقلده كثيرا في شبابه ، ولكنه كان كثيرا ما يثور ويتمرد عليه . وقد أشار الى هذا التشابه ناشر المجلة التي ظهرت فيها رواية « قرية ستيبانتشيكوف وسكانها » ، وهو آ . كرايفسكي الذي قال ان « شخصية فوما تعجبه كثيرا وتذكره بشخصية جوجول في العهد الحزين الشقي من حياته » ، أى في السنين الأخيرة من عمر هذا الكاتب الكبير . وبعد ذلك ، في سنة ١٩٢٢ ، وقف بورى تنيانوف بحنا خاصا على « دوستوفسكي وجوجول » ، وفيه بين أن دوستوفسكي قد تعمد أن يصور جوجول تصويرا كاريكاتوريا في شخصية فوما فومتش . والحق أن دوستوفسكي كان في هذه الصورة الكاريكاتورية يستهدف خاصة « رسائل » جوجول الى أصدقائه ، فلقد كان جوجول يطمع في أن

يصبح الموجه الروحي لجميع أصدقائه ، فهو يكتب اليهم رسائل مستفيضة في النصيح والوعظ والارشاد ، وهو يتحدث عن التواضع المسيحي ، على غروره الشديد وكبريائه القوية ، وعلى اغفاله الحالة الاجتماعية التي كانت عليها روسيا والتي كان جوجول يريد أن يراها ساكنة لا تتحرك ولا تتغير ، بل تظل جامدة على « المحافظة » . ان هذه « الرسائل » التي بعث بها جوجول الى أصدقائه ونشرت سنة ١٨٤٧ قد أثارت ثائرة الناقد الاشتراكي بيلنسكي ، فاذا هو يبعث الى جوجول برسالة تشتمل على احتجاج عنيف واستنكار صارخ . ويجب أن نتذكر في هذه المناسبة أن بين التهم التي وجهت الى دوستوفسكي أثناء محاكمته أنه قرأ هذه الرسالة الثورية التي كتبها بيلنسكي ، والتي منعتها الرقابة وحرمتها تحريما صارما قاسيا . فها نحن نرى إذن أن دوستوفسكي بعد أن قضى في السجن والنفي عشر سنين ما يزال متأثرا بالناقد بيلنسكي وما يزال يشاركه كره جوجول الذي صار الى تقى يعهده دوستوفسكي تقى كاذبا . ومع ذلك فان دوستوفسكي سيصير في المستقبل الى هذا التقى نفسه مخلصا كل الاخلاص ، مثلما صار اليه جوجول مخلصا كل الاخلاص كذلك . . . سوف يتطور دوستوفسكي الى حيث يذهب مذهب المحافظة ويتعصب للقومية ويتمسك بالدين ، كما فعل جوجول سواء بسواء . ولعل أبرز ما سيشارك فيه دوستوفسكي صاحبه جوجول قوله بأن المجتمع لا يحسن حاله باصلاحات اجتماعية مثلما يصلح حاله بانبعاث روحى أخلاقي يتحقق في نفس كل فرد . ولكن لئن قلنا ان دوستوفسكي كان مخلصا في تطوره هذا كل الاخلاص ، فليس ينفي ذلك أنه كان مخطئا كل الخطأ أو بعضه ، فان الانبعاث الروحي الأخلاقي نفسه لا يمكن أن يتهيا للفرد الا في كنف مجتمع تبدلت فيه العلاقات الاجتماعية بثورة قادرة تهيئ المناخ الصالح لتحقيق ذلك الانبعاث بتحرير الفرد من ظروف الاستغلال وعوامل الضياع .

ومهما يكن من أمر فلئن كانت صورة جوجول ماثلة في ذهن دوستوفسكي حين رسم شخصية فوما فومتش ، فان المسافة كبيرة بين فوما فومتش وجوجول . فالأول ليس الا مدعى أدب لم ينتج شيئا ذا بال، أما الثاني فهو قمة من القمم الأدبية التي تنعم بمواهب فذة ، وفوما منافق كاذب التقى زائف الورع ، أما جوجول فقد كان في تباريحه الدينية صادقا معذبا . ثم ان جوجول ان أقام عند أصدقائه فانه لم يضطهدهم .

ومع ذلك فنحن نسمع كلمات من أقوال جوجول يجريها دوستويفسكى بنصها على لسان فوما فومتش كقول جوجول فى الوصية التى نشرها أثناء حياته : « لا تشيدوا على قبرى ضريحا » .

أما بعد ، فان الهجاء فى رواية « قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » هجاء لاذع ، وان عددا كبيرا من الشخصيات القلقة المضطربة التى تزخر بها هذه الرواية يدخلنا منذ الآن الى ذلك العالم الممزق المشوش ، عالم الروايات الكبيرة التى سيكتبها دوستويفسكى : المهرج المتطوع ياجفكين الذى يشبه بولزونكوف ، والذى سيظهر مرة أخرى فى مارملادوف أحد أبطال « الجريمة والعقاب » ، وفى ليبادكين أحد شخوص « الجن » ؛ والحادم فيدوبلياسوف الذى اكتسب طلاء من حضارة وأصبحت له دعاوى غريبة عجيبه ؛ والعانس المحبومة تاتيانا التى تحلم بزواج يتراى لها مثلا أعلى ؛ والوغد الحقير أوبنوسكين الذى لا يستحي أن يشرح خطئه لاختطاف تاتيانا والاستيلاء على مالها . .

حلم العم

١٨٥٩

فى عام ١٨٥٧ كانت حياة دوستويفسكى فى مدينة سيمبالاتنسك تجتاز منعطفًا ملائما ، فقد رقى دوستويفسكى الى رتبة ضابط ، واسترد حقوق النبالة ، وتزوج ، وهيات له زوجته شيئا من رخاء العيش ، وأنشأت صالونا أدبيا صغيرا . وهو يأمل أن يعود فى القريب الى روسيا ، وأن يستعيد مكانته فى عالم الأدب ، وهو يتصل بمحررى المجلات التى تصدر فى العاصمة . هذا ميشيل كاتكوف محرر مجلة « البشر الروسى » يطلب منه رواية ، ويبعث اليه بسلفة مقدارها خمسمائة روبل ، وهذا محرر مجلة « كلام روسيا » التى تصدر فى بطرسبرج يفعل ذلك نفسه . ولكن الكاتب لم يكن قد انجز شيئا كاملا . فها هو ذا يترك اتمام كتابة روايته الهزلية الكبيرة « قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » ، ويعكف سنة ١٨٥٨ على تأليف رواية غيرها مسرعا فى الكتابة ما أمكنه الاسراع ، فكذاك فرغ دوستويفسكى من كتابة « حلم العم » التى نشرت فى مجلة « كلام روسيا » فى شهر آذار (مارس) من عام ١٨٥٩ .

ولم يرض دوستويفسكى عن هذه الرواية ، حتى لقد أسرف فى

التنكر لها بعد ذلك ، فكتب يقول فى احدى رسائله : « ان هذه الرواية لا تعجبني البتة ... واني ليحزننى أن أكون قد اضطررت الى العودة الى الظهور للجمهور ردينا هذه الرداءة ... اننى مكره ، فى سبيل المال ، على أن أتخيل قصصا ، على أن ألق حكايات . وما أشق ذلك على نفسى ! » .

الحق أن دوستويفسكى يظلم نفسه هنا كما ظلمها قبل ذلك ، ويظلم هذه الرواية كما ظلم غيرها من أعماله . هى أولا رواية وليست قصة أو حكاية ، أو هى قصة طويلة فى أقل تقدير . صحيح أنها رواية هزلية لا تشتمل الا على قليل من الجدة . ولكنها فى بابها من أجمل الروايات وأرشقها . أى ضير فى أن يكتب دوستويفسكى رواية هزلية من أجل أن يضحك فى هذه السنة السعيدة بعض السعادة من حياته بعد مدة طويلة قضائها فى السجن والنفى ؟ كان دوستويفسكى يريد أن يضحك وأن يضحك . ويذكر البارون فرانجل الذى كان عشيره فى تلك المدينة النائية أن دوستويفسكى كان يحلو له كثيرا ويضحكه كثيرا أن يقلد نبرات الصوت الرخو المفكك المتداعى الذى يتكلم به بطل روايته ، الأمير الشينخ . . .

والرواية تشببه أن تكون مسرحية هزلية ، حتى لكانها حوار يتعاقب ، وتتخلله ملاحظات يجب أن ينتفع بها مخرج المسرحية . وبسبب ذلك انما فكر بعضهم ، أثناء حياة دوستويفسكى ، فى اقتباس هذه الرواية للمسرح ، واستشير دوستويفسكى فى ذلك فكتب الى فيدوروف سنة ١٨٧٣ يقول : « لا أجرؤ ولا أقدر أن أعكف على مراجعة هذه الرواية . اننى لم أعد قراءة « حلم الهم » منذ خمسة عشر عاما . فلما أعدت قراءتها الآن وجدتها ضعيفة . كان همى الوحيد حين كتبت فى سيبيريا هذه الرواية الأولى بعد المعتقل أن أسأف حياتى الأدبية ، وكنت خائفا من الرقابة خوفا كبيرا (من حيث أننى سجين سابق) ، لذلك جاءت وجلة كحمامة ، بريئة براءة تامة . فمن الممكن أن تصنع منها مسرحية هزلية ، ولكن مضمونها أفقر من أن تخرج منه ملهاة ، رغم شخصية الأمير ، الشخصية الوحيدة التى أرى لها شأنا جديا فى هذه القصة » .

كان دوستويفسكى يرى اذن أن شخصية الأمير هى الشخصية الوحيدة التى لها شأن جدى ، فلماذا يكون لهذه الشخصية المضحكة ،

هذه الجثة التي « تحركها نوابض » ، شأن جدى في نظر دوستوفسكى ؟ ذلك أمر يعجب له المرء . فلا بد أن يكون دوستوفسكى قد حمل تصويره لهذه الشخصية معنى أعمق من المعنى الذى يبدو لنا من أول نظرة ، لابد أن يكون قد حملته معنى اجتماعيا كان هو الذى يعنيه أكثر ما يعنيه فى المرحلة التى كتب فيها تلك الرسالة . والحق أن عجبنا يزول اذا نحن انتبهنا الى أن الأمير ارستوقراطى روسى مفتون بالغرب ، يعرف أوروبا الغربية أكثر مما يعرف روسيا ، درس الفلسفة فى ألمانيا ، ويدعى أنه عرف بايرون فى مؤتمر فيينا ، وانتمى الى جمعية ماسونية أجنبية ، وله آراء فى حب الانسانية ، ويجب أن يعتق أقنانه ، ويريد أن يسافر الى الخارج « ليتابع تطور الحضارة الأوروبية » ، وقد أراد أن يتزوج بكونتيسة فرنسية ؛ وبأغنية فرنسية من نوع أغاني التروبادور انما فتنته زينا . وهو يؤثر اللغة الفرنسية على اللغة الأم (انه يستعمل فى كلامه كثيرا من التعابير الفرنسية والألفاظ الفرنسية) . معنى ذلك كله أن دوستوفسكى حين صور هذه الشخصية انما قدم الى القارئ صورة كاريكاتورية للأرستقراطية المنحلة المفتونة بحب الغرب . وسنرى نظيرا لهذه الصورة الكاريكاتورية ، بمزيد من السخر اللاذع ، فى رواية « الجن » : شخصية ستيبان فرخوفنسكى الذى درس هو أيضا فى ألمانيا، وتبنى الآراء الجديدة ، وافتتن بالحضارة الأوروبية ، وكان يحتقر روسيا التى لا يعرفها قط ، وكانت له كذلك آدابه الاجتماعية الغربية ، وكان يحب اللغة الفرنسية حبا عظيما . ولا يقتصر التشابه بين الروائين على هذا التشابه بين الشخصيتين ، بل يتعداه الى تشابه فى حبكتي الروائين . ففي رواية « حلم العم » نرى السيدة الأولى بالمدينة تقرر فجأة أن تزوج الأمير ابنتها زينا ، وفى رواية « الجن » نرى السيدة الأولى بالمدينة ، وهى الجنرالة ستافروجين ، تفكر فى أن تزوج الأمير فرخوفنسكى ربيبتهما اليتيمة داشا . وكلتا الفتاتين تحب شخصا آخر ولكنهما كليهما توافقان على الزواج .

ولعل من الواجب أن نذكر أن رواية «حلم العم» التى كتبها دوستوفسكى على طريقته القديمة تشهد بقوة تأثره بجوجول فى النقد اللاذع والهجاء المر . ان وصفه لهذه المدينة من مدن الأقاليم يشبه وصف جوجول للمدينة التى نراها فى رواية « النفوس الميتة » . والنساء هن النساء هنا وهناك .

نعود فنقول ان دوستوفسكى قد ظلم نفسه وظلم روايته حين أسرف في القسوة في حكمه على هذه الرواية. وهل يضيرها أو يدينها أن يكون مضمونها الاجتماعى فقيرا فيما ذهب اليه دوستوفسكى ؟ أليس يكفيها جمال البناء الفنى وروعة التصوير النفسى وقوة النفاذ الى أعماق الحياة الداخلية ؟ أليس يكفيها أن تكون غنية بالمضمون الانسانى ؟ ان هذه الرواية زاخرة بالمضمون الانسانى . أنظر الى محاورات السيد موسكاليوفا مع ابنتها : ان فيها لبصيرة تنفذ الى الأغوار السحيقة من النفس الانسانية ! وأنظر الى زينا : ان هذه الفتاة المثالية الرومانسية الحاملة قد أحبت « المدرس الشاهر » الفقير فاسيا ، وهى تحترق المجتمع وتتمرد على أمها وتناقشها فى ازدراء وعداوة ، ولكن الأم تعرف الثغرة فى درع ابنتها فتنفذ اليها منه ، فاذا صورت لها أن سيكون فى امكانها أن تتزوج حبيبها الفقير المسكين فترده الى الحياة ، بعد موت الأمير الشيخ قريبا ، واذا أهابت بروح التضحية فى نفس الفتاة ، استكانت الفتاة وأذعنّت ورضيت بالصفقة الدنيئة ، ولكن الفتاة لا تستطيع أن تخفى عواطفها الحقيقية طويلا ، فما تلبث أن تعود الى التمرد ، حتى اذا رأت الشيخ لا يتكلم الا على حلم كشفت عن الحقيقة كاملة فى سورة من الصدق، ولم تبرئ نفسها من اثم التواطؤ عليه والتغريب به ، ثم ها هى ذى تسعى الى فاسيا المحتضر راكضة لا تبالى مواضعات المجتمع ولا أقاويل الناس ، وتقضى بجانب سريريه أياما وليالى الى أن يقضى نحبه . وتدور الأحاديث بين زينا وفاسيا فى ظل شبوح الموت الذى يخيم على الجو ، فهذا يستغفر عن خطاياهم وتلك يتمزق قلبها تمزقا رهيبا . ذلك كله مضمون انساني غنى بل انه لا يخلو من مضمون اجتماعى أيضا . ان فيه اهابة الى تمرد وثورة ، فليس وجلا كحمامة ولا هو برئ كل البراة كما قال دوستوفسكى . وليس يفقده هذه الصفة ألا تكون ثورته رومانسية تغفل عن واقع النفس الانسانية . لقد تخلى دوستوفسكى فى هذه الرواية عن الرومانسية المندفعة التى نراها فى بعض أعماله السابقة . ان السنين

التي قضاها في السجن خليفة بأن تصرفه عن تلك الرومانسية الساذجة .
 ان فاسيا تزل به قدمه فيهوى الى قاع الحطة والدناءة حين ينتقم من زينا
 باتخاذ رسالتها الغرامية اليه وسيلة للتشهير بها . وان زينا المثالية
 توافق على أن تتزوج الأمير الشيخ متنازلة عن مثاليتهها ، وهي ترضخ
 لنصائح أمها وتتزوج بعد ذلك شيخا آخر هو حاكم برتبة جنرال ، متخيلة
 بذلك عن رومانسيته التي رأيناها عليها حين كانت بجانب حبيبها
 المحتضر . تلك كلها أعماق انسانية تزخر بالتناقضات قد سبورها
 دستويفسكي وأحسن تصويرها . ذلك كله مضمون انساني غني بل انه
 لمضمون اجتماعي كذلك .

قَرْيَة
ستيبانتشيكوفو
وَسْكَانَهَا

١٨٥٩

« قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها »

Selo Stépantchicovo i iego opitatéli

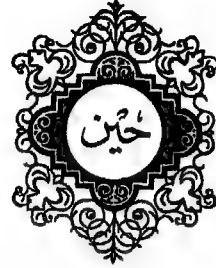
كتبته هذه الرواية في ١٨٥٨ - ١٨٥٩ ونشرت في

مجلة « حوليات الوطن » ، شهرى تشرين الثانى

(نوفمبر) وكانون الاول (ديسمبر) ١٨٥٩

الجزء الأول

مقدمة



أحيل عمى الكولونيل ياجور ايلتش روستانف الى التقاعد ، مضى يستقر في أرضه بقريه ستياشيكوفو التي كان قد ورثها من عهد قريب . وسرعان ما تلام هنالك مع الحياة التي يعيشها مالكو الأفيان ، حتى لكانه لم يعيش حياة أخرى قبلها في يوم من الايام .

يقال ان من الناس من خلقوا للتلاؤم السريع والرضى السهل والتعود على كل شيء . ان من المستحيل عليك أن تتصور اسانا أميل الى المسايرة وأقدر على المجارة من هذا الانسان . فلو خطر ببالك أن يحملك على ظهره مسافة فرسخ أو فرسخين * لوافق على ذلك فيما أعتقد . لقد كانت نفسه تفيض بطيبة تبلغ من القوة أن المرء يحس أنه مستعد لأن يهب كل شيء لأول قادم ، وأن يقاسمه كل شيء ، حتى آخر قميص يملكه . هو رجل طويل القامة متناسب أعضاء الجسم؛ عملاق ذو خدين نضرين وأسنان كالعاج ، وشاربين طويلين بلون الكستناء القائمة ، وصوت قوى مجلجل رنان صريح ، وضحكة مدوية ، ولهجة في الكلام سريعة منطلقة . كان عندئذ في نحو الأربعين من عمره، وكان قد قضى حياته في سلاح الفرسان منذ السادسة عشرة من عمره اذا لم أخطئ . وقد تزوج في سن مبكرة ، ولكنه سرعان ما ترمل ، فاحتفظ في قلبه بذكرى لا تمحى لزوجة كان يحبها الى حد الجنون . وبعد أن ورث قرية ستياشيكوفو فأصبحت ثروته

الشخصية ستمائة نفس ، انما قرر ، كما ذكرت منذ هنيهة ، أن يحال على التقاعد ليستقر في أملاكه مع ولده . وقد كان له ولدان : أحدهما صبي في الثامنة من عمره كانت ولادته هي السبب في وفاة أمه ، واسمه ايلوشا * ، والثاني فتاة في نحو الخامسة عشرة اسمها ساشا قد تربت في مدرسه داخلية بموسكو منذ ترمل أبوها . ولكن منزل عمى لم يلبث أن أصبح يذكر بسفينة نوح . واليكم تفصيل ذلك :

في اللحظة التي تلقى عمى ميراثه وحصل على تقاعده ، ترملت أمه زوجة الجنرال كراخوتكين . ان زواجها بالجنرال يرجع عهده الى عشرين سنة خلت ، بينما كان ابنها ، وهو ضابط صغير في سلاح الفرسان ، يفكر هو نفسه في أن يتخذ له امرأة . لقد ظلت الأم زمنا طويلا تقرع هذا الابن الذي لا يحترم أمه ، على أثرته وأثانيته وعقوقه ؛ ورفضت أن تمن عليه بموافقتها على زواجه ، مبرهنة له على أن الارض الوحيدة التي يملكها ، ولا يزيد عدد أبنائها على مائتين وخمسين ، لا تكفي منذ ذلك الحين للاتفاق على أسرته (يجب أن نفهم من هذا اتفاقه على أمه الطيبة مع حاشيتها الكبيرة من الطفليين ، وكلابها الكبيرة والصغيرة ، وقططها وما الى ذلك) . ومع ذلك ، فانها في غمرة هذه التقريرات والتأنيبات ، وفي اللحظة التي لم يكن فيها ابنها يتوقع شيئا مما سيحدث البتة ، أنبأته أنها ستزوج هي نفسها ، رغم سنها الاثنتين والأربعين . حتى أن هذا نفسه كان عذرا جديدا لها من أجل أن تزيد غضبها على ابنها ، ولومها له . وقد حلفت أغلظ الأيمان أنها لا تتزوج الا لهدف واحد هو أن تجد لشيخوختها المأوى الذي يمنعه عنها ابنها مادام يبلغ من الجراءة والأثرة والأناية هذا الحد الذي لم يسمع بمثله أحد من قبل : أن ينشئ لنفسه هو أسرة .

ولم أستطع أن أعرف في يوم من الأيام السبب الذي دفع المنفور له

الجنرال كراخوتكين أن يتزوج امرأة تخطت العقد الرابع من عمرها ، مع انه ذكى . أغلب الظن أنه كان يظن أنها غنية ، أو أنه ، كما قال بعضهم ذلك ، قد احس بقرب حاجته الى ممرضه ، وتبنا بجملته الامراض التى ستصيب عليه فى ايام شيخوخته . ومهما يكن أمر فان الجنرال لم يبد عليه فى يوم من الايام ، خلال حياتهما المشتركة ، أنه كان يقدر امرأته كثيرا ، حتى لقد كان لا يدع فرصه من الفرص الا ويستخر منها ويستهنىء بها . وكان الجنرال رجلا شاذا تماما . ولئن أعوزته الثقافة ، فانه لم يكن يعوزه الذكاء ؛ وكان يستعمل فكره فى ثلب الآخرين وتعييرهم وتحقيرهم والتهكم عليهم ، ولا يتحرج من الخروج على أى مبدأ من المبادئ . وقد جعله ممرضه ، الذى يرجع خاصة الى أنه عاش حياة فوضى ، جعله ممرضه انسانا شرس الطبع كالح المزاج لاذع اللسان حقودا لا يشفى له غليل . ورغم أنه كان موظفا لامعا مرموقا ، فان « حادثا مؤسفا » قد جعله يُصرف من الخدمة على حين فجأة محروما من أى معاش ، فكان ذلك ضربة رهيبية أحواله انسانا حائقا مغتظا حاقدا الى الأبد . وحين أصبح بغير موارد ، لأنه كان لا يملك الا مائة قن صاروا الى الفقر المدقع والبؤس الشديد ، فانه خلد الى الراحة مكتوف اليدين طوال الفترة الباقية من حياته ، لم يحاول فى يوم من الأيام ، خلال السنين الاثنى عشرة التى عاشها بعد ذلك ، أن يسأل من أين كانت موارده ، ولا همّة أن يعرف من الذى كان ينفق عليه . غير أن هذا لم يمنعه أبدا من أن يعيش حياة عريضة ، ينفق بلا حساب ، ويقتنى عربّة وسيولا . وسرعان ما فقد استعمال ساقيه ففضى السنين العشرة الأخيرة من حياته على كرسى مريح يجره ، عند الضرورة ، خادمان أعجبان طويلان أبلهان ، لم يوجه اليهما مولاها يوما الا أنواعا من هاجر الكلام وغليظ القول . وواضح أن من كان ينفق على العربّة والخدم والمقعد انما هو عمى الذى كان يرسل الى

أمه آخر قرش يملكه ، ويرهن أملاكه بالقروض رهنا ، ويحرم نفسه من الاشياء الضرورية ، ويفرق مزيدا من الفرق فى ديون لم تكن تنفق و ثروته آنذاك ، دون أن يعنيه ذلك من سماع التهم التى كانت تكيلها له أمه اذ تصفه دائما بأنه ابن أنانى عاق • ولكن هكذا خلق عمى • لقد انتهى الى الاقتناع بأنه أنانى ، فكان فى سبيل أن لا يكون أنانيا ، وفى سبيل أن يعاقب نفسه على أنانيته ، ما ينهى يزيد المبالغ التى تطلب أمه أن يرسلها اليها • وكانت أمه الجنرالة (زوجة الجنرال) تعبد زوجها عبادة ، غير ان الشيء الذى كان يفتتها فيه خاصة كان من غير شك هو رتبته التى تهب لها ، هى ، لقب «جنرالة» •

كان لها فى المنزل جناح خاص تعيش فيه مستقلة عن زوجها المصاب بداء النقرس ، بين طفليها النمايين وحيوانها الاليفة من قطط وكلاب • وكانت فى مدينتها الصغيرة وجها مرموقا وشخصية بارزة • ان حفلات التعميد والزفاف التى ترتب على عرش العرابه او الاتيينه ، وكذلك الاقاول والنمايم والثروات ، وما يقوم من مقامرات « مفضلة » على كوبك واحد للفيشة الواحدة ، ولا سيما مظاهر الاحترام والتعظيم والتبجيل التى تحاط بها بفضل لقبها الجليل ، ان ذلك كله يعوضها عن منفصات حياتها المنزلية ويؤسبها عما تلقى من صنوف المكدرات • اليها انما كانت ناقلات الأنباء تأتيا بأحدث الأخبار قبل أن تنقلها الى أى انسان آخر • ومكان الشرف وقف عليها فى كل مكان وفى كل زمان • الخلاصة أن لقب « الجنرالة » هذا كان يضمن لها جميع الامتيازات الممكنة • وكان الجنرال يدع الأمور تجري على أعنتها •• على أنه كان لا يعفى امرأته أمام الناس من الاساءات الجارحة والاهانات المؤلمة • كان يتساءل مثلا لماذا ورط نفسه بهذه « السمينه المترهلة » دون أن يخطر ببال أحد أن يحتج ••• ولقد كان الناس ينفضون من حوله شيئا بعد شيء ، ولكنه

كان لا يستطيع أن يستغنى عن مخالطة المجتمع . . . كان فى حاجة الى أن يثرثر وأن يناقش ، وهو رجل متحلل ملحد على الطراز القديم ، لا يكره الكلام فى الموضوعات الرفيعة ، ولا بد له من أناس يستمعون اليه .

غير أن الناس فى مدينة ن . . . الطيبة كانوا لا يهتمون كثيرا بهذا النوع من المواد ، فلما انفض عن الجنرال سامعوه ، أخذ أهل الدار ينظمون حفلات « ويست » عائلية ، غير أن ألعاب الورق هذه كانت تنتهى بالجنرال عادة الى موجات من الحنق والغيط والغضب تبلغ من الشدة والعنف ان امرأته وحاشيتها يستبد بهن زعر شديد وهلع رهيب ، فيحرقن شموعا لجميع القديسين ، ويقمن الصلوات والدعوات ، وينزع بعضهن من بعض اوراق اللعب ، ويمضين يبحثن عن النبوءات والفؤول فى حبات الفول ، ويطفقن يوزعن الصدقات على السجناء دون أن يمنعهن ذلك من انتظار ساعة العصر بمزيد من الجزع والارتعاد والارتجاف ، حيث يستأنف اللعب ، فاذا وقعت أية خطيئة ، أو حدثت أية غلطة ، ثارت ثائرة الجنرال عليهن صراخا وعويلا وشتما وسبا ، بل وضربا . كان الجنرال يفقد فى لحظات الانزعاج هذه كل قدرة على ضبط نفسه والتحكم بانفعاله ، فهو يرغبى ويزبد ، ويصرخ كما يصرخ راع من رعاة البقر ، ويجدف كما يجدف حوذى ؛ وهو فى بعض الاحيان يمزق ورق اللعب ارباً ويرميه على الأرض غاضبا ، ثم يطرد جلساءه وهو يبكى من شدة الحنق والغيط ، لا لشيء الا لأن ورقة «فاليه» قد جاءت بدلا من ورقة « تسعة » . وقد ضعف بصره آخر الأمر ، فأصبح لا بد له من قارئ يقرأ له . وفى ذلك الحين انما ظهر فوما فومتش أوبسكين* .

أعترف بأتنى أقدم الآن هذه الشخصية الجديدة بشيء من الاحتفال والاجلال ، ولكن لهذه الشخصية فى قصتى دورا هو فى المقام الاول بين

أدوار سائر الشخصيات ، ما فى ذلك ريب • ولا داعى لأن أشرح للقارىء لماذا يستحق صاحبنا هذا كثيرا من الاهتمام والانتباه • ولعل القصد يملى على أن أدع للقارىء أن يحل بنفسه هذه المشكلة وأن يجب عن هذا السؤال •

لقد دخل فوما فومتش منزل الجنرال كراخوتكين طفيلياً لا أكثر ولا أقل ••• من أين خرج ؟ ان حجابا كثيفا ما يزال يحيط بأصوله حتى الآن • وقد حاولت مع ذلك أن أجمع بعض المعلومات عن ماضى هذا الانسان الطريف العجيب . فقل لى انه كان موظفا خلال بضع سنين ، وانه قاسى بعض العذاب فى سبيل « الفكرة » فى مكان ما ؛ وفيل لى أيضا انه جرب « الأدب » فى موسكو ، وليس فى هذا ما يدعو الى الدهشة أو العجب • فان الجهل المطبق لدى فوما فومتش لا يمكن أبدا أن يكون آفة تبعد صاحبها عن هذه الحرفة • والشئ المحقق على كل حال أنه بانحدار بعد انحدار ، قد سقط أخيرا قرب الجنرال قارئا وضحية • ويمكن القول انه دفع غالبا ثمن الخبز الذى منَّ به عليه ، فما من نوع من أنواع الازدلال قد أعفى منه • ومع ذلك فان فوما فومتش الذى أصبح بعد ذلك ، أى بعد موت الجنرال ، شخصا خطير الشأن رفيع المنزلة ، قد صرح لنا غير مرة أنه ان ارتضى أن يقوم بدور المهرج ، فلقد كان ذلك منه سماحة وكرما وجودا ، وكان تضحية فى سبيل الصداقة : فان الجنرال ، راعيه وحاميه ، وهو الرجل العظيم والانسان الكبير الذى لم يفهمه الناس ولا قدروه حق قدره ، كان لا يسر الا اليه ، هو فوما ، بأخفى ما فى فكره من آراء ؛ فاذا اتفق للمرحوم اذن فى يوم من الأيام أن يجد بعض المتعة فى أن يرى فوما فومتش يقلد بعض الحيوانات ، أو اذا طلب من فوما فومتش أن يمثل له بعض المناظر الحية ، فلقد كان من واجب فوما فومتش أن يلبى رغبة الصديق الكسيح المحزون • غير أن دعاوى فوما فومتش هذه يجب أن

يُنظر إليها في حذر وارتياح • ومهما يكن من أمر ، فلا نكران أنه اذا كان يمثل قرب الجنرال دور المهرج ، فلقد كان لدوره في جناح السيدات مظهر آخر مختلف عن ذلك المظهر كل الاختلاف • فكيف استطاع أن يصل الى ذلك ؟ رب غر يصعب عليه أن يفهم هذا الأمر • ولكن الحقيقة هي أن الجنرالة قد محضته احتراماً كبيراً وتبجيلاً عظيماً واجلالاً يشبه أن يكون صوفياً ، لأسباب مجهولة على كل حال • فبفضل ذلك انما استطاع أن يكون له على عنصر النساء في المنزل ، شيئاً بعد شيء ، نفوذ يشبه النفوذ الذي يمارسه أشخاص مثل ايفان ياكوفلفتش * وغيره من الرجال المتبئين الملهمين ، على النساء التافهات السخيفات الثرائيات ، المعجبات بهم ، اللواتي لا يمنعهن شيء عن زيارتهم في غياهب أكواخهم الصغيرة المظلمة • كان فوما فومتش يقص على هاته السيدات حياته ومغامراته ، ويقرأ لهن كتباً أخلاقية ، ويشرح لهن بلاغة تخضلكها الدموع مختلف فضائل المسيحية ، ويصحبهن الى الكنيسة حتى لصلاة الفجر • وكان في بعض الاحيان يتبأ لهن بالمستقبل ، ولكن الشيء الذي كان يناسبه أكثر من أي شيء آخر انما هو تفسير الأحلام واغتيال الاقران بالقول الهاجر والنيمة السيئة • وقد حزر الجنرال نوع الحياة التي كان فوما فومتش يعيشها في الجناح الخلفي ، فكان ذلك يرغبه مزيداً من الترغيب في تعذيب صاحبه واضطهاده • غير أن العذاب الذي كان يلقاه فوما فومتش لدى الجنرال قد رفع شأنه وسما بقدره لدى الجنرالة وحاشيتها •

لقد تغير وجه الأمور اذن آخر الأمر ، حين فاضت روح الجنرال وذهبت الى بارئها ••• على نحو غريب في الواقع • ذلك أن هذا المتحلل ، هذا الملحد ، قد استبد به أثناء الاحتضار دعر شديد واتابه هلع رهيب لا يصدق ، فأخذ ينتحب باكياً ، ويعترف بأخطائه ، ويطلب كاهناً في اثر كاهن ، وصورة مقدسة في اثر صورة مقدسة ، فأمر له بذلك كله ،

ودعيت له الدعوات ، وأقيمت من أجله الصلوات • وظل المسكين يعول ويصيح قائلاً انه لا يريد أن يموت • حتى أنه فى لحظة من اللحظات استغفر فوما فومتش فأنض العينين دموعا ، وذلك أمر عرف فوما فومتش كيف يستغله بعد ذلك أحسن استغلال • ومع ذلك ، اليكم ما حدث لحظة ودعت روح الجنرال رفاته : ان عمتى براسكوفى ايلنتشنا ، بنت الجنرالة من زواجها الأول ، لم تكن قد تزوجت ، وكانت تعيش فى منزل الجنرال ، فكانت منذ أصبح الجنرال مقعدا من عشر سنين ضحية من ضحايا الأثمرة لديه ، تتحمل فظاظته وتتقبل غلاظته • • • فكان زوج أمها لا يستطيع الاستغناء عنها ، فهى الوحيدة التى استطاعت بالصبر والاخلاص والتفانى أن تنال رضاه وأن تنعم بحظوته • فلما كان الجنرال يحضر اقتربت من السرير المنفوش وأرادت أن ترتب وسادة تحت رأس المحتضر ، فما كان من هذا المحتضر الا أن أمسكها من شعرها ، واستطاع أن يشدها من صفائرها ثلاث مرات متتاليات وهو يكاد يزيد غيظا وحنقا ومات بعد عشرة دقائق • وسرعان ما أعلنت الجنرالة أنها ترفض أن ترى الكولونيل وأنها تؤثر أن تموت على أن تقبله فى حضرتها فى لحظة كهذه اللحظة • ورغم ذلك أبلغ الكولونيل النبأ • واحتفل بشييع الجنازة احتفالا مهيبا فخما ، وكان الكولونيل ، هذا الابن الذى لا يستحق أن يظهر أمام عيني أمه ، هو الذى دفع نفقات الاحتفال بطبيعة الحال •

واليوم ، فى مدينة كنيازفكا ، الأرض المهجورة ، التى يملكها عدد من المالكين ، والتى يملك عمى منها مائة نفس ، ينتصب ضريح من المرمر الأبيض نقشست عليه كتابات فى مديح المتوفى ، تشيد بذكائه ، ومواهبه ، وعظمته ، ولا تغفل ذكر ألقابه ورتبته • ولم يهمل فوما فومتش أن يشارك مشاركة نشيطة فمالة فى عمل الكتابة هذا •

أما الجنرالة فكان لا بد من استرضائها زمنا طويلا قبل أن تغفر

لأنها وأن تصفح عنه • وكانت لا تنى تردد ، وهى محاطة بكلابها ونسوتها ،
 متحيرة متباكية ، أنها تؤثر أن تأكل خبزا يابسا « مغموسا بالدموع » ، وأن
 تمضى متكئة على عصا تستجدى تحت النوافذ وتستعطي أمام الأبواب ،
 على أن تستجيب لطلب ابنها العاق « العاصى » وانها ترفض رفضا قاطعا
 تلبيه رجائه فى استضافتها بقرية ستينانثشيكوفو • • لا • • انها لن تطأ
 بقدمها ذلك المنزل فى يوم من الأيام • ان كلمة القدمين ، حين تستعمل
 بهذا المعنى ، هى من الكلمات التى تستمد منها بعض السيدات تأثيرا مذهلا •
 ولقد كانت الجبرالة تحسن استعمال هذه الكلمة بفن متقن لا يضارع • •
 والخلاصة أن البلاغة كانت تتدفق سيلًا عارما ، وأن الفصاحة كانت تنبع
 نرة لا ينضب لها معين • • ولكن ، رغم ذلك الصراخ كله ، رغم ذلك
 العياط والشياط والزياط • • كانت استعدادات الرحيل تجري فى
 مجراها • •

وظل الكولونيل ، خلال خمسة عشر يوما ، يقطع الأربعين فرسخا
 التى تفصل بين أراضيه والمدينة ، يقطعها كل يوم تقريبا ؛ ولم يتلق الاذن
 بالظهور أمام عيني أمه الحانقة ، آخر الأمر ، الا وكانت جميع خيوله قد
 أضناها التعب حتى أصبحت عاجزة عن المسير • وكان فوما فومتش قد
 تولى أمر المفاوضات ، فكان خلال هذه الفترة لا ينفك يرهق الابن العاصى
 باللوم والتقريع على سلوكه « الوحشى » ، فبلغ من اخجاله أنه أجرى
 دموعه سخينة سخية ، وأنه هوى به الى قاع الحزن والكرب والكمد
 واليأس • والى هذا العهد انما يرجع على وجه الدقة التأثير الطاغى
 والسلطان المستبد والتسلط الساحق الذى أصبح لفوما فومتش على عمى •
 لقد فهم فوما فومتش نوع الناس الذى ينتمى اليه عمى ، وسرعان ما أدرك
 أن دور المهرج الذى كان يقوم به قد انتهى ، وسرعان ما قال لنفسه :

العوران فى مملكة العيمان ملوك • فيها هو ذا الآن يثار لنفسه •• أيما
ثار ! •••

كان يقول للكولونيل :

- لسوف تحرز نصرا كبيرا •• اذا مضت أمك ، أمك التى جاءت
بك الى الحياة ، اذا مضت تطلب الصدقات ، متوكئة على عصا بيديها
المرتعتين وقد أيسهما الجوع ! ياله من أمر فظيع ! أولا بسبب الرتبة
العالية التى تحملها ، رتبة الجنرال ، وثانيا بسبب مزاياها النادرة وفضائلها
المثلثى ! ما عسى تشعر به أنت عندئذ من خجل وعار يوم تجيء الى بابك
(خطأ بطبيعة الحال ، ولكن ذلك يمكن أن يقع !) تطلب الصدقة بينما
تكون أنت ، أيها الابن العاق السوء ، بينما تكون انت ، ربما فى تلك
اللحظة نفسها ، متقلبا على الرياش الوثيرة ، متنمنا بالغنى الفاحش والثراء
الطائل ! يا للفظاعة ! يا للفظاعة ! على أن أقطع ما فى الأمر - اسمح لى
أن أقول لك هذا صريحا بلا لف ولا دوران ، أيها الكولونيل - هو أننى
أراك متسمرنا هنا ، أمامى ، كأرومة شجرة ، فاجر الفم ، طارف العينين ••
ألا ان هذا ليوشك أن يكون نوعا من قلة الحياء •• لقد كان عليك ، من
مجرد تصور ما قد يقع ، أن تشد شعر رأسك حتى تنتزع آخر شعرة فيه ،
وأن تذرف أنهارا من دموع •• ماذا أقول ؟ بل سيولا بل بحيرات بل
بحارا بل محيطات من دموع ! ••

الخلاصة أن فوما فومتش قد بلغ من فرط الغضب والحما أنه فقد
تسلسل كلامه •• غير أن هذا كان هو الخاتمة المألوفة لفصاحته وبلاغته ••
وكما تقدرون فإن الجنرالة قد انتهت الى تشریف ستيناشيكوفو بحضورها
ترافقها نسوتها وكلاهما وفوما فومتش ومدموازيل بيريلستين ، نجيتها
ومستودع سرها ••• وكانت السيدة الطيبة تقول انها انما تريد أن تمتحن

أبناها ، وأن تعرف ما يضره لها من احترام ، وما سيظهره لها من تعظيم
وتبجيل !

ولعل القارئ يتصور كيف كان وضع الكولونيل أثناء هذه التجربة !
يجب أن نذكر أولاً أن ترمل الجنرالة حديثاً كان يحملها على أن تستحضر
ذكرى الفريد الغالى العزيز مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع ، وأن تطلق
العنان لحزنها الشديد وكرها الرهيب • وكانت فى تلك اللحظات تصب
هجومها على الكولونيل بدون سبب ظاهر ••• حتى لقد كانت فى بعض
الأحيان تجلس قربها حفيدها اليوشا وحفيدتها ساشا ، فتغمر الطفلين
بالأسنين بنظرة مؤثرة ، وترثى ل حالهما ، وتأسف على أن يكون أبوهما
أبا كهذا الأب ، وتأخذ تطلق من صدرها تنهدات وآهات تفتط القلوب ،
وتأخذ تذرف صامته ، خلال ساعة طويلة أو تزيد ، دموعاً عجيبة غريبة ••
وويل للكولونيل اذا هو لم يستطع أن يفهم هذه الدموع •• والحق أن
هذا الرجل الساذج لم يستطع ذلك فى يوم من الأيام •• كان يصل دائماً
فى اللحظة المحتومة فيشهد هذا المنظر ، ويخضع لامتحان الأم شاء أم
أبى •• واذا أن الاحترام الذى يكنه الابن لأمه والتعظيم الذى يظهره لها
قد ازدادا من ذلك ولم ينقصا ، فقد أحست الجنرالة وأحس فوما فومتش
أنهما فى منجى الى الأبد من الصاعقة التى ظلت تهمهم زمناً طويلاً فوق
رأسيهما أثناء حياة الجنرال كراخوتكين • وكان يتفق للسيدة المحترمة
أن تنهوى على ديوان ، وأن تسقط منهارة متهاكمة مغشياً عليها ••
فبالحركة التى تقوم عندئذ فى المنزل ! •• كان الكولونيل اذا حدث شئ
من ذلك يتلاشى ويأخذ يرتعش ويرتجف كورقة فى مهب الريح •

حتى اذا استردت الجنرالة شعورها وثابت الى وعيها طفتت تصيح
مزبدة مرغية :

- أيها الابن الشقي الفاسد ، انك تحطمني تحطيمًا ، انك تمزق أحشائي تمزيقًا .. آه .. أحشائي .. أحشائي !

فكان الكولونيل يسألها خجلًا وجلا :

- ماذا فعلت حتى مزقت أحشاءك هذا التمزيق يا أماء ؟

فتجيب الأم بقولها :

- لقد مزق أحشائي تمزيقًا .. ثم هو يجرؤ ان يحاول تبرئته نفسه ! يا للوحشية ! يا للقسوة الرهيبة ! .. اننى أموت ! ..

حتى اذا طاش صواب الكولونيل تماما استردت الجنراله حبها للحياة بطبيعة الحال . فاذا التقى ابنها بعد نصف ساعة باحد ، امسكه من أحد ازرار سترته واخذ يشرح له :

- أنت تفهم يا عزيزى ! انها سيدة عظيمة .. انها جنراله .. ان لها قلبا من ذهب ، أمى الحبيبة هذه .. ولكن عاداتها ارفع والطف من أن تطيق احتمال انسان ثقيل الذهن أخرف السلوك مثلى ! لقد غضبت منى .. فلا شك أننى أسأت اذن اليها واذيت شعورها .. صحيح اننى لا أعرف بماذا أسأت اليها ولا بماذا آذيت شعورها .. ولكننى مخطيء ليس فى ذلك ريب ..

وفى مثل هذه الأحوال كانت مدموازيل بيريلستين ، وهى مخلوقة صعبة المراس شرسة الطبع ، تجاوزت الكهولة ، وتضع على رأسها شعرا مستعارا ، ولها عيانان نهمتان بغير حاجيين ، ولها شفتان أرق من خيط ، ولها يدان بيضاوان بياض الخيار ، أقول كانت مدموازيل بيريلستين ترى أن من واجبها فى مثل هذه الأحوال أن تزجى للكولونيل المواعظ وأن تسدى اليه بالنصائح . كانت تقول له مثلا :

– هذا كله ناشئ عن قلة لباقتك يا سيد • انك تبلغ من الأثرة أن ذلك يحق السيدة والدتك ويثير سخطها وحفيظتها • • انها لم تألف عادات كعادتك • • انك تنسى أنها جنرالة ، على حين أنك أنت كولونيل فحسب •

وكان الكولونيل يشرح لسامعه قائلاً :

– هي مدموازيل بيربلستين • • انها انسانية ممتازة • • لا تتردد عن اللقاء نفسها الى النار في سبيل أمي • • حقاً انها لآنسة محترمة فذة • اياك أن تظن أنها شخص « كيفما اتفق » ! ليس هذا بقليل • • ما قولك ؟

على أن هذا كله لم يكن الا ورودا • فان هذه الجنرالة التي كانت تعبث بابنها بهذه الوسائل الكثيرة الوافرة ، كانت ترتجف ارتجافاً وترتعد ارتعاداً أمام ذلك الشخص الذي كانت قبل ذلك حامية له ورعاية • لقد سحراها فوما فومتش سحرا كاملا • انها لا تنفس الا برئتيه ، ولا ترى الا بعينييه ، ولا تسمع الا باذنيه • ان واحدا من أقربائي القتيان ، وهو ضابط متقاعد من سلاح الفرسان أيضا ما يزال شابا ولكنه أُثقل بالديون الى حد لا يتخيله الخيال فاضطر لهذا السبب أن يلجأ الى السكنى عند عمي زمنا ، لم يخف عني ما وقع في ذهنه ورسخ في اعتقاده وثبت في اقتناعه من أن ثمة علاقات آئمة كانت قائمة بين الجنرالة وبين فوما فومتش •

وسرعان ما رفضت هذا الظن مستاءً أشد الاستياء ، وسرعان ما عدته ظنا سيئا فظا غليظا ، بل وساذجا أيضا • لا • • لقد كان هنالك شيء غير هذا تماما ، كما سيستطيع القارئ أن يدرك ذلك وأن يراه حين سأشرح له طبع فوما فومتش على نحو ما أتيح لي أن أفهمه بعد ذلك •

تخلوا انسانا هو بين الناس أتعفهم وأهونهم شأننا وأضيقيهم عقلا

وأسخفهم فكرا ، تخيلوا شخصا هو فى المجتمع من تلك النفايات الحقيرة
الوضيعة التى لا تصلح لشيء ولا تنفع فى شيء ، شخصا هو من تلك
النفوس الدنيئة التى لا تكفر أبه مزية من مزاياها ، وا أسفاه ، عن اعتدادها
بنفسها اعتدادا سريع الحق شديد التأذى ، وعن اعتزازها بفضائلها اعتزازا
هو الى المرض أقرب بل هو المرض نفسه • انتى أحرص على أن أبه
قرائى الى أن فوما فومتش هو الغرور المر متجسدا وهو الأثرة المفرطة
واضحة فويه ، وذلك كله من صفات أولئك الاشخاص • • التفاهين تفاهة
مطلقة • • الذين يفافم الاخفاى بعد الاخفاى غرورهم ، ويشحذ الذل بعد
الذل أثرتهم ، فاذا هم ينضحون سما زعافا من جميع مساهمهم متى شهدوا
أى نجاح يصيبه غيرهم ، ومتى رأوا أى نصر يحققه مخلوق على هذه
الارض • • ولا داعى الى ان اضيف ان هذا «متبئل» و « مبهر » لديهم
بسرعة خارقة الى الناذى ، وقدره عجيبة على الشك فى الناس وسوء الظن
فى الآخرين • • رب سائل يسألنى : من أين يمكن أن يأتى مثل هذا الزهو
وكيف يمكن أن ينمو مثل هذا الصلف لدى أناس يبلغون هذا المبلغ من
التفاهة ، وينزلون فى المجتمع نفسه منزلة وضیعة كان ينبغى أن تبصرهم
هى نفسها بحقيقه أمرهم وأن تقنعهم بانهم ليسوا شيئا ؟ • •

كيف الجواب على هذا السؤال ؟ ألا يمكن أن يكون بين هؤلاء
الأفراد استثناءات منهم بطلى الذى أتحدث عنه ؟ الحق أن الأمر كذلك
تماما ، كما سيرهن على هذا باقى القصة • • ومع ذلك اسمحوا لى أن
ألقى عليكم سؤالا : أأنتم واثقون من أن هؤلاء الناس الذين يظهرن
مذعنين مسلمين بما كتب لهم ، والذين يبدو لكم أنهم راضون سعداء بأن
يكونوا لكم مهرجين وأن يعيشوا عليكم عالة طفيليين ، وأن يقوموا أمامكم
بدور المتعلقين المتزلفين ، أأنتم واثقون أنهم قد تنازلوا عن كل غرور
وودعوا كل أثرة ؟ هلا فكرتم قليلا فى أنواع الحسد والغيرة ، وضروب

الأقاويل والنمائم ، وألوان الاشاعات المخنوقة التى تتسلل من أركان بيوتكم
ومن تحت موائدكم ؟

من ذا الذى يستطيع أن يؤكد أن الغرور والأثرة لدى بعض هؤلاء
التساء الحزانى الذين اتخذتموهم مهرجين يسرون عنكم ويضحكونكم ،
لا ينموان نموا كبيرا مفردا بسبب هذا الصغار نفسه الذى فرض عليهم ،
وبسبب هذا الخضوع نفسه الذى أكرهوا عليه ، وبسبب هذه الأنواع
نفسها من المجارة والمسيرة التى تنزل بهم الى درك الهوان ؟ من الذى
يستطيع أن يؤكد أن غرورهم العجيب هذا ليس ناشئا هو نفسه عن أن
كرامتهم قد أهانها وأفسدها فى الصميم ما قاسوه من بؤس وما غاصوا فيه
من وحل ، وما عانوه من اضطهاد ، وعن أن هذه الكرامة لعلها قد تخربت
وساءت منذ الطفولة من رؤية أهلهم الذين قاسوا هم أيضا ما قاسوه من
عذاب مصير قائم وقدر غاشم ؟

مهما يكن من أمر فإن فوما فومتش ، كما سبق أن ألمت الى ذلك ،
هو استثناء من القاعدة العامة • وانه لاستثناء حقا • لقد تألم فوما فومتش
من أنه لم يعترف به أديبا • • وواضح أن الادب حين لا يعترف به الناس
لأهله يمكن أن يهلك أشخاصا أمكر من فوما فومتش وأوسع منه حيلة •
لا أدري ! ولكننى أميل الى الظن أن فوما فومتش قد أصيب بخيبات
كثيرة • • ولو قد انصرف الى غير الأدب فلعله كان سيخطئ بأنواع من
النجاح والنصر أكثر مما نال من أنواع الاهانة والتحقير وما هو شر من ذلك
أيضا • ذلك منى ظن وتخمين لا أكثر • ومع هذا فإن التحريات التى قمت
بها قد أثبتت لى أن فوما فومتش ، أثناء اقامته بموسكو ، قد ألف حقا رواية
شبيهة بالروايات التى كانت تفرّخ دسات دسات فى «الثلاثينات» ، مثل
« انقاذ موسكو » ، « الضابط عاصفة » ، « أبناء الحب أو الروس سنة
١٩٠٤ » ، الى ما هنالك من انتاج من هذا القليل كان يشحذ أيامئذ قريحة

البارون براميثوس * • وقد حدث هذا منذ زمان بعيد • ولكن ألقى
 الغرور الأدبي تلذغ في بعض الأحيان لدغات تبلغ من العمق أنها لا شفاء
 لها ولا برء منها • ولا سيما لدى الحمقى الأغبياء • فلما تحطم فوما فومتش
 منذ خطوته الأولى لحق الى الأبد بذلك الجحفل من المدمرين الذين يخرج
 منهم هذا العدد الكبير من المختلئين والعاطلين والشاذين • واحسب ان هذا
 التبجح وهذا الادعاء وهذا الظمأ الى سماع المديح والثناء والاحترام، وهذه
 الحاجة الملحة الى التبجيل والتعظيم والتفرد • أحسب أن هذا كله انما
 يرجع عهده لدى فوما فومتش الى ذلك الأوان • فحتى أثناء ترديه الى
 دور المهرج عرف كيف يجمع حوله حلقة من البلهاء تعجب به • لقد
 كانت رسالته الحقيقية هي أن يحتل المكان الأول في مكان ما • أيا كان
 هذا المكان • وأن ينزل في المنزلة الأولى بطريقة من الطرق • أية كانت
 هذه الطريقة • فها هو ذا يصعر وجهه • ويمدح نفسه • ويشبأ بالمستقبل •
 الخ الخ • • • فاذا لم يتملقه أحد • تملق نفسه بنفسه • • • واذا لم ين
 عليه أحد أنتى على نفسه بنفسه • • • حتى لقد سمعته يقول ذات يوم •
 بينما كان معززا مكرما في ستيانتيكوفو • وبينما هو في منزل عمى سيد
 المنزل ونبيه • سمعته يقول في أبهة تفيض سرا : أنا لم أخلق لأمكث هنا !
 لا • • • لن أبقى هنا الى الأبد • • • فبعد أن أدبتكم وعلمتكم دينكم وهذبتكم
 على ما يجب أن يكون التأديب والتعليم والتهديب • سأودعكم • ثم أمضى
 الى موسكو أنشئ مجلة • فيشتهر اسمى أخيرا ويطيح صيتى • • • وويل
 عندئذ لأعدائى ! • •

ولكن هذه العبقرية التى تقدر المجد كانت تتطلب بانتظار ذلك
 مكافأة مباشرة • لا شيء أمتع فى القلب ولا أجمل وقما فى النفس من أن
 يكافأ المرء مقدما • ولا سيما فى مثل هذه الحالة • سمعته يروى لعمى ذات
 يوم فى جد هادى ووقار كامل الخزعة التالية • قال : انه • هو فوما •

انما خلق في هذا العالم لهدف واحد هو أن يحقق رسالة عظيمة ؛ وان ملاكا مجنحا كان يذكره بهذه الرسالة ويهيب به الى تحقيقها ، ليلة بعد ليلة ... وهذه الرسالة هي أن يؤلف كتابا في الاخلاق يصنع بروسيا ما قد يصنعه بها زلزال . وعندئذ ، بعد حدوث هذا الانقلاب في روسيا ، سوف يحتقر ، هو فوما ، كل مجد ... ويمضى يدفن نفسه في غياهب اقبية دير كيف الشهير ، ليصلى هنالك ليل نهار مبتهلا الى الرب ان يهب للوطن الرخاء والازدهار . وقد انطلت على عمى هذه الترهات ...

وأدع لكم أن تتصوروا الآن التغير الذي طرأ على فوما ، هذا الانسان الذي كان دائما محل الاستهزاء والاحتقار ، هذا الانسان الذي ظل الى ذلك الحين مهزوما مغلوبا وربما مضروبا ، أن تتصوروا التغير الذي طرأ على فوما الانانى الشهوانى المكبوت ، فوما الكاتب الردىء المجهول ، فوما المهرج الماجور ، فوما النفس الطاغية التي لم يردعها أى هوان أو صغار ، فوما المدعى المتبجح ، فوما الوقح - حين رأى نفسه على حين فجأة متوجا بالامجاد مدلا معظما من قبل سيدة حمقاء تحميه ومن قبل رجل طيب القلب سحر به فهو له حام وراع . ولقد كان هذا الحامى يقدم له مأوى مضمونا بعد جميع ما اضطر اليه من أنواع التنقل والترحل ! ... أحس بأننى مضطر هنا الى أن أصف لكم طبع عمى بمزيد من التفصيل ؛ والا لما أمكن أن يفهم أحد نجاح فوما فومتش فى ستياتشيكوفو . على أن فى الرجل ما يسوغ المثل القائل : « اذا دعى الخنزير الى العشاء وضع قدميه فى الطبق » . لقد كان فوما يريد أن يتدارك ما فاتة ! ان كل نفس حقيرة طال اضطهادها تحب أن تضطهد هي أيضا . ان فوما الذى تعذب يريد أن يعذب غيره ... ان فوما الذى فرض عليه النير يريد أن يفرض النير على غيره . لقد سخروا منه واستهزأوا به وتهكموا عليه ، فهو يريد أن يفعل هذا كله هو نفسه . لقد أكرهوه على أن يكون أضحوكة ، فهو يريد أن

يجعل غيره أضحوكة ... وهو ما ينفك يدعى ويتبجح ، وهو ما ينفك
يبدى نزوات ورغبات لا سبيل الى ارضائها واشباعها ، وهو ما ينفك يستبد
ويطغى فى كل لحظة من اللحظات ، والناس الذين لم يشهدوا ذلك كله
يابون ان يصدقوا ما يقال عن هذا السيل الجارف من أنواع
الشذوذ والخروج على المألوف ... أو لا يرون فى ذلك كله الا فحا ينصبه
« ابليس » ، لا يرون فيه الا أحبولة من أحابيل « الشيطان » فهم يرسمون
بأذرعهم اشارة الصليب ، ويبصقون جانبا حتى يتفادوا سوء الحظ ..

ولكن فلنعد الى عمى . فلا بد ان نعرف طبعه معرفة عميقة ، كما
سبق أن قلت ، حتى نفهم كيف استطاع فوما فومتش أن يستبد به هذا
الاستبداد ، وحتى نفهم كيف استطاع أن يستحيل هذا المهرج الى شخصية
كبيرة . ان عمى انسان طيب الى أبعد الحدود ، رفيق رقة لا نهاية لها ،
مرهف رهافة قصوى ، نبيل نبلا كاملا تاما ، شجاع شجاعة تصمد لأى
امتحان ، وان يكن ذلك كله مخبئا وراء قشرة خشنة بعض الخشونة .
واننى لألح على صفة « الشجاعة » فى عمى ؛ ان عمى انسان لا يمكن أن
يحول شىء بينه وبين القيام بواجب من الواجبات . وهو رغم أنه قد بلغ
الأربعين ما يزال ينعم بنضارة هى نضارة طفل . انه بطبيعته منفتح النفس ،
مبسوط الطبع ، مرح مرحا شديدا ، مستعد دائما لأن يضع الخير حيث
لا خير . . وأن يتصور الحسن حيث لا حسن . . انه يرى ملائكة فى
كل مكان ، ويتمهم نفسه بأخطاء غيره ، ويلصق بنفسه عيوب الآخرين ،
ويمتدح مزاياء جميع الناس ، ويشيد بسجاياهم وشمائلهم . . انه قلب من
تلك القلوب الكبيرة العفة التى يخلجها أن تفترض الشر فى أى انسان ،
فهى تزين البشر بجميع الفضائل ، وتفرح لما يحققون من نجاح ، وتهلل
لما يصيبون من تقدم ، وتعيش دائما فى عالم مثالى ، ولا تلوم أحدا غير

نفسها على ما تلقاه في هذه الحياة من ضروب الاخفاق .. وليس لها من رسالة الا أن تضحي بنفسها في سبيل الناس •

ومن أجل ذلك سوف يرى بعضهم في عمى انساني رخو الطبع ، قليل التبصر ، ضعيف الهمة ، واهن العزيمة • صحيح أن عمى كان مسالما الى درجة الضعف ، ولكن ذلك ليس ناشئا عن خور في الهمة أو وهن في العزيمة ، بل هو ناشئ عن خوفه من الاساءة الى شعور الناس وعن خشيته من الظهور بمظهر الحفوة والقسوة ، وعن احترامه البشر وجه الانسانية • ثم ان وهن العزيمة لا يظهر عنده الا حين يكون عليه أن يدافع عن مصالحه الخاصة التي ظل يضحي بها طول حياته مشرق القلب مبهج النفس ، رغم سخريات أولئك الذين يضحي في سبيلهم تضحية مبرأة من كل منفعة منزهة عن كل غرض خالصة لوجه التضحية ... والأمر الذي يبدو له غير محتمل هو أن يكون له أعداء ، ولقد كان له مع ذلك أعداء • وكان يخشى الضوضاء والصراخ أكثر مما يخشى النار، فهو لذلك يقبل كل شيء ويوافق على كل شيء تحاشيا للمشاجرات وتجنباً للمخاصمات • كانت طبيته الحية الخجول المرفهة تجعله خضوعا ، وتدفعه الى « ارضاء جميع الناس » ، كما كان يسرع الى الاعتراف بذلك قطعاً لدابر كل اتهام له بالضعف •

ولا حاجة الى الالحاح على هذه الحقيقة : وهي أنه اذا كان قادرا على أن يتأثر بكل مؤثر نبيل ، فلقد كان يمكن أن يصبح ضحية أي مآكر خبيث ، وأن يستدرجه هذا المآكر الخبيث الى قضية مؤسفة ، متى زيتها له بألوان عمل نبيل ... فما أكثر ما ندم على أنه محض أحد الناس ثقة لم تعرف الحدود ! ومع ذلك فانه كلما كان عليه أن يعترف بأن صاحبه كان امرا سيئا ، وكلما خُذع وغرّر به ، كان ينتهي من ذلك بعد صراعات أليمة الى أن يصب على نفسه ألوان الملامات • فتصوروا الآن

منزله الهادىء المسالم وقد استلمت زمامه على حين فجأة عجوز ذات نزوات،
عجوز ارتدت الى الطفولة ، وتعلقت بأذيال أبله آخر ، عجوز لم تخش
حتى ذلك الحين الا جنرالها ، واصبحت لا تخشى الآن أحدا ... وهذه
العجوز التى تريد أن تتأثر لماضيها ، كان عمى يحسب أن من واجبه أن
يعظمها ويبجلها ويقدسها تقديسا ، لأنها أمه . لقد زعموا للمسكين فى
أول الأمر أنه امرؤ فظ غليظ القلب ، ضعيف العاطفة ، سىء العادات ،
أنانى الطبع الى درجة تثير الحقن ... وكانت العجوز من الجنون بحيث
تصدق صحة هذه المآخذ ، ويمينا لقد كان فوما فومتش يصدقها أيضا ولو
بمقدار . ثم رسخوا فى ذهن عمى بعد ذلك ان الله نفسه هو الذى أرسل
اليه فوما ليلجم أهواءه وينقذ روحه : أفليس يعيل ، وهو الرجل المتكبر
المتباهى بثرائه ، الى أن يلوم فوما على أنه يعيله ويطعمه خبزا ؟ ولم يلبث
عمى المسكين أن أدرك فداحة خطاياها ، فهو يشد شعره ندما واسفا وحسرة
ولوعة ، وهو يتوسل الى فوما أن يغفر له وأن يعفو عنه ...

كان يقول لمن يريد أن يسمعه :

- هى خطيئتى ، هى خطيئتى الكبرى ! ان على المرء أن يضاعف
مداراته لمن يحسن اليهم .. لا .. لا .. ليست كلمة الاحسان هى
الكلمة اللاتقة هنا .. لقد ذل لسانى مرة أخرى وأساء .. اننى لا أحسن
الى فوما ، بل ان فوما هو الذى يحسن الى حين يرضى أن يعيش فى منزلى !
لكأننى أعيب عليه أنه يأكل من خبزى .. ولكن لا .. اننى لا أعيب عليه
هذا .. لقد أفلتت من لسانى كلمة نائية كما يقع لى ذلك أحيانا كثيرة ..
ثم .. ماذا تريدون ؟ هذا انسان تألم كثيرا ، وضحى بنفسه .. لقد ظل
عشر سنين يتحمل أسوأ أنواع الاذلال من صديقه المريض .. فهو
يستحق أن يكافأ على ذلك . وانه لبحر من العلم ... انه كاتب يا عزيزى
.. انه أنبل البشر ، أؤكد لك .

كان عمى اذا تصور العالم المسكين وقد انصب عليه الجنرال الكسيح
 المسعور بسخرياته اللاذعة ، يتفطر قلبه شفقة ، وتمتلىء نفسه ألما واستياء .
 وكان يعزو جميع ما يظهر فى سلوكه فوما فومتش من أنواع الغرائب
 وضروب الشذوذ وصنوف الحدة ، كان يعزو ذلك كله الى ألوان العذاب
 والمدبه التى قاساها . لقد قال عمى لنفسه منذ البداية ، يدفعه الى ذلك
 كرم نفسه وجود طبعه ، ان للشهيد على الناس من حقوق التسامح معه
 ما ليس للإنسان العادى ، وان على الناس أن لا يغفروا له فحسب ، بل ان
 عليهم ان يحاولوا مواساته ، ومصالحته مع الانسانية ، وتضميد جراحه
 باللطف والرفه والنعمه . حتى اذا فرض عمى على نفسه القيام بهذه
 المهمة ، النهب حماسة لها ، فاعتمه هذه الحماسة ، فأصبح لا يمكن أن
 يخطر بباله ان صاحبه الجديد ليس فى حقيقة أمره الا انسانا أنانيا ،
 شاذا ، كسلان ، شرها ، ثقيل الظل غبى العقل . كان عمى مؤمنا ايمانا
 أعمى بان فوما عالم وعبرى . نسيت ان اذكر لكم أن عمى كان يتحمس
 لكلمى «العلم» و «الادب» حماسة شديدة ساذجة مخلصه على قدر حرمانه
 من الاخذ باى نصيب من العلم فى يوم من الايام .

كان ذلك عيبا من عيوبه المميزة ، ولكنه عيب برىء على كل حال .
 كان يقول أحيانا وهو يمشى على رموس الأصابع فى غرفة تفصلها
 عن مكتب فوما فومتش غرفتان أخريان :
 - انه يؤلف كتابا . . .

ثم يضيف قائلا باعتزاز وبلهجة سريعة :
 - أنا لا أعرف ما هو الكتاب الذى يؤلفه يا عزيزى ، ولكن لا شك
 أنه سيكون من ذلك النوع نفسه . . . بالمعنى الحسن طبعا . هذه الأمور
 واضحة عندهم كماء الصخر ، أما عندنا نحن فليست الا كلاما غير مفهوم

•• على كل حال ، فان فوما يهتم فى هذا الكتاب بأشياء يسميها القوى
الخلاقة ••• هو قال لى ذلك ••• لا شك أنه يتدخل فى السياسة •••
نعم ••• وسيحدث اسمه دويا كبيرا •• وسيزيع صيتنا نحن جميعا بسببه ،
فتصبح لنا شهرة عظيمة •• لقد أكد لى ذلك مرارا ••

والامر الذى أعلمه علم اليقين أن عمى قد خلق لحتى عارضيه
الكستاويتين الجميلتين بأمر أصدره اليه فوما ، لأن هاتين اللحتين كانتا
تضفيان عليه مظهر رجل فرسى ، فعاب عليه فوما قلة وطنيته • وشيئا
فشيئا أخذ فوما يتدخل فى ادارة الأملاك • فكان يسدى بنصائح من شأنها
أن تقلق المرء حقا • ولم يلبث الفلاحون أن أدركوا من هو هذا السيد
حقا ، وماذا يجرى فى ستياتشيكوفو • لذلك أصبحوا يحكون قدالهم
متحيرين مرتبكين •• واعترف أننى فاجأت حديثا بين فوما وبينهم عن قصد
منى وعلى عمد •• ألم يكن قد صرح لنا بأنه يجد متعة كبيرة فى أن
يتحدث مع « الموجيك » العاقل الحكيم ؟ كان فى تلك المرة قد ذهب يلحق
بالفلاحين فى اليدر • فسمعتهم يحدثهم أول الأمر فى البذار والحصاد ،
هو الذى لا يفرق بين الحنطة والشعير •• ثم سمعته يتطرق الى نظرية
الكهرباء ونظرية توزيع العمل ، دون أن يكون هو نفسه عالما بالقباء هذه
الأمور طبعاً •• وبعد ذلك شرح لمستمعيه كيف أن الأرض تدور حول
الشمس ، وبلغ من شدة الفرح بفصاحته وبلاغته أنه أخذ يلعب الى
وزرائنا • ولا عجب فى ذلك • ألم يحدثنا بوشكين عن ذلك الأب الشاب
الذى كان ، فى سبيل أن يغرس فى نفس ابنه البالغ من العمر أربعة أعوام،
فكرة رفيعة سامية عن علو شأنه، يردد على مسامع الطفل بجميع اللهجات :
« أرأيت يا بنى ؟ ان أباك شخص نبيل فما من أحد الا وهو به معجب ،
حتى الامبراطور • • » • لقد كان الأب الشاب فى حاجة الى مستمع فى

الرابعة من عمره ، كما كان فوما فومتش فى حاجة الى فلاحين يصنعون الى كلامه طائعين أذلاء •

سأله عجوز قصير أشيب الشعر تقدم نحوه من بين الفلاحين على حين فجأة :

- قل لى يا مولانا : هل كان القيصر يدفع لك أجرا كبيرا ؟

ان السائل هو آرشيبي الذى كان يطلق عليه لقب « القصير » ؛ لقد ظن آرشيبي أنه بهذا السؤال يتملق فوما فومتش • ولكن فوما فومتش الذى يكره رفع الكلفة وجد فى هذا السؤال اسرافا فى رفع الكلفة ••• فما كان منه الا أن أجابه وهو ينظر اليه نظرة شزراء فيها كثير من الاحتقار :

- هذا أمر لا يعينك أيها النبى ! ••• أبعد رأسك قليلا اذا أردت أن لا أبصق عليه !••

بهذه اللهجة انما كان فوما فومتش يحب أن يتبسط فى الحديث مع « الموجيك الروسى العاقل الحكيم » ! ••

قال فلاح آخر مزاوذا :

- ما حيلتنا يا مولانا المحسن الينا المنعم علينا ؟ ••• نحن أناس لانفهم شيئا البتة • وليس فى وسعنا أن نعرف هل أنت ميجر أو كولونيل أو صاحب سعادة حتى نخاطبك بلقبك !

فأجابه فوما فومتش ، ولكن بلهجة ملطفة :

- الأجور أنواع يا مذهبول •• هناك أناس هم جنرالات ولا يتقاضون قرشا واحدا : ان القيصر ليس مضطرا أن يدفع شيئا لمن لا يعملون شيئا • أما أنا فشأنى شأن آخر : فحين كنت أعمل فى الوزارة كان راتبى عشرين

ألف روبل في السنة ، ولكنني لم أكن أقبض شيئا ، وانما كنت أخدم الدولة للشرف والمجد وحدهما ، لأن ثروتي الشخصية كانت تكفيني • وكل ما جنيته قد تبرعت به لوزارة التعليم العام ، ولصحابيا حريق قازان * .

هتف فلاح يقول مشدوها :

– أوه ! أوه ! أنت اذن من أعاد بناء قازان ؟

لقد كان فوما فومتش ينعم بموهبه اذهال أهل الريف • فأجاب يقول متمتعا بعض الامتعاض ، كانه يأسف على أنه تورط في الحديث مع شخص « كهذا الشخص » :

– نعم •• فعلت ما استطعت أن أفعل •

كذلك كانت تجرى الاحاديث بينه وبين الفلاحين •

أما مع عمي فكانت الأحاديث تجري مجرى آخر •

كان فوما يقول مثلا ، وهو جالس على مقعد مريح بعد وجبة دسمة :

– هيه •• قل لي •• ماذا كنت أنت قبل الآن ؟

ثم يكرر سؤاله قائلا بينما يكون أحد الخدم واقفا وراءه يدرأ عنه الذباب بغصن من أغصان شجر الزيتون :

– ماذا كنت تشبه ؟ اننى أنا الذى ألقيت في نفسك شرارة من النار

السماوية • ولا شك أنها الآن تشتعل • قل لي : أنا الذى ألقيت في نفسك شرارة من النار المقدسة أم لا ؟ أجبنى : أهذا صحيح أم غير صحيح ؟

والحق أن فوما فومتش لم يكن يعرف هو نفسه لماذا يلقي هذا

السؤال • ولكن الصمت الذى يلوذ به عمي ، والارتباك الذى يعتريه ، كانا يلهبان حق فوما على الفور • ان فوما الذى كان فى الماضى يقاسى

ما يقاسى ، ويزعن لما يذعن له ، ويتحمل ما يتحمل ، يستشيط الآن غيظا
لدى أيسر معارضة •• حتى لكأن صمت عمى اهانة له •• فلا بد له من
جواب مهما كلف الأمر •

— لماذا لا تجيب ؟ هلا قلت أخيرا ؟ ألسرارة تشتعل فيك الآن
أم لا ؟

فكان عمى يعض شفثيه مرتبكا أشد الارتباك ، مرتجا عليه الى أقصى
الحدود ، لا يجد ما يجب به على سؤال فوما •

— اسمح لى أن أنبهك الى أنني أنتظر جوابا •••
كذلك كان فوما يلح بلهجة مرة • فتدخل الجنراله فائله وهى ترفع
كتفها استغرابا :

— مالك لا تجيب يا ياجور !
فيعود فوما يكرر سؤاله بلهجة فيها شيء من التلطف :
— أنا أسالك هل الشرارة تشتعل فيك الان أم لا !

يقول فوما ذلك ويتناول قطعة حلوى من الطبق الذى وضع قريبا
منه بأمر الجنرالة •
وأخيرا تتساقط من فم عمى بضغ كلمات ، وهو ينظر الى فوما نظرة
يائسة :

— أنا لا أعرف شيئا •• ومن الجائز جدا أن يكون ما تقوله صحيحا
•• ولكن لا تسألنى ، فمن الممكن أن أقول حماقات ••

— عظيم ! فى رأيك اذن أنني أصغر شأنا وأثفه قيمة من أن تحمّل
نفسك عناء الاجابة على أسئلتى ••• طيب ! •• لنسلم بأن الأمر كذلك ••
لنفرض أنني رجل غبى ••

— ماذا دهالك يا فوما ! أنا لم أقل شيئا من هذا !

— بلى ! ذلك بعينه ما أردت أن تقوله ♦

— أحلف لك أنني لم أرد أن أقول ذلك !

— طيب ♦♦ لنفرض أنني كاذب ، لنفرض أنني أسعى الى مشاجرة

♦♦ ما قيمة اهانة ، زيادة أو نقصانا ؟ أنا مستعد لتحمل كل شيء ♦♦

فتقول الجبرالة مصعوقة :

— ولكن يا ابني ♦♦

فيهدف عمى فائلا بلهجة يائسة :

— ما هذا يا فوما ! ما هذا يا أمى ! أحلف لكما بأغلظ الأيمان أنني

ما فكرت في سوء ولا خطر ببالي شر ♦♦ لا شك أن لساني هو الذي زل

♦♦ لا تقم وزنا لما أقول يا فوما ♦♦ فأنت تعلم أنني بهيمة ، وأن في عقلى

نقصا ♦♦

ثم يتابع عمى قوله وهو يحرك يده بإشارة العجز :

— نعم نعم يا فوما ♦♦ أنا أعرف ذلك ، فلا تلج ♦♦ لقد ظللت خلال

أربعين عاما ، أى الى أن عرفتك ، ظللت أظن أنني رجل ♦♦ نعم ♦♦ رجل

لائق ♦♦ فلم أكن أدري أنني انسان خاطيء كريحه ، وأننى حيوان مقيت ،

وأننى أنانى لا يلجم أنانيته شيء ، وأن الارض ، وأنا ما أنا عليه من ثقل

هذا الشر كله وهذا السوء كله ، تجد مشقة كبيرة في حملى على ظهرها ♦

فيقول فوما فومتش مؤيدا كلام عمى ، راضيا عن نفسه مزهوا بها :

— أما أنك أنانى فنعم ♦♦

- نعم نعم .. أنا نفسى موقن بهذا الآن .. ولكن صبرا .. سأحاول
أن أصلح عيوبى ، فأصير الى حال أفضل ..

- سمع الله لك ..

كذلك كان يقول فوما فومتش وهو يزفر زفرة تقي ، وينهض عن
مقعده ليمضى الى قيلولته .. ذلك أن فوما فومتش كان ينام قليلا بعد كل
طعام .

وختما لهذا الفصل ، أستأذنكم فى أن أشرح لكم العلاقات التى
كانت قائمة بينى وبين عمى ، وأن أذكر السبب الذى جعلنى فجأة أمام
فوما فومتش ، ثم جرفنى فى اعصار أكبر الأحداث التى وقعت فى قرية
ستيانتشيكوفو الوداعة السعيدة . فمتى انتهيت من ختام مقدمتى هذه
شرعت أسرد قصتى .

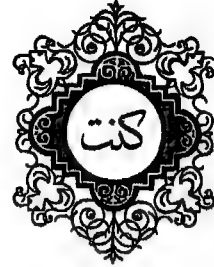
لقد كنت صغيرا جدا حين مات غنى أبواى ، فضمنى عمى اليه ،
وكان لى بمثابة أب بل أكثر ، لأنه صنع لى ما لا يصنعه الآباء لأبنائهم
دائما . وقد تعلقت به تعلقا قويا منذ اليوم الذى ضمنى فيه اليه . كنت
يومئذ فى العاشرة من عمرى ، ولكن ذلك لم يمنعنا من أن نتفاهم خير
تفاهم . كنا نلعب معا بالخردوف . ومعا اختلسنا فى ذات مرة قبعة امرأة
عجوز من قريباتنا ، هى سيدة سريعة الاحتياج شديدة الانفعال ، فسرعان
ما ربطت القبعة بذيل طائرة من الورق أطلقتها فى الفضاء . وبعد ذلك بسنين
عدة رأيت عمى من جديد فى بطرسبرج حيث كنت أتم دراستى بفضل
أعطياته . وقد فتحت له نفسى فى تلك المرة بكل حماسة الشباب ، وسحرنى
منه ، كما يمكن أن يسحر هذا كلَّ انسان ، ما كان يعمر قلبه من مزيج من
النبيل والرفعة ، والركة والنعومة ، والصراحة والوضوح ، والمرح والفرح ،
والسداجة والبراءة . فلما تخرجت من الجامعة لبثت فى العاصمة عاطلا

عن العمل ، معتقدا كما يعتقد كثير من الأغرار أنني مدعو فيها الى تحقيق أمور عظيمة ... فلم أكن أحب أن أبارحها . وكنت لا أكتب لعمى الا رسائل قليلة نادرة ، وذلك من أجل أن أطلب اليه ارسال المساعدات التي كان لا يضمن على بها فى يوم من الايام . وفى أثناء ذلك حضر أحد خدمه الى بطرسبرج لبعض الاعمال ، فاسمعتنى أن آمورا غريبه تقع فى ستيانتيكوفو ، فدهشت وتحيرت ، واصبحت اكتب الى عمى مزيدا من الرسائل . فكان عمى يجيب على رسائلى برسائل متحفظة لا تذكر شيئا مما ينهى ذكره ، ولا تتحدث (كأنما عن قصد وعدم) الا عن دراستى وعما يتوقعه لى من نجاح يعتز به منذ الآن . وفجأة ، بعد صمت طويل ، تلقيت منه رسالة خارقة لا صلة لها بما سبقها من رسائل ، فهى تبلغ من امتلائها باشارات غريبة وتلميحات عجيبة وتناقضات صارخة أنني لم أفهم منها فى أول الأمر شيئا . فلا شك أن الذى كتب هذه الرسالة كان يعانى حالة قصوى من الانفعال الشديد . ثم أمر واحد كان واضحا فى تلك الرسالة هو أن عمى يطلب منى ، بل يرجونى ، بل يتوسل الى أن أتزوج ، بأقصى سرعة ، فتاة كان عمى قد احتضنها ورباها ، وهى ابنة موظف بسيط جدا من موظفى الاريااف اسمه ياجفسكين ، ثم أصبحت الآن معلمة لاولاده بعد ان علمها على نفقته فى مدرسة داخلية ممتازة بموسكو . لقد كتب عمى يقول ان هناك ما يجعل الفتاة تشكو حظها العائر وفدورها الغاشم ، وانها ستكون مدينة لى بالسعادة اذا أنا تزوجتها ، وان هذا سيكون منى عملا نبيلًا وفعلًا كريما . وهو يهيب بسمو قلبى ورفعة نفسى ان ألبى رجاءه ، ويعد بأن يقدم للفتاة بائنة ؛ على أنه فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة لم يفصح افصاحا كافيا ، وختم رسالته بأن ناشدنى أن يبقى هذا الأمر كله سرا مكتوما لا يعلم به أحد . لقد جعلتنى هذه الرسالة فى حالة من الاضطراب كدت أفقد معها صوابى . أى شاب وصل الى خاتمة

المطاف من دراسته ، كما كنت أنا في تلك اللحظة ، يمكن أن لا يغريه عرض كهذا العرض ، أو أن لا يغريه الجانب الروائي منه في أقل تقدير ؟ ثم اننى كنت قد سمعت أن هذه المعلمة الصغيرة كانت فتاة آخاذه . ومع ذلك ما كان لى أن أعزم أمرى على أى شىء . فاقصرت على ان أبلغت عمى أننى واصل فريبا . وكان قد ضمن الرسالة نفقات الرحلة على كل حال . غير أن ترددى بل وخوفى قد احتلا مكانا كبيرا فتأخرت عن السفر ثلاثة أسابيع . وفجأة جعلتنى مصادفة من المصادفات ألتقى برفيق قديم من رفاق عمى فى الفرقة العسكرية التى كان يعمل فيها ، وهو رجل مسن قليلا ، عاقل جدا ، عازب قوى الشكيمة صلب العود . كان الرجل عائدا من رحلة بالقفقاس الى بطرسبرج ، فتوقف أثناء عودته فى ستيانتيشكوفوف . فحدثنى عن فوما فومتش مستاء ، وأطلعنى على ظرف كنت ما أزال أجهله جهلا تاما : لقد قرر فوما فومتش والجنرالة أن يزوجا عمى بعاس غريبه الأطوار ، تشبه أن تكون مجنونة ، عاشت حياة خارقة شاذة ، ولكنها تملك بائة قدرها خمسمائة ألف روبل تقريبا . وكانت الجنرالة قد استطاعت أن تقنع هذه الانسانه الغريبه بأنهما قريبتان ، واستطاعت أن تسكنها من الأسرة فى مكان القلب ، فأغلب الظن أن عمى سيتزوج نصف المليون . . . هذا الى أن الرأسين القويين فى المنزل وهما الجنرالة وفوما فومتش ، قد شنا حملة اضطهاد منظمة على المعلمة المسكينة العزلاء ، وهما يحاولان بجميع الوسائل والاساليب أن يحملها على النزوح عن المكان ، تفاديا لوقوع عمى فى حبها ، أو ربما لأنه يحبها . . فجأتنى هذه الفكرة الأخيرة وأذهلتنى الى أبعد الحدود . ولكننى رغم الحاحى على أن أعرف هل كان عمى يحب الفتاة حقا لم أستطع أن أنتزع من الرجل جوابا على هذه السؤال ، اما لأنه لا يعرف هذا الجواب ، واما لأنه لا يريد أن يعطيه . وكان يبدو عليه أنه يكره أن يفضى الى بهذه القضية كلها وأن

يمدني بمزيد من التفاصيل • وكانت هذه الأنباء تبلغ من التناقض مع ما تضمنته رساله عمى من عروض ان حيرتى قد ازدادت وان بلبتى قد تضاعت • ولم يبق ثمة دقيقة أضيعها سدى ، فأسرعت أسافر • لقد فررت أن أشد ازر عمى وان أقوى عزيمته ، وأن أنفذه اذا أمكن انقاذه ، أى أن أطرد فوما فومتش الذى دبر مؤامرة هذا الزواج الكريه بعانس مجنونة • ولاقتاعى أخيرا بكذب ما يزعمونه من أن عمى يجب المعلمة العائرة الحظ ، ولشعورى بأنها فتاة تستحق الاهتمام ، فررت أن أخطبها ، الح النح ••• وقد بلغت من اطلاق العنان لخيالى أننى سرعان ما قفزت من النقيض الى النقيض ، يساعدنى فى ذلك ما يعوزنى من خبرة وما أنا فيه من فراغ ، فاذا بحيرتى تزول زوالا تاما ، لتحل محلها الحماسة الشديدة والشوق المحرق الى القيام بأعمال نبيلة ، حتى رأيتنى فى صورة بطل عظيم يضجى بنفسه تضحية سامية فى سبيل اسعاد مخلوقة ملائكية جميلة رقيقة عذبة • والخلاصة أننى كنت طوال الرحلة راضيا عن شخصى المتواضع بل معجبا به مزهوا • كان ذلك فى شهر حزيران (يونيه) فى ابان شمس مضيئة جميلة ، بين حقول القمح الناضجة الممتدة على مدى البصر • وكنت قد بلغت من طول الانجاس فى بطرسبرج أن تصورتنى أرى الطبيعة الرائعة على حقيقتها لأول مرة •

السيد باخنتسايف



أقرب من خاتمة رحلتى • فلما صرت بمدينة «ب» الصغيرة التى لا تبعد عن سيبانتشيكوفو الا عشر فراسخ ، اضطرت أن أوقف عربتى عند حداد على مسافة خطوتين من السور لأعيد تطريق السوار الذى كان قد أفلت من احدى عجلى عربتى الأماميتين • ولم أكن فى حاجة ، من أجل الفراسخ العشرة الباقية ، الا الى اصلاح بسيط ، ففرت أن أقف عند الحداد أنتظر أن يفرغ من هذا الاصلاح • فما كدت أتب عن عربتى حتى لمحت سيدا سمينا واقفا هنالك لأسباب من هذا النوع • كان الرجل قد قضى فى الشمس ساعة بكاملها ، فهو حانق غاضب ، يصرخ ويشتم ، مستحشا العمال الذين كانوا منهمكين حول عربته الجميلة جدا • ان هذا السيد الساخط الهائج قد أشعرنى منذ النظرة الأولى بأنه انسان شرس • هو رجل مربع القامة ، شديد السمنة ، مجدور الوجه ، لعله فى الخامسة والاربعين من عمره • وكانت بدايته الشديدة ، وخداه المتهدلان ، وذقنه المزدوجة ، كان ذلك كله ينبئ بأنه يعيش الحياة الرخية العاطلة التى يعيشها سيد من الريف • والأمر الذى كان يخطف البصر خاصة فى منظره هو أن فيه شيئا من أنوثة لأدري ماهو ! وكان يبدو مرتاحا فى رداءه العريض الفضفاض المحتشم ، ولكن الرداء كان من الزى القديم •••

لست أدري كيف أمكنتي ، أنا الذي أراه أول مرة والذي لم
أخاطبه بكلمة ، لست أدري كيف أمكنتي أن استبتر غيظه • فأنى ما ان
وضعت قدمي على الأرض حتى القى على نظرات حائقة • ومع ذلك فأنى
حين أدركت من كلمات قالها لخدمه انه ات من ستيانتيكوفو ، تصورت
ان الفرصة موأيه لارضاء حب الاسنطلاع في نفسي بالتحدث معه •
فسرعان ما رفعت قبعتي محييا ، وجازفت بملاحظه لطيفه عن انزعاج المرء
من اضطراره الى التوقف اثناء الرحله • ولكن الرجل السمين الذي
كنت أتمنى أن أعقد صله به نظر الى نظرة شزراء من الرأس الى الحذائين
وتتمم بما لا أدري ، في احتقار حائق ، وكان كل جوابه انه ادار لي ظهره
بطيئا ثقيلًا • ان الجزء الذي يعرض لبصرى الان من شخصه يمكن أن
يكون ميدان معرفة خصبه ، ولكن لا يمكن التحدث معه ••• ومهما يكن
من أمر ، فإن الحركة التي بدرت من السيد السمين تدل على أنه لا يحرص
حرصا شديدا على أن يكون لطيفا في معاملتي •

صاح يخاطب خادمه فجأة ، كأنه لم يسمع ملاحظتي حول مكدرات
السفر :

- جريشكا ! أما كفالك عياطا ؟ هل تريد أن أؤدبك ؟

ان جريشكا هذا خادم عجوز أشيب الشعر ، يرتدى ردنجاتا
ضخما ، وله لحيتان طويلتان • وكان هو أيضا حائقا خنقا شديدا ، يدرك
المرء ذلك من هيماته وزمجراته ومن امارات أخرى • وسرعان ما أخذ
السيد والخادم يتراشقان الكلام •

قال جريشكا متمما بين أسنانه ، ولكن بصوت يمكن أن يسمعه جميع
الناس :

- تؤدبنى ؟ وددت لو أرى كيف تؤدبنى ؟ هل انتهيت من الصباح ؟

قال الخادم ذلك مقتظا ثم أشاح بوجهه واندس فى قرارة العربة •
أعول الرجل السمين وقد احمر وجهه استياء حتى صار بلون
الارجوان :

— هه ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا قلت ؟ أقلت اننى أستطيع الصباح ••• .
قال الخادم :

— انك لا تكف عن تصديع رؤوس الناس ••• وفوق ذلك لا تسمح
لأحد بأن يقول كلمة !
قال الرجل السمين :

— ها ••• يا سلام ! هل تسمونه ؟ حين يريد هذا السيد المحترم
أن يعيط ، فيكاد يحق لى أن أصمت ••• أليس كذلك ؟
— أنا لا أعيط •

— يا سلام ! أأنت لا تهملهم متذمرا ؟ هل تريد أن أقول لك انك
حانق مقتظا لأننى سافرت قبل الغداء ؟
— لا يهمنى الغداء ! فى وسعك أن تستغنى عن الطعام اذا شئت •
وأنا لا أتذمر منك ••• وانما أتذمر من صناع العربات ؟

— من صنّاع العربات ؟ أين تراهم عضّوك ؟
— لم يعضونى فى مكان ••• وانما السبب عربتك •••
— عربتى ؟ ماذا صنعت لك وفيم أساءت اليك ؟
— ما كان بها حاجة الى أن تتعطل وقد كانت تسير سيرا حسنا •
ما كان ينبغى لها أن تفعل هذا ••• ليس هذا بضربة تُضرب ! ••
— دعك من العربة ، وكلمنى أنا •• انك مهما تكن مخطئا لا يمكن
أن تسرف بخطئك •••

- قل لى يا سيدى : هلا تركنتى وشأنى أخيرا .. من فضلك ! ..

- لن أدعك وشأنك قبل أن تقول لى لماذا لم تنطق بكلمه واحده طول الطريق ، ولماذا تعند هذا العناد ؟

- دخلت ذبابة فى حلقى .. ثم اننى لست من يجب أن يقص لك قصصا .. ذلك من شأن ميلانى .. فما دمت ترغب فى ذلك الى هذه الدرجة فلماذا لم تصطحبها هى بدلا من اصطحابى أنا ؟

فتح السيد السمين فمه ليجيب ، ولكنه قرر أن يصمت لأنه لم يجد اعتراضا صالحا . فسر الخادم سرورا عظيما بمره حجته ، ولا سيما بأنه أفجم مولاه فلم يستطع مولاه جوابا ، وذلك أمام شهود ... ثم سارع الخادم يصطنع الانشغال ، ويلتفت نحو العمال يصدر اليهم أوامره بلهجة فخمة .

ما كان لجميع المساعى التى قمت بها أن تثمر ، ولا سيما بعد خراقتى ، لولا أن ظرفا لم يكن فى الحساب قد خف الى مساعدتى . ان رأسا وسانان أشعث متسخا قد ظهر فجأة من باب عربة مغلقة كانت قابضة هنالك محرومة من عجالاتها ، تنتظر اصلاحها منذ زمن سحيق . فما ان ظهر هذا الوجه حتى أثار لدى العمال قهقهة عامة شاملة . ان هذا الرأس هو رأس شخص كان قد وجد تلك العربة مكانا مناسباً لأن ينام بعد سكرة ثقيلة ، فنام فيها ، فأغلقوا عليه الباب أثناء نومه . حتى اذا استيقظ حاول أن يخرج من سجنه عدة مرات ، فلم يفلح فأخذ يستعبد متوسلا الى العمال أن يأتوه بـ « أداته » .. فكان هذا كله مثار تسلية وطرب وتهليل فى المكان .

لا أدري لماذا يجد بعض الناس لذة خاصة فى مشاهدة المناظر الأليمة فاذا رأوا سكريا يتصر وجهه ، أو شخصا ذاهلا تزل قدمه فيسقط على

الأرض ، أو متشائمين يتراشقان السباب المقذع ، أو أى مشهد من هذا القليل ، أغرقهم ذلك فى ضحك لذيد وطرب واضح وتهليل صريح • ولا شك أن السيد الريفى السمين كان من هذا النوع من الناس • فما ان رأى وجه السكران حتى أخذت أسارير وجهه العابس تتبسط شيئا فشيئا، ثم اذا هو يصبح فرحا كل الفرح طربا كل الطرب •

قال فى تماطف وشفقة :

- ولكن هذا فاسيليف ، فماذا هو صانع داخل العربية ؟

فأجابته أصوات تصيح من كل حذب وصوب :

- نعم يا ستيان ألكسيفتش ... انه فاسيليف •

وقال عامل طويل القامة نحيل الجسم متقدم فى السن يبدو عليه أنه

رئيس العمال ، قال شارحا :

- لقد أولم وقصف ...

ثم اصطنع رئيس العمال هيئة القسوة المتعالية ، وردد يقول :

- نعم ، لقد أولم وقصف ! منذ ثلاثة أيام لم يره رب العمل الذى

يعمل عنده ... جاء الينا وسقط على أذرعنا • يستحيل التخلص من هذا

الحيوان • ها هو ذا يطلب مطرقته ... أمر غريب ... ما عساك تصنع

بها يا غبى ... أتراك تريد أن ترهن آخر ما بقى لك من أدوات العمل ؟

- ماذا تريد يا أرشيب ! ... لهذا انما وجد المال ... لقد وجد

المال ليجرى ... شأنه شأن الحمام ... يذهب ... يجىء ... يطير ...

دعنى أخرج ناشدتك الله !

كذلك قال فاسيليف متوسلا بصوت واهن ضعيف وهو يقدم رأسه

من باب العربية مرة أخرى •

فأجابه أرشيب يقول بلهجة خشنة :

- بل ابق في القفص *** لقد ظللت ترفع كوعك بما فيه الكفاية منذ أول امس ، وفي هذا الصباح لم تكن قد طلعت الشمس حين لمناك من الارض . ان عليك أن تهب لنا شمعاً شامخة لأننا دسناك هناك . قلنا لرب العمل : « حال الفتى حسنة يا مانفى ايلتش *** عنده مغص فى رأسه . »

وانطلقت الفقهات تجلجل مزيدا من الجلجله .

- ولكن أين وضعت مطرقتى ؟

- أنت مطرقة يا سكير . انه لا يخطر بباله شيء غير أن يشرب .
هو كما ترى يا ستيان ألكسيقتش ♦

قال السيد السمين وهو يضحك ضحكا شديدا :

- آه . آه . آه . آه منك يا وغد ! آه . هكذا اذن . تريد أن تمضى تعمل فى المدينة لتعلق أدواتك بالمسمار . هكذا أنت .
ثم أضاف يقول ملتفتا الى . وقد عاد اليه المرح والبشر :

- ليتك تعرف أيها السيد مدى حذق هذا النجار ! . لن تجد له مثيلا فى موسكو كلها ! ولكنه لا يعمل شيئا غير أن يسكر ، هذا الوغد . لا يمكن الاعتماد عليه فى أمر من الأمور . افتح له يا أرشيب ، فلعله فى حاجة الى شيء ! .

ورضوخاً لأمر السيد السمين نزعوا المسمار الذى كانوا قد سمروا به باب العربة من أجل أن يستمتعوا بانصعاق فاسيليف حين يستيقظ . وهذا هو المدعو فاسيليف يحملق ناظرا الى الحشد بعينين لم يلبث نور الشمس أن جعلهما تطرفان . هذا هو يحملق ملطخا بالوحل ، ممزق الأسمال ، باعنا على الاشمئزاز . وهذا هو يعطس وما يزال يترنح ،

ثم يضع يده فوق عينيه ليحجب عنهما نور الشمس ، ويأخذ يتفرس فيمن حوله •

قال فاسيليف وهو يرجع رأسه فى رفق :

- ما أكثركم ! ما أكثركم !

ثم أضاف باللهجة الحزينة التى يتكلم بها من يشعر بالخجل والعار :

- صباح الخير يا رفاق •

وها هم أولاء الرفاق ينطلقون ضاحكين مقهقهين من جديد •

- أقول صباح الخير ؟ يجب أن تقول مساء الخير يا أحمق ! ••

- أنت تهرف يا فتى •• ولكن تكلم •• ما دام قد جاء دورك فى

الكلام •••

صاح السيد السمين وهو ينظر الىّ فى هذه المرة نظرة لطيفة جدا :

- ها •• ها •• ها •• أنظر الى هذا المتكلم البارع ! •• ألا تستحى يا فاسيليف ؟

أجاب فاسيليف فى وقار وجد ، سعيدا بأن يتاح له أن يفتح قلبه وأن يعبر عن نفسه مرة أخرى :

- هذا من الحزن ياستيان ألكسيفتش •• نعم •• من الحزن ••

- أى حزن يا كذاب ، يا مهرج ؟

- هو حزن لا يمكن تخيله : لقد أصبحنا جميعا رجال فوما فومتش •

صاح السيد السمين منتفضا :

- جميعا ؟ من جميعا ؟

وتقدمت أنا أيضا خطوة الى أمام • لقد جرت القضية مجرى لم يكن
في الحسبان : انها تمسنى رأسا •

- نحن جميعا •• أهل كاييتونوفكا • ان سيدنا الكولونيل - بارك
الله فيه - يريد أن يقدم كاييتونوفكا ، ملك الأسرة ، هدية الى فومافومتش
•• سبعون نفسا يا سيدى ••• قال له : « أنت يا عزيزى لا تملك لحسانك
الا ارضا هزيلا : سمكتين صغيرتين يضاوين تقصفا ان فى أعماق بحيرة
لادوجا ••• » ذلك أن الرجل المحترم (كذلك تابع يقول فاسيليف وقد
استبد به حنق ساخر) قد كان سيدا من الطراز الأول لا مثيل له •• كان
اذا أريد أن يدرج ، يهبط من أعلى السلم رأسا لا يلقى على شيء •••
ذلك أنه كان مثلك يا عزيزى دمية من الدمى يحركها صاحبها كما يشاء ،
ولا يجنى من الرزق الا ما يكفى للموت جوعا •• قال له صاحبه : " أما
الآن يا صديقى فسوف يتغير كل شيء •• سأجعل منك سيدا له رجاله ••
فتعيش عيشة كريمة دون أن تحرك أصبعك •• »

غير أن ستيان ألكسييفتش كان قد انقطع عن الاصفاء الى فاسيليف •
ان هذه الأقوال التى يقولها السكير قد بثت الاضطراب فى نفسه ، فأخذت
جوزة عنقه ترتعش فى رقبتة واحتقنت عيناه الصغيرتان بالدم ، حتى أن
المرء يحس أنه يوشك أن يصاب بنوبة قلبية •

قال أخيرا وهو يحنق من اللهاث :

- لم يكن ينقصنا الا هذا •• وغد حقير كهذا الوغد الحقير ••
فوما المستعصى يصبح مالك كاييتونوفكا •• هه ! •• الأخرى أن يأخذكم
جميعا شيطان ! •• وأنتم هنالك ! هسل اتتهتم ؟ هلا أسرعتم فأنصرف
أخيرا !

قلت له وأنا أتقدم منه خطوة مترددة :

- من فضلك ... لقد تكلمت منذ لحظة عن فوما فومتش أوبسكين، اذا لم يخطيء ظني .. وأنا أتمنى لو .. ذلك أن هناك أسبابا خاصة جدا تدفعني الى الاهتمام بأمر هذه الشخصية .. وأحرص حرصا شديدا على أن أعرف مدى صحة الأقوال التي قالها هذا الرجل السكران الطيب حين زعم أن سيده ياجور ايلتش روستانف ينوى ان يهدى أحد أملاكه الى فوما فومتش هذا * ذلك أمر يمسنى من قريب جدا .. وأنا ..

لم يدع لى الرجل السمين أن أتم كلامى ، بل قاطعنى قائلا :

- هلا سمحت لى أن أسألك بدورى عما يجعلك تهتم هذا الاهتمام كله بهذه « الشخصية » ، كما تقول أنت ، أو بهذا السافل الدنيء كما يحسن أن نقول .. أهذا الرجل القذر ، أهذا الرجل السافل يسمى « شخصية » ؟ ليس هذا الرجل بأسان ... انه قاذورة ..

فشرحت له عندئذ أننى أجهل كل شيء عن فوما فومتش فلا أستطيع أن أقطع فيه برأى ، أو أن أصدر فى حقه حكما .. غير أن ياجور ايلتش روستانف هو فى مقابل ذلك عمى ، وان اسمى سرجى ألكسندروفتش ن ...

صاح السيد السمين يقول مهللا مبتهجا :

- ها .. أأنت العالم ؟ اذن ففى وسعك أن تقدّر أنك واقع هناك شر وقة .. أنا قادم كما ترى من ستياتشيكوفو ، ويجب أن أعترف لك باننى تركت مائدتهم قبل تناول الطبق الاخير .. لقد آثرت أن أستغنى عن الحلوى .. لم أطق مزيدا من الصبر على هذا الفوما فومتش ! فما قد ساءت علاقتى بالمنزل كله بسبب هذا الحيوان اللعين ... ولكن يا لها من مصادفة ! يا لهذا اللقاء من مصادفة ! معذرة يا صديقى الشاب .. هأنذا

أعرفك بنفسى : ستيان ألكسيفتش باختشايف .. لقد عرفتك حين لم يكن طولك يزيد على طول جزمى .. لذلك اسمح لى أن ..

قال السيد السمين ذلك وارتمى يعانقنى *

وبعد بضعة دقائق قضيناها فى تبادل العاطفة على هذا النحو ، استأنفت اللقاء أسلتى مسرعا ، فانتى لم أشأ أن أدع هذه الفرصة التى لم تكن فى الحسبان تفلت منى * قلت له :

– ولكن من هو فوما هذا ؟ ماذا عمل حتى استطاع أن يحكم المنزل كله ؟ لماذا لا يطردونه من المنزل ركلا بالأرجل على قفاه ؟ .. ان فى الامكان على الأقل ..

فقاطعنى الرجل قائلاً :

– لماذا لا يطردونه من المنزل ركلا بالأرجل على قفاه ؟ انك تقول قول مجانيين أيها الفتى ! ان ياجور ايلتش نفسه ليسير أمام فوما فومتش على رموس الأصابع ! هل تتصور أن هذا الزنديق قد قرر فى ذات مرة أن يكون يوم الخميس يوم أربعاء ؟ ثم كان له ما أراد .. فاذا ببلدة ستياتشيكوفو تعيش أسبوعا بأربعاءين .. أتظن أنتى أبالغ ؟ أبدا ... تلك مغامرة على طريقة الكابتن كوك !

– سبق أن سمعت كلاما عن هذا الامر ، ولكننى أعترف بأن ...

– أعترف .. أعترف .. لكأنك لا تحسن أن تقول كلمة غير هذه الكلمة . ما فائدة الكلام على هذا النحو ؟ الأخرى أن تسألنى من أى مغارة فى فراة الغابة هربت ؟ ان أم الكولونيل امرأة مجنونة تستحق من فرط جنونها أن تكبل بالأغلال ، وان تكن جنرالة * انها هى سبب كل شىء .

انها هي التي تولدت بهذا الفوما اللعين ، وزرعت في المنزل .. لقد بلغ هذا الجرو من شدة التسلط عليها أنها أصبحت لا تستطيع أن تنبس بكلمة .. آه .. أكان لا بد من الزواج مرة أخرى في الخمسين من العمر برجل اسمه كراخوتكين للحصول على لقب صاحبة السعادة !!
 أما أخت يا جور ايلتش ، هذه الطيبة براسكوفى ايلنتشينا ، فالأفضل أن نسكت عنها .. انها عذراء شهيدة في الربيع الأربعين من عمرها لا تصلح لشيء الا أن تقول آه وأواه .. وأن تنفق كدجاجة ! لشدما تستطيع براسكوفى أن تثيرنى وتحقنى وتغيظنى .. صحيح أنها من الجنس اللطيف ، ولكن هل يجب احترامها لهذا وحده ؟ ولكننى أسرف في المضي بعيدا .. فمعذرة بل ألف معذرة .. ان هذه الآسة هي عمك .. فدعنا منها ، ولنتكلم عن ساشا ابنة الكولونيل . انها لم تتعد الخامسة عشرة من عمرها ، هذه الصبية الصغيرة ، ومع ذلك أؤكد لك أن في اصبعها الصغيرة من الذكاء أكثر مما في المنزل كله . لا شيء أمتع ولا أشفى للقليل من رؤية هذه الطفلة العزيزة في طريقة معاملتها فوما . تستطيع أن تقول انها لا تهضمه . وفيه تهضمه ! فيه تهضم هذا الانسان الذي كان مهرجا للمرحوم كراخوتكين ، هذا الانسان الحقير الذي كان يسلى صاحب السعادة الجنرال بتصغير وجهه وتشويه هيئته ، ويقلد الحيوانات تسرية عنه واضحا كما له . ألا انه ليصدق عليه قول القائل :

توماس كان يغسل الأطباقا

واليوم صار يحكم الحماقا

ان عمك الطيب يكن لهذا الحقير المغرور احتراما كاحترام الابن

أباه . انه يقدسه تقديسا .. يا للحماقة !

- واضح ... ولكن الفقر ليس عيبا .. و .. أعترف لك أن ..

اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال : هل فوما هذا رجل وسيم الطلعة
جميل ؟ أهو على جانب عظيم من الذكاء ؟

– وسيم الطلعة جميل ؟ فوما ؟ هو الجمال نفسه ! ••

كذلك قال باختشاييف بصوت جملة الغضب مرتجفا مختلجا •

لا شك أن أسلتى قد أزعجته ، فهاهو ذا يعود ينظر الى نظرة
شزراء • وتابع يقول :

– جميل جمال اله ! •••• هل تسمعون هذا يا ناس ؟ ان هذا السيد
يعد فوما رجلا جميلا ! ألا انه لدميم دمامة قملة أيها الشاب ، ما دمت تريد
أن تعرف كل شيء •• انه دميم دمامة الخطايا السبع الكبرى •• وباليته
كان على جانب قليل من الذكاء •• يا ليت له من الذكاء قطرة أو قطرتين
•• اذن لفهمنا •• ولكنه لا يملك من الذكاء شيئا البتة •• لا أثر للذكاء
عنده •• صفر •• لا بد أنه سقاها شيئا • آه •• كفانى كفانى •• دعنى
وشأنى •• مالى ولهذا المشعبذ ! ان هذا كله ليشير فى نفسى الاشمتزاز ••
هيه ! أنتم هناك ! هل انتهيت ؟

قال جريجورى متذمرا :

– بقى أن ييطر الحصان الأدهم •

– الأدهم ؟ الآن ؟ سحقا لك •

قال الرجل السمين ذلك ثم أردف يخاطبني :

– نعم يا سيد ، فى وسعى أن أقص لك عن هذه الأشياء الى يوم
الساعة ، وأنا كفيل بأنك ستسمع كلامى فاغر الفم من الدهشة • تصور
أننى أنا نفسى قد قدرته واحترمته • هل تصدق هذا ؟ نعم ، لقد قدرته
واحترمته •• أعترف بذلك الآن وأنا أشعر بالخجل والخزى والعار ••

لقد خدعت كما خُدع الآخرون • ماذا تريد ؟ انه يعرف كل شيء على
 أطراف أصابعه • • أو ذلك ما يدعيه على الأقل • • حتى لقد رضيت أن
 أتجرع دواء وصفه لي • يجب أن أعترف لك بأنني مريض ، فان في
 جسمي شحما كثيرا • صدق أو لا تصدق : هذا ما وقع • وقد أوشك
 الدواء أن يقضى عليّ • لا • اسكت • دعني أتكلم • ما دمت ذاهبا الى هناك
 فسوف يتاح لك أن تفتح عينيك وأذنيك • أضمن لك ذلك ! أما صاحبنا
 الكولونيل ، فانه سيدرف دموعاً من دم ، ولكن حين يكون الأوان قد فات
 • • لقد استطاع هذا الفوما أن يفسد علاقات الكولونيل بجميع جيرانه ،
 وهم جيران أعلى منه مكانة وأعظم ثراء • • ثق بذلك • انه يجب اظهار
 مكروه أمام أي حفل من الناس ! نعم نعم • • ان هذا السيد العالم متهىء
 دائما للتقصد والتجريح ، واللوم والتقريع • ان الشيء الأثير عنده هو
 أن يعظ الناس بالاخلاق • « أنا أعلم منكم بالأمر أيها الجهولة السفهاء ،
 واذن في عليكم الغلبة » ، كأن الناس الذين تعلموا انما خلقوا في سبيل
 أن لا يدعوا راحة لأولئك الذين لم يكونوا يوما في المدرسة ؟ متى تحرك
 لسانه ، حسبت أن طاحونة تدور • • لكنها كبة خيطان لا تنتهي • • ان
 له لسانا لا يكف عن الكلام ، فلو قطعت هذا اللسان ورميته في المزبلة ،
 لظل يتحرك ويتحرك الى أن يتلقفه غراب من الغربان عابر • • ولا تسل
 بعد هذا عن مدى عنجهيته وعجرفته • • يا للحيوان ! انه لأشبهه بفأرة
 امتلأ بطنها جبنا ومضت تندس في جمحور لا يستطيع كرشها فيها أن يتبع
 رأسها • اليك آخر « تقليعاته » : لقد قرر أن يعلم اللغة الفرنسية للخدم •
 انك لا تستطيع أن تصدق كلامي • هو يدعي أن هذا يفيدهم ! فهل رأيت
 الى هذه القطاعة ، هل رأيت الى هذه الوقاحة ! فيم يمكن أن تنفع اللغة
 الفرنسية رجلا بائسا تيمسا • • • • • هلا قلت لي فيم يمكن أن تنفع اللغة
 الفرنسية مثل هؤلاء الناس ؟ انها لا تنفعهم في شيء ، أليس كذلك ؟ وفي

تنفعنا نحن أيضا ؟ فى استغلال رقصة المازوركا لمخادعة الفتيات أو اغراء السيدات المتزوجات ؟ ذلك كله فحش ، ذلك كله فجور لا أكثر ...
فى رأى أنه يكفى المرء أن يشرب ابريقا من الفودكا حتى يتكلم جميع لغات أهل الأرض .. ذلك رأى أيها الشاب فى لغتك الفرنسية العريضة !
اذ لا شك انك أنت أيضا ممن يحبون أن يرطنوا بها ... فأنت رجل عالم ، رجل على جانب عظيم من العلم ، هه ؟

بهذا ختم باختسايف كلامه وهو يرشقى بنظرة شزراء يمتزج فيها الاحتقار باستياء وامتعاذ .

— والله .. الحقيقة أن ..

— نعم ، نعم .. مفهوم .. أنت بشر علم .

— أوه .. لا .. ليس هذا تماما .. اعترف لك أن ما يعينى فى هذه الآونة هو دراسة العادات والأخلاق خاصة . ولقد مكثت طويلا فى بطرسبرج ، وأنا الآن حريص على أن أصل الى منزل عمى بسرعة .

— ما عساك فاعلا هناك ؟ الأفضل أن تبقى حيث أنت .. صدقتى ..
هل كان يعوزك هناك شىء ؟ لا .. لا .. يا صديقى ، لن يعصمك علمك ولا عمك من الوقوع فى الفخ .. لقد فقدت أنا ، على ما ترانى الآن ، بضعة أرتال من وزنى خلال أربع وعشرين ساعة فقط . ولكننى ألاحظ أنك لا تصدقتى . لك ما تشاء . اذهب الى هناك ، كان الله معك .

— بل أنا أصدقك ، أصدقك ولكننى لم أستطع حتى الآن أن أفهم ...

كذلك قلت وقد ازداد اندهاشى .

فأجبنى يكرر كلمتى :

- أصدفك ! أصدقك ! ولكنني أنا لا أصدفك أيها الفتى • انكم ، معشر العلماء ، لستم الا أناسا مذبحيين لا تستقرون على رأى ، لستم الا أناسا هازلين لا تعرفون الجد ، لستم الا أناسا من هذا القيل • • اتم لا تصلحون لغير تبديل ارائكم حتى ينظر اليكم ! • • يا صديقى ، اننى لا أهضم أمثالكم • • لقد عرفت من أضرابك غير واحد ، عرفت غير واحد من « أذكاء » بطرسبرج هؤلاء • • انهم جميعا تافهون • • انهم يدعون جميعا الى الجحود ، وتزيغ اعينهم كأوانس سقين فدحا من خمر • • انهم يثيرون فى نفسى الاشـمـتـزاز • • ولكن كفى ! حسبى ما قلته الى الآن ! يا سيدى العالم لقد أخرجتني عن طورى • • ولم تبق بى رغبة فى أن أقول لك شيئا آخر • • ثم اننى غير مضطر الى أن أسليك بقصص أسردها لك ! ثم اننى متعب أيضا • • وكفانى ما قلته الى الآن من سوء فى حق الناس • • تلك خطيئة قاتلة ، ذلك اثم كبير • • ومع ذلك فاننى أضيف ما يلى : هل تعرف ماذا فعل العالم هنالك؟ هل تذكر خادم عمك، المسمى فيدوبلياسوف؟ لقد انقلب الآن الى معتوه ! صار ثلاثة أرباع مجنون هذا الفيدوبلياسوف ، بسبب فوما فومتش !

صاح جريجورى الذى كان قد أصفى الى الحديث حتى ذلك الحين باحترام :

- لو كان الأمر لى جلدت هذا الفيدوبلياسوف بالسياط ، فلعل ذلك أن ينظف دماغه • ان مائة جلدة أو مائتين يمكن أن تصلح من أمره • قال له مولاة آمرا :

- اسكت • دع لسانك ساخنا • ما من أحد سألك شيئا ! قلت دون أن أعرف كثيرا لماذا أقول ذلك من فرط انصعاقى : - فيدوبلياسوف* ؟ ألا ترى أن هذا اسم عجيب ؟

- عجيب ؟ لماذا ؟ اذن فأنت أيضا تتدخل فى أمر اسمه فتراه عجيبا ؟
يا لهؤلاء العلماء ! يا لهؤلاء العلماء !

وعيل فى هذه المرة صبرى فقلت محتجا :

- وددت لو أعرف أخيرا ما الذى يثير حفيظتك على ؟ ماذا صنعت لك ؟ اننى أصغى اليك منذ نصف ساعة دون أن أعرف ما هو الأمر على وجه الدقة !

قال الرجل السمين :

- ماذا ؟ أنت زعلت ؟ لا داعى الى الزعل مع ذلك ! كل ما قلته
انما قلته من باب الصداقة المحضة • لا يكفى أن تكون لهجتى عالية حتى
يظن أننى أريد أن ألثم العالم • لقد أخرست هذا السخيف التافه
جريجورى ، ولكن ذلك لا ينعنى من أن أحبه ، هذا الوغد ، أن أحبه من
كل قلبى ، لا لشيء الا لأنه وغد • ان العاطفة هى التى تضيعنى أنا ، أقول
ذلك بكل صراحة • ثم ان هذا الفوما القذر هو علة كل شيء ! سوف
يقتلنى قتلا ، هذا اللص ، سوف يقتلنى قتلا • هاأنذا 'أشوى فى الشمس
منذ ساعتين بفضل هو • كان فى وسعى أن أذهب الى الكاهن بينما
يقوم هؤلاء البلهاء بأصلاح عربتى • ان الكاهن هنا رجل طيب شهم •
ولكن ذلك الفوما الحقير قد جعلنى فى حالة نفسية لا أستطع معها أن أعزم
أمرى ! على كل حال ، لا ضير • • ليس يوجد هنا حتى فندق مناسب
لائق • • والناس من أولهم الى آخرهم لؤماء وما أشبه • • ذلك شيء
مؤكد • آه • • • • • ويا ليت له رتبة ذات شأن أو خطر (كذلك أضاف
باختسايف يقول عائدا الى موضوعه ، أى الى فوما فومتش الذى كان
واضحا أنه حائق عليه أشد الحق ، مفتاظ منه أشد الغيظ) ، فان الرتبة
العالية تجعل المرء يفض النظر عن أمور كثيرة • ولكننى سألت عنه ، فعرفت

انه لم ينل فى يوم من الايام وساماً ولا جزءاً من وسام ... أنا من ذلك على يقين . وهو يدعى أنه قاسى كثيراً فى سبيل « الفكرة » ، حتى ليجب ان يعبد الناس ركعاً . متى تم ذلك ؟ لعله تم فى يوم القديس جلان جلان ! .. هه ! .. ولكن اذا صدقنا هذا السيد ، فان الملك ليس ابن عمه ! وما ان تعارضه فى أمر حتى يأخذ يصرخ صراخ الطربان قائلاً انه يهان ، وانه شعوره يجرح لفقره ، وانه يحقر ! .. تخيل أن أحدا لا يجزئ أن يجلس الى المائدة بدون فوما . وهو يختار هذه اللحظة بينما يجلس نفسه فى غرفته . « آه .. ما أفسى هذه الالهات التى أتحمّلها أنا الحاج الفقير الذى يقنع بخبز أسود » . ولكن ما ان يجلسوا الى المائدة حتى يظهر فى قاعة الطعام ويعود يضرب على وتره المألوف : « لماذا تجلسون الى المائدة من دونى ؟ أتعدوننى صفراً ؟ » . الخلاصة .. انه يجد فى ذلك متعة كبيرة ولذة عظيمة . آه يا عزيزى ! لقد سكت زمناً طويلاً . ظن أننى سأثأب أمامه ككلب صغير من أجل الحصول على شيء من سكر : « خذ يا عزيزى الصغير ، خذ ، هل تريد ؟ » . لا ، لا ، أهبها الفتى ، نحن لم نرع الخنازير معا ... فأما ياجور ايلتش ، فأمره أمر آخر .. نحن رفاق فرقة واحدة .. كل ما هنالك من فرق أننى ما كدت أصل أنا الى رتبة ملازم حتى ودعت المهنة العسكرية منحياً لها باجلال وتعظيم ، على حين أنه أصبح هو كولونياً ، اذا شئت ، ثم لم يحل على التقاعد الا فى السنة الماضية . ولم أخرج من أن أقول له « هيا أسرع فضع هذا الفوما فى مكانه ، والا فالويل ثم الويل » ، فقال لى : « ما هذا الذى تقول ؟ ان فوما زبدة البشر . وهو صديقى يعلمنى المبادئ الخيرة » . فقلت لنفسى : هم .. اذن لقد تدمر الرجل وانهى الأمر ! .. . انك لن تستطيع أبداً أن تتخيل المناسبة التى أحدث لنا فيها فضيحة وجرسه

هذا اليوم • فى غد يقع عيد القديس ايليا (ذكر باختشاييف اسم القديس ايليا ورسم اشارة الصليب) ، وهو كما تعلم عيد ابن عمك ايليوشا • وقد عزمت امرى على أن أقضى نهارى عندهم وان أتناول غدائى فى صحبتهم ، حتى لقد استحضرت من العاصمة لعبة جميلة لاهديها الى الصبى ، وهى لعبة بديمة ذات نابض ، تمثل المانيا يقبل يد خطيبته التى تجفف دمعة بمنديلها • نعم ، انها لعبة رائعة ! ولكننى أحمد الله على أننى رجعت بها • انظر ! هاهى ذى فى داخل العربة ، وقد كسر أنف الرجل فيها ••• وكان ياجور ايلتش لا يتمنى طبعاً أكثر من أن يسر الصغير وأن يبهجه ، ولكن فوما لم يكن يسمع بهذه الاذن ، لم يكن يفهم الامر من هذه الناحية ، وما هو ذا ياخذ يصيح قائلا : « هل كل شىء اذن لايليوشا ؟ هل أنسى اذن أنا ؟ ألم يبق لى من شان هنا ؟ » • يا للحيوان ! انه يغار من طفل فى الثامنة من عمره ! وأردف فوما يصيح : « لماذا تتجاهلون أن العيد هو عيدى ؟ » • وعبتا حاولوا أن يشرحوا له أن العيد هو عيد القديس ايليا لا القديس فوما * ، فانه لم يشأ ان يترحزح عن موقفه وظل يقول : « بل هذا عيدى أنا أيضا ! » • ولبثت أنا بعيداً عن الممعة حتى لا أنفجر • فما رأيك ؟ ها هم أولاء الآن جميعاً يسرون على رموس الأصابع ، فاعرين أفواههم ، لا يعرفون ماذا يقررون ولا على ماذا يعزمون • ما عساهم فاعلين ؟ أيهنئون فوما بعيدة فى يوم القديس ايليا أم لا ؟ اذا لم يهنئوه فذلك إهانة له واساءة اليه ، واذا هناؤه كان ذلك هزءاً به وتهكماً عليه فقد يستاء ! هو ! ألا ان الأمر ليثير التقزز والاشمئزاز أخيراً ! فقل لى أيها الشاب ، هل تسمعنى ؟

— أسمعك ؟ طبعاً •• اننى أصغى اليك مسروراً كل السرور •• انك تطلعننى على أشياء أعترف لك بأنها ••

- هيم .. مسرورا كل السرور ! سيادتك تسخر منى ! ... هذا كل شيء !
- أبدا ! بالعكس .. ان فى تعايرك من الطرافة والأصالة مايجعلنى أود تسجيلها ...
- تسجيلها ؟ كيف ؟
كذلك سألنى باختشايف وهو يرمقنى بنظرة مرتابة • فقلت :
- هى كلمة تقال •
- أنا أفهمك أيها الشاب • انك تريد أن تستدرجنى ، أليس كذلك ؟
فسألته مدهوشا :
- ماذا تعنى ؟
- نعم نعم .. تدرجنى الى الكلام دحرجة كما يفعل بأبله ...
ثم اذا أنت تحشرنى ذات يوم فى رواية من رواياتك •
وعبنا حاولت أن أحتج وأن أحلف أغلظ الأيمان على صدق نياتى وخلوص أغراضى ، فان باختشايف لم يشأ أن يسمع • قال :
- من ذا الذى يعلم هل تتورع عن شيء أنت ايضا • ان على المرء أن يتوقع أسوأ الأمور منكم معشر المتعلمين ! لقد هددنى فوما بأن يطبع أمورا كثيرة عنى •
قلت لأصرفه عن مثل هذه الفكرة :
- قل لى ، هل صحيح أن عمى يريد أن يتزوج ثانية ؟
- وهب هذا حدث ، فأى خير فيه ! لقد يتزوج الرجل العزيز اذا أمره قلبه بذلك ، ولست أرى فى هذا أى بأس •
قال باختشايف ذلك ثم صاح متعجبا وقد ألم به شيء من ذهول على حين فجأة :

- على أن ما يصدع رأسى شئ آخر • سؤالك يربكنى حقا • ان
حول الكولونيل من « الفساتين » بقدر ما يكون حول طبق المربب من
دباب ! فكيف نحزر من هى التى تريد أن نتزوجه ؟ وأقول لك ايها
الشاب ، بينى وبينك ، اننى لا أحب الجنس « اللطيف » • مهما يقولوا
عن المرأة فأننى لا أعدها انسانا • انها أداة ضياع ! فأما أن عمك عاشق
موله كقط ، فذلك ما أضمنه لك •• ولكننى لا أريد أن ألج ، وسوف
ترى الأمر بنفسك • وانما المصيبة أن القضية تطول •• فاذا كان يريد أن
يخطو خطوته فليخطها ونبا وليعلن كل شئ ! ولكنه يخشى فوما الحقيقى،
ويخشى كذلك السيدة العجوز التى ستظل تعمل عويلا يوقظ الموتى من
قبورهم ، وستظل ترمح ما استطاعت أن ترمح • انها تتحزب لفوما طبعاً
وفوما لن ينظر نظرة ارتياح الى زوجة تنافسه هو فى المنزل • هو يعلم أنه
لن يكون عليه بعد ساعتين الا أن يحمل متاعه ويرحل •• نعم ، لا بد
للزوجة ان تطرده الى الخارج من كنفه، اذا كان لها شئ من عقل ، ولا بد
أن تشهر بسمعته شهيراً يغلّق فى وجه جميع أبواب المقاطعة • ذلك هو
سر المكائد الخفية التى يدبرها فوما مع السيدة العجوز ، ذلك هو السبب
فى أنهما يحرصان هذا الحرص كله على أن يدبرا للكولونيل هذه الـ ••
ولكن ليس لك أن تقاطعنى يا صديقى الشاب ، لقد أوقفتنى عن الكلام فى
اللحظة التى كنت أوشك أن أقول لك فيها أهم ما فى الحكاية • أنا أكبر
سنا منك ، وليس هذا من اللباقة من جانبك فى شئ •

اعتذرت له •

- لا حاجة الى الاعتذار ! واسمع يا عزيزى ••• ان هناك شيئاً
أريد أن أظهره عليك أنت أنت العالم • اليك الطريقة التى عاملنى بها
فوما منذ برهة • فانظر الآن ، واقض فى الأمر بنفسك اذا كان لك شئ
من سلامة الحس والاخلاص والانصاف • لقد جلسنا اذن الى المائدة •

وكنت قد أدركت منذ البداية أن الرجل ملئ باللؤم والحقد والمرارة ،
أو فل ان نفسه كلها كانت تغلي وتغور حقاً وغيظاً • لست أبالغ يا صديقي
• • • لقد كان قادراً على ان يلهثمني نيتاً • • • وكان يود لو يفرقني في
كأس ماء ، هذه الآفة القذرة • • • ان هؤلاء الناس الذين فطروا على خلق
الارتباك وايجاد الحرج لا يستطيعون سيلا الى الهدوء والسكينة • وها هو ذا
يسعى الى مشاجرتي بحجة أنه يريد أن يعلمني المبادئ القويمة ، يعلمنيها
أنا كما يعلمها غيري ، فيسألني لماذا أنا سمين هذه السمنة كلها ، ويطلبني
بجواب على الفور ، قائلا : « هيا قل حالا لماذا أنت مفرط في البدانة بدلا
من أن تكون مفرطاً في النحول ؟ » • فما وأيك يا صديقي ؟ أهذا سؤال
يطرح ؟ هل ترى فيه شيئاً من ذكاء ؟ ومع ذلك أجبت به بما أملك من عقل
صغير : « ان الله تعالى هو الذي خلقني يا فوما فومش • والمرء لا يخنار •
ولا فائدة في التذمر من ارادة العلي القدير » • أظن أن الجواب معقول ،
ما رأيك ؟ ولقد حسبت أنني أفحمته ، أنني ألقمته حجراً أبداً فها هو ذا
يصيح قائلا : « لا بل أنت سمين لانك تملك خمسمائة نفس : انك تعيش
كما يعيش ديك مرتاح دون أن تخدم وطنك • يجب على الانسان أن
يعمل في سبيل بلاده ، لا أن يعزف على الآكورديون طوال النهار • • •
يجب أن أعترف لك بأنني اذا راودني شيء من كآبة أسرى عن نفسي
بالعزف على الآكورديون • ولكنني أجبت أيضاً بما أملك من عقل صغير :
« في أية فرقة من فرق الجيش يجب عليّ أن أخدم ؟ ما من بدلة عسكرية
يمكن أن تتسع لجسمي البدين • فاذا وجدت من باب المصادفة بدلة تتسع
لهذا الجسم فان جميع أزرارها ستطير اذا أنا عطست عطسة ! فنصور أن
يحدث لي هذا أمام رئيس ، وأن يحمل الرئيس ذلك محمل السخرية
والهزل ، فما عسى يقع لي عندئذ ؟ هه ؟ » • ما رأيك يا صديقي ؟ هل
كان جوابي سليماً ؟ ومع ذلك فان صاحبنا الشجاع لم يزد على أن يضحك

مقهيها : قه قه قه ... ها ها ها .. هي هي هي ... الى غير نهاية •
 وذلك كله دون أى احتشام أو حياء • وأكثر من ذلك انه ظن أن في
 وسعه أن يستعمل اللغة الفرنسية حتى يلقي في وجهي كلمة خنزير
 « كوشون » • ولكنني اذا كنت لا أفهم من الفرنسية شيئا كثيرا ،
 فأنني أعرف معنى هذه الكلمة • قلت لنفسى : « يا للمشعبذ القدر ! ... »
 أيحسب رأسي رأس تركي مثله ! • وصعد الخردل الى أنفى ، فنهضت
 عن مكاني وصحت في وجهه على مرأى من جميع الجلوس : « ألف عذر
 يا عزيزي الشهم فوما ، لقد كنت أعدك حتى هذه اللحظة اسانا مؤدبا
 مهذبا ، ولكن اتضح الآن حتما أنك وغد ، مثلنا جميعا » • أسقطت هذا
 الكلام في صحنه ، وتركت المائدة في اللحظة التي كانت تقدم فيها
 « الحلوى » • شيطان يأخذهم جميعا ، هم و « حلواهم » !

حاذرت في هذه المرة أن أقاطع السيد باختشاييف وانتظرت أن ينهى
 كلامه فقلت :

— أنت ترى أننى على أتم الاستعداد لأن أشاطرك رأيك ، غير أن
 بعض الأفكار قد راودت ذهنى ، رغم أننى لا أعلم حتى الآن شيئا علم
 اليقين ، فمعدرة ..

— ما هي الأفكار التي راودت ذهنك ؟

كذلك سألتني السيد باختشاييف وقد عاوده الحذر والشك •

فأخذت أقول مرتبكا بعض الارتباك :

— قد لا تكون هذه اللحظة مناسبة لمرض هذه الأفكار • ومع ذلك
 .. اسمع .. لعلنا كلينا مخطئان في حق فوما فومتش • لعل شيئا من
 أصالته وحتى من عبقريته أن يكون مخبئا وراء هذا الشنوذ كله وهذا
 الغرابة كلها ... من يدري ؟ لعل فوما لم يصبح شرسا الا بسبب ما قامى

من آلام ، وما عانى من عذاب • لقد سمعت أنه كان يقوم بوظيفة مهرج للجنرال كراخوتكين • فلعل المعاملة السيئة التى لقيها حين كان مغلوبا على امره ، وحين كان يقوم بهذه الوظيفة ويمثل ذلك الدور هى التى شوهت فكره وأفسدت عقله • ان علينا أن نفهم الامور : رجل طيب المحتد ، شاعر بقيمته ، اضطر أن يمثل هذا الدور ! • فمن الطبيعى ان ينتهى به الامر الى أن يحقق على الانسانية بأسرها ••• فلعل من الواجب ان نصالحه أولا مع نفسه •• أفصد مع أقرانه •• فربما انتصرت عندئذ مواهبه الطبيعية ، وربما رأيناه يعود فيظهر انسانا فذا •• ذلك أنه •• أخيرا •• أخيرا •• لا بد أن يكون على شئ من الألمية •• والا فكيف يسيطر على جميع الناس ، وكيف يستكين له جميع الناس ؟

بهذا هرفت •• وتلك آفة يمكن أن تعذر فى شاب •• ولكن السيد ياخشيايف لم ير الامر هذه الرؤية •• فها هو ذا يرشقنى بنظرة قاسية ، وقد اصطبغ بحمرة قانية على حين فجأة ، وها هو ذا يلقي الى حائقا مهتاجا مقتظا بهذا السؤال :

– أتعد الفوما اذن انسانا فذا ؟

فقلت :

– اننى لا أتسرع هذا التسرع ، وأنا حريص على أن لا أؤكد شيئا ، ولا أن أقطع برأى حاسم •• وما قلته لا يزيد على أن يكون افتراضا محضا ••

– اسمح لى يا صديقى أن أطرح عليك هذا السؤال : أنت درست الفلسفة ، أليس كذلك ؟

– الفلسفة ؟ لست أرى علاقة بين •••

– ليس المهم أن ترى علاقة أو أن لا ترى علاقة •• أجب عن سؤالى

بلا لف ولا دوران : أدرست الفلسفة أم لا ؟

– أعترف لك بأن في نيتي أن ..

– ها .. لقد حضرت أنا هذا *

كذلك صاح باحتشاياف مستسلما لاستيائه وامتناعه ، وتابع يقول :

– لقد حضرت هذا قبل أن تفتح فمك .. هل رأيت أن فراستي لا تخطيء ؟ انني أشم الفلاسفة على بعد ثلاثة فراسخ ! هيا اذهب اذن فعائق صاحبك فوما فومتش وقبّله ! رجل فذ ! ... وماذا أيضا ؟ هه ! .. ألا ان المرء لا تخطر بباله سخافة كهذه السخافة ! غفر الله لي ... لقد ظننتك انسانا جادا ..

قال ذلك ثم صاح بالحوذي الذي كان يصعد الى مقعده في العربة :

– امش ...

لم أستطع أن أهدئه الا بعد عناء كبير * ثم انتهى الى شيء من اللطف، وردّ الى بعض اعتباره وتقديره * وفي أتماء ذلك كان قد استقر في عربته بمساعدة جريجورى وآرشيب العامل الذي كان قد وعظ فاسيليف *

جازفت وطرحت عليه هذا السؤال وأنا أقرب :

– هل تأذن لي بسؤال ؟ هل في نيتك أن لا تأتي بعد اليوم الى منزل عمي ؟

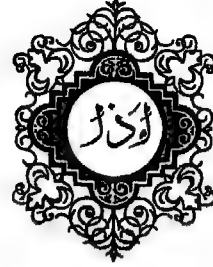
– الى منزل عمك ؟ من ذا الذي دس فكرة كهذه في رأسك ؟ أتظنني رجلا قوى الارادة صلب العزيمة قادرا على الوفاء بمعهد قطعه أو كلام قلته ؟ لا يا عزيزي .. ما أنا الا خرقة رخوة واأسفاه ! لسوف ترائني هناك قبل انقضاء ثمانية أيام * لماذا ؟ لا أدري * ولكنني أعرف شيئا واحدا : هو أنني سأعود وسأشاجر مرة أخرى مع فوما ! ان الله

تعالى هو الذى بعث الى بهذا الانسان جزاء ما جنيت من آثام واقترفت من خطايا ! نعم يا صديقى ! أنا رجل ضعيف الارادة خائر العزيمة ، لا أملك شيئا من ثبات ... ما أنا الا دجاجة مبتلة ! ...
اقتربنا على مودة وصداقة ، حتى أنه استقطعنى عهدا بأن أزوره فى منزله وأتسنى عنده . قال لى :

— زرنى يا صديقى ، زرنى . ان خمرى يصل من كيف سيرا على الأقدام ، أما طبابخى فقد استقدمته من باريس بعربة . انه طبابخ ممتاز خبير فى الأعشاب المرفهة ، يهيم لك أطباقا شهية تبلغ من طيب مذاقها أنك تلعق أصابعك حين تأكل منها . هو من الحاذق والمهارة بحيث لا يضيرك أن تحبيه منحيا حتى الأرض ، هذا الوجد . أنا أضمنه . .
بالمناسبة . . لقد ذكرتني . . اننى لم أجده منذ زمن طويل . . فان لم أفعل فلسوف تفسد يده من الدلال ، هذا الحيوان . زرنى يا صديقى .
كنت أود لو أصطحبك رأسا ، ولكننى أحس أننى مقصوم الظهر ، مهشم العظام ، لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي . . ذلك أننى مريض . ولكن لعلك لا تصدق ذلك . وداعا يا صديقى وداعا . لقد آن لى أن أنصرف . وعربتك أنت أيضا جاهزة . قل لصاحبك فوما أن يحاذر لقائى . اننى أبيئت له ما يستحقه من شراستى ، هذا الحقير ، و . . .

فاننى ما قاله السيد باختشاييف بعد ذلك . فان العربة التى تجرها أربعة أحصنة قوية غابت فى سحب من الغبار . استقدمت عربتى ، وركبت أنا أيضا ، وخرجت من المدينة بسرعة . قلت لنفسى : « لا شك أن الرجل يبائع . ان غضبه يمنعه من أن يكون منصفاً غير متحيز . لا يمكن الاعتماد على رأيه . غير أن ما قاله عن عمى الموله حبا يستحق التفكير . هذان صوتان يطبقان على رأى واحد . آه . . أترانى أتزوج حقا أم لا ؟ » .
وفى هذه المرة أخذت أشك فى ذلك شكاً قويا .

عَمِي



كان لا بد من الاعتراف فيجب أن أقول اننى شعرت ، عند اقترابى من ستياشيكوفو ، بأن نقتى بنفسى تفارقنى • وشيئا فشيئا أخذت حماسى الرومانسية تبدو لى مضحكة • كانت الساعة تقترب من الخامسة • والطريق تحاذى الحديقة العامة • هأنذا بعد انقضاء ذلك العدد من السنين أرى تلك الحديقة الواسعة التى قضيت فيها أياما سعيدة كثيرة من طفولتى ، تلك الحديقة التى كانت لا تبارح أحلامى فى بطرسبرج طالبا • قفزت من العربة بسرعة وهمة ونشاط واتجهت نحو البيت سالكا أقصر طريق يقودنى اليه • ان أقوى رغبة تعجش فى نفسى هى أن أصل خفية ، وأن أقوم بتحقيق فى الأمر ، أسأل هذا وأسأل ذاك ، وأجرى مع عمى حديثا خاصا قبل كل شىء • وكذلك كان • فبعد أن سرت فى طريق تحف به أشجار الزيزفون الهرمة وصلت الى السطحة التى توصل الى أجنحة المنزل عبر باب من زجاج • وعلى هذه السطحة نفسها التى تحيط بها أحواض مزهرة وتزينها نباتات نادرة فى أصص ، التقيت فجأة بواحد من أهل البلد هو الشيخ العجوز جافريلا الذى كان لى فى الماضى بمثابة مربية والذى يقوم الآن بوظائف كبير الخدم لعمى • كان واضعا على أنفه نظارتين ، ممسكا بدفتر يستغرق انتباهه كله • واذ كنا قد

التقينا قبل ذلك بستين أثناء رحلة عمى الى بطرسبرج فقد عرفنى الشيخ
العجوز فوراً وهرع الى لقائى يريد أن يقبل يديَّ ممتلئ العينين بدموع
الفرح ، وأسرع اسراعاً تدرجت من شدته نظارتاه •

تأثرت بذلك تأثراً عميقاً ، غير أن اتباهى لم يلبث أن انصب على هذا
الدفتري الذى يمسكه الشيخ يديه ، بعد الذى سمعته من السيد باخشاييف •
سألته :

— ما هذا يا عم جافريلا ؟ أأنت تتعلم الفرنسية ؟

— نعم يا سيدى الشاب • انه يريد أن يحملنى على أن أرطن بكلمات
أجنبية كطفل صغير •

— هل فوما هو الذى يعلمك هذه الكلمات ؟

— هو نفسه يا سيدى الشاب • لا شك أنه مثقف ثقافة هائلة •

— هائلة حقاً ! ولكن ما هى طريقته فى التعليم ؟ أهى المحادثة •

— بل الدفتري يا سيدى الشاب •

— الدفتري ؟ أرئى ! آآآ نعم هى كلمات فرنسية مكتوبة بأحرف

روسية • هه ••• يا للمكر ! ألا تستحى يا جافريلا أن تستكين لهذا
الأحمق ، أن تنقاد لهذا الحمار ؟

كذلك صحت قائلاً وقد نسيت ، فى طرفة عين ، الافتراضات الكريمة
الطيبة التى أيقظتها فى نفسى شتائم السيد باخشاييف اللاذعة فى حق
فوما فومتش •

أجانبى الشيخ الطيب قائلاً :

— كيف يكون حماراً وهو يعلم سادتنا ؟

جميعمت أقول :

- هيم هيم هيم ... قد تكون على حق يا جافريلا •

ذلك أن حجتہ قد أفحمتني فعلا • وأضفت :

- طيب قدني الى عمي •

- لا يا سيدى ! لا أجرؤ أن أظهر أمامه ! اننى مختبئ • ههنا أقضم

الجامى ، فلو رأيت عمك مقبلا لأسرعت أخفى •

- مم أنت خائف ؟

- لم أتعلم درسى • ومنذ قليل أراد فوما فومتش أن يجعلني أركع

على ركبتي ؟ ولقد رفضت ، فأنا رجل طاعن فى السن ، فلا يجوز أن

أعامل مثل هذه المعاملة يا سرجى أليكسندروفتش ! وعندئذ فان مولاي هو

الذى غضب • قال لى : « لماذا لا تطيع فوما فومتش ؟ ان ما يأمرك به هو

فى سبيل مصلحتك أيها الشيخ الهرم ! هو يريد أن يعلمك ! هو يريد أن

يثقفك ! هو يريد أن يجعل لك نطقاً جميلاً • وهأنذا أراجع دروسى وأحاول

أن أحفظه ياسيدى ! سوف يمتحننى فوما فومتش مرة أخرى هذا المساء •

ذلك كله لم يبد لى واضحاً جداً • لا بد أن وراء حكاية اللغة

الفرنسية هذه سرا يعجز الشيخ الطيب عن شرحه •

عدت أسأله :

- ما شخص هذا الرجل ؟ أهو طويل فارح القامة ؟ أهو وسيم

جميل الطلعة ؟

- من ؟ فوما فومتش ؟ لا يا سيدى الشاب انه قصير قميء دميم •

- حقاً ؟ طيب ! لا تصدع رأسك يا جافريلا ! سيسوى كل شئ •

أعدك بأن كل شئ سيسوى ! ولكن •• أين هو عمى اذن ؟

– أظن أنه وراء الحظائر مع الفلاحين • لقد جاء شيوخ كابيتونوفكا يضرعون اليه فى مذلة •• سمعوا أنه سيهب كابيتونوفكا الى فوما فومتش، وهم لا يريدون ذلك !

– ولماذا يتم هذا وراء الحظائر ؟

– لان عمك يخاف يا سيدى الشاب !

ووجدت عمى فعلا وراء الحوش • كان يناقش فى حرارة ونشاط وسط جماعة من الفلاحين يبدو أنها كانت تتوسل اليه ، فلما اقتربت منه ناديته فارتمى كل منا بين ذراعى الآخر •

ان السعادة التى شعر بها حين رانى سعادة نشوى • انه يقبلنى ويشد على يدي فكانه أب يثر على ابن له أفلت من الموت بأعجوبة ، او كان مجيشى ينقذه من خطر لا يقل عن ذلك فداحة ويطرد جميع أعداءه ويولد له من الفرع الذى لا تشوبه شائبة ما ينبغى أن يشارك فيه جميع ذويه • ان عمى هو من أولئك الناس الذين لا يقبلون أبدا أن ينفردوا بالتمتع بأى مسرة وحدهم دون غيرهم • ولكن الحماسة لم تلبث أن حل محلها قلق ، فسرعان ما رأيت الرجل المسكين يقع فى حيرة شديدة •

امطرنى فى أول الامر بوابل من الاسئلة ، وأراد أن يقودنى الى داخل المنزل ، ولكن ما ان قطعنا بضع خطوات حتى غير رأيه فزعم أنه يريد أن يقدم الى أولافلاحي كابيتونوفكا • ثم حدثنى فجأة ، لا ادرى بأية مناسبة ، عن رجل يقال له السيد كوروفكين ، وهو شخصية مرموقة فيما قال ، قد عرفها منذ ثلاثة أيام على الطريق الكبير وهو ينتظر زيارتها الآن بفارغ صبر ؟ ثم لم يلبث أن ترك موضوع كوروفكين ، وانتقل الى موضوع آخر ••• وكنت فى ثناء ذلك أشعر من النظر اليه والتأمل فيه بلنة رائعة وبهجة عظيمة • وقد أجبت عن جميع أسئلته المحمومة ، مشيرا

الى أنتى أؤثر مباحث العلم المتقشفه على مهنة الوظائف الادارية ، فما كدت أنطق بكلمة « العلم » حتى اعتقد أن عليه أن يصطنع هيئة الجد مقطبا حاجيه ، فلما علم انتى قد عنيت فى الاونه الاخيره بعلم المعادن رفع جبينه وأجال حوله نظرة زهو وخيلاء كما لو كان هو نفسه قد اكتشف وحده علم المعادن ووضعه فى كتاب من الألف الى الياء .. لقد سبق أن قلت ان عمى يقدس العلم تقديسا عظيما على قدر جهله تماما •

لقد قال لى ذات يوم ، ساطع العينين اعجابا :

— ما أكبر حظنا نحن بوجود افراد من أولئك الناس الذين يعرفون أعماق الاشياء ! ان المرء يصفى الى ما يقولون فيتهيج به من كل قلبه مهما يكن على يقين من أنه لم يفهم منه شيئا • ولعلك تسألنى لماذا ؟ ذلك أن المرء يشعر حين يسمع كلامه ان هنالك هدفا ، أن هنالك فكرا ، أن هنالك سعادة لجميع الناس ! أنا أستطيع على الاقل أن أفهم هذا • أنا مثلا أسافر الآن بالقطار ، ولعل عزيزى اليوشا سيسافر فى المستقبل على الهواء ... ثم هنالك أخيرا التجارة والصناعة اللتان هما ثروات عظيمة ! أشياء مفيدة باقية ! ألا تراهما نافعتين ؟

ولكن لنعد الى لحظة وصولى •

بدأ يقول بلهجة متقطعة قليلا وهو يفرك يديه احديهما بالأخرى :

— صبرا يا صديقى صبرا ! سوف ترى أى انسان هو ! انه رجل نادر • أقول لك ذلك منذ الآن • انه مثقف طويل الباع فى العلم • انه عالم فذ سيكون « عمله فتحا جديدا » • تعبير جميل أليس كذلك ؟ ان فوما هو الذى علمنى هذا التعبير ... انتظر قليلا حتى تتعرف عليه •

— عمن تتكلم ؟ عن فوما فومتش يا عمى ؟

- لا يا صديقي لا ، وانما أتكلم عن كوروفكين ... فالى كوروفكين
انما ينصرف ذهنى الآن •

ثم أضاف يقول وقد احمر وجهه يعلم الله لماذا :

- وفوما أيضا رجل ممتاز على كل حال •

- هل يعمل صاحبك كوروفكين فى العلم يا عمى ؟

- فى العلم يا بنى فى العلم ! لا اعرف فى اى شىء يعمل على وجه
الدقة ! ولكنه يعمل فى العلم طبعاً • • ليتك تسمعه وهو يتحدث متدفقا
عن السكك الحديدية ! • • •

قال عمى ذلك ثم تابع كلامه بصوت خافت وهو يغمز بعينه اليمنى
غمزة ذات دلالة :

- وتصور أن له أفكارا تقدمية • لقد لاحظت ذلك ، ولا سيما حين
تكلم عن السعادة الزوجية • • خسارة ! خسارة ! لم يتسع وقتنا لشرح
التفاصيل • لم أفهم كثير شىء ، والا لأعدت على مسامعك كل ما قاله كلمة
كلمة • هذا الى أنه أفضل الناس وأنبل البشر ! لقد دعوته وأنا أنتظر
وصوله الآن من لحظة الى أخرى • • •

كان الفلاحون فى أثناء ذلك يتأملوننى فاغرى الأفواه محملى
الأعين كأننى حدث غريب •

قاطعت عمى قائلا :

- اسمع يا عمى ! ألا تظن أن وجودى يخرج هؤلاء الناس ؟ لاشك
أنهم جاموا الى هنا لسبب هام ، فما هو الأمر ؟ أظن أننى أدرك القضية
التي جاموا من أجلها ، وسيسعدنى جدا أن أصغى اليهم •

فما لبث عمى أن استبد به تعجل محموم فقال :

- ها ... نعم ... لقد نسيتهم ... ولكن ما عساني فاعلا لهم ؟ ...
انهم يظنون - وليتني أعلم من الذى أمكن أن يدس مثل هذه الفكرة فى
رؤوسهم - أننى سأقدمهم هدية هم وكابيتونوفكا كلها ... هل تتذكر
كابيتونوفكا ؟ هناك انما كنا نمضى تنزه فى المساء مع المرحومة زوجتى
العزيزة كاتيا ... كابيتونوفكا كلها مع سبعين نفسا ... هدية لقوما فومتش!
... لقد جاءوا يقولون لى انهم لا يريدون أن يتركونى *

صحت فيما يشبه النشوة :

- أفليس هذا صحيحا يا عمى ؟ ألن تهب كابيتونوفكا ؟
- ولماذا أهبها ؟ لم تراودنى هذه الفكرة أبدا ! ولكن من الذى
حدثك عن هذا ؟ هى كلمة أفلتت من لسانى فكيف سارت فى الناس هذا
السير ؟ ولكن ما الذى يأخذونه على قوما ؟ ما الذى يثيرهم عليه ؟ سوف
ترى يا سرجى ! سوف أعرفك به ...

قال عمى ذلك ثم أضاف وهو يرشقنى بنظرة وجلة كأنه أوجس فى
عدوا من أعداء قوما فومتش :

- انه يا عزيزى رجل ...

صاح الفلاحون بصوت واحد يقولون ضارعين متوسلين :

- لا نريده ! لا نريده ! لا نريد الا أنت ... احتفظ بنا ... أنت
أبونا ونحن أبناؤك *
هتفت أقول :

- قل لى يا عمى * أنا لم أر قوما فومتش بعد ، ولكن ... ولكن
سمعت شيئا ... يجب أن أذكر لك اننى التقيت منذ برهة بالسيد
باختشايف ، وان لى فى هذا الأمر آراء شخصية * أرى يا عمى ان تصرف

الفلاحين ، وأن تتناقش في الأمر معا على انفراد • ثم اننى من أجل هذا
انما جئت ••

أجاب عمى :

— أنت على حق • سنصرف الفلاحين • وبعد ذلك ستناقش نحن
الاثنتين فى مودة وروية ودراية •

قال عمى ذلك ثم تابع يخاطب أقبانه بصوته المتقطع :

— طيب ! انصرفوا يا أصحاب • وفى المستقبل ، اذا كان لكم
ما تقولونه ففعالوا الىّ ، تعالوا الىّ رأسا فى أية لحظة •

صاح الفلاحون مرة أخرى :

— أنت أبونا ! أنت أبونا ونحن أبناؤك ! لا تدعنا للعذاب مغ فوما
فومتش ! تتوسل اليك ، نضرع اليك ••

— ما أغباكم ! قلت لكم اننى لن أهيكم لأحد ، ألا تسمعون ؟

— لسوف يميّتنا يا أبانا ! لسوف يميّتنا كما يميّت من هنا بما يعلمهم
اياهم •

سألتهم متعجبا شبه مذعور :

— هل يعلمكم الفرنسية أتم أيضا ؟

— لا •• لما يحاول أن يعلمنا شيئا بعد •• الحمد لله •• لا يا سيدى ••
نحمد الله على أنه لما يحاول ذلك بعد •

بهذا أجاب أحد البارعين فى الكلام من الحشد ، وهو رجل أحمر
اللون أصلع الرأس له لحية هزيلة تبدو كأن لها حياة خاصة من فرط
اهتزازها لدى كل كلمة يقولها •

— ماذا يعلمكم اذن ؟

— يعلمنا وضع المحراث أمام الأبقار يا سيدى اذا جاز القول ...

— كيف هذا ؟

صاح عمى وقد احمر وجهه سن الخجل احمرارا شديدا يقول :

— حذار يا سرجى ! انهم لم يفهموا شيئا مما شرحة لهم فوما ، هؤلاء

الأغبياء • كان يريد أن يقول لهم ...

وهنا اتجه عمى الى الفلاح وأردف قائلا له بلهجة العتب :

— لقد أفسدت كل شيء ! وها أنت ذا تصرخ ! انك تتغابى حين يراد

لك الخير ! يجب على المرء أن لا يصيح قبل أن يفهم !

قلت :

— وقضية اللغة الفرنسية يا عمى ؟

فقال عمى محتجا بصوت ضارع :

— هذا بسبب النطق يا سرجى ، بسبب النطق وحده • فوما نفسه

قال ان هذا بسبب النطق ! وتلك ، على كل حال ، حكاية لم تطلع عليها

فلا تستطيع أن تقضى فيها برأى • ان على المرء يا بنى أن يطلع قبيل أن

يحكم ، والا فما أسهل أن يطلق المرء أحكامه جزافا !

التفت نحو الفلاحين وقلت لهم محتدا :

— ولكن ماذا ؟ ألا تستطيعون أن تقولوا رأسا لفوما فومتش كيف

يجب أن تجرى الأمور فى رأيكم ؟ ان لكم لسانا فليكم أن تستعملوه •

— سهل أن يقال هذا الكلام ! ولكن أين الفائدة التى تستطيع أن

تضع جرسا فى عنق القطه يا مولانا الشاب ؟ انه يقول لأحدنا : « يا لك

من متوحش متخلف ! أريد أن أعلمك الترتيب والنظافة • • لماذا فيصك
وسخ ؟ • والقميص وسخ يا سيدى لاتنا نعرق ولأنا لا نستطيع أن نبدل
قمصاننا كل يوم • لا النظافة هي التي ستحيينا ولا الوساخه هي التي
ستميتنا !

وفاطمه فلاح اخر • انه رجل طويل نحيل هزيل ضاو يرتدى
أسمالا باليه ويتعل حذاءين ممزقين متفتقين مهترئين • هو واحد من
اولئك الناس الذين يظل في نفوسهم الى الابد شيء من مضض ، هو
واحد من اولئك المستائين المتعضين الذين بهم حاجه الى ان يقولوا في
كل مناسبة كلمات مسمومة • لقد ظل الى ذلك الحين مخبئا وراء الاخرين
يسمع دون أن يتحرك ، عابس الوجه مع ابتسامة تحيلها المرارة الى تصعير
ملتبس المعنى • ها هو ذا ينبرى الآن فيقول :

— نعم لقد جاءنا منذ أيام على جناح السرعة فسلنا : « هل تعرفون
كم فرسخا تبلغ المسافة بين الارض والشمس ؟ » • من يستطيع أن يعلم
ذلك ؟ ليس العلم لنا بل للسادة • وقد قال أيضا : « يا لك من جاهل
أحق ! انك لا تعرف ما تصنع على هذه الارض ! أنا ، أنا عالم فلك !
أعرف جميع الكواكب التي خلقها الله ! »

— وهل ذكر لك كم فرسخا تبلغ المسافة بين الأرض والشمس ؟
بهذا قاطعه عمى الذى انتعش على حين فجأة وغمزني غمزة مأكرة
معناها : « سوف نرى سوف نرى ! » •

فأجاب الفلاح متمعضا وقد حيره هذا السؤال الذى لم يكن في
حساباته :

— نعم ذكر لى ذلك • ويظهر أن المسافة كبيرة جدا • • •
— ولكن كم فرسخا ، كم فرسخا ؟

- سيدى ، انك تعرف ذلك خيرا منا • نحن أناس جهلة حمقى !

- ولكن تذكر يا بنى ، تذكر ، كم فرسخا ؟

- بضع مئات أو بضعة ألوف من الفراستخ • لا أتذكر على وجه الدقة • رقم ضخم على كل حال ، يمكن أن يملأ ثلاث عربات أو اربعا !

- حاول أن تتذكر ، ابذل بعض الجهد ! أكنت تظن اذن ان المسافة فرسخ تقريبا ، وان الشمس يكاد يمكن لمسها ؟ لا يا بنى ! الارض كرة • • • هكذا • • • هل تفهم ؟ (كذلك تابع يقول عمى ، وهو يمثل يديه فى الهواء ضخامة الكرة المذكورة) •

ابسم الفلاح ابسامة من تبددت أوهامه •

- نعم ، كرة ! معلقة فى الفضاء من تلقاء نفسها • • • وتدور حول الشمس • والشمس تبقى فى مكانها ، وانما يترامى أنها تتحرك • فميت ؟ شيء يبدو عجيبا ! ان الذى اكتشف هذا الاكتشاف هو الكاتبن كوك ، أحد البحارة • • • بالناسبة ، من الذى اكتشف هذا الاكتشاف ؟ (كذلك سألتى عمى بصوت خافت وهو يلتفت نحوى) أنت تعلم أننى لا أعرف شيئا • • • وأنت ، هل تعرف كم فرسخا تبلغ المسافة بين الأرض والشمس ؟

أجبتهم وقد ازدادت حيرتى وازداد ارتباكى من هذا :

- نعم يا عمى ، ولكن هل تريد أن أقول لك رأى ؟ لئن كان الجهل لطحخة عار ، فليس معنى ذلك أن تعليم الفلاحين علم الفلك • • •

- تماما ! تماما ! هو لطحخة ! هو لطحخة !

كذلك ردد عمى يقول مأخوذا بهذا التعبير الذى بدا له موقفا محكما الى أبعد الحدود • وتابع يقول :

– هو لطخة حقا !! فكرة رائعة ! كلام صحيح صادق ، قلته دائما ،
أو بالأحرى لم أقله يوما ، وانما خطر ببالى وفكرت فيه •

ثم صاح يقول للفلاحين :

– هل تسمعون ؟ الجهل لطخة كوساخة الجسم سواء بسواء • لذلك
أراد فوما ان يعلمكم • لقد أراد لكم الخير لا أكثر • والعلم درجات
يا أصحابي ، كالرتب العسكرية • نعم • • • كذلك هو العلم ! ولكن يكفي
هذا الان يا أصحاب ! انصرفوا فى امان الله ! وأنا راض • • راض جدا
• • واهدأوا بالا • • فلن أترككم ولن أهجركم •

– احمنا يا أبانا !

– انقذنا من الشقاء !

بذلك هتف الفلاحون وأسرعوا ينحنون على قدمي عمى ساجدين •
– هيا ! كفى سجودا ! فانما ينبغي أن تسجدوا لله ولقيصر ! انصرفوا !
انصرفوا فى أمان الله ! وليكن سلوككم مستقيما شريفا • • ولتقوموا بعملكم
مخلصين • • أما ما عدا ذلك • •

وما ان انصرف الفلاحون حتى التفت عمى نحوى بغتة منبسط
الأسارير مشرق المحيا وقال لى :

– هل رأيت ؟ ان الفلاح يحب الكلمة الطيبة ، ولا يبصق على هدية
صغيرة • • ما رأيك فى أن أهب لهم شيئا ؟ هه ؟ ما رأيك ؟ بمناسبة
وصولك ؟ أيجب أم لا ؟

قلت :

– أنت يا عمى أشبه بشخصية فرول سيلين * • انك المحسن الى
هؤلاء الناس الفقراء فيما أرى •

- أوه ! لا قيمة لهذا يا بنى ! ليس هذا بشيء ذى بال ! اننى أتمنى منذ زمن طويل أن أحب لهم شيئا (كذلك نرح معذرا) • هل بدا لك أمرا مضحكا أننى أخذت أعلم الفلاحين ؟ ألا ان هذا من شدة فرحى بعودتك يا عزيزى سرجى ! لقد حرصت على أن أذكر لهم المسافة بين الأرض والشمس لا لشيء الا أن أرى أفواههم فاغرة من الدهشة • اننى أحب أن أراهم على هذه الحال حيا كبيرا ••• ذلك يبهجنى منهم كثيرا • ولكن أرجوك •• لا تقل كلمة واحدة فى الصالون عما جرى • لقد استقبلت الفلاحين وراء الحوش عمدا حتى لا يروهم • لم يكن ثمة سبيل غير هذا : ان الامر يحتاج الى احتياطات ولقد جاءوا هم أنفسهم خفية ، ومن أجلهم خاصة انما عمدت الى هذا ••

ولكننى قاطعت عمى فجأة من شدة رغبتى فى الانتقال الى النقطة الهامة بأقصى سرعة • قلت له :

- هأنذا أخيرا يا عمى ! •• أعترف لك أن رسالتك قد أقلقتنى وأن •••

فما ان قلت هذا الكلام حتى اعترى عمى نوع من الرعب ، فقاطعتى بدوره قائلا :

- لا تقل كلمة عن هذا يا عزيزى • انتظر • سيتضح كل شيء •
لعننى مذنب فى حقك • نعم لعننى مذنب ذنبا كبيرا ، ومع ذلك •••
- مذنب يا عمى ؟

- انتظر يا صاحبنى ! صبرا ! سيتضح كل شيء ! آه ! لكم أصبحت فى جميلا ! آه يا بنى العزيز ! لعلنا انتظرتك ••• أنا فى حاجة الى

سارَكتَ والبوح لك والافضاء اليك •• أنت متعلم مثقف ••• وليس لى
غيرك ••• نعم انت وكوروفكين • والان يجب أن أقول لك ان جميع
من بالمنزل هنا يضمرون لك ضغينة •• فاتبه وكن على حذر واتصف
بالحكمة والتعقل والروية ••

- يضمرون لى ضغينة ؟ لماذا ؟

كذلك سألت عمى وانا لا افهم كيف أمكن أن أخلق على أناساً
لا أعرفهم •

- نعم •• انهم يحملون لك ضغينة • ولكن ما حيلتنا فى ذلك ؟ فوما
فومتش هو الذى بدا ، ثم تبعته أمى • وانما المهم ان تكون أنت على حذر •
عليك خاصة باظهار الاحترام ، نعم باظهار الاحترام ، ودعهم يقولون
ما يشاؤون ••

- اظهار الاحترام لفوما فومتش يا عمى ؟

- لا بد من هذا يا صاحبى • أنا لا أحاول أن أتجيز له • هو رجل
لا شك أن فيه عيوباً ، والآن ••• فى هذه الدقيقة نفسها •• آه •• ما أكثر
ما يصدع رأسى هذا كله يا عزيزى سرجى ! •• ان من الممكن أن تسوى
جميع الأمور بحيث يعيش كل انسان سعيدا على ما يشاء له هواه ! •••
ولكن ماذا تريد ؟ من المبرء من العيوب ؟ من المعصوم من الأخطاء ؟ نحن
أيضا لسنا من ذهب خالص ••

- كفى يا عمى أرجوك ! هلا نظرت الى سلوكه ؟

- ترهات يا عزيزى ترهات •• ليس فيها ما يستحق أن تُجلد من
أجله قطه • اليك مثالا : انه غاضب على الآن •• هل تتصور لماذا ؟ على
أنى قد أكون مذنباً ، ولكن الأفضل أن أقص عليك ذلك فيما بعد ••

قلت مستعجلا أن أنقل اليه الأفكار التي خطرت ببالي (كأننا نتنافس في هذا نحن الاثنين) :

- ومع ذلك يا عمى فان دماغى يفكر كثيرا فى هذا الامر • لقد كان هذا الرجل مهرجا ، فلا شك ان ذلك قد آذله وأمض نفسه وأهانته واساء الى تطلعاته ، وذلك ما جعل طبعه مشاكسا مناكدا مريضا كثير الشك شديد الريه والخذر ، فهو يحقد على الانسانية كلها ، فاذا استطعنا أن نصالحه مع نفسه ومع غيره ••

صاح عمى يقول وقد عصفت به حماسة شديدة :

- تماما ! تماما ! تماما ! لا يجوز لنا أن نسيء الحكم عليه • ذلك عيب • ذلك عار • تماما • اه يا صديقى ! انك لتفهمنى حق الفهم ! ما أعظم سرورى بكلامك ! ولكن ليت الامور تجري مجرى حسنا هناك ! أنت لا تتصور اننى أكاد أكون خائفا من الظهور بينهم • ان وصولك سيؤلبهم على •

اضطربت من اعترافه هذا فقلت :

- ما دام الامر كذلك يا عمى فلماذا •••

فقاطعتى عمى بقوله صائحا :

- لا ، لا ، لا ، لا ، لا •• أبداً •• انت فى منزلى •• وأحب أن تبقى فيه •

ولكن ذلك لم يمنع ازدياد اضطرابى ، فاستأنفت أقول ملحا :

- قل يا عمى : لماذا استدعيتنى ؟ لماذا ترى أنك مذنب فى حقى ؟

- آه يا بنى ! لا تسألنى ! أرجىء هذا السؤال ! أرجىء هذا

السؤال ! سيتضح لك كل شيء •• قد أكون مذنبا ذنبا كبيرا •• ولكننى

أردت مع ذلك أن أسلك سلوك رجل شريف ... و ... و ... ستزوجها !
ستزوجها اذا كنت تملك ذرة من نبل (كذلك أضاف) •

واستبد به انفعال قوى على حين فجأة ، فشد على يدي شدا قويا كاد
يحطمها وتابع يقول :

- ولكن كفى ! لا كلمة بعد هذا ! ستطلع على الأمر قريبا • كل
شئ مرهون بك متوقف عليك • وانما المهم الان ان تحظى بالرضى
والاعجاب ، أن تحدث أثرا حسنا • حاول خاصة أن لا تفقد سيطرتك على
نفسك ! ••

- قل لى يا عمى : من عندك من الزائرين الآن ؟ اننى لم الف
صحبة الناس والاختلاف الى المجتمع واننى أبلغ من ذلك أننى •••
- أنك تشمر بحرج وضيق •

قال عمى ذلك مبتسما وأردف يقول :

- طمئن بالك ، هدىء نفسك ! نحن فى منزلنا •• نعم هدىء
روحك ، لا تخف ، والا لم أستطع أن أكون هادئا أنا أيضا ! تسالنى من
يوجد هنا ؟

قال عمى ذلك ثم تابع كلامه منطلقا بحرارة :

- هناك أولا أمى • هل تتذكرها ؟ انها عجوز ممتازة شهمة ، بغير
ادعاء ، ذلك أستطيع أن أوكد • لها أفكار بالية بعض الشيء ولكن
لا ضير ••• ولها فى بعض الاحيان بدوات ونزوات •• تقول هذا أو تقول
ذاك •• وهى الآن غاضبة منى حاتقة على •• أنا مذنب •• أعرف ذلك ••
على كل حال يجب أن لا نؤاخذها • انها سيدة عظيمة • انها جنرالة •
كان زوجها رجلا فدا • كان جنرالا • وكان على جانب عظيم من الثقافة •

لم يترك قرشا واحدا • ولكن جسمه كان مليئا بالجراح • الخلاصة : رجل يستحق الاحترام • ثم هنالك الالسة بيرلستين • هذه •• لا ادرى ما الذى استبد بها •• فى هذه الالوة الاخيرة •• ان لها الان مزاجا •• ولكن لماذا نحكم على الناس ؟ اسال الله ان يسبغ عليها بركته ! •• لا تحسبها متطفلة عامية • لا يا صاحبي • انها بنت ليوتان كولونيل فى الجيش • وهى لامى صديقتها ونجيتها ومحل ثقتها ومستودع سرها • ثم هنالك يا عزيزى اختى براسكوفى ايلينيتسا • وليس ثمه كبير شئ • يمكن ان اقوله عنها فهى الطيبة عينها ، وهى البساطة ذاتها •• صحيح انها مناكدة قليلا •• ولكن قلبها من ذهب •• وفى القلب انما يجب ان ننظر يا عزيزى •• وهى ذى عانس رغم كل شئ •• ومع ذلك •• تصور أن هذا الرجل الطريف باختشاييف يلاطفها ويريد ان يخطبها زوجة له •• حذار ان تقول شيئا عن هذا الامر ، فهو سر ! من ذا هنالك ايضا ؟ لن أحدثك عن الاولاد ، فسوف تراهم بنفسك • غدا عيد اليوشا •• ها •• كدت أنسى : عندنا منذ شهر ايفسان ايفاتش ميزاتشيكوف أحد أبناء أعمامك • لقد كان ملازما فى سلاح الفرسان ، وأحيل الى التقاعد منذ برهة قصيرة • انه ما يزال شابا • وهو انسان نبيل • تصور مع ذلك أننى لا أستطيع أن أفهم كيف تسنى له أن يبدد ثروته كلها بمثل تلك السرعة • صحيح أنه لم يكن يملك شيئا كثيرا ، ولكنه تدمر تماما ، وهو غارق فى الديون فوق ذلك • لم أكن أعرفه من قبل • وصل الى هنا من تلقاء نفسه وبقي • انه شاب مؤدب مهذب ، لا يحدث صحبا • اننى أسأله هل فتح فمه مرة واحدة • هو صامت دائما • لقد لقبه فوما مازحا بـ « الصموت المجهول » • واذا أنه لا يقاوم ولا يحتج فان فوما راض عنه جدا • على أنه يصفه بأنه انسان محدود العقل ضعيف الذكاء • ومهما يكن من أمر فان ميزاتشيكوف لا يعارضه ، بل يجاريه فى آرائه • وفى اعتقاده أنه

خجول ، ولكن أسأل الله أن يباركه .. ستدرك بنفسك .. عندنا أيضا زائرون من المدينة : بافل سميوتشش أوينوسكين وأمه . هو شاب واسع الذكاء ، فيه شيء من صلابة ونضج .. لا أعرف كيف أعبر عن رأيي فيه تعبيرا مناسباً .. هو على كل حال انسان قوى الشكيمة رفيع النفس الى أبعد الحدود . عندنا أيضا كما ستري تاتيانا ايفانوفنا .. وهى تمت الينا بقربى بعيدة . أنت لا تعرفها . هى عانس . هذا صحيح . ولكن لها مزايا . تستطيع بثروتها الطائلة أن تشتري قريتين مثل ستيانتشيكوفو . وهى لا تملك هذه الثروة الا منذ زمن قصير . أما قبل ذلك فقد كانت فقيرة . عليك أن تتنبه يا عزيزى سرجى . هذه انسانه مريضة . ان لها طبعاً عجيباً شاذاً . غير أن لك من كرم طبعك وسماحة نفسك ما يكفيك من اجل ان تفهم انها قاست عذاباً كثيراً وانها كانت بائسة شقية . ان على المرء أن يضاعف الرعاية والناية فى معاملة من كانوا أشقياء بؤساء . وياك خاصة أن يذهب بك الظن الى بعض الافكار .. صحيح ان فيها جوانب ضعف .. فانه ليتفق لها أن تتكلم بدون تفكير ، وان لا تقول الالفاظ التى يجب أن تقولها .. ولكن لا تظن أنها كاذبة .. لا يا صديقى ! ان كلامها يصدر عن قلبها رأساً .. وهو قلب طاهر نقى طيب ، أؤكد لك ذلك . وحتى حين لا تقول الحقيقة ، فان المرء يشعر أن ذلك ناشئ عن رهاقة نفسها وعن نبل روحها .. هل تفهم ؟

كان فى وجه عمى من التعبير عن الارتباك ما جعلنى لا أستطيع أن أمسك عن سؤاله . قلت :

- قل لى يا عمى .. انت تعرف كم أحبك ، ولسوف تغفر لى هذا السؤال : أأنت عازم على الزواج ؟

أجابنى عمى وقد احمر وجهه كطفل :

- لقد حدثت اذن عن هذا الامر ، أليس كذلك ؟ اسمع ! سأشرح

لك كل شيء : أولا ، أنا لا أريد أن أتزوج • أمى تريد ذلك • وأختى
تريده قليلا • وفوما فومتش هو الذى يحرص عليه اشد الحرص • ان
أمى تعبد فوما عبادة • وهى على حق • فمسا أكثر ما صنع فى سبيلها !
الخلاصة أنهم جميعا يحضوننى على ان اتزوج تاتيانا ايفانوفنا هذه ، فى
سبيل المصلحة ، من أجل الاسرة طبعاً ! واضح أنهم لا يرون فى هذا
الا خيراً لى • أنا أعلم ذلك • ولكننى لن أتزوج بحال من الأحوال •
لقد البت على نفسى ان لا أفعل • ولكننى لم اجرؤ حتى الان ان اجيب
بشيء ، فلا قلت نعم ولا قلت لا • ذلك فى طبعى كما ترى • وهم لذلك
يظنون أننى موافق ، ويلجئون علىّ أن اطلب يدها غدا ، بمناسبة العيد
الذى تحتفل به الاسرة ! من هنا ترى ارتباطى ، فانا لا اعرف كيف
احتال على الأمر ؟ وبانتظار ذلك أرى فوما فومتش غاضباً منى حاقداً على ،
الله يدري لماذا ! وكذلك أمى •• وهانذا انبهك يا عزيزى الى اننى
اعتمد كثيراً عليك وعلى كوروفكين •• اننى أريد أن أتحلل من العبء
ان صح التعبير •••

— لست أرى يا عمى فيم يمكن أن يساعدك كوروفكين !
— سوف يساعدنى يا صاحبى ، سوف يساعدنى • لقد قلت لك اى
رجل هو • انه عالم • انه من رجال العلم • اننى أعتمد عليه اعتمادى على
صخرة صلبة • لقد خلق للانتصار ! ليتك سمعته يتكلم عن السعادة
العائلية ! ولا أكتفك أننى أعتمد عليك أيضاً • لقد قلت لنفسى : لا بد
أن تجد سبيلاً الى ردهم الى الصواب • احكم فى الأمر بنفسك : هبنى
مذنبا ، وأنا أعترف بأننى مذنب ، لأننى لست مجرداً من العاطفة ، ولكن
فى امكانهم مع ذلك أن يصفحوا عني وأن يغفروا لى ! ما أكثر ما يمكن
أن نصبح سعداء ! انك لا تتصور كم كبرت ابنتى ساشا ! لسوف تكون
صالحة للزواج فى القريب • واليسوشا أيضاً ينمو بسرعة كقطر من

الفطور ! وسنحتفل غدا بعيدہ • ولكننى أرتعش خوفا على ساشا • هذه
هى القضية •

- قل لى يا عمى : أين حقييتى ؟ سآبدل ملابسى وأعود فوراً •
أظنها هناك !

- هى فوق يا عزيزى فى الطابق الاوسط • لقد أصدرت أمرى
سلفا بان يقودوك الى الطابق الاوسط عند وصولك حتى لا يراك احد •
حسن رايتك • هيا بدل ملابسك بسرعه ! فكرة عظيمه ممتازة ! وفى
أثناء ذلك أمضى أنا الى قاعة الطعام لاهيئهم قليلا •• هيا •• الى اللقاء ••
هل فهمت يا بنى ؟ لا بد من شيء من المكر • لا بد أن يخذو المرء خذو
تاليران* رغم انه • ولكن لا ضير • هم الان بسبيل احتساء الشاي • نحن
هنا نجلس الى المائدة فى ساعة مبكرة • ان فوما فومتشس يحب تناول
الشاي منذ يستيقظ من نومه • يظهر أن فى هذا فائدة للصحة •• اتفقنا
اذن : أذهب أنا الى هناك وتصل أنت ورائى رأسا ، حتى لا تتركنى
وحيدا • اننى أشعر بحرج وضيق حين أكون وحدى • ولكن استمع الى
هذا الرجاء : لا تعتمد الى التائب والتقريع هناك كما فعلت هنا منذ برهة •
اتفقنا ؟ فاذا كان لك ملاحظات تريد أن توجهها الىّ فالأفضل أن تبديها
حين نختلى ؟ فالى أن نختلى عليك بالصبر ، هل فهمت ؟ لقد دبرت لهم
« مقالب » رائعة ، فهم الآن هائجون غاضبون •

- اسمع يا عمى : يخيل الىّ بعد كل الذى سمعته ورأيت أنه ••

- أننى رخو ! لا تتخرج من قول ذلك (هكذا صاح عمى على نحو
لم يكن فى حسابى) أنا أعرف هذا منذ زمن طويل ، ولكن ماحيلتى ؟
هيا ! أنت أت ؟ عجلّ ما استطعت التمجيل ! هل تريد ؟

صعدت الى الطابق الأوسط وأسرعت أفض حقييتى انصياعا لرغبة

عمى الملحة • ولاحظت وأنا أرتدى ملابسى أننى ما زلت لا أكاد أعرف شيئا مما كنت احرص على معرفته رغم الساعة الطويلة التى قضيتها مع عمى • أدهشنى هذا • شيء واحد كان واضحا لى بعض الوضوح : هو أن عمى يحرص حرصا قاطعا على زواجى • معنى هذا ان جميع الشائعات التى تروج عن حبه للفتاة كاذبة • اذكر ان قلقا كبيرا اعترانى على حين فجأة ، فقد خطر ببالى ان وصولى وصمتى تجاه عمى خاصة معانها الموافقة ومعانها اننى قطعت على نفسى عهدا وارتبطت • قلت لنفسى: «ليس من الصعب على المرء أن يقول الكلمة التى تجعل منه رجلا موثق القدمين واليدين مدى الحياة ! ويا ليتنى رأيت خطيبتى على الأقل ! » •

ثم ان هذه العداوة التى تضمرها لى الاسرة كلها كانت تصدع راسى أيضا • ما مصدر هذه العداوة ؟ لماذا يعدون وصولى تحديا واستفزازا كما قال عمى نفسه ؟ واى دور غريب يمثل هو نفسه فى منزله ذاته ؟ فيم كل هذا السر وهذه الخشية وهذا القلق والعداوة ؟ بدا لى ذلك كله على حين فجأة غريبا غرابة تبلغ من القوة أن جميع أحلامى التى هى مزيج من البطولة والاخيلة الروائية قد طارت من رأسى عند أول اتصال بالواقع ، وأصبحت لا أرى من جميع حديث عمى شيئا الا ذلك الجانب العجيب الشاذ من الاقتراح الذى تقدم به الى ، وأدركت أن عمى هو الانسان الوحيد الذى يمكن أن يقدم اقتراحا من هذا النوع فى مثل هذه الظروف ، وأدركت أيضا أننى أنا نفسى لا بد أن أكون غبيا الى أقصى حدود الغباء بل معنوها الى أبعد درجات المته حتى أهرع مليا أول نداء له مفتونا عن نفسى فاقتدا زمام عقلى • وقد بلغت من اضطراب أفكارى أثناء ذلك أننى اردت ملابسى بسرعة محسومة دون أن ألاحظ الخادم الذى كان يخدمنى •

ولكن الخادم تكلم فجأة بتأدب مفرط وتهذيب شديد قائلا :

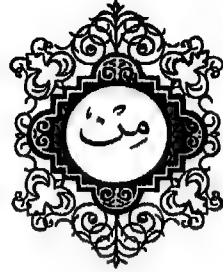
— أى ربطة عنق يختار مولاي؟ أتلك التى هى من لون «أديلايد»*
 أم تلك التى لها مربعات؟ فحدقت اليه ، فرايت انه يستحق انتباهى . انه
 رجل لا يزال شابا ، وهو لا يرتدى ثياب خدام بقدر ما يرتدى ثياب فتى
 ريمى مزهو بنفسه . انه يلبس رداء بلون القسرفه ، وسروالا ابيض ،
 وصديرة صفراء ، وربطة عنق ورديه ، وحذائين من جلد لامع ، وذلك
 كله مقصود متعمد ، لابرار الرشافة واعلان حسن الدوق . ولا شك ان
 هذا نفسه هو الذى يتحكم فى الموضع البارز الذى كانت تحتله من صدره
 سلسله ساعته . والرجل دقيق قسمات الوجه ، شديد شحوب اللون حتى
 لكانه الشمع صفرة . والابتسامة التى تتحرك على شففيه الريقين نسج على
 وجهه نميرا عن حزن ربيع . وعيناه الكبيرتان الجاحظتان تبدوان كآيتين،
 وهما تغرسان فيك نظرة بلهاء لا تخلو مع ذلك من دعوى الرقة والرفاهة .
 وأذناه الصغيرتان الشافقتان محشوتان فطنا لهذا الداعى نفسه من غير
 شك . وشعره طويل أشقر شقرة باهنة ، مجعد ومطيب بكثير من الاتقان
 والاحكام . أما يدها اللتان لهما اظافر طويلة معنى بهما فهما من شدة
 البياض والنصاعة بحيث لا بد أنه يفسلهما بماء الورد . ذلك كله كان
 يدل فيه على افراط فى تكلف الرفه وتصنع اللطف والمعجب بالنفس
 والتوانى . وكان يقرز شففيه ، ويلبغ بالراء تجملا على « الموضة » ،
 ويحيل طرفه بحركة دائرة ، ويتنهد ويتأوه ، ويتعنج ويتدل ، وينشر
 جسمه عطرا قويا . وهو متوسط القامة ، أميل الى الهزال ، يشئ ركبتيه
 حين المشي على نحو خاص لا شك أنه يبدو له آخر صبيحة من صبيحات
 « الموضة » . وباختصار : كان هو الرفاهة بعينها ، والفنج بذاته ، والتصنع
 بعينه . ولكن شعوره بخطورة شأنه نفرنى منه وكرهنى به من أول
 نظرة .

قلت وأنا أأمل الخادم الشاب بقسوة :

- هل لون ربطة العنق هذه هو لون « آديلايد » ؟
- فأجابني بلهجة متصنعة واثقا من نفسه :
- نعم *** « آديلايد » !
- وهل يوجد لون يدعى لون « آجرافينا » * ؟
- لا ياسيدى * لا يمكن أن يوجد لون بهذا الاسم *
- لماذا ؟
- لان اسم « آجرافينا » غير لائق *
- غير لائق ؟ لماذا ؟
- الأمر واضح ومفهوم * ان اسم « آديلايد » اسم أجنبي ملئ نبلاء
- أما اسم اجرافينا فتسمى به نساء من أدنى درجات الشعب **
- يمينا انك لمختل العقل !
- أبدا * عقلى سليم كل السلامة * فى وسعك أن تنعتنى بأبشع الصفات ، ولكن هذا لا يمنع أن كثيرا من الجنرالات بل ومن الكونتات كانوا راضين عن أقوالى *
- ما اسمك ؟
- فيدوبلياسوف *
- ها ** أأنت اذن فيدوبلياسوف ؟
- نعم أنا *
- اذن فانتظر يا صاحبى ! سوف تتعارف مزيدا من التعارف *
- ولم أستطع وأنا أهبط السلم أن أمتنع عن التفكير فى أن هذا المنزل يبدو فرعا من فروع مستشفى للمجاذيب *

٤

الشاى



تلك السلطنة نفسها التى التقيت فيها بجافريلا ،
يدخل المرء الى القاعة التى تقدم فيها الشاى •
كانت الطريقة الغريبة التى حذرني بها عمى من
الاستقبال الذى ينتظرني فى هذه القاعة تقلقني
كثيرا • انه ليتفق للشباب أن يكونوا مسرفين فى الحفاظ على كرامتهم
وغرورهم حفاظا تصاحبه الخشية ويرافقه الخوف فى جميع الأحيان
تقريبا • لذلك شعرت بضيق شديد وخرج كبير لا حيلة لى فى دفعه حين
هممت أن أجتاز عتبة الباب فرأيت جميع الحضور حول المائدة على حين
فجأة ، فاذا أنا أتعثر بحافة السجادة من سوء حظى ، فأترنح ، ثم اذا أنا
أجدني أئب وثبة واحدة فأصبح فى وسط الغرفة ، حتى لا أفقد توازني •
حتى اذا صرت هنالك تجمدت وقد اصطبغ وجهي بحمرة شديدة، وأخذت
أنظر قدامى نظرة غريبة كمن فقد فى آن واحد عمله وسعادته وسمعته •
واذا كنت أذكر هذه الحادثة الطارئة التى تبدو غير ذات بال ، فانما
أذكرها لما كان لها من ترجع كبير فى حالتى النفسية طوال ما بقى من
النهار ، ولما كان لها تبعاً لذلك من تأثير كبير على علاقتى ببعض شخصيات
هذه القصة التى أرويها •

لقد أردت أن أنحنى ، ولكننى بعد أن ملت الى الأمام قليلا من باب

الاحترام اشتدت حمرة وجهي كما لم تشتد في يوم من الأيام ؛ فما كان مني الا أن هرعت الى عمي فتناولت يده وقلت بصوت لاهت :

• صباح الخير يا عمي •

ان ما كنت أريد أن أقوله هو غير هذا تماما : كنت أريد أن أقول كلاما مختارا منمقا، ولكنني لم أعر على غير هاتين الكلمتين «صباح الخير»، لا أدري لماذا !

أجابني عمي وقد أخرجته خرافتي كثيرا :

• صباح الخير ، صباح الخير يا صديقي العزيز • لقد سبق أن التقينا •

ثم همس يوشوشني :

• لا تكن خجولا مضطربا الى هذا الحد ، أرجوك • ليس هذا بشيء • ذلك يحدث لجميع الناس ! •
والفتت الى أمه يقول :

• اسمحي لي يا أماه أن أقدم اليك عزيزنا الشاب • انه مضطرب بعض الاضطراب ، ولكنك ستحيينه حتما •

وأضاف يخاطب الحفل كله :

• هو سرجي ألكسندروفتش ، ابن أخي •

ولكن اسمحوا لي أيها القراء الأعزاء ، قبل أن أتابع سرد قصتي ، أن أقدم لكم كل شخصية من هذه الشخصيات التي وجدتها أمامها ذلك شيء لا بد منه لتسلسل القصة •

كان هنالك عدة سيدات ، ورجلان فقط ، عدانا أنا وعمي • ان فوما

فومتش الذى كنت أرغب كثيرا فى أن أراه ، والذى كان سيد المنزل غير منازع فيما كنت أحسه فى تلك اللحظة ، لم يكن هناك . وكان غيابه قد ذهب بكل ضياء الغرفة . فكل واحد غارق فى هم كالح . ذلك امر يخطف البصر . وقد أدركت ، رغم خجلى واضطرابى وقلقى ، أن عمى كان هو أيضا فى خرج وضيق ، وانه كان يبذل جهودا كبيرة فى سبيل أن يخفى اضطرابه وراء مرح مصطنع مجلوب . لكان صخرة ثقيلة كانت تعجم على صدره . وكان أحد الشخصين الجالسين الى المائدة فتى فى نحو الخامسة والعشرين من عمره هو ابنوسكين الذى كان عمى قد اطرى فكره واخلاقه منذ برهه . لم يعجبني هذا الرجل . ان كل شئ فيه يكشف عن تكلف يدل على فساد الذوق . كان رداؤه خلقا رثا رغم حرصه على الظهور بمظهر الاناقة . أما وجهه فهو يعبر هذا التعبير نفسه عن البلى والرائة . ان شاربيه الدقيقين الاصفرين المعقوفين ، ولحيته المثورة كششا متفاوتة ، تدل دلالة واضحة على أن صاحبها يدعى الظرف وطرافة الذهن بل والتحرر والاعتاق الفكرى .

وهو لا ينفك يغمز بعينه ويتسهم ابتسامة مكر مصطنع ودهاء متكلف، ويصغر وجهه وهو جالس على كرسيه ، ويحدق الى من خلال نظارته . ولكنه يسقط نظارته كلما التفت نحوه كأننى أقبض عليه متلبسا بالجرم . أما السيد الثانى فهو شاب فى نحو الثامنة والعشرين من عمره . انه ميزتشيكوف ، قريبى . كان يبدو صموتا جدا فى الواقع . فانه طوال فترة تناول الشاى لم ينطق بكلمة واحدة ، ولم يشارك أية مشاركة فى الضحك الذى انطلق فيه جميع الحضور . ولكننى لم ألتح فيه أى شئ يذكر بذلك « الخجل » الذى حدثنى عنه عمى . بالعكس : ان عينيه الصافيتين الواضحتين النابتين قليلا تدلان على أنه صلب العزيمة قوى الطبع .

وان له شعرا اسود ، وبشرة ملفوحة ، وقسمات جميلة . وكان يرتدى ثيابا انيقه - على نفقه عمى طبعا ، كما عرفت ذلك فيما بعد .

اما بين السيدات فان تلك التى لاحظتها قبل غيرها انما هى الأنسه بربيلستين ، وذلك بسبب ما يتصف به وجهها الكاليج الباسر من زرقة ضاربه الى سواد . كانت جالسة قرب الجنرالة التى سافها فيما بعد ، ولكنها متاخرة عنها قليلا من باب الاحترام والاجلال . وكانت تميل عليها، بين الفينة والفينة لتهمس فى آذن حاميتها ببعض الكلام . وكان ثمة امرأتان عجوزان أو ثلاث نسوة عجائز مصطفات قرب النافذة لا يقلن شيئا ولا يتفوهن بكلمة . وانما هن ينظرن الى السيدة الجنرالة ويرقبن باحترام ان يؤمر لهن بالشئ . وقد لفتت انتباهى أيضا سيدة بدينة سمينه فى نحو الخمسين من العمر ، مترهلة اللحم ، مثقلة الوجه بالزينة ، محزومة حزما فظيحا بثوب صارخ الالوان ، وليس لها من الانسان الا بقايا جذور مسودة ، ولكن ذلك لا يمنعها قط من اطلاق صرخات صغيرة ، أو من اجالة طرفها ذات اليمين وذات الشمال ، أو من التظرف والتدلل والتفنج . ان أنواعا من السلاسل تزين صدرها ، وهى ما تنفك تضع نظارتها على عينيها لتحقق الى وتفسر فى ، كما كان يضع السيد أوبنوسكين نظارته لهذا الغرض . انها أمه على كل حال . وكانت عمتى اللطيفة براسكوفى ايليتشنا تصب الشئى . أحسست أنها تحترق شوقا الى تقبيلى بعد طول الفراق ، بل الى تقبيلى باكية . ولكنها كانت تكبح جماح نفسها وتسيطر على عاطفتها . كان كل شئ يبدو ممنوعا محظورا فى هذا المنزل . وكانت البنت الصغيرة ذات العينين السوداوين ، الجالسة قربها ، تحدد الى بنظرة ثابتة واستطلاع طفولى . انها بنت عمى ساشا ؛ وهى صبية فى الخامسة عشرة من عمرها . وأخيرا فان السيدة التى أثرت فى نفسى أكثر من غيرها بين سائر السيدات كان لا بد أنها فى نحو الخامسة

والثلاثين ، ولكنها كانت تتزين زينة فساة شابة . كان لهذه المخلوقة الغريبة وجه نحيل شاحب كانه يابس ، ولكنه وجه كثير الحركة . فالحمرة تصعد الى خديها الشاحبتين عند ايسر تأثر ، ولدى اقل حركة ؛ وكأنها لا تستطيع ان تلبث فى مكانها هادئة ، من فرط ما تتحرك وتضطرب على كرسيها . وكانت تنظر الى باستطلاع شره نهم ، ثم تميل بغير انقطاع على ساشا او على جاريتها الاخرى لتهمس فى اذنها ببعض الكلام ، ثم ما تلبث ان تنطلق فى ضحكه فرحه ولكنها ضحكه طفولية بغير تكلف . وما كان أشد دهشتى حين لاحظت انه ما من احد كان يولى شذوذها أى انتباه كأنما هم قد تعاهدوا على ذلك . وقد حذرت انها تاتيانا ايفانوفنا ، الالسة التى وصفها عمى بانها غريبة الاطوار ، التى يريدون ان يتزوجها عمى بسبب ثرائها الطائل ، التى يدللها جميع من فى المنزل لهذا الغرض . ومع ذلك فان عذوبه عينيها الزرقاوين قد فتنتى . ان فى هاتين العينين من المرح والصراحة والطيبة ما يجعل المرء يسر للقائهما ، رغم الغضون التى تخددهما منذ الان . ولما كانت تاتيانا ايفانوفنا هذه احدى « البطلات » الرئيسيات فى قصتى ، فسأتكلم عنها فيما بعد بمزيد من التفصيل . ان سيرة حياتها شائقة جدا . وبعد وصولى الى القاعة بنحو خمس دقائق اسرع ابن عمى اليوشا يأتى من الحديقة . انه هو الطفل القتال الذى سيحتفلون بعيدة فى الغداة . كانت جيوبه ملأى بعظيمات صغيرة مما يلعب به الأطفال ، وكان فى يده خذروف . ووراءه دخلت فتاة رشيقة القوام بارعة الجمال كان يبدو أن وجهها قد شحب من التعب . ألقت على الحفل نظرة فاحصة وجلى خجل فى آن واحد ، وحدقت الى ، ثم مضت تجلس قرب تاتيانا ايفانوفنا . أتذكر أن قلبى أخذ يخفق عندئذ خفقانا قويا رغم ارادتي . لقد أدركت أنها هى المعلمة الشابة التى سبق الكلام عليها . وأتذكر أيضا أن عمى رشقى عند دخولها بنظرة خاطفة ، وسرعان

ما احمر وجهه ، فمال على اليوشا ، وتناول يده ، وجاءني به لاقبله .
ولاحظت كذلك أن السيدة اوبنوسكين ، بعد أن تفرست في عمى ،
وجهت نظارتها نحو المعلمة الشابه مبتسمه . واحترار عمى فيما يصنع ،
وأحسست انه ود لو يقود ساشا نحوى ليعرفنى بها ، ولكن البنية اكفت
بان نهضت وحيثى من مكانها منحنية انحناء الاحترام ، فراقى ذلك منها
كثيرا ، لأنه يناسبها .

وفجأة لم تطق عمى الطيه براسكوفى ايليتشنا صبرا ، فاذا هى
تقطع عن صب الشاى وتسرع نحوى فتضمنى بذراعيها . ولكن ما كدت
اقول لها كلمتين ، حتى دوى صوت الانسة بيريلستين هاتفا :

— لا شك ان براسكوفى ايليتشنا قد نسيت السيدة الجنراله امها
التي طلبت شيئا من الشاى وما زالت تنتظر .

فسرعان ما تركتى براسكوفى ايليتشنا وهرعت تؤدى واجباتها .
ان الجنراله ، وهى الشخصية الرئيسيه فى هذه الحلقة ، الشخصية التى
يعفرض لها الجميع جناح الذل ، عجوز نحيلة الجسم جهمة الوجه ترتدى
ملايس الحداد — ولعلها جهمة الوجه بسبب السن وبسبب فقدانها آخر
ما تملكه من ملكات عقلية ، وهى ملكات لم تكن لامعه منذ أن لم تكن الا
امراة مختلة . ولم يردها لقب الجنراله الا حماقه وعجرفة ، فاذا غضبت
استحال المنزل كله الى جحيم . وكان لها فى ذلك طريقتان ، فأما الطريقة
الأولى فهى الصمت : فالعجوز تظل أياما بكاملها لا تفتح فمها ، وترفض
متجهمة الوجه كل ما يقدم اليها أو ترميه على الأرض . وأما الطريقة
الثانية فهى نقىض ذلك . فالجنراله تندفق عندئذ فى الكلام تدفقا غزيرا .
ويبدأ الأمر فى العادة على النحو التالى : تهوى جدنى (فهى جدتى) الى
حزن قريب من اليأس ، وتأخذ تتبأ بقرب الساعة ونهاية العالم ودمار

أسرتها وتقول ان البؤس وأفظع أنواع الشقاء بهم أن تقع • ويزداد غمها وكرهها أثناء كلامها على تنبؤاتها ومخاوفها ، حتى تصل من ذلك الى أن تأخذ تعد الكوارث المقبلة على اصابعها ، وتسقط اخيرا فى نوع من « الاعماء » ؟ وهى تعلن عندئذ بطبيعة الحال أنها اذا لم تكن قد قالت حتى ذلك الحين شيئا ، فلأنها مضطرة الى هذا اضطرارا : افليس عليها « فى هذا المنزل » ان تسكت عما يعذبها ويقلقها أكثر من أى شيء اخر منذ زمن طويل ؟ اه •• ليتهم أظهروا لها شيئا من الاحترام على الاقل ! •• ليتهم أصغوا الى كلامها مزيدا من الاصغاء ! •• اذن لكنت الحال غير الحال •• الخ الخ •• وكان قطع سيدات حاشيتها ، ثم الأنسة بيريلستين ، يؤيدن كلامها فورا ، وكذلك فوما فومتش الذى يجد فى جميع الأحيان سيلا الى تعزيز قولها فى تفخيم وتعظيم • حين رأيت جدتى كانت تحضن غضبها على الطريقة الاولى ، وهى اهرب الطريقتين من غير شك • كانت صامته وكان كل واحد من الحضور يتأملها مهموما مغموما خائفا •• الاتيانا ايفانوفنا التى يبدو أن كل شيء كان مباحا لها •• فقد كانت مشرقة المزاج لم يفسد صفاءها شيء • قاذنى عمى الى جدتى فى شيء من الوقار والجلال • ولكن جدتى مطت شفيتها امتعاضا واستياء ، ودفعت عنها فجان الشئ بحركة عنيفة •

وضفضفت تقول مخاطبة السيدة بيريلستين :

— هو البهلوان ؟

فما ألقت جدتى هذا السؤال حتى ارتبكت ' ارتباكاً شديداً ، ولم أنهم لماذا تصفنى بالبهلوان • ولكن المرء يمكن أن يتوقع أشياء كثيرة أخرى من الجنرالة •

مالت بيريلستين عليها ، وهمست فى أذنها ببعض الكلام ، فهزت

الجنرال عندئذ يدها بحركة تنم عن العداء • وكنت واقفا أمامها ، فالتفت الى عمى بنظرة مسائلة وقد فغر فمي من الدهشة • وتبادل جميع الحضور نظرات خاطفة ؟ وحتى أوبنوسكين كشف عن أسنانه ، وذلك أمر تفرزت منه كثيرا •

همس عمى يقول لى مرتبكا كارتباكى :

- انها تخرف من حين الى حين • ولكن ليس هذا بشيء • ان طيبة قلبها هى التى تجعلها كذلك • وانما ينبغي للمرء أن ينظر الى القلب •

صاحت تاتيانا ايفانوفنا تقول فجأة بصوت واضح ترجع مدوياً فى وسط الصمت :

- نعم ، الى القلب ، الى القلب •

كانت لا تحوّل عني بصرها ، ولا تستقر فى مكانها • لا شك أن كلمه « قلب » التى نطق بها عمى بصوت خافت قد بلغت سمعها • ولكنها ، رغم رغبتها الواضحة فى اصدار رأى ، لم تكمل كلامها ، بل صمتت ، سواء عن خجل أو لأى سبب آخر ، واحمرت احمرارا شديداً ، ومالت على المعلمة بحركة عنيفة لتهمس فى أذنها بشيء ، ثم لم تلبث أن حملت مندليها الى فمها بفتة ، وارتدت الى وراء على ظهر مقعدها ، وانفجرت تضحك ضحكا بدا لى هستريا • نظرت الى الحضور مذهولا مصعوقا • فما كان أشد دهشتى حين رأيت كلا منهم محافظا على جده ووقاره كأن لم يحدث شيء غريب • فأدركت عندئذ ماذا يجب أن يكون رأى فى تاتيانا ايفانوفنا • وصُبَّ لى الشاى أخيرا ، فاستعدت شيئا من هدوئى ورباطة جأشى • ولا أدري لماذا اعتقدت عندئذ أن على أن أشرع فى حديث متودد لطيف مع السيدات • قلت :

- لقد كنت على حق يا عمى حين نبهتني منذ قليل الى أن علىَّ أن لا أضطرب •

ثم اردت أقول مخاطبا السيدة أوبنوسكين وأنا أبتسم ابتسامة مشجعة :

- يجب أن أعترف صراحة - وفيهم أخفى ذلك ؟ - أنتى لم أكد أختلف حتى الان الى سيدات • وان دخولى المتعثر الى هذه القاعة قد أسبغ على هيئة رجل اخرق • هل قرأتم قصة « الاخرق » ؟*

كذلك أضفت وقد احمر وجهى • لم يبق لى كثير من رباطة الجاش • ولكن هذا لم يمنعنى من ان ارشق السيد اوبنوسكين الذى كان لا يزال كاشفا عن اسنانه وكان ينظر الى من الراس الى القدمين ، ان أرشقه بنظرة متوعدة مهددة •

صاح عمى يقول بحماسة وقد أبهجه أن يبدأ الحديث أخيرا ، وأن يرى ابن اخيه مستردا هدوءه :

- صحيح جدا ، صحيح جدا • يا صاحبى ، ليس شيئا أن يضطرب المرء بعض الاضطراب • وليس يبقى لهذا اثر من الآثار • هل تعرف ما وقع لى أنا فى أول عهدى ؟ لقد كذبت • أيمكنك أن تصدق ؟ أؤكد لك يا اتوز بتروفا أنها حادثة مضحكة جدا • كنت قد قبلت فى المدرسة الحربية • فما ان وصلت الى موسكو حتى ذهبت الى سيدة كبيرة كنت أحمل لها كتاب توصية • انها امرأة كبيرة القلب رغم أنها متكبرة متعالية • دخلت الى صالون غاص بأناس أكثرهم من عليه القوم • انحنيت محيا وجلست • فما هى اللحظة حتى سألتنى السيدة : « هل تملك أطيانا ؟ » • ولم أكن أملك حتى خما حقيرا للدجاج ! فماذا كان يجب أن أجيب ؟ اضطربت اضطرابا شديدا • وكان جميع من فى الصالون ينظرون الى

نظرة معناها : « مالك أيها الغر ؟ ألا تريد أن تتكلم ؟ » • لا أدري لماذا لم اقل اننى لا أملك شيئا ! لو قلت ذلك لكان خيرا ، لأنه هو الحقيقة • غير أننى لم أجرؤ ، فقلت : « نعم ، أملك أرضا عدد آفانها مائة وسبع عشرة نفسا » • لماذا مائة وسبع عشرة بدلا من رقم كامل ، هه ؟ ففكره غريبة ! وها هم أولاء يعرفون بعد دقيقة واحدة ، من رسالة التوصية التى احملها للسيدة ، أننى صعلوك كفارة كنيسة ، وكذاب فوق ذلك ! ماذا بقى علىّ ان افعل ؟ بقى علىّ أن أهرب بأقصى سرعة ، وأن لا أضع قدمى فى هذا المنزل بعد الان فى يوم من الأيام ! •• فى ذلك الاوان لم أكن أملك ما أملكه الآن • ان الثلاثمائة نفس التى ورثتها عن جدى آناستازى ماتفتش والماتتى نفس التى ورثتها مع كابيتونوفكا من جدتى آكيلين بانفيلوفنا •• ومجموع ذلك خمسمائة نفس •• ذلك كله ليس بالأمر اليسير •• ومنذ ذلك اليوم انما آليت على نفسى أن لا أكذب قط •

قال أوبنوسكين وهو يتسهم ابتسامة ساخرة :

— لو كنت فى مكانك لما آليت على نفسى شيئا •

فقال عمى مؤيدا ببساطة وبراعة :

— نعم ، صحيح ، صحيح جدا • فليس يعرف أحد ما يمكن أن

يحدث !

فانفجر أوبنوسكين مقهقه وهو ينقلب على ظهر كرسيه • ابتسمت أمه ، وضحكت الآسة بيرلتسين ضحكا كريها • أما تاتيانا ايفانوفا التى أخذت تضحك أيضا ، فقد صفقت يديها دون أن تعرف لماذا تصفق • الخلاصة أننى رأيت أن عمى لا يعد شيئا مذكورا فى منزله نفسه • وألقت ساشا على أوبنوسكين نظرات تستعل حنقا • واحمرت المعلمة من الاضطراب • ودهش عمى •

قال وهو يجيل بصره فى الحلقة كلها قلعا :

— ماذا ؟ ماذا هناك ؟

وفى أثناء ذلك ، ظل ابن عمى ميزنتشيكوف صامتا منتحيا • ان هذا المرح الشامل لم ينتزع منه حتى ابتسامة • كان مكبا على قدح الشاي يحتسيه هادئا ، وينظر الى الناس الذين يحيطون به نظرة فيلسوف • وقد بدا لى غير مرة انه يهم ان يصفر على العادة القديمة دفعا لضجر لا يطاق ، ولكنه كان يكبح جماح نفسه كل مرة فى الوقت المناسب • وتراءى لى آن اوبنوسكين الذى كان يتهمك على عمى صراحة ، ويلتهمنى بعينه التهاما ، كان لا يجسر ان ينظر الى ميزنتشيكوف وجها لوجه • ولاحظت أيضا أن ابن عمى الصموت كان يتاملنى خلسة باستطلاع واضح ، كأنه يحاول أن يروز قيمتى كاتسان •

نبصت السيدة اوبنوسكين تقول على حين فجأة :

— أنا متأكدة ، أنا متأكدة كل التأكيد يا سيد سرجى — أليس هذا

هو اسمك ؟ — انك لم تكن فى عاصمتنا بطرسبرج من عباد السيدات المتحمسين ! اننى أعرف أن كثيرا من الشباب فى هذه الأيام ينفرون من صحبة النساء • وهؤلاء فى رأى ملاحدة • لست أستطيع أن أصف هذا الا بأنه غاية التحلل • وأؤكد لك ، أيها الفتى ، أن هذا يدهشنى الى أقصى حدود الادهاش ، نعم الى أقصى حدود الادهاش ! ••

أجبتها بسرعة مفرطة :

— أنا لم أختلف الى المجتمع قط •• غير أن هذا ليس بنذى بال •• كنت أعيش فى مسكن صغير ، وكنت أمكث فى بيتى كثيرا ••• لا ••• ليس هذا بنذى بال ••• تستطيعين أن تصدقينى ••• سوف أرتاد المجتمع •••

قال عمى شارحا معللا فى أبهة :

- كان يدرس العلوم •

- آه ... أعود الى الكلام على هذا يا عمى ؟

كذلك هتفت أقول ، ثم أضفت بلهجة طليقة وأنا التفت مرة أخرى نحو السيدة أوبنوسكين ، مبتسما ابتسامة تودد وتحجب :

- تصورى أن عمى يبلغ من عبادته للعلم أنه عثر فى الطريق العام على رجل يعده حدثا خطيرا • انه فيلسوف عملى اسمه كوروفكين • حتى أن أول كلمة بادرني بها بعد كل هذه السنين الطويلة من الفراق هى أنه ينتظر وصول هذا الحدث نافد الصبر محموما ... هه ؟ رأيتم الى ما يمكن أن يفعله حب العلم !؟ ...

ولتأكدى من أن فكاهتى ستبهج جميع الحضور ، انطلقت أضحك •

سألت الجترالة على حين فجأة متجهة الى الأنسة بيربلتسين :

- من ؟ من الرجل ؟

قالت الأنسة تشرح بلهجة ساخرة متكبرة :

- لقد دعا ياجور ايلتش علماء • انه يذهب الى الطريق العام ليلتقط عددا منهم •

فنظر الى عمى نظرة عتاب ، وقد شعر بانزعاج وخرج ، ثم هتف : يقول :

- صحيح ! نسيت أن أقول لكم • اننى انتظر كوروفكين • هو عالم كبير ... ستكون أعماله فتحا جديدا ...

قال عمى ذلك وصمت فجأة كأن الكلمات اختنقت فى حلقه • وفى

هذه المرة قامت الجنرالة بحركة بلغت من الاحكام أنها دفعت فنجانا من
الفناجين فانكسر متدحرجا من الطاولة على أرض الغرفة • فتبع ذلك
انفعال عام •

همس عمى يقول لى مضطربا اضطرابا شديدا :

— ذلك يحدث كلما غضبت • لا بد لها أن تتناول شيئا من الاشياء
وأن ترميه على الارض ••• حين تغضب فقط ••• لا تنظر ••• أدر
رأسك الى الجهة الاخرى ••• لماذا جئت على ذكر كوروفكين ؟

ولكننى كنت قد أدت رأسى الى الجهة الاخرى قبل أن يوصينى
بذلك • وفى تلك اللحظة نفسها التقيت بنظرة المعلمة • كانت حمرة
الاستياء تخضب وجنتيها الشاحبتين • وبدا لى أن نظرتها كانت مشحونة
بعتاب واحتقار فى أن واحد ؟ أو هذا ما فهمته من تلك النظرة على الأقل ،
وادركت أن رغبتى الطائشة الغيبة فى أن أضحك الناس على عمى
بغية أن أظهر لهم أقل سخفا منه قد حرمتنى من عطفها وحدها ••
لا أستطيع أن أعبر عن مدى ما شعرت به عندئذ من خجل ، ومدى
ما أحسست به من عار •

فلما هدأ الانفعال الذى أثاره انكسار الفنجان صاحت آتوز بتروفا

تقول :

— فلتكلم عن بطرسبرج أيضا • اننى أتذكر هذه المدينة الأخاذة ،
فتملكنى فتنة • كنا أيامئذ عند الجنرال بولوفستين أصدقاء حميمين •••
هل تتذكر يا بافل ؟ ••• آه ••• ما كان أروع زوجه الجنرالة ! •••
المجتمع الراقى ••• المجتمع الارستقراطى ••• لا شك أنك التقيت بها
•• يجب أن أعترف لك بأننى انتظرتك طويلا بصبر نافذ ••• اننى آمل
أن أعرف منك أشياء كثيرة عن أصدقائنا بطرسبرج •

- يؤسفنى أتنى لا أستطيع أن أحقق ظنك *** فكما قلت منذ
هنيهة *** أنا لم أختلف الى المجتمع *** ولا أعرف الجنرال بولوفستين،
ولا سمعت أحدا يتكلم عنه ***

كذلك قلت بشئ من التملل والتبرم *

هتف عمى الذى لا يتعظ ولا يعتبر ، هتف يقول :

- كان منصرفا الى علم المعادن *** وعلم المعادن هو دراسة مختلف
أنواع الحجارة ، أليس كذلك ؟

قلت :

- نعم يا عمى ، هو دراسة الحجارة ***

- هم *** العلوم شتى *** ولكل علم من العلوم فائدته ! الحق
أنه يلبكنى أن أشرح ما هو علم المعادن * فأنا فى شؤون العلم لا أحسن
غير السماع *** أما أن أفهم شيئا فذلك شأن آخر *** أنا لا أفهم فى
هذا الميدان شيئا *** أعترف بذلك بكل اخلاص ***

قال أوبنوسكين يردد كلماته ضاحكا :

- تعترف بذلك بكل اخلاص ؟

صاحت ساشا وهى تلقى على أبيها نظرة متوسلة ضارعة :

- بابا !

- ماذا يا عزيزتى ! آه *** معذرة يا آنتوز بتروفنا *** لقد

قاطعتك *** اعذرينى *** أرجوك ***

كذلك قال عمى الذى يرغب دائما فى الاعتذار ، ولم يفهم ماكانت

تريد منه ساشا *

أجابت آتوز بتروفنا وهى تبسم ابتسامة مدبة :

- أوه ! ليس الأمر بذى بال ... لقد انتهت من سؤال ابن أخيك
عما كنت أحرص على معرفته ... ومع ذلك يا سيد سرجى - أليس هذا
هو اسمك ؟ - اليك النتيجة التى خلصت اليها : عليك أن تصلح نفسك
... أنا مقتنعة بأن للعلوم والفنون ... كفن النحت مثلاً ... أن لجميع
الأفكار العظيمة جانباً أذاذا ... ولكنها لا تغنى عن السيدات ... ان النساء
نعم النساء ، أيها الفتى ، هن اللواتى سيثقفنك ... لذلك لن تستطيع
الاستغناء عنهن ... مستحيل ... مستحيل *

ورددت تاتيانا ايفانوفنا بصوتها المجلجل تقول :

- مستحيل ... مستحيل ...

وأضافت بنوع من التعجل كتعجل الأطفال وهى تحمر احمراراً

شديداً :

- اسمع ، أريد أن أسألك ...

فأجبتها وأنا أنظر اليها بانتباه شديد :

- أنا مصغ اليك يا آنسة !

- أريد أن أسألك * أأنت باق هنا زمناً طويلاً ؟

فأجبت :

- والله ... لا أدرى ... هذا رهن بأعمالى ...

- أية أعمال ؟ كيف يمكن أن تكون له أعمال ؟ ما هذا المختل ؟

قالت تاتيانا ايفانوفنا ذلك واصطبغ وجهها بلون الأرجوان حتى

الأذنين ، وأخفت وجهها وراء مروحتها ، ومالت على الخادمة فأخذت
توشوشها ثم صفقت بيديها فجأة وانطلقت تضحك .

قالت وهى تترك نجيتها لتخاطبني مرة أخرى بحرارة وقوة كأنها
تخاف أن لا يتسع وقتها لشرح ما بنفسها قبل أن أنصرف :

- انتظر ، انتظر ... اليك ما يجب على أن أقوله لك : انك تشبه
أحد الناس شبيها كبيرا ، شبيها كبيرا ، هو فتى كان ... نعم فتى رائع ..
ساشا ، ناستيا ، ألا يشبه ذلك المختل الآخر ؟ هل تتذكرين يا ساشا ...
ذلك الذى التقينا به ... الذى كان راكبا حصانا ، وكان يرتدى صدرة
بيضاء ... ونظر الى من خلال نظارته ... ذلك الوقح ! وعندئذ لم
أطق صبرا ، فخفضت حجاي وقفزت من العربة وصحت اقول له : « يالك
من وقح وغد ! » وأنا أرمى يافتي على الطريق ... هل تتذكرين
يا ناستيا ؟

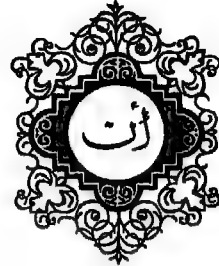
قالت هذه الأنسة الولهى ذلك منفعة ، ودفنت وجهها فى يديها ،
وبعد لحظة وثبت من مكانها وركضت الى النافذة . وهناك تناولت وردة
من مزهرية فرمتها على الأرض قربى ، ثم هربت الى غرفتها قائلة :
« وداعا ، لقد رأيتك » . وأعقب ذلك شيء من اضطراب . ومع ذلك فان
الجنرالة احتفظت بهدوء كامل ، كأنما لأول مرة . ولم تظهر الدهشة
كثيرا على آتوز بتروفنا ، ولكنها لم تلبث أن اضطربت فجأة ، لا يدرى
أحد لماذا ، ونظرت الى ابنها بشيء من القلق والخوف . واحمرت الآنسات
.. وأظلم وجه بافل أوبتوسكين دون أن أستطيع عندئذ أن أدرك علة
ذلك ، ونهض من مكانه ومضى الى النافذة . أما عمى فقد أخذ يومىء
الى . وفى تلك اللحظة ظهر شخص جديد لفت اليه كل الانتباه .

صاح عمى دون أن يخفى فرحه :

— ها ... هذا أوجراف لاريوتتش ! يا للمفاجأة الجميلة ! أنت
واصل من المدينة ؟

قلت لنفسي : « ياله من معرض حيوانات ! لكنهم قد اختيروا اختيارا
دقيقا ! » • قلت لنفسي ذلك دون أن أفهم كثيرا ما يجري أمام عيني ،
ودون أن يخطر ببالي أنني أصبحت واحدا من هذه المجموعة منذ ظهوري
بين هؤلاء الناس •

ساجف كين



شخصا مضحكا قد دخل الى الغرفة ، أو قل تسلك مواردبا رغم أن الباب كان مفتوحا على مصراعيه • انه منذ كان فى العتبة ينحنى احتراما ويتشى اجلالاً ، ويشتر الابشامات العريضة يمنة ويسرة • ولكن هذا لا يمنعه أن يفتحنا باستطلاع قوى • انه عجوز قصير مجدور حاد البصر متهرب النظرة أصلع الجبين ، له فم غليظ الشفتين تتلاعب عليهما ابتسامة هى أقرب الى الهزء والسخر • كان الرجل يلبس رداء متهرئا لا يتناسب وقامته ، قد تدلى أحد أزراره فى طرف خيطه ، وأعوزه زران آخران ؛ وهو ينتعل حذاءين معقوفين الى وراء ، ويضع على رأسه قبة متدنة تكمل رداءه الفقير البائس ، ويحمل بيده منديلا ذا مربعات ، متسخا امساخا شديدا ، كان يجفف به عرق جبينه وصدغيه • • رأيت المربية تلقى على نظرة سريعة وتحمر قليلا ، ولكن بدا لى أن نظرتها كانت نظرة متحدية ولا تخلو من كبر وخيلاء •

— من المدينة رأسا يا عزيزى المحسن الى ، المنعم على ! من المدينة رأسا • • • سأقص عليك الأمر تفصيلا • • • ولكن اسمح لى أولا أن أقدم احترامى لمن يجب على أن أقدمه له •

كذلك قال القادم الجديد ، وهو يتجه نحو الجنرالة • ولكنه سكن متجمدا فى منتصف الطريق اليها ، وأردف يقول مخاطبا عمى :

- أيها العزيز المحسن الىَّ المنعم على ، انك تعرف صفتي المميزة •
أنا رجل مسكين ، ما ان أدخل حتى أتسلل نحو الشخصية الرئيسية
فأمثل أمامها لأحظى برضاها ، فأننى أحرص على الحظوة بهذا الرضى
منذ أول خطوة أخطوها . أنا رجل مسكين ، أيها المحسن الىَّ ، المنعم علىَّ ،
أنا انسان صعلوك ... اسمح لى يا سيدتى المحترمة الجليلة ، اسمح لى
يا صاحبة السعادة ، أن أقبل طرف ثوبك حتى لا أوسخ بشفتى يدك
الغالية التى هى يد جنرالة !

وما كان أشد دهشتى حين رأيت الجنرالة تمد اليه بيدها بكثير
من الرضى •

وتابع الرجل يقول متوجها الى الأنة يربلتسين :

- وأنت يا جميلة الجميلات ، اليك تحياتى واحترامى ! لا حيلة
لى يا سيدتى العظيمة ... أنا انسان بائس • لقد تقرر هذا منذ سنة
١٨٤١ ، حين طردت من الوظيفة ، ورقى فالاتان تيخوتسييف • لقد
عينوه « معاون قاض » * ، وردونى أنا رجلا مسكينا بائسا • ما حيلتى ؟
كنت سأحاول أن أبقى رجلا شريفا ، أما الآن فيجب أن أعرف كيف أدبر
أمورى ! وأنت يا الكسندرا ياجوروفنا (تابع يقول ذلك بعد أن دار حول
المائدة ليقترب من سائنا) ، يا تفاحة صغيرة جميلة ، اسمح لى أيضا أن
أقبل ثوبك ! نعم انك كالنفاخ عبقا وشذى ! ويا اليوشا ، اليك احترامى •
لقد حملت اليك يابنى العزيز قوسا ونبالا • أعددت ذلك فى الصباح ، واشترك
معى فيه كل من فى المنزل • سوف يتاح لنا استعمال القوس ، حتى اذا
كبرت أصبحت ضابطا وقطعت رعوس الترك ... تاتيانا ايفانوفنا ...
آه ... انها ليست هنا ، هذه المحسنة الكريمة ، فلا سبيل الى تقبيل ثوبها

•• ويا براسكوفى ايلينتشنا ، يا فاتنة ، لو استطعت أن أصل اليك اذن
 لقبلت يديك وقدميك ! نعم ••• تماما ••• آتوز بتروفنا ••• أقدم
 اليك تحياتى المتواضعة الذليلة • فى هذا اليوم نفسه ، أيتها المحسنة ،
 دعوت لك راكما على ركبتى ، والدموع تملأ عيني ، سائلا المولى أيضا
 أن يغمر ابنك بالرتب والمواهب ، بالمواهب خاصة ! وأنت يا ايفان
 ايفانوفتش ميزتشيكوف ، اسمح لى أن أحييك ••• أسأل الله أن يهب
 لك كل شيء محققا جميع أمنياتك ••• ولكن المرء لا يعرف ما هى
 أمنياتك ، فانت صامت دائما ••• نعمت صباحا يا ناستيا ••• الاطفال
 يعيشون اليك بتحياتهم • انا نتكلم عنك كل يوم • والآن ، تحيتى العميقة
 لرب المنزل ، لسيد الدار • هأنذا عائد من المدينة توأ يا صاحب النبالة !
 ها ••• هذا هو ابن أخيك عاد من الجامعة ولا شك ••• أقدم اليك كل
 احتراماتى يا سيدى ، هات يدك ، أرجوك •

ضحك الجميع • كان من السهل أن يدرك المرء أن الرجل يهرج
 •• لقد جاء بمجيئه الفرح والمرح • ان أكثر الحضور لم يفهموا
 سخرياته ، مع أنه لم يقتصد فيها كثيرا ••• وقد لاحظت أن المربية
 وحدها ، وهى التى أدهشنى أن يخاطبها باسمها المصغر ناستيا ، قد
 احمرت وقطبت حاجبيها •

سحبت يدى بدلا من أن أمدّها • ولكن الرجل لم يكن ينتظر الا
 هذا •

- كنت أريد أن أصافحك يا صديقى ، ولم تكن لى نية غير هذه
 النية ! آ ••• ظننت أنت أتنى أريد أن أقبل يدك ! أخطأت الظن ! ما كنت
 أنوى الا أن أصافحك أولا • أفتظننى مهرج المنزل ؟ (أضاف ذلك وهو
 يرمقنى بنظرة ساخرة) •

قلت :

- أبدا ، وانما أنا ...

- طيب يا صديقى العزيز ! لئن كنت أضحك الناس هنا فلست بالوحيد . أما أنت فما يزال فى وسعك أن تحترمنى . لست بالتافه الى الحد الذى قد تتوهمه . وأى ضير فى أن أريد أنا ذلك على كل حال ؟ اننى مستعبد ، وامراتى كذلك ، ويجب علينا أن نتملق ، أن نتملق دائما . ذلك هو الأمر حين يكون ثمة أطفال لا بد من اطعامهم . أقول لك سرأ قد ينفك فى يوم من الأيام . حين لا يواتى الحظ ، فلا بد من التهريج ! ...

صاحت آتوز بتروفنا :

- هـى هـى هـى ! يا للعجوز الفاجر ! لا تموزه كلمة مضحكة فى لحظة من اللحظات !

- أيتها الحامية العزيزة ، أنت تعلمين أن الاغبياء هم الذين يعرفون كيف يدبرون شئونهم خيرا من غيرهم ! ولو قد أدركت ذلك فى أوانه اذن لثلث دور المجنون منذ شبابى ، ولربحت من ذلك ذكاء . ولكننى أردت أن أكون عاقلا حكيما فى وقت مبكر فأصبحت غبيا أحقق أنساء شيخوختى .

وكان أوبنوسكين غائضا فى مقعده ، واضعا نظارته على عينيه ، يتأمل العجوز بوقاحة . لعله قد استاء من الماع العجوز الى « مواهبه » ، فها هو ذا يقاطعه الآن سائلا :

- قل لى ، من فضلك ، ما اسم أسرتك ؟ اننى أنساء دائما .

- يا سيدى العزيز ، اذا كنت تحرص على أن تعرف اسمى فان

اسمى يا جفكين ، ولكن ليس هذا بأمر ذى بال ! لقد فقدت منصبى منذ ثمانى سنين ، وما زلت أعيش بحكم العادة ، وأنجبت أولادا بعد أولاد ، فصار لى أسرة يجب أن تسمى هولسكى حقا * • لم يكذب المثل حين قال :

عند الفنى تزخر الخطيرة

عند الفقير ، الكل حول المائدة

– دع الأمثال جانبا ، واسمعنى ! أريد منذ زمن طويل أن أسألك لماذا تلتفت الى وراء كلما دخلت علينا ؟ ذلك أمر غريب !
– لماذا ألتفت الى وراء ؟ لأننى أتخيل أن أحدا سيلطمنى على ظهرى فجأة كما تلطم ذبابة • ومن أجل هذا انما ألتفت الى وراء • لقد أصبحت مجنونا تحاصرنى هذه الفكرة الوحيدة محاصرة مستمرة •

استأنف الحضور الضحك قويا • ونهضت المعلمة كأنها تريد أن تنصرف ، ولكنها عدلت عن رأيها وعادت تجلس فى مكانها ، فكان وجهها ، رغم الحمرة الشديدة التى تغشاها ، يكشف عن ألم مرضى •

همس عمى فى أذنى يقول :

– ألم تفهم ؟ انه أبوها !

نظرت الى عمى محمقا • لم يكن قد بقى لاسم يا جفكين وجود فى ذهنى البتة • لقد ظللت طوال رحلتى أحلم فى أن أبرهن على بطولتى الشخصية • بنيت لخطيئتى المستقبلية جميع أنواع الخطط والمشاريع ، ونسيت ما عسى يكون اسم أسرتها ، أو قل بالأحرى أهملت منذ البداية أن أتبه الى هذا الاسم •

همست فى أذن عمى أقول :

– كيف ؟ أبوها ؟ لقد كنت أحسبها يتيمة •

– هو أبوها يا صاحبي ، هو أبوها • وهو انسان شريف جدا •
وليس يشرب الخمرة قط • كل ما هنالك انه يحب المزاح • وما أشد
البؤس في منزله ! ثمانية أولاد ! يعيشون جميعا من أجرة ناستيا ! لقد
فقد وظيفته بسبب طول لسانه ! وهو ياتي إلينا مرة في الاسبوع • انه
رجل طيب شديد الكبرياء عزيز الكرامة لا يقبل من احد شيئا • حاولت
غير مرة أن أنقده بعض المال ، فلم أقفلح ••• حتى لقد نالني بلسانه •
لقد جعله الشقاء سريع التأذى •

سأله عمى وقد لاحظ أن المعجوز الرياب يصغى إلينا :

– هيه يا أوجراف لاريوفتش ، ماذا عندك من جديد ؟
سأله عمى هذا السؤال وضربه ضربة قوية على كتفه •

– ماذا عندى من جديد أيها المحسن الى ؟ ان فلاتتين اجناتتش قد
قدم أمس تقريره عن قضية تريشين • كانت اكياس دقيق تريشين نافصة
الوزن • ان تريشين هو ذلك الرجل الذى ينظر من تحت كمن يريد أن
ينفخ على جمرات السماور • لعلك تتذكرين الرجل يا سيدتى العزيزة؟
فاسمعوا ماذا قال فلاتتين اجناتتش فى تقريره عنه : « لئن لم يعرف
تريشين كيف يصون عرض ابنه أخيه – وهى تلك الفتاة التى خطفها
ضابط فى السنة الماضية – فانى له أن يحافظ على الغلال العامة كما يجب
أن يحافظ عليها ؟ • ذلك ما ورد فى التقرير كلمة كلمة ، أقسم لكم على
ذلك بشرفى •

صاحت آنتوز بتروفنا تقول :

– ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

وأضاف عمى مؤيدا :

- نعم نعم ... انك تسرف يا ياجور ، يا صديقي ! لسوف يضيعك
لسانك ! أنت رجل مستقيم شريف حسن السلوك ، ذلك أمر نستطيع أن
نؤكد جازمين ، ولكن لك لسانا كلسان الأنفى . أنا لا أستطيع أن أفهم
كيف لا يمكنك أن تتفاهم معهم هناك . أولئك أناس يبدون بسطاء جدا ،
طيين جدا ...

صاح العجوز بنوع الحماسة والنشوة :
- يا أبى والمحسن الى ، ان الاناس البسطاء هم بأعينهم من
يخيفونى .

أعجبني هذا الجواب كثيرا . فاقتربت من ياجفكين بحركة سريعة
وصافحته . الحق أننى قد استبدت بى حاجة قوية الى الاحتجاج بصورة
من الصور على رأى الآخرين مبرهناً صراحة على اعجابى . ومن يدرى ؟
لعلنى كنت أحرص أيضا على أن أرفع قدرى فى نظر ناستيا .
قلت له وأنا أحمر وأتعجل الكلام على عادتى :

- اسمح لى أن أسألك : هل سمعت عن اليسوعيين ؟
- لا يا صاحبى ، لم أسمع عنهم أبدا ، أو قل لم أسمع عنهم الا
قليلا . تلك أمور تفوق حدود علمى وتتجاوز مستوى معرفتى ، ولكن
لماذا هذا السؤال ؟

- ذلك ... ذلك أننى أردت أن أروى لك ... ذكرنى بهذا
فى مناسبة من المناسبات . أما الآن فثق أننى أفهمك ... وأننى قادر على
أن أقدرك حق قدرك .
قلت له هذا وصافحته مرة أخرى وأنا مضطرب أشد الاضطراب .
قال :

– لن يفوتنى أن أذكرك ، ثق بذلك يا عزيزى ! لسوف أسجل
هذا فى رأسى بأحرف من ذهب ! أنظر ... : هأنذا أعقد طرف منديلى
حتى لا أنسى !

وفعلا بحث الرجل عن ركن جاف من منديله المتسخ بالتبغ ، فجعل
فيه عقدة •

قالت عمتى :

– هلا شربت شايك ، يا أوجراف لاريوتش !

– حالا يا سيدتى الجميلة ، حالا يا أميرة ! سوف أشرب الشاى •
لقد لقيت ستيان ألكسيفتش باخشنايف • ما رأيته فى حياتى فرحا هذا
الفرح كله • حتى لقد تساءلت : أتراه يتهيأ للزواج ؟

قال ذلك ثم أضاف يهمس لى بصوت خافت وهو يمر قربى بفنجان
الشاى ويغمر لى بطرف عينه :

– التملق ، التملق دائما •

ثم أردف :

– ولكن كيف لم أر المحسن الرئيسى الى ، فوما فومتش ؟ لماذا
لا يتناول الشاى ؟

فانتفض عمى كمن لسع ، ونظر الى الجنرالة وجلا • ثم أجاب
يقول دفعة واحدة باضطراب غريب :

– لا أدرى ... لقد دعوناه ... ولكنه ... لا أدرى ... من
الجائز أن يكون معتكز المزاج ... أرسلت اليه فيدوبلياسوف ... هل
ينبنى أن أمضى أرى بنفسى ؟

قال ياجفكين بلهجة كأنها لغز :

- لقد مررت به منذ قليل •

فصاح عمى مذعورا :

- صحيح ؟ فماذا هنالك اذن ؟

- أردت أن أراه أول من أرى لأقدم اليه تحياتي واحتراماتي ،

فقال لي انه سيشرب الشاي في غرفته ، وحده ، وأعلن لي بعد ذلك ان

في وسعه أن يكفني بكسرة خبز يابس ، لا أكثر •

أحدثت هذه الكلمات في عمى رعبا شديدا

وقال للمجوز أخيرا وهو يلقي عليه نظرة عتاب :

- كان عليك أن تشرح له يا أوجراف لاريوتتش ، كان عليك أن

تقنعه •

- قلت له كل ما كان يجب قوله •

- وعندئذ ؟

- لبث زمنا طويلا لا يجيبني • كان بسبيل حل مسألة رياضية ،

وكان واضحا أن هذه المسألة الرياضية تصدع رأسه • حتى لقد رأيته يرسم

شكلا هندسيا : هي نظرية فيثاغوروس فيما لاح لي • وقد استأنف رسم

الشكل ثلاث مرات • وفي المرة الرابعة انما تنازل فأنبهض رأسه ، فانتبه

أخيرا الى وجودي ، فقال لي : « لن أمضي اليهم • لقد وصل « العالم »

منذ قليل ! فأين تريد لي أن أختبئ حين تسطع شعلة كهذه الشعلة ؟ » •

تلکم هي أقواله بنصها : « شعلة كهذه الشعلة » •••

قال الرجل ذلك ورشقني بنظرة ساخرة •

صاح عمى متعجبا وهو يحرك يده حركة يائسة :

- كنت أتوقع ذلك ، كنت أتوقع ذلك ! أنت المقصود بقوله «العالم»
يا سرجي • ما عسانا صانعين الآن ؟
أجبت وأنا أرفع كفتى مستاء :
- يخيّل الىّ يا عمى أن رفضاً فظاً كهذا الرفض لا يستحق أن يُنتبه
اليه ولا أن يحتفل به • وائى ليدھشنى حقاً أن أراك قلقاً هذا القلق
كله !

هتف عمى يقول معززا كلامه بحركة قوية :
- آه يا عزيزى ، انك لا تعرف ماذا تقول !
فقاطعته الآتسة بيربلسين فجأة تقول :
- فات أوان التشكى ! أنت سبب البلاء كله منذ البداية ، يا ياجور
ايلتش • ما وقع قد وقع • لو قد أصغيت الى كلام أمك لما وصلت الى
ما وصلت اليه اليوم !

سألها عمى راغباً فى الشرح :
- ولكن ماذا فعلت يا آنا نيلوفنا ؟ بماذا تهميننى ؟ ماذا تأخذين علىّ ؟
ثم أضاف يقول بصوت ضارع :
- ألسن تبالغين ؟

أجابت الآتسة بيربلسين بلهجة قاسية :
- أبدا يا ياجور ايلتش • الذنب كله ذنب أنانيتك وقلة عاطفتك
نحو أمك • لماذا لم تحترم ارادتها منذ البداية ؟ انها أمك على كل حال
• • • ولست فى حاجة الى أن أكذب عليك • • • ما أنا بالمرأة النكرة ! أنت
تعرف أن أبى كان « ليوتان كولونيل » !

تراءى لى أن الآسة بيريلستين لم تتكلم الا لتعلمنا جميعا ، ولتعلمنى
أنا خاصة ، انها ليست شخصا كيفما اتفق *** وانما هى بنت « ليوتنان
كولونيل » ، *

قالت الجنرالة بلهجة مهددة متوعدة :

- انه يهين أمه *

- ماما *** أرجوك *** فيم أهنتك ؟

وتابعت الجنرالة كلامها وقد ازدادت حماستها :

- أنت أسوأ الأتانيين طرأ ***

صاح عمى يائسا :

- ماما *** ماما *** فى أى شيء أعد أنانياً الى هذه الدرجة ؟
انك غاضبة منى حانقة على منذ خمسة أيام كاملة ، ترفضين أن تكلمينى ،
فلماذا ؟ لماذا ؟ هلا حكمتن على أخيرا ؟ هلا أنصفتمونى ؟ أريد أن يحكم
على الجميع ! اسمعوا الحكاية وأنصفونى ! لقد سكت طويلا يا أماه ! لم
تشائى أن تصغى الى قط ! ألا فليسمعنى الجميع اذن ! آتوز بتروفنا ،
بافل سيميوفتش ، يا أيها الانسانان النييلان ، وأنت يا سرجى ، يا صديقى ،
أنت لست من المنزل ، أنت مشاهد محايد ان صح التعبير ، فى وسعك أن
تحكم بلا تحيز ***

قالت آتوز بتروفنا :

- شيئاً من الهدوء يا ياجور ايلتش ، شيئاً من الهدوء ، والا فلسوف
تقتل أملك الطيبة !

- لن أقتل أمى يا آتوز بتروفنا *** بل اليكم صدرى فاطعنوه !

كذلك تابع عمى قوله وقد بلغ ذروة الهياج • (هذا شأن من لا ارادة لهم الناس حين ينفد صبرهم ، ولكن هياجهم ليس الا نار قش) •
وأضاف عمى يقول :

- أحلف لك يا آتوز بتروفا أننى لم أهن أحدا فى يوم من الأيام • دعونى أقول أولا ان فوما فومتش هو أكثر الناس نبلا وشرفا وموهبة ... ولكن هذا لا ينفى أنه ظالم فى معاملتى •
- هم •••

كذلك همهم أوبنوسكين كأنه يحرص على أن يضرهم هياج عمى
مزيدا من الاضرار •

- بافل سيميوتتش ••• يا بافل سيميوتتش النيل الشهم ! أتظننى قطعة من خشب ؟ ألا اننى لارى وادرك ، نعم ارى وادرك ، على تمزق فى قلبى ، أن جميع أنواع سوء التفاهم هذه انما مردها الى الحب الذى يحمله لى « هو » • ولكننى أؤكد لكم أنه يظلمنى • وسأروى لكم كل شىء على كل حال • اننى فى حاجة الآن الى أن أقص هذه الحكاية • سأحكى لك هذه القصة يا آتوز بتروفا بكل وضوحها وكل تفاصيلها حتى تستطيع أن تتابعى مجرى الامور • ستحكمين عندئذ فى الواقع هل من حق أمى أن تفضب على ، ستعرفين لماذا لم يرض عنى فوما فومتش • واستمع أنت أيضا يا سرجى (هكذا تابع عمى يقول ملتفتا نحوى ، ثم لم يثجه الى أحد غيرى بعد ذلك ، كأنه يخشى مستمعيه الآخرين ، ويشك فى تعاطفهم معه) • استمع الى واحكم : أنا على خطأ أم على صواب ؟ اليكم كيف جرت الامور : منذ أسبوع ، نعم منذ أسبوع ، لا أكثر ، مرَّ بمدينةتنا رئيسى القديم ، الجنرال روسابتوف ، مع زوجته واختها ، فتلبثوا فى المدينة بعض الوقت • وقد سرنى كثيرا أن انتهز هذه الفرصة

فمضيت أدعوهم الى العشاء هنا • ووعدني الجنرال بأن يأتي • انه انسان ممتاز ، في وسعك أن تثق بذلك وأن تعتمد عليه ••• انه انسان يتحلى بفضائل جمه •• وهو فوق هذا من وجوه القوم وسادتهم •• لقد غمر اخـت زوجته بالنعم •• كانت يتيمة فزوجها شابا مرموقا (هو اليوم موظف في مالينوفو : شاب يملك ثقافة واسمعه شامله) • الخلاصه ان رئيسي القديم جنرال فـذ بين الجنرالات ! وطبيعي ان العادة عندنا ان الاطباق الصغيرة توضع في الكيرة ، فاستقدمت انا موسيقيين •• كنت سعيدا كـانـني أحتفل بعيدى •• ولكن تصور ان هذا اغضب فوما فومتش • لقد اغضبه ان يرانى مسرورا ذلك السرور كله • أتذكر أننا كنا جالسين الى المائدة • وفيما كانت تقدم لنا حلوى بالقشدة ، وهى من أطباقه المفضلة عنده الاثيرة لديه ، اذا هو ينهض فجأة ويقول صارخا بعد أن تنفرج شفتاه عن كلمة واحدة : « اننى أهان ! اننى أهان » • سألته : « غريب ! لماذا تقول هذا الكلام يا فوما فومتش ! » • فأجبنى : « نعم ، انك تحقرنى • أنت الآن فى حاجة الى جنرالات ! الجنرالات يعجبونك أكثر منى ! » • وأنا انما أقص عليك الحكاية الآن موجزة مجملة ، أما اذا أردت أن أسرد لك تفاصيل ما قاله •• المهم اننى اتمنصت من كلامه •• ما عسى أن تفعل لو كنت فى مكائى ؟ لقد أذهلنى هذا التصرف الى درجة لا أستطيع أن أصفها •• ثم شعرت بساقى ترتخيان كأنهما من قطن • وأخيرا انفرجت الغمة • أبلغنى الجنرال معتذرا أنه لا يستطيع المجيء • الحمد لله ! قلت عندئذ لقوما : « أنت راض الآن ؟ لن يـجـى أحد • » فهل تصدق أن فوما ظل غاضبا منى حاقدا على ؟ لقد استمر يردد بلا توقف : « لقد أهنت •• لقد أهنت » • حاولت أن أهديـ روعه بجميع الأساليب • فكان يجيبنى : « لا •• لا •• اذهب مع جنرالائك • انهم يعجبونك أكثر منى ، لقد فصمت عـرى صداقتنا » • يا رب ! يا رب ! اننى أعرف ما الذى

أغضبه • فلست بالغبي أو الاحمق أو الابله • ان الصداقة العظيمة التي
يشعر بها نحوى هى التي تجعله غيورا ، اعترف لى بذلك هو نفسه •
لقد غار من الجنرال ، لانه خاف ان يفقد عاطفتى نحوه • وهو الآن
يمتحننى ليعرف الى اى حد أستطيع أن اضحى فى سبيله • قال : « لا • •
لا • • فانما يجب ان تكون قيمتى عندك كقيمه جنرال • • يجب ان أكون
فى نظرك : صاحب سعادة ! ساصالحك حين تبرهن لى على تقديرك
واحترامك » • قلت له : « وكيف يجب ان ابرهن لك على تقديرى
واحترامى ؟ » • فقال : « تخاطبنى بقولك طوال يوم كامل : يا صاحب
السعادة ! تلك هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع ان تبرهن لى بها على
تقديرك واحترامك » • ذهلت ذهولا شديدا كأنتى هبطت من بين
السحب • تستطيع أن تتصور المسألة طبعاً ، أليس كذلك ؟ وأضاف فوما
فومتش يقول : « سيكون لك هذا درسا • سوف يعلمك هذا أن لا تعجب
فى المستقبل بجنرالات حين يكون الى جانبك رجال آخرون لعلهم فوق
جميع الجنرالات قدرا ! » • عندئذ لم أطق صبرا • • أعترف بذلك ،
نعم اعترف به صراحة • • فقلت له : « ما هذا الكلام الذى تقوله يا فوما
فومتش ؟ هل فى وسعى أن أقبل أمرا كهذا ؟ هل من حقى أن أنصبك
جنرالا ؟ فكر فيما تطلبه ! كيف تريد منى أن أناديك : يا صاحب السعادة
دون أن أقارف اثما حقيقيا ؟ ان الجنرال رجل يعد فخرا ومجدا للوطن ،
رجل خاض غمار الحرب وسكب دمه فى ساحات القتال ! فكيف أستطيع
أن أناديك يا صاحب السعادة الجنرال ؟ » • ولكنه لم يشأ أبدا أن
يتزحزح عن موقفه وأن يعتقنى من هذا الأمر • ومع ذلك قلت له :
« فوما ، سوف أفعل كل ما تريد • انظر : حين طلبت منى أن أحلق لحتى
عارضىّ لأنهما ليسا من الوطنية فى شئ • فعلت ذلك ؟ ولقد فعلته على
مضض والحق يقال ، ولكننى فعلته • وأنا مستعد لأن أفعل أيضا كل

ما سيرضيك ، ولكن اعفنى من لقب صاحب السعادة ! « فأجابنى : « لا ..
 لن يهدأ بالى قبل أن أنادى بصاحب السعادة . لا بد من هذا قطعا لتقويم
 حسك الأخلاقى وانقاص كبريائك وصلفك وغرورك » . وها هو ذا
 يقاطعنى منذ ثمانية أيام ، نعم منذ أسبوع بكامله . وهو ناظم على جميع
 من يجيئون الى هنا . ومن هؤلاء أنت . لقد عرف ، عرف منى
 وأسفاه ، أنك عالم .. كنت من فرط ابتهاجى بعودتك أننى لم أستطع
 أن أحبس لسانى .. فأعلن أنه سيأرح المنزل اذا أنت وضعت قدميك
 فيه . انه يدعى أن وصولك يعنى أننى أصبحت لا أعده هو عالما .. فما
 عسى يحدث حين يصل كوروفكين ؟ فكر اذن ، وقل لى ، أرجوك ، فيم
 أنا مذهب ؟ هل على أن أخاطبه بقولى : يا صاحب السعادة؟ هل يمكن للمرء
 أن يعيش فى مثل هذا الجو ؟ لماذا طرد من المائدة ، فى هذا اليوم نفسه ،
 باختشاييف المسكين ؟ لنسلم بأن باختشاييف لم يخترع البارود ... أنا
 أيضا لم اخترع البارود ... وأنت لم تخترعه ... فلماذا كل ذلك ،
 لماذا ؟

قالت الجنرالة :

— لأنك لست الا غيورا يا يا جور .

صاح عمى يقول وقد أوشك أن يشارف غاية الكرب والكمد
 واليأس :

— ماما .. لسوف تجعليننى مجنوننا ! انك تردين أقوالا رهية
 يا ماما ! أترك تظنيننى قطعة من حطب ؟ أترك تحسينينى صخرة ؟ يقينا
 انك لا تعديننى ابنك !

قلت وقد صعقتنى القصة التى سمعتها :

— لقد روى لى باختشاييف ، يا عمى ، ولست أدرى هل هذا صحيح ،

أن فوما فومتش قد بلغ من غيرته من عيد اليوشا أنه يدعى أن غدا عيده
هو • واننى لاعترف بان هذه الصفة المميزة قد بلغت من ادهاشى أن ••

قاطعنى عمى يقول بصوته المتقطع :

- لا •• لا عيده ، بل عيد ميلاده • لقد أخطأ التعبير • ليس عيد
فوما فومتش غدا ، بل عيد ميلاده • يجب أن نقول الحقيقة •

فصاحت ساشا :

- كلا •• ليس عيد ميلاده غدا •

فهتف عمى متعجبا :

- كيف ؟ كيف ؟

- كلا يا بابا • أنت لا تقول الحقيقة ، لأنك تريد أن توهم نفسك،
وأن ترضى فوما فومتش • لقد احتفلنا بعيد ميلاده فى شهر آذار
(مارس) ، ألا تتذكر ؟ ذهبنا أولا الى الدير ، وأزعج فوما فومتش فى
العربة جميع الناس وصدع موسهم ، ولم ينقطع طوال الطريق عن
الادعاء بأن ابن عمى « يضغط » أضلاعه ، ثم أخذ يقرصنا •• نعم لقد
قرص عمى مرتين خبثا وشرا • وبعد ذلك، حين جئنا نهنته ونعبر له عن
تمنياتنا غضب لأن الباقة التى حملناها اليه كانت خالية من أزهار الكاميليا،
وقال : « أنا أحب أزهار الكاميليا ، لأن أذواقى هى أذواق المجتمع
الراقى ؟ وأنتم انما أبيتم أن تقطفوا ما تحت الزجاج من أزهار الكاميليا
ضنا بها علىّ وبخلا وشحاً ! » وظل طول النهار لا يزيد على أن يتأوه
ويتشهد شاكياً ، ورفض أن يكلمنا ••

أحسب أنه لو سقطت قبلة فى وسط الغرفة لما أحدثت من الدهشة
والذعر والرعب ما أحدثه هذا التمرد الصريح يصدر عن ؟ عن نبىة

صغيرة ليس من حقها أن تتكلم بصوت عال بحضور جدتها • تبلد ذهن
الجدّة دهشة وذهولا وغضبا وغيظا ، فاذا هى تقوم فجأة ، فنظر أمامها
بعينين خرجتا من حجاجيهما • وتجمد عمى هلما وجزعا •
وأعولت بيرلتسين تقول :

— انظروا الى ما يُسمح به هنا ! انهم يدعون للبنيّة أن تقتل جدتها!
وصاح عمى يقول وهو يركض ذاهبا آيبا بين أمه وابنته :
— ساشا ، ساشا ، ماذا دهالك ؟ اسكتى ...

فصاحت ساشا وقد سطعت عيناها :

— لا .. لا أريد أن أسكت •

ووثبت عن كرسيها وقرعت الأرض بقدمها ، وكررت تقول :

— لا .. لا أريد أن أسكت • لقد طالما تألّنا بسبب فوما فومتش ،

بسبب صاحبك هذا المقرز اللثيم فوما فومتش ! انه يظن أن كل شيء مباح
له فى معاملتك ، لأنهم يكررون على مسامعه دائما أنه ذكى ، وأنه ذو
قلب كبير ، وأنه نبيل ، وأنه عالم ، وأنه يملك جميع الفضائل ، وأنه قدر
مملوءة لا يدرى الا الله بماذا ! ان فوما فومتش يصدق هذا كله كأبله •
ان جميع الناس كان يمكن أن يخرجوا من أن تكتظ معدهم بكل هذه
المقادير من الحلوى ، أما هو فانه يحسد جميع أولئك الذين لم يحصلوا
منها على شيء ، ويطالب بها فى الحاح والحاجة • لسوف ترون • انه
مقرزٌ • مقرز ! .. أنا أقول ما يجب أن أقوله دون أن أخشى أحدا • •
فوما فومتش غبى ، قدر ، قليل الأدب ، لا قلب له • • • رجل صاحب
نزوات ، طاغية ، ثرثار نمّام كذاب • • أنا أريد أن أطرده فورا ، نعم
أريد أن أطرده الآن • • • لأنه يُطيش لب بابا • •

تهاوت الجنرالة على الديوان مغشيا عليها وهى تقول :

— آه •

فصاحت آتور بتروفنا :

— عزيزتى آجاتى تيموفينا ، ملاكى ! استنشقى قارورتى •• هاتوا ماء ! هاتوا ماء ! ••• أسرعوا الى بماء •

وردد عمى ينادى :

— هاتوا ماء •• ماما •• ماما •• هدئى نفسك ! أضرع اليك راکما •• هدئى نفسك ••

وفحّثت بيربلسين تقول وهى ترتجف غضبا وتلفتت نحو ساشا :
— يجب أن تُسجنى فى غرفة مظلمة على الخبز والماء ، أيتها
المجرمة !

فأجابت ساشا وقد عصفت بها الاستياء :

— فلأسجن على الخبز والماء •• سيان عندى •• يجب علىّ أن
أدافع عن بابا ما دام لا يدافع عن نفسه • ما صاحبكم فوما فومتش اذا قيس
بأبى ؟ هلا قلم لى ؟ رجل عاق يأكل خبز بابا ويحيز لنفسه أن يذله !
نعم وددت لو أقطعه لكم اربا اربا ، صاحبكم فوما فومتش القذر هذا !
وددت لو أدعوه الى المبارزة وأن أقتله بطلقتين من مسدس !

قال عمى ضارعا وقد خرج عن طوره وفقد رشده :

— ساشا ، ساشا ، لو قلت كلمة أخرى لصيغتنى ، لصيغتنى الى الأبد !
صرخت البنية غارقة فى دموعها ، وهى ترمى بسرعة نحو أبيها
وتعانقه بذراعيها :

— أبت ! أنت لا يمكن أن تضع • انك انسان طيب ، وجميل ،
ومرح ، وذكى ! ليس على مثلك أن يطيع هذا العاق القذر ، ليس على

مثلك أن يكون العوبة بين يديه ، وأن يصبح أضحوكة الناس جميعا !
أبت .. أبت العزيز ! ..

قالت ذلك وانفجرت منتحبة ، وأخفت وجهها بيديها ، وهربت من
القاعة .

وتبع ذلك لفظ رهيب . الجنرالة راقدة على الديوان مغشيا عليها .
عمى يتهالك أمامها مقبلا يديها . بيرلستين تتحرك حولهما وتلقى علينا
نظرات انتصار كاسر . آتوز بتروفنا تضع على صدغي الجنرالة كمادات
ماء بارد ، وتجعلها تستنشق قارورتها . براسكوفى ايلتشنا ترتجف من
قمة رأسها الى أخمص قدميها وتسكب دموعا سخينة . ياجفكين وجد ركتنا
يختبئ فيه عن الأنظار ، بينما تجسدت ابنته فى مكانها شاحبة الوجه
طائسة العقل ذعرا . ميزتشيكوف وحده بقى فى منجى من هذا الانفعال
الذى شمل الجميع . لقد نهض فاقترب من النافذة وأخذ ينظر الى
الخارج دون أن ينتبه أى انتباه الى ما يجرى .

وفىما كانت الجنرالة راقدة على الديوان ، اذا هى تنتصب فجأة ،
وترشقنى بنظرة متوعدة ، وتصيح بى قائلة وهى تقرع الأرض بقدمها :

- اخرج من هنا .

ولم أكن أتوقع هذا .

وعادت تصرخ :

- اخرج من هنا ! اخرج من هنا ! ماذا يفعل فى هذا المنزل ؟

اخرج ، اخرج ، حالا .

نتم عمى يقول وهو يرتجف كورقة فى مهب الريح :

- ماما .. ماما .. هذا صغيرنا سرجى .. جانا فى زيارة !

- أى سرجى ؟ دعك من هذا الغباء ! لا حاجة الى شرح ! اخرج من هنا ! انه كوروفكين ، أنا متأكدة من أنه كوروفكين ! لم يخدعنى ظنى ! جاء ليترد فوما فومتش ! استدعى خصيصا لهذا الغرض ! لقد أحس بذلك قلبي ! اخرج أيها الجرو !

قلت وقد أصبحت لا أعثر على الكلمات اللازمة من فرط استيائي :
- عى ، اذا كان الامر كذلك ... اذا كان الامر كذلك ...

معذرة ...

وتناولت قبعتى *

- سرجى ، سرجى ، دعك من الحماقات ! لا تبدأ ! ماما ! أقول لك انه سرجى ، عزيزنا سرجى *

ثم صاح وهو يركض ورائى لينتزع منى قبعتى :

- ناشدتك الله يا سرجى ... أنت ضيفى ... ولسوف تبقى ...
أريد ذلك . لا قيمة لما تقوله هى . انها ما تزال غاضبة . هل فهمت ؟
(كذلك أخذ يشرح لى هامسا) . اختف الآن ، وسينقضى كل شئ ،
فما نفكر فيه بعد ذلك قط . سوف تصفح عنك ، أحلف لك لتصفحن
عنك . انها طيبة جدا ، ولكنها لا تملك وعيها كاملا . ألم تر أنها ظنتك
كوروفكين ؟ سوف تغفر لك قريبا ، أحلف لك على هذا .. وأنت
(كذلك صاح يخاطب الآن جافريلا الذى كان يتقدم فى الغرفة وهو
يرتعش خوفا وجزعا) ، ماذا هنالك ؟

لم يكن جافريلا وحده ، بل كان يصحبه فتى فى نحو السادسة
عشرة من العمر ، فتى وضعته وسامة وجهه فى خدمة المنزل ، كما علمت
بعد ذلك . ان اسمه فالالى ، وهو يرتدى زيا خاصا : قميصا من الحرير
احمر ، ذا ياقة محفوفة بشريط ، وحزاما مضافورا من خيوط ذهبية ،

وسروالين من مخمل أسود ، وحذاءين من جلد الماعز لهما قفاز أحمر •
ان هذا الزى هو من ابتكار الجبرالة • كان الفتى ينتحب ، وكانت العبرات
تساقط قطرة قطرة من عينيه الكبيرتين الزرقاوين •

قال عمى :

- ماذا هنالك أيضا ؟ ماذا حدث ؟ تكلم •• تكلم ! ولكن هلا تكلمت
أيها الوغد !

أجاب جافريلا :

- أمر فوما فومنتش بأن نجىء الى هنا ، وسيصل هو بعد قليل •
أما أنا فمن أجل أن يمتحننى ••• وأما هو فلأنه ••

- لأنه ماذا ؟

- لأنه رقص •

بهذا أجاب جافريلا داعم الصوت •

فردد عمى مذعورا ؟

- رقص ؟

فأجابه جافريلا منتحبا :

- رقصة كارمانسكاي !

- رقصة كارمانسكاي * !

- نعم رقصة كامارنسكاي !

- وراآك فوما فومنتش ؟

- رآنى !

صاح عمى :

- انتهى الأمر في هذه المرة ! لقد ضعت ، ضعت !

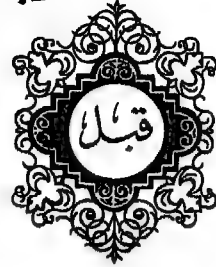
قال ذلك ووضع رأسه بين يديه يائسا !

دخل فيدوبلياسوف القاعة معلنا عن وصول فوما فومتش بقوله :

- فوما فومتش !

وظهر فوما فومتش بشخصه أمام هؤلاء الحضور المتحيرين ♦

البقرة البيضاء وفلاح كامارينو



آن أشرف بأن أقدم لكم فوما فومتش ، أحسب أنه لا بد أن أقول بضع كلمات عن فالالى ، بغية أن أشرح الجانب الرهيب من الواقعة التى أشرت إليها منذ هينة ، وهى أن فوما فومتش فاجأه يرقص رقصة «كارامنسكاي». فالالى يتيم ولد فى المنزل ، وكانت المرحومة عمى اشيبته • ان عمى يجه كثيرا • وهذا وحده كافٍ لأن يجعل فوما فومتش حاقدا عليه ممسكا بتلاييه منذ استقراره فى ستيانسيكوفو. وكان كلما اشتد سلطان فوما فومتش على عمى ازداد كرهه لهذا الفتى الأثير. ولكن فوما فومتش لم يستطع أن ينال الفتى بشئ ، ذلك أن فالالى قد أعجب الجنرالة كثيرا ، لذلك حافظ الفتى على مكانه بالمنزل فى خدمة السادة • كان لا بد أن يخضع فوما فومتش ما دامت الجنرالة حريصة على الصبى • ولكن هذا كان اهانة له لم ينسها - وكل شئ كان يهينه على كل حال - فكان يثار لنفسه من هذه الاهانة كلما سنحت الفرصة ، وذلك على حساب عمى طبعاً ، فان عمى هو الذى لا يستطيع أن يدافع عن نفسه. كان فالالى حسن الهيئة وسيم الطلعة : ان وجهه أشبه بوجه فتاة من فتيات الحقول • فكانت الجنرالة تدله كثيرا ، وتحرص عليه حرصها على لعبة جميلة نادرة ، ولعلها كانت تحبه أكثر مما كانت تحب «أمى» كلبها الهافانى • لقد سبق أن وصفت الزى الذى ابتكرته له • وكانت الآسكات

يهدين اليه عطرا ، وكان كوزما ، الوصيف الحلاق ، قد أمر بأن يجعد له شعره يوم الاحد • ان هذا الفتى مخلوق غريب • ليس هو بالابله قط ، ولكنه كان يظهر من السذاجة ومن البساطة ومن سرعة التصديق ما يحمل على الظن في بعض الاحيان بانه ضعيف العقل • كان اذا رأى في منامه أى حلم من الأحلام اسرع الى سادته يقص لهم حلمه بأدق التفاصيل • وكان يتدخل في محادثاتهم دون أن يلاحظ أنه يقطعهم أثناء كلامهم • وكان يقص عليهم أشياء كثيرة مما يحتفظ به المرء لنفسه في العادة • وكان يجهش باكيا اذا أغمى على سيدته الجنرالة أو اذا قرّع سيده • وكان يشارك مشاركة أليمة في جميع متاعب المنزل ومنغصاته • وكان يقترب من الجنرالة في بعض الأحيان ، فيقبل يدها ضارعا اليها أن لا تغضبها منه هذه الدالة المفرطة ، فكانت الجنرالة تصفح عنه وتغفر له كريمة نبيلة النفس • وكان شديد الحساسية ، وكان وديعا وداعة حمل ، وكان في الوقت نفسه مرحا مرحا طفل سعيد •

انه يلبث أثناء الطعام واقفا وراء كرسى الجنرالة ، وكان الطاعمون يناولونه بعض ما يأكلون من حلوى ، وكانوا يعطونه قطعة من السكر من فرط حبه للسكر ، فيأخذ يقضمها بأسنانه الجميلة – وهى أسنان قوية بيضاء كالخليب – بينما يشرق في وجهه وفي عينيه الزرقاوين عندئذ رضى عظيم وفرح لا يوصف •

قلت ان فوما كان حاقدا عليه منذ زمن طويل • ولكنه حين لاحظ أن كرهه لن يؤدي الى شيء قرر فجأة أن يصبح للفتى حاميا وراعيا ، فأخذ عندئذ بتلايب عمى وراح يلومه على أنه لا يعنى بتعليم خدمه ، ثم لم يلبث أن طفق يعلم هذا الصبي المسكين الأخلاق وآداب السلوك واللغة الفرنسية •

ومن اجل ان يسوغ قراره السخيف هذا (وان كاتب هذه الصفحات قد رأى بعينه اشخاصا كثيرين اخرين غير فوما فومتش يحملون فى رموسهم هذه الفكرة نفسها) ، اقول : من اجل ان يسوغ قراره السخيف هذا ، كان يردد قائلا : كيف يمكن ان لا يكون الصبى ملما باللغة الفرنسية ؟ انه دائما قريب من سيدته فوق ، فماذا يحدث اذا اتفق مرة على حين فجأة ان نسيت سيدته انه لا يفهم الفرنسية ، فامرته قائلة بالفرنسية : « هات منديلى » * ! اما ينبغي ان يفهم كلام سيدته حتى يقوم بواجب خدمتها على الوجه الأكمل ؟

ولكن فالالى المسكين بدا عاجزا عن تعلم اللغة الفرنسية كعجزه عن تعلم اللغة الروسية : ان عمه اندرونك ، الطباخ ، كان قد حاول ان يعلمه القراءة باللغة الروسية ، فلما بذل جهودا كبيرة فى هذا السبيل دون أن يظفر بطائل ، لم يسمعه الا أن يرمى الالفباء الروسية على احدى المناضد فى مطبخه .

ان فالالى موصل الذهن تماما دون الدراسة فى الكتب . ومن هنا انما جاء البلاء . ولم يلبث الخدم أن أخذوا يناكدون فالالى ويغيطونه بسبب لغته الفرنسية . حتى أن العجوز جافريلا ، وصيف عمى ، قد مضى بالجرأة والجرأة الى حد انكار استفادة هذا الصبى من تعلم اللغة الفرنسية أصلا . قال جافريلا ذلك صراحة . ولكن الأمر سرعان ما بلغ مسامع فوما فومتش ، فأورى ذلك غيظه وحنقه ، فأخذ يعلم جافريلا نفسه اللغة الفرنسية ، معاقبة له على أنه انتقده .

ذلك هو أصل هذه القصة ، قصة اللغة الفرنسية التى استاء منا باختشاياف ذلك الاستياء كله . أما آداب السلوك فقد كان أمرها أنكى وأدهى : فان فوما لم يستطع أن يروض فالالى على ما يجب . وقد ظل الصبى المسكين يجيء الى فوما فى كل صباح يقص عليه أحلامه التى

رآها فى المنام ، رغم أن فوما منعه من ذلك وحرّمه عليه ونهره عنه ، لأن فوما كان يعدّ هذا الأمر متبذلاً الى أقصى الحدود ، خالياً من الاحتشام الى أبعد الدرجات • ان فالالى مصر اصراراً عنيداً على أن يبقى فالالى • وطبيعى أن ذلك كله كان يقع على رأس عمى •

صاح فوما فى ذات يوم (وكان يختار لتعزيز تأثيره اللحظة التى يجتمع فيها الجمع كله) ، صاح يقول لعمى :

— هل تعلم ماذا فعل اليوم ؟ هل تعلم ؟ هل تعرف أيها الكولونيل الى أى حد يصل ضعفك المطرد ؟ لقد التهم اليوم قطعة الحلوى التى مددتها اليه من المائدة ! فهل تعلم ماذا قال بعد ذلك ؟

سأل فوما هذه الأسئلة ثم التفت نحو الصبى وقال له :

— تعال الى هنا أيها اليوم الأبله ، تقدم أيها المعتوه ، انت أيها الوجه المنتفخ شراهة ونهماً •

تقدم فالالى وهو يبكى ويمسح عينيه يديه •

— ماذا قلت بعد أن التهمت الحلوى ؟ كرر على مسامع الجميع ما قلته !

فلم يجب فالالى الا بسكب مزيد من الدموع المرة •

— طيب •• اذا كنت لا تريد أن تقول أنت فسأقول أنا • لقد قلت وأنت تلطم كرشك بحركة غير محتشمة ، بحركة بذئية : « ملأت بطنى حلوى كما ملأ مارتين بطنه صابوناً ! » • فقل لى ، أيها الكولونيل ، هل أمثال هذه العبارات مقبولة بين أناس مهذبين ، هل هى مقبولة فى مجتمع راق ؟

كذلك سأل فوما ، ثم قال للصبى :

- أفلت هذا الكلام أم لا ؟ أجب !

فاعترف فالالى يقول ناشجا :

- نعم قلته !

- والآن اشرح لى قليلا من هو مارتين هذا الذى يأكل صابونا ؟

أين رأيت شخصا اسمه مارتين يلتهم صابونا ؟ هيا •• تكلم ! حدثنى عن هذا الشخص !

لزم فالالى الصمت • فسرعان ما أردف فوما يقول :

- أنا أسألك من هو مارتين هذا ، هل سمعت ؟ اننى أريد أن أراه ،

اننى أريد أن أتعرف به ! ما عساه يكون ؟ أهو كاتب ديوان ؟ أهو عالم فلك ؟ أهو بيشوخونيزى ؟ * أهو شاعر ؟ أهو خادم ؟ انه لا بد أن يكون

شيئا ، فما هو ؟ أجب !

قال فالالى وهو ما يزال يبكى :

- هو خادم !

- خادم من ؟ من هم أسياده ؟

ولكن فالالى لم يستطع أن يذكر من هم أسياد هذا الخادم • وطبعى

أن ينتهى ذلك كله بأن يسجن جنون فوما غيظا ، فهاهو ذا يترك القاعة

صارخا انهم يتعمدون الهزء به والسخر منه ؟ وها هى ذى الجنرالة تصاب

بنوبة عصية ؟ وها هو ذا عمى ، الذى يلعن اليوم الذى ولد فيه ، يعتقد

أن من واجبه أن يعتذر لهؤلاء وأولئك ، ويظل طوال اليوم يمشى على

رعوس الأصابع فى منزله نفسه •

وشامت المصادفة التى تشبه أن تكون عمدا ، شامت أن يأتى فالالى

فى الغداة (وقد نسى قضية مارتين نسيانا كاملا ، ونسى ما لقى من حزن

وكرب نسيانا كاملا أيضا) فيقص على فوما فومتش حين حُمل اليه الشاى ،

أنه رأى فى منامه بقرة بيضاء • فكان ذلك ذروة البلاء ! لقد استاء فوما فومتش استياء شديدا لا سبيل الى وصفه ، فها هو يستدعى عمى ويأخذ يحدنه طويلا فى موضوع الأحلام التى يراها « عزيزه » فالالى فى منامه • واتخذت فى هذه المرة اجراءات قاسية : عوقب الفتى بابقائه راكبا فى ركن من الغرفة ، ومنع صراحة من ان يرى فى منامه أحلاما من هذا القليل ، أحلاما تبلغ هذا المبلغ من العامية والابتذال ، أحلاما خليفة بأن يراها الفلاحون أهل القرى • وقال فوما شارحا : « هذا هو السبب فى اننى أغضب : فبالإضافة الى أنه لا ينبغي له ولا يجب أن يسمح لنفسه ، اذا هو كان مهذبا ، أن يزعجنى بقص أحلامه على ، ولا سيما حين يكون موضوعها بقرة بيضاء ، بالإضافة الى ذلك يجب أن نعترف ، يا كولونيل ، ان بقرة بيضاء كهذه تدل على أن صييك فظ غليظ قليل الأدب • ان أفكار الانسان تُعرف من أحلامه • ألم يسبق لى أن قلت لكم ان هذا الصبى لن يخرج منه شىء ، ولن يصلح أمره بحال من الأحوال ، وان من غير المفيد ابقاؤه فى خدمة سادة ؟ لن تستطيعوا يوماً ، لا لن تستطيعوا يوماً أن تدخلوا فى دماغ هذا الغبى الأحمق أى شىء رفيع ، أى شىء شعرى •

قال فوما ذلك ، ثم التفت الى فالالى فأضاف :

— أليس فى امكانك اذن أن ترى فى منامك حلما من الأحلام فيه رشاقة وفيه رفعة وفيه عقل كما ينبغي أن تكون الأحلام ، كأن ترى مشهدا من حياة المجتمع الراقى ، كأن ترى سادة يلعبون بالورق أو سيدات يتزهن فى حديقة جميلة ؟ •

فقطع فالالى على نفسه عهدا ليرينَّ فى الليلة المقبلة فى أحلامه سادة أو سيدات يتزهنون فى حديقة جميلة •

فلما رقد على فراشه لينام ابتهل الى الله أن يهب له هذه النعمة ،

وفكر مليا فى الطريقة التى يجب عليه أن يعتمد اليها حتى لا يحلم بالبقرة البيضاء • ولكن امال الانسان خداعة • فان فالالى • حين استيقظ فى الغداة • تذكر مذعورا انه حلم مرة اخرى • طوال الليل • بالبقرة البيضاء • وانه لم يتح له • مرة واحدة • ان يرى اية سيدة تنزهه فى حديقة جميلة • وكانت النتائج فى هذه المرة خطيرة • فأعلن فوما بلهجة لا رد عليها انه لا يصدق ان فى الامكان أن يتكرر هذا الحلم • وان فالالى انما يفعل هذا اذن عامدا • باوامر يتلقاها من أحد فى المنزل • لاشك أنه الكولونيل نفسه • بنفسه أن يهينه • هو فوما فومتش • وتكاثر الصيحات والملاحظات والدموع • وسقطت الجزالة مريضة فى ذلك المساء نفسه • وارتعب جميع من بالمنزل وتجهمت وجوههم • وبقي امل ضعيف • هو ان يحلم فالالى فى الليلة التالية بشئ يتصل بالمجتمع الراقى • فما كان أشد انزعاج الجماعة كلها حين ظل فالالى طوال أسبوع كامل على التالى لا يحلم الا بقرته البيضاء • بقرته البيضاء فقط • وأصبحوا لا ياملون أبدا أن يروه يحلم بالمجتمع الراقى •

وأطرف ما فى هذا الامر أن فالالى كان عاجزا عن الكذب • مع أن الكذب فى مثل هذه الحالة اثم يقتفر • لم يخطر ببال فالالى ولا دار بخلده أن يقول مثلا انه رأى فى منامه فوما فومتش مع سيدات كثيرات • ان فالالى يبلغ من الشرف أنه يعجز عن الكذب حتى لو أراده • لذلك لم يجازف أحد فيوحى اليه بشئ • كان كل واحد فى المنزل يعلم أن فالالى سيفضح نفسه لدى أول اشارة • وأن فوما فومتش سيقبض عليه عندئذ متلبسا بجرم الكذب • وأصبح وضع عمى صعبا حرجا الى آخر درجات الصعوبة والحرج • ما عساه فاعلا ما دام فالالى لا سبيل الى اصلاحه • وأخذ الصبى المسكين يهزل ويضوى حزنا وشجنا • وأكدت ميلانى الفسالة أن الصبى قد أودى بسحره • وأخذت ترشه بماء مبارك • وشاركت

براسكوفى ايلتشنا الطيبة التى انقبض صدرها غماً وهماً ، شاركت فى هذا العمل النافع • ولكن ذلك كله لم تكن له كذلك أية جدوى : فما من شئ أمكن أن يصلح الحال • وكان فالالى يقول : « لعن الله هذه البقرة البيضاء ! انها تعود فى كل ليلة • وأنا أردد فى كل مرة عند المساء ابتهالى قائلاً : أيها الحلم لا تكن بقره بيضاء • ولكن دعواتى تذهب سدى ، فالبقرة البيضاء اللعينة تنتصب كل ليلة أمامى بقرونها الطويلة وشفتيها الضخمتين ، ثاغية : موء •• موء •• موء ! •• » •

وفىما كان عمى بالغاً ذروة الكرب والكمد بسبب هذا الأمر ، اذا بفوما فومتش يبدو عليه فجأة ، لحسن الحظ ، أنه نسى قصة البقرة البيضاء هذه ! واضح ان أحدا لم يكن يتصور أن فوما فومتش يمكن أن ينسى قضية تبلغ هذا المبلغ من الخطورة • فقال كل واحد بينه وبين نفسه مرعوباً : لا شك أنه يحتفظ بها ذخيرة يخرجها عند أول مناسبة • ولم يدركوا الا بعد ذلك أن فوما فومتش كان فى تلك اللحظة قد ترك البقرة البيضاء جانباً ، لأن فكره كان مشغولاً بأمر آخرى ، لأن خططا أخرى كانت تنضج فى دماغه الخصب القوى • فذلك هو السبب فى أنه وهب للصبى فالالى هدنة يتنفس أثناءها •

تخفف فالالى وتخفف معه الجميع • استرد مرحه ، حتى لقد بلغ من نسيان الماضى أن ظهور البقرة البيضاء فى منامه أصبح يقل ليلة بعد ليلة ، دون أن تنقطع البقرة البيضاء رغم ذلك عن التذكير بوجودها من حين الى حين • الخلاصة أن كل شئ كان يمكن أن يجرى على خير حال لولا رقصة « الكامارنسكيا » •

من الضرورى أن نلاحظ أن فالالى كان يرقص رقصاً رائعاً يفتن اللب حقاً • هذا هو الاستعداد الوحيد الذى يملكه الذى يشبه أن يكون

موهبة طبيعية • انه يرقص فى حماسة ونشاط وفرح وبهجة لا ينضب لها معين • ولكنه كان يؤثر الرقصة التى تنسب الى « موجيك كامارينو » ، لان ما تقتضيه هذه الرقصة الخفيفة من دورات على قدم واحدة كانت تحظى منه باعجاب خاص ، بل لمجرد أنه كان يستحيل عليه أن يسمع أنغام هذه الرقصة دون أن يأخذ جسمه بالتحرك • ففى بعض الأحيان ، أثناء السهرة ، كان يجتمع خادمان أو ثلاثة والحوذى والبستاني الذى يعزف على الكمان ، وسيدة أو سيدتان من الخادمات ، كان يجتمع هؤلاء منتحين جانبا وراء حوش قصى فى أبعد مكان عن فوما فومتش • وتبدأ الموسيقى ثم تبدأ الرقصات ، الى أن تنطلق رقصة « الكارامنسكيا » مدوية مظفرة • ان الأوركسترا تتألف من آلتى بالالاىكا وقيثارة وكمان وطبل • وان متيوشا الساس هو الذى يحسن قرع الطبل باتقان كامل • فليتك ترى عندئذ كيف كان فالالى يدور على قدمه راقصا ! كانت صرخات التشجيع والفرح التى يطلقها مشاهدوه تحفزه مزيدا من الحفز ، وتحرضه مزيدا من التحرير ، فاذا هو يأخذ يقرع الأرض بقدميه قرعا ينسى معه نفسه ، وتهك به قواه • وهو فى أثناء ذلك يطلق صيحات حادة ، ويضحك ملء صدره ، ويصفق بيديه ، ويثب من مكانه وثوب من تحركه قوة غريبة عنه ، قوة عارمة تجبره على أن يقرع الأرض بكعبه قرعا ما ينفك يستمر ويشد على قدر تسارع الايقاع مزيدا من التسارع • تكلم دقائق متعة كبيرة للصبي كان يمكن أن تستمر طويلا لولا ان فوما قد بلغته أنبأؤها أخيرا •

ذهل فوما حين بلغه النبأ ، فأرسل يستدعى الكولونيل ، وقال له :
 - يا كولونيل ، ليس لدى الا سؤال واحد ألقه عليك : أترك
 حلفت لتفقدن هذا الأبله صوابه تماما ؟ نعم أم لا ؟ اذا كانت الأولى فأنى
 انسحب ، أما اذا كانت الثانية فأنى •••

فصاح عمى مذعورا :

- ولكن ماذا هنالك ؟ ماذا جرى ؟

- ماذا جرى ؟ أأنت تجهل اذن أنه يرقص رقصة «كارامنسكيا» ؟

قال عمى :

- ولكن أى خير فى هذا ؟

فصرخ فوما :

- اى خير فى هذا ؟ أأنت تقول هذا الكلام ، أنت سيده الذى يجب أن تكون له من بعض الوجوه بمثابة أب ؟ ولكن أترك تفهم حق الفهم ما تمثله رقصة « كامارنسكيا » ؟ هل تعلم أن مدار الأغنية على رجل ساقط يقترب أحقر عمل وهو فى حالة سكر ؟ هل تعرف الى أى حد يعضى هذا الفاسد اللفظ المنحل ؟ انه يدوس أقدم الصلات ويسحقها سحقاً ان صبح التعبير، بحذائيه اللذين تعودا أن يدوسا أحقر الخمرات ؟ أترك تدرك أن جوابك يسئ الى أنبل عواطفى ويؤذى اسمى مشاعرى ؟ أترك تدرك ذلك أم لا ؟

- ولكن يافوما .. ما هى الا أغنية يافوما ..

- ما هى الا أغنية ! ألا تستحى أن تعترف بأنك تعرفها أنت يا من تنتمى الى المجتمع الراقى ، يا من أنت أب لأولاد طاهرين أبرياء ، يا من أنت كولونيل فوق ذلك كله ؟ ليست الا أغنية ! .. أنا متأكد من أن هذه الأغنية انما أوجت بها حادثة واقعة . ليست الا أغنية ! .. ولكن أى انسان يمكن أن يعترف ، دون أن يموت من الشعور بالخزى والعار ، بأنه يعرف هذه الأغنية ، وبأنه سمعها ولو مرة واحدة ؟ أى انسان ؟ أى انسان ؟

- ولكن يا فوما •• لا بد أنك تعرفها أنت أيضا ما دمت تتكلم عنها
على هذا النحو •

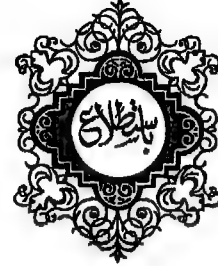
كذلك قال عمى منقادا لبساطة نفسه وبراءة قلبه • فصاح فوما
يقول :

- ماذا ؟ أنا أعرفها ؟ أنا ؟ أنا ؟ أيجرؤ أحد أن يقول اننى •• آه !
•• يا لها من اهانة !

بهذا أعول فوما فجأة وهو يشب عن كرسية ويتأنيء غضبا وحنقا •
كان لا يتوقع هذا الجواب الذى يمليه الحس السليم •

لن أحاول أن أصف الغيظ المسعور الذى اعترى فوما فوفتش •
وحسبى أن أقول ان الكولونيل ، بسبب هذا الجواب الذى « ليس فى
محلّه » ، رأى نفسه يطرد شر طردة ، بعيدا عن بصر هذا المدافع عن
مكارم الأخلاق • ومنذ ذلك اليوم حلف فوما فومتش ليقبضنّ على فالالى
متلبسا بالجرم حين يرقص « الكارامنسكيا » • فكان اذا هبط المساء ،
 واعتقد كل من بالمنزل انه مشغول ، نزل هو الى الحديقة خفية ، ودار
حول بستان الخضار ، ومضى يلطو فى حقل القنب الذى يستطيع أن يرى
منه المكان الذى يؤثره الراقصون • لقد تربص بالمسكين فالالى كما تربص
الصيد بطائر ، متلذذا سلفا بالدرس الذى سيلقنه أهل المنزل جميعا ،
والكولونيل خاصة • وتكلل جهده المستمر بالنجاح آخر الأمر ، فقبض
على الراقصين وهم يرقصون • والآن تفهمون لماذا هم عمى أن يشد
شعر رأسه حين رأى فالالى أمامه باكيا ، وحين سمع فيدوبلياسوف يعلن
فجأة ، فى تلك اللحظة من الحيرة والاضطراب ، عن وصول فوما فومتش
بذاته •

فوما فومس



نههم انما نظرت الى القادم الجديد • لم يخطىء
 جافريلا حين وصفه بالدماة • هو قصير القامة ،
 أشقر الشعر أشبيه ، معقوف الأنف ، مغضن
 الوجه بأخاديد دقيقة ، يزين ذقه ثؤلول ضخم •
 انه فى نحو الخمسين من العمر • دخل من غير ضوضاء ، بخطى موزونة ،
 خافضا عينيه • يد أن زهوا وقحا يلاحظ فى حركاته المتعاظمة المتعالة
 المتفهمة كلها • وما كان أشد دهشتى حين رأيته يدخل علينا بثوب
 المنزل ! صحيح أن تفصيلة الثوب تفصيلة أجنبية ، ولكنه ثوب منزل على
 كل حال • وأكثر من ذلك أنه كان يتنعل «شيشاء» ! وكانت ياقة قميصه
 مقلوبة على طريقة ياقات الأطفال ، بدلا من أن تحزمها ربطة عنق ، فكان
 ذلك يسبغ على فوما هيئة بليدة جدا • مضى قدما نحو الكرسي الشاغر ،
 فقربه من المائدة ، وقعد عليه دون أن ينطق بكلمة • ان كل الضجة التى
 كانت تملأ الغرفة ، وكل الهياج الذى كان قائما فيها منذ دقيقة ، قد حل
 محله الآن صمت عميق مطبق • أصبح من الممكن فجأة أن يُسمع طيران
 ذبابة • هدأت الجمرالة فأصبحت ودیة كوداعة حل • ان العبادة التى
 تحملها هذه البلهاء المسكينة لفوما فومس تسطع فى وضعها كله • ان
 بصرها لا يشبع من النظر الى معبودها • كانت تأكل فوما فومس وتشربه
 بعينها •

وبينما كانت الآنسة بربلتسين تفرك يديها وتصطنع ابتسامة تكشف
عن أسنانها ، كانت عمى المسكينة براسكوفى ايلنتشا ترتعش من الخوف
ارتعاشا واضحا • أما عمى فما لبث أن أخذ يتحرك بسرعة ويكثر من
الكلام حتى لكأنه عدة أشخاص •

- صَبَّيْ ••• صَبَّيْ شَايَا يَا أُخْتِي الْعَزِيزَةُ ••• وَأَكْثَرِي مِنَ السَّكَّرِ
••• فَاَنْ فُومَا فُومْتَشْ يَحِبُّ الشَّايَ كَثِيرَ السَّكَّرِ بَعْدَ الْقِيلُولَةِ • تَرِيدُ
الشَّايَ كَثِيرَ السَّكَّرِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا فُومَا ؟

- لَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ الْآنَ مَسْأَلَةُ شَّايَ ! أَلَا تَفَكَّرُ أَنْتَ يَوْمَا الْآ فَيِ
السَّكَّرِ ؟ •

كَذَلِكَ قَالَ فُومَا وَهُوَ يَتَكَلَّفُ الْوَقَارَ وَيَبْدُو مَشْغُولَ الْبَالِ •
شَاقَتْنِي هَذِهِ الْكَلِمَاتُ كَثِيرًا ، بَعْدَ ذَلِكَ الدَّخُولِ الْمَتَاعِظِ الْمَتْفِيهِقِ
الْمُضْحَكِ • كُنْتُ أَحْتَرِقُ شَوْقًا إِلَى أَنْ أَعْرِفَ إِلَى أَى حَدٍّ مِنْ نَسِيَانِ الْيَاقِفَةِ
وَالْأَدَبِ يُمْكِنُ أَنْ يَمُضِيَ هَذَا الشَّخْصُ الْوَقْعَ الْمَزْهُو بِنَفْسِهِ •

هَتَفَ عَمَّى يَقُولُ :

- فُومَا ، أَقْدَمَ إِلَيْكَ ابْنُ أُخْتِي ، سَرْجِي الْكُسَنْدُرُوفْتَشْ ، الَّذِي وَصَلَ
مِنْذُ بَرَهَةٍ قَصِيرَةٍ ••

فَنَظَرَ إِلَى فُومَا فُومْتَشْ مِنَ الْقَدَمِينَ إِلَى الرَّأْسِ ، ثُمَّ أَجَابَ يَقُولُ بَعْدَ
صَمْتٍ بَلِيغِ الدَّلَالَةِ ، كَأَنَّهُ لَا وَجُودَ لِي :

- يَا كُولُونِيلَ ، إِنْ مِنْ حَقِّي أَنْ أُسْتَعْرَبَ كَيْفَ تَقَاطَعْنِي أَثْنَاءَ كَلَامِي
هَذِهِ الْمَقَاطَعَاتِ الْمَطْرُدَةِ • أَكَلِمَتِكَ فِي قَضِيَّةٍ هَامَةٍ فَتَجِيبُنِي لَا يَدْرِي إِلَّا اللَّهُ
بِمَاذَا ! هَلْ رَأَيْتَ فَالَالِي ؟



فوما فومتش أوبسكين
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

- رأيته يا فوما !

- ها ... رأيته ! ومع ذلك ، رغم أنك رأيته فسوف أريك اياه
أيضا . سوف تستطيع الآن أن تعجب بهذا المخلوق الذى هو «مخلوقك»
بالمعنى المجازى لهذه الكلمة .

ثم التفت فوما نحو الصبي فقال له :

- تعال الى هنا أيها الأبله ! اقترب يا وجه سكير هولاندى ! هيا ،
تقدم ، تقدم ، لا تخف !

دنا فالالى فاغر الفم وهو يشيح خائفا بكاءه . فنظر اليه فوما فومتش
واضيا مسرورا .

قال فوما فومتش وهو يتخذ على مقعده وضعا مريحا ويلتفت برأسه
نحو أوبنوسكين ، جاره :

- لقد تعمدت أن أصفه بأنه وجه سكير هولاندى ! وفيه اللطف
تعايرى فى حالة كهذه الحالة ! الحقيقة قبل كل شيء ! والأقدار تبقى
أقدارا مهما تغطتها . فعلام يكلف المرء نفسه غناء البحث عن عبارات
التلميح والتورية ، علام يخدع المرء نفسه ويخدع غيره ؟ ان الاهتمام
السخيف بلباقات من هذا القبيل لا يمكن أن ينبت الا فى رأس رجل
امعة خفيف العقل ! قل لى ... اننى أحتكم اليك ... هل تجد شيئا
جميلا فى هذا الوجه الممزق ... أقصد هل تجد فيه شيئا نبلا رفيعا
معبرا ، لا مجرد وجه مصطبغ بالحمرة هو وجه سكير ؟

كان فوما فومتش يتكلم بصوت معتدل رقيق عذب ، وهو يصطنع قلة
الاكترات ويظهر العظمة .

أجاب أوبنوسكين باحتقار متقزز :

- تسألني أهو جميل ؟ ألا اننى لا أحس حين أراه الا بأننى أرى شريحة من لحم البقر المقلى •

تابع فوما فومتش بلهجة فخمة :

- فى هذا الصباح اقتربت من المرأة وفى نيتى أن أرى نفسى (قال ذلك ملحا على كلمة « نفسى ») • صحيح أننى لا أعدنى رجلا جميلا • ولكن كان لا بد لى من الاعتراف بأن فى هذه العين الشهباء شيئا يميزنى حتما عن شخص مثل فالالى • ان عيني تدل على التفكير ، على الحياة ، على الذكاء ! وما أطريه بهذا الكلام الذى أقوله لا تدفعنى الى اطرائه حماسة لشخصى ... فانما أنا أتكلم عن طبقتنا جملة • والآن ما رأيك ؟ هل يمكن أن يوجد فى هذه الشريحة المتجولة من لحم البقر المقلى أى اثر من روح ، أى قبس من روح ؟ كلا ... لاحظ أيضا ، يا بافل سميوتش ، ان أمثال هذه المخلوقات المحرومة من الفكر ومن المثل الأعلى حرمانا تاما ، والتي تتغذى على وجه العموم باللحم علفا ، يكون جلدها نضرا نضارة قصوى ، الا أنها نضارة منفرة مقرزة فظة غيبة ! هل تحب أن تقيس درجة ذكائه ! اذن فانظر !

ثم التفت فوما الى الصبى فقال له :

- هيه ... أنت يا كسلان ! اقترب قليلا حتى نستطيع الاعجاب بك ! لماذا تفتح فمك على هذا النحو كأنه فوهة فرن ؟ أترأك تريد أن تبلع حوتا ؟ قل لى : هل أنت جميل ؟ أأنت جميل أم لا ؟

أجاب فالالى وهو يخلق نسيجه :

- جميل •

فانفجر أوبنوسكين مقهقهها ، وشعرت أنا بجسمى يقرقف غيظا •

عاد فوما يقول بلهجة الظافر المنتصر وهو ما يزال يوجه الكلام الى
أوبوسكين :

— هل سمعت ؟ لسوف تسمع المزيد ! فانما جئت الى هنا وأنا أنوى
أن أمتحنه • اسمع يا بافل سيميوفتش • ان هناك أناسا يحرسون على ان
يفسدوا هذا الأبله المسكين ، وأن يكونوا السبب فى ضياعه ضياعا كاملا !
لعلنى أبالغ قليلا فى حكمى ، غير أن ما أقوله انما أستلهمه من حبى
للانسانية • لقد كان هذا الصبى يرقص منذ لحظة قصيرة رقصة هى أبعد
الرقصات عن الأخلاق ! وما من أحد هنا يبدو عليه أنه يلاحظ ذلك •
ولكنك ستطلع على المسألة الآن •

واتجه فوما الى الصبى فقال له :

— أجب ! ماذا كنت تفعل منذ هنيهة ! لماذا لا تجيب ؟ أجب حالا ••
حا ••• لا ••••• هل تسمع ؟

قال فالالى وقد اشتد نسيجه :

— كنت أرقص ••

— أية رقصة كنت ترقص ؟ أية رقصة ؟ قل حالا •••

— « الكارامنسكيا » •

— آ ••• آ ••• « الكارامنسكيا » ! وما هى رقصة «الكارامنسكيا»
هذه ؟ حاول أن تجيب اجابة مفهومة •• قل لنا من هو بطل هذه
الرقصة •

— فلاح (موجيك) •

— موجيك ؟ فقط ؟ انك تدهشنى • اذن لقد كان شخصا بارزا

جدا ، شهيرا جدا ، ذلك الموجيك الذى ألفوا الأغاني والرقصات تكرىما
له ؟ هه ؟ هل كان أى موجيك ؟ هيا ... أجب ! ...

ان فوما يهوى اثاره الاعصاب هوى جامحا • كان يعبث بضحيته
عبث القطة بالفأرة • ولكن فالالى الصامت الباكي لم يفهم من هذه الأسئله
شيئا •

أليح فوما يسأل :

— أألن تجيب أخيرا ؟ لقد سألتك من أين جاء هذا الفلاح ! تكلم
... هلا تكلمت ؟ الى من كان ينتمى ؟ الى سيد من السادة ؟ الى دير من
الأديرة ؟ الى مقاطعة من المقاطعات ؟ هل كان حرا ؟ ان الفلاحين أنواع
وأنواع ...

— الى دير ...

— ها ... الى دير ! هل سمعت يا بافل سيميوفتش ؟ هذه واقعة
تاريخية جديد تظهر • لقد كان فلاح كامارينو ينتمى الى دير من الأديرة
... هم ! ... ولكن ما هى حسنات هذا الشخص العظيم ؟ ما هى
الأعمال المجيدة التى قام بها فاستحق أن يكرم فى أغان ورقصات ؟

ان هذا السؤال الشائك ، الموجه الى فالالى ، لا يخلو من خطر •
قال أوبنوسكين وهو ينظر الى أمه التى أخذت تتحرك على مقعدها
تحركا ذا دلالة :

— اسمع يا فوما فومتش ... أحسب أنك تسرف بعض الشيء ...
ولكن كيف كان يمكن أن يتدخل أحد • ان لنزوات فوما فومتش
قوة هى قوة القانون •

همست أقول فى أذن عمى الذى كان حائرا لا يدرى ماذا يصنع :

- رحماك يا عمى ... أسكت هذا الآبله ... انك ترى الى أين يريد أن يصل من ذلك ... لسوف يضطر هذا المسكين فالالى أن يلفق كذبة ضخمة .

فقال عمى أخيرا يخاطب فوما :

- على كل حال يا فوما ... مهما يكن من أمر ... فوما ... دعنى أقدم لك ابن أخى ، انه شاب مختص فى علم المعادن ...

- يا كولونيل ، أرجوك أن لا تقاطعنى بكلامك هذا عن علم المعادن ! ثم اننى ، اذا صدق ظنى ، أعتقد أنك لا تفهم من علم المعادن شيئا ، لا انت ولا « آخرون » فى أغلب الظن . ما أنا بطفل . اننى اريد أن يجيبى عن ذلك الرجل الساقط الحقيير الذى كان يتسكع فى الشوارع ثملا ، بدلا من أن يعمل لسعادة ذويه ، وما ينفك يلهو ويقصف حتى لبيع معطفه فى سبيل أن يشرب بثمره خمرا . ذلك هو مضمون تلك القصيدة التى تتغنى بالسكر ، كما يعرف جميع الناس ذلك . فلا تخف من شيء . انه يعرف الآن بماذا ينبغى أن يجيب .

وعاد فوما يسائل الصبى :

- هيا ... اشرح لى : ماذا كان يعمل ذلك الفلاح ؟ لقد لقتك الجواب ... وضعت لك الجواب على لسانك ، وأحب الآن أن أسمع بصوتك أنت ! ماذا كان يعمل ذلك الفلاح ؟ لماذا نظموا فى تكريمه القصائد وألفوا الرقصات ؟ ما هو الشيء الذى استحق من أجله الخلود ؟ ما الذى تتغنى به أناشيد شعراء « التروبادور » هيا ... قل ...

كان فالالى الشقى يلقى على الجميع نظرات طائشة زائغة ، وكان

من فرط حيرته يفتح فمه ثم يغلقه كشبوط أخرج من الماء الى الأرض •

وتمتم المسكين أخيرا يقول :

- أستحي أن أقول ...

قال فوما ظافرا منتصرا :

- ها ... يستحي أن يقول • ذلك ، يا كولونيل ، هو الجواب
الذى كنت أنتظره ... يستحي أن يقول ، ولكنه لا يستحي أن يفعل ،
أليس كذلك ؟ تلك هى الأخلاق التى غرستها فى منزلك ، تلك هى
الأخلاق التى أنبتتها ... تلك هى الاخلاق التى تعهدها الآن بالعناية
والسقاية ! ... ولكن فى الكلام كثيرا فى غير طائل ! اذهب الى المطبخ
الآن يا فالالى ! لن أقول لك كلمة أخرى ... وذلك احتراماً منى
للحضور ... ولكنك فى هذا اليوم نفسه ، نعم فى هذا اليوم نفسه
ستلقى العقاب القاسى الذى تستحقه • فاذا لم يعاقبك فى هذه المرة ،
إذا انحازوا الى جانبك ضدى ، فسوف تبقى أنت هنا ترقص
« الكارامنسكيا » مسرعا عن سادتك ، أما أنا فأترك المنزل ... نعم ...
فى هذا اليوم نفسه ... كفى ! قلت كل شيء ! انصرف

جميعهم أوبنوسكين يقول :

- يخيلى الى أنك أسرفت فى القسوة ! ...

فهتف عمى يقول :

- تماما ! تماما !

ولكنه لم يلبث أن توقف عن الكلام فورا ، لأن فوما فومتش شمله

بنظرة قاتمة •

وتابع فوما يقول :

- وانه ليدهننى بعد هذا يا بافل سيميويتش ما ألاحظه من جمود أدبائنا المعاصرين ، وشعرائنا ومفكرينا ! كيف لا يلتفتون باتباهم الى الأغاني التى يرقص على انغامها الشعب الروسى ! أى عمل قام به الى الان هؤلاء الكتاب والشعراء أمثال بوشكين ولروموتوف وبوروزدنا* وغيرهم؟ ألا ان هذا الأمر ليزهل ! الشعب الروسى يرقص « الكارامنسكيا » ، يرقص الأغنية التى تمجد السكر ، ثم هم مشغولون عن ذلك بوصف جمال أنواع الأزهار ! لماذا لا يدعون هذه الأزهار ويفرغون لنظم أغان شعبية أقرب الى الحشمة والأدب ؟ أليست هذه القضية قضية اجتماعية ؟ اذا أرادوا أن يصفوا فلاحاً فليصفوه فى صحبة أناس كرام الأخلاق ، أو قل بتعبير أصح فليصفوا لا فلاحا خشن الطبع فحسب ، بل فلاحا رفيع النفس سامى الروح . فليصفوا قرويا عاقلا بسيطا بساطة طبيعية ، وليجعلوه منتعلا حذاءين من قشر القنب اذا كانوا يحرصون على ذلك ، ولكن فليصفوه متحليا بجميع فضائله وهى فضائل لا أخشى أن أقول ان من الممكن أن يحسده عليها الاسكندر المقدونى الذى طالما كيل له المديح ! « اننى أعرف روسيا ، وتعرفنى روسيا »* . ولهذا نفسه انما أقول هذا الكلام على كل حال . فليصفوا لى هذا الفلاح أشيب الشعر عاثلا مرهقاً بكثرة أعبائه وواجباته نحو أسرته ، مختنقا فى كوخه ، بل ومتضورا من الجوع ، ولكن فليصفوه راضيا عن مصيره قائما بما كتب له ، لا يتذمر ولا يشكو ، بل يبارك فقره ، ولا ينفس على الأغنياء أنهم يملكون ذهابا . . . وليقولوا عن الفنى انه من خانة ورقة عاطفته يقاسمه ذهابه ، بل فليرونا فضيلة رجل الحقول تتحد بعد ذلك بفضيلة سيده العظيم اذا شاعوا ، فاذا القروى والسيد العظيم ، اذا بالطرفين الأقصيين من السلم الاجتماعى يجتمعان على الفضيلة ! يا لها من فكرة رائعة ! ومع ذلك فما الذى نراه بدلا من هذا ؟ نرى فى جهة أزهارا ونرى فى جهة أخرى سكيرا يشب من

الخمارة ويجعل يضرب فى طول الشارع وعرضه خالما عذاره ! أين الفكر
والروح ؟ أين الجمال والرشاقة ؟ أين الأخلاق ؟ اننى لا أفهم !

هتف ياجفكين يقول بلهجة مفتتة :

- فوما فومتش ، اننى مدين لك بمائة روبل لهذه الأقوال التى
تفوهت بها !

والتفت ياجفكين الى يهمس فى أذنى بصوت خافت :

- تملق يا عزيزى ، تملق ، تملق دائما ! ...

وتمتم أوبنوسكين يقول :

- نعم ، لقد أجدت التعبير عن هذه الأمور أيما اجادة !

وهتف عمى الذى أصغى الى كلام فوما فومتش بانتباه شديد وألقى
على نظرة انتصار :

- تماما ! تماما ! ما أجمله من موضوع !

ووشوشنى يقول وهو يفرك يديه :

- ما رأيك ؟ هكذا فلتكن الأحاديث !

ثم صرخ وقد عصف به الانفعال قائلا :

- فوما فومتش ، أقدم اليك ابن أخى • انه يعنى هو أيضا
بالأدب !

وفى هذه المرة أيضا لم يول فوما فومتش تقديم عمى أى انتباه •

همست أقول لعمى بلهجة قاطعة :

- أرجوك ، لا تقدمنى اليه بعد الآن !

واستأنف فوما فومتش الكلام يخاطب ميزتشيكوف الذى أخذ
يحدث اليه :

— ايفان ايفانوفتش ، ما رأيك فى النقطة التى عالجناها ؟

فأجابه ميزنتشيكوف يقول كمن يستيقظ متفصا :

— تسألنى أنا ؟

— نعم ، أسألك أنت ! وانما أسألك أنت لأن الرأى الذى يصدر عن رجل مثقف صادق أحب الى نفسى كثيرا من رأى يصدر عن أناس يظن أنهم علماء ، أناس لا فضيلة لهم الا اطراء فكرهم وعلمهم بغير انقطاع ، أناس يُستدعون فى بعض الأحيان عمدا من أجل أن يعرضوا على الناس فى مبنى خشبى بمعرض أو ما أشبه ذلك ! ...

لا مجال للشك أبدا : ان فوما فومتش يعرض بى تعريضا صريحا .. انه يرمى حجره فى حديقتى رأسا . انه مع رفضه أن يولبنى أى انتباه انما بدأ حديثه كله عن الأدب فى سبيل أن يستطيع منذ أول دقيقة أن يبهز وأن يحقّر وأن يسحق ، فى شخصى ، العالم المطلع والمفكر القوى الوافد من بطرسبرج ... أو ذلك ما وقع فى ذهنى ورسخ فى اقتناعى !

أجاب ميزنتشيكوف يقول متمللا تمللا واضحا :

— اذا كنت تحرص هذا الحرص كله على معرفة رأىى ، فاعلم أننى أوافق على ما ذهب اليه ...

قال فوما :

— أنت دائما توافق ... ذلك أمر يضيق به المرء ذرعا آخر

الأمـر ...

وعاد بعد لحظة من صمت يقول مخاطبا أوبنوسكين من جديد :

— أقول لك صراحة يا بافل سيميوتش اننى اذا كنت أقدر كارامزين *

الخالد فما ذلك لأنه وضع كتابه العظيم فى « التاريخ » لا ولا لأنه كتب

« مارتى ونوفجورود » ولا لأنه كتب دراسته عن « روسيا القديمة
والجديدة » ، وانما لأنه كتب « فلول سيلين » • هذه ملحمة رائعة !
ذلك عمل ينبع من الشعب وسيخلد أبد الدهر ! تلك ملحمة رفيعة !

قال عمى مؤيدا وقد استعاد هدوء نفسه ورباطة جأشه :

— تماما ! تماما ! هى ملحمة رائعة ! • « فلول سيلين » رجل الخير
والفضيلة ! أتذكر أنه بعد ان افتدى امرأتين من الأفتان اتجه بصره الى
السماء وبكى ! تلك لفته رائعة !

مسكين ! انه لا يستطيع أن يمتنع عن أن يقول كلمته حين تدور
الألسنة من حوله فى أحاديث « متعالة » •

وابتسم فوما ابتسامه مرة ولكنه صمت •

قالت آتوز بتروفنا تشارك فى الحديث على حذر :

— على كل حال تكتب اليوم أيضا أشياء ذات قيمة ••• مثال ذلك :
« أسرار بروكسل » •

قال فوما فومتش على أسف :

— لا أشاطرك الرأى • لقد قرأت أخيرا فصيحة من هذه القصائد ••
فاذا سألتنى رأى فيها قلت انها تتغنى بالأزهار أيضا ! أما اذا أردت أن
تعرفى من هو الكاتب الذى أوثره بين الكتاب الجدد ، فأنى أقول لك انه
« الناسخ » * • ذلك قلم رشيق !

صاحت آتوز بتروفنا :

— « الناسخ » ! ذلك الذى يبعث برسائل الى المجلة ! آ •••
ما أروعه وما أجمل تلاعبه بالألفاظ !

- تماما ! تلاعبه بالألفاظ ! انه فى التلاعب بالألفاظ كالبهلوان ان
صح التعبير ! وان له لقلما محكما كل الاحكام !
فال اوبنوسكين مجازفا :
- نعم ! ولكنه متفهيق !

- متفهيق ! متفهيق ! لا أقول نقيض ذلك ! ولكنه متفهيق قريب
من القلب محبب الى النفس ، هو متفهيق رشيق ! صحيح أنه ما من رأى
من آرائه يصمد للنقد ، أنا أسلم بذلك ... ولكنه ثرثار زاخر بالمتعة
ملىء بالرشافة ، هل لاحظتم أنه يذكر فى احدى مقالاته أن له أملاكا ؟
- أملاكا ؟ عظيم ... فى أية مقاطعة ؟
كذلك سأل عمى *

فتوقف فوما ، وحدق الى عمى ثم تابع يقول دون أن يغير لهجته :
- فهل يجب أن يمينى ، أنا القارىء ، أن أعرف أن له أملاكا ؟
يجب أن نعترف مخلصين بأن ذلك أمر لا يهم القارىء . فاذا كانت
للرجل أملاك ، فطوبى له ! ولكن ما أمتع وما أجمل كتابته ! انه يتوقد
فكرا ، انه يتفجر فكرا ، انه يغلى فكرا ... هو نبع ثر لا ينضب ! نعم ،
هكذا فليكتب الكاتبون ! أحسب أنني لو كتبت للمجلات لكتبت على هذه
الطريقة وبهذا الأسلوب *

صاح ياجفكين يقول بلهجة الاحترام :
- بل لكتبتَ بطريقة أفضل وأسلوب أجمل !
- نعم ... بأسلوب فيه مزيد من الموسيقى *

كذلك قال عمى مؤيدا *
هنا فار فائر فوما فومثشر أخيرا فقال :

- يا كولونيل ، هل لى أن أرجوك ، بكل التهذيب المطلوب طبعاً ،
أن لا تزعج نفسك وأن تسمح لنا باتمام حديثنا فى سلام وهدوء ؟ انك
عاجز عن فهم شىء فى هذا المجال ! فلا تمكر اذن مناقشتنا الادبية الشائقة
بملاحظاتك التى لا محل لها • اهتم بأدارة أعمالك ، واشرب شايت ،
ودع الأدب وشأنه • واذا تركت الادب وشأنه فلن يخسر الأدب من ذلك
شيئاً ، أؤكد لك ...

تجاوز هذا الكلام حدود الوقاحة ، فأصبحت لا أعرف كيف
أفكر ...

قال عمى محتجاً وقد اعتراه غم مؤثر :
- ولكنك أنت الذى قلت ، يا فوما ، ان أسلوبك سيمتاز بمزيد من
الموسيقى •

- صحيح ... قلت أنا هذا ... ولكننى قلته علماً بمعنى ما أقول
... أما أنت ...

فردد ياجفكين يقول وهو يدور حول فوما فومتش :
- هذا هو الأمر ... لقد قلنا ما قلنا عالمين بمعنى ما قلنا • • نحن
عندنا من الفكر فيض نستطيع أن نبيع منه ... عندنا من الفكر ما يمكن
ان نوزعه على وزيرين فى أن واحد ، ثم يبقى لدينا منه ما نُسعد به ثالثاً !
أولئك نحن !

قال عمى وهو يتسهم ابتسامة طيبة :
- طيب ... هأنذا أدرك أننى قلت حماقة جديدة !
قال فوما :

- أحسنت اذ اعترفت !

- لا ضير يا فوما ، لا ضير البتة ... أنا لست غاضبا قط ... أنا لم أزعل أبدا ... أنا أعلم أنك تلومنى لوم الصديق صديقه ، كما لو كنت قريبي ، كما لو كنت أخى . أنا نفسى سمحت لك بذلك ، بل رجوتك فيه . هذا يميدنى كثيرا ، كثيرا جدا ... هو يستهدف خيرى وحده . أنا شاكر لك هذا ، اننى أنتفع به ! ...

نفد صبرى . ان كل ما كنت قد سمعته حتى تلك اللحظة عن فوما فومتش كان قد بدا لى مشتملا على شىء من التحيز ضده . أما الان ، وأنا أرى الأمور بعينى ، فان دهشتى قد تجاوزت كل حد . لم استطع أن أفهم كل هذه الوفاحة وكل هذا الطغيان والاستبداد من جانب ، وكل هذه العبودية المرتضاة وكل هذه السذاجة الغرة من جانب آخر . على ان عمى قد تآثر من هذه السفاهة المستمرة ... كان ذلك واضحا ... واحترقت رغبة فى أن أتماسك مع فوما ، فى أن أغلبه ، فى أن أظهر له الفظاظة دون أن أعابأ بالعواقب ! خنقنى هذا الخاطر خنقا .. أخذت أرتقب الفرصة ، وكنت أثناء هذا الانتظار أحك حافة قبعتى فأفسدها شيئا بعد شىء . غير أن الفرصة لم تعرض ... فقد دبر فوما أمره بحيث لا يرانى .

وتابع عمى يقول محاولا أن يسيطر على نفسه وأن يمحو فى الوقت نفسه بأى ثمن الأثر المؤلم الذى خلفه الحديث السابق :

- صدقت يا فوما . أحسنت القول يا فوما . أشكرك . يجب على المرء أن يعرف الشىء قبل أن يقضى فيه . أعترف لك بذلك . ما هذه أول مرة أجدينى فى هذه الحالة . تصور يا سرجى (كذلك تابع عمى يخاطبني الآن) ... لقد كان على فى ذات يوم أن أشارك فى اجراء

امتحانات ... أهذا يضحككم ؟ انتظروا اذن ! يمينا لقد شاركت في
اجراء امتحانات ! دعاني الى ذلك معهد للشباب • وضعت مع المتحسين
الاخرين ، اذ كان يوجد مكان شاغر ، وكانوا يريدون أن يكرموني •
أما أنا فلم أشعر باعزاز ، بل كنت خائفا ... يجب ان أعترف اننى فى
مجال العلم لا اعرف شيئا • ماذا تريدون ؟ لقد كنت طول عمرى اخشى
أن ادعى الى السبورة ! ومع ذلك ألفت الأمر ، حتى لقد أردت أن ألقى
أنا نفسى سؤالا ، فسألت من هو «نويه» ؟ يجب أن أذكر أننى أجبته على
خير وجه • وبعد انتهاء الامتحان تغدينا وشربنا الشمبانيا متمنين الازدهار
والرخاء للمعهد ... انه معهد محترم جدا •

انفجر فوما فومتش وأوبنوسكين يضحكان مقهقهين ، وابهج عمى
أن يعود الجميع الى المرح ، فصاح يقول وهو يضحك ببراءة :

— وأنا أيضا ضحكت بعد ذلك من كل قلبى ... انتظر يا فوما •
لا تتحرك • سأضحكك مزيدا من الاضحاك اذ أروى لك الآن كيف
ارتكبت خطيئة • تصور يا سرجى • كنا أيامئذ كتيبة من الحرس فى
جراسنوجورسك ...

ولكن فوما قاطعه :

— لحظة يا كولونيل ! هل قصتك هذه التى تريد أن ترويها
طويلة ؟

— آه ... فوما ... قلت لك انها مضحكة جدا ... هى قصة
ينعقف لها الجسم من فرط الضحك ... اسمع ... سترى أنها مضحكة
جدا ، جدا ... سأروى لكم كيف قرصت ، كيف قرصت جيدا ! ...

قال أوبنوسكين وهو يتأهب :

- انتى أصغى اليك دائما بسرور حين تكون قصصك من هذا النوع !

وقال فوما يحسم الأمر :

- فلندعن ...

- فوما ، يمينا انها مضحكة جدا • أريد أن أروى كيف ارتكبت غلطة فى ذات مرة يا آتوز بتروفنا • واسمع أنت ايضا يا سرجى : هى قصة مفيدة •

قال عمى ذلك وبدأ يروى قصته بصوته المتقطع ، مشرق الوجه ، مجزئا جملة ، كما يفعل ذلك دائما حين يريد تسلية جمهوره :

- وصلنا كتيبة من الحرس الى كراسنوجورسك • فذهبت منسد المساء الاول الى المسرح لأسمع الممثلة المشهورة المرموقة كوروباتكيننا • لقد هربت هذه الممثلة ، فيما بعد ، مع الكابتن زفروكوف ، ذات مساء • فى المسرح ، أثناء التمثيل ، حتى اضطروا الى اسدال الستارة ! ولكن يا لزفروكوف هذا من وغد ! كان لا يفكر الا فى شرب الخمرة واللعب بالورق • لم يكن سكيما بمعنى الكلمة ، ولكنه كان على استعداد دائما لان يزجى الوقت مع الرفاق • حتى اذا نال حظه من الشراب نسى عندئذ كل شيء : منزله ، والبلد الذى هو فيه ، أى كل شيء ، كل شيء ... حتى اسمه ... ومع ذلك ما كان أروعه من فتى ! طيب ... ذهبت الى المسرح • فلما كان وقت الاستراحة بين الفصلين نهضت من مكاني ، فاذا أنا أجدنى أمام رفيقى القديم كورنوخوف أنفا لأنف • يجب أن أذكر لكم أن كورنوخوف كان فتى فريدا فى نوعه • لم أكن قد رأيته منذ ست سنين • كان فى الحرب ، وكان قد حصل على أوسمة • وكنت قد سمعت أخيرا أنه ترك الجيش وأصبح مدنيا ، فهو يشغل الآن مركزا

ضحكنا ، وقد نال رتبا عالية ، واحدة بعد أخرى . أسعدنا كثيرا أن نلتقي بعد طول غياب ، كما تقدرّون ذلك ، وثرثرنا طويلا . ولكن في الشرفة القريبة منا كان هنالك ثلاث سيدات . فاما التي في الشمال فقد بدت لي دميعة دمامة مخيفة ... علمت بعد ذلك أنها امرأة جديدة بأعظم الاعجاب ، فهي ربة أسرة ممتازة ، وهي قادرة على ان تجعل زوجها سعيدا جدا ... وهأنذا أسأل كورنوخوف ، كما يفعل غبي أحمق : « قل لي يا صديقي ، هل تعرف هذه الفزاعة ؟ » . قال : « اية فزاعة ؟ » . قلت : « تلك ... » . قال : « هي ابنة عمي » . فاحكموا كيف يمكن ان يكون موقفي ! وحاولت ان أخرج من المأزق فقلت له : « لا ... لا ... تلك ... اين عينك ؟ أقصد الاخرى ... اقصد الجالسة في الطرف ... من هي ؟ » . قال : « هي أختي » ... ويل لي ... ولقد كانت اخته في حقيقة الامر فتاة بارعة الجمال أشبه ببرعم ورد ، وكان كل ما ترتديه وكل ما تتزين به من جواهر وأساور وغيرها يناسبها ويخطف البصر بجماله حقا ... الخلاصه انها كانت فتاة أخذة .. وقد تزوجت ، فيما بعد ، برجل لاثق جدا اسمه بيتين ، هربت معه وتزوجته بدون موافقه ابويها ، ولكن الأمور سويت بعدئذ ، وقد ابتسم لهما الحظ وأصابا نراء كبيرا ، والأبوان مغتبطان الآن بهذا الزواج أشد الاغباط ! ... ارتبكت فأصبحت لا أدري أين أدس أنفي ، ثم هانذا أصبح قائلا له : « لا ... لا تلك ... بل الجالسة في الوسط ... مالك لا ترى ؟ » فقال : « الجالسة في الوسط ؟ هي زوجتي يا عزيزي ! » . والحق أن المرأة كانت ساحرة الحسن يتمنى المرء من فرط جمالها أن يأكلها اكلا! ... فقلت له عندئذ : « اسمع ... اذا كنت لم تر في حياتك شخصا أبله ... فان شخصا أبله يقف الآن أمامك ... حتى ان رأسه في متناول يدك ، فاقطع هذا الرأس ، دون أن يعذبك ضميرك على ما فعلت ! »

فأخذ يضحك .. فلما انتهت المسرحية عرفنى بالسيدات الثلاث اللواتى لا شك أنه روى لهن كل شيء ، هذا الخيـث ، لأنهن لم ينقطعن عن الضحك لحظة واحدة . . لا أظن أنني قضيت فى حياتى سهرة أحسن من تلك السهرة ! فانظر يا عزيزى فوما كيف يغلط المرء أحيانا ...
ها ها ها ! ...

ولكن عبتا ضحك عمى ، وعبتا أجال نظرتـه الطيبة الفرحـة فيما حوله ، فان صمنا كصمت الموت قد استقبل حكايته . كان فوما فومتش لا يتحرك ، وكان غارقا فى وضع متجهـم كالحـ يـقلده فيه الجميع ، الا أوبنوسكين الذى ارتسمت على شفته ابتسامة يسيرة لأنه تصور الموعظة التى سيتحمل عمى ثمنها ... وقد أخذ عمى المسكين يحمر فعلا ...
وذلك ما كان ينتظره فوما .

قال فوما للقاص المـضطرب ، بلهجة فخمة :

- هل انتهيت ؟

- انتهيت .

- وأنت مسرور ؟

- مسرور بماذا يا فوما ؟ ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام ؟

كذلك أجاب عمى المسكين وقد حزن حزنا شديدا منذئذ .

- هل تشعر الآن بتخفف وارتياح ؟ هل أنت مغتبط بأنك قطعت

مناقشة أدبية كانت تجرى بين أصدقاء ، من أجل أن ترضى غرورك
التافه ؟

- فوما ! ما هذا الكلام ؟ أنا لم يدر فى خلدى الا أن أسر الجميع

... لماذا تريد أن

هنا استمر فوما فجأة فقال صارخا :

- ان تسر الجميع ؟ انت قادر على أن تضجر الناس لا على أن تسرهم ... هل تعلم ان قصتك التي رويتها لم تكن غير لائقة فحسب ، بل توشك أن تكون منافية للأخلاق ايضا ؟ ... لقد بينت لنا ، بفظاظه نادرة في العواطف ، كيف سخرت من سيده نبيلة بريئة ، لا لشيء الا لانها لم تنل سعادة الخطوة باعجابك ! اما نحن ، نعم نحن ، فقد حاولت أن نضحكنا ، أى حاولت ان نجبرنا على التهليل لك وتأييدك ؟ معنى ذلك أنه كان علينا أن نجذب سلوكك المشين ، لا لشيء الا لانك هنا سيد المنزل . على رسلك يا كولونيل ، ان في وسعك أن تبحث لنفسك عن متطفلين وعن مجاملين ، بل في وسعك أن تستورد أناسا من هذا النوع من بلاد بعيدة تعززا لحاشيتك على حطام الصدق والاخلاص والصراحة ونبيل الاخلاق ، ولكن فوما فومتش لن يكون في يوم من الأيام واحدا من المتطفلين المجاملين لك ... هذا أمر أستطيع أن أضمنه منذ الآن ...

- فوما ! انك لم تفهمنى !

. - بل أنا أعرفك يا كولونيل ! لقد كشفتك منذ زمن طويل . ان غرورا مسرفا يقضم نفسك قضمًا . أنت تطمع في أن تكون رجلا ذا فكر عظيم ، وتنسى أن الطمع يضعف الفكر ويطفئه . أنت ...

- كفى يا فوما كفى ! يجب أن تستحي من قول هذا الكلام أمام

الجميع !

- نعم ، ولكن هذا الذى أراه يبلغ ضيقى به وحزنى منه . أننى لا أستطيع أن أسكت . اننى فقير ، وأنا « ضيف » تلك التي وهبت لك الحياة . فلا أحب أن يظن أحد أننى أقبل أن أتملقك بسكوتى ... لا أحب ان يقع فى وهم شخص « غر » اننى متطفل عليك ! ربما

كان صحيحا أنتى حين دخلت الى هنا منذ قليل قد تعمدت أن أفاقم صراحتى السليمة ، وتعمدت أن أوشك أن أكون فظا ، ولكن سبب ذلك هو انك اخرجتنى عن طورى ! انك مسرف قليلا فى العجرفة والغطرسة معى يا كولونيل ، حتى لقد يحسب أحد اننى عبد لك ، أو اننى طفيلى عندك . انك تسر سرورا كبيرا اذا استطعت أن تهيننى وأن تذلى أمام « غرباء » ، على حين أنتى نذك ... نعم نذك ... هل تسمع ؟ أنا نذك فى كل شئ . ولعلنى أنا الذى أشرفك باقامتى عندك ، ولست « أنت » الذى تشرفنى باستقبالى فى منزلك . اننى أذل ، ومعنى هذا أنتى أجبر على امتداح نفسى ، وذلك أمر طبيعى ... يستحيل على أن أسكت . يجب أن اتكلم ... يجب أن أحتج بغير ابطاء . ذلك هو السبب فى اننى أرانى مضطرا الى أن أبين بغير لف ولا دوران أنك انسان أنانى أنانيه نادرة ! ترانى مثلا أجرى حديثا وديا فأظهر ثقافتى وقراءتى وذوقى ومعلوماتى على غير ارادة منى ، فسرعان ما تحس أنك شخص لا لزوم له ، وسرعان ما تعمد الى مقاطعتى بغية أن تظهر معلوماتك واذاؤك تقليدا لى ! وانى لأسألك عن أذواقك : ما هى ؟ معذرة يا كولونيل ، انك لا تفهم فى شئون الرشاقة أكثر مما تفهم بقرة فى مذاق اللحم . ان ما أقوله لك قاطع وفظ ، أعترف لك بذلك ... ولكنك واجد فيه مزية الصراحة على أقل تقدير ... ليس متملقوك هم الذين يمكن أن يخاطبوك بهذه اللغة يا كولونيل !

— آه ... فوما ! ...

— نعم نعم ... أعرف « آه ... فوما ! » ... واضح أن الحقيقة قاسية صعب بلعها ! ... كفى الآن ! ستتكلم عن هذا كله فيما بعد . أما الآن فاسمح لى أن أسرى عن هذا الجمع قليلا . لست بالوحيد الذى يجب أن يتميز . بافل سيميوفتش ، هل لاحظت هذا الشيطان الذى له

وجه انسان ؟ انتى أراقبه منذ مدة طويلة • أنعم النظر اليه : ألا ترى أنه
يتمنى لو يبلغنى لقمة واحدة ؟

كان هذا الكلام كله يتناول جافريلا • ان الخادم العجوز ، الواقف
على الباب ، كان قد شهد تعذيب مولاه فشعر بحزن شديد •

- أحب أن أرفه عنك بمشهد صغير يا بافل سيمبوتش • هيه !
أنت يا غراب ! اقرب ! مزيدا من الاقتراب من فضلك يا جافريلا
اجنافتش • هذا يا بافل سيمبوتش هو جافريلا الذى ينهى ، عقابا له على
فظاظته ، أن يتعلم اللغة الفرنسية • أنا مثل أورفيه ••• أطف أخلاق
الناس فى هذا الزمان ••• لا بالأغاني ••• هذا صحيح ••• وانما بتعليم
اللغة الفرنسية • هيه أيها المسيو الفرنسى ! هيه أيها المسيو المتسكع ! انه
لا يطيق أن أناديه بالمسيو المتسكع ••• هل تعلمت درسك ؟
أجاب جافريلا خافضا رأسه :

- تعلمته

- Et parlez-vous français

- Voui moussié, j'é-lé-par-lin-pé...

لا أدري ماذا أضحك الحضور : هل وجه جافريلا الحزين هو
ينطق بهذه الجملة ، أم تلبية رغبة فوما فى أن يراهم جميعا يضحكون ••
المهم أنهم انفجروا يقهقهون منذ فتح جافريلا فمه •

حتى الجنرالة ارتضت أن تتنازل فتضحك • وانقلبت آتوز بتروفا
على ظهر المقعد وهى تتنقق مخفية وجهها وراء مروحتها • والشئ الذى
زاد قهقهة الجميع انما هو الحركة التى قام بها جافريلا : فانه حين لاحظ

كيف يجرى الامتحان ، بصق جانباً وجمعهم يقول مستاء : « هذا هو العار الذى يجب أن أتحملة وأنا فى هذه السن ! » •

– هه ؟ ماذا قلت ؟ أتحسب أن فى وسعك أن تتوافح ؟

قال جافريلا بوقار :

– لا يا فوما فومتش ، ليس كلامى وفحا • ليس من حق مخلوق فقير منى أن يكون وفحا امام انسان ولد نيلا مثلك • ولكن كل فرد من أفراد البشر يحمل فى نفسه صورة الله وشبهه • أنا فى الثالثة والستين من عمرى • أبى يتذكر بوجاتشف • لقد شنى بوجاتشف * جدى مع سيده ماتفاى نيكيتش ••• رحمهما الله ••• نعم ••• شنقهما على شجرة حور واحدة ••• وهذا هو السبب فى أن أبى تميز على سائر الأتقان لدى آناستازيا ماتفايتش ، سيدنا المرحوم • كان فى أول الامر خادما له ثم اصبح مدير الخدمة فى المنزل حتى مماته • أما أنا يا سيدي فوما فومتش فرغم أننى قن " فقير ، لم ألق منذ ولدت عارا كهذا العار !

فلما وصل جافريلا الى آخر كلمة حرك يده بإشارة تعبر عن المعجز ، وخفض رأسه • وكان عمى لا يحول عنه عينيه •

هتف عمى يقول :

– كفى كفى يا جافريلا ! لماذا تدقق فى الأمور هذا التدقيق ! كفى !

وقال فوما وقد اصفر قليلا لكنه حاول أن يبتسم :

– لا بأس ••• لا بأس ••• دعه يشرح ••• يا كولونيل ، انك تجنى ثمرات ما زرعت ! •••

اتممش جافريلا فتابع يقول بحرارة شديدة :

- سأقول كل شيء • لن أسكت عن شيء • فى وسعكم أن تكبلوا
يدي ، أما لسانى فلا تستطيعون أن توثقوه ••• يا فوما فومتش ، ما انا
فى نظرك الا فلاح خشن ، ولكن هذا لا يهب لك حق اهاتى • أما أنا
فان واجبى هو ان أحترمك وأن أخدمك لاننى ولدت فنا ، فينبغى لى أن
أقوم بجميع واجباتى نحوك خائفا قلقا • فاذا كنت تؤلف كتابا كان على
أن لا أدع لاحد أن يدخل عليك • ذلك هو واجبى الحق ••• وحين
استطيع ان أفعل ما يرضيك فاننى أفعله من كل قلبى • ولكن هذا
لا يسوغ أن أُجبرَ وأنا فى هذه السن من الشيخوخة على أن ابيع بلغه
أجنبية ، وان آتخذ أهزوء أمام الناس ! أصبحت الان لا أستطيع أن
أمكث فى حجرة المدخل ، فانهم ينادوننى صائحين : « هيه ••• يافرسى
••• يا فرسنى ••• » • ولست يا سيد فوما فومتش بالشخص الوحيد
الذى يتذمر ••• صحيح أنتى غيبى مسكين ••• غير أن هنالك أشخاصا
كثيرين من أخيار الناس أخذوا يقولون بصوت واحد انك رجل شرير
وانك تعامل سيدنا معاملة صبي صغير لا قيمة له ••• هيك ابن جنرال ،
بل هيك كنت أنت نفسك جنرالا أو شبه جنرال ، فان هذا لا ينفى انك
رجل سئء وربما كنت أسوأ من امرأة مسعورة !

توقفت جافريلا عن الكلام • وشعرت أنا بفرح شديد • وكان فوما
شاحب الوجه من فرط الحنق على مرأى من الجميع ، وكان يبدو كأنه
لا يستطيع أن يتصور الى أى مدى يجب أن يمضى هو بالغضب • وأخيرا
حدث الانفجار المعتاد المؤلف :

- ماذا ؟ أيجرؤ أن يشتمنى أنا ، أن يشتمنى أنا ؟ ولكن هذا
عصيان صريح مكشوف •

كذلك أعول فوما وهو يشب عن مقعده •
ووثبت الجنرالة وراءه وهى تلوح بذراعها ، وقالت :

- كبلوه بالأغلال ! أوثقوه بسلاسل الحديد ! ياجور ، أرسله
هورا الى المدينة ، الى الثكنة • والا منعت عنك رضاي وبركتي • أنقلوه
بالقيود حالا ، واذهبوا به الى الثكنة •
وانطلق فوما يصرخ هو أيضا :

- ما هذا ؟ ما هذا ؟ أيهيني انا ، عبد ذليل ، فلاح خشن ، قروي
حقير ، رجل ساقط ! أهو يهيني ، هو ؟ انه لا يساوي نعلي حذاءي ، ثم
يجرؤ ان يصفني بانني اشبه بامرأة مسعورة ؟

عندئذ تقدمت بحزم قوي ، ونظرت الى فوما فومتش في بياض
عينيه ، وصحت اقول له بصوت يرفعه الانفعال والهياج :

- يجب ان اعترف لك بانني اؤيد ما قاله جافريلا كل التاييد •
فبلغ فوما فومتش من الانصعاق في الوهلة الاولى أنه لم يصدق
أذنيه •

ثم صاح أخيرا يقول وهو يصب على عينيه المحتقنين بالدم ،
مذهولا :

- ماذا أيضا ؟ وددت لو أعرف من أنت ، من أنت ؟

تمتم عمي يقول وقد طاش صوابه تماما :
- يا فوما فومتش ! انه سرجي ، انه سرجي ابن أخي ...
فاعول فوما قائلًا :

- العالم ! ها ... اذن هو العالم ؟ حرية - مساواة - أخوة !
«جريدة المساجلات» ! عليك بغيرنا يا عزيزي • ماهنا بطرسبرج ! لن ينطلي
علينا شيء ! انني أهزأ «بمساجلاتك» ! لك أن تظل مأخوذا ماشئت ! أما أنا
فانني أصرخ قائلاً : فليسقط ... فليسقط ... ومهما تظن في نفسك
العلم ، فقد نسيت أنا من العلم سبعة أضعاف ما تعلمت منه أنت !

يقيى أنه كان سينهال علىّ بالضرب لولا أنه منع •
تابعت أقول وأنا أنظر الى من حولى قلعا :
- انه سكران !

فزار فوما يقول بصوت لم يعد صوته هو :
- من ؟ أنا ؟
- نعم أنت
- سكران ؟
- سكران !

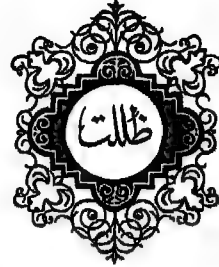
لم يستطع فوما أن يحتمل هذا • فها هو ذا يطلق صرخة حادة
هى صرخه انسان يدبح ، ثم هاهو ذا يركض خارجا من الغرفة • ونوت
الجنرالة أن تسقط مئشيا عليها ، ولكنها عدلت عن رايتها واثرت ان
تركض وراء فوما فومتش • وهرع الجميع فى اثرهما ، واسرع عمى
يهرول خلفهم جميعا • فلما ثبت الى نفسى ، نظرت حولى فلم ار فى
الغرفة أحدا الا ياجفكين • كان ياجفكين يتسم ويفرك يديه احديهما
بالأخرى •

قال لى بصوت متلو :

- لقد وعدتني بقصة عن يسوعى •
فسألته دون أن أفهم ماذا يقول :
- نعم ؟
فقال :

- وعدتني بأن تروى لى قصة عن يسوعى ••• قصة •••
واندفعت أهرب الى شرفة المنزل ، ومنها الى الحديقة • كان رأسى
يدور •

قصيدة



أطوف في الحديقة أكثر من نصف ساعة ، مساء
من نفسى أشد الاستياء ، مفكراً فيما بقى على أن
أعمله • كانت الشمس تغرب • وفجأة ، عند
منعطف طريق محفوف بالأشجار ، رأيتى أمام
ناستيا وجها لوجه • كانت تمسك بيدها منديلا تجفف به عينيها المخضلتين
بالدموع • قالت لى :

- كنت أبحث عنك •

فأجبته قائلاً :

- وأنا أيضا • أوضحي لى ، أرجوك : أنا فى مستشفى للمجانين ؟

فقلت وهى تحدق الىّ ويبدو عليها أن كلامى ساءها :

- أبدا •

- فما هذا الذى يجرى هنا اذن ؟ انصحينى ، ناشدتك الله ! الى أين
ذهب عمى ؟ هل أستطيع اللحاق به ؟ اننى سعيد جدا بلقائك ، فلعلك
تخرجينى من الارتباك الذى أنا فيه •

- لا ... الأفضل أن لا تتحرك • أنا نفسى آتية الآن من عندهم •

- فأين هم ؟

– من يدري ؟ لعله هرب هو أيضا الى بستان الخضار •

قالت ذلك صائحة بشيء من الغضب •

– لماذا الى بستان الخضار ؟

– فى الأسبوع الماضى صرح فوما فومتش حالفا أنه لن يبقى هنا ؟
وفجأة أخذ يركض فى بستان الخضار حتى وصل الى مستودع الأدوات،
فتناول هناك معزقة وأخذ يحرق الأرض • اضطربنا جميعا ، وتساءلنا
أترأه جن • فقال عندئذ « الآن لن يلومنى أحد على الخبز الذى أعطاه •
سوف أحرث الأرض لأجنى الخبز الذى أطعمه هنا ، حتى اذا فرغت
من عملى ذهبت • ذلك ما صرت اليه » • فسرعان ما أخذ الجميع يركضون،
وابتهلوا اليه راكعين ، وحاولوا أن ينتزعوا منه المعزقة • ولكنه لم يشأ
أبدا أن يتخلى عنها • وهكذا خرب مربعا بكامله مزروعا باللفت • لقد
خضعوا له مرة ، ولا شك أنه سيعاود الكرة • يمكن أن يتوقع المرء منه
كل شيء !

صحت أقول بشيء من الاستياء :

– وأنت ... تقصين ذلك بهذا الهدوء كله ، وهذا البرود كله ؟

فتأملتى بعينها الساطعتين •

قلت :

– معذرة ... أصبحت لا أعرف ماذا أقول ... اسمعى ! هل

تعرفين لماذا جئت أنا الى هنا ؟

– لا ...

كذلك أجابت وهى تحمر^٢ ويكتسى وجهها القتان تعبيرا أليما •

فعدت أقول ملحا :

- سامحيني ... اننى مضطرب ... أحس الآن أنه كان على أن أخطبك بغير هذا الكلام ! ولكن لا ضير .. يخيّل الى أن الصراخه فى مثل هذه الحالة أولى من كل شئ . اعترف ... أريد أن أقول بالأحرى .. هل تعرفين مايتويّه عمى ؟ لقد طلب الى أن أخطبك ...

- هه ! يا للغباء ! .. لا تتحدث عن هذا الأمر ، أرجوك !

قالت ذلك تقاطعنى بقوة بينما كان الدم يشب الى وجهها .

فشعرت بحيرة كبيرة وخرج شديد . ثم قلت محتججا :

- كيف ؟ غباء ؟

سألتنى بحرارة :

- هل كتب اليك ؟ آه .. أهذا ممكن ؟ لقد وعدنى بأن لا يفعل !

ما هذه الحماسة ؟ يا رب ! ما هذه الحماسة ؟

تمتمت أقول :

- اغفرى لى .. لعلنى تصرفت تصرفاً فظاً أخرق ، كمن ذهب عقله

وطاش صوابه .. ولكن فكّرى فيما يجرى هنا .

- ناشدتك الله ، لا تتهمنى ! ثقب أن هذا كله يؤلمنى سماعه ايلاماً

كافياً .. على أنتى كنت أحرص أنا نفسى على أن أكلمك بغية توضيح

الأمر .. آه .. ما أشد ما يؤسفنى هذا كله ، وما أشد ما يبعث الحزن

فى نفسى ! اذن لقد كتب اليك ! ذلك ما كنت أخشاه أكثر من أى شئ .

آخر ! رباه ! ما هذا الانسان ! وأنت ، كيف صدقته ؟ وكيف رضيت

أن تجيء مذعنا طائش العقل ؟ لماذا جئت ؟

كانت لا تخفى حزنها ، وذلك أمر جعلنى فى وضع لا يسر ..

دمدمت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- أعترف بأننى لم أكن أتوقع أن أرى الأمور تجرى هذا المجرى
.. بالعكس ، كنت أقدّر .. كنت أحلم أن ..

فقلت وهى تبسم ابتسامة ساخرة مكظومة وتعض على شفيتها :

- آآآ كنت تحلم ! .. هل تعرف ما أنت فاعل ؟ أرنى الرسالة
التي كتبها اليك !
- لك ما تشائين !

- لا تحقدي علىّ ، أرجوك .. لا ولا تمتعض أو تتكدر ! ... ان
ما وقع حتى الآن من سوء وشر لهو كبير الى درجة كافية ...
كذلك صاحت تقول بصوت ضارع بينما كانت شفتاها الساحرتان
ترسمان ابتسامة ساخرة *

قلت أحتج في ضراوة :

- أوه ! لا تحسبيني مع ذلك غيا أبله ! لا شك في أنك قد حذرت
منى .. لا شك في أن احدا قد قال لك عنى سوءا .. ولعلك أيضا
تحقدين علىّ بسبب الغلطة التي ارتكبتها الآن ! ليتك تعلمين أن هذا
لا قيمة له * اننى افهم انا نفسى أنتى ابدو أمامك أحسقى * فلا تسحرنى
منى ، أرجوك ! أوكد لك أنتى أصبحت لا أعرف ماذا أقول .. ذلك
كله لأننى لم أتجاوز الثانية والعشرين من عمري ! اه .. سحقاً لسن
الشباب !

- أواه ! ولكننى لا أرى أنك ..

- كيف لا ترين ؟ حين لا يكون عمر المرء أكثر من اثنين وعشرين
عاما ، فانه يحمل هذا مكتوبا على جبينه * ولقد برهنت عليه حين تعثرت
منذ قليل في وسط القاعة ، وأنا أبرهن عليه الآن أمامك .. نعم ، فاتل
الله سنى !

قالت ناستيا وقد أصبحت أقل قدرة على كظم رغبتها في الضحك :
 - لا .. لا .. أنا أعتقد أنك طيب ولطيف وذكي .. أقول لك
 ذلك صادقة مخلصة ! ولكنك على جانب كبير من الأثرة أو حب الظهور .
 ذلك ما يجب اصلاحه فيك *

- لا أحسب أنني أتفوق في هذا على غيري *

- بلى ! فمَنْذ قليل كنت مضطربا اضطرابا شديدا * لماذا ؟ لأنك
 أوشكت ان تسقط على الارض ! .. ولكن أى حق لك فى أن تضحك
 الناس على عملك ، الانسان الطيب ، العظيم ، الذى أحسن اليك ذلك
 الاحسان كله ؟ لماذا أردت أن تضحك الناس على حسابه ، مع أنك كنت
 وحدك الجدير بأن يضحك عليه ؟ لم يكن هذا جميلا منك ! هذا
 لا يشرفك .. واني لأعترف لك بأنك قد أثرت فى نفسى الاشتمزاز منك
 فى تلك اللحظة ..

- أنت على حق ! لقد تصرفت تصرف جبان .. بل تصرفت تصرف
 أجبن جبان .. ولاحظت أنت ذلك ، وهذا عقابى .. أهيننى ، اسخرى
 منى ، تهكمى علىّ ، ولكن أصنى الى كلامى مع ذلك : فلعلك تغيرين
 رأيك فى ذات يوم (كذلك تابعت أقول تجرفنى عاطفة غريبة) ..
 أنت لا تعرفيننى الا قليلا جدا ، ولعلك حين ستعرفيننى فى المستقبل
 مزيدا من المعرفة ، لعلك عندئذ ...

- كفى ، ناشدتك الله *

هكذا صاحت ناستيا متململة تململا واضحا *

- طيب .. لندع هذا الآن ! ولكن متى أستطيع أن أراك مرة
 أخرى !

- ترانى مرة أخرى ؟ كيف يمكن هذا ؟

- وهل يعقل أن لا يكون قد بقى هنالك ما يقوله أحدا للآخر ،
يا آناستازى أوجرافوفنا ؟ أضرع اليك ، هبى لى موعدا آخر ، ولكن
اليوم ان أمكن ! ولكن لا .. هذا هو الليل يهبط .. فليكن لقاءنا اذن
فى صباح غد ، فى ساعة مبكرة من صباح غد . سوف آمر بايقاظى خصيصا
لهذا . هل توافقين ؟ هناك ، عند الغدير ، عريشة .. ما زلت أتذكرها .
وأنا أعرف الطريق اليها . تعلمين اننى عشت هنا زمنا ، أيام كنت صيا
صغيرا .

- أهب لك موعدا ؟ لماذا ؟ يكفيننا هذا اللقاء الآن .

- ولكننى لم أكد أعرف شيئا بعد ، يا آناستازى أوجرافوفنا ! ان
عمى سيطلعنى على الأمر ، ولا بد أن يقص على كل شىء كما تقدرين ،
وسيكون على بعد ذلك أن أذكر لك أمرا هاما جدا .

صاحت ناستيا تقول :

- لا .. لا .. لا داعى الى هذا ، لا داعى اليه البتة . سوف تنتهى
من القضية فورا ، ثم لا نعود اليها قط . دع عريشتك وشأنها ! احلف
لك اننى لن أجيء ، وأنا أرجوك ، جادة كل الجدة ، أن تخرج من رأسك
جميع هذه الحماقات !

قلت محتجا وأنا أشعر بحسرة لا تطاق :

- اذن فقد تصرف عمى معى تصرف مجنون ؟ لماذا استدعانى الى
هنا ؟ .. ما معنى هذه الجلبة ؟

وكنا قريبين جدا من المنزل ، فكانت تصل الى مسامعنا أصوات
عويل وصراخ كريه .

قالت ناستيا شاحبة كل الشعوب :

- رباه ! أيضا ؟ لقد توقعت هذا !

قلت :

- توقعت هذا ؟ اسمحي لي بسؤال آخر يا أناستازى أوجرافوفنا .
ليس لي في القاء هذا السؤال حق ، ولكننى أحرص على القائه حفاظا على
مصلحة الجميع • قولى لي - وسيظل جوابك مدفونا فى أعماق نفسى
لا يطلع عليه أحد يوما - قولى لي بصراحة : هل يحبك عمى ؟

صرخت تقول وقد احمرت غضبا :

- أرجوك أن تنتزع من رأسك هذه الحماقات الى الأبد • • أأنت
تقول هذا أيضا ؟ لو كان يحبى لما طلب منك أن تتزوجنى (كذلك
أضافت تقول وهى تبتسم ابتسامة مرة) • من أين ، من أين جئت بهذه
الفكرة ؟ هل يعقل أن لا تفهم ما الذى يجرى هنا ؟ هل تسمع هذا
الصراخ ؟

- هو فوما فومتش أيضا • •

- طبعاً • • والصراخ الآن هو بسببى أنا • ان الشك الذى راودك
يراودهم هم أيضا • يدعون « أنه » يحبنى • • واذا لم أكن أملك شيئا
اذ لم أكن شيئا مذكورا ، فانهم لا يتخرجون من القول على • يريدون
أن يزوجوه أخرى ، ومن أجل أن يصلوا الى ذلك ، يطلبون منه أن
يطردنى من المنزل • • يريدون أن يصرفى الى بيت أبى من قيسل
الاحتياط والاحتراس • ولكن حين يكلمونه فى هذا الأمر ، يبلغ هو
من الغضب أنه يصبح قادرا على تمزيق فوما فومتش نفسه اربا اربا •
أقسم لك أنهم من أجل هذا انما يصرخون الآن هذا الصراخ كله ! نعم ،
لقد تنبأت بذلك !

— أصحيح اذن أنه سيتزوج تاتيانا هذه قريبا ؟

— أى تاتيانا ؟

— أنت تعرفين .. تلك المجنونة •

— ليست مجنونة • وهى فتاة طيبة شهمة • ليس من حقك أن تقول هذا الكلام • ان لها قلبا من ذهب ، ان لها قلبا هو خير من قلوب كثير غيرها ! ليس الذنب ذنبها • • لقد عانت شقاء كبيرا !

— سامحيني • لنسلم بأنك فى هذا على صواب تماما • ولكن لا تخطئى فيما يتعلق بالشئ الأساسى • قولى لى : لماذا يحسنون استقبال أهلك الى هذه الدرجة ، فيما يبدو لى على الأقل ؟ لو كانوا حاقدين عليك حقا ، وكانوا يريدون طردك كما تقولين ، لتحفظوا فى معاملة أهلك •

— أأست ترى اذن ما الذى يفعله أبى فى سبيلى ؟ انه يقوم لهم بدور المهرج • واذا كانوا يحسنون وفادته ، فانما هم يفعلون ذلك لأنه حظى باعجاب فوما فومتش • واذا كان قد حظى باعجاب فوما فومتش ، فلأن فوما فومتش كان هو نفسه مهرجا ، فيسره أن يكون له الآن مهرج خاص به • ولئن فعل أبى ذلك ففى سبيلى أنا ، فى سبيلى أنا وحدى • ليس هو فى حاجة الى هذا • ليس هو فى حاجة الى أن يفض من قيمة نفسه أمام أحد • لقد يبدو مضحكا جدا فى نظر بعض الناس ، ولكن هذا لا ينفى أنه أنبل البشر طرأ • وهو يعتقد ، لا يعلم الا الله لماذا — وما ذلك أبدا لأننى أتقاضى هنا أجرا حسنا ، أؤكد لك — هو يعتقد أن الأفضل أن أبقى فى هذا المنزل • ولكننى فتحت له الآن عينيه تماما • كسبت اليه رسالة أنبئه فيها بما عقدت عليه العزم • وقد جاء ليأخذنى منذ الغد اذا مضت الأمور بعيدا • والأمور تمضى الآن بعيدا جدا حتى ليتمنون أن يلتهمونى التهاما • أنا على يقين من أننى سبب جميع هذا الصراخ • سوف « يمزقونه » بسببى ، سوف يقتلونه بسببى ، هو الذى أعده لى

أباً بل أكثر من أب • لا • لا • أصبحت لا أطيق الانتظار • أنا
 أعرف بالأمر من غيرى • ولذلك سأرحل غداً فى أبعد تقدير ! ومن
 يدري ؟ لعل رحيلى أن يؤخر زواجه بتاتياً ايفانوفنا • • ها قد أصبحت
 على علم بالامر • • فأنقل اليه هذا كله ، أنقله «اليه» • انه ليستحيل على
 أنا أن أكلمه • فهم يتجسسون عليه ، ويتبعونه ، ولا سيما تلك
 اليربيلستين • قل له أن لا يقلقه مصرى ، قل له اننى أفضل أن أكل
 خبزاً أسود وأن أسكن فى كوخ أبى ، على أن أكون هنا مصدر عذاب
 «له» • أنا فقيرة ، ويجب أن أعيش كما تعيش فقيرة • ولكن ما هذه
 الجلبة يا رب ! ما هذه الصرخات ؟ ما الذى يحدث أيضاً ؟ لا بأس • •
 يجب أن أذهب اليهم مهما كلف الأمر ، يجب أن أذهب حتماً • الوداع •
 جعلت تركض • بقيت فى مكانى جامداً • أدركت الدور المضحك
 الذى كنت أمثله ، فأخذت أسأله عما عسى يقع • شعرت بنفسى تفيض
 شفقة على المعلمة المسكينة ، وتفيض خوفاً على عمى • وفجأة انبجس
 جافريلاً قربى • كان ما يزال يمسك بيده دفتره •

قال لى بلهجة كالحة :

- من فضلك ! عمك يطلبك • •

انتفضت •

- عمى ؟ أين هو ؟ ماذا يجرى ؟

- هو فى القاعة التى احتسيتم فيها الشاي منذ قليل •

- من معه ؟

- هو وحده • انه ينتظرك •

- من ؟ أنا ؟

– لقد أرسل يستدعى فوما فومتش •

نم أضاف وهو يزفر زفرة عميقة •

– آه •• لقد انقضت أيامنا الجميلة !

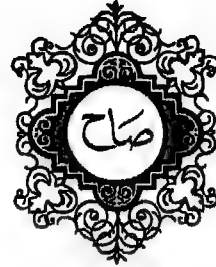
سألته :

– عمى أرسل يستدعى فوما فومتش ؟ هم •• والآخرين ، أين هم ؟ أين السيدة ؟

– فى جناحها بالمنزل • لقد أغمى عليها • فهى ترقد الآن غائبة عن وعيها والدموع تسيل من عينيها •

وفيما كنا تبادل هذا الكلام ، وصلنا الى السطحة • كان الظلام قد أطبق تقريبا • ووجدت عمى فعلا فى الغرفة التى شئت فيها المشاجرة بينى وبين فوما فومتش • كان عمى يذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطى طويلة • وكان على المناضد شموع مشتعلة • فلما رآنى هب الى لقائى وصافحنى مصافحة قوية كادت تحطم أصابعى • كان شاحبا شديد الشحوب ، وكان يتنفس فى عناء ومشقة • ان يديه ترتعشان ؛ ومن حين الى حين تسرى فى جسمه قشعريرة عصبية •

صاحب السعادة



عمى يقول بلهجة فاجعة :
 - انتهى الأمر هذه المرة ، انتهى يا صديقى
 • العزيز .
 : سأله :

- قل لى يا عمى : لقد سمعت منذ هنيهة صرخات !
 - صرخات ؟ ها •• نعم •• انطلقت صرخات كثيرة •• وأغمى
 على أمى ، وانقلب الجميع رأسا على عقب •• ولكننى عقدت نيتى واتخذت
 قرارى ، وأحلف لك لأبرنّ بالعهد الذى قطعته على نفسى • لن أخشى
 أحدا بعد الآن يا عزيزى سرجى • سوف يدركون أن لى ارادة قوية ،
 وعزيمة صلبة • لسوف أريهم ارادتى وعزيمتى • ومن أجل هذا انما
 استدعيتك • يجب أن تساعدنى فيما سأظهره لهم من قوة ارادتى وصلابة
 عزيمتى •• لقد تحطم قلبى يا سرجى •• ولكن لا ضير •• وانما يجب
 الآن أن أعمل بقوة وقسوة وعنف • الحقيقة لا ترحم •

- ما الذى جرى يا عمى ؟
 صاح عمى يقول بصوت جازم قاطع :
 - سأفصل عن فوما •
 فهتفت متحمسا :

- عمى العزيز •• حسنا تفعل •• واذا كان فى وسعى أن أعينك
فى تنفيذ قرارك ، فتصرف بى كما تشاء •• أنا فى خدمتك جسما
وروحا •

- شكرا يا بنى شكرا • ولكن لا تخش شيئا • ان قرارى لارجوع
عنه • لقد استدعيت فوما ، وأنا أنتظره • لا بد من الاختيار : اما أنا واما
هو • يجب ان نفرق • غدا يترك فوما المنزل ، أو أترك أنا كل شيء
واعود الى سلاح الفرسان ، افسم على ذلك • سيعيدونى الى الخدمه •
سيضعونى على رأس كتيبتين من الفرسان • اغير الجبهة ، امحو الماضى ،
أبدأ من جديد • لماذا تحمل بيدك دفتر اللغة الفرنسية هذا (كذلك
صاح يخاطب جافريلا حانقا وهو يلتفت اليه) ارم هذا الدفتر ! ارمه فى
النار ، هل سمعت ؟ مزق هذا الدفتر ، قطعه اربا والقه الى النار ! «أنا»
هنا سيدك ، «أنا» أمرك بأن لا تتعلم اللغة الفرنسية • ليس فى وسعك
أن تعصى أمرى ! أنا هنا سيدك ، لا فوما فومتش ، أليس كذلك ؟

دمدم جافريلا يقول بصوت خافت جدا :

- الحمد لله ••

لاشك أن الامور تجري مجرى خطيرا •

وتابع عمى يقول بلهجة نافذة :

- انهم يا صاحبى يطلبون منى المستحيل ! أحكم على : ضع نفسك
بينى وبينهم قاضيا غير متحيز • أنت لا تعرف ولا تستطيع أن تتصور
ما الذى يطلبونه منى • لقد أعربوا عنه آخر الامر صراحه ، وشرحوه
شرحا واضحا : شيء يجافى الشرف ، يتنافى مع الانسانية ، شيء حقير ••
سأقول لك كل شيء ، ولكن قبل ذلك •••

قاطعه قائلا :

- اننى على علم بالأمر يا عمى .. وأنا أحزر .. لقد تحدثت منذ
برهة قصيرة مع آناستازيا أوجرانوفنا •

قال يقاطعنى هو أيضا بتعجل يشبه أن يكون رعباً :

- صه .. لا تزد كلمة واحدة • اعدك بان اقص عليك كل شيء
فيما بعد .. أما الآن ..

هنا دخل علينا فيدوبلياسوف ، فصاح عمى يسأله :

- هيه .. أين فوما فومتش ؟

لقد جاء فيدوبلياسوف ليعلم أن فوما فومتش « يرفض أن يجيء » ،
وأنه يعد أمر عمى غلظة فى غير محلها ، وفضاظة لا داعى اليها ، وأن فوما
فومتش يعد نفسه لذلك مهانا جدا •

صاح عمى يقول وهو يقرع الأرض بقدمه :

- جئنى به عنوة ، جرّه جرّاً اذا لزم الأمر ! هل تسمع ؟ ...
قدم الى بالقوة ! بالقوة !

لم يكن فيدوبلياسوف قد رأى سيده قبل اليوم فى مثل هذه الحالة
من الغضب ، فأسرع ينسحب مذعورا جزعا • وذهلت أنا •

قلت لنفسى : « فى هذه المرة ، لا بد أن تكون القضية على جانب
عظيم من الخطورة ، حتى يستطيع رجل فى مثل طبع عمى ان يبلغ هذا
المبلغ من الغضب والعزم » •

ظل عمى يذرع الغرفة ذاهبا آيبا خلال عدة دقائق وهو صامت
لا يقول شيئا • ان صراعا أصم قد نشب فى نفسه •
وهتف أخيرا يقول :

- جافريلا ، لا تمزق دفترى • انتظر • ابق هنا • قد أحتاج
إليك •

ثم تابع يخاطبني :

- لعلى قد أسرفت في الصباح قليلا يا صاحبي العزيز • ان على
المرء أن يكون معتدلا مقتصدا وقورا راضيا في كل ما يعمل ، لا يهين
أحدا ولا يسيء الى أحد • نعم ، هو كذلك • هل تعلم يا سرجي ؟ لعل
من الأفضل ان تخرج من هنا • وسيان عندك ان تبقى وان تخرج ،
ما دمت سأروى لك كل شيء • هه ؟ ما رأيك ؟ أرجوك أن تخرج ،
ارضاءً لي •

سألته وأنا أحدى اليه :

- أأنت خائف يا عمي ؟ أأنت نادم على ما قررت ؟

فصاح يقول باندفاع قوى :

- لا • لا • يا صديقي • لم يبق هنالك ما أداريه وأخاف
عليه • لقد اتخذت قراراتي ، وهي فاطمة جازمة حاسمة • انك لاتعرف
ولا تتصور ما يطلبونه مني • كيف يمكنني أن اوافق على طلبهم ؟ لا •
ولسوف ابرهن لهم على ذلك • انني انور واثمرد ، وسوف يرون •
كان لا بد ان تصل الامور الى هذا الحد • ولكن هل تعلم يا صديقي ؟
انني نادم على انني استدعيتك : سيشق كثيرا على فوما ان تكون هنا شاهدا
على مذلتها ان صح التعبير • هل تفهم ما اريد ان اقله ؟ انا احب ان
تجربى الامور على ما وصفت لك ، اى بدون اذلال له • ذلك اننى ساسىء
اليه مهما احترس • انا امرؤ فظ غير متقف ، فقد تفلت منى كلمة ، وقد
تند عنى حركه لا أرضى عنها بعدئذ • لقد فعل كثيرا من اجلى على كل
حال • اذهب يا صاحبي اذهب • ها هم أولاء قد جاءوا به ! نعم لقد
جاءوا به ! اذهب يا سرجي ، يا بنى ، أرجوك ••• سأروى لك كل شيء
فيما بعد • اذهب ، ناشدتك الله ! •

قال عمي ذلك وقادني الى السطحة • وفي تلك اللحظة نفسها

دخل فوما الغرفة • ولكن يجب أن أعترف بأننى ، بدلا من أن أبتعد ،
لبثت على السطحة نفسها حيث الظلام كثيف لا يتيح أن يرونى من
الداخل • حتى لقد دنوت أتصت على الحديث عند الأبواب •

لا أحاول أن أسوِّغ سلوكى • ومع ذلك أجرو أن أؤكد اننى
قمت بعمل شاق جدا اذ بقيت على هذه السطحة نصف ساعة طويله ،
دون أن أحدث أية ضجة • وكان فى وسعى ، من المكان الذى أنا فيه ،
أن أرى وأسمع فى آن واحد ، لأن الأبواب كانت ذات زجاج •
والآن أرجوكم أن تتخلوا فوما فومتش الذى تلقى «أمرا» بالثول
بين يدى عمى ، فاذا رفض أن يطيع الأمر اقتيد بالقوة !

ما ان دخل فوما الغرفة حتى أعول يقول :

— لعل أذننى قد خدعتانى يا كولونيل ! أضحح أنك أنت الذى
اصدرت هذا الأمر المهدد ؟

قال عمى باعتزاز :

— لا يا فوما ، لم تخدعك اذناك • • اطمن من هذه الناحية •
اجلس • سوف نتحدث فى أمور هامة ، حديث صديقين ، حديث
اخوين • هيا اجلس يا فوما !

استقر فوما على أحد المقاعد فى أبهة • وعاد عمى يذرع الغرفة
بخطى متقطعة سريعة ، وكان واضحا انه يتساءل من أى طرف يبدأ
الكلام • وعاد يقول :

— نعم • • حديث أخوين • سوف تفهم يا فوما • لست الآن بطفل ،
ولا أنا بطفل • • كلانا أصبح شيخا • • هم • • أنت تعرف يا فوما أننا
فى بعض الأمور لسنا على اتفاق • • نعم • • فى بعض الأمور ! • • أفلا
ترى والحالة هذه يا صديقى أن نفرق ؟ أنا على يقين من أن لك قلبا

نيلا ، وأنت لا تريد لى الا الخير ، وأن هذا هو السبب فى أنك ••
ولكن لماذا الافاضة فى الشرح ! •• فوما ، أحلف لك بجميع القديسين
أن صداقتى لك خالدة • اليك خمسة عشر ألف روبل •• ذلك كل
ما أملك يا صديقى من مال منقول •• وأكثر المبلغ أوراق تقديهِ من
المصرف العقارى • فخذ المال ولا تتحرج • وليس عليك أن تقول :
شكرا • لن أستطيع فى يوم من الأيام أن أرد لك كل جميلك • نعم ،
ذلك هو رأى تماماً ، رغم أننا فى هذه اللحظة مختلفان فى أمر هام •
سوف نفترق ، غدا أو بعد غد •• فى اليوم الذى يرضيك •• اسكن فى
مدينتنا الصغيرة يا فوما ، انها على بعد فرسخين من هنا • وراء الكنيسة ،
فى الشارع الصغير ، على اليمين ، يوجد منزل صغير له مصراعان
اخضران • لكان هذا المنزل قد شيد لك • المنزل تملكه أرملة كاهن ،
وهى تريد أن تبيعه • فسوف أشتري لك هذا المنزل دون أن أمس المبلغ
الذى أدمه اليك الآن • اسكن فى هذا المنزل • سوف تكون قريباً منا
كل القرب ، وسوف تنصرف هنالك الى الادب ، والى العلوم ، وسوف
تصبح رجلاً شهيراً • ان جميع الموظفين هناك ، من اولهم الى اخرهم ،
أناس نبلاء مهذبون كرماء • والاسقف عالم من العلماء • سوف تزورنا
فى ايام الاحاد وفى ايام الأعياد ، وسيكون هذا جنة حقيقه لنا ! اتوافق
أم لا ؟

قلت لنفسى : « أبهذه الطريقة يكون طرد فوما ؟ ان عمى لم يذكر
لى شيئاً عن المال ! » •

وتبع ذلك صمت طويل ثقيل • كان فوما يبدو على مقعده مصعوقاً •
انه ينظر الى عمى محدقاً •• وكان واضحاً أن هذا التحديق وهذا الصمت
يضمان عمى فى حالة من ضيق •
وهتف فوما يقول أخيراً بتوان مقصود :

— مال ؟ أين المال ؟ اعطني المال •• اعطنيهِ حالا !

— خذ يا فوما ، هذا آخر ما أملك من فئات •• خمسة عشر ألف روبل •• كل ما عندي من مال سائل •• هل ترى ؟ هناك أيضا سندات من المصرف العقاري • خذ !

فال فوما بصوت هاديء :

— جرافيلا ! خذ هذا المال • أنت تدلف الى الشيخوخة ، وسيفيدك هذا المال !

ثم صاح فجأة وهو يشب عن مقعده معولا اعوالا ليس فيه شيء انساني :

— لا بل هات المال يا جافريلا ، هات هذا المال لادوسه بنعلتي ، هات هذه الاوراق النقدية لامزقها ، لأبصق عليها ، لالطخها ! ••••• انا يقدم الى مال ؟ أنا ؟ أنا يُدفع لي مال من أجل أن أغادر هذا المنزل ؟ هل يعقل أن لا يكون ما أسمعه الآن وهما من أوامام الحواس ؟ أنا من يجب ان يحتمل هذا العار الاخير ؟ خذ ، خذها ، خذ ملاينك ، انظر اليها ، ها هي ذى ! أنظر ماذا أصنع بها ! انظر كيف يفعل اوبسكين ، اذا كنت حتى هذه اللحظة لا تعرف كيف يفعل فوما اوبسكين يا كولونيل !

قال فوما هذا وثر الصرة كلها على الارض •

يجب أن نلاحظ أنه لم يمزق ايه ورقه ، وانه لم يلمطخ ببصاقه أية ورقة ، كما اعتر بأنه سيفعل • انه لم يزد على أن جعدها قليلا ، لا كثيرا ، محترسا بعض الاحتراس • ومن جهة أخرى أسرع جافريلا يلم المال المبعر ، حتى اذا انصرف فوما ، وضعه بين يدي سيده فى عناية •

أحدث سلوك فوما فى عمى تأثيرا بلغ من القوة أن عمى لبث مسمرًا

فى مكانه لا يتحرك • انه هو الآن الواقف الساكن الفاجر الفم بلا تفكير ،
أمام فوما الفارق فى مقعده ، اللاهث كأنه نهب انفعال لا يوصف •

وصاح عمى أخيرا وهو يثوب الى رشده ، صاح قائلا :

— أنت انسان نبيل يا فوما ، أنت أنبل الملائ طرأ •

فقال فوما بصوت ضعيف ووقار لا يمكن التعبير عنه :

— أعرف ذلك •

— فوما ، سامحنى ، أنا آخر أواخر الناس بالقياس اليك •

فقال فوما مؤيدا :

— أنت تقول ذلك ، ولا أجبرك على قوله •

وتابع عمى يقول فى نشوة ووجد :

— فوما ، ان نبيل نفسك لا يدهشنى ، وانما الذى يدهشنى أننى

استطعت أن أبلغ من الفظاظه والعمارة والحيانة أن أعرض عليك مالا فى

مثل هذه الظروف • ولكنك يا فوما مخطئ فى نقطه : انا لم يخطر ببالي

أبدا أن أدفع لك مالا من أجل أن تغادر المنزل ، وانما أردت أن يكون

لك بعض المال ، أن لا تكون فى عوز وأنت تنصرف • • اقسم لك على ذلك

يا فوما • فوما ! أنا مستعد لان استغفر راكم يا فوما • نعم يا فوما ، اذا

كنت تحرص على أن أركع ، فسأركع فورا • • •

ما أنا فى حاجة الى ركماتك يا كولونيل !

— آه • • يارب ! فوما ، ليتك تعلم • • لقد كنت خارجا عن طورى ،

كنت حائقا ، كنت مسعورا • • ولكن قل لى : باية وسيلة يمكننى ان أحو

اللاهانة التى وجهتها اليك ؟ تكلم • • اصدر حكمك • •

— أبدا يا كولونيل أبدا • وكن على ثقة بأننى سأنفض الغبار عن

حذاءى على عتبة هذا المنزل منذ القد •

قال فوما ذلك وهم أن ينهض عن مقعده • فهرع اليه عمى جزعا
ليجبره على البقاء قاعدا في مكانه • وصاح يقول له :

— لا ••• يمينا لن تذهب •• لا تتحدث عن غبار حذائك يا فوما •
لن تذهب هكذا ، والا ذهبت أنا أيضا •• أتبعك بلا توقف حتى آخر
العالم ، الى أن تغفر لي • يمينا لأفعلن هذا يا فوما •

— أغفر لك ؟ أنت اذن مذنب ؟ أأدركت اذن أنك صرت آنما في
حقى ابتداء من اليوم الذى مددت اليّ فيه هنا كسرة من خبز ؟ أأدركت
انك الآن قد سمّمت ، دفعة واحدة ، كل فتاة طعمتها عندك ؟ لقد
آخذتني على جميع قطع الخبز ، على جميع لقم الخبز التي أكلتها هنا •
لقد بينت لي أنني عشت في منزلك عبدا ، اننى عشت في منزلك خادما ،
أننى كنت في نظرك أهون شأنا من نعل حذائك ! بينما كنت أنا أظن ،
لبساطة قلبي وبراءة نفسي ، كنت أظن حتى هذا اليوم أنني استقبلت تحت
سقف منزلك صديقا وأخا ! ألم تؤكد لي انت نفسك الوف المرات انك
تحمل لي اعمق المحبة وأجمل العواطف الاخوية ؟ لماذا حفرت تحت
قدمي هذه الحفرة التي تريد ان تدفعني اليها ؟ لماذا لم تقتلني منذ زمن
طويل بضربة واحدة من هذه الهراوة ؟ لماذا لم تعقف عنقي منذ البدايه
كما يفعل بدجاجة ••• بدجاجة ••• لا يمكنها أن تبيض ؟ ••• نعم
يا كولونيل نعم •• هذا هو التشبيه •• اسوقه رغم انه مستمد من حياة
الريف ، ورغم انه مبتذل ابتذال الادب الرخيص الذى نقرؤه في هذا
الزمان ! اننى أحرص على هذا التشبيه لاننى أرى فيه كل ما في اتهاماتك
من سخف •• أو قل ان شئت اننى أشعر بأننى أثم في حقلك اثم تلك
الدجاجة التي غضب منها مولايها الذى لا عقل له لانها لم تبض له بيضا !
•• قل لي من فضلك يا كولونيل ! هل يدفع مال لصديق ؟ هل يدفع
مال لأخ ؟ ما هو السبب الذى يدفعك الى أن تتصرف هذا التصرف ؟

لكأنك تقول لى : « خذ يا أخى ، خذ يا عزيزى .. اننى مدين لك بهذا لأنك أنقذت حياتى .. اليك دراهم يهوذا الثلاثين .. خذها واغرب عن عينى ! ، ألا ما أغرب هذه السذاجة منك ! ألا ما أغرب هذه الغلظة وهذه الغفظة ! آه .. لشدما حطمت قلبى ! لقد عبثت بأنبل عواطفى كما يعبت طفل بخذروفه ! تصورت أننى أستعطى ذهبك ، بينما كنت أنا أعمل فى سبيل سعادتك ، تدفعنى الى ذلك عواطف تشبه أن تكون عواطف العبادة ! لقد تنبأت بهذا كله يا كولونيل ، تنبأت به منذ زمن بعيد ؛ ومن أجل ذلك انما أصبح خبزك ، منذ زمن بعيد ايضا ، يخنقى خنقا ؛ من أجل ذلك انما أصبحت رياشك الوثيرة تخزننى وخزا ؛ من أجل ذلك أصبح سكرّك وأصبحت حلواك ، وأصبحت أطباقك اللذيذة ، أصبح ذلك كله كالعقم مذاقا فى فمى ! لا يا كولونيل ، ابق وحدك ، كن سعيدا بدونى ، ودع فوما يصعد الى صليبه الاليم حاملا خرجه على ظهره ! ذلك ما سيكون يا كولونيل .

تنهد عمى يقول متهدما :

— لا يا فوما ، لا .. لن يكون ذلك .. لا يمكن أن يكون .

— بلى يا كولونيل .. ذلك ما سيكون ، لانه يجب أن يكون . سأترككم منذ الغد . انثر ملاينك .. افرش طريقي باوراقك النقدية حتى موسكو ان كان يحلو لك ذلك ، أما انا فسامشى فوق اوراقك النقدية هذه باستكبار ، باحتقار ! بهذه القدم سآدوسها ، سأسحقها ، ساوسخها ! ان فوما أوبسكين يملك ما به يشبع . انه يملك نبل نفسه . لقد قلت ما أردت أن أقوله . وداعا يا كولونيل .. و .. دا .. عا .

ومرة أخرى همّ فوما أن ينهض ، ومرة أخرى كرر عمى يقول له مبتهلا ضارعا :

— عفوك يا فوما ، عفوك ، انس ما وقع !

— عفوى ؟ لماذا تطلب عفوى ؟ هبنى عفوت .. هبنى غفرت لك !
أنا مسيحي ، ولا يمكننى أن أرفض العفو والمغفرة .. بل لقد كدت أعفو
وأغفر منذ الآن . ولكن احكم فى الأمر بنفسك : هل فى وسع أى انسان
يملك ذرة من عقل أن يتخيل أن أبقى فى منزلك ولو دقيقة واحدة
أخرى ؟ لن يكون هذا لائقا . ألم تطردنى طردا ؟
— بل سيكون لائقا جدا يا فوما ، أؤكد لك أنه سيكون لائقا جدا
يا فوما !

— سيكون لائقا ؟ أما نزال الآن ندين متساويين ؟ هل يُعقل أن
لا تكون قد أدركت اذن أنتى أنا قد سحقتك بنبل نفسى سحقا ان صح
التعبير ، وأنت أنت قد هويت بسلوكك الدنيء الى الدرك الأسفل ؟ أنت
الآن تتمرغ فى الأرض ، أما أنا فأخلق فى السماء . فأين المساواة بيننا فى
هذا ؟ انتى أقول ذلك متمزق النفس منتحب القلب ، لا أغتبط به ولا
أبتهج له ولا أحاول أن أمجد نفسى على حسابك كما قد يقع فى وهبك .
— أنا أيضا متمزق النفس منتحب القلب يا فوما ، أؤكد لك ذلك !
تابع فوما يقول وقد انتقلت لهجته من القسوة الى الطلاوة :

— أهذا هو ذلك الانسان نفسه الذى بت فى سبيله مسهدا لىالى
كثيرة ؟ آه .. ما أكثر ما نهضت عن فراشى ، أثناء لىالى" البيضاء ، لأشعل
شمعة ، قائلا لنفسى : « انه ينام الآن نوما هادئا لأنه يعتمد عليك يا فوما .
فعليك أنت أن لا تنام يا فوما ، عليك أنت أن تسهر بدلا عنه .. فلعليك
واجد وسيلة أخرى تسهم فى اسعاده ! » ذلك ما كان يفكر فيه فوما أثناء
لىاليه المؤرقة يا كولونيل ! فانظر كيف كافأ هذا الكولونيل نفسه ...
ولكن كفى .. حسبنا ما قلناه !

.. لا يا فوما ، اننى سأستحق صداقتك ، أحلف لك على ذلك !

.. ستستحق صداقتى ؟ أين ضمانه ذلك ؟ اننى كمسيحى أغفر لك ، بل سأحبك أيضا ، ولكننى كإنسان ، كإنسان سوى لن أملك الا أن أحتقرك على رغم ارادتى • أنا مضطر الى احتقارك • يجب على أن أحتقرك • تدفنى الأخلاق الى ذلك • أعود فأقول لك انك لطخت شرفك بينما كنت أنا أقوم بأبذل التضحيات • قل لى : من ذا الذى يمكنه بين « ذويك » أن يفعل ما أفعل ؟ من منهم كان يمكن أن يرفض ذلك المبلغ من المال المقيت الذى رفض فوما أن يمسه من فرط تعلقه بالرفعة والنبل والسمو ، فوما الشحاذ ، فوما المحتقر ؟ لا يا كولونيل ... فمن أجل أن تكون ندا مساويا لى ، سيكون عليك الان ان تعزم امرك على القيام بعدد كبير من الاعمال المحيطة • ولكن أية تضحية تستطيع انت ان تقدمها ، انت يا من لم تقدر ان تخاطبنى يوما بصيغه الجمع قائلا : « اتم » ، كما يجب ان تخاطب ندا لك ، انت يا من تخاطبنى دائما بصيغه المفرد كما تخاطب خادما من الخدم ؟ ...

قال عمى محتجاً :

.. ما هذا الكلام يا فوما ؟ لئن كنت أخاطبك بصيغه المفرد ، فذلك من باب الصداقه ، من باب الصداقه وحدها : رباه : انه لم يخطر ببالي أن هذا يمكن أن يسوءك ! لىتى قد فكرت فى أن ...

تابع فوما يقول :

.. أنت يا من لم تستطع ، بل لم تقبل أن تلبى لى رجاء هو أتمه رجاء يمكن أن أرجوه ، هو أيسر رجاء يمكن ان أرجوه ! لم أطلب منك أكثر من أن تخاطبنى كما تخاطب جنرالاً بقولك : «ياصاحب السعادة !» • .. ولكن سبب ذلك يا فوما أن فى هذا مخالفة لقانون الرتب ...

— مخالفة لقانون الرتب ؟ انك قد حفظت جملة من كتاب على ظهر القلب ، فأنت ترددها كيبغاء ! هل تقدّر مدى الاهانة التى ألحقها بى ، ومدى الاحتقار الذى نلتى به حين رفضت أن تنادينى بقولك : «ياصاحب السعادة» ؟ لقد ألحقت بى اهانة لأنك بدلا من أن تقدر الأسباب التى دفعتنى الى طلب ذلك منك حق قدرها ، ظننت أننى انسان خرف شاذ خليق بأن يسجن ! أفتظن اذن أننى أجهل أن من المضحك أن استعطى لقب « صاحب السعادة » ، أنا الذى أحتقر جميع الألقاب ، وجميع علائم العظمة على هذه الأرض ، ما لم تكن مشفوعة بالفضيلة ؟ أنا لن أقبل لقب جنرال بغير فضيلة ولو أعطيت مليوناً ! ومع ذلك حسبتهى مجنوناً ! والحق اننى فى سبيل خيرك انما ضحيت بكرامتى تلك التضحية التى اتاحت لك ان تعدنى مجنوناً أنت و «علماءك» ! لم يكن لى الا هدف واحد حين الزمتك بان تهب لى لقب جنرال : هو أن اضيء نفسك ، وان انمى فضيلتك ، وان اغرقت بسيل من الافكار الجديدة وأنتشر نورها عليك ... لقد حرصت على ان اقلعك بأن الجنرالات ليسوا اعظم نجوم الكرة الارضية ... أردت أن أبرهن لك على أن اللقب ليس شيئاً ما لم ترافقه الفضيلة ، فلا محل لاغتباطك بزيارة صاحبك الجنرال ما دام الى جانبك اناس اخرون تضيئهم الفضيلة : ولكنك كنت من فرط زهوك بلقبك ، لقب الكولونيل ، انه شق على نفسك أن تعاملنى كما يعامل جنرال فتخاطبتهى قائلاً « يا صاحب السعادة ! » . تلك هى العقدة ! ذلك هو سبب رفضك ، لا مخالفة قانون الرتب ! كل الامر انك أنت كولونيل ، واننى انا فوما فحسب ! ...

— لا يا فوما ، لا ... أؤكد لك أن الأمر ليس كما تقول ... أنت عالم من العلماء ، ولست فوما فحسب ... أنا أحترمك ...
— تحترمنى ؟ عظيم ... اذا كنت تحترمنى حقاً فقل لى : أنا

أستحق فى نظرك رتبة جنرال أم لا ؟ أجب بلا لف ولا دوران •••
وأجب فورا : أنا أستحق هذا اللقب أم لا ؟ اننى أحرص على اختبار
ذكائك ، على امتحان فكري •

— انك بما تتصف به من شرف السلوك وعظمة النفس ، وما تمتاز
به من اخلاص وصدق وتنزه عن المنفعة تستحق هذا اللقب •
كذلك قال عمى مزهوا بعض الزهو •

قال فوما :

— فما دمت أستحق هذا اللقب ، فلماذا لا تخاطبنى قائلا : «ياصاحب
السعادة » ؟ •

— أنا مستعد أن أقول ذلك اذا كنت تحرص عليه يا فوما •••
— بل أنا أطلب بذلك ! ••• نعم أنا أطلب بذلك الآن ، وألح فى
المطالبة • اننى أرى أن الأمر يشق على نفسك ، ولهذا انما أطلب به •
ان قيامك بمثل هذه التضحية هى الخطوة الأولى نحو أعمال جلية تقوم
بها •• ذلك أن عليك أن تقوم بأعمال جلية كثيرة حتى تصيح خليقا بان
تقرن بى •• لا تنس هذا •• يجب أن تنصر على نفسك ، وبذلك وحده
يمكننى أن أصدق أنك مخلص •

— منذ غد سأخاطبك قائلا : « يا صاحب السعادة » !
— بل الآن يا كولونيل ، وغدا أيضا بطبيعة الحال •• اننى أطلبك
بأن تخاطبنى الآن ، فورا ، بقولك : « يا صاحب السعادة » !
— أنا مستعد لذلك يا فوما اذا شئت •• ولكن كيف أقول لك ذلك
فجأة يا فوما ؟

— ولم لا ؟ أمتسحى أن تقول لى ذلك ؟ هذه اذن اهانة جديدة تلحقها

بى •

- طيب يا فوما طيب * أنا مستعد *** بل انتى فخور باطاعتك **
ولكن كيف تكون هيتى اذا أنا قلت لك على الفور : « نعمت صباحا
يا صاحب السعادة ! » لن يكون لهذا معنى ***

- لا ** لا ** ليس عليك أن تقول لى : « نعمت صباحا يا صاحب
السعادة » ** هذه اهانة ** ان قولك هذا يشبه أن يكون مزاحا **
يشبه أن يكون هزلا ** انتى لا أسمع لك بهذه اللهجة * عد الى صوابك
فورا يا كولونيل *** غيّر لهجتك ** أرجوك **

- أنت تمزح يا فوما ؟

- أولا لا تقل : « أنت » بل قل : « أتم » *** وثانيا لا تقل فوما بل
فوما فومتش *** نعم هكذا يجب أن تقول يا ياجور ايلتش *

- يشهد الله يا فوما فومتش أنه يسعدنى أن *** يشهد الله أنتى
مستعد من كل قلبى لأن *** ولكن ما الذى يجب أن أقوله ؟

- أنت لا تحسن استعمال كلمة « صاحب السعادة » * معقول *
كان ينبغي أن تشرح لى ذلك من قبل * وأنت تُعذر على كل حال ، فانك
لم توهب لك موهبة الكلام ، اذا شئت أن أكون مهذبا فى التعبير ***
سوف أساعدك ان أذنت * كرر بعدى : « يا صاحب السعادة ! » *

- طيب ! « يا صاحب السعادة ! » *

- لا ** لا ** لا تقل « طيب يا صاحب السعادة ! » ** بل فقط
« يا صاحب السعادة ! » * قلت لك يا كولونيل : غيّر لهجتك ! وامل
أن لا تتخرج أيضا اذا أنا طلبت منك أن تنحنى قليلا أمامى فى الوقت
نفسه * فانه يقال ان المرء اذا انحنى أمام جنرال كان يعبر عن احترامه
وعن مسارعته الى التقاط أوامره التقاطا من الهواء ان صح التعبير * لقد

ترددت أنا نفسي على مجتمع الجنرالات ، فأنا أعرف هذا كله ... هيا
قل : « يا صاحب السعادة » •

– « يا صاحب السعادة ! » •

– « يسعدني أقصى السعادة أن تتاح لي أخيرا فرصة الاعراب عن
رجائي في ان تغفر لي أنني لم أدرك في اول الامر نبل نفسك يا صاحب
السعادة • واني لاجرؤ أن أؤكد لصاحب السعادة انني لن أدخر شيئا
من قواى الضعيفه في سبيل العمل للصالح العام ... » • يكفي هذا • •
مسكين عمى : لقد اضطر ان يكرر كل هذا الهراء جملة جملة ،
كلمة بعد كلمه •

كنت واقفا على السطحة محمر الوجه كمنذب ، اشعر بالحنق
يخنفني خنقا •

قال لعمى جلاده :

– والان ، ألا تشعر بأن نفسك تخففت من ثقلها فجأة ؟ الا تحس
كان ملاكا قد هبط اليها ؟ انت تشعر بهبوط ملاك ، اليس كذلك ؟
أجب !

– نعم يا فوما • • فعلا • • أشعر بأننى تخففت • •

– فكأن قلبك ، بعد هذا الانتصار على نفسك ، قد مسته يد الرحمن
فبرىء !

– فعلا يا فوما ، أشعر بأننى ازددت قوة !

– ماذا ؟ ازددت قوة ؟ هم • • • وربما ازددت انشراحا • لقد
بعدنا عن البرء • • ولكن لا خير ! • • هذا يا كولونيل ما يفعله بالمرء قيامه

بواجبه ! تعلم كيف تنتصر على نفسك ! ان بك أثره شديدة ! انك مزهو
زهوآ لا حدود له •

قال عمى متنهدا :

- نعم يا فوما نعم •• أدرك ذلك •• أدرك ذلك ••

- أنت أنانى ، بل أنت شر الأنانيين ••

- نعم أنا كذلك • هذا حق يا فوما • أدرك الآن هذا • لقد علمت
منذ عرفتكَ ، أنني أنانى •

- اننى أخاطبك الآن كما يخاطب أب ابنه ، بل كما تخاطب أم
حنون ابنها • انك تنبذ جميع الناس لأنك تنسى أن العجل الصغير نفسه
يعرف كيف يحنو على الثدي الذى يرضع منه •
- أنت على حق يا فوما !

- انك انسان فظ غليظ ، تصدم القلوب بخشوتك • انك تبلغ من
الطمع فى المطالبة بالانتباه اليك والرعاية لك أنك تجبر كل انسان مهذب
على ان يلوذ بالفرار الى أقصى ركن فى الأرض !
مرة أخرى زفر عمى زفرة عميقة متنهدا •

- فلتكن اذن فى معاملة الناس أكثر رقة وحنانا ، وأكثر انتباها
وعناية ، وأكثر تلطفا وتوددا • انس نفسك فى سبيل اخيك حتى
لا ينسك اخوك • اننى اعيش ، وأدع لغيرى ان يعيش : ذلك هو قانونى •
على المرء أن يذعن ، وأن يعمل ، وأن يصلى ، وأن يامل : تلك هى القاعدة
التي أحب أن أعلمها للانسانية بأسرها • فطبّق هذه القاعدة ، تجدنى
مستعدا لان أفتح لك قلبى ، بل ولان ابكى على صدرك أيضا •• ولكنك
بدلا من ذلك لا تعنى الا بنفسك ••• ولا تهتم الا بذاتك ••• دائما

بذاتك •• ذلك أمر مضجر آخر الأمر •• اسمح لى أن أقول لك هذا
صراحة • ان المرء ليشمثر حين لا يراك تفكر الا فى نفسك •

تمتم جافريلا يقول فى تقى وورع :

– ما أجمل كلامه !

وقال عمى وفد بلغ ذروة التأثير :

– صحيح يا فوما • اتنى أحس بهذا كله • على أتنى لست مسئولا
عن كل شىء يا فوما • هنالك التريه التى تلقيتها • لقد عشت فى الجوى
العسكرى • يمينا يا فوما اتنى قادر على ان اكون انسانا حساسا • حين
تركت الكتيه بكى جميع فرسان فرقتى ورددوا انهم لن يجدوا لى شيها
••• وقد قدرت عدئذ اتنى لا أكون سيئا كل السوء •

– هذا أيضا من أنانيتك • هأنذا آقبض عليك مرة أخرى متلبسا
بجرم الانانية • انك تمدح نفسك متباهيا بالدموع التى سكبها اصحابك
فرسان كيتيك عند فراقهم ! هل رأيتنى فى يوم من الأيام أتباهى بدموع
سكبها أحد حزنا على فراقى ؟ ومع ذلك هناك ما كان يمكن أن يدعونى
الى التباهى •

– فاتنى هذا يا فوما فأخطأت القول •• لقد ذكرت هذا رغما عنى
حين تذكرت العهد الجميل الماضى •

– العهد الجميل لا يهبط من السماء ، وانما نحن نصنعه • انه يثوى
فى قلوبنا يا ياجور ايلتش • لماذا ترانى فى جميع الأحوال سعيدا راضيا
هادئ النفس ساكن البال رغم جميع ما أفاقيه من صروف الدهر ؟ اتنى
لا أزعج أحدا ، اللهم الا الحمقى والادعياء و «العلماء» •• فهؤلاء
لا أوفرهم ولا أريد أن أوفرهم •• فأنا لا أحب الحمقى ! وما هؤلاء

العلماء ؟ رجال علم ! .. ألا ان على المرء أن يعرف ما الذى يملأ دماغهم من علم ! ماذا قال « هو » منذ برهة ؟ اتنى به الى هنا ! اتنى بجميع العلماء ! لسوف أعرف كيف أفهمهم كافة ! نعم اتنى قادر على أن أفهمهم ! ناهيك عن نبل النفس !

— طبعا يا فوما طبعا ! .. ومن ذا الذى يشك فى ذلك ؟

— منذ برهة مثلا برهنت على أملك من قوة الفكر ، ومن سعة العلم ، ومن كمال المعرفة بالقلب الانسانى ، ومن تمام الاطلاع على الآداب المعاصرة .. بينت بتفوق باهر كيف أن من الممكن أن أدير حتى حول موضوع تافه كموضوع رقصه « الكامارنسكاي » مناقشة رفيعة ! فأى واحد من الذين كانوا يستمعون الى كلامى عرف كيف يقدرنى حق قدرى ؟ لقد أشاحوا بوجوههم عنى .. وانى لعلى يقين من « أنه » قد أكد لك أننى لا أعرف شيئا البتة .. رغم أن الشخص الذى كان امامه رجل قد لا يقل عن مكيا فيلي او عن ميركادانتى * ... وكل ذنبه انه فقير مجهول العبقرية .. لا .. لا .. ذلك من جانبه امر لا يطاق ولا يحتمل .. ثم هناك كوروفكين ، فمن هو هذا الحيوان ؟

— انه رجل مثقف يا فوما ، انه عالم .. انا انتظر قدومه . سيعجبك حتما يا فوما .

— هيم .. أشك فى ذلك .. لا بد انه واحد من اولئك الادعياء المحدثين ، المحشوة رموسهم كتباً . هؤلاء اناس لا روح لهم يا كولونيل . القلب لا وجود له عندهم ! وما نفع العلم بلا فضيلة ؟

— لا يافوما لا .. لبتك تسمعه يتكلم عن السعادة الزوجية ! .. لسوف يدخل الى قلبك رأسا يا فوما !

— هيم .. سنرى .. سوف نمتحنه هو أيضا هذا الكوروفكين ..

ولكن كفى الآن ! (كذلك قال فوما يختم كلامه وهو ينهض عن مقعده) •
لا أستطيع حتى هذه اللحظة ان أهب لك غفرانا كاملا يا كولونيل : لقد
نلتنى باهانة تدمى النفس • ولكننى ساصلى وادعو الله عسى ان يمن على
نفسى التى أخلق بها الاذى شيئا من السكينة والطمأنينة • ستحدث فى هذا
كله غدا ، اما الان فاسمح لى ان انصرف • اننى اشعر بتعب وضعف
شديد ••

قال عمى متعجلا :

— فعلا يا فوما •• لا بد ان تكون متعبا • واحسب انك ستسرد بعض
قواك اذا أنت تناولت وجبه صغيرة • سامر فورا باعداد ما يجب •
— الآن أكل ؟ هه هه هه !

كذلك قال فوما بلهجه احتقار ، ثم اضاف :

— يسقونك السم ثم يطلبون منك ان تاكل فوقه لفعه ! يظنون انهم
يضمدون جراح القلب بتفاح مسلوق او فطر متبل ! الا انك لمادى
يرئى خالك يا كولونيل !

— أوه •• فوما •• أوكد لك أننى افترحت ذلك بنيه سليمه :

— طيب طيب •• دعنا الآن من هذا كله ! أنا منصرف • اما انت
فامض فورا الى السيدة أمك ، فاركم أمامها على ركبتيك ، وانتحب ،
واسكب دموعا ، والتمس عفوها وغفرانها خاصة • ذلك هو واجبك ••
ذلك أول واجب يقع على عاتقك !

— لم انقطع عن التفكير فى هذا لحظة واحدة يا فوما ، حتى أثناء
حديثى معك • اننى مستعد لأن أقضى الليلة كلها راکما أمام أمى اذا لزم
الأمر • ولكن فكّر أيضا فيما يطلبونه منى يا فوما ! هذا ظلم ، هذا

قسوة ! كن كريما الى النهاية ، اجعلنى سعيدا ، حقق سعادتى ، فكر ،
وقرر ، وعندئذ .. عندئذ .. أحلف لك أن ...

قال فوما :

- لا يا ياجور ايلتش ، هذا ليس شأنى . أنت تعلم أننى حتى الان
لم أتدخل فى شئ . أعرف أنك تظن أننى دبرت كل الأمر . ولكننى
أؤكد لك أننى منذ أول هذه القضية لم أحجم نفسى فيها بل لبثت بعيدا عنها .
فعليك أن تعتقد أن هذه ارادة أمك ، التى لا تريد لك الا الخير طبعاً ..
فهم اذن .. اسرع اليها .. طيرَ اليها طيرانا ، وأصلح الأمر بالرضوخ
لمشيئتها وباطاعة ارادتها . أسأل الله أن لا تشرق الشمس الا ويكون
غضبك قد زال .. أما أنا .. أما أنا .. فساضى الليل كله أدعو لك .
اننى منذ مدة طويلة لا أعرف ما هو النوم يا ياجور ايلتش . الوداع .
وقد غفرت لك أنت أيضا أيها الشيخ (كذلك قال فوما ملتفتا نحو جافريلا)
.. ذلك أنهم قد شحخوا رأسك من غير شك ، والبهوك على . فاغفر لى
أنت أيضا اذا كنت قد أسأت اليك .. وداعا .. وداعا لكم جميعا ...
وليبارككم الله ! .

خرج فوما ، فسرعان ما هرعت أدخل القاعة .

قال عمى :

- كنت تتنصت علينا ، أليس كذلك ؟

- نعم يا عمى . كيف رضيت أن تخاطبه بقولك « يا صاحب

السعادة » ؟ .

- ماذا كان فى وسعى أن أعمل يا عزيزى ؟ بل اننى لفخور بأننى

فعلت ذلك .. ما هذا بالتضحية الكبيرة . ألا ما أعظم ما يتحلى به هذا
الاسان من فضيلة وعفة وتنزه ورفعة ! سرجى ، لقد سمعت .. ترى

كيف أمكنتني أن أعرض عليه هذا المال ؟ لست أفهم كيف فعلت ذلك !
لقد كنت خارجا عن طوري ، غائبا عن نفسي يا عزيزي .. كنت حائفا
جدا ، كنت قد أصبحت لا أفهمه .. كنت أشك فيه واتهمه ! .. ولكن
لا .. انه لا يمكن ان يكون عدوا لي . اننى ادرك الان ذلك .. هل
رايت التعبير النليل الذى ظهر فى وجهه حين طرح المال ؟

— طيب يا عمى ، كن فخورا ما شئت . اما انا فأننى مسافر : لقد
نفدت صبرى . ولكننى أسالك مرة اخيرة : لماذا استدعيتنى وماذا كنت
تتظر منى ؟ اذا كان قد انتهى كل شيء ، واذا كنت قد أصبحت فى غير
حاجه الى ، فلم يبق لى الا ان امضى . اننى لا اطبق احتمال مشهد كهذا
المشهد . اننى مسافر فى هذا اليوم نفسه !

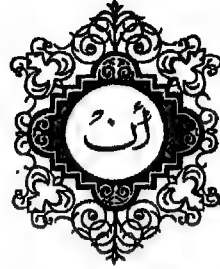
قال عمى وقد عاوده فلقه المألوف :

— انتظر يا صديقى العزيز ، ارجوك .. دقيقتين لا أكثر .. يجب
أن أذهب الى امى .. هناك ، فانهى قضية هامه ، قضية ضخمة ، قضية
ساحقة ! واذهب انت الى غرفتك بانتظار ذلك . سيفودك جافريلا الى
الجناح الصيفى . ألا تتذكر هذا الجناح الواقع فى اخر الحديقة ؟ لقد
أمرت باعداده ، وقد نقلوا اليه حقيبتك . أنا ذاهب الآن الى هناك ،
ألتمس مغفرة أمى ، وأتخذ فرارى — الآن أعرف ماذا يجب على أن
أعمل .. وسأعود اليك فورا ، فى مثل لمح البصر . وعندئذ أقص عليك
كل شيء ، كل شيء ، الى آخر التفاصيل أفتح لك قلبى كله
لسوف نعود نرى أياما جميلة آخر الأمر ! دقيقتين ، دقيقتين لا أكثر
يا سرجى !

صافحنى عمى ، وخرج مسرعا . ولم يبق علىَّ الا أن أتبع الشيخ
جافريلا مرة أخرى .

١٠

ميزنت سبكوف



الجنّاح الذى قادنى اليه جافريلا يسمى « بالجنّاح الجديد » ، وهو مبنى قديم يرجع عهده الى أصحاب هذه الأملاك القدماء ، ولكنه احتفظ باسم الجنّاح الجديد من باب الذكرى . هو منزل صغير لطيف من خشب ، لا يبعد عن المنزل الكبير ، ويقع على حافة الحديقة . ان أشجارا هرمة من أشجار الزيزفون تحيط به من ثلاث جهات ، وتلامس أغصانها الطويلة سطحه . وقد أثت حجراته الأربع تأنيثا حسنا وأعدت للزائرين . فلما دخلت الغرفة التى هيئت لى ووضعت فيها حقييتى ، لمحت على منضدة الليل ورقة من أوراق الرسائل تغطيها كتابة مزخرفة زخرفة رائعة بتواقيع ورسوم أزهار وتشابك أحرف . ان الأحرف الكبيرة والرسوم المصبوغة بعدة ألوان لهى عمل رائع من أعمال حسن الخط . فما ان قرأت الكلمات الأولى حتى أدركت أنها عريضة يوجهها كاتبها الىّ ، ويسمى فيها « بالمحسن المستير » . وكان عنوان العريضة : « ظلامات فيدوبلياسوف » . ولكننى حاولت أن أفهم مضمون هذه العريضة مكرراً اتباهى ، فلم أظفر ، فانها لم تكن الا ركاما من ألفاظ يجمعها أسلوب متنفخ هو أسلوب خادم . ومع ذلك حذرت أن فيدوبلياسوف فى مأزق حرج ، وأنه يلتمس مساعدتى ، وأنه يعقد علىّ

أمله معتمدا على « ثقافتى » ، وأنه أخيرا يرجونى أن أستعمل ما لى من نفوذ على عمى ، وأن أعمد الى ما أملك من « حيلة » ، على حد التعبير الذى يختتم به كاتب العريضة كلامه • وفيما أنا أقرأ الرسالة فتح الباب ودخل ميزنتشيكوف •

قال بلهجة طلبة ، ولكنها مهذبة تهديبا ساخرا وهو يمد الى يده :
- أرجو أن لا يسوءك أن تسمح لى بمعرفتك • اتى ، منذ قليل ، لم أستطع ان ابادلك كلمة واحدة ، ولكننى شعرت من النظرة الاولى برغبة فى أن أعرفك مزيدا من المعرفة •

فأجبت على الفور بأن ذلك يسعدنى أنا أيضا ، الخ الخ ، رغم أننى كنت فى تلك اللحظة فى حالة نفسية فظيعة • وجلسنا •

قال وهو ينظر الى الورقة التى كانت ما تزال فى يدى :

- ما هذا ؟ « ظلامات فيدوبلياسوف * » هل أسعفه الوقت ؟ كنت واثقا أنه سيصطادك • لقد حمل فيدوبلياسوف الى انا ايضا ورقه من هذا النوع تضم هذه الشكاوى نفسها • وهو ينتظر منذ مدة طويلة ، فلا شك أنه هيا نفسه سلفا • لا تعجب ، فان وقائع غريبة تجرى هنا ، واكثرها يبعث على الضحك •

- على الضحك فحسب ؟

- لأن يضحك المرء خير من أن يبكى • واذا شئت عرضت لك قصة حياة فيدوبلياسوف • وأنا واثق أنك لن تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك •

قلت له ضجرا :

- أعترف لك بأن فيدوبلياسوف ليس هو الذى يهمنى أمره الان • لقد أدركت حق الادراك أنه اذا كان السيد ميزنتشيكوف قد رغب

في معرفتي وأظهر لي هذا التودد كله ، فلأن له هدفا ولأنه في حاجة الى .
لقد ظل منذ قليل جالسا في مكانه لا يتحرك ، وكان يبدو عليه أنه مشغول
البال شديد الرصانة . وها هو ذا الآن يتظاهر بالمرح ويبتسم ويريد أن
يروى قصة طويلة . لا شك أن هذا الرجل مسيطر على نفسه سيطرة
كاملة ، وأنه يعرف العالم الذي يعيش فيه .

قلت مغناظا وأنا أضرب المائدة بقبضة يدي :

— لعن الله فوما ! أنا متأكد من انه يصب على النار زيتا ، وأنه يحترق
أنفه في كل شيء !

قال ميتزنشيكوف بلباقة :

— يخيّل اليك أنك مسرف قليلا في مؤاخذته .

صحت وقد عصفت بي النار فجأة :

— مسرف ؟ اعترف بأنني كنت عنيفا بعض العنف منذ قليل ، وأنتي
أعطيت عن نفسي رايًا سيئا . أدرك أنني بلغت من الاندفاع حدا فقدت
معه صوابي ، فلا داعي ادن لان يشرح لي احد ذلك . وانا ادرك أيضا
انني لم أتصرف تصرف رجل مهذب . ولكن هلا فكرت فقلت لي أكان
يمكنني ان لا اخرج عن طوري ؟ نحن هنا في منزل مجانيين ، اذا شئت
أن تعرف رأيي ... وانا مسافر ... هذا كل شيء !

سألني ميتزنشيكوف بهدوء :

— هل تدخن ؟

— نعم

— فاسمح لي اذن أن أشعل سيجارة . التدخين ممنوع هناك ، وقد
أصبحت لا أطيق هذا الخطر .

ثم تابع يقول بعد أن أشعل سيجارته :

- أوافقك على رأيك ! ان ما يجرى هنا يذكر المرء بمستشفى
مجانيين • لذلك أرجو أن تتق بأننى لم اسمح لنفسى بأن أؤاخذك ؛ ولو
كنت فى مكانك ، فلعلمنى كنت أندفع اندفاعا أشد من اندفاعك مرتين ••
- فما الذى صدك اذن عن الانفجار اذا كنت قد نرت حقا ؟ بالعكس:
لقد لزمت هدوءا تاما • وأنا أعترف لك بأنه قد أدهشنى أن لأراك تنصر
عمى المسكين ، المستعد دائما لان يشكر هذا ويعتذر لذاك ! ••

- صحيح ! ان عمك يحسن الى طائفة كبيرة من الناس • ومع ذلك
أرى من غير المفيد أن ينصره أحد • أولا لأن هذا يكون فى نظره زائدا
لا لزوم له ، بل ومهينا كذلك • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فاننى
لو نصرته لرأيت نفسى أطرده من المنزل فى الغداة ، ويجب أن أقول لك
صراحة بأننى فى ظروفى الراهنة أحرص على البقاء ضيفا على هذا المنزل
أشد الحرص •

- ليس لى أن آخذ عليك صراحتك فيما يتصل بظروفك ••• ومع
ذلك أود لو أسألك ، ما دمت تقيم هنا منذ شهر •••

- اسأل ، اسأل ، أرجوك ••• أنا رهن أوامرك •

بهذا قاطعنى ميزتشيكوف وهو يدنى كرسيه •

- قل لى مثلا : لماذا رفض فوما فومتش خمسة عشر ألف روبل
وضعت بين يديه منذ لحظة • لقد رأيت ذلك بعينى رأسى •

- كيف ؟ هذا مستحيل ! قصّ على هذا ، أرجوك •

كذلك صاح يقول ميزتشيكوف •

رويت له ما رأيت ، دون أن أقول شيئا عن مسألة «صاحب السعادة»

فكان ميزنتشيكوف يصنعى الى كلامى باستطلاع شره ، حتى لقد تغير وجهه حين ذكرت له رقم خمسة عشر ألف روبل .

قال حين فرغت :

- حاذق ! لم أكن أتوقع مثل هذا من فوما !

- هذا ما حدث مع ذلك ! لقد رفض المال ! فكيف نفسر هذا الرفض ؟ أهو نبل وشهامة ومروءة ؟

- لقد رفض خمسة عشر ألفا من أجل أن يحصل على ثلاثين ...

وفكر ميزنتشيكوف لحظة ثم تابع يقول :

- على كل حال ، لا أعتقد أن فوما قادر على الحساب . هذا رجل لا يتصف بأنه عملي : هو شاعر من طراز خاص به . خمسة عشر ألف روبل ! هيم . . . أحسب أنه كان يتمنى لو يأخذ المال ، لكنه لم يعرف كيف يعزم أمره ، لأن تصغير الوجه وخلق المشاكل يغيره اغراء أقوى من اغراء المنفعة . هو كما أقول لك : انسان يستحق ان يرثى له ، انسان بكاء رغم فرط غروره وشدة اثرته .

تحسب ميزنتشيكوف . كان واضحا أنه ممتعض جدا ، بل كان واضحا أن شيئا من الشعور بالحسد قد اعتراه . أخذت أنفرسه مستطلمة مستغريا ، بينما كان يتابع كلامه وقد عاد اليه وجومه :

- هيم . . . يجب أن تتوقع تغيرات كبيرة . ان ياجور ايلتش مستعد الآن لأن يعبد فوما عبادة ؟ بل انه قادر على أن يتزوج من قليل المجارة والوداعة (كذلك أضاف يقول من بين أسنانه) .

- أعتقد اذن بوشك هذا الزواج الكريه الاجرامى .

نظر الى ميزنتشيكوف متفرسا . وصحت مندفعًا حانقا :

- يا للأوغاد !

- ومع ذلك فان فكرتهم تقوم على أساس • انهم يؤكدون أن على
عمك أن يفعل شيئا فى سبيل خير أسرته •
صحت أقول بمزيد من الاستياء :

- ألم يعمل اذن فى سبيل خيرهم ما فيه الكفاية ؟ وأنت ، كيف
تجرو ان تقول عن زواجه بمثل هذه المجنونه انه شيء معقول ؟

- انا من رايت : انها مجنونه ••• هم ••• حسن جدا منك ان
تحب عمك هذا الحب • اننى اشاركك شعورك •• ولكن هذه المرأة
تملك من المال ما يربى الاطيان ويضاعف الاملاك •• ثم ان هنالك أسبابا
أخرى تدفعهم الى هذه الفكرة : انهم يخشون أن يتزوج ياجور ايلتس
المعلمة •• هل لاحظت تلك الفتاة الشائقة ؟
سألته منفصلا :

- أهذا جائز حقا ؟ يخيل الى أن هذه آفاويل ونائم لا أكثر ••
اشرح لى ، أرجوك ••• فان هذا الأمر يهمنى كثيرا •
- هو متعلق بها ! ولكنه يخفى ذلك طبعاً •

- يخفى ذلك ؟ أعتقد أنه يخفى ذلك ؟ طيب ، وهى ؟ هل تحبه ؟
- جائز جدا • أليس من مصلحتها أن تتزوجه ؟ انها شديدة الفقر •
- ولكن على أى شيء تستند من أجل أن تقول انهما متحابان ؟

- ذلك واضح كل الوضوح ! ثم انهما يجتمعان خفية على غير مرأى
من أحد • حتى لقد قيل ان صلاتهما أوثق من ذلك • ولكننى أرجوك
أن لا تتقل عني هذا الكلام • فانما أنا أفضى به اليك وهو سر •

صحت أقول متعجبا :

- هل يمكن تصديق مثل هذا الامر ؟ وأنت ، هل تعتقد أن هذا صحيح ؟

- لست متأكدا منه ، لأننى لم أر شيئا بعينى • ولكنه ليس بمستحيل •

- كيف ؟ هلا فكرت فيما ينعم به عمى من شرف واستقامة ؟

- طبعا ! ولكن قد ينساق المرء حين يكون متأكدا من أنه يستطيع اصلاح الأمر بزواج شرعى • هذا يحدث كثيرا • ومع ذلك أعود فأقول لك اننى لا أضمن صحة هذه الشائعه قط ، خاصة وانهم لا يتورعون هنا عن قول شيء فى حق الأنسة ، حتى لقد مضوا الى حد الادعاء ان لها علاقات مع فيدوبلياسوف ؟

هتفت أقول :

- ارايت ؟ مع فيدوبلياسوف ! يا له من اتهام ! اليس التفكير وحده فى هذا يبعث على الاشمئزاز ؟ هل تصدق أنت هذا الادعاء ؟

قال ميزنتشيكوف بهدوء :

- سبق ان قلت لك اننى لا اصدق من هذا شيئا ، ومع ذلك فهذه امور تقع ! فى هذا العالم ، كل شيء يمكن ان يحدث • انا اولا لم أبصر شيئا ، وانا ثانيا أرى أن هذا الامر لا يعينى • ولكن لما كنت ألاحظ أنك تولى هذه القصة كل هذا الاهتمام ، فأننى أرى أن من واجبى أن أؤكد لك أنها غير جائزة ، غير محتملة • هى من تلفيق آنا نيلوفنا ، من تلفيق بيريلتسين • لقد حلمت بيريلتسين هى نفسها أن تتزوج ياجور ايلتشس ، ولم تنشر هذه الأقاويل الا من باب الغيرة ! نعم ، لقد ظنت أنها يكفيها من أجل هذا أن تكون ابنة « ليوتنان كولونيل » ! وهى الآن تقضم لجامها

حقاً ، وما ينفك غيظها يستمر مزيداً من الاستعارة ! أحسب أنني فلت لك الآن كل شيء . * على أنني أعترف بأنني أكره جميع هذه النعائم التي لا تزيد على أن تفقدنا وقتاً ثميناً . * يجب أن أعترف لك بأنني إنما جئت إليك الآن لأطلب منك خدمة يسيرة . *

— خدمة ؟ لك مني ما تريد من خدمات ، اللهم أن أكون قادراً على أدائها !

— عظيم ! بل انني أعتقد أن الامر سيهيك ، ما دمت أرى مدى ما تضمه لعمك من حب ، ومدى ما تولى أمر زواجه من عناية . * ولكن قبل أن أطلب منك هذه الخدمة يجب أن أستأذنك في تمهيد . *

— أي تمهيد ؟

— اسمع : قد توافق على أن تسدي الى المعونة التي سأطلبها منك ، وقد لا توافق على ذلك * ولكن يجب على في الحالين ، قبل ان أشرح ما بنفسى مزيداً من الشرح ، أن أرجوك أن تمنّ عليّ بهذه المنّة ، وهي أن تقطع لي عهد رجل محترم مهذب أن تكتم في أعماق صدرك كل ما سأقوله لك ، سرّاً لا يطلع عليه أحد . * يجب أن تعدني بأنك لن تفضحن في أية حالة من الحالات ولا لأي شخص من الأشخاص ، وأنك لن تستغل الفكرة التي أرى أن من الضروري أن أبلغك اياها . * هل تقطع لي على نفسك هذا العهد ؟

كانت المقدمة فخمة . * ووافقت . *

قلت له :

— هيه ؟

فبدأ ميزتشيكوف يقول :

- المسألة بسيطة جدا فى الواقع • اليك هى : أريد أن أخطف
تاتيانا ايفانوفنا وأن أتزوجها فى مكان يقال له « جريتنا جرين * » ، هل
فهمت ؟

شخصت ببصرى الى السيد ميزنتشيكوف ، وعجزت خلال برهة من
الوقت عن ان أنطق بكلمه واحدة • تم قلت له أخيرا :

- اعترف لك باننى لا افهم شيئا البتة • ثم اننى كنت اظن أننى
أمام رجل عاقل ، ولم اكن أتوقع ان ...
- لم تكن تتوقع ؟ • معنى هذا أنك تعد مشروعى غيا ، اليس
كذلك ؟

- أبدا ، ولكن ...

- هو • أرجوك • افصح عن رأيك بلا لف ولا دوران .
لا تخش شيئا • • • بالعكس : سترنى صراحتك لانها ستقربنى من
الهدف • ثم اننى أوافقك على رأيك : فالمسألة تبدو فى النظرة الاولى
غريبة بعض الغرابة • ولكننى أستطيع أن أؤكد لك أن مشروعى ليس
فيه من الغباء شيء • هو مشروع حكيم عاقل الى أبعد الحدود • واذا
تكرمت فأصغيت الى كلامى حتى النهاية • • •

- تكلم تكلم • • فأنا أصغى أشد الاصغاء !

- ليس عندى كلام كثير • اليك المسألة :

- أنا غارق فى الديون حتى العنق ، ولا أملك قرشاً واحدا •
يضاف الى هذا أن لى أخاً فى التاسعة عشرة من عمرها ، هى يتيمة تماما ،
تعيش عند غرباء ، ولا تملك أى مورد من موارد الرزق ، وذلك ذنبى
أنا • لقد ورتنا قرابة أربعين نفسا • وقد حدث أن عينت فى تلك اللحظة

نفسها ضابطا • فما لبثت أن رهنّت أملاكى ، ثم بعثت مالى بجميع الوسائل وعلى جميع الصور • كنت أشبه ببوريسوف * •• أى عشت حياة قمار وشراب •• الخلاصة •• اننى أخجل من نفسى وأشعر بالخزى والعار متى خطر ببالى ما فعلت • ولقد فكرت الآن ، وأنا أحرص على أن أصلح حالى وأقوم اعوجاج حياتى • ولا بد لى فى سبيل ذلك من مائة ألف روبل • ولما كنت لا أتوقع شيئا من وظيفتى العسكرية ، ولما كنت لا أملك أنا نفسى أية كفاءة ، ولا أية ثقافة تقريبا ، فلم يبق لى كما ترى الا أحد امرين : فاما ان اسرف واما أن اتزوج امرأة غنية • لقد وصلت الى هنا سيرا على القدمين ، ومن غير حذاءين تمريرا • ولم اتحرك منذ وصولى • لقد اعطبنى اختى الروبلات الثلاثة الاخيرة التى كانت معها حين تركت موسكو • ولكننى ما ان رايت تاتيانا ايفانوفنا هذه حتى قلت لنفسى : يجب ان اضحى وان اتزوجها • فهل ترى فى هذا شيئا غير معقول ، لا سيما واننى افعله من أجل اخنى •• ومن اجلى أنا أيضا بطبيعة الحال ؟ •••

- اسمح لى : انت تنوى ان تخطب تاتيانا ايفانوفنا رسميا ؟

- لا سمح الله ! لو فعلت لطردت من المنزل فورا ••• ولرفضت هى أيضا •• أما اذا عرضت عليها ان أختطفها فستوافق توا • ذلك هو مفتاح القضية : التآمر على القيام بمغامرة روائية ليست فى الحسبان ! •• وسيعقب هذا زواج شرعى طبعاً ، فى أقرب فرصه • وانما المهم انتراعها من هذا المكان !

- فل لى : لماذا أنت متأكد من أنها ستوافقك ؟

- أوه ! اطمئن بالا من هذه الناحية ! أنا واثق من أنها ستبغى ، وثقتى هذه تقوم على أسس راسخة وطيدة • ان تاتيانا ايفانوفنا قادرة على أن تتواطؤ على القيام بمغامرة مع أى انسان ، مع أى رجل يمكن أن تخطر

بإله هذه الفكرة • وهذا هو السبب فى أننى رجوتك سلفا أن تقطع لى
على نفسك عهدا بكتمان السر • فانا أحرص على أن تستغل هذه الحقيقة •
ولا شك أنك تدرك أننى أجرم فى حق نفسى اذا لم أتهز هذه الفرصة ،
لا سيما فى الظروف التى أنا فيها •

— اذن لا مجال للشك فى أنها مجنونة جنونا تستحق معه أن تكبل •

فلت ذلك ثم استدركت أقول وقد احمر وجهى :

— آه •• معذرة •• ما كان لى أن اقول هذا الكلام وأنت تريد أن

تتخذها زوجة لك •

— لا داعى الى الاعتذار •• وقد سالتك أنا نفسى أن تكون صريحا

كل الصراحة • هل يهملك أن تعرف أهى مجنونة تماما ؟ كيف أجيبك ؟
الحق أنها ليست مجنونة تماما ؛ والدليل على ذلك انها لم توضع فى
مستشفى للمجانين حتى الآن •• أما تخيلها ان كل من حولها من رجال
هم عشاق لها هائمون بها ، فليس فيه ما يدل على الجنون دلالة خاصة •
وهى فتاة شريفة جدا رغم كل شيء • احكم فى الأمر بنفسك : لقد قاست
هذه الفتاة كثيرا من الشقاء حتى السنة الماضية • كانت منذ ولادتها تعاني
العذاب عند المحسنين الذين ربوها • وهى حساسة الى أقصى الحدود ،
واذ لم يخطبها أحد ، فلك أن تتصور ما قام فى نفسها من أحلام ورغبات
وآمال اضطرت أن تكبتها •• ولك أن تتصور كم خفق قلبها خفقانا شديدا
اضطرت أن تخفيه ! من السهل على المرء أن يدرك أن ذلك كله من شأنه
أن يجعل النفس الحنون متوفزة متحفزة • وها هى ذى تراث ثروة على
حين فجأة • لا شك أن هذا من شأنه أن يدير الرأس ويطيش اللب ••
والرجال يسعون اليها الآن ، ويتملقونها ، ويغازلونها ، فها هى ذى
أحلامها جميعا تتجسد •• لقد تكلمت منذ قليل عن فتى متأنق يرتدى
صديرة بيضاء ••• والواقعة صحيحة كما روتها تماما ••• وهذا يتيح لك

ان تصور البقية بنفسك • انه ليكفى الرجل من أجل اغرائها واغوائها أن يتهد لها ، وان يرسل اليها اشعارا • يكفى أن يحدثها رجل عن سلم من حرير ، وعن اغنيه عاطفيه اسبانية ، يكفى أن تقال لها سخاقتان أو ثلاث من هذا النوع حتى تهب له أن يصنع بها ما يشاء • ولقد فمت ببعض المحاولات فى هذا السيل لارى أنا مخطيء • • فسرعان ما ظفرت منها بموعد • • اننى انتظر اللحظة المناسبة • • • ولكن لا بد لى من انتزاعها من هنا قريبا • • • بعد يومين أو ثلاثة فى أبعد تقدير • • سأبدا أثناء النهار بان أقول لها ترهات ، وان اتهد • • وأنا أعزف قليلا على القيثارة ، وأغنى غناء لا بأس به • • حتى اذا جاء الليل حصلت منها على موعد فى هذا الجناح ؟ فمتى طلع الفجر قدتها الى عربة مهيأة، فأركبتها العربيه، وانطلقت بها • • هأت ذا ترى أنه ليس ثمة أية مخاطرة • انها بالغة راشده ، وستكون قد وافقت على الزواج بارادتها الحرة • فما دامت قد هربت معى ، فلن يبقى عليها الا أن تتزوجنى • • سأخذها الى منزل شريف لكنه فقير ، منزل هو على مسافة أربعين فرسخا من هنا • والى أن يحين يوم الزواج ، سنحتفظ بها ولا ندع لأحد أن يقترب منها • ومن جهتى ، لن أضيع الوقت • سوف « يسلق » الزواج فى ثلاثة أيام • ذلك أمر ممكن • ولكنى لا بد لى من المال قبل كل شيء • ولقد أجريت حسابى • لست فى حاجة الا الى خمسمائة روبل من أجل أن أتم الامر على خير وجه • وأنا أعتمد على ياجور ايلتش للحصول على هذا المبلغ • سوف يعطينى اياه دون أن يخطر بباله الوجه الذى سأنفقه فيه • والآن ، ما رأيك ؟

قلت وقد فهمت أخيرا :

— طيب • • ولكن فى أى شيء يمكن أن أنفك ؟

— فى ألف شيء ! ولولا ذلك ما أزعجتك • لقد ذكرت لك أننى

سأضى الى أسرة شريفه لكنها فقيرة • وفي وسعك أن تنفعنى هنا ، ثم هناك ، وأن تكون لى بعد ذلك شاهدا • وأعترف لك بأننى ما لم تساعدنى سأكون مكبل اليدين •

— سؤال آخر : لماذا اخترتنى نجياً تفضى اليه بأسرارك ، وأنت لا تعرفنى ، ولم أصل الى هنا الا منذ ساعات ؟

أجاب ميزنتشيكوف وهو يبتسم ابتسامة متوددة متلطفة :

— ان سؤالك يحدث فى نفسى أكبر سرور والحق يقال ، لأنه يتيح لى فرصة البرهان على ما أضمره لك من تقدير واعتبار •
— هذا شرف عظيم لى •

— لا •• اسمع : لقد درستك ، منذ قليل • صحيح أنك سريع الغضب و ••• أنك شاب فليلا • ولكننى واثق كل الثقة من أنك متى قطعت على نفسك عهدا بررت به ولم تخنه • أولا ، أنت لا تشبه فى شىء شخصا مثل أوبنوسكين ؟ وثانيا ، أنت أشرف من أن تستغل فكرتى هذه لنفسك ، الا أن ترغب طبعاً فى أن تقاسمنى مقاسمة الصديق صديقه •• وأنا مستعد فى هذه الحالة أن أتركها لك ، أى أن أترك لك تاتيانا ايفانوفنا ، وأن أساعدك مخلصاً على اختطافها ، ولكن شريطة أن تتعهد بأن تدفع لى مبلغ خمسين ألف روبل بعد زواجك بشهر واحد ، وأن تعطينى سنداً مهوراً بتوقيعك من قبيل الضمانة منذ الآن • ولن تثير مسألة النسبة المثوية •

صحت أقول :

— ماذا ؟ أأنت تهدى الى تاتيانا ايفانوفنا ؟

— طبعاً • أوافق على ذلك اذا نحن رتبنا الأمر على هذا الأساس بعد تفكير • لاحظ من جهة أخرى أننى سأخسر خسارة كبيرة • ولكن الفكرة

فكرتني فانا آحرص على أن أجنى منها نفعاً وربحاً • والسبب الذي يدفعني أخيراً الى أن أعرض عليك هذا العرض هو أنني ليس لي خيار • ثم ان الأمر لا يحتمل الإبطاء اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى ما يجري هنا • ناهيك عن أن صيام « الصعود » قريب ، والزواج أثناء الصيام حرام • أمل أن تكون قد فهمت الآن كل ما أريد أن أقوله •
 - كل الفهم • لك على عهد أن أكنم السر • أما أن أكون شريكك في هذه القضية ، فذلك أمر لا أستطيعه ؛ وأرى أن من واجبي أن أحذرك منه •

- لماذا لا تستطيعه ؟

صحت عندئذ متقاداً لمواظفي أخيراً :

- تسألني لماذا ؟ ألسنت تدرك اذن أن القيام بمثل هذا العمل أمر ينافي الشرف ؟ لنفرض أن اعتمادك على ما تتصف به هذه الأنسة من ضعف العقل واضطراب الذهن ناجح ؛ ولكن هذا بعينه هو ما يجب أن يصدك عن هذا العمل ، اذا كان فيك ذرة من شرف • انك تعترف بأنها جديرة بالتقدير والاعتبار رغم ما تتصف به من صفات مضحكة ؛ أفنعترف بهذا ثم لا تتورع عن اشقيائها ، لا لشيء الا لأنك تريد أن تسلبها مائة ألف روبل ؟ لا شك أنك لا تنوى أن تكون لها زوجاً يعرف واجبات الزوج ويؤديها حق أدائها • أنت تنوى أن تهجرها بعد قليل •• فما هذه الدناءة ؟ اغفر لي صراحتي ، ولكنني لا أفهم كيف تعرض عليّ أن أتعاون معك في مشروعك هذا !

- هو • يا لها من رومانسية !

كذلك صاح يقول ميزتشيكوف وهو يتأملني بدهشة غير مصطنعة •

ثم أضاف :

— على كل حال ... قد لا يكون هذا رومانسية ! ولكنه يدل عندئذ على أنك لا تفهم من القضية شيئا . أنت تقول ان مشروعي ينافي الشرف ، أما أنا فأؤكد لك أن تاتيانا ايفانوفنا تربح منه أكثر مما أربح . فكر جيدا تجد الأمر كذلك .

قلت وأنا أبتمسم ابتسامة ساخرة :

— طبعاً ، اذا نظرنا الى الأمور من وجهة نظرك ، كنت أنت التى تقوم بمأثرة حين تتزوج تاتيانا ايفانوفنا !
— تماماً ، مأثرة !

كذلك صاح ميزتشيكوف وقد تحمس هو أيضاً ، وتابع يقول :

— فكر فى الأمر مرة أخرى . أنا أولاً أضحي حين أرتضى أن أصبح زوجها . هذا شيء ، أليس كذلك ؟ وأنا ثانياً ، رغم انها تملك أربعمائة ألف روبل لن آخذ لنفسى الا مائة ألف لا تزيد كوبكا واحدا . لقد آليت على نفسى أن لا آخذ أكثر من مائة ألف روبل . ان فى وسعى أن آخذ أكثر من ذلك ، ولكننى لن أفعل . وهذا شيء أيضاً ! وأخيراً ، اذا أمعنت فى التفكير فى المسألة كان فى وسعك أن تتساءل : أهى تستطيع أن تعيش حياة هادئة على هذا النحو ؟ لا . . . انها لن تستطيع أن تعيش حياة هادئة الا اذا انتزع مالها من بين يديها واحتجزت فى مستشفى للمجانين . ذلك أن من الجائز ، من لحظة الى أخرى ، أن يحوم حولها وغد من الأوغاد ، فارس محترف له شارب معقوف ولحية مدببة ، رجل مثل أوبنوسكين ، يعزف قليلا على القيثارة ، ويعنى لها أغاني عاطفية اسبانية ، فيغويها ويتزوجها ، ثم يتركها فى أى مكان بعد أن يجردها من مالها . أرايت اذن ما قد يحل ؟ واذا كانوا يحتفظون بها ، فى هذا المنزل المحترم ، فانما يحتفظون بها طمعا فى مالها . فيجب تخليصها من هذه

المخاطر ، يجب انقاذها • وهذه الأخطار كلها تزول متى تزوجتها • ان من واجبي أن أوصونها من كل سوء • أولاً سأخذها الى موسكو ، فأعهد بها الى منزل شريف لكنه فقير - لا المنزل الذي ذكرته لك في البداية ، بل منزل اخر • وستكون اختي الى جانبها دائماً ، تسهر عليها من قرب • وسيبقى لها مبلغ يتراوح بين مائتين وخمسين ألفاً وثلاثمائة ألف ، وسوف تستطيع أن تعيش بهذا المبلغ عيشاً كريماً • سوف تحقق جميع رغباتها ، وسوف تتمتع بجميع المسرات والمباهج : حفلات الرقص ، الحفلات التنكرية ، الحفلات الموسيقية • بل سوف تستطيع كذلك أن تحلم بالحلب • على أنني ، من هذه الناحية ، سأأخذ احتياطاتي طبعاً ، سأهب لها حق ان تحلم بالحلب ، اما ان تمضي الى أبعد من ذلك فلا ! ••• الآن مثلاً يستطيع كل انسان أن يحاول الاساءة الى سمعتها • أما حين تصبح زوجتي فلن يجسر أحد أن يندفع في مثل هذه المغامرة •• سيكون اسمها عندئذ السيدة ميزتشيكوف ، وأنا أحرص طبعاً على أن لا يلطخ اسمي • هذا أيضاً شيء • ما رأيك ؟ طبعاً ، لن أعيش معها • ستكون هي في موسكو وأكون أنا في بطرسبرج • هذه حقيقة أذكرها لك بصراحة ، لأنني أحب أن أكون معك مستقيماً في شئون الأعمال • ولكن ما قيمة مثل هذا الانفصال في نظرك ؟ ينبغي لنا أن ننظر هنا الى طبعها • هل في وسعها حقاً أن تكون امرأة متزوجة تعيش مع زوجها ؟ هل تاتيانا ايفانوفنا واعية ؟ كلا •• انها امرأة لا عقل لها ! انها في حاجة الى تغيير دائم مستمر • وقد تنسى غداً أنها تزوجت أمس • ثم انني اذا سكنت معها وطالبتها بأداء جميع واجباتها الزوجية فسأشقيها آخر الأمر • طبعاً سأزورها مرة في السنة ، وربما أزورها أكثر من مرة واحدة في السنة ، ولن أفعل ذلك من أجل مالها طبعاً ، أحلف لك • لقد سبق أن قلت انني لن آخذ منها الا مائة ألف روبل لا تزيد على ذلك كوبكاً واحداً ! ف فيما يتعلق

المال ، تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان الى أنتى سأصرف أشرف تصرف
 •• فاذا جئت اقضى معها يومين أو ثلاثة كنت لها أثناء ذلك مصدر مسرة ،
 لا مبعث ضجر • سوف أسليها ، سوف أحكى لها قصصا طريفة ، سوف
 أصطحبها الى حفلة رقص ، سوف أغازلها ، سوى أهدى اليها هدايا
 صغيرة ، سوف أغنى لها أغنيات عاطفية ، سوف أجيشها بكلب صغير •
 وسوف أسبغ على كل فراق جديد بينى وبينها طابعا روائيا ، ولن انسى
 أن أبادلها رسائل الحب والغرام • نعم ، سيكون ثمة ما يسرها ويطيير
 بلبها فرحا ، سوف يكون لها زوج أحلامها المحب المرح • وعندى أن هذا
 التصرف العاقل يجب أن يكون تصرف جميع الأزواج • ان الأزواج لا
 يرتفع قدرهم عند زوجاتهم ولا يغلو ثمنهم الا حين يكونون غائبين •
 لسوف يكون من شأن طريقتى وأسلوبى أن أشد الى قلب تاتيانا ايفانوفنا
 بأرق عواطف الحب على مدى الأيام • فما الذى يمكن أن ترغب فيه
 تاتيانا ايفانوفنا فوق ذلك ؟ قل لى ••• ما الذى يمكن أن ترغب فيه فوق
 ذلك ؟ اعترف بأننى أقدم لها الجنة •••

بلغت دهشتى من القوة عند سماع كلامه أنتى كنت أصغى اليه
 صامتا لا أتكلم • لقد أدركت أنه لا جدوى من معارضة آرائه برأىي •
 لقد كان مؤمنا ايمانا مطلقا بأنه على حق ، فكان يفصل القول فى الكلام
 على مشروعه العظيم بحماسة هى أشبه بحماسة مخترع • ومع ذلك كان
 ثمة نقطة لا بد من توضيحها • قلت له :

— هل فكرت فى أنها تكاد تكون خطيئة عمى ؟ لسوف تلحق بعمى
 أكبر اهانة ولسوف تناله بأسوأ اساءة اذا أنت اختطفت الآنسة عشية
 زواجها ، ولا سيما اذا كنت ستقترض منه المال اللازم لتحقيق هذا
 الهدف •

— ها ••• ها قد وصلنا الى النقطة الهامة !

كذلك صاح ميزتشيكوف وقد التهب حماسة ثم أضاف :

- اطمئن بالا • لقد تنبأت باعتراضك هذا • فيجب أن أقول لك
أو لا وقبل كل شيء ان عمك لما يخطبها بعد ، ومن الممكن والحالة هذه
أن أعد جاهلا بأنها ستخطب له • وأرجوك أن تلاحظ فيما يتعلق بهذه
النقطة اننى قد وضعت خطتى هذه منذ ثلاثة أسابيع ، واننى كنت عندئذ
أجهل المشاريع التى تصورها هنا فى هذا المنزل • فمن الناحية الأخلاقية
لا مأخذ اذن على ، بل اتنا اذا أردنا أن نقسو فى الحكم كان علينا أن
نعترف بأننى لست أنا الذى يسلب عمك خطيبته ، وانما عمك هو الذى
يسلبنى خطيبتى ، ما دمت قد حصلت منها على موعد سرى تحت العريشة
ليلا ؟ واسمح لى أخيرا أن ألفت نظرك الى ما يلى : لقد أعربت منذ برهة
عن استيائك من أنهم يريدون اجبار عمك على تزوج تاتيانا ايفانوفنا ، ثم
هأنت ذا الآن تجذ هذا الزواج زاعما أن مشروعى يسىء الى الأسرة
وينافى قوانين الشرف ... مع اننى ، فى حقيقة الامر ، انما أسدى الى
عمك خدمة جلى ، فأنا أنقذه لا أكثر ، وعليك أن تفهم هذا • ان عمك
يقبل على هذا الزواج كارها ... ثم انه يحب آنسة أخرى ... ثم هل
تصلح تاتيانا ايفانوفنا زوجة له ؟ هذا عدا أنها ستكون شقية بزواجها منه ؟
ذلك أنها - وأرجو أن لا يسوءك قولى - ستكون بعد الزواج فى حاجة الى
أن تراقب مراقبة محكمة دقيقة ، اذا اريد لها أن لا ترى تراشق الشباب
ورودا ! ... لاحظ أيضا أننى اذا اختلطتها ليلا فلن تصمد الجنرالة ولن
يصمد فوما فومتش ... فما من أحد يمكن أن يسترد ، بغير فضيحة ،
خطيبة هربت مع رجل عشية زفافها ! فهأنت ذا ترى اذن مدى الخدمة
التي أؤديها لعمك ياجور ايلتش ! اننى أكفل سعادته لا أكثر !
لا بد لى من الاعتراف بأن هذه الحجة الأخيرة قد أحدثت فى نفسى
أثرا كبيرا •

قلت :

- فماذا لو خطبها غدا ؟ ستضيع عندئذ فرصتك ، لأنها ستكون قد خطبت رسميا •

- طبعاً ، ولذلك كان علىّ أن أعرقل الأمور ، ومن أجل هذا انما جئت أطلب معاونتك ومشاورتك ؟ سوف يكون الامر صعباً علىّ وحدي ، أما اذا تعاوننا فيه ، استطعنا أن نرتب الأمور ترتيباً يمنع ياجور ايلتش من التقدم الى خطبتها • يجب علينا أن نبذل في هذا السبيل جميع قوانا ، حتى لقد يجب أن نضرب فوما فومتش اذا اقتضى الأمر ذلك ، فنصرف الأنظار عن المشروع ، ونمنع هؤلاء وأولئك من التفكير في الموضوع • ولكننا لن نصل الى هذا الحد الا في حالة اليأس من أية وسيلة أخرى ، وانما ذكرت لك هذه الوسيلة حتى لا أكون قد أسقطت من الحساب شيئاً ، ولانني مضطر الى الاعتماد عليك •

قلت له :

- سؤال أخير : هل كاشفت أحداً غيري بمشاريعك ؟

فحك ميزتشيكوف نقرته ، وصمر وجهه في حزن ، ثم قال :

- أعترف لك بأن بلع هذا السؤال يشق علىّ أكثر مما يشق بلع أشد الأدوية مرارة • لقد كشفت عن خطتي هذه ••• لأحد الناس ••• وا أسفاه ! كنت غيباً كل الغباء ! هل تتصور من كاشفت في هذا الأمر ؟ لقد كاشفت فيه أوبنوسكين ! انه ليصعب علىّ أنا نفسي أن أصدق انني فعلت ذلك ! كان يحوم حولي بغير انقطاع ، وكنت لا أعرفه الا قليلاً جداً ، وكان ذلك في اللحظة التي أوحى الى فيها بهذه الفكرة ، فكنت محموماً ••• وكنت منذ ذلك الحين أدرك أنني لا بد لي من حليف ، فالتجيت الى أوبنوسكين ••• ذلك خطأ فادح لا يغتفر ••• لا يغتفر ! •••

— ماذا قال لك أوبنوسكين ؟

— وافق متحمسا ، ثم غاب فى صباح الغد • وبعد ذلك بثلاثة أيام رجع مصطحبا أمه • ولكنه لم يرض حتى أن يخاطبني بكلمة • وأكثر من ذلك أنه يتهرب منى كأنه يخشاني • فسرعان ما أدركت الأمر • ان أمه ذبابة مأكرة ••• قادرة على اللجوء الى أفطح الحيل • لقد سبق لى أن عرفتها من قبل • لا شك أنه قصر، عليها الحكاية • وأنا الآن أنتظر • انتى أحس أنهما يتجسسان على • فهأنت ذا ترى أن الأمور أصبحت حرجة • ذلك هو السبب فى استعجالى على كل حال •

— ما الذى تخشاه منهما على وجه الدقة ؟

— الحق أنتى لا أخشى منهما كبير شىء • ولكنهما سيحققان بى أذى ، ولاشك • سيطلبان مالا من أجل أن يسكتا عني وأن يعاوناني • انتى أتوقع هذا ••• ولكننى لا أستطيع أن أعطيها مبلغا كبيرا • لن أعطيها أكثر من ثلاثة آلاف روبل • أحسب أنت نفسك : ثلاثة آلاف هنا ، خمسمائة نفقات الزفاف التى يجب أن أردّها الى عمك فورا ، ثم مبلغ لأختى ، فهل يبقى لى من المائة ألف شىء كثير ؟ لو أعطيتهما أكثر من ثلاثة آلاف روبل كنت أدمر نفسى ••• وعلى كل حال فقد سافرا •

— سافرا ؟

كذلك سألت مستطلعا متعجبا •

— نعم ، بعد الشاى فورا • شيطان يأخذهما • لسوف تراهما غدا عائدين • وبعد ؟ أنت موافق ؟

أجبتّه منزعجا جدا :

— الحق أنتى لا أدري بماذا أجيبك • المسألة خطيرة ••• سأكنم

السر طبعا ... ما أنا أوبنوسكين ... ولكن ... يخيّل الى أن عليك أن
لا تعتمد علىّ فى شيء البتة •

قال ميزتشيكوف وهو ينهض عن كرسيه :

سأرى أن جدتك وفوما فومتش لم يضايقاك بعد ، وأنتك رغم ما
تحمله لعمك النيل الشهم الطيب من حب ، لم تتصور حتى الآن كيف
يسومانه سوء العذاب • ولكن صبرا ... انتظر الى الغد ... راقب ما
يجرى ... أنا واثق أنك ستوافقنى متى حل المساء • والا فقد ضاع
عمك ... هل تفهم ؟ سوف يجبرونه على الزواج • لا تنس انه سيخطبها
غدا فى أغلب الظن ، وعندئذ يكون أوان انقائه قد فات • اليوم انما يجب
أن نعزم أمرنا ، ونتخذ قرارنا !

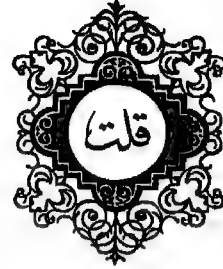
— حقا ... أتمنى لك كل نجاح ممكن ... أما أن أساعدك فأنى
لا أعرف كيف ...

قال ميزتشيكوف وهو يتشم ابتسامة ساخرة :

— ستعرف ! فلنتنظر الى الغد • « الليل يحمل النصح » • الى اللقاء
• سأجيئك فى ساعة مبكرة من الصباح • ستكون قد فكرت فى الأمر •
قال ميزتشيكوف ذلك ، ثم استدار وخرج وهو يصفر •

خرجت فى أعقابها لأنسم الهواء قليلا • لم يكن القمر قد طلع •
الليل حالك الظلام ، والهواء حار بل خانق • ما من ورقة تهتز على أغصان
الشجر • وكنت أود ، رغم تعبى الشديد ، أن أمشي ، أن أسرى عن
نفسى ، أن أستجمع أفكارى • ولكن ما ان سرت عشر خطوات حتى
سمعت صوت عمى على حين فجأة • كان يصعد درجات المدخل من الجناح
الجديد فى صحبة شخص ، وكان يتحدث متدفقا فى حرارة • فسرعان
ما قفلت راجعا وأدركته • كان عمى مع فيدوبلياسوف •

بلبله قصوى



— هانت ذا أخيرا يا عمى !

قال عمى :

— أنا أيضا أستمع لقاءك يا صديقى ، فمتى

مضى فيدوبلياسوف استطلعنا أن نتحدث طويلا •

هناك أمور كثيرة أحب أن أرويها لك •

— دعنا من فيدوبلياسوف ! اصرفه يا عمى !

— هي دقائق خمس أو عشرة يا صديقى ، ثم أفرغ لك • انه فى

حاجة الى كما ترى •

قلت ضجرا :

— نعم هو فى حاجة اليك ليقول لك ترهات وحقاقت !

ما العمل يا صاحبي ! هناك أناس ما ينفكون يصدعون رأسك

بحكاياتهم فى غير الأوان المناسب • اسمع يا جريجوار ، يا عزيزى ، ألم

يكن فى وسعك أن تختار لحظة أخرى للتشكى والتوجع ؟ هلا رحمتى

يا صديقى ! أألس ترى اذن أننى منهوك القوى ؟ انكم تقتلوننى ، انكم

تلتهموننى حيا ، أنتم جميعا • حقا يا سرجى ، لقد نفذ صبرى •

قال عمى ذلك وأجرى بكلتا يديه حركة تتم عن سأم عميق •
- ما عسى أن تكون القضية الهامة التي يريد أن يتكلم فيها ؟ ان فى
وسمه أن ينتظر • ونحن فى حاجة يا عمى الى أن تتكلم معا ...
- ما حيلتى ؟ ما أكثر ما يصيحون فى أذنى قائلين اننى لا أعنى
بأخلاق رجالى • وغدا سيمضى هذا يشكو مرة أخرى من أننى لم أشأ
أن أسمع له وأن أصفى اليه ، وعندئذ ...

وكرر عمى الحركة التي تتم عن السأم •
قلت حين صرنا فى الغرفة :
- طيب • فلنفرغ منه بأقصى سرعة ممكنة ! وسوف أساعدك اذا
شئت • ما قضيته ؟

- اليك قضيته يا صاحبي ! ان اسمه (اسم أسرته) لا يعجبه ، فهو
يطلب الاذن له بتغييره • فما رأيك فى هذا ؟

- اسمه ؟ آه ... آه ... دعنى أقول لك يا عمى من قبل أن
اسمعه ان هذه الأمور لا يمكن أن تحدث الا فى منزلك ...

قلت ذلك وأنا أقوم بكلتا يدي بحركة تدل على الضجر والسأم
أيضا •

- أنت على حق يا صديقى العزيز • وأحسب أننى أستطيع أنا
أيضا أن أجرى هذه الحركات الكبيرة ، ولكن فيم ينفعنى هذا ؟ انه
يلاحقنى بهذه الفكرة منذ شهرين ...

قاطع فيدوبلياسوف قائلا :

- اسمى غير لائق •

قلت له مدهوشا :

— لماذا ؟

— فيه اشارة الى أشياء كثيرة سخيفة !

— ماذا تعنى بذلك ؟ وما السبيل الى تغييره ؟ ما من أحد يغير

اسمه •

— نعم • ولكن ما من أحد له اسم كاسمى •

— صحيح • ان اسمك أميل الى الغرابة • ولكن ما حليتنا ؟ لقد كان

اسم أبيك ! ...

كذلك هتفت أقول وقد استولى على الضجر •

قال فيدوبلياسوف :

— انه لمن الظلم أن أتألم أنا الى الأبد بسبب أبى ؟ وأن أتحمّل بسبب

اسمى أنواع السخرية ، وأقاسى ألوان المرارة •

صحت أقول لعمى :

— أراهن يا عمى أن وراء هذا كله شيئا من فوما فومتش !

— أبدا يا صديقى ، أبدا • أنت مخطيء • الحق أن فوما فومتش

يحمى هذا الفتى • لقد اتخذه سكرتيرا له • وهذا هو سبب استخدامه فى

منزلى على كل حال • وفوما يعنى بتربيته طبعا • لقد نشأ وغرس فيه

عواطف جميلة ، حتى بلغ من ذلك أنه يمكن أن يوصف الآن من بعض

النواحي بأنه رجل نير مثقف ... سوف أذكر لك تفاصيل عن هذا

كله ...

قاطع فيدوبلياسوف مرة أخرى يقول :

- هذا صحيح • ان فوما فومتش هو المحسن الى المنعم على • انه هو الذى جعلنى أدرك تفاهة شأنى ، فأنا بفضلہ انما أدرك الآن أننى لست الا دودة من دود الأرض ، وأدرك المصير الذى ينتظرنى •

- سوف ترى يا سبرى ، سوف ترى ما هى القضية (كذلك تابع عمى يقول بتعجله المؤلف) • لقد عاش فى موسكو منذ نعومة أظفاره خادما عند معلم خط • آه ... ليتك ترى كم يجيد زخرفة الكتابة ! انه يحسن استعمال الذهب والألوان • انه يصنع زينات ويرسم ملائكة • انه فنان ! وأنا أدفع له روبلاً ونصف روبل أجر الدرس فى تعليم ايلوشا الكتابة • وفوما هو الذى حدد هذا الأجر • وان فيدوبلياسوف يعطى دروسا لدى ثلاثة ملاكين آخرين يدفعون له هذا الأجر نفسه • هل ترى كيف يعنى بهندامه ! ثم هو فوق ذلك ينظم شعرا •

- ينظم شعرا ؟ ما كان هذا ليخطر لى على بال !

- شعرا يا صديقى ، شعرا ... لا تظن أننى أمزح ! ... انه ينظم شعرا حقيقيا ، شعرا موزونا مقفى ... فى جميع الأغراض ! وهو ينتهز كل مناسبة من المناسبات من أجل أن ينظم شعرا • نظم بمناسبة عيد ماما فصيذة مدح تبلغ من الجمال اننا جميعا ففرنا أفواهنا دهشة • وضع فى هذه القصيدة شيئا من الأساطير ، تكلم عن عرائس الشمر طائرة فى السماء ، وعماداً أيضاً يا جريجوار ؟ ما اسم تلك الأخرى التى تكلمت عنها ؟ الخلاصة ... والقصيدة كلها جيدة النظم سليمة القوافى • لقد صححها فوما قليلا • وأنا لا أرى فى هذا بأسا ، بل اننى لأغبط به وأبتهج له • ألا فلينصرف الى الشعر ما شاء له هواه ، ولكن شريطة أن يكف عن الجنون ! أقول لك هذا يا جريجوار قوله الاب لابنه • وانما أراد فوما أن يشجعه فاتخذ قارئاً له وناسخاً ، حين علم بالامر وقرأ شعره ؛ أى ان

فوما فعل ما فى وسعه ليصبح محسنا اليه كما سمعت منذ لحظة • ولكن هذا أنبت فى رأسه أفكارا رومانسية ! • ألقى فى روعه الشعور النبيل بالاستقلال • لقد شرح لى فوما هذا ، ولكننى نسيت الآن ماذا قال ، أعترف بذلك • كل ما أعلمه حق العلم أننى كنت سأعقته لولا فوما • اننى أخجل من الاحتفاظ به ، فهمت ؟ ولكن فوما يعارض فى ذلك • فوما يقول انه فى حاجة الى الفتى ، وانه يحبه ••• وقد ذكر لى خاصة ان امتلاكى شاعرا بين رجالى شرف عظيم لى • يظهر أن الأمر كان كذلك لدى البارونات فى الزمان القديم ، وأنه يضيف شيئا من الأبهة والعظمة ••• دعنا من الابهة والعظمة على كل حال ••• الحق أننى يا عزيزى قد أخذت أقدر هذا الفتى ••• ولكن المؤسف أنه أصبح من ذلك يزهو بنفسه • فمنذ ان مدح صار يحتقر الخدم وبلغ من هذا أنه بات لا يريد أن يكلم أحدا • لا تزعل منى يا جريجوار ، فانما أنا أكلمك كما يكلم اب ابنه • ولقد وعد فى الشتاء الأخير أن يتزوج • ان عندنا هنا فتاة لطيفة شريفة نشيطة فى عملها مريحة ، اسمها ماترونا • ولكنه أصبح لا يطيق أن يسمع اسمها بحال من الأحوال • أترأه أسرف فى الاعجاب بنفسه ؟ أترأه يريد أن يصبح مشهورا ذائع الصيت قبل أن يتخذ لنفسه امرأة ؟ •••

قال فيدويلياسوف :

— أنا أتبع نصيحة فوما فومتش أولا وقبل كل شيء ، ما دام هو المحسن الى •

صحت أقول رغما عنى :

— هذه هى المسألة ! ما من سبيل الى الاستغناء عن فوما فومتش !

فأسرع عمى يقاطعنى قائلا :

- ليس الأمر أمر فوما فومتش يا صديقي العزيز ! وانما هم لا يدعونه وشأنه مراتح البال ... ان البنت قليلة الحياء .. لقد مكرت به ، فالتبت عليه جميع الخدم ، فأصبحوا يسخرون منه ، ويستهزئون به ... حتى الأطفال أصبحوا يشاركون في هذا ...
قاطع فيدوبلياسوف مرة أخرى يقول :

- ماتريونا هي التي تحرضهم • ان هذه الغيبة سيئة الطبع ، وبسببها انما تسممت حياتي •

استأنف عمي كلامه يخاطب فيدوبلياسوف بلهجة العتاب :

- ألم أقل لك يا جريجوار ؟ اليك ما فعلوه به ياسرجي • لقد عثروا على كلمة سيئة المعنى يجانس لفظها اسمه ... فأصبح منذ ذلك الحين لا يكف عن الشكوى الى وعن المطالبة بتغيير هذا الاسم • وهو يدعى انه منذ زمن طويل يتألم من أن في اسمه شيئا من سوء الحشمة •

- ومن الابتذال أيضا •

كذلك أضاف فيدوبلياسوف •

قال عمي :

- اسكت يا جريجوار ! على أن فوما يرى هذا الرأي ... لا هذا الرأي تماما ... وانما هو يقول ان علينا أن ننظر بعين الاعتبار الى أن هذا الاسم سييء الى الفتى حين ستنشر قصائده ، وذلك أمر يتتويه فوما • أليست ترى هذا الرأي أنت أيضا ؟

- في نيته اذن أن ينشر أشعاره يا عمي ؟

- طبعا يا صديقي العزيز • لقد تقرر هذا وانتهى الأمر ، على

نفقتي طبعاً • ستحمل الصفحة الأولى هذه العبارة : « مؤلفات قن فلان » ،
وسيهدي المؤلف الكتاب الى فوما فومتش اعترافاً منه بفضله عليه في
تعليمه • وقد تعهد فوما بكتابة المقدمة • في وسعك أن تتصور الأثر الذي
يحدثه هذا العنوان على الغلاف : « أشعار فيدوبلياسوف » ***
فصحح فيدوبلياسوف قائلاً :

— بل « انتحابات فيدوبلياسوف » •
— نعم *** وهأت ذا ترى أن اسناد هذه « الانتحابات » الى اسم
كهذا الاسم شيء لا يرضى عنه الذوق المرفه *** أنا أكرر الآن اقوال
فوما *** وهناك نقاد ساخرون لا يرحمون *** براميثوس مثلاً *** كل
شيء يصلح مادة لسخرهم *** لا شيء يصدهم *** لسوف يستهزئون
بهذا الاسم : فيدوبلياسوف • ومن أجل ذلك يحسن أن يمهر أشعاره
بتوقيع آخر ، أليس كذلك ؟ اليك رأيي : أنا أرى أن لكل انسان أن
يمهر أشعاره بالتوقيع الذي يستحسنه ، أن يمهرها باسم « مستعار »
(أليس هذا هو الاصطلاح ؟) *** وينبغي أن ينتهي الاسم على كل حال
بهذا المقطع : « فيم » • غير أن فيدوبلياسوف يرفض • فهي يقول لي :
مر جميع رجالك أن ينادوني باسم جديد يناسب موهبتي ويكون له وقع
محترم •

— أراهن على أنك وافقت يا عمي !
— نعم ، في سبيل أن أقطع دابر المناقشات معهم يا سرجي • فليدبر
أمره ! وقد قام بيني وبين فوما فومتش في تلك اللحظة شيء من سوء
التفاهم • على أنه يختار في كل أسبوع اسماً جديداً يبدو له أجمل وقعا
أولياندروف ، توليوف *** ماذا أيضاً يا جريجوار ؟ لقد طلبت في أول
الأمر أن تسمى فيرنى ، جريجوار فيرنى ، ثم لم يعجبك هذا الاسم
لأن ساخراً من الساخرين عشر على وسيلة للعبث اللفظي مقرباً بين اسم

« فيرنى » وكلمة « فرن » * وشكوت الرجل فعوقبت ؟ ثم لبثت بعد ذلك خمسة عشر يوما لا تعمل شيئا غير البحث عن أسماء أخرى - ما أكثر الأسماء التى اخترتها ! - وأخيرا بعد أن فكرت مليا جئت تطلب أن تسمى أبلانوف . فهل هناك اسم أسخف من اسم أبلانوف ؟ ومع ذلك وافقت على هذا الاسم ، وأصدرت أمرى مرة أخرى أن ينادوك أبلانوف ! ولم أقبل الا لأتخلص منه . (كذلك شرح عمى ملتفتا الى) . ولبثت تنادى بهذا الاسم ثلاثة أيام . فما تركت خلال هذه الأيام الثلاثة جدارا من الجدران أو حافة من حافات نوافذ الجناح الا وخربشت عليها هذا الاسم مقرونا بتواقيع ، واضطررنا أن نطلى الجدران والنوافذ بدهان جديد لمحو ما خططته عليها بالقلم الرصاص . واستهلكنا أيضا كدسة بكاملها من الورق الهولاندى كاتبا عليه هاتين العبارتين : « أجرب ريشتى ، أبلانوف . أبلانوف ، جرب ريشتك » . ولكن لم يواتك الحظ . فهامهم أولاء يعثرون على كلمة تجانس هذا الاسم لفظا قائلين : « أبلهونوف » فكرهت الاسم وأصبحت تريد تبديله . فما هو الاسم الذى اخترته هذه المرة ،

هه ؟ لقد نسيت أنا ...

أجاب فيدويلياسوف قائلا :

- دانستيف . فاذا كان لا بد أن يمثل اسمى حركة رقص ، فليكن من أصل أجنبى على الأقل : دانستيف !

- نعم . ووافقت على اسم دانستيف يا عزيزى سرجى ، ليرتاح بالى . ولكنهم وجدوا للاسم الجديد جناسا يبلغ من البشاعة أن المرء لا يستطيع لفظه من فرط التقزز والاشمئزاز . وهذا هو يعود اليوم ليقتراح اسما آخر . أهذا صحيح يا جريجوار أم لا ؟ قل ...

- فعلا ... اننى أود منذ مدة طويلة أن أضع بين قدميك اسما
أجمل وقعا •

- ما هو ؟

- اسبوكيتوف •

- ألا تستحي يا جريجوار ؟ أترضى أن تسمى باسم عطر ؟ أهذا
كل ما وجدته أنت الرجل الذكى بعد أيام من البحث ؟ هذا اسم يليق
بزجاجات العطور يا جريجوار !

قلت بصوت خافت :

- ولكن هذا الفتى أبله يا عمى ، انه أغبى الأغبياء !
فأجابنى عمى بصوت خافت أيضا :

- ما حيلتنا يا عزيزى ؟ انهم جميعا يؤكدون له أنه على جانب عظيم
من الذكاء ، وأن قلقه ناشئ عن العواطف النبيلة التى تهز نفسه ...
- ولكن اصرفه يا عمى ، ناشدتك الله ! • •

قال عمى بصوت ضارع كأنه يخاف حتى من فيدوبلياسوف :

- اسمع يا جريجوار ! أنت ترى أن ليس فى وقتى متسع • فكر
فى الأمر • ما هذه هى اللحظة التى يمكننى فيها أن أستمع الى شكاواك !
تدعى أنهم أساءوا الى شعورك من جديد ! طيب ... لك على عهد أن
أرتب الأمر غدا • أما الآن فاتركنا • • • انتظر • • • ماذا يفعل فوما
فومتش ؟

- انه راقد • ولقد أمر بأن يقال لمن يسأل عنه انه سيقضى الليلة
فى الصلاة •

- هم ... طيب ... اذهب يا عزيزى ، اذهب ... هل أدركت
يا سرجى ؟ انه لا يترك فوما لحظة ، حتى أصبحت أخشاه • والخدم
لا يحبونه أيضا ، لأنه ينقل الى فوما كل ما يحدث • لقد انصرف الآن •
ولكن ثق انه سيقول لفوما كل شيء • أما أنا يا عزيزى فقد ربت جميع
الأمر هناك ، لذلك أشعر الآن بالهدوء والطمأنينة • كنت أستعجل لقاءك ،
وهأنذا أراك (قال ذلك هاتفا وهو يصفأخنى بحرارة) • لقد ظننت
يا صديقى العزيز ، أنك غاضب جدا وأنتك ستسافر • أمرت بأن تراقب •
لكم يسعدنى أن يكون الأمر قد انتهى ! منذ قليل ! هه ! جافريلا ،
وفالالى ، وأنت أيضا ! آه ... لقد ما يسرنى أن الخطر قد انقضى !
أصبح فى وسعنا أخيرا أن نتحدث الى أن نشبع ! سأفتح لك قلبى • ابقى
يا سرجى ! ليس لى الا أنت ، نعم الا أنت وكوروفكين ! ...
- قل لى يا عمى ، ما الذى رتبته هناك ، ولماذا يجب على أن أبقى
بعد الذى حدث ؟ أعترف لك بأن رأسى يوشك أن ينفجر !

- وهل تظن أن رأسى أنا لا يوشك أن ينفجر ؟ منذ ستة أشهر ،
كل شيء فى رأسى يرقص ! ولكن الحمد لله ... سيحجرى الآن كل
شيء كأحسن ما يكون • أولا ، لقد غفروا لى ... غفرانا كاملا ... على
بعض الشروط والحق يقال ... فلم يبق ثمة ما أخشاه اذن ! وقد غفروا
أيضا لسانا • ان سانشا ، ان ابنتى سانشا ، قد تحمست منذ قليل ،
فاندفعت وتمادت • ولكن يا لقلبها الصغير ما أطيبه ! اننى أعتر ببنيتى يا
سرجى ! ألا فليباركها الله ... وقد غفروا لك أنت أيضا ! هه ! ...
تستطيع الآن أن تفعل ما تشاء ، تستطيع أن تذهب وتجيء فى البيت طولا
وعرضا ، من أقصاه الى أقصاه ، تستطيع أن تتنزه فى الحديقة ، أن تبقى
مع الضيوف ، أن تفعل ما يحلو لك ... ولكن بشرط واحد ، هو
ان لا تقول فى الغد شيئا بحضور ماما وفوما فومتش • ذلك شرط مطلق •

سوف تصمت • لقد وعدت أنا بذلك ••• لن تزيد على أن تصنى الى ما يقوله الآخرون • ولا يسوءك هذا ••• حقا ••• انك ما تزال شابا •
نعم اننى لشاب فعلا ، وسرعان ما برهنت على ذلك اذ صرت أعلى استياء وغیظا من هذه الشروط المهينة •

صرخت أقول لعمى لاهنا :

— قل لى يا عمى ، فانى أريد أن أرتاح : أنا فى ملجأ مجاني ؟
— هل رأيت يا بنى العزيز ؟ انك لا تستطيع الا أن تنتقد على الفور . انك لا تستطيع أن تكبح جماح نفسك لحظة ! (كذلك قال عمى وقد ظهر عليه الحزن) • لا ••• لسنا بين مجانيين ، ولكن الطرفين كليهما يندفعان ويهتجان ••• اعترف يا عزيزى سرجى أنك تصرف تصرفا مستهجنًا ••• تذكر ما تجرأت أن تقوله صارخا فى وجه رجل محترم السن !

— ما من سن محترمة يا عمى !

— آه يا صديقى ••• انك تسرف ••• انك تتجاوز القصد والاعتدال ••• انك تكابر ••• أعترف لك بأننى أنا أيضا أحرص على شيء من الاستقلال فى الرأى أحيانا ، ولكننى أعود فأقول لك انك تتجاوز حدود القصد والاعتدال • وان هذا ليدهشنى منك يا سرجى •

— لا تزعل يا عمى • أنا أخطأت • أعترف بأخطائى فى حقك ••• أما فى حق صاحبك فوما •••

— صاحبك « فوما » ! لا يا عزيزى سرجى ••• كفَّ عن الحكم عليه بمثل هذه القسوة والعنف ! فوما انسان ينفر من الناس ، انسان مريض ، لا أكثر من ذلك ! ليس فى وسع المرء أن يقسو فى الحكم عليه •

انه فى مقابل ذلك رجل نبيل ! نعم ... هو أنبل الناس طرا .. لقد أتبع لك أن تدرك ذلك منذ قليل ... لقد شهدت بنفسك نزاهته وعفته وعزوفه عن المنفعة . ولئن كانت تعصف به نزوات فى بعض الأحيان ، فيجب أن نصفه عنه ... ان لجميع الناس نزوات تعصف بهم ... أى امرئ كامل ؟

— أنا أعرف أناسا لا نزوات لهم .

— هانت ذا تعاود الكرة . اعترف يا سرجى أنك لا تملك كثيرا من التسامح ... انك يا سرجى لا تغفر لأحد شيئا .

— طيب يا عمى طيب ... دعنا من هذا وقل لى : هل رأيت أناستازيا أوجرافونا ؟

— يا عزيزى ، ان كل ما جرى كان بسببها ! ولكن دعنى أقول لك أولا أهم ما فى الامر : لقد قررنا جميعا أن نمضى فى الغد نهنيء فوما بعيدة ، لأن غدا هو يوم ميلاده حقا . ان ساشا خير طفلة فى العالم ، ولكنها أخطأت التقدير . سندهب فى الغد جماعة قبل الصلاة ، فى ساعة مبكرة جدا ... سيقراً له اليوشا أشعارا ، ولا شك أن هذا سيعطر قلبه ويرضيه كثيرا ! آه ... ليتك تجيء معنا أنت أيضا يا سرجى فتجامله وتمتدحه ! فلعله يغفر لك عندئذ غفرانا كاملا . لشدما يسعدنى أن تتصالحا يا سرجى ! هيا يا سرجى ... اتس الاساءة ، ما دمت قد أسأت أنت أيضا ! ... ان فوما رجل محترم !

قلت وقد فقدت صبرى كله :

— عمى ، عمى ، أنا لا يهمنى أن أحدثك الا فى شئونى ، ثم اذا أنت ... قل لى ، وأنا ألقى عليك هذا السؤال للمرة الثانية : هل تعلم ما تفعله الآن أناستازيا أوجرافونا ؟

- طبعاً يا صديقي ! ماذا دهالك ؟ لقد سبق أن قلت لك ان المسألة كلها تامر عليها . وذلك لا يرجع عهده الى أمس ، وانما هو مستمر منذ زمن طويل . لم أشأ أن أحدثك في هذا الموضوع ، حتى لا تجزع . تصور انهم كانوا لا يكتفون بأن أصرفها ، بل يريدون اكرامى على أن أطردها طرداً ... لقد كنت في مأزق رهيب ، أؤكد لك ... ولكن كل شئ قد سوى الآن والحمد لله ... اسمع : سأفضي اليك بسر . هم يظنون اننى أحبها ، واننى أريد أن أتزوجها ... أى أننى أسعى الى ضياعى ... ذلك أن هذا سيكون ضياعاً لى حقاً ... وقد شرحوا لى ذلك ... ومن أجل انقاذى انما قرروا عندئذ طردها . هذا كله من أمى ، ومن آنا نيلوفنا أيضاً . أما فوما فهو حتى هذه اللحظة صامت لا يتكلم . ولكننى قد افنتهم الآن . ويجب أن أبلغك اننى ، فى سبيل أن أبرىء نفسى من التهمة ، أعلنت لهم انك خطيب ناستيا . بل وانك لم تجيء الى هنا الا بهذه الصفة . وقد طمأنهم هذا قليلاً . والان ستبقى ناستيا فى المنزل ... على سبيل الاختبار ... طبعاً ... ولكن لا خير ... فانما المهم أن تبقى ... وأنت قد ارتفع قدرك عندهم جميعاً منذ أعلنت عن زواجك . مهما يكن أمر ، فقد هدأت أمى على الأقل . أما آنا نيلوفنا فما تزال تتمهم ! لم أستطع أن أعرف كيف السبيل الى ارضائها ... ماذا تريد هذه الانا نيلوفنا ؟ اننى ألقى على نفسى هذا السؤال ...

- أنت مخطيء يا عمى ، أنت مخطيء كل الخطأ ! هل تعلم أن آناستازيا أوجرافوفنا مزمنة على السفر غداً ، هذا اذا لم تكن قد سافرت فعلاً ؟ هل تعلم أن أباهما انما جاء اليوم خصيصاً ليصطحبها ؟ لقد عزم على ذلك عزمًا جازماً لا تراجع عنه ، أعلنت لى ذلك هى نفسها فى هذا الصباح وكلفتى أن أحمل اليك منها تحيات الوداع . قل لى : هل تعلم أنت ذلك ؟

كان عمى يصغى الى كلامى فاغر الفم من الدهشة • وخيل الى
فجأة أننى أراه يرتعش ، بينما كان يخرج من صدره أين •

وسرعان ما أعدت على مسمعه كل الحديث الذى جرى بينى وبين
ناستيا ، فذكرت له اننى طلبتها للزواج ، وانها رفضت ، ووصفت له
غضبها منه للرسالة التى بعث بها الى ، وأعلمته انها تأمل أن ينقذه سفرها
من الزواج بتاتيانا ايفانوفنا ••• الخلاصة : لم أخف عنه شيئا • حتى
لقد حرصت على أن أضخم كل ما يمكن أن يسوء فيما أكشف له عنه •
لقد كنت أحرص على أن أدفعه الى اتخاذ تدابير حاسمة ، وظفرت بذلك •
فانه ما لبث أن أمسك رأسه يديه وصرخ يقول وقد شجب لونه شحوبا
شديدا من فرط الخوف :

– هل تعلم أين هى ؟ أين هى الآن ؟ يا رب ! آه ما أغبانى ! كنت
أظن حين وصلت الى هنا هادىء البال أننى قد سويت الأمور (ذلك ما
أضافه وقد استولى عليه الغم وعصف به اليأس) •
قلت :

– لا أدرى أين هى • ولكننى أعلم أنها منذ قليل ، حين سمعت ذلك
الصراخ الرهيب ، مضت تريد أن تلتقاك • كانت تحب أن تعلن لك ماعدت
نيتها عليه ، جهارا ، على مسمع من الجميع • فأغلب الظن أنهم لم يدعوا
لها أن تدخل •

– أكيد • منعوها ! ما الذى كان يمكن أن تأمله منهم ! آه من
اندفاعها ! آه من كبرياتها ! لماذا رفضتك ؟ وأنت ، وأنت ، كيف لم
تفر برضاها ؟ هذا غباء منك ؟ كان ينبغى أن تحظى باعجابها ! لماذا لم تنل
رضاها واعجابها ؟ أجب ! لماذا لا تجيب ، بدلا من أن تبقى على هذه الحال
كغيبى من الأغبياء ؟

- أرجوك يا عمى ! كيف تريد أن أجيب على أسئلة كهذه
الأسئلة ؟

- هذا مستحيل ! عليك أن تتزوجها ... يجب أن تتزوجها ! لماذا
استدعيتك من بطرسبرج ؟ ينبغي أن تحقق لها سعادتها ! انهم يريدون
الان طردها . ولكن اذا صارت زوجتك ، اذا صارت زوجة ابن أخى ،
فلن يستطيعوا بعدئذ طردها . وأين عساها تذهب ؟ ما عساها تصبح ؟
أعمل مربية للأطفال ؟ تلك فكرة حمقاء ... ومعنى هذا أنها بانتظار
العثور على عمل ستمكث فى البيت ... ومعنى هذا انها سترفض أن تأخذ
منى قرشا واحدا اذا كانت ستمضى مع أبيها بعد كل تلك الافاويل ! كيف
يمكن أن أراها تمضى على هذه الحال ؟ يا للهول ! ويا لها هنا من فضيحة!
انى لأحس الفضيحة مقبلة منذ الآن ! وماذا عن الرواتب التى تقاضتها
سلفا لمساعدة أسرته المعوزة ؟ انها تطعمهم يا عزيزى . هبنى استطعت
أن أزيكها مربية للأولاد ، أن أجد لها عملا فى أسرة نبيلة محترمة !
ولكن هل يمكننى أن أصطاد لها هذه الأسرة النبيلة الشريفة حقا ؟ من
المحتمل جدا أن أستطيع العثور على أسرة كهذه ، بل على أسر كثيرة
كهذه . ولكن ذلك خطر يا عزيزى ! هل يمكن الاعتماد على أحد ؟ ثم
ان المسكين حساس سريع التأذى ، يخيل اليه دائما أن الناس يبيعونه
خبزه باذالات يتحملها ، وتملقات يضطر اليها ! لسوف يهان ! وما عسى
يحدث وهى على ما هى عليه من أنفة وشمم وكبرياء ؟ وماذا اذا حدث
فوق ذلك كله أن سعى اليها وغد من الأوغاد يحاول اغواها ؟ ... لسوف
تبصق فى وجهه .. نعم سوف تبصق فى وجهه ، ولكنه يكون قد أهانها
مع ذلك . وقد يرمونها بحجر رغم كل شئ ، قد يتهمونها ، قد يبلطخون
شرفها بالمار ... وعندئذ ... آه ... اننى أحس بأن رأسى ينفجر ! ..
رباه ! .. رباه !

قلت بلهجة رصينة :

— عمى ، اغفر لى السؤال الذى سألقيه عليك ، ولا تغضب منى خاصة ، واعلم أنك ان أجبتى بصراحة حللت أمورا كثيرة ؟ بل انى لأشعر أن من حقى أن أطلب منك جوابا يا عمى !

— ما هو هذا السؤال ؟

— قل لى بصراحة ، قل لى بصدق ، كما لو كنت تناجى الله : ألسنت تشعر بأنك تعشق آناستازيا أوجرانوفنا قليلا ؟ ألا تمنى أنت نفسك أن تتزوجها ؟ ان هذا بعينه هو السبب الذى يحضهم على طردها من هنا !
حرك عمى يده بإشارة تنم عن نفاد الصبر والتبرم ، اشارة قوية محمولة فى آن واحد ، وقال :

— أنا ؟ أعشقها ؟ أنا أعشقها هى ؟ أى كلام هذا الذى يقولون ! أم تراها مؤامرة على ؟ اسمع : ما هو السبب الذى دعانى الى استدعائك ان لم يكن رغبتى فى أن أبين لهم أنهم يضعون أصابعهم فى أعينهم ؟ وعلام أحرص على أن أراك تتزوجها ؟ أنا أعشقها ؟ لقد فقدوا صوابهم ، لا أكثر ولا أقل !

— اذا كان الأمر كذلك يا عمى ، فاسمح لى أن أكلّمك بصراحة •
أؤكد لك صادقا أننى لا أعترض بشىء على هذا الظن • بالعكس :
اذا تزوجت أنت هذه الفتاة حققت لها سعادتها ، لأنك تحبها ••• واننى لأسأل الله أن يستجيب لى فيهب لكما السعادة والوفاق •

صاح عمى مذعورا :

— ما هذا الذى تقول ؟ انه ليدهشنى أن أراك تقول هذا الكلام بمثل هذا الهدوء •• انك تندفع دائما •• ذلك عيب من عيوبك ، لاحظت

ذلك فيك منذ زمن طويل .. اسمع : ان ماتقوله جنون ! كيف تريد لي ان
أخذها امرأة لي على حين أننى أعدها ابنتى لا أكثر ؟ لسوف اشعر بالحزى
والعار اذا نظرت اليها غير هذه النظرة . وسوف يكون ذلك انما كذلك .
انا شيخ وهى فى ميعه الصبا ! ان فوما هو الذى شرح لي الامر مستعملا
هذه الالفاظ نفسها ! ان قلبى يحترق حبا أبويا لها ، ثم تجيء أنت فتحدثنى
عن الزواج بها ! فد لا ترفضنى اذا أنا خطبتها ، وسيكون ذلك من فيل
الاعتراف بالجميل من جانبها ، ولكنها ستحقرنى بعدئذ ، لاننى أكون فد
عبث بعواطفها .. لو فعلت لقدتها الى الضياع ، ولقدت محبتها ! آه ..
نعم .. اننى مستعد لأن أهب لها كل قلبى .. هذه الطفلة العزيزة ..
اننى أحبها قدر ما أحب صغيرتى ساشا ، وربما كنت أحبها أكثر من ذلك ،
أعترف بهذا .. ان ناستيا هى ابنتى التى اخترتها .. انتزعتها من أحضان
البؤس ، ونشأتها ورعيتها . وكانت عزيزتى المرحومة كاتيا تحبها ، وهى
التى أورتنيها .. نعم .. لقد علمتها ، فهى تتكلم الفرنسية ، وهى تعزف
على البيانو ، وهى تقرأ ، وهلم جرا .. وماأروع ابتسامتها ؟ هل لاحظتها
يا سرجى . من رآها ظن أنها تسخر ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تسخر .
بالعكس : هى رقيقة العاطفة .. اليك اذن ما كنت أتصوره : تصل أنت ،
فتخطبها ، فيدركون أننى لا أطمع فيها ، وتنتهى تلك الأفاويل والنمائم
كلها .. ويكون فى وسعها أن تبقى عندئذ معنا فى هدوء وسلام ، وتحقق
السعادة عندئذ كاملة .. نعم كاملة . أنتما كلاكما ولداى ، وأنتما كلاكما
يتيمان تقريبا ، نشأتكما كليكما ، وأحييتكما كثيرا .. وسوف أقف عليكما
حياتى فما تنفصل بعدئذ يوما .. بل نكون معا على الدوام ! لماذا لا بد أن
يكون هنالك دائما أناس حائقون غاضبون مهبطون فى كل لحظة لأن
يبغض بعضهم بعضا ؟ آه .. ليتنى أستطيع أن أشرح لهم الأمور ، ليتنى
أستطيع أن أشرکہم فى معرفة حقيقة قلبى ! يا رب ! يا رب !

- عمى .. كلامك هذا كله جميل ، ولكنك تنسى أنها رفضتني .
 - رفضتك .. هم .. هل تعلم أنني كنت كمن يوجس ذلك
 من قبل ؟

كذلك قل مطرقاً ثم أضاف يصيح :

- لا .. لا .. انتى لا أصدق هذا . مستحيل ! ان ما يجرى هو
 الذى أفسد كل شيء . لا شك أنك لم تحسن التصرف والمداورة . لعلك
 آذيت شعورها على نحو من الأنحاء . لعلك لم تحسن مجاملتها كما كان
 يجب ، وتدققت تقول لها لغواً لا معنى له . قص على مرة أخرى كيف
 جرت الأمور يا سرجى !

أعدت على مسمعه كل شيء مكثراً من التفاصيل . فلما وصلت الى
 قولى ان ناستيا تريد الابتعاد أملاً فى انقاذ عمى من تاتيانا ايفانوفنا ، ابتسم
 ابتسامة مرة ، ثم قال :

- تقذفنى الى صباح الفد ، لا الى أبعد من ذلك !

صحت أقول مذعوراً :

- أتريد أن تقول بهذا يا عمى ، انك ستزوج تاتيانا ايفانوفنا ؟
 - كان لا بد لى من التضحية فى سبيل أن تبقى ناستيا مرتاحة هادئة
 البال ! نعم ، يجب أن أخطب تاتيانا ايفانوفنا غدا . لقد وعدت بهذا وعداً
 قاطعاً .

- هل عذمت على هذا حقاً يا عمى ؟

- ما حيلتى يا صديقى ، ما حيلتى ؟ ان ذلك ليمزق قلبى تمزيقاً ،
 ولكن لا بد منه . غدا أخطبها . وسيتم الزواج بلا جلبة ولا ضواء ، فى
 المنزل ، فهذا أفضل . وستكون أنت فتى الشرف لى فى حفلة الزفاف .
 تقرر هذا . وسيدعونك هادئاً حتى ذلك الحين . ما حيلتى يا صديقى ؟

انهم يقولون ان علىّ أن أوفر الغنى والثراء لاولادى ! فهل يمكن أن
يمنح المرء عن شيء فى سبيل أولاده ؟ ان المرء لمستعد أن يمشى على رأسه
فى سبيل أولاده ، لا سيما وأنهم على صواب والحق يقال • يجب على
ان افعّل شيئاً فى سبيل اسرتى • لا يمكن ان يظل المرء مدى الحياة غير
صالح لشيء !

هتفت أقول منقبض الصدر :

— ولكنها مجنونة يا عمى !

— ليست مجنونة الى هذا الحد ، لا • • • ليست مجنونة الى هذا الحد
كل ما هنالك أنها قاست كثيراً من الآلام • • • ماذا تريد يا صاحبي ؟ اننى
أتمنى لو اتزوج امرأة أعقل منها وأذكى • • • ومع ذلك فان بين النساء
نساء هن رغم كل عقلهن • • • ولكنك لا تعرف تاتيانا ايفانوفنا ! ليتك
تعرف مدى ما تتصف به من طيب القلب ونبل الشعور !

هتفت أقول يائساً :

— رباه ! لقد استقرت الفكرة فى رأسه منذ الآن فالفها !

— ماذا تريد ؟ انهم يدفعوننى الى ذلك فى سبيل خيرى • ثم اننى
لا أسترسل فى الاوهام ، فلا بد لى من هذا الزواج عاجلاً أو آجلاً ، فمن
الأفضل أن يتم الآن فافرح منه • أقول لك يا سرجى اننى وصلت من
هذا الامر الى الاغتياب به والارتياح له • فمتى اتخذ المرء قراراً أنزل عن
كتفه حملاً وأصبح خلىّ البال • لقد غدوت هادئاً كما ترى • ثم ان حظى
هو الذى أراد لى ذلك على كل حال • والمهم أننى أربح من هذا بقاء ناستيا
هنا • فانا لم أوافق الا بهذا الشرط ، يجب أن أقول ذلك • وهى ذى
الآن تريد أن تسافر • ولكن ذلك لن يكون (قال عمى هذا صارخاً وهو
يقرع الأرض بقدمه) • اسمع يا سرجى (كذلك تابع يقول بلهجة

جازمة (: انتظرنى هنا • لا تتحرك من هذا المكان • سأعود بعد لحظة •

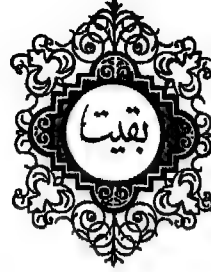
- الى أين تركض يا عمى ؟

- ربما مضيت الى لقائها يا بنى سرجى • سوف يتضح كل شيء ،

صدقنى ، سوف يتضح كل شيء ، كل شيء وسوف تتزوجها ، أقسم لك

خرج عمى من الغرفة مسرعا متحمسا • وتابعته بنظري من النافذة •
فرأيته يمشى خلال الحديقة ، بدلا من أن يرجع الى المنزل •

الكارثة



وحدى • ان وضعى يبدو لى مازقاً حرباً • لقد
 رفضتى ناستيا ، وعمى يطمع فى تزويجى
 بالقوة • كل شىء يدور فى رأسى صاحبها • ولم
 أستطع أن أخرج من ذهنى ميزتشيكوف وما
 عرضه على • يجب انقاذ عمى بأى ثمن • خطر بآلى أن أمضى أبحث عن
 ميزتشيكوف لأقصّ عليه كل شىء • ولكن عمى نفسه ، أين تراه
 ذهب ؟ لقد زعم أنه ماض الى ناستيا ، ثم رأيت يذهب خلال الحديقة •
 استولت على فكرة المواعيد السرية ، فانتقبض صدرى لهذه الفكرة فجأة •
 تذكرت ما أفضى به الى ميزتشيكوف من أن هناك علاقة سرية • • ولكنى
 نبذت هذه الفكرة بعد دقيقة من تأمل • ان عمى لا يمكن أن يكذب •
 ذلك أمر هو البدهاة بعينها • ومع ذلك ظل قللقى يزداد ويعظم • خرجت
 الى درجات المدخل دون أن أشعر بما أفعل ، وأوغلت فى أعماق الحديقة
 سائرا فى الطريق المحفوفة بالأشجار ، التى رأيت عمى يغيب فيها • كان
 القمر قد بدأ يطلع • اننى أعرف الحديقة طولا وعرضا ، ولا أخشى أن
 أتيه • فلما وصلت الى العريشة العتيقة المنعزلة التى تقوم على حافة غدير
 موحل مهجور توقفت فجأة كمن تسمر فى مكانه تسمرا • لقد سمعت
 أصواتا أتية من هناك • لا أستطيع أن أصف ذلك الشعور الغريب بالضيق
 الذى اعترانى على حين بئته • واذا أيقنت أن الأصوات التى أسمعها هى

أصوات عمى وناستيا تابعت سيرى مقتربا ، وأنا أقول لنفسى بغية تهدئة
ضميرى : ما دمت لن أغير سيرتى فليس علىَّ أن أختبئ .. وفجأة دوى
صوت قبلة ، ثم سمعت كلمات تقال بحرارة وحميماً ، ثم سمعت على الفور
صرخة حادة تصدر عن امرأة • وفى تلك اللحظة نفسها هربت من
العريشة امرأة ترتدى ثوبا أبيض ، ومرّت قربى حتى لتكاد تلامسنى
كطائر من طيور السنونو • بدا لى أنها تخفى وجهها بيديها حتى لا تُعرف:
أغلب الظن أنهما لم يلاحظانى من حيث كانا تحت العريشة • ولكن ما كان
أشد دهشتى حين رأيت الرجل يخرج بعد المرأة المذعورة ، فإذا هو
أوبنوسكين ، أوبنوسكين الذى ينبغى أن يكون قد سافر اذا صدقنا
ميزنتشيكوف • واضطرب أوبنوسكين هو أيضا حين لمحنى • زالت
غطرسته كلها ..

نأثا يقول وهو يحاول أن يتسم :

— معذرة .. لم أكن أتوقع أن ألقاك ..

فأجبت بلمهجة ساخرة :

— ولا كنت أتوقع أن ألقاك أنا أيضا .. كنت أحسب أنك سافرت •

— لا .. لم أسافر تماما .. وانما صحبت أُمى جزءا من الطريق •

وهل ... هل لى أن أخاطبك كما يخاطب رجل شريف كل الشرف ؟

— فى أى أمر ؟

— رب لحظات ، ولا شك أنك توافقنى على هذه النقطة ، رب لحظات

يشعر فيها رجل شريف حقا بأنه مضطر الى الاستعانة بكل ما يتمتع به

رجل شريف آخر من نبل النفس .. آمل أن تكون قد فهمت ..

— لا تعتمد علىَّ • اننى لا أفهم شيئا قط •

- هل رأيت السيدة التى كانت معى تحت العريشة ؟
- رأيتها ولكننى لم أعرفها •
- لم تعرفها ؟ هى سيدة ستكون زوجتى قريباً •
- لك كل تهنائى • ولكن فىم أستطيع أن أفيدك ؟
- فى أمر واحد : هو أن تكتم فى أعماق صدرك سر لقائى مع هذه السيدة •
- قلت لنفسى : « من عساها تكون ؟ أرجو أن لا تكون هى ... »
وأجبت قائلاً :
- حقا اننى لمخرج أشد الحرج •• ولكن اعذرنى ••• لا أستطيع أن أقطع لك على نفسى عهداً بذلك •
- أرجوك ، ناشدتك الله •• هذا سر •• أنت أيضاً ستكون خطيباً فى ذات يوم ، وعندئذ فأنا سوف •••
- اسكت •• هذا أحد يجبىء !
- من أى جهة ؟
- وفعلاً ، على بعد ثلاثين خطوة منا ، ظهر طيف شخص لا يكاد يرى •
- همس أوبنوسكين يقول وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه :
- لا شك أنه فوما فومتش • اننى أعرفه من مشيته • يارب ! وهذه خطوات أيضاً من هذه الجهة ! هل تسمع ؟ وداعاً •• أشكرك •• وأبتهل اليك أن •••

وغاب أوبنوسكين • فهاهى الا دقيقة حتى انبجس عمى أمامى كأنه
يخرج من بطن الأرض •

صاح عمى يقول :

- أهذا أنت ؟ ضاع كل شيء يا سرجى • • ضاع كل شيء !
لاحظت أنه كان هو أيضا يرتعش من قمة الرأس الى أخمص
القدم •

- ما الذى ضاع يا عمى ؟

قال لى لاهثا وهو يمسكنى من ذراعى ليقودنى :

- تعال •

لم ينطق بكلمة واحدة طوال الطريق الى الجناح ولا سمح لى بأن
أتكلم • كنت أتوقع شيئا خارقا • ولم يخطئ ظنى كثيرا • فلما وصلنا
لاحظت أن عمى سيسوء حاله • كان وجهه شاحبا شحوب الموت فأسرعت
أرشه بماء بارد • قلت لنفسى : « لا بد أن أمرا رهيبا قد وقع حتى يغمى
على مثل هذا الرجل هذا الانعماء » •

- ضاع كل شيء يا بنى سرجى • • لقد فاجأنى فوما فى الحديقة
مع ناستيا لحظة كنت أقبلها !

صحت وأنا أتأمل مدهولا :

- كنت تقبلها !

- فى الحديقة يا صديقى ! نسيت نفسى • ذهبت الى هناك آملا أن
ألقاها • كنت أريد أن أكلمها ، أن أردّها الى الصواب ، أن أحدثها عنك
خاصة • وكانت تنتظرنى منذ ساعة طويلة قرب المقعد المكسور وراء

الغدير ... انها تذهب الى ذلك المكان أحيانا كثيرة متى كان لديها ماتحب
أن تقوله لى ..

- أحيانا كثيرة يا عمى !

- نعم أحيانا كثيرة يا صديقى . وأصبحت فى الآونة الأخيرة تذهب
الى ذلك المكان كل مساء . لا شك أنهم تبعونا . أعرف ذلك . وقد بلغت
آنا نيلوفنا من احكام مراقبتها أننا كففنا عن الالتقاء فى الأيام الأربعة
الأخيرة . ولكن كان لا بد من الالتقاء اليوم . رأيت بنفسك أن ذلك كان
ضرورة لا بد منها . لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل من أجل التحدث
اليها . وصلت آملا أن ألقاها ، وكانت هنالك فعلا منذ ساعة طويلة
تنتظرنى . كانت هى أيضا فى حاجة الى التحدث الى "

- ما هذا الطيش ! كيف لا تحاذر وأنت تعلم أنهم يراقبونك
ويتبعونك ؟

- ماذا كان فى وسعى أن أعمل فى ظرف حرج كهذا الظرف . كان
لا بد من أن تتكلم خفية . اننى لا أجرو أن أنظر اليها طوال النهار .
فهى تقبع فى ركن ، وأنا أقع فى ركن آخر متظاهرا بأننى لا أراها حتى
لكأنها لا وجود لها .. ولكن متى هبط الليل التقينا وتكلمنا دون حرج .
- وبعد يا عمى ؟

- لم أستطع أن أقول كلمتين . كان قلبى يخفق خفقانا قويا ،
وكانت الدموع تنهمر من عيني . أردت أن أقنها بأن تتزوجك ، ولكنها
قالت لى : « أصبح أنك لا تحبني ؟ أصبح أنك لا ترى شيئا ؟ » ؛ ثم
ها هى ذى ترتدى على عنقى فجأة ، وتحيطنى بذراعيها ، وتجوش باكية !
واستأنفت كلامها تقول : « أنا لا أحب سواك ، ولا أريد أن أتزوج أحدا .

اننى أحبك منذ زمن طويل ، ولكننى لن أتزوجك ولن أتزوج غيرك •
سأسافر غدا ، وسأدخل ديرا من الأديرة ! •

- يا رب ! هل يمكن أن تكون قد عبرت عن نفسها هذا التعبير ؟
كمثل يا عمى كمثل !

- رفعت بصرى • فاذا أنا أرى فوما واقفا أمامنا ! من أين خرج ؟
أمن وراء دغل ؟ أكان ينتظر مختفيا أن يقبض علينا لحظة تلبسنا بالجرم ؟
- وغد حقير !

- جمدت فى مكاني • وهربت ناستيا • ومر فوما الى جانبي صامتة
لا ينطق وهو يلوح باصبعه مهددا • هل تتصور يا سرجى الجلبة التى
ستحدث غدا ؟

- طبعا أتصورها !

صاح عمى يقول يائسا وهو يشب عن كرسيه :

- هل تدرك أنهم يريدون أن يضيعوها ، أن يلطخوا شرفها بالمارء
أن يجعلوها فى محل الازدراء والاحتقار ؟ انهم يبحثون عن حجة من
الحجج لیتهموها بالسقوط وليستطيعوا طردها • وهم الآن يملكون هذه
الحجة ! هل تعلم أنهم زعموا أن لى علاقة خفية بها ؟ بل لقد زعموا ماهو
شر من ذلك ! زعموا أن لها علاقة خفية مع فيدوبلياسوف ! ذلك كله
من آنا نيلوفنا ! ما عسى يحدث الآن ؟ ما الذى سيقع غدا ؟ هل يمكن أن
يروى لهم ما رأى ؟

- سيرويه لهم ما فى ذلك ريب !

همهم عمى يقول وهو يعض على شفتيه ويهز قبضتي يديه :

- آه •• لو نطق بكلمة واحدة ، لو فاه بحرف واحد •• ولكن لا ••

لا أظن •• لن يروى لهم شيئا •• انه يفهم الأمور •• انه رجل لبق !
لن يرضيه أن يسيء اليها ••

قلت بلهجة قاطعة :

- سواء أَرْضَى أن يسيء اليها أم لم يرض ، فان واجبك أن تخطب
آناستازيا أو جرافونا غدا !

تأملنى عمى مذهولا • قلت :

- اعلم يا عمى أنك تلطخ شرف هذه الفتاة بالعار اذا هم قالوا أى
شيء فى هذا الموضوع ! اعلم أن عليك أن تسدرك الأمر وتدفع الشر
بأقصى سرعة ممكنة ! ان عليك أن تهملق فى أعينهم بكبرياء وجراءة !
أن تتقدم الى خطبتها على مرأى من الجميع لا تهمل بما عسى يقال ، وأن
تقصى فوما كدودة حقيرة اذا هو سمح لنفسه بأن يقول فى حقها كلمة
سوء واحدة !

هتف عمى يقول :

- فى هذا انما كنت أفكر حين كنا فى الطريق الى هنا يا صديقى
العزير !

- هل عذمت اذن ؟

- عذما قاطعا • وكنت قد عذمت من قبل أن نبدأ هذا الحديث •

- مرحى يا عمى !

قلت ذلك وارتميت على عنقه •

وتكلمنا بعد ذلك طويلا • بسطت له جميع الأسباب التى تجعل
زواجه بناسيتا واجبا لا مفر منه ، وهى أسباب كان يدركها مثلما كنت

أدركها على كل حال • غير أنني كنت شديد الحماسة قوى البلاغة •
 واغتبطت لعمى اغتباطا كبيرا • ان الواجب الذى يدفعه الآن يقضى على
 جميع تردده • ان عمى يحل الواجب فى المنزل الأولى • ومع ذلك كنت
 لا أعرف كيف سيدبر عمى الأمر • فرغم علمى بأن عمى لا يتراجع أمام
 أية عقبة متى كان الأمر أمر واجب ، ورغم أن ايمانى بذلك ايمان أعمى ،
 لم أكن واثقا من أن قواه لن تخونه فى مكافحة ارادة هؤلاء الناس الذين
 يحيطون به • لذلك كنت أجهد بكل ما فى الشباب من حماسة فى سبيل
 أن أقوى عزمه وأشد أزره • قلت :

— لا سيما • لا سيما وأنه لم يبق الآن مجال لشك • فلئن قررت
 كل شئ فمعنى ذلك أنك اكتشفت حقيقة لم تكن فى حساباتك ، ولكن
 رآها جميع الناس ولاحظوها ، ألا وهى أنك تحب آناستازيا أوجرانوفنا !
 وأردفت أقول صارخا :

— فهل تسمح بأن يتحول هذا الحب العف عدوا لها ، وأن يجعلها
 بالعار والاحتقار ؟

— مستحيل ! ولكن هل يمكن ، يا صديقى العزيز ، أن أصبح
 سعيدا هذه السعادة كلها آخر الأمر ؟

كذلك هتف عمى يقول وهو يرمى على عنقى • وتابع يقول :
 — ما الذى يجعلها تحبنى ؟ لقد كنت أحسب أنني لا أملك ما أستحق
 به حبها • • • أنا شيخ اذا قورنت بها • • آه • • لم أكن أتوقع هذا !
 يا للملاك العزيز ! يا للملاك العالى ! اسمع يا بنى سرجى : لقد سألتنى
 منذ قليل هل أحبها ، فهل كنت تبيئت فى ذهنك شيئا حين ألقيت على هذا
 السؤال ؟

- لقد لاحظت يا عمى أنك تحبها حبا لا مزيد عليه ، تحبها دون أن تعي أنت نفسك ذلك • اسمع : ألم تستدعني لغرض واحد هو أن تستطيع الاحتفاظ بها قريبة منك متى أصبحت زوجة لى فأصبحت أشبه بنت لك؟

- وهل تغفر لى •• أنت •• يا سرجى ؟

- عمى !

وعاقبنى عمى من جديد • قلت :

- اتبى يا عمى • انهم جميعا ضدك • فينبغى لك أن تقف فى وجههم ، وينبغى أن يتم هذا غدا لا بعده !

قال عمى مهموما :

- نعم •• نعم •• غدا •• هل تعلم ؟ ذلك أمر يجب أن أنهض به نهوض رجل ، أن أضع فيه كل شرفى وكل روحى ، أن أبرهن فيه على قوة ارادتى وصلابة عزيمتى •• نعم يجب أن أبرهن على قوة ارادتى وصلابة عزيمتى !

- فامض فى الأمر لا تشيك عنه عقبة من العقبات !

- لن تشينى أية عقبة يا بنى سرجى • وانما المصيبة أننى لا أعرف من أين أبدأ ولا كيف أعمل •

- دعك من هذا الآن يا عمى • سيتقرر غدا كل شيء • حسبك اليوم أن تحاول تهدئة روعك • لا جدوى من تصديق رأسك الآن ، فلن ينفعك هذا فى شيء • واذا فتح فوما منقاره ، فاطرده الى الباب واسحقه سحقا !

- لماذا نصل الى هذا التطرف ؟ اليك ما عزمت عليه : فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، أذهب الى فوما فوما فأقضى اليه بكل شيء ، كما فعلت

معك الآن •• ويستحيل أن لا يفهم فوما الأمر •• ان له قلبا نييلا كريما
•• غير أن ما يشغل بالي ويعذبني هو أن تكون أُمى قد أبلغت تاتيانا
ايفانوفنا أنني سأخطبها غدا • اذا صحَّ هذا فالأمر مزيج محرر حقا !

— لا تصدع رأسك بأمر تاتيانا ايفانوفنا يا عمى !

قلت لعمى ذلك ، ثم رويت له مشهد العريشة مع أوبنوسكين •
ذُهل عمى • وحاذرت مع ذلك أن أنطق بكلمة واحدة عن قصة
ميرتشيكوف •

هتف عمى يقول :

— يا لها من شاذة ! نعم شاذة ! هذا هو الوصف الصحيح ! مسكينة !
انهم جميعا يحومون حولها ، ويستغلون بساطتها ! أوبنوسكين ؟ أهذا
مممكن ؟ كنت أحسب أنه سافر •• شئ غريب •• شئ مقلق •• أنا
مصعوق من الدهشة يا سرجى •• غدا يجب أن تُعرف الحقيقة وان تتخذ
التدابير اللازمة •• أأنت متأكد أنها تاتيانا ايفانوفنا ؟ أأنت متأكد ؟

أجبت بأننى لم أر وجهها ، ولكننى على ثقة مطلقة بأننى لم أخطئ ••
— هيم ••• ماذا لو كنت قد حسبت احدى الخادومات تاتيانا
ايفانوفنا ؟ ماذا لو كانت هى داشا ، بنت البستاني ؟ ان داشا فتاة ذات
مكائد ، ولذلك أتكلم عنها ••• لقد راقبتها أنا نيلوفنا ••• ولكن لا •••
ما دام يقول انه سيتزوجها ! أمر غريب •• غريب !

وافترقنا أخيرا • عانقت عمى ، و تمنيت له حظا سعيدا •

كرر يقول :

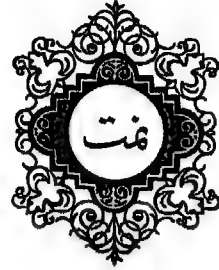
— غدا ، غدا تنقرر الأمور قبل أن تنهض أنت من فراشك • أنا
زاهب الآن الى فوما أفتح له قلبى •• أفتح له جميع طوايا قلبى ، جميع

أعماق قلبي •• بصراحة ، بنبل ، كأخ •• الى اللقاء يا بنى سرجى •
يجب أن تنام • لا بد أنك متعب • أما أنا فلن يغمض لى جفن حتما •
خرج عمى • فسرعان ما رقدت منهوك القوى بعد ذلك النهار
المشحون الملى • كانت أعصابى مرهقة ؛ وقبل أن أنام حقا انتفضت
انتفاضات أيقظتنى من وسنى غير مرة • ولكن جميع الاحساسات التى
عانيتها منذ وصولى حتى هذه اللحظة لا يمكن رغم شدة غرابتها أن تعد
شيئا مذكورا اذا هى قيست باليقظة التى كانت تنتظرنى فى الغداة •

الحزب الثاني والآخر

١

المطاردة



فورا بلا أحلام • وفجأة أحسست بثقل يزن
ثلاثمائة رطل يهوى على ساقى • كان النهار قد
طلع ، فالشمس تدخل من النافذة ساطعة •
والسيد باختشايف جالس على سريرى أو قل

على ساقى

لا مجال للشك فى ذلك • انه هو بعينه • فبعد أن سللت ساقى من
تحتة بطريقة من الطرق ، جلست ، وأخذت أنظر اليه بعينين مدهوشتين
هما عينا رجل يفيق من نومه •

صاح الرجل السمين يقول :

- وينظر الى • ماذا دهالك ؟ انهض يا بنى انهض ! اننى أحاول أن
أوقظك منذ نصف ساعة • هيا • • افتح عينيك !

- ماذا جرى ؟ كم الساعة الآن ؟

- ما نزال فى الصباح المبكر ، ولكن دجاجتنا لم تنتظر انبلاج
الصبح حتى تطير ! انهض ، سنجرى نطاردها !

- أى دجاجة ؟

- صاحبنا البريئة ! لقد هربت .. هربت قبل طلوع النهار
يا صديقي .. وقد جئت أنوى ايقاظك بغير مشقة ولا عناء ، ثم اذا أنا أفضى
ساعتين جامدا في سبيل ذلك . هيا ! قم ! ان عمك ينتظرك ! وما أكثر
ما سنرى ! (أضاف يقول ذلك بصوت يمتزج فيه الشر بالحق)
قلت نافذ الصبر :

- من تعنى ، وماذا تعنى ؟
ولكننى لم ألبث أن حزرت . فسأله :
- أهى تاتيانا ايفانوفنا ؟
فقال :

- هى بعينها ! ومن عسى يكون غيرها ! طبعاً هى ! .. لظالما نبهتهم
الى ذلك وحذرتهم منه ، فلم يشاءوا أن يصدقوا ! وهاهى ذى الآن تهشنا
بالعيد على طريقتها الخاصة ! أخذ الحب عقلها ! .. أطاش دماغها ...
وحب² من ؟ حب² لحية صغيرة قدرة !
- أهو ميزتشيكوف ؟

- شيطان يأخذك ! انك ما تزال تملا ! افرك عينيك يا بنى ، واسترد
عقلك ، احتفالا بالعيد وتكريما له على الأقل ! لا شك أنك شربت قليلا
فى الليلة البارحة ، هه ؟ لا يا عزيزى ليس هو ميزتشيكوف ، بل
أوبنوسكين ! ان ايفان ايفانوفتش ميزتشيكوف رجل محترم ، وسيسترك
معنا فى مطاردها !

صرخت أقول وأنا أثب عن سريرى :
- ماذا تقول ؟ هربت مع أوبنوسكين ؟
أجابنى الرجل السمين وهو ينهض بقوة :

- حقا انه لاسان متعب مضجر ! أجيء أكلمه كما يكلم اسان عاقل ، وأشرح له الأمور على حقيقتها ، ثم يظل يشك ! اسمع يا بنى : اذا كنت تحرص على أن تتبعنا ، فانهض أخيرا ، والبس سروالك • لقد سئمت تضييع وقتى ولعابى سدى •

صعقنى النبأ فأسرعت ألبس ثيابى ، ثم هرولت أخرج • واذا كنت أمل أن ألقى عمى فى داخل المنزل ، حيث كان يبدو كل شيء ما يزال نائما ، واذا كنت ما أزال لا أعى ما جرى وعيا واضحا ، فقد سعدت سلم المنزل محاذرا ، فاذا أنا ألتقى بناستيا فى حجرة المدخل • كانت ناستيا قد ارتدت على عجل ثوبا مما يلبس فى الصباح ، أو كانت فى ثوب الغرفة • وكان شعرها فوضى ، فما يكاد يراها المرء حتى يقدّر أنها قد وثبت عن سريرها منذ لحظة ، وأنها تترقب أحدا •

سألتنى بصوت مختنق ، واندفاع قوى :

- قل لى ، هل صحيح أن تاتيانا ايفانوفنا قد سافرت مع أونبوسكين؟

- يقال ذلك • وأنا أبحث عن عمى ، وسنمضى نطاردها فورا •

- أعيدوها ! أعيدوها بلا تأخر ولا ابطاء ، فان لم تعيدوها فقد

ضاعت !

- ولكن أين عمى ؟

- لا شك أنه فى الحظائر حيث يُعدّون العربدة • ولقد كنت أنتظره •

اسمع : قل له على لسانى اننى أريد أن أنصرف من هنا فى هذا اليوم

نفسه • فقد عزمت على ذلك عزما قاطعا • سيصطحبنى أبى • ولو أمكن

لسافرت فى هذه اللحظة نفسها • لم يبق الآن أمل ، لم يبق أى أمل •

وبينما كانت تنطق بهذه الكلمات رشقتنى بنظرة زائفة ، وأجهشت

باكية • وخيل الى أنها توشك أن يغمى عليها •

توسلت اليها قائلاً :

— هدينى روعك • سوف ترين أن كل شيء يجرى على خير وجه ،
خلافاً لما تصورين • لماذا تلطمين نفسك هكذا يا آناستازيا أوجرافوفنا ؟
— لا •• أدري •• ما بى •• قل له ••

كذلك قالت متقطعة الأنفاس وهى تشد على يدي بغير ارادة • وفى
تلك اللحظة سمعت حركة وراء الباب الأيمن •

ذعرت ناستيا أشد الذعر ، فتركت يدي تسقط ، وهربت تهبط
السلم دون أن تضيف كلمة واحدة •

وجدت العصبية كلها ، أى عمى وباحتشاييف وميزنتشيكوف ، فى
الحوش الخلفى قرب الحظائر • كانت عربية باحتشاييف قد قرنت بها خيول
غير خيولها ، خيول مرتاحة • وكان كل شيء مهياً للسفر ، فهم لا ينتظرون
الا وصولى •

صاح عمى يقول وقد لمحنى :

— ها هو ذا !

ثم أضاف يخاطبنى وقد ظهر فى وجهه تعبير لم أعهده فيه من قبل :
— هل تعرف ماذا جرى يا صديقى العزيز ؟

لقد كان الهلع والاضطراب وأمل غامض ، كان هذا كله يُقرأ
دفعة واحدة فى نظراته ، وفى صوته ، وفى حركاته • كان يدرك أن
مصيره قد أصبح الآن على منعطف •

وسرعان ما أطلعونى على الأمر • قالوا ان باحتشاييف ، بعد أن
قضى ليلة سيئة جداً ، غادر منزله عند الفجر لحضور الصلاة الأولى فى دير

يقع على مسافة خمسة فراسخ من أرضه • فلما وصل الى حيث يتقاطع الطريق الكبير والطريق الصغير المؤدى الى الدير ، لمح على حين فجأة عربية صغيرة تجرى بسرعة ، ولح في العربية تاتيانا ايفانوفنا مع أوبنوسكين • وكانت تاتيانا ايفانوفنا تبكي بكاء شديدا ، وكانت خائفة خوفا قويا ، فلما لمحت باختشايف أطلقت صرخة كبيرة ومدت اليه ذراعيها كأنما هي تصرع أن يخف الى نجدتها : أو هذا ما خيل الى باختشايف •

تابع باختشايف يروي القصة قائلا : « أما هو ، الجرو ذو اللحية الصغيرة ، فقد كان أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وكان يختبئ ماوسعه الاختباء • انتظر قليلا أيها الوغد ، فلن تختفى طويلا ! » • ولم يطل ستيان ألكسيقتش التفكير ، فسرعان ما أدار عربته وأسرع الى ستيان شيكوف ، فأيقظ عمى ثم أيقظني ثم أيقظ ميزنتشيكوف • وتقررت المطاردة على الفور •

— يا لهذا الاوبنوسكين ! يا لهذا الأوبنوسكين ! •• من ذا الذي كان يمكن أن يتوقع هذا !

كذلك كان يردد عمى ، وهو يحدث الى كمن يريد أن يقول لي شيئا آخر •

صرخ ميزنتشيكوف يقول باستياء شديد :

— كل هذا منتظر من شخص كهذا الشخص !

ثم سرعان ما أشاح بوجهه تفاديا لنظرتي •

وقاطعه باختشايف قائلا وهو يركب العربية :

— هيه ! أسير أم تؤثر أن تبقوا متسمرين حتى الليل تتبادلون

رواية القصص وسرد الحكايات ؟

فأسرع عمى يقول :

- هيا بنا ! هيا بنا !

همست أقول له فى أذنه :

- حادثة عظيمة ... سوف ترى أن كل شيء سيجرى جريانا سهلا

لينا هينا كأنه يجرى على مخمل !

- حسبك يا صديقى العزيز ! ... حسبك ابتهاجا ! ... لسوف

يطردونها الآن ، لا لشيء الا لأنهم لم ينجحوا ... لسوف يعاقبونها لأن
أمايهم قد أحبطت ... هل تفهم ؟ رهيب ما أتبأ به !

صرخ السيد باختشاييف مرة اخرى يقول :

- وبعد يا يا جور ايلتش ؟ ماذا قررت ؟ أتمشى أم تظلون تتهايمسون ؟

فى وسعنا أن نجل الخيل ، وأن نمضى نتناول افطارنا ... هه ؟ لن يسيء
الينا أن نشرب قدحا ... هه ؟

كان فى هذه الكلمات من السخرية ما يستحيل معه أن لا نبادر الى
اطاعة السيد باختشاييف مسرعين • فهرعنا نركب العربى ، وسارت الخيل •

أطبق الصمت خلال فترة من الوقت • كان عمى ينظر الى قلعا ،
ولكنه يحرص على أن لا يبوح بما بنفسه أمام الآخرين • وغرق أخيرا
فى أفكاره • ولكنه كان يفكر فى بعض اللحظات كمن ينتفض انتفاضا ،
ويلقى على ما حوله نظرات زائفة • كان ميزتشيكوف يدخن سيجارا بوقار
هادئ رصين هو وقار امرئ أسمى اليه ظلما وعدوانا • أما السيد
باختشاييف ، فقد كان حائقا على الناس جميعا • لكأنه من القلق على مثل
الجمر • كان لا ينفك ينظر الى صحبه ، ويدمدم بكلام بين أسنانه ،
ويزداد احمرارا ، ويزداد تنفسه لهاثا ، وتزداد حركته اضطرابا ، ويبصق
الى جانب فى غف وقوة •

سأله عمى فجأة :

- أأنت متأكد يا ستيان ألكسيفتشس أنهما كانا ذاهبين الى ميشينو ؟
ثم أردف يقول ملتفتا الى :

- ان ميشينو تقع على مسافة عشرين فرسخا من هنا • هي قرية صغيرة لا تضم الا ثلاثين نفسا • وقد اشتراها منذ مدة قصيرة موظف من موظفى البندر أحيل الى التقاعد ، وهو من أكثر الناس شراسة ، أو هذا على الأقل ما يقال عنه ، ربما ظلماً • ان ستيان ألكسيفتشس يزعم أن أوبنوسكين قد ذهب الى منزل هذا الرجل ، وأن هذا الرجل شريكه فى المؤامرة •

صاح السيد باختشاييف وهو يرتعش :

- هو • قلت لك انهما ذهبا الى ميشينو ! هل تظن أن صاحبك أوبنوسكين هو من الأدب بحيث ينتظرك ؟ لقد قضيت ثلاث ساعات فى وشوشات تافهة •

قال ميزتشيكوف مقاطعا :

- سوف نجدهما ، اطمئن بالا !

- أى نعم ••• سنجدهما ! حتما ! وبانتظار ذلك يكون الرجل قد استولى على « الكنز » ••• والسلام عليكم •••
قال عمى :

- اطمئن بالا يا ستيان ألكسيفتشس ، سندركهما ونقبض عليهما •
سوف ترى • لم يتسع وقتها لأن يفعل شيئا بعد !
صاح باختشاييف يقول بلهجة العداوة :

— لم يتسع وقتها ؟ سيكون وقتها فد اتسع لأن يفعل كل ما أراد ،
هذه « التقية النقية » !

ثم قال بصوت كصوت الزمارة ، محاولا أن يقلد صوت أحد من
الناس ولا شك :

— آه ... ما أعذبها ! ما أحلاها ! لقد قاست كثيرا من المحن ،
وعانت ألوانا من الشقاء ! ... ولكن هذا لم يمنعها من أن تهرب ...
هه ؟ عزيزتنا المسكينة الصغيرة ! ... هيا اركضوا وراءها فى الطرقات منذ
الفجر لاهئين ... وذلك فى يوم عيد كان ينبغى لنا فيه أن نصلى وندعو
الله ...

قلت :

— انها ليست قاصرة ، وليس عليها وصاية • فاذا لم تشأ أن تعود
راضية ، فلن نستطيع أن نرجعها بالقوة • فماذا يجب علينا أن نعمل فى
هذه الحالة ؟

قال عمى :

— هذا صحيح • ولكنها ستريد أن تعود راضية ، أنا أكفل ذلك !
لقد غرر بها ... فمتى رأتنا فستحب أن ترجع ، أنا مسئول عن هذا •
ليس من حقنا أن نتركها هكذا ، أن نضحى بها ، أن ندفعها الى هوة
الشقاء دفعا • ان من واجبنا أن ...

صاح السيد باختشايف وهو يلتفت فجأة نحوى :

— عن أية وصاية تتكلم ! انها معجونة يا بنى ، معجونة الى حد تستحق
معه أن توثق وأن تكبل ... لم أشأ أن أقول لك شيئا عن هذا الأمر
بالأمس ، ولكن هأنذا أروى لك الآن : لقد ضللت الباب منذ بضعة أيام ،

ففتحت باب غرفتها ، فماذا رأيت ؟ رأيتها واقفة أمام المرأة ، واضعة يديها على خصرتها ، ترقص على الطريقة الايقوسية ! ويا للثوب الذى كانت ترتديه ! ... يا سلام ! رفعت كتفى ، وأغلقت الباب ! ... ومنذ تلك اللحظة تنبأت بما يجزى كأتنى قرأته فى كتاب !

قلت خجلا وجلا :

— فىم هذه القسوة كلها ؟ ما دامت تاتيانا ايفانوفنا ، على مرأى ومسمع من الجميع ، لا تتمتع بصحة كاملة ، أو قولوا اذا شئتُم مزيداً من الانصاف ، ما دامت لها نزواتها الشاذة ... فان المجرم الوحيد فى رأيى انما هو أوبنوسكين .

عاد الرجل السمين وقد احمر فجأة من الغضب :

— لا تملك صحة كاملة ! يا لهذا الفتى ما أعجبه ! لقد آلى على نفسه أن يثير حفى ... وذلك منذ الأمس ! ... هى مجنونة يا بنى ، مجنونة خليفه بأن تكبل ... لا شأن لصحتها فى الأمر ! هى مجنونة من مجانين الغرام منذ طفولتها الأولى ، وها أنتم أولاء ترون ماذا فعل بها اله الغرام كوبيدون ! أما الآخر ، ذو اللحية الصغيرة ، فالأفضل أن لا أتكلم عنه بشئ . لقد استولى على « الكنز » وسيهرب زاحفا على الأرض متى آن الأوان . ان من حقه أن يفرح ! ...

— أعتقد حقا أنه سيتركها ؟

— ما أفهمك ! أتحسب اذن أنه يأخذها لؤلؤة نادرة يعلقها على ربطة عنقه ؟ دعك من هذا ... سوف يجردها من مالها يا صديقى ، ثم يزربها فى دغل من الأدغال على حافة الطريق ... والسلام عليكم ... ولن يكون عليها بعدئذ الا أن تجلس فى ظل الدغل تشم الأزهار ...

قال عمى محتجا :

- أنت تغالى قليلا يا ستيان ! لن تجرى الأمور على هذا النحو !
كفاك تذكرا ! ما نفعك من هذا كله على كل حال ؟

- اسمع ! ماذا تظننى ؟ أفى صدرى قلب أم لا ؟ صحيح أنتى غريب
عنها ، ولا شأن لى بها ، ولكن هذه الأمور تخرجنى عن طورى ! على كل
حال ، قد تكون العاطفة هى التى تحركنى ! شيطان يأخذنى ! هل تستطيع
أن تقول لى ماذا أعمل أنا هنا ، ولماذا تحولت عن طريقي ؟ هل تستطيع
أن تقول لى فيم يعينى هذا الأمر ؟ هه ؟ فيم يهمنى هذا الأمر ؟

كذلك كان يعبر باخشاييف عن حزنه • ولكننى أصبحت لا أسمع
الا ضجة أقواله ، لأننى أخذت أفكر تفكيرا عميقا فى مصير هذه الانسانة
التي نطاردها • واليكم بعض تفاصيل قصة حياة تاتيانا ايفانوفنا على نحو
ما عرفتها بعد ذلك من مصدر موثوق فيه ، وهى تفاصيل لا غنى عنها لفهم
ما سيتبع :

هى يتيمة نشأت فى منزل أجنبى غير مضاف ، ثم هى بعد ذلك
آنسة تعيسة ، فعانس شقية ، اضطرت أثناء حياتها البائسة أن تشرب كأس
العذاب حتى الثمالة ، لم تنج من نوع من أنواع الحقد الذى تحمله لها
النفوس كلما حملت لها الأيدى كسرة من خبز • ولقد كانت مع ذلك
ذات طبيعة لطيفة ، محببة ، مرحة ، يرضيها أيسر شيء • • • لذلك لم
تشعر فوراً بمرارة وضعها وسوء حالها • حتى لقد ظلت تضحك فى بعض
الأحيان ضحكا صريحا فرحا • وشيئا فشيئا ، مع انقضاء السنين تلو
السنين ، انما تغلب عليها مصيرها الحزين وقدرها الشقى • يست تاتيانا
ايفانوفنا شيئا بعد شيء ، وسنخت ، وأصبحت فريسة احتياج مفرط وحساسية
مرضية • • ثم هوت الى الاسترسال فى أحلام مجنونة ، تتخللها فى كثير

من الاحيان نوبات بكاء مرير ، أو نحيب متشنج • وكلما قل حظها من سعادة الارض ، ازداد ما يحمله لها خيالها من نصفه وعزاء ؛ وعلى قدر شعورها بفقدان الأمل كاملا فى حياة سعيدة مزيدا من الشعور ، كانت تنرق فى أحلام تنقلها بعيداً عن الواقع ، فإذا هى ترى نفسها ثرية ثراء لا اخر له ، جميلة جمالا فوق الطبيعة ، محاطة بعشاق نبلاء أغنياء أنيقين هم جميعا أبناء أمراء أو جنرالات يحملون لها حبا طاهرا نقياً ، ويرتمون على قدميها غراما وهياما • ويظهر « هو » أخيرا « هو » المثل الأعلى للكمال ، المتحلى بجميع الفضائل ، المتمتع بكافة المزايا ، الرقيق القلب ، المشبوب العاطفة ، الفنان ، الشاعر ، ابن الأمير ••• ذلك كله كان يتحرك فى خيالها ، ويتعشش بحياة تستقل من نومها الى الواقع • فلما أخذ عقلها يضعف ، وأصبحت عاجزة عن احتمال أفيون هذه الرؤى الخفية المستمرة ، جاءها القدر فجأة بآخر ضربة •

كانت فى آخر درجات الانهيار ، فى بيئة قادرة على أن تُمضّ أقوى القلوب وعلى أن تدمر أعتى النفوس • كانت وصيفة لسيدة عجوز شمطاء ثرماً كثيرة التأنيب والتقريع ، لا تكف لحظة عن لومها على كل فتاة خبز تاكلها ، وعلى كل حرره رته تهديها اليها ••• كانت وقد أضنتها هذه الحياة المرهقة ، وأحرقها خيالها الملتهب المسعور ، كانت مهياة لأن يعث بها أول قادم ••• وفيما كانت كذلك اذا هى تعلم بموت رجل يمت اليها بقربى بعيدة ، ولكنه ، لخفة عقلها ، لم يخطر ببالها يوما • كان هذا الرجل الذى يمت اليها بقربى بعيدة ، والذى عاش بعد موت جميع أقربائه ، شيخاً متفردا شاذاً ، يعيش فى أحضان عزلة شديدة ، بمكان ناء بعيد • انه شيخ جهم الطبع ، صموت ، لم يتزوج ، منصرف الى علم الفراسة وتعاطى الربا فى آن واحد •

ها هى ذى معجزة تهبط على تاتيانا ايفانوفنا اذن • ها هى ذى ثروة

طائله تنزل عليها من السماء وتمتد أمام بصرها بساطا كبيرا من ذهب يساوى وزنها . . انها الوريثة الوحيدة للمتوفى . مائة ألف روبل فضة رنانة مبسطة أمامها موضوعة تحت تصرفها ! يا لسخرية القدر ! ان هذا كليل بأن يجهز على الفتاة ! هل كان يمكن لهذا الدماغ الضعيف أن لا يؤمن بصدق أحلامه وقد تحقق بعضها منذ الآن ! لقد كان لا بد أن تفقد الفتاة بسبب هذا الحادث آخر شعاع من عقل سليم ! لقد انهارت من فرط النشوة والوجد ، فما هى ذى تندفع طائشة اللب فى هذا العالم المسحور ، عالم التهاويل التى لا يلجمها الحلم ، والأخيلة التى لا يحدها حد ، والأطراف التى لا نهاية لمغرياتها ومفاتها ! . . . ألا فلتسقط الوسوس والشكوك ، ألا فلتسقط الوقائع الملموسة ، والحقائق الراهنة ، والأحداث الجارية ، ألا فلتسقط جميع الحواجز القائمة والقوانين الصارمة ! ألا فليسقط كل ما هو يقين ووضوح كقولك ان اثنين واثنين أربعة . ان تانيا ايفانوفنا ، رغم أنها بلغت الخامسة والثلاثين من العمر ، ورغم اقترابها من خريف الحياة الذى يحمل البرد ، لم تحاول قط أن تقاوم ما يملأ رأسها من أحلام عن الجمال الباهر ، والحب الأبدى الرائع العظيم ! . ألم تكن هذه الأحلام جزءا من وجودها ؟ ألا يجب أن تتحقق جميع هذه الأحلام بعد أن تحقق أولها ؟ فلماذا اذن لا يظهر « هو » ؟ وبانتظار أن يظهر « هو » ، « هو » الخطيب المثالى ، الخطيب الفارس ، الذى يملك جميع الرتب العسكرية والمدنية ، أخذ ضباط حسان من ضباط الحرس ، أو من ضباط القتال فحسب ، وسادة عظام ، وشعراء يسكنون باريس أو يسكنون موسكو فحسب ، لهم لحي على الطريقة الاسبانية أو ليس لهم لحي ، اسبان أو غير اسبان ، ولكنهم اسبان خاصة ، أخذوا يتخاطرون فى مخيلتها فى الليل والنهار جمهرةً تبلغ من الكثافة والافلاق أنهم أصبحوا خطرا جديا . . . فما هى الا خطوة واحدة حتى تصبح الفتاة خليقة بأن تودع مستشفى

للمجانين ! أصبحت تاتيانا ايفانوفنا تنقل هذه الأطياف البراقة السكرى حياء
التي تحاصرهما ، أصبحت تنقلها الى الحياة الواقعية ، وأخذت أيسر العلامات
تتضح في خيالها تضخما عجيبا ، فجميع من تلقى عليهم تاتيانا ايفانوفنا
نظرها يقعون في غرامها ويتولهون بحبها ، والرجل الذي مرت به منذ لحظة
هو اسباني ، والشخص الذي مات أمس انما مات من فرط هيامه بها .
وكانما أرادت المقادير أن تتعزز هذه الأخيلا في عقلها وأن تقوى وتشد ،
فهؤلاء رجال متلففون كثيرون من أمثال أوبنوسكين أو ميزنشيكوف ، قد
أخذوا يغازلونهم مضميرين نية واحدة . حاول كل واحد منهم أن يفوز
برضاها ، وأن ينال بالتملق خطوة لديها ، وأن يأسر قلبها . ولم يخطر
ببال تاتيانا المسكينة أنهم انما يسعون اليها في سبيل الحصول على مالها .
كانت على يقين من أن ضربة سحر قد أصلحت الانسانية على حين فجأة ،
وأن جميع الناس من أولهم الى آخرهم قد أصبحوا مرحين لطافا خنوين
طييين . وتأخر « هو » عن الظهور . ولكنه سيظهر من غير شك . ولا
داعى الى التسرع والتعجل ، فالحياة الآن تفيض بهجة وفننة ، وتزخر
بما يسرى عن النفس ويسلى القلب . وكانت تاتيانا ايفانوفنا أثناء ذلك
تمص سكرا وتقطف أزهارا وتلهي بقراءة روايات . ولكن الروايات
تلهب خيالها مزيدا من الالها ، فما تكاد تقرأ صفحتين حتى تترك الكتاب ؛
ما تكاد تجد في الرواية أيسر اشارة الى حب حتى تسترسل في أحلامها
بدلا من أن تستمر في قراءتها ؛ وقد يكفيها من أجل هذا وصف لمكان ،
أو لغرفة ، أو لزينة . وهى لا تكف عن اقتناء أغرب الأنواب الجديدة ،
وتبعث من يشتري لها تخاريم وقبعات وزينات للشعر وأشرطة وأقمشة
ونماذج للخياطة ومربيات وأزهار وكلاب . وهذه ثلاث وصيقات يخطن
لها من الصباح الى المساء بينما تعجب سيدتهن ملابسها وحليها مستديرة
أمام المرأة ، من الصباح الى المساء ، وحتى في الليل . ثم ان ميراثها قد أعاد

اليها شيئا من الشباب • وأسبغ عليها شيئا من الجمال • لم أستطع أن أعرف كيف اتفق أن أصبحت قريبة المرحوم الجنرال كراخوتكين ؛ وغلب على ظني أن هذه القرابة انما تخيلتها الجنرالة ، رغبة منها فى الاستيلاء على تاتيانا ايفانوفنا ، وفى اجبار عمى على تزوجها بأية وسيلة من أجل مالها •

لقد كان السيد باختشايف اذن على حق حين اتهم اله الحب كوبيدون بأنه هو الذى دفع تاتيانا ايفانوفنا الى الجنون • ولقد كان عمى على صواب حين اندفع يطاردها منذ علم بهربها مع أوبنوسكين ، وحين اعتقد أن عليه أن يردها الى المنزل راضية أو كارهة • فلقد كانت المسكينة لا تستطيع أن تعيش بغير وصاية عليها ، فلا بد أن تسير الى الضياع اذا وقعت بين أيدي أناس أشرار •

وصلنا ميشينو فى نحو الساعة العاشرة • انها ضيعة حقيرة تقع فى قرارة ركن منخفض يبعد عن الطريق الكبير مسافة ثلاثة فراسخ ؛ ولا تضم الا ستة أو سبعة أكواخ سودها الدخان وتناثرت معوجة وغطى أسقفها قليل من قش عفن ، فمن رآها أحس أنها ترشقه بنظرات كالحة جهمة • لا جنيات ولا شجيرات تحيط بها • لا شيء الا صفصافة تغفو حاملة على ضفة مستقع مخضر يسمونه غديرا • ان مقاما كهذا المقام لا يمكن أن يحدث أثرا حسنا فى نفس تاتيانا ايفانوفنا • أما منزل صاحب الضيعة ، وقد شيد منذ مدة قصيرة بالواح قدت من جذوع الشجر ، فانه بناء طويل له ست نوافذ متراصة ، وقد غطى مؤقتا بالقش • ان الموظف الذى اشترى هذه الضيعة قد أخذ يستقر فيها منذ حين قصير • ليس لقناء المنزل من حاجز • وان جهة واحدة من جهاته قد جعل لها سياج من فروع شجر الجوز ما تزال أوراقها خضرا لما تجف بعد • فعلى حافة هذا السياج كانت ترابط عربة أوبنوسكين • لقد سقطنا على المجرمين سقوط مطرة من

مطرات شهر آذار التى يصاحبها البرد • ووصل الى مسامنا من نافذة مفتوحة صراخ وبكاء •

فلما ولجنا حجرة المدخل وجدنا طفلا حافى القدمين ، فما ان رأنا حتى هرب خائفا مذعورا • دخلنا الغرفة الأولى • ان أُناتها ديوان طويل من الطراز التركى مغطى بقماش من قطن ، وليس له ظهر • فعلى هذا الديوان كانت تاتيانا ايفانوفنا متهالكة غارقة فى دموعها • فلما رأنا أطلقت صرخة وأخفت وجهها فى يديها • وأمامها كان يقف أوبنوسكين حائرا مضطربا يثير منظره الشفقة ، حتى لقد بلغ من فقدان سيطرته على نفسه ومن نفاد صبره أنه أسرع يستقبلنا ماذا ذراعيه كأن وصولنا قد أنزل عن كاهله عبئا ثقيلا • ورأينا حافة ثوب تظهر من شق الباب الذى يؤدى الى الحجرة التالية • لا بد أن أحدا كان واقفا وراء الباب يسترق النظر والسمع من خلال ثقب دون أن نراه • لم يظهر سكان المنزل ، فكأنهم غائبون • لا شك أنهم مختفون فى ركن من الأركان •

صاح السيد باختشاييف يقول حين دخل الغرفة وراءنا :

— آه ... هذه صاحبكم المسافرة ! لكنّها تنصنع الخجل !

— هدىء حماسك يا ستيان ألكسييفتش ! ليس يجمل أن نقول هذا الكلام • ان شخصا واحدا يحق له أن يتكلم الآن ، هو ياجور ايلتش • أما نحن ، فانا هنا أجانِب تماما •

كذلك قال ميزنتشيكوف بلهجة قاطعة لا رد عليها •

ألقي عمى على السيد باختشاييف نظرة قاسية ، ثم اقرب من تاتيانا ايفانوفنا التى ما تزال تخفى وجهها ، وكأنه لم يلاحظ أوبنوسكين الذى

كان مقبلا عليه ماذا له ذراعيه ؟ وقال لها بصوت عذب رقيق يحس فيه
المرء الاهتمام الصادق المخلص :

— تاتيانا ايفانوفنا ! اتنا جميعا نحبك ونقدرك ، لذلك أردنا أن نعرف
منك انت ما عقدت عليه النية • هل تريدان أن ترجعي معنا الى
ستيانشيكوفو ؟ اليوم عيد اليوشا • وأمي تنتظرك بصبر نافذ • ولا بد أن
ساشا وناستيا تبكيان منذ هذا الصباح ...

رفعت تاتيانا ايفانوفنا رأسها خجلى ، ونظرت الى عمى من خلال
أصابعها ، ثم ارتمت على عنقه فجأة والدموع تنهمر من عينيها سيلا طافحا؟
وقالت له منتجة :

— خذني من هنا بسرعة ، بسرعة ، بأقصى سرعة !

قال عمى مخاطبا أوبنوسكين بلهجة خشنة دون أن يكلف نفسه عنا
القاء نظرة عليه :

— انتهى اذن كل شيء •

وأضاف يخاطب تاتيانا ايفانوفنا :

— تاتيانا ايفانوفنا ، هذه ذراعي ولنمض حالا !

سمعنا شخصخة وراء الباب الذى صر وانفتح قليلا •

قال أوبنوسكين وهو ينظر قلقا الى شق الباب :

— ولكن يا ياجور ايلتش •• اذا نظرنا الى الأمر من زاوية أخرى،

كان لا بد من الاعتراف بأن دخولك منزلى ••• بأن دخولك منزلى بغير

حق يا ياجور ايلتش ••• لاحظ أنت نفسك ••• الخلاصة ••• لقد

سلمت عليك فلم تشأ أن ترد السلام يا ياجور ايلتش •••

— بل ان دخولك منزلى ، يا سيد ، هو الذى كان شائنا •••

بهذا أجاب عمى وهو ينظر الى أوبنوسكين نظرة صارمة • وأضاف
يقول :

- ما أنت هنا فى منزلك • ولقد سمعت بأذنيك : ان تاتيانا ايفانوفنا
تحرص على أن لا تبقى فى هذا المكان دقيقة أخرى • فماذا تريد أكثر
من هذا ؟ لا تقل كلمة واحدة ، هل سمعت ؟ لا تقل كلمة واحدة ،
ارجوك ! وأريد ، قبل كل شيء ، أن أتحدث أى تفسير لا داعى اليه ••
ولن يكون التفسير فى صالحك على كل حال •

أحدثت هذه الأقوال فى أوبنوسكين أثرا بلغ من القوة أن سيطرته
على نفسه ضعف أكثر من أى وقت مضى ، فآخذ يتدفق فى كلام سخي •
بدأ يقول بصوت خافت وهو يكاد يبكى من شعوره بالخزى والعار ،
ولكن عينيه تتجهان نحو الباب المشقوق بغير انقطاع :

- لا تحقرنى يا ياجور ايلتش • لست أنا من أراد هذا ، بل
أمى • لم أفعل ذلك فى سبيل منفعة ياجور ايلتش ، وانما فعلته صادقا
كل الصدق ، مخلصا كل الاخلاص ••• لا ••• لم تدفنى المنفعة الى هذا
السلوك يا ياجور ايلتش ، وانما كانت لى فكرتى • كنت سأستعمل المال
فى وجوه شريفة ••• لقد كنت أسمى الى غاية نبيلة ، حتى حين كنت أنظر
الى مصلحتى • كنت أريد أن أمد يد العون الى الفقراء ، وأن أساهم
أيضا فى حركة النهضة الروسية • حلمت فى انشاء صندوق لمساعدة
الطلاب بالجامعة ••• تلك هى الوجوه التى كنت أثوى أن أنفق فيها ثروتى
يا ياجور ايلتش • لم أكن أفكر فى شيء آخر يا ياجور ايلتش •

شعر كل واحد منا بحرج • واحمر ميزنتشيكوف وأشاح وجهه •
وخجل عمى واضطرب فلم يجد ما يجيب به ••• ثم قال أخيرا :
- كفى ، كفى ! هدى نفسك يا بافل سيميوتش ••• تلك أمور

تقع ... طيب يا صديقى ... تعال الى العشاء معنا فى هذا المساء ...
سيسرنى أن أراك ، سيسرنى كثيرا أن أراك *

ولكن السيد باختشاييف لم يفهم الأمر على هذا النحو * وهذا هو
يزأر حانقا :

- هه ! ... تريد انشاء صندوق لمساعدة الطلاب بالجامعة ! ألا ان
هذا ليليق بك ! ويليق بك أكثر من ذلك أن تسرق صندوق غيرك !
انه لا يملك سروالا يستر به عورته ، ثم هو يتكلم عن انشاء صندوق
لمساعدة الطلاب بالجامعة ! آه من الوجد الرث ! ... أنت وجد رث ! هل
تسمع ؟ لقد أردت أن تفر بقلب برىء وأن تستولى عليه ؟ أين هى أمك؟
أهى مختبئة ؟ أراهن أنها مختبئة غير بعيد ... وراء هذا الحاجز ...
أو تحت السرير ... وقد اخضر لونها اخضرارا من شدة الخوف !

صاح عمى يقول :

- ستيان ! ستيان !

تخضب وجه أوينوسكين بحمرة شديدة ، ولم يتسع وقته للكلام
محتجا ، ففى اللحظة التى فتح فيها فمه يريد الكلام دفعت آنتوز بتروفا
الباب ، وأسرعت تدخل الغرفة وقد احمر وجهها خفا ، وقدحت عيناها
شررا *

صرخت تقول :

- ما هذا ؟ ماذا يعجرى هنا ؟ بأى حق تدخل ، أنت يا ياجور
ايلتش ، الى منزل محترم مع هذه الطائفة من الناس ؟ بأى حق تأتى تروغ
السيدات وتحدث هذه الجلبة ؟ ... ما معنى هذا ؟ أحمد الله على أنتى
لما أفقد عقلى بعد يا ياجور ايلتش ! ...

ثم أضافت مخاطب ابنها بصوت صافر :

- وأنت يا حبيبي ... كيف تخضع لهم وتمكنهم من أن يهينوا أمك في منزلها دون أن تحرك ساكنا ! تعال كلمني بعد الآن بلهجة رجل ! أنت خرقه لا أكثر ! خرقه لا أكثر !

اختفى كل ما كان يرى بالأمس في آتوز بتروفا من ظرف ولطف وغنج • تبدلت آتوز بتروفا تبدا كاملا • أصبحت امرأة مجنونة مسعورة • نزع عن وجهها القناع !

وما ان لاحظ عمى ذلك حتى تأبط ذراع تاتيانا ايفانوفنا ، واتجه نحو الباب • ولكن آتوز بتروفا سدت طريقه ، واستأنفت كلامها تقول بصوت قاطع :

- لا ... لن تمضي هكذا يا ياجور ايلتش ! بأى حق تأخذ تاتيانا ايفانوفنا ؟ انك تأسف على أنها أفلتت من الأحولة الحظيرة التي مدت لها أمك العزيزة مع ذلك الأبله فومتش ! تريد أن تتزوجها أنت في سبيل مصلحة دنيئة ! عفوك أيها السيد • • ان لنا هنا مطاعم أعلى وأهدافا أسمي • ان تاتيانا ايفانوفنا ، وقد رأت ما يحاك لها من مؤامرات في منزلك وأحسنت أنها سائرة عندك الى الضياع ، قد وثقت بابني واتكلت عليه • انها هي التي توسلت اليه أن ينقذها من أحابيلك ، انها هي التي شعرت بأن عليها أن تهرب ليلا • فانظر أيها السيد ، أنظر الى أين دفعتها ! أليس هذا صحيحاً يا تيانا ايفانوفنا ؟ فاذا كان الامر كذلك فكيف تجرؤ أن تقحم باب منزل شريف مع عصابتك هذه لتأخذ بالقوة آنسة شريفة ، غير حافل بصراخها وبكائها ؟ لا ... لن أسمح بهذا ! لن أدع لك أن تفعل ! ماأنا بفناء صغيرة ! ... ستبقى تاتيانا ايفانوفنا لأنها تريد أن تبقى ! تعالى يا تاتيانا ايفانوفنا ، فليس ينفعنا في شيء أن نصنع اليهم • ان هؤلاء الناس

أعداؤك ! لا تخشى شيئا ! تعالى الى جانبي • سأردهم فوراً ! •••
صرخت تاتيانا ايفانوفنا تقول وهي ترتعش ارتعاشا شديدا :
— لا أريد ، لا أريد ••• ليس هذا بزواج ! لا أريد ابنك ! ما هو
بزواج !

فأعولت آتوز بتروفنا تقول بصوت حاد ، وهي تلهث من شدة
الحنق :

— لا تريدن ابني ؟ لا تريدن ابني ؟ أتجيئين الى هنا ثم تقولين
الآن انك لا تريدينه ؟ أسمحت لنفسك اذن بأن تتخذهينا ؟ أتعيذه بالزواج
وتهربين معه ليلا وترمين على عنقه ، دون أن تفكرى فيما سنلقى من
متاعب ، وما سنبدل من نفقات ؟ لقد يخسر ابني بسبك مبلغا ضخما ،
عشرات الألوف من الروبلات ! فلا بد أن تدفعى أولا ، لا بد أن تدفعى ،
ان لدينا براهين واثباتات ••• لقد هربت مع ابني ليلا •••

غير أننا لم نسمع هذا الكلام الطويل الى آخره ، وانما اندفعنا نتجمع
دفعة واحدة حول عمى وسرنا قدما لا نعبأ بآتوز بتروفنا ، واجتزنا عتبة
الباب ، وما لبثت العربدة أن تقدمت نحونا •

أخذت آتوز بتروفنا تصرخ صراخا قويا وهي واقفة على درج
المدخل ، قائلة :

— لا يفعل هذا الا رجال لا ضمير لهم ، لا يفعل هذا الا رجال
جبناء • سوف أرفع شكوى ••• وستدفعون ••• لا تذهبي معهم الى
ذلك المنزل الدنيء يا تاتيانا ايفانوفنا ! انك لا تستطيعين أن تتزوجى يا جور
ايلتش ما دامت له بتلك المعلمة علاقات ترينها بأمر عينك !

• ارتجف عمى وامتقع لونه وعض على شفتيه وأسرع يركب تاتيانا

ايفانوفنا العربية • وكنت قد انتقلت الى الجهة الأخرى لأركب العربية أنا
أيضا ، حين انبجس أوبنوسكين بالقرب منى وقد بدا فى وجهه كرب
شديد •

قال لى وهو يمسك يدى ويصافحنى بقوة :
- اسمح لى بأن أسمى الى صداقتك على الأقل •
قلت له وأنا أصعد درجة العربية :
- أية صداقة ؟
قال :

- صداقتك • لقد رأيت فيك مساء أمس رجلا على الثقافة • • فلا
تحكم على حكما سيئا • • ان أمى هى التى حرضتني • • • أنا برىء من
هذه القضية كلها • أنا أشد ميلا الى الأدب • • • الذنب ذنب أمى ، فهى
التى فعلت كل شئ •
قلت له :
- أصدقك • وداعا !

اتخذ الجميع أماكنهم فى العربية ، فانطلقت الخيل تجرى مسرعة •
ولاحقتنا صرخات آتوز بتروفنا وشتائمها مدة طويلة • وتزيت نوافذ
البيت كلها بوجوه مجهولة على حين فجأة ، وجوه مجهولة أخذت تشخص
الينا بأبصارها مستطلعة متعجبة !

نحن الآن فى العربية خمسة أشخاص • صعد ميزنتشيكوف الى المقعد
المجاور لمقعد الخوذى ، تاركا مكانه للسيد باختشايف الذى أصبح الآن
قبالة تاتيانا ايفانوفنا • ان تاتيانا ايفانوفنا سعيدة برجوعها ، ولكنها لم تنقطع
مع ذلك عن البكاء • وكان عمى يذل قصاره فى سبيل أن يواسيها ويسرى

عنها • وكان يبدو حزينا مفكرا : واضح أن الكلمات الدنيئة التي قالتها آتوز بتروفا عن ناستيا قد أثرت فيه وأيقظت عذابا في نفسه • ومع ذلك كان يمكن أن تنتهى رحلة عودتنا بلا حوادث لولا ان السيد باختشايف كان معنا •

كان السيد باختشايف جالسا قبالة تاتيانا ايفانوفنا في العربة ، وكان واضحا أنه متضايق غير مرتاح • واذا كان لا يستطيع أن يصطنع هيئة من لا يبالي ولا يكرث ، فقد كان يضطرب في مكانه وقد احمر وجهه احمرارا شديدا ، وكان يجيل على ما حوله نظرات مروعة • فلما سمع هذا الرجل السمين ما يقوله عمى في تهدئة تاتيانا ايفانوفنا خرج عن طوره ، وأخذ يهمهم هممة كلب ضخم من كلاب الحراسة حين ينادى • ولم تلبث تاتيانا ايفانوفنا أن لاحظت هذه الحالة النفسية العجيبة التي يعانها جارها ، فأخذت تحديق اليه وتتفرس فيه ، ثم نظرت اليها جميعا وهي تبسم ، وما لبثت أن تناولت شمسيتها على حين فجأة وضربت بها السيد باختشايف على كتفه ضربة خفيفة ، وقالت في مرج شديد ولهجة فاتنة :

— وهذا خرف مسكين آخر !

ثم أخفت وجهها وراء مروحتها •

كانت تلك هي القطرة التي أطفحت الكيل •

قال الرجل السمين :

— ماذا ؟ ماذا تقولين يا مدام ؟ أنا الذي أصبحت بمثابة دمية لك

الآن ؟

— مسكين هذا الرجل الخرف ! مسكين هذا الرجل الخرف !

كذلك رددت تاتيانا ايفانوفنا وهي تنفجر مقهقهة وتصفق بيديها •

صرخ السيد باختشايف يقول للحوذى :

— قف ! قف !

فوقفت العربية ، ففتح باختشايف الباب ، وأسرع ينزل .
هتف عمى يقول مدهوشا :

— ماذا دهالك يا ستيان ألكسيفتش ؟ الى أين أنت ذاهب ؟
فأجابه الرجل السمين وهو يرتجف خنقا :

— لا ... كفى كفى ! شيطان يأخذكم ! أنا يا مدام شيخ لا أصلح
للعبسة الحب ... فلا داعى الى التمهيد ... وداعا يا مدام ... كيف
صحتك الآن ؟

قال ذلك وانصرف ماثيا . وسارت العربية وراءه . ونفذ صبر عمى
أخيرا فصرخ يقول له :

— كفى يا ستيان ألكسيفتش ! كفالك حماقة ! اركب ... لقد آن
لنا أن نعود !

— امضوا وحدكم .

كذلك قال ستيان ألكسيفتش لاهتا من المشى بعد أن فقد عادة المشى
منذ سمن .

صرخ ميزتشيكوف يقول للحوذى :

— هيا ، اسرع !

— ماذا تقول ؟ قف ... قف ...

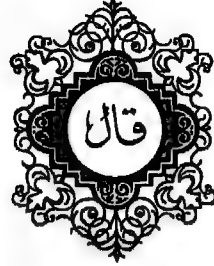
كذلك أراد عمى أن يقول ، ولكن العربية كانت قد انطلقت . ولم
يخطئ . ميزتشيكوف . فها هو ذا يجنى الثمرة التى قدر أنه سيحنيها
فقد صاح وراءها صوت يائس يقول :

قف ! قف ! قف أيها اللص ! قف أيها الوغد ! قف ! أيها اللص !
قف أيها الوغد !

وظهر الرجل السمين وقد أخذ منه التعب كل مأخذ ، فأنفاسه
لاهنة ، وجبينه تغطيه قطرات كبيرة من العرق ، وربطة عنقه محلولة ،
وقبعته في يده • ركب العربدة مقطباً عابساً متجهماً الوجه دون أن ينطق
بكلمة • وأسرعت في هذه المرة أخلى له مكانى • فبذلك لا يكون قبالة
تاتيانا ايفانوفنا التي لم تكف طوال هذا المشهد عن الضحك وصفق يديها ،
ولا استطاعت طوال بقية الرحلة أن تنظر الى ستيان ألكسييفتش نظيرة
هادئة • ولم يفتح هو فمه بكلمة واحدة ، وظل معلقاً بصره بالعجالة
الخلفية الى أن وصلنا الدار •

كان الوقت ظهراً حين وصلنا الى ستيانسيكوفو • مضيت رأساً
الى جناحى ، فما لبثت هنالك لحظة حتى ظهر جافريلا حاملاً الى الشاى •
وكنت على وشك ان ألقى عليه بعض الاسئلة حين دخل عمى وراءه
فصرفه •

هناك حدير



عمى بسرعة :

— ما جئت يا صديقي الا لدقيقة واحدة • لقد
حصلت على معلوماتي • لم يذهب أحد الى الصلاة
في هذا الصباح الا اليوشا وسانا وناستيا • قيل
لي ان أمي أصيبت بنوبة عصبية • فأخذوا يدكونها لتدفئتها
ولم يستطيعوا أن ينعشوها الا بكثير من العناء • وهم ينتظرونني الآن عند
فوما • فقد قرروا أن يجتمعوا هناك • ولكني لا أعرف حتى الآن هل
يجب علي أن أقدم تهنئاتي وأمنياتي لفوما ؟ تلك هي النقطة الهامة !
الخلاصة أنني أتساءل الآن كيف نظروا الى هذه القضية • ان ما أتبأ به
لرهيب يا عزيزي سرجي ♦♦♦

أسرعت أقول محتجاً :

— بالعكس يا عمي • ان كل شيء يسوى الآن على خير وجه • لم
يبق مجالا لاجبارك على الزواج بتاتيانا ايفانوفنا • هذا وحده يساوي وزنه
ذهبا • لقد أردت أن أقول لك ذلك منذ كنا في العربية •

— صحيح يا صاحبي صحيح • ولكن المسألة ليست هذه • لا شك
أن عناية الله قد تدخلت في هذا كله كما تقول • ولكن ليس هذا ما أفكر

فيه • مسكينة تاتيانا ايفانوفنا ! ما أسخف ما يقع لهذه الفتاة المسكينة من مشكلات ! وما أحقر هذا الأوبنوسكين ! على أننى أتساءل لماذا أعده حقيرا ! ألم أكن أنوى أنا أن أتزوجها ؟ ... ولكن المسألة ليست هذه • • هل سمعت ما صاحت به آتوز بتروفنا فى حق ناستيا ؟

- سمعت يا عمى ؟ فهل أدركت أخيرا أن عليك أن تسرع ؟

- فورا ، مهما يكلف الأمر • لقد حان حين اللحظة الحاسمة ! غير أن هناك أمرا لم نعالجه فى مساء أمس يا صاحبى ، وقد حرمنى من اغماض جفنى طول الليل : هل تريدنى هى ؟ هه ؟ ما رأيك ؟

- ما هذا الكلام يا عمى ؟ لقد قالت هى نفسها انها تجبك • • •

- ولكن ماذا قالت فى الوقت نفسه يا عزيزى ؟ لقد قالت : « لن أتزوجك بحال من الأحوال »

- هذا كلام يا عمى ! ثم ان أمورا كثيرة قد تغيرت من أمس الى اليوم • • •

- أتظن ذلك ؟ ان الموقف خرج يا عزيزى سرجى ، خرج ، خرج جدا • • • هيم • • • هل تعلم أننى لبثت طول الليل ، رغم قلقى وعذابى ، موجع القلب من فرط السعادة ؟ • • • هيا • • • الى اللقاء ! • • • يجب أن أذهب الى هناك • انهم ينتظروننى ، وقد تأخرت •

ثم صاح وهو يعود أدراجه :

- ها • • • لقد نسيت الأمر الأساسى ! • • • لم أذكر لك ما كتبته له ، فوما !

- متى ؟

- الليلة ! وفى هذا الصباح ، عند مطلع الفجر ، بعث اليه الرسالة مع فيدوبلياسوف • لقد حكيت له كل شيء يا عزيزى ، على ورقتين ، حكيت له كل شيء ، بصراحة ، بصدق • قلت له ان واجبى يملئ على ، نعم ان واجبى يملئ على ، هل تفهم ؟ أن أخطب ناستيا • وتوسلت اليه ان لا يذكر شيئا عن لقائى بها فى الحديقة ، وخاطبته كما يخاطب انسان هو أبى من يستطيع أن يعيننى على أمى • صحيح أننى كتبت هذا كله بلغة رديئة يا صاحبى ، ولكننى كتبتة بقلبى ، حتى لقد بللت الورق بدموعى ان جاز هذا التعبير •••

- وبعد ؟ ألم يصلك أى رد ؟

- لم يصلنى أى رد حتى الآن • ولكن ، فى هذا الصباح ، حين كنا على وشك السفر ، قابلته فى حجرة المدخل ••• كان ما يزال فى لباس الليل ، منتعلا خفى المنزل ، ومعتبرا بطاقيه - انه ينام بطاقيه من قطن • كان ذاهبا الى مكان ما ••• لم يقل كلمة واحدة ، كأنه لم يرنى • لقد حدثت اليه ، نظرت فى وجهه ، تفرست فيه ••• أما هو ، فلا شيء ، لا شيء •••

- لا تعتمد عليه يا عمى ! لسوف يدبر لك « مقلبا » جديدا •

صرخ عمى يقول وهو يحرك يده باشارة احتجاج •

- لا لا يا عزيزى • لا تقل هذا الكلام ! أنا واثق • وهذا آخر أمل لى أيضا • سوف يفهم • سوف يدرك • هو يحب الدندنة والتقرير ، وهو يميل الى النزوات والبدوات ، لا أقول خلاف ذلك ، ولكن المسألة الآن مسألة شرف محض ، فلسوف تراه يسطع كما تسطع ماسة ••• نعم كما تسطع ماسة • وانما أنت تقول هذا الكلام يا عزيزى سرجى لأنك لم تراه حتى الآن فى نبل نفسه ••• ولكن ما عسى يحدث ، يا رب ،

إذا هو فشا سر الأمس ؟! ... لن أكون مسئولاً عندئذ عما قد يقع
يا سرجي ! فيمن يمكن أن يثق المرء على وجه هذه الأرض بعد ذلك ؟
ولكن لا ... ليس في وسعه أن يمضي في الدناءة الى هذا المدى ...
انه انسان نبيل ! أنا الذي لا أرقى الى مستوى نعله ! لا تهز رأسك
يا صديقي ! اننى أقول الحق : لست أرقى الى مستوى نعله !

هتف صوت حاد من أسفل ينادى (هو صوت بيربليستين الكريه ،
ولا شك أنها قد أصاحت بسمعها من النافذة المفتوحة الى حديثنا كله) :
- يا جور ايلتش ! أملك قلقة ! بحثنا عنك فى المنزل فلم نجدك !

قال عمى مضطربا :

- رباه ! لقد تأخرت ! يا للشقاء ! ارتد ثيابك يا صديقي العزيز ،
لتلحق بنا وتتضم إلينا ، ناشدتك الله ... لقد جئت أيضا لاطلب منك أن
تصحبني ... أنا آت حالا . يا آنا نيلوفنا ، أنا آت حالا ، حالا .

ومضى عمى راكضا . فلما لبثت وحدى ، تذكرت لقائى مع ناستيا
فى الصباح ، وغبطت نفسى على أننى لم أتحدث عنه الى عمى ، فلو قد
فعلت لفاقمت قلقه . كنت أتوقع هبوب عاصفة قوية ، دون أن أستطيع
أن أتصور بأية طريقة سيتوصل عمى الى خطبة ناستيا . أعود فأقول :
اننى رغم ايمانى باستقامة عمى ، كنت لا أستطيع أن أمنع نفسى من
الشك فى نجاحه .

وكان على أن أسرع مع ذلك . كنت أرى أن من واجبى أن أساعد
عمى ، فسرعان ما شرعت أعتنى بهندامى . غير اننى أضعت وقتا ثميناً ،
كما يحدث دائما حين يسرف المرء فى الاسراع ويحرص مع ذلك على أن
لا ينفل من أمر زيبته شيئا . وهذا هو ميزتشيكوف يدخل على فجأة .
قال :

– جئت أبحث عنك • ان عمك يرجوك أن تأتي فورا •

– هيا بنا !

كنت قد فرغت من هندامى ، فمضينا •

سألته فى الطريق :

– هل هناك جديد ؟

فأجاب ميزتشيكوف :

– الجميع عند فوما • ولا يبدو أن فوما يريد أن يقول شيئا كثيرا ،
على خلاف المألوف فيه من نزوات • انه غارق فى تأملاته ، مكثف بتحريك
شفتيه • حتى لقد قبل اليوشا ، فسُـرّـ ياجور ايلتش من ذلك سرورا
عظيما • وفى هذا الصباح ، أرسل بيرلستين تأمر بأن لا يُهنأ بالعيد ،
وذكر أنه لم يطلب ذلك الا ليرى ما عساهم صانعين •• والعجوزة لا تنقطع
عن شم قارورة أملاحها ••• ولكنها قد هدات منذ بدا فوما هادئا •
وما من أحد يقول كلمة واحدة عن قصتنا ، فكأن شيئا لم يقع • انهم
صامتون ، لأن فوما صامت • لم يشأ أن يستقبل أحدا طوال الصباح •
وفى أثناء غيابنا أرسلت العجوزة من يتوسل اليه ، باسم جميع القديسين ،
أن يجىء اليها ليتفاهما ، ثم جاءت بنفسها تطرق بابها ، ولكنه ظل حابسا
نفسه ، وأجاب بأنه يصلى فى سبيل الانسانية ، أو بكذبة أخرى من هذا
القبيل • انه يطبخ شيئا ، انه يدبر أمرا ، ذلك يرى فى هيئته • ولكن
ياجور ايلتش لا يعرف كيف يقرأ فى الوجوه ، لذلك تراه مفتونا بلطافه
فوما • ألا ان ياجور ايلتش لطفل حقا ! سينشد اليوشا أشعارا ، ومن أجل
هذا انما أوفدونى اليك لآتى بك •

– وتاتيانا ايفانوفنا ؟

– مالها ، تاتيانا ايفانوفنا ؟

- أهى هنالك أيضا ؟ معهم ؟

- بل هى فى غرفتها •

كذلك أجاب ميزتشيكوف بخشونة • وأضاف :

- انها ترتاح ، وتبكى • ولعلها تشعر بشئ من الخزى أيضا •
وأعلن أن تلك ... المعلمة قد بقيت الى جانبها • ما هذا ؟ كأن عاصفة
توشك أن تهب • أنظر الى السماء كيف اكفهرت !
قلت وأنا أنظر الى كتل الغيوم التى تسد الأفق :

- فعلا •

وفى تلك اللحظة وصلنا الى السطحة •

تابعت أقول وأنا لا أستطيع منع نفسى عن مسالة ميزتشيكوف فى
هذا الموضوع :

- قل لى : ما رأيك فى أوبنوسكين ؟

فصاح ميزتشيكوف قائلا :

- لا تكلمنى عنه ! لا تذكرنى بهذا الحيوان !

وتوقف فجأة ، واحمر وجهه ، وقرع الأرض بقدمه • ثم أضاف :
- يا له من أبله ! كيف يفسد قضية حلوة كهذه القضية ، كيف
يفسد فكرة مضيئة كهذه الفكرة ؟ اسمع : كان ينبغى لى أن أراقبه ، وأنا
أكبر حمار لأننى أتحت له أن يتلاعب هذا التلاعب • أعترف لك بأننى
أكبر حمار على الأرض ! لعلك لا تتوقع منى هذا الاعتراف الصريح ! ومع
ذلك أحلف لك أننى كنت سأغفر له لو عرف كيف يقود القارب الى
شاطئ السلامة كما يجب ! يا له من غبى أبله ! كيف يُستقبل أمثال هؤلاء
الناس فى المجتمع الراقى ؟ كيف يمكن أن يحتمل أمثال هؤلاء الناس فى

المجتمع الراقى ؟ ألا انه ليجب إبعادهم الى سييريا ، يجب نفيهم ، يجب الحكم عليهم بالأشغال الشاقة ! ولكنهم لن يكسبوا المعركة ! لقد حصّلت خبرة ، وأنا الآن بسبيل وضع خطة جديدة ... ان من الاسراف فى الغباء أن تهجر فكرة لمجرد أن غيا عابرا سرقها منك ! ذلك سخف ... ان تاتيانا ايفانوفنا هذه فى حاجة الى زوج آخر الأمر ، انها مهيأة لهذا . ولئن لم تحتجز حتى الآن مع المجانين ، فما ذلك الا لتستطيع أن تتزوج . سأشرح لك مشروعى الجديد ...

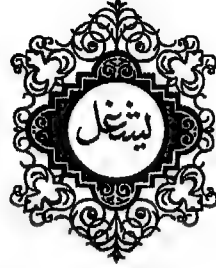
قلت أقاطعه :

- نعم ، فيما بعد ... ها قد وصلنا !

أجاب ميزنتشيكوف يقول وقد صعر فمه بإتسامة :

- طيب طيب ، فيما بعد ... أما الآن ... ولكن الى أين أنت ذاهب ؟ قلت لك انهم عند فوما فومتش ! ألا تعرف أين يقيم فوما فومتش ؟ انتظر ... لسوف ترى هنالك تمثيلية هزلية أخرى .. أو هذا ما يبدو .

عبدالوہاب



فوما غرفتین واسمتین جمیلتین ، اثاثاھما خیر من
 اثاث سائر غرف المنزل • ان هذا الرجل العظیم
 محاط بأكبر ترف وأعظم رخاء • ان فُرُش
 الجدران الوضاعة ، وستائر النوافذ الحريرية ذات
 الألوان الزاهية ، وسجادات الأرض ، والمرایا ، والمدفأة ، والاثاث الأنيق
 الوثير ، ان كل شيء يشهد بالاهتمام الكبير والعناية الشديدة التي يحيط بها
 أبواب المنزل فوما فومتش • وهذه آنية الأزهار ترتاح على النوافذ وعلى أعمدة
 المرمر قائمة عند الفرج من الحيطان • وفي وسط غرفة المكتب ، تمتد
 منضدة كبيرة مغطاة بجوخ أحمر ، مثقلة بالكتب والمخطوطات • وتلك
 مجبرة ضخمة من البرونز مع عدد كبير الاقلام تبدو كأنها قد وضعت في
 مكان ظاهر عمدا حتى تعطى فكرة سامية عن الأعمال العظيمة التي يقوم
 بها فوما فومتش ، وذلك كله ممهود به الى عناية فيدوبلياسوف • يجب أن
 أذكر هنا أن فوما ، خلال السنين الثماني التي قضاها في منزل عمی ، لم
 يكتب شيئا ذا بال • لقد دققنا في أوراقه التي تركها حين انتقل الى العالم
 الآخر ، فرأينا أنها جميعها لا قيمة لها • لقد وجدنا ، على سبيل المثال ،
 بداية رواية تاريخية تتم أحداثها في القرن السابع بمدينة نوفجورود ؛
 ووجدنا قصيدة من شعر مرسل عنوانها : « ناسك المقبرة » وهي تنتمي الى

الشعر « المظلم » ؟ ووجدنا كلاما على الطبيعة وعلى مزايا فلاحينا وعلى الطريقة الواجب اتباعها فى معاملتهم ؟ ووجدنا آخر الأمر قصة لم تكمل ، عنوانها : « الكونتيسة فلونسكى » ، وهى تصف حياة المجتمع الراقى • ذلك كل ما وجدناه • ورغم هذا كان فوما فومتش يجبر عمى على أن ينفق فى كل عام مبالغ ضخمة لطلب كتب ومجلات • وقد اتفق لى غير مرة بعد ذلك أن أفاجئ فوما فومتش وهو يقرأ رواية من روايات بول دو كوك ، فما ان يرنى حتى يخفى الرواية • وفى جدار آخر غرفة المكتب باب من زجاج يؤدى الى فناء المنزل •

كانوا ينتظروننا • ان فوما فومتش جالس على مقعد مريح كأنه العرش • وهو يرتدى رذنجوتا متديا حتى الكعبين ، ولكنه ما يزال بغير رباط للعنق • وحقا كان يبدو ممسكا عن الكلام صامتا لا يريد أن ينطق • فلما دخلنا رفع حاجبيه قليلا وألقى على نظرة متفلسة •

انحيت ، فأجابنى بانحناء ، ولكنها انحناء يسيرة جدا هى الانحناء التى لا بد منها لمن أراد أن يكون على شئ من الادب • فلما رأت جدتى أن فوما فومتش لم يسئ استقبالى حيتى بحركة من رأسها مع ابتسامة • ان العجوز المسكينة لم تتوقع طوال فترة الصباح أن ترى أثرها يستقبل هرب تاتيانا ايفانوفنا بمثل هذا الهدوء • لذلك كانت مبتهجة أشد الابتهاج رغم ما عانتها فى الصباح من نوبات عصبية وما أصيبت به من اغماءات • وكانت بيرلنسين واقفة وراء كرسى الجلدة على عادتها ، وقد زمت شفتيها زماً شديدا حتى لكأنهما خيط ، وكانت تصطنع ابتسامة مرة وهى تفرك يديها المعروقتين احديهما بالأخرى • والى جانب الجنرالة كان هناك امرأتان من محبياتها ، عجوزان تنسبان الى محتد نبيل ، صامتان لا تتكلمان قط • وكان هناك أيضا راهبة متجولة قد وصلت فى الصباح بعد الصلاة تبارك للسيدة الجنرالة بالعيد وتعرب لها عن تحياتها وأمنياتها • وكانت

عمى براسكوفى ايلتشا معتبثة فى ركن من الأركان تنظر الى فوما فومتش والى أمها قلقة • وكان عمى يشغل أحد المقاعد على فرح شديد يسطع فى عينيه • وأمامه يقف اليوشا مجعد الشعر ، جميلا جمالا فنانا ، يرتدى لعيده قميصا أحمر • لقد علمته ساشا وناستيا ، خفية ، قصيدة من الشعر عليه أن يلقيها فى الاحتفال فيبهج أباه ويظهره على ما حقق من تقدم • كان عمى يوشك أن يبكى حنانا • ان هذه الرقة التى يظهرها فوما على غير توقع ، وهذا الرضى البادى فى وجه الجنرالة ، وهذا الاحتفال بعيد اليوشا ، وهذه الأبيات من الشعر التى سيلقيها ابنه ، ان هذا كله قد دفعه الى نشوة بلغت من القوة انه أرسل يستدعيني ، ذلك ان من الواجب أن أشارك أنا أيضا فى هذه الفرحة الشاملة ، وأن أسمع أنا أيضا قصيدة الشعر • وكانت ساشا وناستيا قد دخلتا وراءنا تقريبا ، فمضتا تجلسان الى جانب اليوشا • كانت ساشا سعيدة كطفلة ، وكانت تضحك بغير انقطاع • وقد سرت عدوى هذا المرح الى ناستيا فأخذت تبسم رغم شحوب لونها وحزن وجهها • انها الوحيدة التى ذهبت الى لقاء تاتيانا ايفانوفنا عند عودتها ثم لم تتركها بعد ذلك الى هذه الدقيقة • وكان اليوشا « الشيطان » لا يكاد يستطيع منع نفسه عن القهوة وهو ينظر الى معلمته • ان المرء يحس أن هؤلاء الثلاثة قد أعدوا فصلا هزليا يتوقعون له نجاحا كبيرا •

و كنت قد نسيت باختشاف تقريبا •

ومع ذلك كان باختشاف هناك ، متحيا جانباً على كرسى • لم يكن قد انقضى غضبه ولا زال احمرار وجهه • انه صامت ، وما يزال مستاء متمتضا ، وكان يتمخط ، فهو فى هذا العيد العائلى يقوم بدور أقرب الى الجحامة والعبوس • وكان ياجفكين يسرع اليه ويحتفى به • على ان هذا

الرجل المسكين كان يعنى بكل واحد من الحضور فهو يقبل يد الجنرالة ويقبل أيدي الزائرات ، ويهمس بكلام فى أذنى بيرلستين ، ويلطف فوما فومتش ، ولا ينسى أحدا على وجه الاجمال . لقد كان هو أيضا يتوقع لقصيدة اليوشا أن تصيب نجاحاً . فلما دخلت هبَّ يحيى بانهاء كبير ليبرهن على ما يمكنه من احترام وتقدير واخلاص . ما كان ليخطر ببال أحد قط أنه لم يجيء الا ليحمى ابنته وليأخذها من ستياشيكوفو الى الأبد .

— ها . . هذا هو !

كذلك صاح عمى فرحاً حين رأى ، وأردف يقول :

— لقد أعد اليوشا أبياتا من الشعر يا صاحبي . ما أجملها مفاجأة !
 هه ! اننى متأثر لهذه المفاجأة أشد التأثر ! لقد استدعيتك خصيصا لتسمع هذه الأبيات من الشعر . . . تعال اجلس هنا ! سوف نصنى الآن . واعترف يا فوما فومتش ، اعترف يا صديقى العزيز ، أنك أنت من أوحى اليهم بهذه الفكرة الطيبة التى تسرنى كثيرا ! اننى مستعد أن أحلف على أنك أنت الذى أوحيت اليهم بهذه الفكرة الطيبة !

لئن كان عمى يتكلم فى غرفة فوما بمثل هذه اللهجة وبمثل هذا الصوت ، فلا شك فى أن هذا يدل على أن الأمور جميعها تجرى مجرى حسنا . . . ولكن عمى كان لا يحسن القراءة فى الوجوه وا أسفاه ، كما سبق أن قال لى ذلك ميزتشيكوف . كنت كلما نظرت الى فوما أحس بالرغم منى أننى مضطر الى التسليم بأن ميزتشيكوف على حق ، وأن علينا أن نتوقع حدوث جرسه .

قال فوما بصوت خافت ، بصوت انسان يغفر لأعدائه :

— اطمئن بالاً من جهتى يا كولونيل . انه لأمر طبعى أن أقدر

هذه المفاجأة ، فهي تدل على ما يملكه أولادك من عواطف طيبة وحكمة •
والأشعار مفيدة أيضا ، لتحسين النطق على الأقل •• غير أن ما شغلني
فى هذا الصباح ليس هو الشعر يا يا جور ايلتش ، وانما كنت أبتهل الى
الله كما تعلم •• ومع ذلك فأنا مستعد لأن أسمع القصيدة •

كنت فى أثناء ذلك أقبل الصبى وأتمنى له عيدا سعيدا •

— صحيح يا فوما ، صحيح جدا •• أعذرني •• لقد نسيت ! ولكننى
أعتمد على صداقتك يا فوما • وأنت يا سرجى ، قبله مرة أخرى ! انظروا
الى هذا الصبى الكبير ما أجمله ! هيّا ابدأ يا اليوشا ! ما موضوع القصيدة ؟
لا بد أنها نشيد رائع من نظم لومدنوسوف ، هه ؟

قال عمى ذلك ، وانتصب واقفاً فى وقار كبير • لقد أصبح لا يطبق
السكون فى مكانه من شدة نفاد صبره ، ومن قوة فرحه •

قالت ساشا وهى توشك أن ينفجر ضاحكا :

— لا يا أبى • ليست القصيدة من نظم لومونوسوف • فلأنك كنت
عسكرياً ولأنك قاتلت الأعداء ، فقد حفظ اليوشا أبياتاً من الشعر عسكريه
••• ان عنوان القصيدة هو : « حصار بامبا » * يا أبت !

— حصار بامبا ؟ اننى لا أتذكر ••• ماذا فعلوا فى بامبا ؟ هل تعلم
أنت يا سرجى ؟ لا شك انهم فعلوا أشياء بطولية ، هه ؟

قال عمى ذلك وانتصب واقفاً من جديد • وقالت ساشا آمرة :

— ابدأ يا اليوشا •

بدأ الصبى يقول بصوت واضح ، لا هو بالعالى ولا هو بالخافت ؟
بدأ يقول متدفقا بغير توقف ، على عادة الأطفال حين ينشدون أبياتاً من
الشعر حفظوها على ظهر القلب :

تسع سنين مرت كسلى
مذ حاصر جوميز بدرو القصر
مذ القسم الا يطعم الا لبنا ٠٠
وتنادى حتى النصر
وتنادى الفرسان فجاؤوا رجلا ٠٠ رجلا
وهثم تسعة آلاف من كاستيلا
قالوا وجموعهم تتكسر عند الباب الصخر
لا خبز ، ولا حلوى
بل لبنا نشرب ٠٠ حتى النصر !

- يشربون ماذا ؟ يشربون ماذا ؟ ما شأن اللبن هنا ؟
كذلك صاح عمى وهو ينظر الى " وقد استبدت به دهشة شديدة •
ولكن ساشا شجعت أخاها على الاستمرار قائلة :
- تابع يا اليوشا •

فى كل صباح
يستيقظ دون بدرو ارقا
يبكى ، ويداه فى الوجه الناضج عرقا
فلقد مرت تسع سنين
متباطئة كسلى
ومغاربة القصر الشامخ مازالوا منتصرين
يينا يسقط فى الموت رجالك يا دون بدرو غرقى !
حتى صاروا تسعة عشر !

صرخ عمى يقول قلقاً :
- ولكن هذا خلط ! اسمعوا اسمعوا ! لم يبق الا تسعة عشر رجلا
من جيش بكامله كان جيشاً ضخماً ! ما هذا الكلام يا صاحبي ؟

لم تستطع ساشا أن تحبس نفسها عن الضحك فانطلقت تقهقه كما
يقهقه طفل • والقصيدة ليس فيها ما يضحك كثيراً حتى الآن • ولكن
المرء لا يملك أن يرى ضحك الصبية دون أن يشاركها فيه •

قالت ساشا تشرح مبتهجة أشد الابتهاج باكتشافها الطفولية :
- هي قصيدة هزلية يا أبت ! لقد جعلها الشاعر هكذا عامداً يا أبت !
فقال عمى وقد أشرق وجهه :

- آ • • • قصيدة هزلية ! الآن فهمت ! قلت لنفسى لا بد أن تكون
القصيدة هزلية ، نعم هزلية • • صحيح • • ألا انها لمضحكة حقاً ، مضحكة
جدا • جيشى بكامله يموت لأنه آلى على نفسه أن يتخذ طعامه من اللبن
وحده ! ما كانت حاجتهم الى هذا التندر ! يا للخبث ! ما رأيك يا فوما ؟
هل رأيت يا أمى الى هؤلاء السادة الشجعراء ماذا ينظمون ؟ ما قولك
يا سرجى ؟ شعر مضحك جداً ! طيب ، هيباً يا اليوشا ، كمّل •

لما صاروا تسعة عشر
وقف خطيبا فيهم دون بدرو وارنجل :
« دقوا الطبلا
واعلوا الخيلا
ولننشر راية كاستيلا
ولنتترك هذا القصر الملعون
انا ان كنا لم ننتزع النصر
فلنا ان نقسم واليد فوق الصدر
انا لم نغن العهدا
ابدا • • ابدا

فلقد مرت تسع سنين ماذقنا الا اللبن
وبهذا اللبن اقمنا الاودا » !
قال عمى مقاطعاً :

— يا للأبله ! ما أسهل ما يعزى نفسه ! هه ! خلال تسع سنين
لا يشربون الا اللبن ! يا له من محسن عظيم ! لقد كان الأولى به أن يأكل
خروفاً برمته بدلا من أن يميت رجاله جوعاً ! طيب .. طيب .. رائع !
لقد أدركت الآن ! هذه قصيدة هجاء ! ألا يسمون هذا النوع من الشعر
هجاء ؟ أم تراهم يسمونه رمزاً ؟ لعل الشاعر يصف هنا جنراً لا أجنبيّاً
(كذلك أضاف عمى ملتفتاً نحوى ، رافعاً حاجبيه ، غامزاً بعينه) • هه ؟
ما قولك ؟ ولكن هذا الهجاء لا يؤذى أحداً ، لا يسىء الى أحد • طيب •
طيب • جميل جداً ، رائع جداً • هيّا يا اليوشا ! كمّل ! آه منكم أيها
الصغار ؟ (هكذا هتف عمى متجهّاً نحو ساشا ، مختلساً نظرة الى ناستيا
التي احمرت وابتسمت) •

طرب الكاستيليون التسعة عشر لهذا الخل
صاحوا كالمسعودين
وظهورهم تترنح فوق الخيل
« سانتوياجو ! كومبو ستيللو !
المجد المجد لدون بدرو !
أسد مدينتنا الصامد »
لكن الكنسى « ريجو » دلم من وسط الجند :
— لو انى كنت انا القائد
لو انى قائد هذا الجيش النعس لهذا الخد
لدفعت الى فمه تلالا من لحم
وصببت به بئرا من خمر
نخب النصر !

صاح عمى يقول وقد استخفه الطرب وغمره الفرح :

- ها .. وصلنا .. ان الذكى الوحيد فى هذا الجيش كله انما هو الكنسى^١ ! نعم الكنسى ! قل لى يا سرجى ، ما رتبة الكنسى ؟ أهو نقيب ؟

- بل هو راهب يا عمى ، هو رجل من رجال الكنيسة •

- ها .. طيب ، طيب • الآن فهمت : كنيسة ، كنسى • تذكرت • لقد رأيت هذه الكلمة فى رواية من تاليف آنا رادكليف*• وهناك أنواع من الرهبان ، أليس كذلك ؟ هناك البندكتيون مثلاً ••• ألا توجد جماعة من الرهبان باسم البندكتيين اذا لم يخطئ ظنى ؟

- بلى يا عمى •

- هم •• ذلك ما قدّرته • هيّا يا اليوشا ! أكمل ! جيد جدا ، عظيم ، رائع !

وتأمل دون بدرو قول ديجو

وابتسم محياه

آه ! آه ! آه !

وانطلق يصيح بصوت فخم

مازلت ظريفا يا ديجو ! مازلت ظريفا !

هيا •• أعطوه خروفا !

- لقد أحسن اختيار اللحظة التى يضحك فيها ! يا للغبى ! لعله أحسن بسخفه أخيراً ! خروف ؟ اذن كان عنده خراف ؟ فلماذا لم يأكل منها ؟ هيّا يا اليوشا ، أكمل ! جيد جدا • نكتة لاذعة ••• نكتة فكهة جداً •

- انتهت القصيدة يا أبى !

- آآ • انتهت ! نعم لا بد أن تكون قد انتهت ! لم يبق نمة ما يمكن أن يضاف • أليس كذلك يا سرجى ؟ عظيم يا اليوشا ! جيد جدا ! آه يا عزيزى ! ولكن من ذا الذى خطرت بباله هذه الفكرة ؟ أنت يا ساشا ؟

- بل ناستيا ! لقد قرأنا هذه القصيدة منذ زمن ، فلما فرغنا من قراءتها قالت ناستيا : « انها مضحكة مسلية ! يجب أن يحفظها اليوشا على ظهر القلب لينشدها فى عيدہ • سوف يضحك منها الجميع ! » •

- آآ • هى اذن ناستيا ! شكراً يا ناستيا ، شكرا جزيلا !

كذلك دمدم عمى يقول وقد احمر وجهه فجأة كطفل •

ثم أضاف متجهاً الى اليوشا :

- قبلنى مرة أخرى يا اليوشا !

وضمَّ ساشا بين ذراعيه وهو يتفرسها فى حنان وقال :

- وأنت أيضا يا ساشا !

ثم أردف يقول بصوت كأن الفرع يقطّعه :

- انتظرى يا ساشا ، فى قريب سيكون عيدك أنت •

اتجهت الى ناستيا أسألها عن ناظم هذه القصيدة • فأسرع عمى يسأل

أيضا :

- فعلا ! من ناظم هذه القصيدة ؟ لا بد أنه شاعر كبير ، أليس كذلك

يا قوما ؟

فدمدم فوما من بين أسنانه :

- هيم هيم هيم

وكانت بسمة ساخرة خيثة لم تفارق شفثيه طوال مدة انشاد القصيدة *

أجابت ناستيا وهي تنظر الى فوما فومتش خجلة وجلة :

- لا أتذكر *

فقالت ساشا شارحة :

- القصيدة من نظم السيد كوزما بروتكوف* يا أبى * قرأناها فى مجلة « المعاصر » *

قال عمى :

- كوزما بروتكوف ! لا أعرفه * أنا أعرف بوشكين مثلا * على كل حال ، واضح أنه شاعر موهوب ، ما رأيك يا سرجى ؟ وهو انسان يفيض عواطف نبيلة بوجه خاص * ذلك واضح وضوح قولنا ان اثنين واثنين أربعة ! * ولعله ضابط ! * اننى أقدره كثيرا ! ومجلة « المعاصر » مجلة ممتازة * يجب أن نواصل الاشتراك فيها ، لأن أمثال هؤلاء الشعراء المجيدين انما ينشرون قصائدهم فيها دائما * * أنا أحب الشعراء ! أولئك أناس شجعان ! هل تتذكر يا سرجى ذلك الأديب الذى رأيته عندك فى بطرسبرج ؟ كان فى أنفه شئ خاص ، أليس كذلك ؟ ما قولك يا فوما ؟ كان يبدو على فوما أن صبره قد نفذ ، فها هو ذا ينفجر فى قهقهة مجلجلة ، ويقول كمن لا يستطيع أن يحبس ضحكته :

- لا شيء ، لا شيء ! كمل يا يا جور ايلتش ! كمل ! سأقول كلمتي فيما بعد • ما يزال في الوقت متسع ! هذا ستيان الكسيفتش يصفي مغتبطا الى ما تقصه عن علاقاتك برجال الأدب في بطرسبرج •••

وكان ستيان ألكسيفتش ما يزال منتحيا جانبا ، كالح الوجه مكفهر الهيئة ، فرفع رأسه على حين فجأة ، واحمر مزيدا من الاحمرار ، واضطرب على كرسيه اضطرابا عصيا ، وقال وهو يحدق الى فوما فومتش بعينه الصغيرتين المحققتين دما :

- دعني وشأني ، من فضلك ! ان أدبك لا يهمني في قليل ولا كثير ! أنا لا أسأل الله الا العافية (قال ذلك مدمما) • ما جميع هؤلاء الذين ينشئون الجمل ويدبجون العبارات الا مثل فولتير ، الا فولتيريون •
صاح يا جفكين مت دخلا بعد السيد باختشايف رأسا :

- نعم ، فولتيريون ! قلت عين الصواب يا ستيان ألكسيفتش ، وهذا نفسه هو ما عبر عنه فالاتان اجناتتش منذ أيام • لقد وصفني أنا أيضا بأنني فولتيري ، قبحه الله ، مع أن جميع الناس يعلمون أنني لم أكتب أنشاء كثيرة • أصبح الناس في بلادنا ، اذا اندلق حليب من الجرة في أرض المطبخ ، يقولون ان الذنب في ذلك ذنب فولتير • أما لهذه العادات من آخر ؟

قال عمي بلهجة وقورة :

- أنت مخطيء • ما كان فولتير الا كاتبنا ساخرا ، تهكم على الخرافات • انه لم يكن فولتيريا في يوم من الأيام • ان أعداءه هم الذين روّجوا هذه الشائمة عنه • لماذا يحمل هذا المسكين تبعة كل شيء ؟ •••

وسمعت قهقهة فوما فومتش المسمومة من جديد • ألقى عليه عمی
نظرة قلقة ، واضطرب اضطرابا واضحا • وقال يخاطب فوما حيران كل
الحيرة ، محاولا أن يبرر نفسه من غير شك :

— أنا أتكلم عن المجلات يا فوما • لقد كنتَ على حق تماما حين
قلت لى ان علينا أن نشترك فيها • أنا أيضا من رأيى هذا • هم ••• ذلك
يساعد فى نشر الثقافة • ان المرء لا يكون ابنا بارا بوطنه اذا هو لم يشترك
فى هذه المجلات ! ما قولك يا سرجى ؟ هم ••• نعم ••• انظروا فى
مجلة « المعاصر » هل تعلم أن فى رأيى يا بنى سرجى أن أقوى المقالات
العلمية تنشر فى المجلة ذات الغلاف الأصفر !

— هى « حوليات الوطن » * يا أبى !

— نعم ••• « حوليات الوطن » ! وهو اسم جميل يا سرجى ، ألا
ترى ذلك ؟ لكان الوطن كله قد أخذ يكتب ! ما أسماء من هدف ! ما
أنفعها من مجلة ! وهى سميكة جدا ••• تبلغ من السمك أن نقلها يكاد
يحتاج الى عربة ! وما أكثر ما تظمه من علم غزير ! ••• ان فيها من
العلم ما يجعل عينيك تخرجان من رأسك ! وصلت منذ أيام ، فوجدت
المجلة ، فتناولتها ، وفتحتها من باب حب الاطلاع ، فقرأت ثلاث صفحات •
لقد ففر ففى من الدهشة ! هل تعلم أنها تضم بين دفتيها كل شئ ! فيها
مثلا : ما معنى مكنسة ؟ ما معنى معزقة ؟ ما معنى غربال ؟ ما معنى
مجرفة ؟ ان المكنسة فى نظرى أنا مكنسة ، والمجرفة فى نظرى أنا
مجرفة ••• ولكن لا يا صديقى ! وانما هذه الأدوات شعارات ورموز ،
هى أساطير ، أو شئ من هذا القليل ! ••• فانظروا الى أين وصلنا
الآن ! انظروا فيم يبحثون ، وماذا يشهدون !

لا أدري ما الذى كان فومثش يتهيباً لأن يعمل به بعد هذه
الأقوال التى صدرت عن عمى ، ولكن جافريلا ظهر فى تلك اللحظة عند
عتبة الباب ، وتجمد واقفا خافض الرأس •
غمزه فوما فومثش غمزة ذات معنى • وسأله بصوت خفيض ولكنه
جازم :

- أكل شئ مهياً ؟

فأجاب جافريلا حزينا وهو يزفر زفرة عميقة :

- نعم يا سيدى !

- هل صرتى الصغيرة فى العربية ؟

- نعم يا سيدى !

بدأ فوما يقول بلهجة رضية :

- اسمح لى الآن يا كولونيل أن أرجوك أن تترك كلامك الشائق
المستفيض عن المجارف الأدبية ، أن تتركه الى حين قصير ... فانك
تستطيع أن تستأنفه بعد انصرافى • ولكننى أريد قبل أن أودعك الوداع
الأبدى أن أقول لك بضع كلمات •
صرخ عمى يقول :

- فوما ! فوما ! ماذا دهاك ؟ الى أين أنت ذاهب ؟

وتابع فوما كلامه يقول بصوته الهادئ :

- انتبى على وشك أن أترك منزلك يا كولونيل • لقد قررت أن
أمضى الى أقصى مكان ، ومن أجل ذلك انما استأجرت عربية على نفقتى ،
عربة حقيرة من عربات الفلاحين • وصرتى موجودة فيها الآن • ما هى
بالصرة الضخمة : كتبى المفضلة ، وقليل من ملابسى ، هذا كل ما فى

الصرّة ! أنا رجل فقير يا يا جور ابلتش ، ولكنى لن آخذ الآن ذهبك
بحال من الأحوال ، لن آخذ الآن الذهب الذى رفضت أن آخذه أمس •

— فوما ! ناشدتك الله ، ما معنى هذا الكلام ؟

كذلك صاح عمى وقد اصفر وجهه اصفرارا شديدا •

وأطلقت الجنزلة صيحة تنم عن كرب شديد وحزن عظيم ويأس
رهيب ، ونظرت الى فوما فومتش مادة اليه ذراعها وارتمت ببرلستين الى
أمام لتسندها • وتجمدت سيدات صحبتها فى أماكنهن لا يستطعن حراكا •
ونهض السيد باختشاييف من كرسيه ثقيلًا بطيئا •

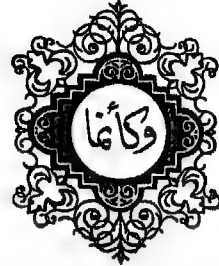
وهمس ميزتشيكوف يقول لى :

— بدأت التمثيلية الهزلية •

وفى تلك اللحظة ، دوت همهمة رعد فى بعيد • ان العاصفة توشك
أن تهب •

٤

الطرد



استطاب فوما هذا الاضطراب الشامل فقال
بلهجة مفخمة :

- أحسب يا كولونيل أنك تسألني مامنى
هذا ؟ فاعلم اذن أن هذا السؤال كفيل بأن
يدهشني . ألا قل لى أنت كيف تجرؤ ، كيف تجرؤ أن تنظر الى وجهها
لوجه ! ألا اشرح لى هذه المسألة النفسية التى تتعلق بانسان فقد الحياء
والخفر ، فانصرف عندئذ مزودا على الأقل بمعرفة جديدة عن فساد النوع
الانسانى وانحلاله وتفسخه .

ولكن عمى لم يكن فى حالة تسمح له أن يجيب . كان فاغر الفم
من الدهشة ، ينظر الى فوما بعينين جاحظتين ، مصعوقاً مدعورا .

أنت الأئمة بيربلتسين تقول :

- يا رب ! يا للهول !

وتابع فوما كلامه :

- افهم يا كولونيل أن عليك أن تتركنى أنصرف ببساطة ، دون أن
تلقي على أسئلة . فحتى أنا ، أنا الرجل المسن الغارق فى التأمل ، أصبحت

أخشى على طهارة أخلاقى أن تتدنس فى منزلك • وثق أن أسئلتك لن
تؤدى الا الى كشف سقوطك الفاضح !

صاح عمى يقول وقد تغطى جبينه بعرق بارد :

- فوما ! فوما !

وتابع فوما كلامه :

- لذلك استأذنتك ، بلا شروح لا فائدة منها ولا خير فيها ، أن أقول
لك قبل رحيلى بضع كلمات وداعية ، هى آخر ما سأنتطق به فى هذا
المنزل يا جاور ايلتش • ما وقع فقد وقع • ولا شئ يمكن أن يرجع الى
وراء ! أمل أن تفهم ما ألمع اليه ! ولكننى أتوسل اليك راكما ، اذا كان
قد بقى فى نفسك قيس من حسن أخلاقى ، أن تحاول السيطرة على
جنون أهوائك المستعرة • فاذا كان سمها الوبائى لما يهز كيانتك كله فاجهد
أن تطفىء الحريق الذى سيلتهم هذا الكيان بأسره !

صرخ عمى وقد أخذ يشوب الى نفسه شيئا فشيئا ويتنبأ بالخاتمة :

- فوما ، أوكد لك أنك مخطئ •

فتابع فوما يقول بتلك اللهجة الفخمة نفسها ، دون أن يبدو عليه أنه
سمع احتجاج عمى :

- اخنق أهواءك ! انتصر على نفسك ! « اذا أردت أن تنتصر على
العالم فانصر على نفسك » تلك هى القاعدة التى التزمتهما خلال حياتى
كلها ! أنت رجل من أصحاب الأملاك ؟ وعليك أن تسطع فوق أراضيك
سطوع الماس ، فأى مثل سئى من أمثلة الفجور والعهر تضرب لمرءوسيك !
لقد دعوت لك لىالى بكاملها ، وتعذبت وتألمت ، وحاولت أن أخلق لك
سعادة ، ولكننى أخفقت فى الوصول الى ذلك ، لأن السعادة لا وجود
لها الا فى الفضيلة •••

قال عمى مقاطعا مرة أخرى :

- ولكن هذا مستحيل يا فوما ! انك لم تفهم المسألة حق فهمها ،
وما أحسب أن هذا هو ما تريد أن تقوله •

ولكن فوما تابع كلامه غير حافل بمقاطعة عمى :

- تذكر اذن أنك من أصحاب الأملاك • ولا تظن أن الكسل
والملاذات نصيب السادة ملاك الأراضي • تلك فكرة خاطئة مشؤمة ! فليس
لسيد من أصحاب الأملاك أن يستسلم للكسل ، وانما يجب عليه أن
يهب نفسه للعمل ، وللعمل أمام الله والقيصر والوطن ! الجهد ، الجهد
الدائب ، ذلك هو واجبه • ان عليه أن يتعب وينصب كأي فلاح من
فلاحيه •

دمدم باختشاييف يقول :

- ألا يكون علىّ اذن أن أجر المحراث بدلا من الفلاحين ؟ أنا أيضا
سيد من أصحاب الأملاك •••

تابع فوما كلامه ملتفتا نحو جافريلا ، ثم نحو فالالى الذى ظهر
على عتبة الباب :

- واليكم انما اتجه الآن بالكلام ، اليكم يا خدم المنزل • أجبوا
سادتكم ، وأطيعوا ارادتهم بلطف وحماسة ؟ فبذلك انما تتالون محبتهم
وعطفهم • وأنت يا كولونيل ، كن فى معاملتهم عادلا وشفوقا • فانهم هم
أيضا بشر قد خلقوا على صورة الله ؟ هم أطفال ان صبح التعبير عهد بهم
اليك القيصر والوطن منذ نعومة أظفارهم • ألا انه لدين عظيم ، وعلى
قدر هذا الدين ينبغي أن تكون واجباتك !

صرخت الجبرالة تقول وهى توشك أن تقع معشيا عليها :

- فوما فومتش ، صديقى ! ماذا أنت فاعل ؟

وختم فوما فومتش كلامه دون أن ينتبه أى انتباه الى الجنرالة ، ختم
كلامه قائلا :

— ولكننى أظن أن ما قلته فى هذا كاف • فلننتقل الآن الى بعض
التفاصيل • اننى أعد هذه التفاصيل لا غنى عنها ، وان لم تكن ذات بال •
يا ياجور ايلتش ، ان العلف لم يُحصَد حتى الآن فى مروج هارنسكوى :
فاحصدوه بأقصى سرعة • تلك نصيحة أسديها اليك •
— فوما !

— ولقد كنت تريد أن تقطع أشجار جزء من غابة زريانوفو ، أنا
أعلم ذلك • فحذار أن تفعل • تلك نصيحتى الثانية • دع الغابة سليمة
ولا تمسسها بأذى ، لأنها تحفظ الرطوبة التى تفيد الأراضى • • ويوسفنى
كذلك أن تكون قد تأخرت هذا التأخر كله فى بذر قمح الربيع • • • انه
لأمر يثير الدهشة والاستغراب أن تتأخر هذا التأخر •
— فوما !

ولكن حسبى هذا • لا يتسع وقتى لأن أقول كل شئ : وسأرسل
اليك نصائحي الاخرى مسجلة فى دفتر • والآن ، وداعا ، وداعا لكم
جميعا • أسأل الله أن يكلأكم بعنايته وأن يسبغ عليكم بركاته • وأنت
يا بنى (قال هذا مخاطبا اليوشا) أسأل الله أن يباركك وأن يحميك من
السمّ الوبائى الذى ستفتنه فيك أهواؤك المسعورة فى المستقبل ! وأسأل
الله أن يباركك أنت أيضا يا فالالى ، وعليك أن تنسى رقصة الكارامنسكيا !
أما أتم • • • أنتم جميعا • • • فتذكروا فوما ولا تنسوه • • • هيا ياجافريلا ،
تعال ساعدنى فى ركوب العربّة يا عزيزى •

واتجه فوما نحو الباب • فأطلقت الجنرالة صرخة ، وأسرعت فى
اتّره •

وصاح عمى يقول له وقد أدركه وأمسك بذراعه :

- لا يا فوما ، لن أدعك تنصرف هكذا !

فسأله فوما متعاليا متكبرا :

- أأنت تريد أن تستعمل القوة اذن ؟

- نعم يا فوما ، سأستعمل القوة اذا اقتضى الأمر • لقد قلت كلاما كثيرا فلا بد أن تشرح • لقد أسأت قراءة رسالتى يا فوما •

كذلك قال عمى وهو يرتجف غضبا • فزأر فوما يقول ، وكأنه لم يكن ينتظر الا هذه اللحظة لينفجر :

- رسالتك ! رسالتك ! اليك رسالتك ، اليك رسالتك ! اننى أمزقها ، اننى أبصق عليها ، اننى أدوسها بقدمى • واذا دست عليها ، فأنا انما أقوم بواجبى المقدس كإنسان ! فانظر ماذا أفعل برسالتك اذا أنت أجبرتنى على الشرح بالقوة ! انظر ، انظر !
قال فوما ذلك ومزق الرسالة قطعا صغيرة وبعثرها فى الغرفة •

صاح عمى وقد ازداد وجهه شحوبا :

- أعود فأقول انك لم تفهم يا فوما ! أنا أريد أن أتقدم بطلبى يا فوما ، أنا أنشد سعادتى •••

- تريد أن تتقدم بطلبك ؟ أنك قد أغويت هذه الفتاة ، فهل تظن أنك تستطيع أن تخدعنى بالكلام على الزواج ؟ أرايتك أمس مساءً فى الحديقة تحت الأدغال أم لا ؟

أطلقت الجذالة صرخة كبيرة وتهافت على مقعدها مغشيا عليها •
وتبعت ذلك جلبة رهية • وجمدت المسكينة ناستيا على كرسيها ساكنة

لا تستطيع حراكا • وذعرت ساشا فأحاطت أخاها الصغير بذراعيها وهي
ترتجف كورقة فى مهب الريح •

قال عمى حانقا :

- اسمع يا فوما ! اذا أنت كشفت عن هذا السر ، فانك ترتكب
جريمة هى أبشع الجرائم وأحقرها !
فصفر فوما يقول :

- سأكشف عن هذا السر ، وأنا اذ أفعل ذلك انما أقوم بعمل هو
أنبل الأعمال وأشرفها • ان الله هو الذى عهد الىّ بهذا ، ان الله هو الذى
أرسلنى لاقناع العالم الخاطى • أنا مستعد أن أصعد الى سطح كوخ
فأصبح معلنا لجميع فلاحيك ، ولجميع جيرانك ، ولجميع المارة العابرين ،
عن سلوكك الشائن الذمى • نعم • ألا فاعلموا جميعا أيها الناس ،
اعلموا جميعا ، اننى فى مساء أمس ، ليلا ، قد فاجأته مع هذه الفتاة التى
تبدو بريئة كل هذه البراة ، فاجأته معها فى الحديقة ، تحت الأدغال •

هتفت بيرلتسين تقول وهي تصعر وجهها :

- يا للفعل الكريه !

وصرخ عمى وهو يلوح بيديه وقد جحظت عيناه :

- فوما ! حذار ثم حذار ! اتبه الى نفسك !

وتابع فوما كلامه صائحا :

- أما هو فانه ، وقد روّعه أن رأيته ، تجرأ أن يفسرينى برسالة
كاذبة ؛ تجرأ أن يحاول اشراكى فى جريمته ، اشراكى أنا ، أنا الانسان
الشريف المستقيم نعم حاول اشراكى فى جريمته • ذلك أنك قد
جعلت من هذه الشابة البريئة

- لو قلت كلمة واحدة مهينة في حقها ، فسوف أقتلك يا فوما !
يميناً لأقتلك اذا قلت كلمة واحدة مهينة في حقها !

- سأقول هذه الكلمة جهاراً نهاراً : لقد استطعت أن تجعل من هذه الفتاة البريئة بنتاً ساقطة لا خلاق لها ! ...

فما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى قبض عمى على أحسد كتفيه ، وأخذ يديره بقوة ، ثم رماه على الباب الزجاجى الذى يفضى الى فناء المنزل . وبلغت الضربة من العنف أن الباب انفتح فخرج فوما متدحرجاً تدحرج كرة على درجات السلم السبع ليستقر به المقام بعد ذلك متمدداً فى الفناء . وتحطم زجاج الباب فى الوقت نفسه وتناثر حطامه على الدرجات محدثاً ضجة كبيرة .

قال عمى وقد أصبح أشد صفرة من ميت ، قال يخاطب جافريلا :
- هيا انهض يا جافريلا ، ثم دسه فى عربته ، وليرحل عن هذا المنزل فى أقل من دقيقتين !

لعل فوما كان يتصور لهذا المشهد خواتيم كثيرة ، ولكن لا شك أن هذه الخاتمة التى كانت تنتظره لم تدر فى خلدته ولا خطرت له بال ...

لا أستطيع أن أصف شيئاً مما حدث خلال الدقيقة التى أعقبت ذلك: لا الأناث التى تمزق القلب خارجة من صدر الجنرالة المتهاكمة فى مقعدها ، ولا ذهول بيرلستين ازاء سورة الغضب التى عصفت بعمى وكان الى ذلك الحين خاضعاً مستكيناً ، ولا ذعر ناستيا التى كادت تقع مغمى عليها فأسرع أبوها اليها ، ولا هلع ساشا التى طاش صوابها من فرط الجزع ، ولا اضطراب عمى الذى استبد به حنق لا يوصف وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وهو يحدق الى أمه التى لم تسترد وعيها ،

ولا البكاء الصاحب يبيكه فالإلى حزينا أشد الحزن مع سادته • ذلك كله
يؤلف « لوحة » لا سبيل إلى وصفها • وإنما يجب أن أضيف أن رعدا
قويا قد دوى في تلك اللحظة • ان همهمات العاصفة تقترب مزيدا من
الاقتراب شيئا بعد شيء • وأخذ مطر غزير يقرع زجاج النوافذ ويسيل
عليها مدرارا •

جمعهم السيد ياخشاياف يقول خافضا رأسه محركا يده بإشارة
عجز :

— حقا انه لعيد سعيد ! *

همست أقول له مضطربا كاضطرابه :

— الحالة سيئة • ولكن فوما قد طُرد على الأقل ، فلن نراه بعد
اليوم !

— أمي ! هل استرددت وعيك ؟ هل تشعرين بتحسن ؟ هل
تستطيعين أن تصغى إلى أخيرا ؟

كذلك سأل عمي أمه وهو يقف جامدا أمام مقعدها • فرفعت
العجوز رأسها ، وصالت ذراعيها ، وألقت نظرة ضارعة متوسلة على ابنها
الذي لم تره في يوم من الأيام غاضبا مثل هذا الغضب المسعور !
وتابع عمي يقول :

— أمي ، لقد طفح الكيل ، كما لعلك رأيت • ما كان لي أن أعرض
لك الأمر على هذه الصورة ، ولكن الوقت يستحى ، وليس ثمة ما يدعوني
أن أنتظر مزيدا من الانتظار ! لقد سمعت النميمة ، فأرجوك أن تسمعي
الآن الحقيقة • أمي ! انني أحب هذه الفتاة النبيلة الشريفة ، أحبها منذ
زمن طويل ، وسوف أظل أحبها إلى الأبد • سوف تسعد أولادى ،

وستخصك أنت بأقصى الاحترام ، وستكون لك خير ابنة • ولذلك فأنى الآن ، أمامك ، بحضور أقربائي وأصدقائي ، أضع طلب خطبتها بين قدميها ، وأتوسل إليها أن تهب لى هذا الشرف العظيم ، أن ترتضىنى زوجا •

ارتجفت ناستيا ، ثم تخضب وجهها بحمرة شديدة ، ووثبت عن مقعدها • نظرت الجنزالة الى ابنها برهة وكأنها لا تفهم أقواله ؛ ثم اذا بها ترتضى راکعة أمامه على حين فجأة وهى تتأوه تأوها يمزق القلب ••• وصرخت تقول له :

- بنى ياجور ، عزيزى ، أرجع فوما ! أرجعه فوراً ، والا مت فى هذا المساء نفسه !

فلما رأى عمى أمه التى عرفها طاغية جبارة ذات نزوات ، لما رآها راکعة أمامه لبث كالتجمد دهشة ، وطاف فى وجهه تعبير عن ألم مضى ؛ ثم لم يلبث أن تاب الى وعيه ، فمال على أمه ، وأنهضها ، وأجلسها فوق مقعدها •

تابعت الأم توسلها منتحبة :

- أرجع فوما فومتش يا بنى ياجور ! أرجعه يا عزيزى ! اننى لا أستطيع أن أعيش بدونه !

فصاح عمى يقول بمرارة :

- أمى ! ألم تسمى اذن ما قلته لك منذ هنيهة ؟ اننى لا أستطيع أن أرجع فوما ، فافهمى هذا ! لا أستطيع أن أرجعه ، وليس من حقى أن أرجعه ، بعد الذى قاله من كلام سفيه حقير نذل عن هذه الملاك من ملائكة الطهارة والفضيلة • افهمى يا أمى أن الشرف يوجب على أن أتصف لهذه

الفتاة من الاهانة التى ألحقها بها • أما سمعت ما قلته ؟ اننى أخطب هذه
الآنسة وأتوسل اليك أن تباركى زواجنا •

وثبت الجبرالة مرة أخرى عن مقعدها ، وارتمت راكعة فى هذه
المرّة أمام ناستيا ، وأعولت تقول لها :

- عزيزتى اللطيفة الحلوة ، حمامنى الصغيرة الجميلة ! لا تتزوجه !
لا تتزوجه أبدا ! وتوسلى اليه يا عزيزتى الصغيرة أن يرجع فوما فومتش !
ملاكى اناستازيا أوجرافوفنا ! اننى اهب لك كل شيء ، واضحى فى
سييلك بكل شيء ، شريطة أن لا تتزوجه ! مهما أكن فقيرة ، فأننى لم
أنفق كل ما أملك ، وما يزال عندى شيء مما تركه المرحوم زوجى ؟
سأهبه لك كله • وسوف يقدم ياجور اليك هدية أيضا • ولكن لاندفعينى
الى التابوت حية ، واسأليه أن يرجع فوما فومتش ! ...

كان يمكن أن تستمر العجوز فى ضراعاتها المتنهدة الآنّة زمنا طويلا
لولا أن بيرلنسين وسيدات الحاشية قد هرعن اليها صارخات صرخات
استياء كبيرة ، لينهضنها من هذا الوضع الذليل بين قدمى معلمة مأجورة !
وكانت ناستيا لا تكاد تستطيع الوقوف على ساقيها من فرط الخوف ،
وكانت بيرلنسين توشك أن تبكى كرها وبغضا •

صاحت بيرلنسين تقول لعمى :

- انك تجهز على أمك ، انك تقتلها !

ثم قالت لناستيا :

- أما أنت يا آناستازيا أوجرافوفنا ، فليس لك أن تفسدى ما بين
أم وابنها ... ان الله نفسه يحرم هذا ! ...

هتف عمى يقول :

- احبسى لسانك يا آنا نيلوفنا ! لقد تحملت الى الآن ما فيه الكفاية ! ...

- وأنا تحملت الى الآن ما فيه الكفاية ! بأى حق تستغل يرمى ؟ ألم تلحق بى حتى الآن ما يكفى من اهانات ؟ أنا لست عبدتك ، هل تسمع ؟ أنا بنت ليوتان كولونيل أنا • لسوف أرحل ، ثم لا أضع قدمى فى منزلك بعد اليوم أبدا • أبدا ! أنا مسافرة فى هذا اليوم نفسه ! ...

ولكن عمى لم يصغ اليها ، بل اقترب من ناستيا ، وتناول يدها باحترام ، وسألها وهو يلتقى عليها نظرة قلقة خائفة تشبه أن تكون ياسا :

- هل سمعت ما أعرض يا آناستازيا أوجرافوفنا ؟

فأجابت ناستيا مرتجفة أشد الارتجاف هى أيضا :

- بل دعنا من هذا يا ياجور ايلتش •

ثم أضافت وهى تجهش باكية :

- لا فائدة •

وشدت على يده ثم استأنفت كلامها تقول :

- أنت تريد ذلك بسبب ما جرى مساء أمس • ولكن هذا مستحيل

... هأت ذا ترى أنه مستحيل ... لقد أخطأنا يا ياجور ايلتش ...

ولكننى سأظل أذكرك محسنا الى منعمنا على ... وسأدعو لك الله من أعماق قلبى ... الى الأبد !

وخنقت الدموع صوتها • كان واضحا أن عمى المسكين قد توقع هذا الرد • فلم يخطر بباله لا أن يلح ولا أن يحتج • كان ماثلا على ناستيا التى لم يترك يدها ، يصغى الى كلامها عاجزا عن النطق بكلمة

واحدة ، وقد استولى عليه حزن شديد وكرب عظيم • وأخذت الدموع
تملاً عينيه •

وتابعت ناستيا تقول :

— ذكرت لك منذ أمس أنني لا أستطيع أن أصبح زوجتك •
وهأنت ذا ترى بنفسك : ما من أحد يريدنى هنا ••• ولقد أحسست أنا
بهذا كله ، وتنبأت به منذ زمن طويل • لن تبارك أمك زواجنا ••• ولا
الآخرون • وستدعن أنت آخر الأمر ، لأنك انسان كريم ، ولكنك
ستعذب بسببى ••• لأنك نبيل مسرف فى النبيل شهيم مسرف فى
الشهامة ! •••

وأمن ياجفكين على كلامها مرددا :

— هذا صحيح يا ناستيا ، انه مسرف فى الشهامة ، مسرف فى
الشهامة • هذا صحيح • تلك هى الكلمة التى يجب أن تقال •
وكان ياجفكين واقفا عند الجهة الأخرى من مقعد ابنته •
وتابعت ناستيا كلامها :

— لا أريد أن أكون سبب اضطراب فى منزلك • ولا تقلقن
لمصيرى يا ياجور ايلتش • لن يؤذينى أحد ، لن يسىء الى أحد •••
سأسافر مع أبى ••• فى هذا اليوم نفسه ••• والأفضل أن يودع كل
منا الآخر الآن يا ياجور ايلتش •••

قالت الفتاة المسكينة ذلك وسكبت سيلا جديدا من الدموع •

سألها عمى وهو يتأملها بعينين تفيضان يأسا لا سبيل الى مغالبتها :

— أهذه كلمتك الأخيرة حقا يا آناستازيا أوجرافوفنا ؟ ما عليك الا
أن تتكلمى فأضحى فى سبيلك بكل شيء ! •••

فردد يا جفكين يقول :

— لقد قالت كلمتها الأخيرة يا يا جور ايلتش • وقد شرحت لك الأمر شرحا واضحا جدا • أنت أطيب الناس طرا يا يا جور ايلتش • أردت خيرا كثيرا ؟ وشرفتنا كثيرا ، كثيرا ، كثيرا • ولكن لسنا أهلا لك يا يا جور ايلتش ! أنت فى حاجة الى خطيبة غنية ، نبيلة المحتد ، جميلة ، وذات صوت أيضا • أنت فى حاجة الى زوجة تمشى فى أجنحة منزلك مزدانة بأحجار الماس وريش النعام • • • ولعل فوما يرضى عندئذ أن يعود وأن يباركك • ذلك أنك سترجعه • ولقد أخطأت ، نعم أخطأت خطأ كبيرا حين أسأت معاملته ! وانه لم يقل ما قال الا من باب الشهامة تدفعه الى ذلك حماسة الفضيلة فى قلبه النبل ! وسوف تعترف أنت نفسك بهذا فى المستقبل ، سترى • • • انه انسان موهوب ، انسان عظيم ! تذكر أنه لا بد أن يكون الآن مبلا حتى النظام • • • فالأولى أن تأمر بارجاعه ، ما دام راجعا على كل حال • • •

صرخت الجنرالة قائلة :

— فأرجعه يا بنى أرجعه • • • لقد قال صاحبنا الحقيقة بعينها !

وتابع يا جفكين :

— نعم • ان أملك الطيبة حزينة أشد الحزن • ولا فائدة من اصرارك • • • أما نحن ، أنا وناستيا ، فقد آن لنا أن نرحل • • •

صاح عمى يقول :

— انتظر يا أوجراف لاريوتتش ، أرجوك ، أتوسل اليك • • كلمة أخرى ، كلمة واحدة • • •

هتف عمى بذلك ثم ابتعد ومضى يجلس على مقعد فى آخر الغرفة ، ومال برأسه نحو الأرض ، وغطى عينيه يديه ، وغرق فى التأمل •

وفي هذه اللحظة دوى صوت رعد رهيب ، وسقطت الصاعقة على المنزل تقريبا • اهتز كل شيء • أطلقت الجنرالة صرخة حادة ، وكذلك بيرلتسين • ورسمت سيدات الحاشية اشارة الصليب وقد كدن يمتن خوفا ، وكذلك فعل السيد باختشايف فى الوقت نفسه •

وهمست خمسة أصوات أو ستة فى آن معا تقول :

— ادع لنا الله يا قديس ايليا •

وأعقب الصاعقة مطر رهيب ، فكان بحيرة برمتها تنسكب مياهها على ستياتشيكوفو •

قالت بيرلتسين :

— مسكين فوما فومتش ••• انه الآن وحيد فى البرارى !

وصرخت الجنرالة بلهجة يائسة وهى تندفع نحو الباب كالمجنونة :
— أرجعه يا بنى ياجور !

ولكن سيدات الحاشية أدركنها قبل أن تخرج من الباب ، وأحطن بها يواسينها بأهات وأنات ! وبلغت الجلبة أوجها !

وتابعت بيرلتسين كلامها تقول :

— خرج بردنجوته فقط • ليت له معطفاً على الأقل ••• ولم يأخذ مظلة أيضا • لسوف تهلكه الصاعقة •••

فأمن باختشايف على كلامها قائلاً :

— لا شك أن الصاعقة ستصعقه ••• ثم ان المطر سيفرقه •

همست أقول له :

— الأفضل أن تسكت !

فأجانبى باختشاييف حانقا :

- أهو انسان أم لا ؟ أهو انسان أم كلب ؟ أخرج أنت من المنزل
فى جو كهذا الجو ؟ هيا استحم بماء المطر اذا كان يحلو لك ذلك الى هذه
الدرجة !

قلت لعمى وأنا أميل على أذنه :

- أترك توافق على عودة فوما فومتش ؟ انه لعب كبير أن توافق
على عودته ، ما ظلت أناستازيا أوجرافوفنا موجودة هنا على الأقل ...
أجاب عمى وهو يرفع رأسه ويرمقنى بنظرة حازمة :

- يا صديقى العزيز ، لقد قلت كلمتى وعزمت أمرى ؟ وأنا أعرف
ماذا بقى على أن أفعل ! لا تخش شيئا ! لن تمس ناستيا بسوء . أنا مسئول
عن ذلك !

قال عمى ذلك ونهض عن مقعده واقترب من أمه .

- أمى ، هدئي روعك ! سأرجع فوما فومتش . سوف أدركه .
لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرا . ولكننى أقسم بالله أنه لن يدخل الا
بشرط : هو أن يعترف بذنبه ، هنا ، على رؤوس الأشهاد ، أمام جميع من
رأوا الاهانة ، وأن يطلب العفو والصفح والمغفرة صراحة من هذه الفتاة
النبيلة . اننى أصر على أن يفعل هذا ، سوف أجبره على أن يفعل هذا ؛
فإن لم يفعل ، فلن يجتاز عتبة هذا المنزل . واننى أقسم بالله أيضا ،
يا أمى ، اننى مستعد ، اذا هو ارتضى ذلك ، أن أرتضى على قدميه وأن
أعطيه كل ما أستطيع ، ولكن دون أن أضرب بمصلحة أولادى ! سوف
أترك ستيانيشيكوفو ، فعيشين فيها سعيدة هادئة البال . وأعود أنا الى
الخدمة فى الجيش ، فأختم حياتى فى معمة الحرب على ساحات القتال ...
كفى ... أنا ذاهب !

وفى تلك اللحظة فتح الباب ، وظهر جافريلا مبللا ملوثا بالوحل ،
أمام المشاهدين الذين اهتزت نفوسهم لظهوره أشد الاهتزاز •
صاح عمى يسأل جافريلا وهو يرتدى نحوه :
- ما بك ؟ من أين أنت آت ؟ أين فوما ؟
وهرع الجميع فى شراة حول الخادم العجوز الذى كان يتصبب
منه ماء موحل • فكانت الآهات والأوهات ••• كانت التنهدات والصرخات
تقاطع كل كلمة يقولها •
بدأ جافريلا كلامه يقول بصوت داعم :
- تركته عند مدخل غابة أشجار البتول ، على بعد ربع فرسخ من
هنا • لقد خاف الحصان من الرعد فرمى العربة فى الحفرة •
صاح عمى :
- وبعد ؟
- انقلبت العربة ؟
- وفوما ؟
- سقط فى الحفرة •
- هلا أوضحت يا مجرم !
- أودى جنبه فأخذ يبكى ، فحللت الحصان ، وعدت الى هنا راكبا
على الحصان لأبشكم بما وقع •
- وفوما ، هل هو هناك ؟
- نهض واستأنف السير متكئا على عصا •
تضاعفت دموع الجنس اللطيف وانتحاباته •
وصرخ عمى وهو يندفع الى خارج الغرفة مناديا :

- بولكان !

فأخرج له بولكان من الزريبة ، فامتطى عمى صهوة الجواد دون أن يضع الوقت فى وضع السرج ، وما هى الا دقيقة واحدة حتى أدر كنا من وقع حوافر الحصان الذى راح يجرى مسرعا ان عمى مضى يلاحق فوما . ولقد خرج عمى حاسر الرأس •

هرعت السيدات جميعا الى النوافذ • واختلطت فى أقوالهن التفجعات بالنصائح • فمن ناصحة بحمام ساخن على الفور ، ومن قائلة بتدليك بالكحول ، ومن موصية بشاى للصدر • وقيل فيما قيل « ان بطن فوما لا بد أن تكون خاوية لأنه لم يذق لقمة من طعام منذ الصباح » • ولمحت الأنسة بيريلتسين نظارتى المنفى فى غمدها مصادفة ، فتضخم هذا الأمر تضخما كبيرا : ارتمت الجذالة على الغمد منتحبة ، وأسرعت الى النافذة تنظر فى الطريق من جديد وهى ما تزال تمسك غمد النظارتين • وبلغ الانتظار أعلى درجة من درجات الانفعال ••• وفى الزاوية المقابلة كانت ساشا تواسى ناستيا • انهما متعانقتان تختلط دموع كل منهما بدموع الأخرى • وكانت ناستيا ممسكة باليوشا قبله من دقيقة الى دقيقة • انها تودع تلميذها • واليوشا يبكى بدموع سخان دون أن يعرف كثيرا لماذا يبكى • وياجفكين وميزتشيكوف يتناقشان فى ركن من الأركان • وخيل الى أن باختشايف الذى كان يتأمل الفتيات ، يوشك أن يبكى هو أيضا ، فاقتربت منه ، فاذا هو يصيح قائلا :

- لا يا صديقى ، اذا كان لا بد أن يرحل فوما عن هذا المنزل فى يوم من الأيام فان هذا اليوم لم يحن بعد • انهم لما يعيشوا على الأبقار ذات القرون الذهبية التى يجب أن تجر عربته حين يرحل • اهدأ بالا يا بنى • ان رب الدار هو الذى سيرحل • أما فوما فسيبقى •

واضح أن باختشاياف أصبح لا يرى الأمور على نحو ما كان يراها،
بعد أن انقضت العاصفة ! ...

وفجأة سمعنا صياحا يهتف : « وصلا ... وصلا ... » • فهرولت
السيدات نحو الباب معولات • لم يكن قد انقضى على خروج عمى الا
عشرة دقائق • ان المرء لا يستطيع أن يفهم كيف أمكنه أن يرجع فوما
بمثل هذه السرعة • ومع ذلك كان حل هذا اللغز سهلا ككل السهولة :
ان فوما فومتش ، بعد ان صرف جافريلا ، قد تابع طريقه متكئا على عصا
فعلا ؟ ولكنه وقد أحس بأنه مهجور لرحمة العاصفة والمطر الوابل ،
استولى عليه خوف رهيب ، فقفل راجعا يركض وراء جافريلا • وقد التقى
به عمى لحظه بلوغه القرية •

وسرعان ما استوقف عمى عربة كانت مارة ، وأسرع عدد من
الفلاحين يحملون الى العربة فوما الذى أصبح وديعا وداعة حمل • وعلى
هذه الحالة من الوداعة انما اقتيد رأسا الى ذراعى الجنرالة التى أوشكت
أن تجن فرحا حين رأته • وكان مبتلا وملوثا بالوحل أكثر من جافريلا
أيضا • وقامت قيامة المنزل حينذاك • فبعض يريد أن ينقل فوما رأسا الى
فوق ، لتغير له ملابسه • وبعض ينادى أن هاتوا مغلى أعشاب وغير ذلك
من أشربة منعشة • والجميع يتحركون هنا وهناك فى كل مكان بغير هدف
وعلى غير هدى • والجميع يتكلمون معا فى آن واحد • ولكن فوما كان
يبدو عليه أنه لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا • واقتيد فوما الى أحد المقاعد
مسنودا من ابطيه • فتهالك عليه ثقيلًا وأغمض عينيه • وأعول أحدهم
قائلا انه يحتضر ، فانطلقت صرخات مروعة رهبة • وكان الذى يعول
عويلا أشد من عويل سائر المعولين هو فالالى الذى كان يحاول أن يتسلل
بين السيدات من أجل أن يقبل يد فوما فومتش •

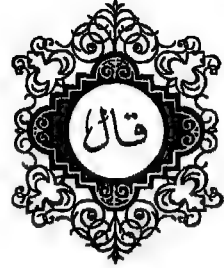
٥

فوما فومتش يحق السعادة للجميع

فوما فومتش بصوت انسان يموت فى سبيل

الفضيلة :

- الى أين أُخذت ؟



فهمس ميزتشيكونف قريى يقول :

- يا للرجال اللعين ! كأنه لا يرى الى أين أُخذ ! لسوف يُحدث

الآن ارتباكات !

صاح عمى يقول :

- أنت عندنا يا فوما ، أنت فى أسرتك ! هدىء روعك ، استرد

عزيمتك ! ثم ان عليك أن تمضى تغير ملايسك اذا أردت أن لا تمرض ،

صدقنى يا فوما ! ألا تحب أن تشرب شيئا لتتمش قليلا ؟ هه ؟ ... كأس

من كحول يدفئك ؟ ...

- نعم ، قليلا من المالاجا !

هكذا قال فوما فى أنين وأغمض عينيه .

قال عمى :

- قليلا من المالاجا ؟

والتفت نحو أخته قلقا يسألها بعينه :

— ولكن أرجو أن يكون عندنا شيء من المالا جا •

فقلت براسكوفى ايلتشننا مؤكدة :

— نعم ، عندنا مالا جا • • ما يزال عندنا أربع زجاجات • • •

وسرعان ما هرعت تأتى بالمالا جا حاملة مجموعة مفاتيحها ، تشجبها
فى ركضها صيحات جميع السيدات اللواتى تهاقن حول فوما تهاقت الذباب
على طبق من مربب الفاكهة •

فكان من شأن هذا الاهتمام كله وهذا السعى كله أن بلغ استياء
السيد باختشايف أوجه فهمهم باختشايف يقول بصوت مسموع :

— يريد الآن أن يشرب مالا جا ، يريد أن يشرب خمرا لا يشرب
منه أحد • هل يفضل منقاره بالمالا جا الا وغد من هذا النوع ؟ أف • • •
شيطان يأخذهم جميعا ! انى لأسأل : ما بقائى هنا ؟ ماذا أنتظر ؟

وأخذ عى يخاطب فوما بكلام مفكك متقطع :

— فوما ، الآن وقد استرددت وعيك ، ورجعت إلينا وأصبحت بينا
• • يجب أن أقول لك يا فوما • • • اننى أرى • • • أنك تدرك • • •
الاهانة التى ألحقتها بمخلوقة بريئة • •

فقال فوما يكرر كلمة البراءة كمن يهذى :

— أين هى براءتى ؟ أين أيامى المباركة ؟ أين أنت يا طفولتى
السعيدة ، أين أنت يا تلك الأيام التى كنت فيها أركض خلال الحقول
بريثا مضيا وراء الفراشات ؟ أين أنت أيها الربيع المبارك ؟ أعد لى براءتى ،
ردّ إلى براءتى ! • • •

وكان فوما ، وهو يقول هذا الكلام ، باسطا ذراعيه ، ينقل بصره بين
الحاضرين واحدا بعد واحد كأن أحدا قد أخفى عنه براءته فى جيب من

جيوبه • ولاح على باختشايف أنه يوشك أن ينفجر حنقا مسعورا •

وهمهم باختشايف يقول خارجا عن طوره :

— ماذا يريد أيضا هذا الفتى الشجاع ؟ يريد براءته ؟ ليعانقها
ويقبلها ؟ ألا ان أغلب ظني أنه كان فى طفولته وغداً حقيراً مثله الآن ! بل
هذا أكيد ••• لأضعنّ يدي فى النار ان لم يكن الأمر كذلك ! •••

أراد عمى أن يحتج فقال :

— فوما !

فصاح فوما بمزيد من القوة يقول :

— أين هى الأيام التى كنت ما أزال أعتقد فيها أننى هائم موله ؟
أين هى الأيام التى كنت أحب فيها الانسانية ؟ أين هو الزمان الذى كنت
أعانق فيه البشر لأبكى على صدورهم ؟ أين أنا من ذلك كله الآن ،
أين ؟

كرر عمى يقول :

— أنت عندنا يا فوما ، هدىء روعك ! ولكن اليك ما أحرص على أن
أقوله لك يا فوما •••

قالت بيربلتسين فيما يشبه الصفير ، وقد لاح فى وجهها الكره
والبغض وحدثت الى عمى بعينها الصغيرتين اللتين تشبهان عيني أفعى :

— تحسن صنعا اذا سكت ، أنت !

وتابع فوما :

— أين أنا ؟ من يحيط بى ؟ ما لهذه الثيران كلها وهذه الجواميس
كلها تريد أن تشب قرونها فى جسمى ! أيتها الحياة ، ما أنت فى نظرى ؟
امض يا فوما ، امض ! ألا فليُستهزأ بك ! ألا فلتُحترق ، ولتُذلد ،

ولتضرب، حتى اذا ووريت التراب ، وأهيلت على قبرك الرمال ، تذكرت
الناس يومذاك ، فسادوا فوق مثواك ضريحاً يسحق عظامك !
همس ياجفكين وهو يضغط يديه احديهما بالأخرى :
- ربه ! انه يتكلم عن ضريح يشاد تخليدا لذكراه !
أعول فوما يقول :

- لا أريد لى ضريحاً ، لا أريد ! ليس بى الى ضريح حاجة ! ففى
قلوبكم انما أحب أن يكون لى ضريح ، فى قلوبكم وحدها ، نعم وحدها ،
وحدها ، وحدها !
قال له عمى مقاطعا :

- كفى يا فوما ، هدىء روعك ! دع الأضرحة وشأنها ! واستمع الى
ما أقوله لك أنا أدرك يا فوما أن نار الفضيلة هى التى كانت تحرقك
حين وجهت الى اللوم والتقريع منذ قليل ولكنك أسرفت يا فوما ،
مضيت بعيدا جدا باسم الفضيلة . أؤكد لك أنك أخطأت التقدير يا فوما !
صفرت بيربلتسين من جديد تقول :

- هلا سكت أخيرا ؟ أيجب أن تقتل هذا المسكين قتلا وقد أصبح
الآن تحت رحمتك ؟

اضطربت الجنرالة لدى سماعها أقوال بيربلتسين ، واضطربت بعدها
سيدات الحاشية ، ولوحن بأيديهن احتجاجا يردن اجبار عمى على
السكوت .

فأجاب عمى بلهجة حازمة يقول :

- بل اسكتى أنت يا آنا نيلوفنا ! أما أنا فأعرف ماذا أقول . هذه
قضية مقدسة . هذه قضية تمنس الشرف والعدالة . فوما ، ان لك عقلا،
فعليك أن تطلب المغفرة فورا من الآنسة النبيلة التى أهنتها .

قال فوما وهو يجيل علينا جميعا نظرات ذاهلة هي نظرات انسان
نسى نسيانا تاما كل ما جرى ، فهو لا يفهم شيئا مما يقال له :

— أية آنسة ؟ أية آنسة أهنت ؟

— نعم يا فوما • اذا أنت في هذه اللحظة اعترفت بخطئك راضيا ،
اعترافا نبيلًا ، فيمينا لأرتمينّ على قدميك ، وعندئذ ...

أنّ فوما يقول مقاطعا :

— من أهنت ؟ أية آنسة ؟ أين هي ؟ أين تلك الآنسة ؟ ذكروني
بها ، أرجوكم !

في هذه اللحظة ، دنت ناستيا من عمي وشدته من ذراعه ، وقد
اضطربت من الخوف أشد الاضطراب ، وقالت بصوت ضارع :

— لا يا ياجور ايلتش ، دعه وشأنه ، لا أريد منه اعتذارا ... لا
تستمر ... أرجوك •

صاح فوما :

— آه ... تذكرت ! رباه ! بدأت أنذكر ... أوه ! ساعدوني على
التذكر (كذلك طلب وقد اعتراه انفعال شديد) • قولوا : أصبح أنتي
طُردت من هنا كما يطرد كلب أجرب ؟ أصبح أن الساعة أصابتني ؟
أصبح أنتي رُميت من أعلى السلم ؟ أصبح هذا ؟ أصبح ؟

فكانت انتحابات السيدات وكان بكأوهن أبلغ جواب على أسئلة
فوما •

وتابع فوما :

— آ ... صحيح اذن هذا •• تذكرت الآن ... تذكرت أنتي بعد
قصف الرعد وسقوطي ، ركضت الى هنا تسبقني الساعة ، اذ كان على أن

أقوم بواجبي المقدس قبل أن أغيب الى الأبد • أنهضوني • اننى أشعر
 باعياء شديد ، ولكن على أن أقوم بواجبي •
 أنهض فوما ، فما ان انتصب حتى اتخذ وضع الخطيب ، باسطة
 يديه ، وقال بصوت عال :

- يا كولونيل ، ان ذاكرتى تعود الى الآن • لم تذهب الصاعقة
 بعقلي • ولكن أذنى اليمنى ما تزال صماء • ولعل سبب ذلك ليس
 الصاعقة بل سقوطى من على درج الباب ••• على كل حال ، ما لهذا من
 كبير شأن ! ما عسى أن يكون لأذن فوما اليمنى من قيمة ؟

قال هذه الكلمات الأخيرة بلهجة تبلغ من الحزن الساخر ، وأتبعها
 بابتسامة تبلغ من المرارة التى توقظ فى النفس الشفقة ، أن أنات السيدات
 انفجرت مرة أخرى تترى ••• وألقت السيدات على عمى نظرات عتاب ،
 بل ونظرات كره وبغض • فأخذ المسكين يفقد صموده أمام هذا الاستكثار
 العام الشامل • وبصق ميرتشيكوف جانبا من قبيل الاشمزاز ، ومضى نحو
 النافذة • أما باختسايف الذى نفد صبره وأصبح لا يطيق التلبث فى
 مكانه ، فكان يلكرنى بكوعه لكزات ما تنفك تقوى وتشد •

وزار فوما يقول وهو يلف كلا منا بنظرة واضحة متعالية متكبرة :
 - آن لكم جميعا أن تسمعوا اعترافى • ولكم بعد ذلك أن تقرروا
 مصير أوبسكين الشقى • يا ياجور ايلتش ، اننى أراقبك منذ زمن •
 ولقد راقبتك وأنا مختنق الصدر قلقا وخوفا ، ورأيت كل شيء ، كل شيء •
 على الاطلاق ، بينما كنت أنت لا يخطر ببالك أننى أراقبك • يا كولونيل ،
 من الجائز أن أكون قد أخطأت التقدير ، ولكننى كنت أعرف أنرتك ،
 واسرافك فى حب نفسك ، وشهوانيتك الجهنمية ، فمن ذا الذى يمكن أن
 يلومنى اذا أنا اضطربت أشد الاضطراب خوفا على فضيلة تلك الانسانية
 التى هى أظهر الناس وأبرؤهن طرا ؟

— فوما ، فوما ، حذار ! لا تسرف فى القول يا فوما !
كذلك صرخ عمى وهو ينظر قلقاً الى وجه ناستيا الذى ينم عن ألم
شديد وعذاب ممض •

ولكن فوما تابع كلامه دون أن يبدو عليه أنه سمع تهديد عمى :
— ولم تكن طهارة هذه الانسانة التى تمحض نقتها بريئة مخلصه ،
لم تكن طهارة هذه الانسانة هى التى تثير وحدها القلق فى نفسى • لقد
لاحظت أن عاطفة رقيقة حنوناً تنبت فى قلبها وتزهر كما يزهر الورد فى
الربيع • فتذكرت ، بالرغم منى ، الكاتب بترارك الذى قال : « ان البراة
هى على مسافة شعرة من ضياعها ، فتتهدت قلقاً ، وانطلق الأئين من أعماق
صدرى خوفاً ، ووددت لو أضحى بدمى حماية لهذه الفتاة النقية نقاء
لؤلؤة ؟ اذ من ما من أحد يمكن أن يضمن سلامة سلوكك يا يا جور
ايلتش ! •• لقد كنت أعرف أهواءك العارمة الجامحة التى لا يلجمها
شئ ، وكنت أعرف استعدادك لتلبية هذه الأهواء بأى ثمن وفى أية لحظة
فهويت الى قاع الخوف والقلق ازاء هذا الخطر الذى يهدد آنسة هى
أشرف الأوانس قاطبة ••

صرخ عمى يقول :

— فوما ! كيف أمكن أن تخطر ببالك أمور فظيعة رهية من هذا
النوع ؟

— راقبتك ونفسى تموت موتاً ! فاذا كنتَ تحرص على أن تعرف
مدى ما عانيت من عذاب وما قاسيت من ألم ، فعد الى شكسبير واقراً
« هاملت » تدرك الاضطراب الذى شب فى نفسى ، والقلق الذى استمر
فى قلبى • أصبحت كثير الشك متوحش السلوك • أصبحت ، وأنا فيما
أنا فيه من قلق شديد وخوف مستمر ، أرى كل شئ أسود حالكا •••

وثق أن « هذا السواد » الذى كنت أراه ليس السواد الذى يُغنى فى بعض أناشيد الهوى ! لا .. لا .. اننى لم أكن أفكر الا فى انقاذها . وذلك هو السبب فى أنك رأيتنى أرغب تلك الرغبة القوية كلها فى ابعاد الفتاة عن هذا المنزل ؟ ذلك هو السبب فى أننى أصبحت فى الآونة الأخيرة كثير الغضب سريع الاحتياج ؟ ذلك هو السبب فى أننى أخذت أكره النوع الانسانى كله ! من ذا الذى يستطيع أن يصالحنى الان مع الانسانية؟ نعم ، لعلى كنت كثير التشدد والظلم تجاه ضيوفك ، تجاه ابن أخيك ، وتجاه السيد باختشاييف الذى طالبت به بان يكون على علم بحقائق الفلك . ولكن من ذا الذى لا يغفر لى اذا هو نظر بعين الاعتبار الى الآلام التى النى كنت أعانيها ؟ وأستشهد مرة أخرى بشكسبير فاقول ان المستقبل كان يبدو لى هوة ليس لها قرار ، هوة يقبع فى قاعها تمساح . وشعرت ان من واجبى أن أوقى من نازلة ستقع ، ان أجنب من كارثة ستحل . . . كنت أشعر أننى انما أرسلت الى هنا من أجل هذا ، كنت أحس أننى انما وجدت هنا فى سبيل هذا . ولكن ما الذى حدث ؟ حدث انك لم تفهم شيئاً من الآلام المقدسة التى كانت تضطرم نارها فى نفسى ، بل قابلت ذلك منى ، طوال الوقت ، بالكره والبغض ونكران الجميل والتهكم والاستهزاء والاذلال .

صاح عمى يقول وقد عصفت به انفعال شديد :

— اذا كان الأمر كذلك ، فأنا أشعر بأن . . .

— اذا كنت تشعر بشيء حقاً ، فأرجوك أن تصنى الى كلامى بغير مقاطعة يا كولونيل . وهأنذا أكمل : ينتج مما تقدم أن ذنبى كله هو أننى قاسيت كثيراً من الألم والعذاب فى سبيل مصير هذه الطفلة وفى سبيل سعادتها . . . ذلك أنها طفلة بالقياس اليك يا كولونيل . . . وهكذا جعلنى الافراط فى حب الانسانية شيطاناً من شياطين العداوة وسوء الظن وكثرة

الحذر ، حتى صرت مستعداً لأن أهجم على أعناق الناس أمخنها جراحاً •
واعلم يا ياجور ايلتش أن أفعالك جميعها لم تزد على أن عززت شكوكي
وريبى وشبهاتى مزيداً من التعزيز • فامس مثلاً ، حين ثرت ذهبك امامى
بغية ان تبعدنى ، قلت لنفسى : « انه يبعدنى ، ولكنه فى حقيقة الأمر انما
يبعد ضميره متمثلاً فى شخصى ، رجاء الايغال فى انفاذ جريمته بمزيد من
اليسر والسهولة ••• » •

صاح عمى مصعوقاً :

— فوما ، فوما ، هل يمكن أن تكون قد راودتك بالأمس أفكار
كهنه الافكار ؟ رباه ! وأنا الذى لم يخطر ببالي شيء من هذا فط •••

— من السماء انما هبطت على هذه المخاوف (هكذا تابع فوما
كلامه) • وفى وسعك اذن ان تدرك ما فكرت فيه حين قادتني مصادفه
عمياء فى المساء الى آخر الحديقة عند ذلك المقعد المشؤوم • يارب يارب ،
لشدهما قاسيت من ألم فى تلك الدقيقة حين رأيت أخيراً ، بام عيني ، على
حين فجأة ، رؤيته واضحة صارخة ، أن جميع مخاوفى كانت فى محلها ،
وأن جميع شكوكى كان لها ما يبررها ويسوغها ! ومع ذلك بقى لى امل
أخير ، ضعيف جداً ، يجب أن اعترف بذلك ، ولكنه امل • فما الذى
حدث بعدئذ ؟ حدث أنك فى هذا الصباح نفسه قد حطمت ذلك الامل
وبددته ! بعثت الى برسالة تبدى فيها أنك تنوى الزواج ، وترجونى أن
لا أفشى فى الناس ما رأيت • قلت لنفسى عندئذ : « لماذا يكتب الى بعد أن
فجأته ، ولم يكتب الى قبل ذلك ؟ لماذا لم يجيئنى من قبل ، سعيد القلب
جميل الوجه — والحب يجمّل الوجه — لماذا لم يجيئنى مرتباً بين ذراعى
باكياً فى صدرى فائض العينين بدموع السعادة التى لا حدود لها ، مفضياً
الى بما يعتليج فى قلبه ؟ أنا اذن تمساح لا يصلح الا لابتلاعك والتهامك؟

ألست اذن بالقادر على أن أسدى اليك بنصيحة ؟ أنا زنبور كريبه متفر
لا يقدر على شيء الا أن يلسعك بدلا من أن يعمل فى سبيل سعادتك ؟
أنا صديقه أم أنا حشرة مقررة ؟ « ذلك هو السؤال الذى ألقىته على
نفسى فى هذا الصباح • ثم سألت نفسى أخيرا : « لماذا استدعى ابن أخيه
من العاصمة بحجة انه يريد أن يزوجه هذه الفتاة ، الا أن تكون غايته
من ذلك أن يخدعنا ويضلنا ، نحن وابن أخيه الطائش الذى لا عقل له ،
وأن يستمر فى مكائده الاجرامية خفية ؟ » • لا يا كولونيل ، اذا كان
ثمة انسان قد رسخ فى ذهنى أن حبك الخفى حب آثم ، فهذا الانسان
هو أنت ، أنت وحدك ! وانك لم تأثم فى حق هذه الفتاة النقية الطاهرة
النيلة ، فحسب ، وانما أنت بأثرتك وخرافتك وضعف ثقتك بى ، قد
عرتضتها لأسوأ الشبهات ، وشرّ الوشائيات والتخرصات !

كان عمى يصفى الى كلام فوما خافضاً رأسه • لقد جردته فصاحة
فوما من جميع وسائل الدفاع عن نفسه حتى انتهى شيئا فشيئا الى الاعتراف
لنفسه بأنه آثم كل الاثم • وكانت الجنرالة وحاشيتها يصغين بصمت
مغبط ، بينما كانت بيربلتسين تحدّق الى ناستيا بنظرات الكره الظافر
والحقد المنتصر •

وتابع فوما كلامه :

- وفيما كنت على هذه الحال من الاضطراب والغضب والانهيار ،
حبست نفسى اليوم فى غرفتى ، أصلى وأسأل الله أن يلهمنى السداد !
فانتهيت الى أن قررت أن أمتحنك مرة أخيرة ! ولعلمى قد أفرطت فى
الاندفاع ، ولعل استيائى قد حملنى على شيء من الاسراف ، ما دمت قد
رميتى من النافذة جزءا ما انطوت عليه نفسى من أقدس النيات ... فلما
سقطت من النافذة قلت لنفسى : « ذلك هو جزء الفضيلة دائما فى هذا

العالم ، • وقد بلغت من الانهيار عندئذ أننى فقدت وعيى • ولا أذكر الآن ما الذى حدث بعد ذلك •

فما ان أتى فوما على ذكر هذه الذكرى المفجعة حتى تعالت صرخات حادة وانتخابات مريرة تقاطع كلامه • وأسمرت الجنرالة تحمل اليه زجاجة المالاجا التى اختطفتها من يدي ابتها • ولكن فوما أقصى الزجاجة عنه بحركة متضخمة ، ثم أقصى الجنرالة ، وهنف يقول :

- انتظروا ! يجب أن أتم كلامى • اننى أجهل ما حدث بعد سقوطى • ولكننى أعلم أننى فى هذه الساعة ، وأنا مبتل بالماء حتى العظام ، وأنا أوشك أن تتساقط الحصى ، انما وجدت هنا لاحقق لكم السعادة المتبادلة • يا كولونيل ، اننى أعتقد أخيراً ، على أساس قرائن لا أستطيع أن أكشف عنها الآن ، أن حبك كان طاهراً نقياً ، بل وكرامياً نبيلاً ، رغم أن ضعف ثققت قد جعله آثماً • اننى بعد أن ضربت وأذلت واتهمت بأننى أهنت فتاة يحلو لى أن أسكب آخر قطرة من دمى فى سيليها كما يفعل فارس من فرسان القرون الوسطى ، قررت الآن أن أريكم كيف يشار فوما أوبسكين لنفسه من الالهات التى ألحقت به • هات يدك يا كولونيل !

صاح عمى قائلاً :

- يسرنى أن أمدّ اليك يدي يا فوما ••• لا سيما وأنتك وصفت ، على خير وجه ، شرف هذه الانسانة التى هى أنبل الناس قاطبة ••• نعم ، اليك يدي يا فوما ، مع كل أسفى على ••• قال عمى ذلك ، ومدّ الى فوما يداً حارة ، دون أن يخطر بباله ما سيعقب ذلك •

وأردف فوما يقول بصوت واهن ، وهو يقصى جحفل السيدات المتحلقات حوله ، من أجل أن يخاطب ناستيا :

- وهات يدك أنت أيضاً !

فرغت ناستيا عينيها نحو فوما خجلى وجلى مضطربة أشد
الاضطراب •

قال فوما بخنان وهو ما يزال ممسكاً يد عمى :

- اقتربى ، اقتربى يا بنيتى الغالية ؛ لا بد من هذا لسعادتك •

دمدم ميزتشيكوف يقول :

- ما عساه مدبراً من مكائد ؟

وتقدمت ناستيا من فوما على مضض وهي ترتجف ، فمدت اليه يدها
الصغيرة بحركة خائفة •

تناول فوما هذه اليد الصغيرة ووضعها فى يد عمى ؛ وهتف يقول
بلهجة فحمة :

- اننى أجمع بينكما وأهب لكما مباركتى ، اذا كانت تنفعكما مباركة
شهيد نزل به الشقاء • طوبى لكما ، ولتكونا سعيدين • هكذا ينتقم فوما
أوبسكين لنفسه •

لا يملك أحد أن يصف الدهشة التى اعترت جميع الحضور • ان
هذه الخاتمة التى لم تكن فى الحسبان قد جمدتنا جميعا • الجنرالة فغرت
فأها وهى ممسكة زجاجة المالا جا يدها • بيربلتسين امتقع لونها وارتجفت
غيظاً وحنقاً • سيدات الحاشية صفقن أيديهن ثم تجمدت فى مكانهن •
عمى أخذ يرتجف كورقة فى مهب الريح ، وأراد أن يتكلم لكنه لم
يستطع أن ينطق بكلمة واحدة • وكانت ناستيا شاحبة كमित فتمتمت
تقول خائفة خجلة : « مستحيل ! .. » ولكن بعد فوات الأوان • واستجاب
باختسايف لهاتف فوما أول المستجيبين • • يجب أن نعترف له بهذا الفضل

... وكذلك فعلت أنا في اثره ، ثم كذلك فعلت ساشا بكل صوتها الفتى
الواضح الصريح ؛ وسرعان ما ارتمت على عنق أبيها ؛ ومثل هذا فعل
اليوشا ؛ ثم جاء دور ياجفكين ، وبعده جاء دور ميزتشيكوف .

وعاد فوما يهتف مرة ثانية :

- طوبى لكما ، طوبى ! واركما يا ابني قلبي ، اركما أمام أشد
الأمهات حنانا ! اطلبا بركتها .. وسوف أشارككما الركوع اذا وجب
ذلك ! .. كان عمى وناستيا طائشي اللب لا يفهمان ما يقع لهما ، وهما
يهويان راكعين عند قدمى الجنرالة قبل أن يتسع وقتهما لتبادل نظرة
واحدة . وتحلق الجميع حولهما . ولكن المعجوز ظلت ساكنة لا تتحرك ،
ولا تعرف ماذا يجب عليها أن تفعل . وكان فوما هو الذى أنقذ الموقف
مرة أخرى . فها هو ذا يرتدى عند قدمى الجنرالة ، فإذا بهذه البادرة منه
تبدد تردد المعجوز دفعة واحدة ، فتجهش باكية وتعلن أخيرا أنها موافقة .
فيشب عمى عندئذ ، ويحضن فوما بذراعيه . ويبدأ يقول :

- فوما ! فوما !

ولكن صوته يخفق ، فما يستطيع أن يتابع كلامه .
زأر ستيان ألكسيفتش ينادى :

- هاتوا شمبانيا ! طوبى ...

فانبرت ببربتسين تقول محتجة ، وقد اتسع وقتها لأن تسترد وعيها
وأن تنظر الى الأمر وما يشتمل عليه من عواقب :

- لا ... لم يحن الأوان بعد . فانما يجب أولا اشعال شمعة أمام
صور القديسين ، ولا بد من صلوات ودعوات ، ولا بد من المباركة ، كما
يتم ذلك لدى جميع من يملكون ذرة من دين !

فأسرع الجميع يطيعون النصيحة التقية الفاضلة • وقامت بعد ذلك
قيامه الدار • أشعلت شمعة • صعد ستيان ألكسيفتش على كرسى ليضع
الشمعة فى المكان المطلوب أمام الأيقونات • ولكن الكرسى تهاوى ، فوثب
عنه الرجل الى الأرض ثقيلًا بطيئًا ، دون أن يفقد توازنه مع ذلك ؟ وأخلى
السييل للآنسة بيرلتسين مذعنا ، على شئ من الارتباك ، فتولت الآنسة
النحيلة الضاوية اشعال الشمعة التى ارتضت أخيرا أن تشتعل • وسرعان
ماطفقت المتدنية البتول وسيدات الحاشية يرسمن اشارة الصليب ، ويسجدن
على الأرض • وحملت صورة « المخلص » يسوع المسيح الى الجنرالة •
وارتمى عمى وناستيا راكعين من جديد ، وتتابع الاحتفال باشراف بيرلتسين
التقية التى كانت أوامرهما تعلق من دقيقة الى دقيقة : « اسجدا أمام أمكما ،
ضما شفاهكما على الأيقونة • قبلًا يد أمكما ! » وبعد الخطيب وبعد
الخطيبة ، رأى السيد باختشايف أن يقبل الأيقونة هو أيضا ، وأن يقبل
يد السيدة الجنرالة كذلك • لقد أصبح من شدة فرحه لا يشعر بنفسه •

وصاح يقول مرة أخرى :

— طوبى • والآن هاتوا الشمبانيا !

وكان جميع الحضور مفتونين نشوة على كل حال • الجنرالة تبكى ،
ولكن من الفرحة • ان مباركة فوما للزواج سرعان ما أسبغت على هذا
الزواج صفة النبل والقداسة • والنقطة الهامة هى أن الجنرالة تحس الآن
أن فوما لن ينتزع منها فى هذه المرة أبدا • وكانت سيدات الحاشية جميعا
يشاركن فى هذه الفرحة الشاملة ، ظاهراً على الأقل • وعمى يهرع تارة
الى أمه فيركع أمامها ليقبل يدها ، ويسرع تارة أخرى الى فيعانقنى •
وقبل عمى جميع الحضور • ضمَّ الى صدره باختشايف وميز تشيكوف
وياجفكين • أما اليوشا فقد كاد يخنقه من شدة حماسه فى عناقته • وكانت
ساسا تحيط بذراعيها عنق ناستيا ، وتغمرها ببوابل من قبل حارة • وكانت

براسكوفى ايلنتشنا تسكب سيولا من دموع ، فلما لاحظ باختشايف ذلك
أسرع إليها وقبّل يدها • وكان ياجفكين العجوز متحمياً أحد الأركان
يجفف دموعه بمنديله ذى المربعات ، وقد فاضت نفسه عاطفة وحنانا •
وفى الركن المقابل كان جافريلا يتأمل فوما فومتش تأمل عبادة ، وكان
فالالى ينتحب بصوت عال ويتقل بين الجمع يقبل الأيدى واحدة بعد
أخرى • لقد استولى علينا سكر عاطفى • ما من أحد يحس بحاجة الى
كلام أو شروح : لكأن كل شيء قد قيل • لم يبق الا أن نطلق اهات
الفرح • ولم يستطع أحد ، على كل حال ، أن يدرك كيف أمكن أن
تنتهى الأمور الى خاتمة رائعة هذه الروعة ، بسرعة كهذه السرعة • كل
ما كنا نعلمه أن ذلك من عمل فوما فومتش ، وأن المسألة قد حلت حلاً
حاسماً لا رجعة عنه •

ولكن ما ان انقضت خمس دقائق على هذه السعادة العامة الشاملة
حتى ظهرت تاتيانا ايفانوفنا على حين فجأة • لقد كانت منحجسة فى غرفتها
بالبابق الأول ، فكيف أحسّت ، كيف شمت أن الناس ، تحت ، مهتمون
بحب وزواج ؟ أسرع تاتيانا ايفانوفنا بيننا مشرقة المحيّا وضاءة الوجه
دامعة العينين من الفرح ، مرتدية ثوباً أنيقاً أناقة فاخرة (لقد اتسع وقتها
لتغيير ملابسها رغم كل شيء) ، وهرعت الى ناستيا رأساً وأخذت قبلها
وهى تصيح صيحات كبيرة :

• - ناستيا ، ناستيا ، أكنت اذن تحبينه وأنا لا أعلم عن هذا شيئاً ؟
رباه ! انهما متحابان ، وكانا يتلمان فى صمت ، خفية • كانوا يضطهدونها !
يا لها من رواية ! عزيزتى ناستيا ، قصى على كل شيء ! احكى لى كل
شيء ! أيمكن أن تحبى هذا الشيخ الخرف ؟
ولكن ناستيا قبلتها بحرارة بدلا من أن تجيب •
- رباه ! يا لها من رواية جميلة !

بهذا هتفت تاتيانا ايفانوفنا ، وصفقت يديها احديهما بالأخرى • ثم
أردفت تقول :

- اسمعى يا ناستيا ، اسمعى يا ملاكى ! ان جميع الرجال ، من
أولهم الى آخرهم ، عاقون أوباش لا يستحقون حبنا • ولكن لعل هذا
خير من الآخرين ؟ تعال هنا أيها الخرف ! (قالت ذلك وهى تتجه الى
عمى ثم تمسك ذراعه) • قل لى : أصحيح أنك قادر على الحب ؟ أنظر
الى ! اننى أريد أن أوغل فى قرارة عينيك لأرى هل أنت تكذب ! لا ،
لا ، ان عينيه لا تكذبان ! انهما تسطعان حباً • أوه ! ما أسعدنى ! ناستيا ،
صديقتى ، اسمعى ! انك لست غنية • فسأعطيك ثلاثين ألف روبل •
فقبلها ناشدتك الله ! لست فى حاجة اليها ، لست فى حاجة اليها البتة •
سوف يبقى معى مال كثير • لا ، لا ، لا (بهذا صاحت وهى تحرك يدها
بإشارة انكار ، حين رأت ناستيا تهم أن ترفض) • وأنت يا ياجور
ايلتش ، اسكت ! ذلك أمر لا شان لك به ! لا يا ناستيا ، لقد رتبت الأمور
وكفى ! أريد أن أقدم اليك هدية منذ زمن طويل ، ولم أكن أنتظر من
أجل ذلك الا حبك الأول ••• سوف أتأمل سعادتك • سوف تهينينى اذا
رفضت الهدية ! لتبكينى اذا رفضت الهدية ! ناستيا ••• كلا ، كلا ،
كلا ، ثم كلا ! •••

كانت تاتيانا ايفانوفنا تبلغ من النشوة والافتان ، فى تلك الدقيقة
على الأقل ، أن رفض عرضها كان مستحيلاً بل قاسياً • لذلك لم يقرروا
شيئاً على الفور • ثم أسرع تاتيانا ايفانوفنا تقبل الجلالة وبيربلتسين ،
وتقبلنا جميعاً ، واحداً بعد واحد • واقترب باختشاييف منها باحترام عظيم ،
وسألها أن تأذن له بتقبيل يديها وهو يهتف قائلاً :

- اغفرى لى سلوكى الأحمق فى هذا الصباح يا حمامتى ، فأننى لم
أكن أعرف قلبك الذهبى ! ••

فزقزقت تاتيانا ايقانوفنا تقول بلهجة السخر الرصين وهى تلطم
ستييان الكسيفتش على أنفه بقفازاها :

- يا لك من مجنون !

ثم لمسته بثوبها الفخم ومرت خفيفة كالنسمة •
ابتعد الرجل السمين باحترام وتعظيم ليفسح لها مكانا ، وقال وقد
غزته عاطفة رقيقة حنون :

- يا لها من آمنة محترمة !

ثم أسرَّ فى أذنى يقول والفرح يشع فى عينيه :

- أعيد أنف الألماني الى مكانه لصقاً !

سألته :

- أى أنف ؟ أى ألماني ؟

قال :

- اللعبة التى أحضرتها : الألماني الذى يقبل سيدته بينما هى تجفف
دموعها بمنديل • لقد رقبته لى أودوسىما مساء أمس • ومنذ قليل ، حين
عدنا من المطاردة ، أرسلت رجلا على حصان ليأتينى به ؛ سيصل الألماني
بعد برهة • هو تحفة رائعة !

صاح عى يقول وهو فى أوج الفرح :

- فوما ! لقد حققت لى معادتى ، فكيف أستطيع أن أردّ لك هذا

الجميل ؟

أجاب فوما مشعّ الوجه :

- لا تحفل بى يا كولونيل ! ثابر على عدم الاهتمام بى • كن سعيدا بدون فوما •

صاح عمى :

- ذلك أنا الآن مبتهجون كل الابتهاج يا فوما ! ألا ترى أننى أصبحت لا أعرف أين أنا ؟ ان حياتى كلها ودمى كله لن يكفيا للتكفير عن العذاب الذى سيته لك • لذلك ترانى ساكتا لا أحاول حتى أن أعتذر • ولكن اذا احتجت فى يوم من الأيام الى رأسى ، الى حياتى ؛ اذا وجب فى يوم من الأيام أن أرمى بنفسى الى هوة عميقة القرار فى سيلك ، فلن يكون عليك الا أن تصدر أمرك فترى ! ••• لن أزيد على ما قلته شيئاً يا فوما !

قال عمى ذلك وحرّك يده بإشارة عجز ، لشعوره بأنه لا يستطيع أن يتكلم أكثر من ذلك ، وبأنه لا يستطيع أن يعبرَ عما يجيش فى أعماق فكره بمزيد من الكمال وبمزيد من القوة •

- أرايتم الى عزيزنا فوما فومتش ، أى ملاك هو ؟

كذلك ماتت تقول بيرلستين ، شرهةً هى أيضا الى التفتنى بمدائح فوما •

- وصاحت سانا :

- نعم ، نعم ! لم أكن أعرف أنك رجل على هذا الجانب العظيم من الشهامة يا فوما فومتش ، ولقد أخللت بواجب احترامك وتعظيمك واجلالك ، فاغفر لى فوما ، واصفح عنى ، وثق الآن أننى سأحبك من أعماق قلبى •• آه ! ليتك تعلم كم أقدرك وأعتبرك !

واستأنف باختشاياف كلامه فقال :

- نعم يا فوما ، يجب أن تغفر لى أنا أيضا • يا لغبايى ما أشده !
 اننى لم أكن أعرفك ! لا ، لم أكن أعرفك ! فأنت لست عالماً فحسب ، بل
 أنت بطل حقيقى أيضا ! ان منزلى كله فى خدمتك ، تحت تصرفك !
 ما رأيك فى أن تزورنى بعد غد يا صديقى ، مصطحباً الجنرالة والخطيب
 والخطيبة ؟ ومن أيضا ؟ الدار كلها ! الجميع عندى ••• ولأهين لكم
 وجبة من تلك الوجبات التى •• لا •• لا أريد أن أتباهى منذ الآن ••
 حسبى أن أقول انه لن يعوزنا هنالك الا أعشاش سنونو •• أحلف لكم
 بشرفى !

وفى وسط البهجة العامة والفرح الشامل ، دنت ناستيا أيضا من
 فوما فومتش ، فقبلته من أعماق قلبها صامته ، ثم قالت :
 - فوما فومتش •• لأنك المحسن الينا • لقد بلغت من الاحسان الينا
 والتضحية فى سبيلنا أننى لا أدرى كيف أشكر لك صنعك • ولكن الشئ
 الذى أعلمه حق العلم هو أننى ساكون لك أختا هى بين الأخوات أكثرهن
 محبة وأشدهن احتراماً •••

ولم تستطع ناستيا أن تتم كلامها ، فقد خنقتها الدموع • وأوشك
 فوما أن يبكى ، وطبع قبة على رأسها ، ثم قال :

- يا أولادى، يا فلذات قلبى، ألا فلتعيشوا حياة سعيدة ، ألا فلتفتحوا
 كالأزهار ؟ وفى لحظات سعادتكم ، تذكروا أحيانا ذلك المنفى المبعد
 المسكين ! أما أنا فأقول لكم مرة أخرى ان الشقاء أبو الفضيلة* • أحسب
 أن جوجول هو الذى قال هذه العبارة • صحيح أن جوجول كاتب خفيف،
 ولكن له فى بعض الأحيان أفكارا خصبة ! ان المنفى شقاء ! سأضرب بعد
 الآن فى الأرض حاجاً متوكئاً على عصاى • ومن يدرى ؟ فلعلنى بفضل
 شقائى أفعل مزيدا من الخير ! ان هذه الفكرة هى الفكرة الوحيدة التى
 تعزىنى وتواسينى وتسرتنى عني !

صاح عمى مذعورا يقول :

- ولكن الى أين تذهب يا فوما ؟

وارتعش جميع الحضور ، وأسرعوا نحو فوما •

- كيف يمكنني أن أمكث في منزلك بعد الذي فعلته منذ قليل

يا كولونيل ؟

كذلك سأل فوما بوقار متكبر متنفخ •

ولكنهم لم يدعوا له أن يتكلم • فهذه احتجاجات ترتفع من كل حذب وصوب فتطنى على صوته • وأعادوه الى مقعده ، وتوسلوا اليه ، وسكبوا الدموع بين يديه • • وكانوا مستعدين أن يفعلوا كل شيء ابتغاء مرضاته • • طبعى أن فوما لم يكن ينوى أن يترك « هذا المنزل » أكثر مما كان ينوى ذلك بالأمس ، وأنه لم يكن يفكر فى ترك « هذا المنزل » أكثر مما كان يفكر فيه حين أخذ يعزق مربعا من الأرض قد زرع لفتاة • هو الآن واثق أنهم سيحتفظون به فى كثير من الولاء والاحترام ، وأنهم سيتمسكون بتلابيبه ولا يدعون له أن يرحل • ومنذ جعل الجميع سعداء أصبح يعرف خاصة أنهم قد عادوا يعبدونه ، وأن كل واحد منهم سيعمل جاهدا على أن يجنبه أى سوء وأى هم ، وأن كل واحد منهم سيجس بأنه يسعده أكبر السعادة ويشرفه أعظم التشريف أن يقبل منه فوما ذلك • الواقع أن عودته التيسية وخوفه من العاصفة منذ برهة قد جرحا كبرياءه فى الموضع الحساس ، فحضره ذلك مزيدا من الحصى على اظهار مزيد من العجرفة • فانما الشيء الأساسى عنده هو أن ينتهز هذه الفرصة التى لا يخطر ببال أحد فيها أن يتصدى لمعارضته ، من أجل أن يطلب فى الخطابة والوعظ ، ومن أجل أن يتعاطم ويتكبر ، ومن أن يفيض فى اطراء نفسه • انه عاجز عن مقاومة مثل هذا الاعراء • لذلك كان يتزع نفسه

من أولئك الذين يمسون به لصدوه عن الخروج ، ويتوسل اليهم أن يجيئوه بمصا مسافر ، قائلا انه يريد أن يشتري حريته بأى ثمن ، ليتاح له أن يطوف أركان العالم الأربعة ، مرددا أنه لم يرجع الى هذا البيت الذى أوديت فيه كرامته ولطخ شرفه وضرب وأهين ، الا من أجل أن يهب السعادة للجميع ، وكيف يمكنه أن يمكث فى « منزل العقوى » وأن يأكل فيه « وجبات قد تكون دسمة ، ولكنها متبلة بالصفعات » ؟ وارتضى فوما أخيرا أن يقتنع بالبقاء ، فأعيد مرة أخرى الى مقعده . ولكن فصاحته لم تكن قد نفذ معنيها . صاح يقول :

— ما أكثر ما قاسيت هنا من ألم وعذاب ! كم من مرة مدؤوا لى لسانهم ! وأنت نفسك يا كولونيل ، ما أكثر ما استهزأت بى وتهكمت على فى كل ساعة وبجميع الأساليب ، كما يفعل ولد من أولاد الشوارع هو أقل أولاد الشوارع أدبا ؟ نعم يا كولونيل ، اننى أتوقف عند هذا التشبيه ، لأنك ان لم تستهزئ بى ماديا فقد استهزأت بى معنويا ، ورب استهزاء معنوى أقسى اهانة وأمر مذاقا من استهزاء مادى . ناهيك عن الضربات والطمات ! ..

هتف عمى يقول :

— فوما ، فوما ، لا تقتلنى بهذه الذكرى ! لقد سبق أن قلت لك ان دى كله لن يكفى للتكفير عن هذه الاهانة ومحوها . فكن رحيما ، واصفح واغفر ، وابق عندنا متأملا سعادتنا ! ان سعادتنا هى من صنعك يا فوما ! ...

واستأنف فوما يقول :

— ... أريد أن أحب ، أن أحب انسانا ... وليس يوهب لى أحد أحبه ؟ اننى أُمِنُ من حب الانسان ، يُحال بينى وبينه ، يُنتزع منى .

هبوا لى الانسان الذى أستطيع أن أحبه • أين هو ؟ أين يختبئ ؟ لقد فعلت كما فعل ديوجين حين حمل مصباحه باحثا عنه ، فطلت طوال حياتى أبحث عنه ثم لا أجده ، وسوف أظل عاجزاً عن حب أحد ما لم أجد ذلك الانسان ! ويل لمن جعلنى أكره البشر ! اننى أصرخ قائلاً : هبوا لى الانسان الذى يمكن أن أحبه ؟ فإذا هم يدفعون الىّ بفلالى ! أنا أحب فلالى ؟ أنا أستطيع أن أحبه ؟ هل أقدر أن أحبه ولو أردت ؟ لا ! لماذا ؟ لأن جميع الناس على هذه الأرض هم فلالى أو أشباه لفلالى ! لا أريد فلالى ! اننى أكرهه ، اننى أمقته ، اننى أبصق على فلالى ، اننى أدوسه • لو خُيِّرْتُ بين أشمداى * وفلالى لاخترت أشمداى • تعال ، تعال الى هنا يا جلادى الأبدى ، تعال الى هنا (كذلك صرخ فوما مخاطباً فلالى على حين فجأة ، وكان فلالى واقفاً على رؤوس الاصابع ، وراء الجمهور المحتشد حول فوما فومتش ، وقد لاحت فى وجهه براءة عظيمة). تعال الى هنا ! سوف أريك يا كولونيل (هكذا صاح فوما مرة أخرى وهو يشد فجأة يد فلالى الذى أصبح كالمجنون خوفاً) ، سوف أريك يا كولونيل صدق ماقلته عن الاستهزاءات والسخريات التى تحملتها هنا . تكلم يا فلالى ، قل الحقيقة ، اقصص ما رأيته فى منامك هذه الليلة ! سترى يا كولونيل ، سترى ثمرات ما غرست ! هيا يا فلالى ، تكلم ! اننى مصغ اليك !

ارتجف الصبى المسكين وألقى حوله نظرات زائفة • ولكن لم يتصدّ لنجدته أحد ، فان جميع الحضور كانوا يرتشون خوفاً وينظرون جوابه •

— ماذا يا فلالى ؟ أنا منتظر !

ولكن فلالى ، بدلا من أن يجيب ، ففر فاه كبيراً ، وجأر كما يجأر عجل يذبح •

- هل ترى هذا العناد يا كولونيل ؟ هل تظن هذا العناد طبعيا ؟
يا فالالى ، أخطبتك آخر مرة ، وأسألك ماذا رأيت فى المنام اليوم ؟

- رأيت ...

همس يقول له باختشاياف ملقناً :

- قل له انك حلمت بى •

وقال ياجفكين يلقنه من الطرف الآخر :

- قل له انك حلمت بفضائله ...

ألقى فالالى الى ملقنيه نظرة ساذجة ، ثم زأر يقول وهو يقذف بسيل
من دموع مرة :

- حلمت بفضاء • • • حلمت بالبقرة البيضاء ! • • •

فصاح الجميع صيحة واحدة • ولكن فوما فومتش كان قد قرر أن
يبرهن على رفعة ولينه وهواته • قال :

- أرى أنك صريح على الأقل • وهذه الصراحة لا يقع عليها المرء
لدى جميع الناس • كان الله فى رعايتك ! اذا كنت تسخر منى بهذا الحلم
عامداً ، وكنت تتبع فى ذلك نصيحة شخص آخر ، فليعاقبك الله ، أنت
ومن ينصحونك ! أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، فاننى أحمد لك صراحتك ،
لأننى تعودت أن أحسب حساب النفس المخلوقة على صورة الله حتى فى
أحقر عباده ! اننى أغفر لك وأعفو عنك يا فالالى ! عانقونى يا أولادى !
سوف أبقى ! • •

صاح كل واحد مبتهجاً مقتناً :

- سوف يبقى !

— أبقى وأغفر ! يا كولونيل ، اعط فالالى قطعة من سكر • لا أريد أن يبكى فى هذا اليوم الذى تعمه السعادة !

طبعى أن يعجب الجميع بهذا الكرم وهذه السماحة • انظروا فيم يفكر الآن ! ومن أجل من ؟ من أجل فالالى ! وأسرع عمى يريد أن يطيع أمر فوما باعطاء فالالى قطعة من سكر ، فاذا هو أمام طبق من سكر فى يدى براسكوفى اينتشنا ••• لا يدرى الا الله من أين جاءت به •• أراد عمى أن يتناول بأصابعه المرتجفة قطعتين من سكر ، ثم ثلاثا ، ولكن قطع السكر أفلتت منه ؛ فلما رأى أخيرا أنه فى حالة يعجز معها عن فعل أى شىء من فرط انفعاله ، لم يسعه الا أن يسكب طبق السكر كله فى قميص فالالى ، وهو يصيح قائلا :

— خذ يا فالالى ، هذا من أجل عيد اليوم ، مكافأة لك على صراحتك !
نعم مكافأة لك على صراحتك (كذلك أضاف عمى يقول جادا وقورا :
رصينا) •

هتف فيدوبلياسوف وقد ظهر عند الباب ، هتف يعلن عن وصول زائر ، قائلا :

— السيد كوروفكين !

حدث شىء من اضطراب • لا شك أن زيارة كوروفكين قد جاءت فى غير أوانها •

وألقى كل واحد من الجمع على عمى نظرة تساؤل •
هتف عمى يقول بشىء من التفتخ :
— كوروفكين ! ألا انتى سعيد بزيارته ! •••

والنتف نحو فوما بنظرة وجلة • ثم أردف يقول :

- ومع ذلك لا أدري هل نستطيع أن ندخله علينا في مثل هذه اللحظة • ما رأيك يا فوما ؟

أجاب فوما متعاطفا :

- لا ضير ! لا ضير ••• في وسعه هو أيضا أن يشارك في هذه الفرحة العامة !

الخلاصة أن فوما قد برهن على مزاج حلو ملائكي •

قال فيدوبلياسوف :

- أسمح لنفسى بأن ألفت النظر باحترام الى أن كوروفكين ليس في حالته الطبيعية •

فصاح عمى :

- ما هذا الكلام الذى تهرف به ؟

- هى الحقيقة بعينها يا سيدى • ان كوروفكين سكران •

ولكن عمى عرف كلمة السر قبل أن يتسع وقته لفتح فمه بكلام ، وقبل أن يحمر وجهه خجلا ، وقبل أن يخاف ويهلع ، وقبل أن يضطرب أشد الاضطراب • ذلك أن كوروفكين بنفسه قد ظهر على العتبة ، فأقصى فيدوبلياسوف من طريقه ، وبدأ أمام الحشد المذهول دهشة •

انه رجل مربوع القامة ، قوى البنية ، فى نحو الأربعين من عمره ، له شعر قاتم قد وخطه الشيب ، مقصوص قصة الفرشاة ، على وجه مدور محمر ، وعينين صغيرتين محتقتين دما • ويتألف زيه الغريب من ربطة عنق عالية من سيب ، مشدودة الى الوراء بدبوس ، ومن ردتجوت مجعد رث ، يغطي زغب وأقدار ، متمزق تمزقا قويا تحت الابطين ، ومن سروال عجيب لا يتصوره العقل ، وقبعة متسخة اتساخا لا يتخيله خيال كان

يمسكها بيده • فبعد أن تقدم الى وسط الغرفة وقف مترنحا ، وحك رأس
أنفه ذاهلا ذهول سكران ، ثم انشقت شفاته بابتسامة بطيئة •

– معذرة سيداتي وسادتي ، أنا ••• مطبوخ قليلا •••

قال ذلك ونقر قذاله بيده •

وما لبثت الجذالة أن اصطنعت هيئة من أهينت كرامتها • وأخذ
فوما ، وهو جالس على مقعده ، يروّز بنظرة هذا الزائر الشاذ ساخرا •
وتأمل به باحتشاياف بقلق يخالطه مع ذلك شيء مع الشفقة والعطف • أما
عمى فقد كان اضطرابه لا يُصدّق • ان منظر كوروفكين يعذبه عذاب
شهيد •

بدأ عمى يقول :

– كوروفكين ، اسمع ! ••

فقاطعه كوروفكين قائلا :

– دقيقة واحدة •• اننى ألتمس معونتك كابن من أبناء الطبيعة •••
ولكن ماذا أرى ؟ ان ههنا سيدات ••• لماذا لم تنبهنى الى أن هنالك سيدات
أيها الوغد (كذلك قال وهو يلقي على عمى نظرة مشفوعة بابتسامة
تواطؤ) ••• لا ضير ••• لا داعى الى الخجل ••• سوف أتقدم الى
الجنس اللطيف وفقاً لقواعد الادب •• أيتها السيدات الفاتئات (كذلك
أخذ يجمعهم محركا لسانه الرخو بيجهد كبير ، متوقفا عند كل مقطع من
مقاطع ألفاظه) ••• ان أمامكن انسانا تعيسا شقيا قد ••• قد ••• الى
آخره ••• البقية لا تقال ••• أيها الموسيقيون هلموا فاعزفوا لحن
بولكا !

سأل ميزنتشيكوف صاحبنا كوروفكين قائلا فى هدوء :

- ألا تريد أن تستريح قليلا ؟

- أستريح ؟ أتريد أن تهيننى ؟

- أبدا ... لكن المرء يحتاج الى الراحة حين يصل من سفر ...
قال كولوفكين مستاءً ممتعضا :

- لا ... أظن أننى شربت ؟ لا ... أنا لم أشرب شيئا ... ليست
هذه هى المسألة ! ثم قل لى : أين يمكن أن ينام المرء فى هذا المنزل ؟
- تعال ... سأقودك الى حيث تنام .

- أين ؟ فى العنبر ؟ لا يا صديقى ... لا تعمل على هذا ! لقد
وصلت من عنبر ... ولكن قدنى مع ذلك ... لماذا لا يتبع المرء انسانا
شريفا ؟ لست فى حاجة الى مخدة . من كان عسكريا ففى وسعه الاستغناء
عن المخدات . هـى لى ديوانا يا صديقى ، ديوانا صغيرا ... واسمع
أيضا : (قال ذلك وهو يجمد فى مكانه) أرى انك رجل شهيم ... فجئنى
بقليل من ال ... هل فهمت ؟ كأس صغير يذهب الحزن والسأم ...
كأس صغير واحد ، لا لشيء الا تبديد الحزن والسأم ...

فأجابه ميزنتشيكوف :

- حاضر ... حاضر ...

- عظيم ! ولكن انتظر ... يجب على أن أودع ... وداعا سيداتى
انسانى ! الحق أنكن قد طعتن قلبى ... ولكن كفى ! سنشرح الأمور
فيما بعد ... أيقظونى حين يُهيا كل شيء ... بل قبل ذلك بخمس
دقائق على الأقل . لا تبدأوا بدونى ، هل فهمتم ؟ اياكم أن تبدأوا
بدونى !

وغاب السكران المازح سائرا وراء ميزنتشيكوف .

صمت الجميع • لم تبدد الدهشة الا بعد لأى • وأخيرا راح فوما
يضحك بصوت خافت ، قليلا قليلا ، على هون ••• ثم اتسع ضحكه ، ثم
أصبح قهقهة مجلجلة • فلما رأت الجنرالة ذلك أسرع تضحك هي
أيضا ، دون أن تفقد تعبير وجهها عن الاستياء والامتناع • وانطلقت
ضحكات من كل حدب وصوب على غير ارادة • وكان عمى واقفا وكأن
الذهول قد صعقه صعقا ، وكان محمر الوجه من فرط الخجل
والاضطراب حتى ليكاد يبكى ، ولبت زمنا لا يستطيع أن ينطق بكلمة •

قال أخيرا :

- رباه ! من ذا الذى كان يمكن أن يخطر بباله هذا ؟ ومع ذلك ،
يمكن أن يقع هذا لكل انسان • فوما ! أؤكد لك أنه أشرف رجل ،
وأنبئ رجل ، وأنه على جانب كبير من العلم ••• نعم يا فوما ، لترين
هذا فيما بعد •

أجاب فوما يقول وهو يكاد يخنتق من شدة الضحك :

- رأيت رأيت ••• رجل رفيع الثقافة ، أليس كذلك ؟ رفيع
الثقافة جدا !

قال ياجفكين يدس كلامه دسا بصوت خافت :

- وما أسلم تفكيره فى شئون السكك الحديدية ؟

قال عمى محتجا :

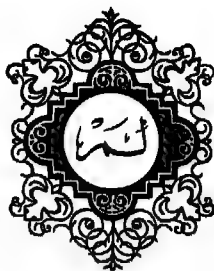
- فوما !

غير أن ضحكا شاملا طنى على كلامه • وبلغ ضحك فوما من القوة
أن عمى أخذ يضحك هو أيضا آخر الأمر •

وصاح يقول متخففا :

- طيب ... لا بأس ... أنت سمح جواد يا فوما ... ان لك
قلبا كبيرا ... لقد حققت سعادتي ... وستغفر لكوروفكين أيضا *
كانت ناستيا وحدها لا تضحك * انها تنظر الى خطيئها بعينين كأنهما
تقولان : « ما أجملك ! ما أطيبك ! ألا ان قلبك من ذهب ! ليتك تعلم كم
أحبك ! » *

خاتمة



يكن نجاح فوما نجاحاً كاملاً فحسب ، بل كان نجاحاً حاسماً أيضاً . فبدونه ما كان ليدبر أمر ، وما كانت لتسوى قضية ؛ وهذا الواقع الذي لا مراء فيه قطع الطريق على جميع الشكوك ، وعلى جميع الاعتراضات . ان ما يشعر به أولئك الذين جعلهم سعداء ، من شكر وامتنان وعرفان بالجميل ، ليس له حدود . ان عمى وناستيا يحملا نبي على السكوت بإشارات لوم وتأنيب متى سمحت لنفسى بأيسر تهكم على الطريقة التى توصل بها فوما فومتش الى تسهيل زواجهما . وان ساشا تصيح قائلة : « ما أطيب فوما فومتش وما أنبله ! لأحيكن له وسادة جميلة ! » ، وانها لتعيرنى بأن قلبى قاس هذه القسوة كلها . والمؤمن الجديد بفوما فومتش ، أعنى ستيان ألكسيفتش ، يبدو عليه أنه يهم أن يذبحنى ذبحاً حين أظهر أمامه شيئاً ، ولو يسيراً ، من قلة الاحترام لفوما فومتش . انه يتبعه الآن كما يتبع كلب صاحبه ، وينظر اليه نظرة عابد الى معبوده ، ويصيح لدى كل كلمة يسمعا منه قائلاً : « لأنت أقدر انسان يا فوما ! انك عالم عظيم يا فوما ! » . أما ياجفكين فقد أصبح فى السماء السابعة ! كان يعرف منذ زمن طويل أن ناستيا قد أدارت رأس عمى ، فكان لا يحلم لا ليلاً ولا نهارة الا فى الوسيلة التى يزوجه بها ابنته . لقد جعل الأمر يطول ويطول ، ثم لم يعدل الا حين أصبح من المستحيل الا أن يعدل . وفى أثناء ذلك دبر فوما الأمر وسواء . لعل ياجفكين ، رغم اغتباطه وافتائه ،

كان يدرك ما الذى يجب عليه أن يرضى به • انه يعرف صاحبه فوما معرفة تامة ، فلا شك أنه كان يقول لنفسه ان فوما فومتش سيسطر على هذا المنزل الى الأبد ، وان طغيانه فيه لن ينتهى • المؤلف ان أشد الناس عجرفة وأكثرهم نزوة يرقون شيئا بعد شئ • حين تتحقق رغباتهم كاملة • ولم تكن هذه حال فوما فومتش : ان غطرسته تتفاقم متى حقق نجاحا • وما هو ذا ، قبل الجلوس الى المائدة لتناول وجبة الطعام ، بعد أن بدل ملابسه الداخلية وارتدى كساء جديدا ، هاهو ذا يتربع على مقعده ويستدعى عمى ، ويلقى عليه خطبة وعظ أخرى على مرأى ومسمع من الأسرة كلها •

بدأ فوما يقول :

— يا كولونيل ، انك ستزوج ، فهل تعرف الواجبات التى تقع على ...

وهلم جرا • تخيلوا عشر صفحات من حجم « جريدة المساجلات » مطبوعة بأحرف صغيرة ، زاخرة بأغرب الغرائب • ذلك كان خطاب فوما فومتش • لم يشر الخطاب تقريبا الى الواجبات التى تقع على عاتق الزوج الجديد • وانما كان اطراء وقحا ومديحا سفيها لما يتصف به فوما فومتش وحده من رقة الشعور وعظمة النفس وشجاعة القلب ، والاخلاص والتفانى والتزهد عن المنفعة • كان الجميع جائعين أشد الجوع ، وكانوا يحترقون رغبة فى الانتقال الى المائدة • ولكن ما كان لأحد أن يخطر بباله أن يحتاج • سمعوا خطبة فوما فومتش حتى النهاية باجلال وتعظيم • وحتى باختشاييف الذى يشتهى الاكل كالغول لبث جالسا لا يتحرك ، مظهرها كل الاحترام • فلما شبع فوما فومتش من فصاحته وبلاغته ، ارتضى أخيرا أن يتمتع ، فظل يشرب أثناء العشاء حتى ثمل ، وأصبح يقترح انتخابا غريبة •

ولقد روى نكتا وقذف بمزاحات تشتمل على غمر ولز في حق الخاطئين •
فصفق له الجميع وطفقوا يضحكون • غير أن بعض غمزاته ولمزاته بلغت
من قلة الحشمة أن باختشايه احمر خجلا وحياء • وفي النهاية وثبت
ناستيا عن المائدة وولت هاربة • وأصبح فوما من هربها في مرج لا يوصف
•• ولكنه ما لبث أن تاب الى نفسه وذكر مزايا الفتاة في بضع كلمات
منتقاة ، ثم اقترح نجبا على صحة الغائبة • فاذا بمعنى الذي كان في الدقيقة
السابقة مضطربا متألما ، يصبح على حين فجأة مستعدا لأن يقبل فوما
فومتش • ويجب أن أذكر أن الخطيب والخطيبة أصبح كل منهما يشعر
تجاه صاحبه بحرج من هذه السعادة التي تغمرهما • لقد لاحظت أنهما
منذ اللحظة التي بوركت فيها خطبتهما لم يتبادلا كلمة واحدة ، حتى لقد
أصبحا يتحاشيان أن ينظر أحدهما الى الآخر • فلما نهض الطاعمون عن
المائدة غاب عمى • ومضيت أنا أبحت عنه ، فمررت بالسطحة ، فرأيت
فوما هنالك يرشف قهوته مفيضا في الكلام تلك الافاضة التي يثيرها الافراط
في الشراب ، ولم يبق حوله الا ياجفكين وباختشايه وميزتشيكوف •
توقفت لأسمع ما يقوله فوما • كان فوما يصيح متسائلا :

- لماذا تروننى مستعدا لأن ارتقى المحرقة في سبيل مبادئى التي
أعتقد بها ؟ ولماذا تعجزون أتم جميعا عن فعل ذلك ؟ لماذا ؟
لماذا ؟

فقال له ياجفكين ساخرا :

- فيم المحرقة يا فوما ؟ علام المحرقة ؟ المحرقة أولا تحدث ألما ؟
والمحرقة ثانيا تحرقك ، فماذا يبقى منك بعد ذلك ؟

- ماذا يبقى منى ؟ يبقى رماد مقدس • ولكن أننى لك أن تفهمنى ؟
أننى لك أن تقدرنى ؟ انكم ، معشر الجهلة ، لا ترون العظيمة الا في

رجال مثل قيصر أو اسكندر! وما هي الأعمال التي يقوم بها رجال كهؤلاء
القيصرة؟ من هم الذين حقق لهم هؤلاء القياصرة السعادة؟ بأي شيء
يستطيع أن يتباهى الاسكندر وأن يفخر؟ بأنه فتح الأرض كلها؟ ألا
فاعطوني الجحافل التي كان يملكها تروا فتوحاتي وفتوحاتك أيضا ،
وفتوحاتكم جميعا ! لقد قتل هو كليتوس* الفاضل ، أما أنا فلم أقتل اى
كليتوس فاضل ! ... لقد كان هو صيبا غرا ، كان انسانا لا قيمة له !
كان ينبغي أن يجلد بدلا من أن يوهب له المجد الخالد ... وكذلك
قيصر ! ...

- وفّر قيصر على الأقل يا فوما •

- لا ... لا رحمة بالحمقى الأغبياء •

كذلك صاح فوما •

أمّن ستيان ألكسيفتش يقول بحرارة ، حرارة مردها الى الافراط
فى الشراب أيضا :

- أنت على حق ! لا رحمة بالحمقى الأغبياء ! لا رحمة بهم •
هؤلاء جميعا مذنبون ، هؤلاء جميعا خذاريق يدورون على قدم ! فبحمهم
الله من آكلي مقائق ! ان منهم واحدا قد أراد أخيرا أن يهب منحة دراسية!
ما قيمة منحة دراسية ؟ صحيح أننى لا أفهم ما معنى المنحة الدراسية ،
ولكننى أراهن على أنها دناءة من الدناءات ... لأضعنّ يدي فى النار ان
لم تكن كذلك ! وما قولكم فى ذلك الآخر الذى جاء منذ حين مترنحا
يطلب كأسا من خمرة الروم فى مجتمع من عليه القوم ! أنا لا أرى ضيراً
فى الشراب ، فليشرب المرء ما شاء له هواه أن يشرب ، ولكن شريطة أن
لا يتجاوز الحدود ... ان فى وسع المرء دائما أن يستأنف الشرب ...

لا ... لا رحمة ولا شفقة ! هؤلاء جميعا أوغاد ! أنت وحدك عالم
يا قوما ...

هكذا كان باختشاييف : متى وهب نفسه لانسان ، وهبها له كاملة ،
بغير غرض ميت ، وبدون أى تحفظ •

عثرت على عمى فى الحديقة ، قرب الغدير ، فى الموضع المنعزل •
كان مع ناستيا • فلما لمحتنى ناستيا خجلت ، فاختفت فى الادغال مارقة
مروق السهم • وهبَّ عمى الى لقائى مشرق الوجه منبسط الأسارير :
كانت عيناه تفيضان بدموع الفرح • تناول يدى ، وضغطهما ضغطا شديدا
يكاد يحطمهما • قال لى :

- صديقى العزيز ، لما أستطع بعد أن أكون واثقا من سعادتى ...
لا ولا ناستيا ... اتنا لا نملك الا ان ندهش ونستغرب ، وأن نحمد الله
ونشكر له نعماءه • ان ناستيا لم تفعل شيئا غير البكاء • تصور أنتى حتى
هذه اللحظة أشعر بأننى مضطرب كل الاضطراب ، أشعر بأننى طائش
اللب ضائع الصواب ، أصدق ولا أصدق ! ... لماذا أستحق مثل هذه
السعادة ؟ لماذا ؟ ماذا صنعت حتى أكون جديرا بها ؟

- اذا كان ثمة انسان يستحق السعادة فهو أنت يا عمى ! ما رأيت
فى حياتى انسانا له ما لك من شرف ونبل وطيبة ...

كذلك قلت فى حرارة • فأجاب عمى بشئ من الحسرة والأسف :

- لا يا بنى سرجى ، هذه مبالغة • والمصيبة أننا طيبون مع الناس
(أتكلم عنى وحدى) حين يكون الناس طيبون معنا ! لقد تحدثنا أنا
وناستيا فى هذا الأمر منذ هنيهة • هل تصدق ؟ لطالما سطع قوما أمام
عينى ، ومع ذلك يخيل الى أننى الى هذا اليوم لم أمحضه ثقة كاملة ،

حتى حين كنت أحاول اقناعك بتفوقه • نعم ، حتى أمس ، كان الشك ما يزال يراودنى حين رفض هديتى ! اتنى اعترف بذلك مستحييا خجلا!
الا أن قلبى لينتفض حين أتذكر ما فعلته فى هذا الصباح • لقد ذهب صوابى ، وطاش لبى ... حين تكلم عن ناستيا أحسست أن قلبى يطمئن ... ولم أفهم الى أين كان يريد أن يصل من ذلك، فوثبت عليه كالوحش الكاسر •

— ولم لا يا عمى ؟ يخيّل الىّ أن ذلك كان أمرا طبيعيا •

أوقفنى عمى بإشارة من يده •

— لا ، لا ، يا صديقى ، لا تقل هذا ! كل نىء انما يرجع الى أن طبيعتى فاسدة ، الى اتنى أنانى مغرور ذو كبرياء ، عاجز عن كيح جماح أهوائى • تلك أقوال فوما نفسه (بماذا أستطيع أن أجيب عن هذا ؟)

وتابع عمى يقول بعاطفة عميقة :

— أنت لا تعرف يا بنى سرجى كم مرة كنت حائقا بغير رحمة ، ظلما متكبرا ... وليس ذلك مع فوما وحده ! الآن أتذكر هذا كله فيخقننى الشعور بالعار من أننى لم أصنع شيئا يجعلنى جديرا بهذه السعادة • لقد قالت ناستيا هذا نفسه عن نفسها منذ هنية ، ولكننى لا أرى فى أى أمر كانت آئمة • ما ناستيا بامرأة بل هى ملاك • قالت اننا مدينون لله بدين كبير ، وان علينا الآن أن نعمل جاهدين على اصلاح نفسينا وعلى فعل خير كثير ... آه ... ليتك سمعت ما كان فى أقوالها من حرارة وجمال • رباه ما أروعها من فتاة !

وقطع الانفعال صوت عمى • ثم استأنف يقول بعد دقيقة :

— لقد قررنا يا صديقى العزيز أن ندلل ، ما وسعنا التدليل ، فوما

وأسمى وتأتينا ايفانوفنا ! آه ... تأتينا ايفانوفنا ! يا لهذه المخلوقة ماأبئها !
آه ... ما أكبر ائسى فى حق الجميع ! وفى حقت أيضا ! آه ... لو خطر
ببال أحد الآن أن يمس تأتينا ايفانوفنا ، فويل له ! ... ويجب أن نهى
شيئا لصاحبنا ميزتشيكوف ...

— نعم يا عمى ، لقد غيرت رأيى فى تأتينا ايفانوفنا . يستحيل على
المرء أن لا يقدرها ، وأن لا يقلق عليها !

أردف عمى يقول بحرارة :

— تماما ، تماما ... يستحيل على المرء أن لا يقدرها . واليك مثلا
آخر : كوروفكين ! لعلك تريد أن تسخر منه وأن تتهمك عليه (أضاف
عمى ذلك وهو يرمقنى بنظرة خجلى) . لقد استهزأنا به جميعا منذ
فيل . ولكننى أرى أن سلوكنا هذا أمر لا يغتفر . ربما كان هذا
الرجل أبئل الناس وأشرفهم قاطبة ... ولكن القدر أصابه . لقد قاسى
آلما كثيرة ، ونزلت به مصائب جمة ... أنت لا تصدق هذا الكلام مع
أنه قد يكون هو الحقيقة بعينها كاملة دقيقة ...

— لماذا تظن أننى لا أصدق هذا الكلام يا عمى ؟

قلت هذا وأخذت أفيض فى الحديث عن الأشخاص الذين زلت
أقدامهم وسقطوا ويمكن أن يشعروا رغم ذلك بأبئل العواطف الانسانية؛
وفى الحديث عن أغوار النفس الانسانية التى لا يسبر لها قرار ، وعن
الائم الذى يرتكبه المرء حين يحتقر أولئك الذين يسقطون ، بدلا من أن
يهب الى نجدتهم وأن يقلبهم من عثرتهم ، وعن خطأ آرائنا الأخلاقية حين
نريد أن نقيس الخير والشر ... الخلاصة أننى بلغت من التهاب الحامسة
فى نفسى أننى مضيت الى حد التحدث اليه عن المدرسة « الطبيعية » * ،
وختمت كلامى بانشاد أبيات الشعر الشهيرة :

حين تطفى ظلمات الخطأ ...

فكان من شأن ذلك أن أثار حماسة عمى ، فإذا هو يندفع قائلا لى :
 - صديقى ، صديقى العزيز ، لقد فهمتني حق الفهم ، وعبرت عما
 كنت أود أن أعبر عنه ... عبرت أنت عنه خيرا مما كان فى وسعى أن
 أفعل . نعم ، هذه هى الحقيقة ! رياه ! لماذا كان الانسان خبيثا شريرا ؟
 لماذا تصرف تصرفا سيئا ذلك السوء كله ، مع أن المرء يشعر بسعادة كبيرة
 حين يكون خيِّرا ، ومع أن الخير شيء جميل غاية الجمال ؟ لقد قالت
 ناستيا هذا الشيء نفسه منذ هنية ! ...

ثم أضاف عمى يقول وهو ينظر الى ما حولنا :

- انظر ما أجمل هذا الركن من الأرض ! انظر ما أروع الطبيعة !
 انظر ما أفتن هذه اللوحة ! وهذه الشجرة ، هل تراها ؟ ما من رجل
 يستطيع أن يحيطها بذراعيه ! يا للنسغ الذى يترقرق فيها ، يا للأوراق
 الخضراء التى تتوجها ! وهذه الشمس ... هل ترى ما أجملها ! ان كل
 شيء فرح ، ان كل شيء يبدو كأنه غُسل وتجدد بعد العاصفة ! يجب أن
 نقدر أن الأشجار تفهم وتدرك على طريقتها الخاصة ، وأنها تشعر وتحس ،
 وأنها تستمتع بالحياة ... نعم ، لم لا يكون هذا الكلام صحيحا صادقا ؟
 هه ؟ ما رأيك أنت ؟

- ذلك جائز جدا يا عمى ... على طريقتها الخاصة طبعاً ...

- طبعاً طبعاً ... على طريقتها الخاصة ... ما أعظم الخالق !
 نعم ، ما أعظم الخالق ! ولكن قل لى : لا بد أنك تتذكر هذه الحديقة
 جيدا يا سرجى . لقد لعبت فيها وطفقت بها طويلا وعرضا أيام طفولتك !
 اننى ما أزال أراك وأنت صبي صغير ... (أضاف عمى ذلك وهو يرمقنى
 بنظرات تفيض حبا وسعادة) . لم تكن تُمنع من الذهاب وحدك الا الى

ضفة الغدير ؟ هل تتذكر ؟ وفي ذات مساء ، نادتك كاتيا ، فقيدتي الغالية ، وأخذت تلاطفك ... كنت قد عدت كثيرا في الحديقة ، فاصطبغ وجهك بلون الورد . ما كان أجمل شعرك أيامذاك ! كان زاهيا متموجا . لعبت كاتيا طويلاً بضفائك ، ثم قالت : « آه ... ما أحسن ما صنعت اذ جئت بهذا اليتيم الينا » . هل تتذكر ؟

– قليلا يا عمى .

– كان ذلك عند هبوط المساء ، وكانت الشمس تلقي ضوءها عليكما كليكما . وكنت أنا جالسا أدخن في أحد الأركان وأنظر اليكما ... سوف أزورها كل شهر يا بني سرجي ، في قبرها بالمدينة (أضاف يقول ذلك بصوت أجش يحس فيه السامع ارتجاج العبرات المكبوحة) . لقد تحدثت في هذا الأمر مع ناستيا ؟ فقالت لي ناستيا اننا سنذهب نزارها معا في المقبرة ...

وصمت عمى ليكبج انفعاله .

وفي تلك اللحظة دنا منا فيدوبلياسوف .

صاح عمى مضطربا :

– فيدوبلياسوف ! هل فوما هو الذي أرسلك ؟

– بل جئت من تلقاء نفسي .

– طيب ، طيب جدا اذن ! سوف نعرف ماذا صار اليه كوروفكين .

كنت أريد أن أسأل عنه منذ قليل ... هل تعلم يا سرجي ؟ لقد أرسلت فيدوبلياسوف يرى ما يجري ! ايه فيدوبلياسوف ! الى أين وصلنا ؟

قال فيدوبلياسوف :

– أسمح لنفسي بأن أذكرك أنك تفضلت أمس فظرت في رجائي

إليك أن تمنى على بحمايتك السامية لى من الاهانات التى تلحق بى كل
يوم ***

– أترك تعود تكلمنى مرة أخرى فى أمر اسمك ؟
كذلك صاح عمى مروءة •
– ذلك أمر لا بد منه • انهم يهينونى بغير انقطاع ***
– آه *** فيدوبلياسوف ، فيدوبلياسوف ! ماذا يجب أن أصنع
بك ؟

قال عمى ذلك فى شجن وأسى ، ثم أردف يسأله :
– طيب ، ما هى الاهانات التى تشكو منها ؟ لتفقدن عقلك اذا أنت
بقيت على هذه الحال ، ولنضطررن الى وضعك مع المجانين !
أجاب فيدوبلياسوف يقول :
– أعتقد اننى ما زلت أملك عقلى كاملا •
فقال عمى مقاطعا :

– طيب ، طيب *** ان ما أقوله يا بنى انما هو فى سبيل خيرك •
أنا لا أحاول أن أولئك • اشرح لى هذه الاهانات التى تشير اليها • أراهن
منذ الآن على أنه ليس هناك ما يستحق أن تضرب من أجله قطة •
– يستحيل الاستمرار على هذه الحال •
– بسبب من ؟

– بسبب الجميع ، ولا سيما ماترونا • ان حياتى مسممة بسببها •
ان جميع الأشخاص الممتازين الذين رأونى منذ طفولتى رددوا أننى
أشبه الأجانب ، ولا سيما بملامح وجهى يا سيدى • ومن أجل هذا
ياسيدى انما أصبحت حياتى الآن لا تطاق • فما ان أمر قرب هذا أو ذاك

حتى تنطلق ورائي صيحات تشتمل على جميع أنواع القول الهاجر ...
الصبيان الصغار أنفسهم ، الصبيان الصغار الذين يستحقون أن
يضربوا على أفقيتهم ، يعاملونني بوقاحة ... منذ قليل ، قبل أن أجيء الى
هنا كانوا ما يزالون يصيحون ... لقد نفذ صبري يا سيدى • أسبغ على
حمايتك !

– آه ... فيدوبلياسوف ... قل لى : بماذا يصيحون ؟ لا شك
أنهم يصيحون بكلام تافه لا يستحق الالتفات اليه •
– كلام لا حشمة فيه يا سيدى •
– قل لى ما هو هذا الكلام مع ذلك •
– أستحي •
– بل قل •
– هم يصيحون :

بلع جرشكا الهولاندى

لفنا ضخمًا يزن رطلا

– هه ! ظننت أنهم صاحوا لا يدرى الا الله بماذا ! لا تبال بصياحهم
يا فيدوبلياسوف ، وامض فى طريقك دون أن تلوى على شيء !
– حاولت أن لا أبالى ، ولكن ذلك لم يمنعهم من التماذى ...
قلت :

– اسمع يا عمى • هو يشكو من أنه أصبح لا يطبق الحياة هنا •
فارسله زمنا الى موسكو ، الى أستاذه فى الخط • أظن أنك قلت لى انه
عمل عند خطاط ، أليس كذلك ؟
– من سوء الحظ يا عزيزى أن ذلك الخطاط أيضا قد انتهى نهاية
سيئة !

— كيف ؟

أجاب فيدوبلياسوف :

— اقترف جريمة الاستيلاء على مال غيره ، فجنى من ذلك ، رغم موهبته ، أن أودع السجن ، حيث يقضى بقية عمره •

قال عمى :

— طيب ، طيب يا فيدوبلياسوف ! هدىء روعك الآن ، وسأسوى هذا الأمر كله • أعددك بذلك ! ولكن ماذا يفعل كوروفكين ؟ أما يزال نائما ؟

— أبدا ... لقد أراد أن يرحل ، وجئت أنبئك بذلك •

— أن يرحل ؟ ماذا تقول ؟ وهل تركته ينصرف ؟

كذلك صرخ عمى •

فأجابه فيدوبلياسوف :

— سمحت له أن ينصرف رافقةً به ! كان منظره يثير الشفقة في القلب • فانه حين استيقظ من نومه تذكر كل ما جرى ، فأخذ يعول ويطلق صرخات أليمة ، ويضرب رأسه بقبضة يده •
— أخذ يعول ؟

— لكى أستعمل تعابير أقرب الى الاحترام أقول انه أخذ يئن أنواعا من الأئين • كان يصرخ متسائلا : « كيف يمكننى أن أمثل الآن أمام الجنس اللطيف ؟ » • وأضاف بعد ذلك يقول : « لست جديرا بأن أكون انسانا » • وقد قال ذلك كله بحزن شديد وكلمات منتقاة !

— ألم أقل لك يا سرجى ؟ ان له قلبا حساسا مرهفا • ولكن لماذا تركته يذهب يا فيدوبلياسوف مع أنتى أمرتك صراحةً بأن تحتفظ به ؟
يا رب ! ...

— اذا كنت قد تركته يذهب ، فما كان ذلك منى الا شفقة به
ورحمة • لقد رجائى أن لا أقول لأحد شيئا • وكان حوزيه قد أطعم
الحصان وقرنه الى العربى • أما عن المبلغ الذى أقرضته اياه منذ ثلاثة
أيام ، فقد أمرنى بأن أشكره لك باحترام ، وأن أبلغك انه سيرد اليك
دينك فى بريد قريب •

سألت عمى :

— ما هو هذا المبلغ يا عمى ؟

فأجاب فيدوبلياسوف :

— تكلم عن خمسة وعشرين روبلا •

— هو مبلغ أقرضته اياه فى المحطة • كان يعوزه هذا المبلغ ليدفع
ما عليه • سيرده الى فى أول بريد دون أى شك • قل لى يا سرجى :
ما رأيك فى أن أبعث استدعيه ؟

— لا يا عمى ، الأفضل أن لا تجبره على العودة •

— ذلك تقديرى أيضا • هل ترى يا سرجى ؟ اننى لست بفيلسوف ،
ولكننى أعتقد أن فى كل انسان من الخير أكثر مما نحسبه فيه حين ننظر
الى مظهره • كذلك كوروفكين : انه لم يطق احتمال الخزى الذى شعر
به • ولكن هيا بنا الى فوما ! لقد تأخرنا كثيرا • لعله يشعر من عقوقنا
ومن قلة اكرائنا بجرح فى كرامته ••• هيا بنا ! تعال معى ! آه •••
كوروفكين ••• كوروفكين ! •••

انتهت روايتى • تزوج الحبيبان واستقر ملاك الخير فى منزل عمى
متجسدا فى شخص فوما • فى وسعنا هنا أن نسوق ملاحظات شتى وأن
تزعج تعليقات كثيرة • ولكن لا فائدة من ذلك فى حقيقة الأمر • هذا
رأى على الأقل • لذلك سأستغنى عن الملاحظات والتعليقات ببضع كلمات

عن المصير الذى كتب على أبطال قصتى • ذلك أمر لا بد منه ، ولا تكمل بدونه روايتى •

لقد تم زفاف الخطيبين السعيدين (بفضل فوما) بعد انقضاء ستة أسابيع على الأحداث التى أتت على وصفها ؛ تم الزفاف فى داخل الأسرة بدون جلبه أو ضوضاء ، فلا مظاهر أبهة ولا مدعويين من الخارج • لأحد الا بعض الأصدقاء • كنت أنا فتى الشرف لباستيا ، وكان ميزتشيكوف فتى الشرف لعمى • وطبيعى أن الشخصية الأولى والرئيسية انما كانت شخصية فوما فومتش : فهو الذى تحلق حوله القوم ، وهو الذى كيل له المديح ، وهو الذى لوطف وجومل • ومع ذلك حدث ان نُسى ذات مرة حين صبت الشمبانيا • فسرعان ما نشبت مشكلة صحبتها ملامات واعوالات وأتات • هرع فوما يجلس نفسه فى غرفته ويقفل بابها بالمفتاح صائحا انهم يحرقونه ، وانه أصبح الآن مع « الناس الجدد » الذين دخلوا فى الأسرة نفاية لا تصلح لغير أن ترمى • وحزن عمى من ذلك حزنا شديدا ، واستبد به كرب عميق • وأخذت ناستيا تبكى • وسقطت الجنرالة مغشيا عليها كما جرت العادة بذلك ••• واستحالت مائدة الزفاف الى مائدة جنازة •

وخلال السنين السبع التى عاش فيها فوما فومتش بعد ذلك فى منزل عمى ، ذاق عمى المسكين وذات ناستيا المسكينة الأمرين من سلوك فوما صاحب الفضل عليهما • لقد ظل الى أن مات (وقد مات فى السنة الماضية) لا يكف عن تصديعهما بشراسة طبعه ، ونوبات اعتكار مزاجه ، وملاماته، وغضباته ، وتهديداته ، ولكن تفانى « الزوجين السعيدين » فى سيله لم يضعف بسبب ذلك قط • بالعكس : كان تفانيهما فى سيله يزداد بازدياد نزواته • لقد بلغ ياجور ايلتش وبلغت ناستيا من سعادة كل منهما بالآخر أنهما كانا يخشيان حتى هذه السعادة التى يتخيلان أن الله نفسه قد تجاوز

بها حدود القصد والاعتدال • واذا كانا يحسان أنهما لا يستحقان كل هذه الرحمة التي غمرهما بها الرب ، انتهيا الى الاقتناع أن عليهما أن يدفعنا ثمن سعادتهما محنة قاسية • ففي وسع القارئ ان يفهم والحالة هذه كيف استطاع فوما أن يفعل في هذا المنزل كل ما كان يخطر له على بال •••

ألا ما أكثر ما اخترع وإبتكر أثناء هذه السنين السبع ! لا يستطيع المرء أن يتصور مدى ما مضت اليه نفسه العاطلة من شذوذ وغرابة ، ولا أن يتخيل الاكتشافات الأخلاقية والنزوات اللوقولوصية* التي كانت تتغذى بها هذه النفس العاطلة • ولقد ماتت الجنزالة بعد زواج عمى بثلاث سنين • فأصبح فوما يتيما ، وأظهر من الحزن والكرب مالا سبيل الى مغالته • انهم حتى هذه اللحظة يستبد بهم الذعر والرعب حين يتذكرون الحالة التي ظهر بها عند موت الجنزالة ؟ ولا ينسون أنه بعد أن أهيل التراب على حفرة قبرها ارتضى معولا قائلا ان عليهم أن يدفنوه مع المتوفاة • وخلال الأشهر الثلاثة التي أعقبت الوفاة لم يتركوا بين يديه لا سكيناً ولا شوكة مخافة أن يتنحّر • وفي ذات مساء فتحوا فمه عنوة ليخرجوا منه دبوساً زعم أنه يريد ان يبلعه • وقد لاحظ احد شهود الدرامه اثناء ذلك أن فوما فومتش كان في وسعه ألف مرة أن يبلع الدبوس أثناء الصراع لو شاء ذلك ، ولكنه لم يفعل • غير أن أهل البيت الذين سمعوا هذا الكلام قد امتعضوا أشد الامتعاض ، ووصفوا قائله بأنه انسان شرير لا قلب له • ناستيا وحدها ابتسمت ابتسامة خفيفة ولزمت الصمت ؟ ولذلك رشقها عى بنظرة قلق جاد • يجب أن نلاحظ مع ذلك أن فوما فومتش ، رغم ازدياد غطرسته ورغم النزوات التي لم يشأ أن يعدل عنها ، ولم يعد يسمح لنفسه بذلك الاستبداد الطاغى الذى كان يمارسه من قبل، ولم يعد يزجى لعمى ما هب ودب من الخطب الطويلة والنصائح الكثيرة كما كان

يفعل من قبل • كان فوما يتشكى ويتذمر ويندب ويكيل لعمى اللوم بعد اللوم ، ولكنه أصبح لا يبينه بمثل الوقاحة التى كان يعمد اليها • لم تتكرر مشاهد من نوع مشهد « صاحب السعادة » ، وعمى مدين بهذا لناستيا • فلقد استطاعت ناستيا ، دون أن يلاحظ أحد ذلك تقريبا ، ان تعجز فوما على انهاء أنواع الاذلال التى كان يوقعها فى زوجها • لقد أبت أن ترى فوما يستهزئ بزوجها ويضعه موضع السخرية ، وظفرت بتحقيق ما ارادته • أدرك فوما ادراكا واضحا أنها قد فهمته تقريبا ؛ وانما اقول « تقريبا » لان ناستيا نفسها كانت تدلل فوما وتعجب به ، وتجارى زوجها وتعاونيه كلما أخذ يتغنى بمحاسن الرجل العظيم ويطرى مزاياه • وكانت تحرص أكثر ما تحرص على أن يحترم الجميع اراء عمى ، وكان هذا السبب وحده كافيا لان تشارك عمى تعلقه بفوما فومتش • وانى لمقتنع مع ذلك بان ناستيا قد نسبت الالهات القديمة ، وبأنها غفرت لفوما كل شيء منذ اليوم الذى أذن فيها بتزوجها عمى • أضف الى ذلك أنها قد اقمعت بفكرة عمى القائلة بأن على المرء أن لا يتشدد مع انسان « شهيد » كان فى الماضى مهرجا ، بل وأن على المرء أن يراعى مثل هذا الانسان وأن يدارى نفسه التى اصبحت شديدة التأذى • ان ناستيا المسكينة التى كانت فى الماضى من معشر المذلين ، والتى تحملت هى نفسها أشياء كثيرة ، وقاست آلاما كبيرة ، تدرك هذا الأمر خيرا مما يدركه أى انسان • ولقد هدأ فوما فى الشهر الذى أعقب الزواج ، حتى لقد ظهر خلال ذلك الشهر دمت الطبع لين المريكة طيب القلب • غير أن نوبات لم تكن فى الحسبان قد أخذت تظهر : لقد بدأ يشعر بتخدرات غريبة قريبة من داء التخشب (الكاتابلسيا) ، وكانت هذه النوبات من الدقة والاحكام بحيث تروع من يراها • من ذلك أن المريض كان ، أثناء كلامه يقوله أو ضحكة يطلقها ، يتجمد فجأة على الوضع الذى كان عليه متى وافته النوبة : فاذا كان

يضحك ظل فمه منفرجا على الابتسامة ، واذا كان قد رفع شوكة ظلت الشوكة مشهرة بيده فى الهواء • ثم تسقط اليد أخيرا ، ولكن فوما لا يسترد وعيه فورا ، وانما يستمر يجيل عينيه الشاردتين ذاهلا ، لا يقول كلمة ولا يسمع شيئا ، ولا يفهم أمرا • وكان يدوم هذا فى بعض الاحيان ساعة كاملة ويوشك المنزل كله أن يموت خوفا أثناء ذلك : فالحضور يجلسون أنفاسهم ، ويمشون على رموس الأصابع ، ويسكبون الدموع • ويفيق فوما أخيرا ، فيشكو من اعياء رهيب ، ويؤكد أنه لم يسمع شيئا ولا رأى شيئا • هل يمكن أن يكون انسان قادرا على التظاهر بالألم ساعات برمتها لا لشيء الا ليستطيع أن يقول بعدئذ : « انظروا ! اننى أحس احساسات أعنف من احساساتكم ! » ؟ وحدث أخيرا فى ذات يوم ، بعد أن عاب فوما على عمى أنه « يهينه كل يوم ، وأنه يفض من قيمته ولا يوليه الاحترام الذى يستحقه » حدث أن مضى فوما يسكن عند السيد باختشايف • وكان ستيان ألكسيفتش قد تشاجر مع فوما فومتش ، بعد زواج عمى ، مرارا ومرارا ، ولكن الأمور كانت تنتهى فى كل مرة نهاية واحدة : يأتى السيد باختشايف من تلقاء نفسه يسأل فوما أن يعفو عنه وأن يغفر له • وفى تلك المرة الأخيرة تحزب لفوما بحرارة شديدة ، وناصره على عمى مناصرة قوية ، واندفع يعرض عليه أن يستضيفه • فلما مضى اليه فوما أكرم وفادته وأحسن علفه ، ثم قرر أن يشهر الحرب على عمى ، وأن يقاضيه أمام المحاكم • ذلك أنه كان هنالك قطعة من أرض غير مقسومة لم يختصم الرجلان عليها فى يوم من الأيام لأن عمى لم يخطر بباله أن ينازع فيها ستيان ألكسيفتش يوما ، ولا أن يعارض دعاواه ومطامعه •

هيا السيد باختشايف عربته دون أن يقول كلمة واحدة ، ومضى عدوا الى المدينة ، فأودع الشكوى وفقا للاصول ، طالبا من المحاكم أن

تقضى له بملكية الأرض المتنازع عليها كاملة ، وأن تحكم بتعويضه عن جميع الأضرار ، وأن تقضى له بجميع الفوائد ، مع احتفاظه بحقه في مقاضاة عمى عن استيلائه على الأرض استيلاء غير مشروع . ولكن فوما فومنش قد سئم الحياة في منزل باختشاييف أشد السأم ، فلما جاء عمى فى الغداة معتذراً ، غفر له وعفا عنه ، ومضى معه على الفور عائدا الى ستياتشيكوفو . حتى اذا رجع السيد باختشاييف من المدينة فلم يجد فوما فومنش جن جنونه حقا . لكنه ظهر فى ستياتشيكوفو بعد ثلاثة ايام نادما تائبا ، يستغفر عمى بدموع غزار ، ثم يمزق شكواه . وسرعان ما صالحه عمى مع فوما فومنش ، واصبح ستيان الكسيفتش يتبع فوما كما يتبع كلب صاحبه ، وعاد يردد بعد كلمة ينطق بها فوما قوله : « انت عالم يا فوما ! ما أذكاك يا فوما ! » .

ان فوما فومنش يرقد الآن قرب الجزالة . وقد شيد على قبره ضريح فخم من المرمر الأبيض نقشت عليه كلمات دامة ، واماديع شعرية . وان ناستيا وياجور ايلتش يجيئان فى بعض الأحيان أثناء زيارتهما الى المقبرة الصغيرة التى تحيط بالكنيسة فينحنيان أمام قبر فوما باحترام . وهما حتى هذه الساعة لا يستطيعان أن يجيئا على ذكره الا ويستولى عليهما حزن خاص وأسى مرير . انهما يتذكرا كل كلمة من كلماته ، ويتذكرا ان ما كان يأكل وما كان يحب . وقد حُفظت أشياءه كما تحفظ كنوز . ان موت فوما قد تركهما فى وحشة ، فازداد تعلق كل منهما بالآخر . ولم يهب لهما الله أولادا . فشعرا من ذلك بحزن عميق ، ولكنهما لا يجرؤان أن يشكوا . وقد تزوجت ساشا منذ زمن شابا ممتازا . أما اليوشا فهو يدرس فى موسكو . وهكذا فان عمى وناستيا يعيشان وحيدين ، ولا يحيا كل منهما الا بالآخر ؛ حتى ليوشك اهتمام كل منهما بأن يوفر السعادة لصاحبه أن يكون قلقا مرضيا . وان ناستيا ما تنفك

تصلى من أجل زوجها وتدعو له • وأحسب أنه لو مات أحدهما لما عاش
الثانى بعده أكثر من ثمانية أيام • أسأل الله أن يحفظهما وأن يمد في
عمرهما ! انهما يستقبلان زوارهما بمودة عظيمة وإيناس كبير ، وهما
مستعدان لأن يشاركا كل انسان معذب ما يملكان • وان ناستيا تحب
قراءة حياة القديسين ، وتدعى بتواضع أن الأعمال الصالحة العادية
لا تحقق خيرا كافيا ، وأن على المرء أن يهب كل شيء للبؤساء ، وأن ينشد
السعادة فى الفقر •

ولو كان عمى لا يحفل بمستقبل ساشا واليوشا لبدد ثروته منذ
زمن طويل ، لأنه يوافق زوجته دائما • ولم تتركهما براسكوفى ايلنتشنا
وهى تعنى بهما أشد العناية ، وهى التى ما تزال تدير شئون المنزل •
وقد عرض عليها السيد باختسايف الزواج بعد زفاف عمى بمدة قصيرة ،
ولكنها رفضت رفضا قاطعا • استتج الناس من ذلك انها تريد دخول
الدير ، ولكن هذا الافتراض لم يتحقق • ان فى طبيعة براسكوفى
ايلنتشنا سمة بارزة ، هى حاجتها الى نسيان نفسها دائما فى سبيل من
تعجبهم ، والى البحث فى قرارة أعينهم عن رغباتهم الخفية بغية تحقيقها
لهم على خير وجه ، أى الى السير وراء من تعجبهم خطوة خطوة ، والى
خدمتهم بغير انقطاع • ومنذ ماتت الجنرالة ، أمها ، اعتقدت أن من واجبها
أن لا تترك أخاها قط ، وأن تفعل كل ما تستطيع فعله فى سبيل ارضاء
ناستيا • وما يزال الشيخ ياجفكين حيا ، وقد أصبح فى هذه الآونة الأخيرة
يكثر من زيارة ابنته • كان فى أول الأمر يبعد نفسه هو وقطيعه (كذلك
كان يسمى أولاده) عن المنزل ، فكان ذلك يحزن عمى أشد الحزن ، ولم
يُجد فيه الحاح عمى ولا نفعت فيه لجأته ، فلقد كان الرجل على جانب عظيم
من الكبرياء حتى أن كرامته وحساسيته تكتسيان فى بعض الأحيان صورة
مرضية • كان اذا تصور أنه ، هو الرجل المعوز ، يمكن أن يكون استقباله

فى منزل ثرى نوعا من البر والاحسان ، وأن يكون فى مجيئه الى هذا المنزل ازعاج لأحد ، كان اذا تصور ذلك ، يبلغ من النفور فى بعض الأحيان أنه يرفض حتى المعونة الزهيدة التى كانت تقدمها اليه ناستيا ، وهو لم يرض أن يأخذ منها الا القدر الضئيل الذى لا بد منه ولا غنى عنه . أما من عمى فلم يقبل أن يأخذ قرشا واحدا فى يوم من الأيام . لقد أخطأت ناستيا خطأ كبيرا حين قالت لى أثناء لقائنا فى الحديقة ان أباه يمثل دور المهرج فى سبيلها هى . صحيح أنه كان يرغب كثيرا فى أن يرى ناستيا متزوجة عمى . ولكنه كان لا يمثل دور المهرج الا من أجل أن يجد منفذا لضروب الغضب التى كانت تتراكم فى نفسه . ان حاجته الى السخرية والى سلاطة اللسان كانت أقوى منه . كان مثلا يصطنع أوضاع رجل متملق دنىء دناة كريهة ؟ ولكنه كان يحرمص على أن لا يُخدع أحد فى أمر هذا التملق : كان كل انسان يدرك ان تملقه هذا مصطنع ، فكلما كان تملقه أكبر كانت سخريته ألدع . هكذا خلق . وقد أتيج لجميع أولاده أن يعمد بهم الى مدارس جيدة بموسكو أو بطرسبرج ، ولكن ذلك لم يتم الا بعد أن استطاعت ناستيا أن تبرهن لأبيها بالحجة المقنعة أن تعليمهم سيكون على نفقتها هى ، أى من الثلاثين ألف روبل التى أهدتها اليها تاتيانا ايفانوفنا .

والحق أن هذه الثلاثين ألف روبل لم تقبل من تاتيانا ايفانوفنا يوما ؛ ولكن من أجل أن لا تحزن تاتيانا ايفانوفنا ، ومن أجل أن لاتشعر باهانة ، وعدت بأن 'يلجأ اليها متى احتاجت الأسرة الى أى مال . ومن أجل اقناعها اقناعاً تاما اقترض منها فعلا مبلغٌ ضخّم فى مرتين . ولكن حين ماتت تاتيانا ايفانوفنا منذ ثلاث سنين آلت هذه الثلاثون ألف روبل الى ناستيا رغم ارادتها . وقد ماتت المسكينة تاتيانا ايفانوفنا فجأة . كانت الأسرة تستمد كلها لحضور حفلة راقصة ستقام فى منزل أحد الجيران

من أصحاب الأملاك • فما ان فرغت تاتيانا ايفانوفنا من ارتداء ثوب الحفلة ، ومن تتويج رأسها بأكليل رائع من ورود بيضاء ، حتى شعرت بألم على حين فجأة ، فتهاكت على كرسيها ولفظت أنفاسها الأخيرة • وقد دفت مع اكليل الورد الذى توجهت به رأسها • واستبد بناستيا عندئذ حزن شديد وكرب عظيم • ولقد كانت تاتيانا ايفانوفنا قبل موتها تدلل فى المنزل كثيرا وتدارى كما يدارى طفل • وما كان أشد دهشة الناس حين اطلعوا على وصيتها فأروا ما فيها من حكمة • لقد أوصت تاتيانا ايفانوفنا بباقي ثروتها ، بعد اقتطاع الثلاثين ألف روبل التى خصت بها ناستيا ، أوصت بباقي ثروتها ، وهو يبلغ حوالى ثلاثمائة ألف روبل ، لليتمات تنفق فى تعليمهن وفى تزويدهن ببائة حين ينهن دراستهن • وفى السنة نفسها التى ماتت فيها تاتيانا ايفانوفنا ، تزوجت بيرلتسين • لقد ظلت فى منزل عمى بعد وفاة الجذالة ، أملاً منها فى التشبث بتاتيانا ايفانوفنا • وفى أثناء ذلك توفيت امرأة الموظف المتقاعد الذى كان قد اشترى ميشينو - وميشينو هى تلك القرية الصغيرة نفسها التى جرى فيها ذلك المشهد بين أوبنوسكين وأمه من جهة وبين مطاردى تاتيانا ايفانوفنا من جهة أخرى - وكان لهذا الموظف ، وهو انسان مناكد مشاكس كريه ، كان له من زوجته الأولى ستة أولاد صغار • وقدّر الرجل أن بيرلتسين تملك بعض المال ، فبعث يخطبها زوجة له ، فسرعان ما لبث الطلب • ولكن بيرلتسين كانت فقيرة فقر أيوب • انها لا تملك الا الثلاثمائة روبل فضة التى أهدتها اليها ناستيا بمناسبة زفافها • فالزوج والزوجة يتشاجران الآن من الصباح الى المساء • انها تشد شعر الأولاد ، وتوزع عليهم اللطامات قوية شديدة • حتى لقد قيل انها تشب أطافرها فى زوجها ولا تنقطع عن تذكيره بأنها ابنة ليوتنان كولونيل • ولميزتشيكوف نهاية أيضا • لقد احتكم ميزتشيكوف الى عقله فعدل

عن تاتيانا ايفانوفنا ، وانصرف شيئا فشيئا الى دراسة الزراعة . وقد زكاه
عمى لكونت ثرى ، وأوصاه به خيرا . كانت أملاك الكونت تقع على مسافة
نحو ثمانين فرسخا من ستيبانتشيكوفو وكان عدد أقنانها ثلاثة الاف نفس .
وكان الكونت لا يزور أراضيهِ الا لاما . لاحظ الكونت كفاءات
ميزنتشيكوف فاخذ بها ، ونظر بعين الاعتبار الى تزكية عمى وتوصيته
أيضا ، فعرض على ميزنتشيكوف أن يتولى ادارة قرية له كان قد طرد
منها ناظرها القديم منذ قليل ، وهو رجل ألماني نهب الكونت وجرده كما
تجرد شجرة زيزفون من قشرها ، رغم ما عرف به الألمان من أمانة هي
مضرب المثل . فما انقضت خمس سنين على استلام ميزنتشيكوف ادارة
القرية حتى تغير وجه القرية فلا تكاد تعرف ؛ اغتنى الفلاحون ،
وباشروا زراعات كانت تعد قبل ذلك مستحيلة ، وتضاعفت الايرادات .
فذاع صيت الناظر الجديد ، وأصبح الناس لا يتحدثون فى المنطقة كلها
الا عن ثقافته وكفاءاته ومقدرته . ولذلك ما كان أشد ذهول الكونت وما
كان أشد حزنه حين أعلن له ميزنتشيكوف ، بعد توليه ادارة القرية مدة
خمس سنين ، أنه لن يبقى فى خدمته ؛ أعلن ميزنتشيكوف ذلك للكونت
جازما قاطعا ، غير حافل بتوسلات الكونت وضراعاته ، وغير عابئ بما
عرضه عليه الكونت من اجزال العطاء له . وقد ظن الكونت أن أحد
جيرانه هو الذى أغرى ميزنتشيكوف بتركه ، أو أن أحد أصحاب الأملاك
فى المنطقة المجاورة هو الذى حرضه على ذلك ليمهد اليه بادارة أملاكه .
فما كان أشد دهشة الناس حين علموا بعد شهرين أن ايفان ايفانوفتش
قد استقر فى قرية جميلة عدد أقنانها مائة ، وتبعد عن قرية الكونت
مسافة أربعين فرسخا ، وقد اشتراها من أحد رفاقه القدامى فى الجيش
بعد أن دمر هذا نفسه فى الفحش والفجور! وسرعان مارهن ميزنتشيكوف

عقاره ، ثم اذا هو يملك مائة وستين نفسا بعد انقضاء سنة واحدة على ذلك •

أصبح الآن اذن من أصحاب الاملاك ، وأملاكه هي من تلك الأملاك التي لا ينقصها شيء • والناس جميعا يتساءلون من أين جاء بهذا المال كله ، وبعضهم يهز رأسه محترسا لا يريد أن يورط نفسه في كلام • ولكن ايقان ايفانوفتش يحفظ بهدوئه لا يعكره عليه شيء ، ويشعر انه على حق تام في كل ما فعل • وقد استدعى أخته من موسكو ، وهي أخته تلك التي أعطته الروبلات الثلاثة الأخيرة التي كانت تملكها ، من أجل أن يرقع حذاءيه قبل رحيله الى ستياتشيكوف • انها فتاة رائعة ، قد تجاوزت سن الشباب الأول ، لطيفة ودود محبة مثقفة ، ولكنها وجلة وجلا شديدا • لقد تعذبت زمنا طويلا بموسكو ، حيث كانت تعمل وصيفة لسيدة محسنة ، فهي الآن تطرى أخاها اطراء عظيما ، وتدير شئون منزله ، وتطيعه طاعة عمياء ، وتعلن أنها سعيدة كل السعادة • وأخوها لا يدللها كثيرا ، حتى انه يهملها بعض الاهمال ، ولكنها لا تلاحظ هي ذلك • والناس في ستياتشيكوفو يحبونها كثيرا ، وقد هزت نفس السيد باختشاييف ، حتى ليقال انه يود لو يخطبها لولا أنه يخشى أن ترفضه • على أننا نأمل أن نتكلم عن السيد باختشاييف بمزيد من الافاضة في رواية قريبة •

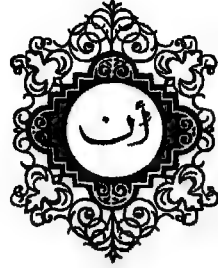
أحسب اننى استعرضت جميع الناس ، ولكن لا! ... نسيت أن أقول ان جافريلا قد طعن في السن كثيرا فنى ما تعلمه من اللغة الفرنسية نسيانا تاما • أما فالالى فهو الآن حوذى رائع ، وأما فيدوبلياسوف فقد أدخل مستشفى المجانين منذ زمن طويل ، وأظن أنه قد مات فيه • سوف أسافر قريبا الى ستياتشيكوفو ، فأسأل عنه عمى •

حُلُمُ الْعَمِّ

١٨٥٩

« حلم العم »
Diadouchkine sone
كتب سنة ١٨٥٨ بمدينة سيمبيلاتنسك ،
ونشرت في مجلة « كلام روسيا » ، آذار
مارس ١٨٥٩ •

الفصل الأول



ماريا الكسندروفنا موسكاليوفا هي السيدة المرموقة في مورداسوف • ذلك امر لا مرأه فيه ، ولا يمكن أن يخالطه ظل من شك • يحسب المرء حين يراها أنها ليست في حاجة الى أحد ، وأن جميع الناس في حاجة اليها • والحق ان الناس لا يحبونها كثيرا • حتى ان كثيرا منهم يكرهونها كرها واضحا ولكنها تبث الخوف في القلوب ، ولا شيء يحلو لها أكثر من ذلك ، لأنه دليل على سياسة عليا • مثلا : لماذا نرى ماريا الكسندروفنا التي تحب النائم الى درجة العبادة ، ولا يغمض لها جفن طوال الليل اذا هي لم تستطع أثناء النهار أن تعرف شيئا جديدا ، لماذا تتمكن رغم ذلك من اصطناع هيئة الفخامة والأبهة الى هذا الحد ؟ ليس يخطر ببالنا أبدا أن سيدة على هذا الجانب العظيم من النبالة يمكن أن تكون أكبر نمامة في العالم ، أو أكبر نمامة في مورداسوف على الاقل • بالعكس : ان المرء لمستعد أن يحلف أن الأفاويل لا يمكن أن تتداولها الألسن في حضورها ، وأن ناقلات الأنباء لا بد أن تحمر وجوههن وترتجف أجسامهن أمامها كلاميد المدرسة أمام معلمهم ، وأن الحديث لن يدور عندها الا على موضوعات سامية رفيعة • ومع ذلك فانها بارعة في معرفة الأنباء براعة عظيمة بحيث لا تخفى عليها خافية ولا تقيب عنها شاردة ولا واردة • وهي تعرف عن بعض سكان مورداسوف فضائح سرية تبلغ من الفظاعة أنها لو بدا لها أن تكشف عنها في اللحظة المناسبة وأن تبرهن على صحتها

برهاننا لا يستطيع غيرها منله ، اذن لاهتزت مورداسوف على قواعدنا اهتزاز لشبونة حين باقتها الزلزال • ولكن ماريا الكسندروفنا تظل منطوية على أسرارها انطواء شديدا ، لا تشير اليها الا في مناسبات خطيرة لأصدقاء حميمين جدا ؛ وهى تكفى بالاماع الى ما تعرفه الماعا خاطفا ، لأنها تؤثر أن تروّع محدثها (أو محدثتها) وأن تجعله يحبس أنفاسه ، على أن تسحقه سحقا حاسما • تلك براعة ، تلك موهبة • وقد تميزت ماريا ألكسندروفنا بيننا دائما بأنها سيدة لائقة ؛ ذلك أمر لا يضارعها فيه أحد • وبفضل أنها سيدة لائقة انما يصعب أن تعد بين نعامات مورداسوف العاديات • ان في وسعها أن تمزق إحدى غريماتها شرّ تمزيق ، أو أن تدفنها تحت الأرض ، مع تظاهرها بأنها قالت الكلمة القاتلة سهوا وغفلة • وأتم تعلمون أن هذا النوع من اللطف والرفافة وقف على أبناء المجتمع الراقى • ومهما يكن من أمر فتلك عندها براعة من براعات الحواة تفوقت فيها على « بيتى » *

ولماريا الكسندروفنا علاقات كثيرة • ان أكثر الأشخاص الذين يزورون مورداسوف يطرون حفلاتها أشد الاطراء ، حتى اذا غادروا مورداسوف أخذوا يبادلونها الرسائل • حتى لقد نظم أحدهم في تكريمها قصيدة شعر كانت ماريا تظهر عليها الناس معتزة فخورة ؛ كما أن كتابا من الكتاب أهدى اليها رواية من تأليفه بعد أن قرأها في سهرات منزلها حين كان مارا بالمدينة ؛ فكان لهذا الاهداء أثر من أعظم الآثار ؛ كما أن العالم الألماني الذي جاء من كالسروهي خصيصا للكشف عن الدور الخاص الذي تقوم به الدودة القزء في افساد قمح مقاطعتنا ، والذي كتب عن هذه الدودة أربع كراريس ، قد بلغ من تأثره باستقبال ماريا الكسندروفنا له وتوددها اليه ولطفها في معاملته أنه ما يزال حتى يومنا هذا يبعث اليها من كالسروهي برسائل تفيض احتراما وعلميا وأخلاقا •

حتى لقد مضى بعضهم فى بعض الظروف الى حد تشبيهها بنابليون • لا شك أن هذا التشبيه قد أطلقه اعداؤها ، من قبيل السخرية لا من قبيل الاعجاب المحض • ولكن مع اعترافى بسخف هذا التشبيه فأتى أتجراً فالقى هذا السؤال البسيط : لماذا دار رأس نابليون حين ارتفع ذلك الارتفاع العظيم ؟ لقد قال دعاة الشرعية * ان ذلك يرجع الى أن نابليون لا ينحدر من سلالة ملوك ، بل ولا هو رجل راق من طبقة عالية ؛ لذلك كان لا بد أن يشعر بدوار حين رأى نفسه مرتفعاً ذلك الارتفاع كله بالقياس الى المكانة التى يستحقها • ورغم البراعة الواضحة فى هذا الجواب الذى يذكر بأحسن عهد من عهود النظام القديم ، فأتى أجازف فأتساءل أيضاً : لماذا لن تشعر ماريا الكسندروفنا يوماً بدوار فى أى ظرف من الظروف ؟ لماذا ستظل سيدة مورداسوف الأولى غير منازعة ؟ صحيح أنه مرت أحداث معينة وظروف صعبة كان كل واحد فيها يقول : فلنر ما عسى تفعل ماريا الكسندروفنا ! ولكن الخطوة المحرجة قد خُطيت وتم تجاوزها ووُجد المخرج منها دون عقبات ، وسار كل شىء بعد ذلك كما كان يسير من قبل ، بل وخيراً مما كان يسير من قبل ! من ذلك مثلاً أنه حين فقد أناستازى ماتفتش منصبه (وهو زوج ماريا الكسندروفنا) لعجزه وقلة ذكائه بعد أن أثار غضب مقتش كان يقوم بجولة ، توقع الناس أن يروا ماريا الكسندروفنا ذليلة تتوسل وتتضرع • • أى تخفض جناحها وتخضع ! ولكن أبداً • • • لقد شعرت ماريا الكسندروفنا أن لا فائدة من التوسل والضراعة • ثم قادت المركب ببراعة تبلغ من الاحكام أنها لم تفقد شيئاً من نفوذها وأن منزلها ظل يعد أول منزل فى مورداسوف • ولقد تولت زوجة وكيل النيابة ، أنا نيكولايفنا آتسيوفا ، وهى العدو اللدود لماريا الكسندروفنا ، وصديقتها فى الظاهر ، تولت اشاعة النبأ فى الناس والتشهير بسقوط غريمتها ،

ولكن حين لوحظ أن ارباك ماريّا الكسندروفنا ليس بالأمر السهل، أدرك
انها أصلب عودا وأقوى بأسا مما تُصوّر في أول الأمر •

وما دمنا قد ذكرنا اسم اناستازى ماتفتش ، زوج ماريّا الكسندروفنا،
فلنقل عنه بضع كلمات • هو أولا رجل مهيب الطلعة جداً ، له وجه
فلاح • ولكنه في اللحظات الحرجة يفقد سيطرته على نفسه ويصبح أشبه
بخروف ضل طريق الخروج من حظيرته • حقا ان له مظهرا مهيبا ،
ولا سيما حين يحضر حفله عشاء ذات أبهة ، لابساً ربطة عنق بيضاء •
ولكن هذه المهابة كلها وهذه الفخامة كلها تنهاران متى أخذ يتكلم •
وليس على المرء عندئذ الا أن يصمّ أذنيه • انه حقاً غير جدير بأى يتنى
الى ماريّا الكسندروفنا • ذلك رأى الناس جميعا • وهو على كل حال ما
كان ليحتل منصبا من المناصب لولا عبقرية زوجته • وفي رأى المتواضع
أنه كان ينبغى منذ زمان طويل أن يجعل فزاعة لتخويف العسافير في
الحديقة • فهناك ، هناك فقط ، كان يمكن أن ينهض بالدور الذى لا يمكن
انكاره عليه ، الدور الذى يناسب هيئته الفخمة ، وهو أن يكون حاميا •
ومن أجل ذلك انما اتخذت ماريّا الكسندروفنا قرارا له ما يسوغه حين
أبعدت اناستازى ماتفتش الى أرضها التى تملكها على مسافة ثلاثة فراسخ
من مورداسوف - وهى أرض تضم مائة وعشرين نفساً هى (يجب أن
نذكر هذا عابرين) جميع الموارد التى بفضلها تعيش ماريّا الكسندروفنا
تلك الحياة المحترمة فى منزلها • وقد أدرك كل واحد عندئذ أنها لم تحتفظ
بزوجها قريبا منها قبل ذلك الا لمنصبه وراتبه وما ينشأ عنهما من منافع •
أما وقد أصبح لا يتقاضى شيئا ، فقد كان لا بد من اقضائه ، لأنه لا يصلح
لشيء ولا فائدة منه • ولذلك حظيت ماريّا الكسندروفنا حين أقصت زوجها
بامتداح جميع الناس سدادَ رأيها وصلابة عزميتها •

ويعيش اناستازى ماتفتش فى القرية حياة هادئة • لقد ذهبت اليه

أزوره ، وقضيت معه ساعة كاملة ممتعة جدا • انه يجرب ربطات عنقه البيضاء ، ويلمع أحذيته بنفسه ، لا عن عوز وحاجة ، بل حبا بالفن ، فهو يحرص أشد الحرص على أن تكون أحذيته باهرة بلمعائها • وهو يحب الاستحمام حبا عظيما ، ويرشف شايه ثلاث مرات فى اليوم ، ولا تتعدى سعادته هذه الحدود • هل تتذكرون تلك الحكاية الكريهه التى شاعت بيننا منذ سنة ونصف سنة عن سلوك زينائد آتانا سيفنا ، الابنة الوحيدة لماريا ألكسندروفنا وأتانا زى ماتفتش ؟ ان زينائد - وهذا مشتق من اسمها زينا - فتاة بارعة الجمال حسنة الثقافة ، قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها ، ومع ذلك لم تتزوج • فمن بين الأسباب التى 'يرد إليها أنها لم تملك حتى الآن زوجا سبب' هو أنهم تلك الأسباب ، وهو تلك الشائعات الغامضة التى سعت فى الناس عن علاقات غريبة قامت منذ ثمانية عشر شهرا بينها وبين معلم مدرسة من مدارس القرى ، وهى شائعات تصر على أن لا تنطفىء ، فما زالت السنة الناس تتحدث حتى الآن عن رسالة غرامية كتبها زينا ، وتناقلتها الأيدى فى مورداسوف • قولوا لى مع ذلك : من ذا الذى رأى تلك الرسالة ؟ واذا كانت الأيدى قد تناقلتها فمن أين وصلت الى هذه الأيدى ؟ لقد سمع كل واحد كلاما عن هذا الأمر ، ولكن ما من أحد رأى بعينه شيئا ! على كل حال ، أنا لم ألق أحدا رأى بعينه تلك الرسالة • واذا ألمع أحد الى أمر الرسالة أمام ماريا ألكسندروفنا ، فانها لا تزيد على أن لا تفهم ••• فافرضوا أن هناك رسالة كتبها زينا حقا ، افرضوا أن زينا سطرت بضع كلمات (ويفلب على ظنى أن زينا قد فعلت ذلك) ، أفلا ترون اذن الى هذه البراعة من جانب ماريا ألكسندروفنا ؟ هل من وسيلة تفضل هذه الوسيلة لسحق قضية كهذه القضية ، وخلق فضيحة كهذه الفضيحة ؟ ان لم يوجد أثر فلا دليل ! والله يعلم كم جهدت ماريا ألكسندروفنا هذه نفسها ، التى تترفع عن الاصغاء

الى نعيمة كهذه النعيمة ، كم جهدت فى سبيل أن تحافظ على شرف ابنتها الوحيدة سليماً لا يمسه أذى ! ثم انه لامر يسهل فهمه أن لا تكون زينا قد تزوجت . فأين الشاب الذى يصلح زوجها هنا ؟ ان زينا لا يمكن أن تتزوج الا أميرا حاكما . هل رأيتم جمالا كهذا الجمال فى يوم من الايام ؟ الحق أن زينا مزهوة بنفسها ، ولعلها مسرفة فى الزهو بنفسها . وقد قيل ان موزجليا كوف يسعى اليها . ولكن هل هذا زواج ممكن ؟ من هو موزجليا كوف هذا ؟ صحيح أنه شاب وسيم أنيق ، وهو يملك مائة وخمسين نفسا ، وهو قادم من بطرسبرج . ولكن طائش نرثار أهوج ، متشرب بأراء عصرية مفرطة . ما قيمة مائة وخمسين نفسا حين يتباهى صاحبها بأفكار جديدة ؟ لا ، ذلك زواج مستحيل !

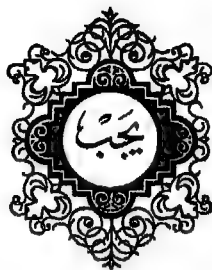
ان كل ما قرأتموه الآن انما كُتب منذ حوالى خمسة أشهر ، أثناء اندفاع عاطفية حنون معجية . واثنى لأعترف لكم سلفا بأثنى متعلق قليلا بماريا ألكسندروفنا . كنت أود لو أكتب بضع كلمات مديح عن هذه السيدة الممتازة ، فى صورة رسالة شبيهة بتلك الرسائل التى طبعت فى الزمان الماضى (ذلك الزمان الذى أحمد الله على أنه لن يعود قط) فى جريدة « نحلة الشمال » * وغيرها من الجرائد والمجلات . ولكن الواقع أنه ليس لى صديق ، ناهيك عما أشعر به من خجل يشعر بمثله الكتاب . لذلك بقيت لى هذه الصفحات ذكرى استرخاء وادعٍ أثناء ساعات ضجر ؟ ولم تكن الا محاولة قلم مهجور على الطاولة .

انقضت اذن خمس سنين ؛ وفجأة وقع حادث غريب فى مورداسوف : ففى ذات صباح ، فى ساعة مبكرة من ذات صباح ، ظهر الأمير ك فجأة فى المدينة ونزل ضيفا على ماريا ألكسندروفنا ؛ وكانت نتائج وصول الأمير ك من الأمور التى لا سبيل الى حسابها . لم يمكث الأمير ك فى مورداسوف الا ثلاثة أيام ، ولكنها ثلاثة أيام خلفت ذكرى تتصف بأنها قدر لا راداً

له ؟ بل يجب أن أقول أكثر من ذلك : يجب أن أقول ان الأمير قد قلب
 المدينة عاليها سافلها • ولا شك أن قصة هذا الانقلاب هي صفحة من
 الصفحات الرئيسية في تاريخ مورداسوف • فهذه الصفحة هي التي فررت
 أخيرا ، بعد تردد كبير ، أن أقدمها للجمهور الكريم في صورة أدبيه
 ليحكم عليها • ان كتابي يشتمل على الحكاية الغريبة الكاملة لصعود نجم
 ماريا ألكسندروفنا وما حظيت به من مجد ، وما هوت اليه بعد ذلك من
 سقوط كان له دوى كبير ، كما يشتمل على حكاية منزلها كله في
 مورداسوف ، وذلك موضوع يفسرى الكاتب أيما اغراء • على أن من
 الضروري قبل كل شيء أن أشرح جانب الغرابة في دخول الأمير ك الى
 مورداسوف ، وكذلك في وصوله الى منزل ماريا ألكسندروفنا • لهذا
 لا بد من بضع كلمات عن الأمير ك • ناهيك عن أن سيرة حياة هذه
 الشخصية أمر لا يمكن الاستغناء عنه اطلاقا لاتمام قصتنا • واذن فلأبدأ •

الفصل الثاني

أن أقول قبل كل شيء ان الامير ك لم يكن طاعنا في السن كثيرا • ومع ذلك فان المرء لا يملك حين يقع عليه بصره الا أن يتصور أنه يوشك أن يتهاوى ، من فرط ما يبدو متهدما بل قل مهترئا •



لطالما رويت عنه في موردا سوف حكايات تفوق غرايتها الخيال • حتى لقد قيل ان هذا الشيخ قد رجع عقله الى الطفولة • والأمر الذي كان يبدو لجميع الناس غريبا غرابة خاصة هو أن هذا الملاك الذي يملك أربعة آلاف نفس والذي ينحدر من محتد نبيل ، والذي كان في وسعه ، لو شاء ، أن يمارس نفوذا كبيرا على اقليمنا ، انما كان يعيش متوحدا منعزلا في أملاكه العظيمة ؟ وأكثر الذين عرفوه منذ سبع سنين أو ثمان أثناء اقامته في موردا سوف يزعمون أنه كان في ذلك الأوان لا يطبق الوحدة والعزلة ، ولا يتصف بشيء مما يتصف به ناسك معتكف •

اليكم مع ذلك ما استطعت أن أعرفه عنه من أحدهم :

لقد دخل الأمير ، ابان شبابه ، وذلك يرجع الى عهد بعيد جداً ، دخل الحياة دخولا ساطعا يبهز الأبصار ، وأنفق أموالا طائلة في غير مبالاة ، وغنى أغنيات غرام ، وقال فكاهات جناس ، دون أن يبرهن على ذكاء أو كفاءة فذة • وكان طبعيا أن تذهب في ذلك ثروته كلها ، حتى

إذا تقدمت به السن رأى نفسه صفر اليدين على حين فجأة • فنصح
أحدهم يومئذ أن يعود الى املاكه التي كانت ستباع بالميزاد • فعزم أمره
على ذلك • وجاء الى مورداسوف يقيم فيها ستة أشهر • وقد أعجبه الحياة
في الريف كثيرا • وبدد هنالك آخر قرش كان قد بقي له • بدّده في
فجوره المألوف وفي مغامرات عاطفية مع عدة سيدات من البندر • على أن
الامير كان انسانا ممتازا رغم أفعاله الشاذة الغريبة الاميرية • حتى ان
هذه الأفعال الشاذة الغريبة نفسها لم تسؤ الناس ولا نفرتهم • بل لقد
أحدثت أثرا في أهل مورداسوف الذين كانوا يرون فيها سمة من السمات
التي يتميز بها المجتمع الراقى • والسيدات هن اللواتي لم ينقطع إعجابهن
بهذا الضيف القتان الاخاذ • وقد احتفظ الناس عن ذلك العهد بعدة
ذكريات طريفة • يقال مثلا ان الامير كان يقضي أكثر من نصف النهار
في اتمام زينته • وانه كان كمن يتألف من قطع مجلوبة من هنا ومن هناك
• لم يكن أحد يدرى أين ولا متى تفكك هذا التفكك • كان له شعر
اصطناعي • وشاربان اصطناعيان • ولحيتان اصطناعيتان • أي كان شعر
رأسه كله اصطناعيا مصبوغا بسواد فاحم • وكان يخضب وجهه
بالمساحيق في كل يوم • ويقال انه بفضل نوابض مخبأة ببراغة تحت
قبة شعره الاصطناعي • كان يخفي تجاعيد وجهه • ويقال أيضا انه كان
يلبس مشدا لأن أحد أضلاعه كان قد تحطم حين قفز من النافذة قفزة
سريعة أثناء إحدى مغامراته الغرامية في ايطاليا • وكان الأمير يعرج
بساقه اليسرى • وكان الناس يؤكدون أن هذه الساق اصطناعية • وأن
ساقه الصحيحة الأولى قد كسرت في باريس • أثناء مغامرة أخرى •
فأبدلت بساق اصطناعية تحاكي الأولى محاكاة جيدة • وما أكثر ما كان
يقال على كل حال ! • • • • • والحق أن عينه اليمنى كانت من الزجاج • ولكن
هذا الزجاج كان يحاكي العين الأصلية محاكاة فنية بارعة • كما أن

أسنانه قد صنعتها له يد ماهرة • كان يقضى النهار كله فى التطيب والتعطر والتدهن • ويتذكر الناس مع ذلك أن الأمير قد أخذ منذ ذلك الحين يهوى الى الهرم والتفحل سريعا ، وأنه أخذ يثرثر ثرثرة لا تطاق • اذن لقد انتهت حياته • وكان الناس جميعا يعلمون ان جيبه قد خوت ، وانه اصبح لا يملك فيجلة ! ولكن فى تلك اللحظة ماتت احدى قريباته فجأة ، وهى امرأة طاعنة فى السن كانت تقيم دائما بباريس ، وكان هو لا يأمل ان يرثها بحال من الأحوال ، ماتت فجأة بعد شهر واحد من دفنها ورثها الشرعى ، وذلك أمر لم يكن فى الحسبان • فكذلك أصبح الأمير يملك ارضا زراعية عظيمة تضم أربعة آلاف نفس ، وتقع على مسافة ستين فرسخا من مورداسوف ، يملكها خالصة له بغير شريك • وسرعان ما سافر الأمير الى بطرسبرج يسوئى أموره ويدبر شؤنه • وفى ذلك الحين انما أولت له سيداتنا مآدبة وداع جمعن نفقاتها اکتسابا • فما كان أزخر تلك الحفلة بنكات الجناس ، وعجائب الفكاهات المرحية والنوادر المليحة والأمازيح المسلية ! • • • وقد وعد الأمير ليقىمن قريبا فى دوخانوف (القرية التى تمثل فى نظره اكتشاف كنز جديد) ، وحلف ليتابعن الحفلات والنزهات والبالات والأسهم النارية بغير انقطاع متى عاد • وفى أثناء السنة التى انقضت على سفره لم تتحدث السيدات الا عن هذه الحفلات الموعودة بانتظار عودة شيخهن اللطيف العزيز • ومن أجل أن يخادعن لهفتهن الرهية الى تحقيق هذه الوعود ، فمن برحلات الى دوخانوف ، حيث كان يوجد منزل عريق من منازل السادة الكبار ، له حديقة تتأثر فيها أكواخ جميلة ، وبيوت صغيرة ، ومبان أخرى رائعة ، وتزينها أشجار الأكاسيا مقدودة على صور أسود ، وتحلّيتها تلال مصنوعة ، وغدران تنزلق على صفحة أمواها مراكب ، وتماثيل خشبية تمثل أتراكا ينفخون فى شبابه • وعاد الأمير أخيرا • ولكن ما كان أشد دهشة الجميع ، وما كان أشد



الأمير

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورسكوف

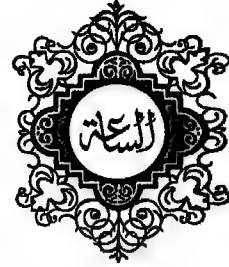
عجبهن ، حين لم يتوقف فى مورداسوف بل مضى الى دوخانوف رأسا ليقيم فيها متوحدا معتزلا . وانتشرت عندئذ شائعات غريبة ، حتى صارت حكاية الأمير منذ ذلك الحين حكاية غامضة تحيط بها الاسرار وتتسج حولها الأساطير . قيل أولا ان الأمور فى بطرسبرج لم تجر هينةً لينةً ، وان بعض أقرباء الأمير ممن سيكونون وريثه قد حاولوا بسبب خرف الأمير ان يتم عليه الحجز وأن تقام عليه وصاية ، مخافة أن يبدد أمواله مرة أخرى . بل قيل أكثر من ذلك : قيل ان أقرباء هؤلاء الذين سيرثونه قد حاولوا ادخاله مستشفى للمجانين ، غير أن واحدا من أقربائه ، وهو شخصية خطيرة الشأن رفيعة المنزلة ، قد اعترض على ذلك مبرهنا برهانا واضحا على أن الأمير المسكين الذى يوشك أن يكون ميتا منذ الآن ، لن يطول عمره ولن يلبث أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وعندئذ تتول جميع أملاكه الى وزته ، فلا لزوم للجوء الى مستشفى المجانين ! ويقال ان هذا كله قد بلغ من ترويع الأمير ومن بث الرعب والهلع فى قلبه أن طبعه قد تغير تغيرا تاما فدفعه الى نشدان الوحدة والتماس العزلة . وقد ثار فضول بعض أهل مورداسوف فمضوا الى دوخانوف يزورون الأمير مهئين بسلامة العودة ، فاما أنهم طردوا شر طردة ، واما انهم استقبلوا استقبالا غريبا الى أبعد حدود الغرابة . لقد أصبح الأمير لا يعرف أصحابه القدامى . وقيل عندئذ انه يتظاهر بذلك عامدا . وقد مضى الحاكم يزوره أيضا .

فلما عاد قال ان الأمير قد اختلط عقله بعض الاختلاط فعلا ؟ وأصبح الحاكم منذ ذلك الحين لا يذكر زيارته دوخانوف الا ويتصغر وجهه . أما السيدات فانهن لم يفعلن ازاء ذلك الا أن يطلقن صيحات الاستياء والامتناع . وقد علم فى تلك الأثناء أمر هام هو التالى : أن الأمير واقع تحت سيطرة امرأة تسمى ستيانيد ماتقنفا ، لا يدري الا الله من أين

خرجت • انها امرأة ضخمة بدينة متقدمة فى السن ، جاءت معه من
 بطرسبرج ، ترتدى أنوباً هندية ، وتحمل مجموعة المفاتيح ؛ والأمير
 يطيعها فى كل امر ، ولا يجرو أن يخطو خطوة بدون اذنها ؛ وهى
 تغسله بنفسها ، وتسليه وتسرى عنه وتدله وتهده كأنه طفل صغير •
 وقد دبرت الأمر بحيث تقصى عنه جميع الزائرين ، ولا سيما الأقرباء
 الذين أخذوا يتوافدون شيئاً فشيئاً على دوخانوف مستطعين • وقد تناقش
 الناس بمورداسوف طويلاً فى أمر هذه العلاقة التى لا يفهمها العقل •
 وكان من حقن أن تستولى عليهن الدهشة فعلاً : فان هذه المرأة التى
 يقال لها ستيانيد ماتفتقنا كانت تسوس أملاك الامير على ما تشاء ، فهى
 تصرف النظر أو الخدم ، وهى تتقاضى الايرادات ، بل لقد استطاعت
 أن تحكم الفلاحين وأن تجعلهم راضين سعداء ، يغبطون أنفسهم على
 ما كتب لهم • وفيما يخص الامير نفسه ، علم أنه ينق القسم الأكبر من
 يومه فى اتمام زيتته ، وتجريب شعره المستعار ، وارتداء « فراكاته »
 الكثيرة • ثم هو يقضى باقى الوقت فى صحبة ستيانيد ماتفتقنا يلعب الورق
 ويحقق انتصارات • وهو يقوم بنزهات فى بعض الأحيان ، راكباً حصاناً
 انجليزياً وادعاً هادئاً • وفى مثل هذه الأحوال تتبعه ستيانيد ماتفتقنا على
 عربة مظلة من قليل الاحتياط ، لأن الأمير لا يمتطى الحصان الا دلالة
 وغنجاً فهو ما ينفك يترنح ويتهزز فى ركابه • وقد يرى فى بعض
 الأحيان سائراً على قدميه ، مرتدياً معطفاً ، واضعاً على رأسه قبعة من قش
 ضافية الحافات ، لافاً عنقه بمنديل وردى اللون ، جاعلاً نظارته فوق عينه ،
 حاملاً سلة صغيرة بيده ، مطوّفاً هنا وهناك يجمع فطوراً أو يقطف أزهاراً
 برية • وفى مثل هذه الأحوال تتبعه ستيانيد ماتفتقنا ماشية على قدميها ،
 بينما يسير وراءهما ، وعلى مسافة منهما ، خادمان طويلان مع العربة •
 فإذا اتفق مصادفة أن مر أحد الفلاحين رأيت الفلاح يصطف جانباً ،

ويرفع طافيته ، وينحنى انحناء شديدا ويقول : « سلاما ايها الامير يا ابانا ؛ سلاما يا صاحب السعادة يا شمسنا » ، فيسارع الامير الى وضع نظارته على عينه ناظرا الى الفلاح ، ثم يحنى راسه قليلا ويقول : « سعدت يوما يا صاحبي ، سعدت يوما » • ورويت في مورداسوف اشياء كثيرة من هذا القليل ، لان الناس في مورداسوف قد ابوا ان ينسوا الامير ، وذلك لانه جار قريب جدا ! لذلك ما كان اشد دهشتهم وذهولهم جميعا حين شاع بينهم في ذات صباح ان الامير ، هذا الناسك المعتكف ، هذا الانسان الغريب الاطوار ، موجود بنفسه الان في المدينة وأنه نزل ضيفا على ماريا الكسندروفنا ! تحرك الناس جميعا واضطربوا ، منتظرين أن تتضح الامور ، وتساءل كل منهم عن دلالة ذلك ، ونهايا بعضهم للذهاب الى منزل ماريا الكسندروفنا نفسها يستطلع الانباء • • • فالى هذا الحد بدا لهم وصول الامير حدثا عجيبا من الاحداث • وتبادلت السيدات البطاقات ، وتراورن ، وأرسلن وصيفاتهن وحتى أزواجهن ليأتونهن بالأخبار • والامر الذي كان يبدو غريبا عجيبا هو أن الامير قد آثر ماريا الكسندروفنا ، وخصها بالنزول ضيفا عليها من دون سائر الناس • والسيدة التي أظهرت أشد الاستياء انما هي آنا نيكولايفنا آنتيوفا التي يمت اليها الأمير بقربى بعيدة • ولكن لا بد لنا ، حتى نوضح جميع هذه الأسئلة ، أن نمضي الى منزل ماريا الكسندروفنا نفسها ، راجين من قرائنا الأجلاء أن يصحبونا في هذه الزيارة • ولئن كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة من الصباح ، فلا شك أن ماريا الكسندروفنا لن ترفض استقبال أصدقائها الخالص • فلنذهب اذن اليها واثقين مطمئنين •

الفصل الثالث



هى العاشرة من الصباح • نحن الآن فى منزل
ماريا ألكسندروفنا ، الذى يقع فى عرض شارع
كبير • ونحن من هذا البيت فى الغرفة التى
تسميها ربة المنزل صالونها فى الأيام الكبرى •

وماريا ألكسندروفنا مقصورة خاصة بها أيضا • ان أرض هذا الصالون معتنى
بها كثيرا ، والجدران قد شد عليها ورق لا بأس به • اللون الأحمر يغلب
على أثاث الصالون ، وهو أثاث دميم على كل حال • هناك مدفأة ، وعلى
المدفأة مرآة ، وأمام المرآة ساعة يعلوها تمثال يمثل اله الحب ، وهو تمثال
لا يدل على ذوق رفيع • وبين الفراغات التى تفصل النوافذ مرآتان
أخريان رفع عنهما غطاءهما على عجل • وأمام المرآتين ، وعلى الطاولات
الصغيرة ، وضعت ساعات أيضا • وفى آخر الصالون يمتد البيانو الرائع
الذى جلب لزيينا ، ملاصقا للجدار : ان زيينا موسيقية • وأمام المدفأة ،
التي تشتعل فيها نار جميلة ، قد صُفِّ ما أمكن صفة من مقاعد ، فى
قوضى فنية • وبين المقاعد وضعت منضدة صغيرة • وتشغل الطرف الآخر
من الغرفة منضدة ثانية يغطيها غطاء ناصع البياض ، وعلى الغطاء يستريح
سماور من فضة يغلى فيه الماء ، وإلى جانب السماور طقم جميل للشاي •
وتقع مهمة مراقبة السماور والفناجين على عاتق سيدة ناضجة تمت الى
ماريا ألكسندروفنا بقربى بعيدة ، هى أناستازيا بتروفنا زيا بلوفا • ولنقل
كلمتين عن هذه السيدة • انها أرملة ، تجاوزت من عمرها الثلاثين ،
سمراء لطيفة القوام ، نضرة الوجه ، لها عيتان كحلوان تفيضان حياة ؟ وهى

تظهر مزاجا مرحا ، فتضحك بسهولة ؟ ولا تموزها المهارة ولا ينقصها
الحدق ، فهي تحسن تدبير شئونها الصغيرة ، ولكنها مهذار مكثر . ان لها
ولدين قد عهدت بهما الى مدرسه داخلية فى مكان ما . وهى تتمنى كثيرا
لو تزوج مرة ثانية ، وتحافظ على شئ من الخيلاء لان زوجها كان ضابطا
فى الجيش .

ان مارى ألكسندروفنا نفسها هى الجالسة قرب المدفأة . انها تبدى
مزاجا رائقا رائعا ، وهى ترتدى ثوبا أخضر رقيقا يناسبها . لقد أضرم
فيها وصول الأمير فرحاً شديداً ، والأمير هو الان فى الطابق الاعلى يعنى
بامر زينتته . ان ماريا ألكسندروفنا تبلغ فى هذه اللحظة من السعادة أنها
لا تحمّل نفسها عناء اخفاء فرحتها . وأمامها يقف شاب يروى لها أمرا
من الأمور فى حرارة وحميماً . فمن رأى عيني هذا الشاب ادرك انه يشتهى
أن يحظى باعجاب السيدة التى تصغى الى كلامه . الشاب فى الخامسة
والعشرين من عمره . وكان يمكن أن يبدو مظهره مظهر رجل رفيع
التهذيب لولا أنه يسرف فى اطلاق صيحات التعجب ، ولولا أنه على وجه
الخصوص يطمع كثيرا فى إبراز روح النكتة والفكاهة لديه . وهو أشقر
اللون حسن الهندام معجب بنفسه . ولكن هانحن أولاء تكلمنا عنه : انه
السيد موزجلياكوف ، شاب له مستقبل ، وهو أمل كبير من آمال الزواج
فى المنزل . صحيح أن ماريا ألكسندروفنا ترى أن فيه شيئا من طيش ،
ولكنها تحسن استقباله . انه يسعى الى خطبة ابنتها ويعلن أنه مجنون
حبا بها . وهو يتجه فى كل لحظة الى زينا محاولا أن ينتزع من فمها
ابتسامة بالفكاهات والأمازيج . ولكن زينا فاترة نحوه فتورا شديداً ، تكاد
لا تعبأ به ولا تكثر له . وهى فى هذه اللحظة منتحية جانباً قرب
الليانو ، تقلب بأطراف أصابعها صفحات مجلة . انها امرأة من تلك النساء
اللواتى يحدثن أثرا ويثرن دهشة واغجابا حين يظهرن فى مجتمع . هى

جميله جمالا لا يصدق : فارة الطول ، سمراء اللون ، هيفاء القوام ،
 يارزة الصدر ، لها عيان رائعتان تشبهان ان تكونا سوداوين تماما ؛
 ويوشك كثفاها وذراعاها أن تكون من الاكثاف والاذرع التي نراها فى
 تماثيل النحت القديم ؛ أما ساقاها ففاتتان ساحرتان ، واما مشيتها فمشية
 ملكه . هى تبدو اليوم شاحبة قليلا ، ولكن شفيتها كالقرمز حمرة ، وهما
 ممتلئتان بعض الامتلاء ، مرسومتان رسما بديما ، تسطح بينهما أسنان
 مظلومة كمقد اللؤلؤ ، اذا رايتها مرة ظلت تراها فى المنام ثلاثة أيام .
 ويبدو على زينا كثير من الجذبل ومن القسوة . ويبدو على موزجليا كوف
 انه يتحاشى نظرتها الثابتة ويتجنبها ؛ او قل على الأقل انه يشعر برهبة
 كلما تجرأ أن يلتفت نحو هذه الفتاة التى تبلغ هذا المبلغ من التالى وعدم
 الاكثراث . وهى ترتدى ثوبا بسيطا من الموسلين الابيض ؛ واللون
 الابيض يناسبها كثيرا ويفتن عليها الألباب . وان كل شيء ليناسبها على كل
 حال . وفى أصعبها خاتم من شعر مضفور لا يبدو أن لونه هو لون شعر
 أمها . ان موزجليا كوف لم يجسر أن يسألها يوما عن صاحب الشعر
 الذى ضفر منه هذا الخاتم . وزينا تبدو فى هذا الصباح صامتة صمتا فوق
 ما عهد فيها من صمت . لذلك نرى ماريا ألكسندروفنا لا تنفك ، مع
 تدفقها فى الكلام بغير انقطاع ، تلقى على ابتها نظرات تفيض قلقا ، ولكنها
 تختلس هذه النظرات اختلاسا كأنها خائفة من الفتاة .

هتفت الأم تقول :

— أنا مسرورة جدا يا بافل ألكسندروفتش ، أبلغ من السرور أنى
 أوشك أن أعلن هذا من فوق جميع الأسطح ! لست اقول شيئا عن هذه
 المفاجأة الجميلة التى فاجأتنا بها ، أنا وزينا ، بمجيئك قبل الموعد بخمسة
 عشر يوما . طبعاً . وانما أنا مفتنة أشد الاقتان بأنك جئتنا بهذا الأمير
 العزيز . انك لا تستطيع أن تتصور مدى حبي هذا الشيخ الرائع ! لا ،

انك لا تستطيع تصور مدى حبي اياه ! ومهما أحلف لك أغلظ الأيمان فلن تستطيع وانت شاب في مقتبل العمر أن تفهم هذه العاطفة ! هل تعلم ماذا كان بالنسبة الىّ في الماضي قبل ست سنين ؟ - هل تتذكرين يا زينا ؟ آ... لقد نسيت ... كنت تقيمين يومئذ عند عمك ... لا ... انك لن تصدق يا بافل ألكسندروفتش ! لقد كنت له مرشدة ، كنت له أختا ، كنت له أمّا . وكان يطيعني كطفل . وكان في صداقتنا سداجة ، وحنان ، ونبل . كان في صداقتنا شيء يشبه أن يكون شعرا من الأشعار التي يترنم بها الرعاة ... لا أعر على اللفظ المناسب للتعبير ! ... ذلك هو السبب في أن هذا الأمير المسكين يتذكر اليوم منزلا واحدا هو منزلي ، يتذكره وهو يحس كثيرا من الاعتراف بالجميل ! هل تعلم يا بافل ألكسندروفتش ؟ لعلك قد أنقذته حين رددته الى هنا ؟ ان قلبي ينقبض منذ ست سنين متى فكرت فيه ! هل تصدّق أنّي أراه في المنام ؟ لقد قيل ان تلك المرأة الشيطانية كانت تسحره وتمضى به الى الضياع ! وأخيرا خلصته أنت من برايتها ! وانما ينبغي الآن أن نتتهز هذه الفرصة لانقاذه انقاذا تاما . ولكن قل لي مرة أخرى : كيف استطعت أن تظفر بذلك ؟ صف لي لقاءكما تفصيلا . انني لم أتبه منذ قليل الا الى الأمر الاساسي ، وذلك من شدة انفعالي ، مع أن التفاصيل ، مهما تكن يسيرة ، ثمينة في نظري : فهي ملع الأمر ان صح التعبير . انني أحب التفاصيل حبا عظيما ، ولا سيما في الحالات التي لها شأن خطير . انني أولى التفاصيل اهتماما كبيرا ... و ... بانتظار أن يفرغ من اتمام زيته ...

أجاب موزجلياكوف يقول متهيئا لتكرار الأشياء التي ذكرها مرة

عاشرة :

- نعم يا ماريّا ألكسندروفنا ... كما سبق أن رويت لك ... ظلت العربدة تعدو بي ليلة بكاملها ، وكانت ليللة بيضاء طبعاً - فتستطيعين أن

تصوري اذن مدى تعجلى العودة ! (هتف يقول ذلك مخاطباً زينا) *
 الخلاصة : لقد هددت وصرخت وطلبت خيولا ، حتى لقد شتمت الناس
 من أجل أن أحصل على خيول فى المحطات * ألا لو كتب هذا لخرجت
 منه قصيدة من نوع القصائد التى نقرأها فى هذا الزمان ! ولكن فلنعد الى
 الموضوع : فى نحو الساعة السادسة من الصباح وصلت الى ايجيشيفو ،
 وهى آخر محطة * وكان قد أضناني البرد ، ولكن لم يخطر ببالي أن
 أنشد شيئاً من الدفاء ، بل صرخت أقول : « هاتوا خيولا ! » ؛ وبلغت
 من تخويف زوجة ناظر المحطة التى كانت تحضن طفلاً أن لبن ثديها
 لا بد أن يكون قد غاض الآن ... وكان طلوع الشمس رائعا * انك
 تعرفين ذلك النوع من عجاج الصرّ الذى يجرّ ثم يصير بلون الفضة ...
 ولكننى لم أعبأ به * كنت لا أفكر الا فى الوصول بأقصى سرعة * الخيول
 الأخيرة التى حصلت عليها انما انتزعتها اتزاعا من موظف تحديته وكدت
 أدعوه الى المبارزة * ولكن قيل لى ان أميراً قد مضى فى عربة منذ ربع
 ساعة بعد أن بات. فى المحطة ! فما ان سمعت هذا الكلام حتى قفزت الى
 العربة ، وطرط طيرانا كأن الشيطان يطاردنى ... انا تقع على شيء من
 هذا القليل لدى فيت * ، لا أدري فى أية قصيدة من قصائده * فلما صرت
 على مسافة تسعة فراسخ من المدينة ، عند منعطف صومعة سفيتوزيرو ،
 لمحت مشهداً خارقاً : عربة كبرى من عربات السفر منقلبة على جنبها *
 كان الحوذى وخادمان متسمرين أمامها يتأملونها فى ارتباك وحيرة *
 بينما تخرج من داخلها زفرات وأثات تفتّر القلب ألماً * ومع ذلك قررت
 أن أمضى غير حافل * ماذا يهمنى من أمر هذا الرجل ؟ ان فى امكانه أن
 يبقى حيث هو * ولكن العاطفة الانسانية غلبتنى * لقد صدق الشاعر
 هاينى حين قال ان هذه العاطفة الانسانية تحشر أنفها فى كل شيء *
 فتوقفت ، وهينا للنجدة أنا وخادمى سيميون ، والحوذى أيضاً ، وهو

نفس روسية حقا ، واستطعنا أخيرا نحن الستة أن نهض المركبة ، وأن
نقفها على عجلاتها ، والحق انها لم يكن لها عجالات تماما ، وانما كانت على
زلاجات . وقد ساعدنا ايضا فلاحون كانوا مارين من الغابة الى المدينة ،
فنفختهم مكافاة . • قلت لنفسى فجأة : « ايمكن ان يكون هو الامير ؟ »
ونظرت ، فاذا هو الامير نفسه ، الامير جابريل ! يا لها من مصادفة !
صحت اقول له : « يا امير ، يا عمى ! » ، ولم يتصرفنى فى أول الامر
طبعاً ، لم يتعرفنى فى اول الامر ولكنه حين القى على نظرة ثابته
كاد يدرك من انا وانى لالفت نظرك مع ذلك الى أنه الان لا يكاد
يعرف من انا واطن انه يحسبني شخصا اخر غير قريبه لقد
رأيت في بطرسبرج منذ سبع سنين ، ولم اكن يومئذ الا صبيا كما تقديرين .
لقد تذكرته انا : فلقد كان فيه ما يفجأ البصر اما هو فانى له أن
يتذكرنى !

وعرفته بنفسى ، فظهر اغتباطا وفرحا شديدا وحضنتى بين ذراعيه
وهو يرتجف من الخوف ويبكى ، نعم يبكى قلت أنصحه أخيرا :
« اركب عربتى وتعال نقضى يوما فى مورداسوف لنستريح » ، فوافق دون
أن يحملنى على التوصل اليه وذكر لى انه كان ذاهبا الى صومعة
سفيثوزيرو ليرى الكاهن ميشيل الذى يقدره أكبر التقدير ويحترمه
أشد الاحترام . أما ستياندا ماتفتنا - من ذا الذى لا يعرفها منا معشر
أقربائه ، من ذا الذى لم يسمع عنها ؟ أما أنا فقد طردتني فى العام الماضى
شر طردة مشهورة على مكنسة - اما ستياندا ماتفتنا هذه ، فكانت قد تلقت
رسالة مستعجلة تنبئها بأن أحد أهلها يحضر فى موسكو لا أدري
أهو أبوها أم هى ابنتها ، ولا حاجة بى الى أن أعرف ذلك ولعلهما
كليهما ، الأب والابنة معا ، مع ابن أخ أو ابن أخت فوقهما الخلاصة
أنها اضطربت أشد الاضطراب وبلغت من القلق أنها قررت منذ عشرة

أيام أن تفارق الأمير وأن تطير الى المدينة تجمّلتها بحضورها • وانتظر
الامير يوما ويومين يجرب طاقات شعره المستعار ، ويتطيب ويتخضب ،
ويستطلع الغيب في الورق وربما في الفول ؛ ولكنه لا يستقر على حال من
القلق في غياب ستيانيد ماتفتشنا • وعندئذ أمر باعداد عربته ومضى مسرعا
في اتجاه سفيتوزيرو ! وقد حاول واحد من المنزل أن يصده عن ذلك
خوفا من ستيانيد ماتفتشنا الغائبة ، ولكن الأمير أبى . أن يسمع شيئا • لقد
سافر أمس بعد الغداء ، وبات في محطة ايجيشيفو ، ثم غادرها عند الفجر ؛
وفيما كان ذاهبا الى الكاهن ميشيل ، وعند مفترق الطريق تماما ، انما كان
يهوى مع عربته في واد عميق • لقد أنقذته ونصحته أن يأتي الى صديقتنا
المشتركة ، ماريا ألكسندروفنا المحترمة جدا • وهو يقول انك أطف
سيدة رآها في حياته • وهكذا وصلنا الى بيتك • ان الأمير يصلح زينته
فوق ، بمساعدة خادمه الذي لم ينس أن يصطحبه ولا ينسى يوما أن
يصطحبه في أى ظرف من الظروف ، لأنه يؤثر أن يموت على أن يظهر
أمام السيدات بدون بعض الاستعدادات أو بعض الاصلاحات بتعبير أدق
... انتهت قصتي ! ... هي قصة جميلة !

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول بعد الاصفاء :

— هه ! لآنت رجل فكه ! ما كان أجمل طريفته في سرد الحكاية !
ولكن يا صديقي بافل ، هناك سؤال أريد أن ألقه عليك : اشرح بالتفصيل
قربانك بالامير • أنت تسميه « عمك » ، أليس كذلك ؟

— والله يا ماريا ألكسندروفنا أنا لا أعرف كيف أمت اليه بقربي ،
ولا أعرف من جهة أى شخص جاءت هذه القربي • أحسب أنها ترجع
الى الجيل السابع تقريبا ، ولكن ما ينبغي الاطمئنان الى هذا كثيرا • وأنا
لا أحس أى احساس بأننى مسئول عن هذه القرابة • واذا كان هناك

آثم ، فهو عمتى أجلائي ميخائيلوفنا • على أن عمتى أجلائي ميخائيلوفنا لم
تزد يوما على أن تعدّ ذوى قربانا على رموس اصابعها • وهى التى حفستى
فى السنة الماضية على الذهاب الى دوخانوف لزيارة الأمير ؟ ألا انه من
المؤسف أنها لم تذهب اليه بنفسها • ولست أرى فى ذلك أى مكر على
كل حال ••• فأنا أنادى الأمير « يا عمى » ، وهو يجيبنى • ذلك هو
الأمر بيننا ، الآن على الأقل •••

— رغم كل شيء أعود فأقول ان الله وحده هو الذى ألهمك أن تجيء
به الى منزلى • اننى لأرتجف حين أتصور ما كان يمكن أن يحدث له ،
أن يحدث للأمير المسكين ، لو مضى الى مكان آخر غير منزلى • نعم ،
لو وقع فى منزل غير منزلى لكان يمكن أن يجرد وأن يقطع وأن يلتهم
التهاماً ••• لو وقع فى منزل غير منزلى لارتموا عليه ارتماءهم على منجم ،
ارتماءهم على أرض من ذهب • انك لا تستطيع أن تصدق ما يتصف به
أهل هذه المدينة من شراهة ودناءة وحطة يا بافل ألكسندروفتش ! انهم
لا يتورعون عن شيء !

أسرعت أناستازى بتروفا تقول وهى تصب الشاى :

— هه ••• والى أى منزل كان يمكن أن يؤخذ ؟ الى منزل آنا
تيكولايفنا ؟ ••• ماذا ؟ لا تريدون ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا وهى تنهض عن مقعدها نافذة الصبر :

— على كل حال ، لقد غاب كثيرا ••• ذلك أمر غريب •••

— عمى ؟ أنا واثق أنه لن يفرغ من زيتته قبل انقضاء خمس ساعات
أخرى • ولقد فقد الأمير ذاكرته فلم يبق له منها شيء ، فمن الجائز جدا
أن يكون قد نسى أنه فى زيارة عندك • انه رجل غريب صاحب مفاجآت
يا ماريا ألكسندروفنا !

— أوه ! كفى ، أرجوك !

— هذه هي الحقيقة يا ماريا ألكسندروفنا ، مهما يكن رأيك • لقد أصبح الأمير أشبه برجل من ورق • أنت رأيته منذ ست سنين ، أما أنا فقد رأيته منذ ساعة • أؤكد لك أنه مشرف على الموت ، هو شيخ انسان نسوا أن يدفنوه ! له عين من زجاج ، وله ساق مصنوعة ، وهو مركب على نوابض • • وحتى اذا شئت انطاقه فلا بد أن تضغطى على نابض •

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول وهي تصطنع هيئة قاسية :

— رباه ! ليتنى لم أحمل نفسي عناء الاصغاء اليك أيها الرأس الطائش • • كيف لا تستحى أيها الفتى أن تقول هذا الكلام عن شيخ محترم وأنت تمت اليه بقربى • فاذا كنت تنسى سخاءه الذى لا حدود له (وهنا اتخذ صوت ماريا ألكسندروفنا نبرة انفعال قوى) ، فلتذكر على الاقل أنه البقية الباقية من ارستوقراطيتنا ! أكنت تمزج يا صديقى ، يا صديقى العزيز ؟ ان ما تردده هو ثمرة الأفكار الجديدة • والله ، أنا أيضا مع الأفكار الجديدة • وأنا أدرك أن لهذه الافكار الجديدة أساسا رائعا ، وان فيها جانبا ساميا • ولكن ذلك لا يمنعنى من أن ارى من الأمور جانبها العملى ان صح التعبير • لقد عشت فى المجتمع ، فلى من الخبرة ما ليس لك • ثم اننى أخيرا أم ، أما أنت فلست الا شابا فى ريعان الشباب • انه هو شيخ هرم ، وهذا وحده كاف لأن يجعله مضحكا فى نظرك • وهناك ما هو أدهى من هذا • لقد ذكرت لنا فى المرة الأخيرة أنك تنوى أن تعتق أفانك وأن من واجب المرء أن يفعل شيئا فى سبيل التقدم • كل ذلك لأنك قد أخذت تدرس شكسبير ! صدقنى يا بافل ألكسندروفتش ؟ ان شكسبير قد انقضى زمانه ، واذا بعث الآن حيا فلن يفهم من عاداتنا وأخلاقنا شيئا رغم كل ذكائه • واذا كان هنالك شيء من

فروسية ونبل في عالمنا الآن ، فانما ينبغي أن نبحت عنه في مجالات أخرى • الأمير يظل أميرا ، سواء أكان في كوخ أم كان في قصر • اليك هذا المثال : ان زوج ناتاليا دميتريفنا قد ظن أنه يسمو الى مرتبة النبالة اذا هو بنى قصرا ، ومع ذلك ظل هو زوج ناتاليا دميتريفنا لا أكثر • وناتاليا دميتريفنا هذه ، رغم الأنواب المنفوخة الخمسين التي تزيّن بها قفاها تظل هي ناتاليا دميتريفنا • وأنت نفسك انما تنتمي بمحتدك الى الطبقة النبيلة • وأنا أيضا لا أشعر أنني غريبة عن الارستقراطية ، لذلك أقول : ويل للطائر الذي يحتقر عشه ! ثم اننى على ثقة يا عزيزى بافل ، انك ستعشق هذه الأمور خيرا منى ، وستترك صاحبك شكسبير جانبا فى يوم من الأيام •• أنا أتنبأ لك بذلك • أنا على يقين من أنك غير صادق ولا مخلص فى هذه اللحظة ، وانك انما تصطنع هذا الوضع اصطناعا • ولكن احسب اننى ثرثرت كثيرا • انتظرنى هنا يا عزيزى بافل ، أنا صاعدة الى فوق ، لأرى ما يجرى • قد يكون الأمير فى حاجة الى شيء ما ••• وأنت تعلم ان خدمى •••

وهنا أسرع ماريا ألكسندروفنا تخرج من الغرفة لتراقب سلوك خدمها •

– ان ماريا ألكسندروفنا تبدو سعيدة كل السعادة بأن الأمير لم يذهب الى تلك التصنعة المتكلفة أنا نيكولايفنا • ومع ذلك فان هذه السيدة تروى لكل قادم أنها قريبة الأمير • لا بد أن تكون الآن حائقة حنقا مسعورا •

كذلك قالت آناسازيا بتروفنا ؛ ولكن السيدة زيا بلوفا ، وقد لاحظت أنه ما من أحد يصغى الى كلامها ، ألقت نظرة الى جهة زيننا وبافل ألكسندروفتش ، فأدركت أن حضورها زائد ، فأسرت تخرج كأن هناك عملا يجب أن عمله فى خارج الغرفة هي أيضا • ومع ذلك ما ان اجتازت

الباب حتى توقفت وأصاحت بسمها • انها تهوى هذا النوع من التنصت
هوى شديدا •

ما لبث بافل ألكسندروفتش أن التفت نحو زينا • انه فى حالة
هيجان لا سبيل الى وصفها • كان صوته يرتجف • قال بلهجة يمتزج
فيها الخوف بالضراعة :

— زينايد آتاناسيفنا ، ألسنت غاضبة منى ؟

— منك ؟ لماذا ؟

كذلك أجابته زينا وقد احمرت قليلا ورفعت اليه عينين رائعتين •

— لعودتى قبل الألوان يا زينايد آتاناسيفنا • لم يكن فى وسعى ان
أنتظر خمسة عشر يوما أخرى • لا ••• لم يكن فى وسعى ذلك •••
كنت أراك فى أحلامي دائما ••• وأسرعت أخيرا لأعرف المصير الذى
تخبئنه لى ••• ولكنى أراك تقطين ، أفأنت حائقة على ؟ هل يعقل أن
أبقى الى الآن لا أعرف شيئا حاسما ؟

كانت زينا قد قطبت حاجبيها فعلا •

وقالت وهى تخفض عينيها من جديد ، قالت بصوت قاطع قاس فى
أن واحد ، ويختلج فيه مع ذلك شيء من أسف :

— كنت واثقة أنك ستستأنف الكلام فى هذا • واذا أن الانتظار يشق
على نفسى أنا أيضا ، ففى رأى أن الاسراع فى حسم الموضوع أولى •
انك تعيد طلب يدى أو قل بتعبير أصبح انك ترجونى ان أعطيك جوابا •
فاسمح لى أن أكرر لك ما سبق أن قلته وهو أن جوابى لا يمكن أن
يتغير : انتظر • أكرر لك أننى لم أتخذ قرارا بعد ، ولا أملك أن أعدك
بأن أصبح زوجتك • ذلك أمر لا يفرض فرضا يا بافل ألكسندروفتش •

ومع هذا أحب أن أقول لك مرة أخرى ، من أجل أن أهدئك وأطمئنتك ،
 اننى لا ارفض رفضا حاسما • فارجو أن تدع هذا مائلا فى ذهنك • ولئن
 كنت أدع لك أن تأمل فى جواب يرضيك ، فاننى لا أقبل هذا اشفاقا
 على نفاذ صبرك • ولكننى أعود فاقول لك اننى أحرص الان على أن أظل
 حرة طليقة ؛ فاذا قلت لك فى المستقبل اننى أرفض طلبك ، فليس لك أن
 تؤاخذنى على أننى تركت لك للرجاء بابا مفتوحا فى غير طائل • ذلك
 ما يجب أن تقنع به الآن •

صاح موزجلياكوف يقول بصوت شاكٍ :

— نعم ، أنا أعرف ما يجب على أن أقنع به • فهل أستطيع أن أعدّ
 هذا أملا ؟ هل فى أقوالك ما قد يكون لى فيه حظ يا زينائد اتانا سيفنا ؟
 — تذكر ما قلته لك ، واستخلص منه النتيجة التى تحب • ذلك
 شانك أنت • اما أنا فليس عندى ما أضيفه • اننى لما أرفضك بعد ، كبل
 ما قلته هو أن عليك ان تنتظر • وأكرر لك أننى أحتفظ بكامل حريتى
 فى رفضك اذا انا استحسننت ذلك فى المستقبل • وأحب أن ألفت نظرك
 الى شىء اخر يا بافل ألكسندروفتش • اذا كنت قد جئت قبل الموعد
 المضروب لجوابى ، معتمدا على حماية أحد ممن يحيطون بى ، على حماية
 أمى مثلا ، فقد أخطأت خطأ كاملا • وأرجو ان تدرك أننى فى مثل هذه
 الحالة سأرفضك قطعاً • كفى الآن هذا • وآمل أن لا تعود الى الاشارة الى
 هذا الأمر قبل الأوان المحدد •

قالت الفتاة هذا الكلام كله بلهجة جافة خشنة ، قاطعة جازمة ، بلا
 تردد ، كأنما هى قد أعدته من قبل • وأحس السيد بافل ألكسندروفتش
 بوهن فى قواه • وفى تلك اللحظة انما عادت فظهرت ماريا ألكسندروفنا
 وظهرت وراها السيدة زيا بلوفا على الفور تقريبا •

— أعتقد أنه آت حالا يا زينا ! اسرعى يا آناستازيا بتروفا ، فأعدى
شايًا جديدًا !

كان يبدو على ماريا ألكسندروفنا أن اضطرابًا قليلًا قد اعترافها •
قالت آناستازيا بتروفا وهى تهرع نحو السماور :

— لقد بعثت أنا نيكولايفنا من يستطلع الأنباء • فان خادمتها آنيونا
قد تسلفت الى مطبخنا تسال عن الاخبار • فى وسعكم أن تتأكدوا أنها
مسعورة حنقا •

قالت ماريا ألكسندروفنا تجيب من فوق كتف السيدة زيا بلوفا :

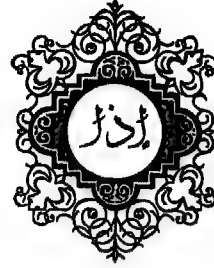
— ما شأنى انا ؟ أحسبين أننى أهتم بما تفكر فيه صاحبك أنا
نيكولايفنا ؟ فنى انتى لن ارسل احدا الى مطبخها ، انا ! ••• ولكن من
حقى ان استغرب ، ان استغرب أشد الاستغراب ، أن تعدينى عدوةً لهذه
الانا نيكولايفنا المسكينة ، لا انت وحدك بل سائر الناس فى المدينة أيضا •
انتى احتكم اليك يا بافل ألكسندروفنتس ، فانت تعرفنا كلنا : فيم أكون
عدوتها ؟ ااكون عدوتها من أجل الأسبقية أو الأولوية ؟ ألا انتى لا أعبا
بهذه الأسبقية أو الأولوية ! ان لآنا نيكولايفنا أن تعد نفسها الاولى ماشاء
لها هواها ذلك ! واننى لمستعدة أن أذهب اليها فأهتها على أنها هى الأولى •
انتى ادافع عنها ، وأشعر أن علىَّ أن أدافع عنها • ما أكثر ما قالوا فى
حقها ! لماذا تنتقدونها جميعا على هذا النحو؟ انها شابة ، فهى تحب التبرج،
فأى ضرر فى هذا ؟ فى رأى أن حب الغنج والدلال خير من نقيصة
أخرى •• كنفيسة ناتاليا ديتريفا التى تحب •• أشياء يحسن السكوت
عنها ! أناخذون على أنا نيكولايفنا أنها لا تنفك تطوَّف زائرة هنا وهناك
بدلا من المكوث فى بيتها ؟ ولكن سبب هذا هو أنها لم تتعلم ، فمن الطبيعى
أن لا تستطيع فتح كتاب ، أو الانشغال بأى شئ من الأشياء دقيقتين

متابعتين ! أتأخذون عليها أنها تأخذ تلعب عينيها على النافذة حين يمر رجل فى الشارع ؟ اذن عليكم ان لا تؤكدوا لها انها جميلة ، فى حين أنها ليس لها من الجمال الا ذلك الشحوب الشديد ! أفلا يقولون لها مع ذلك انها لا يضارعهما أحد فى رقص البولكا ؟ صحيح أنها تضع زينات وقبعات غير معقولة ، ولكن الذنب ليس ذنبها اذا لم يكن لها ذوق ، واذا كانت سريعة التصديق • فحين تقولون لها ان « الموضة » توجب غرس شرائط فى الشعر ، فلا بد أن تغرس فى شعرها شرائط ! أما عن الهذر ، فمن ذا الذى يبرأ من الهذر ؟ من ذا الذى لا يثرثر كثيرا ؟ وتقولون انها تستقبل سوشيلوف ذا اللحيتين صباحا ومساء وربما ليلا ، فماذا تريدون لها أن تفعل اذا كان زوجها يظل يلعب بالورق حتى الساعة الخامسة من الصباح ؟ فلماذا تتصورون الشر فى كل أمر ؟ من ذا الذى لا يقول عليه الناس هنا فى شىء من الأشياء ؟ ثم ان هذا كله قد لا يكون الا نمائم كاذبة • لسوف أظل أكرر فى كل زمان ومكان : اننى أدافع عنها ! آه ... رباه ! هذا هو الأمير ! ... انه هو ... انه هو ! ... أعرفه ، وسأعرفه بين ألف رجل •

وهتفت ماريا ألكسندرا تستقبل الأمير وهى تهب الى لقائه :

- أخيرا أراك يا أميرى !

الفصل الرابع



نظرت الى الأمير نظرة سطحية أولى ، فلن تحسبه شيخا • ولكنك اذا أنعمت النظر قليلا أدركت أن الرجل ليس في الواقع الا مومياء تتحرك بنوابض • لقد استعملت جميع الحيل المصنوعة من أجل الباس هذه المومياء لبوس رجل شاب • شعر مستعار ، لحيتان صغيرتان في العارضين ، شاربان ، قبعة من الطراز الاسباني حالكة السواد تخفي نصف الوجه ••• والوجه مخضب بياض وحمرة ، لا تكاد ترى فيه تجاعيد ! انه ليستحيل عليك أن تهزر ماذا صنع بالرجل حتى يظهر بهذا المظهر ! والأمير يرتدى ملابس على آخر « موضه » ، حتى لكأنه صورة منتزعة من « ألبوم » خياط كبير • انه يلبس « جاكيت » أو شيئا من هذا القليل ، لا أستطيع أن أطلق اسما دقيقا على هذا النوع من الرداء الرائع الذي جعل ملائما لذوق العصر ، وصنع خصيصا لزيارات الصباح • أما القفازان ورباط العنق والصديرة والقميص وكل ما يتبع ذلك فهي نصرة نصرة تبهر الأبصار ، وهي منتقاة انتقاء يدل على ذوق رفيع ! والأمير يعرج قليلا ، ولكن عرجه يبلغ من الحدق أن الناظر اليه يحسبه ضرورة من ضرورات « الموضه » أيضا • وهو يضع نظارة على عينه الزجاجية ، وتفوح منه رائحة العطور • واذا تكلم كان يلح على بعض المقاطع الحاحا خاصا ، اما بسبب ضعف الشيخوخة ، واما بسبب أسنانه ، واما بسبب تعمده ذلك اظهارا لخطورة الشأن وعلو المنزلة ؛ فهو ينطق بهذه المقاطع على نحو رخو جداء، متكئا اتكاءا خاصا على الحرف

e ؟ فإذا أراد أن يقول مثلا : « da » (نعم) ، خرجت الكلمة من فمه
 de ، مع مزيد من النعومة والليونة . وذلك كله يكشف عن انسان
 متصنع متكلف ظل طول حياته يظن أنه لا سبيل الى مقاومته ؟ ذلك كله
 بقايا سناء قديم ، ولكن هذه البقايا قد بلغت الآن من التغير ان هذا الانسان
 المزهو بنفسه لم يبق منه الا ظله . فهو لا يملك اليوم الا الجانب الذى
 يثير الشفقة من شيخوخة زائدة لن يرد اليها النضارة عطار ولا خياط
 ولا مزين . لذلك فان الافضل أن نبادر فنعترف بان الرجل ان لم يكن
 قد فقد عقله بعد ، فانه قد فقد ذاكرته منذ زمن طويل . فهو فى كل لحظة
 يثنئ ، ويكرر ، ويهرف ، وينسى ما يريد ان يقوله . فلا بد للمرء من
 صبر طويل وحكمة بارعة حتى يستطيع أن يجرى معه حديثا . ولكن ماريا
 ألكسندروفنا تستطيع الاعتماد على نفسها ، فما كادت ترى الامير حتى
 أخذت تندفق فى الكلام معربة عن اعجابها .

صاحت تقول وهى تمسك يدى الأمير وتجلسه على مقعد وثير
 مريح :

— انك لم تتغير قط ، لم تتغير قط ، يا أمير . ااعد يا أميرى اعد .
 ست سنين ، ست سنين كاملة لم ارك خلالها ! وما من رسالة طوال هذه
 المدة ، ولا من كلمة قصيرة ! آه . . . انك مقصر فى حقى يا أمير . .
 أنا زعلانة منك أشد الزعل يا أميرى العزيز ! ولكن أين الشاى ؟ أين
 الشاى ؟ ماذا تنتظرين حتى تقدمى الشاى يا آناستازيا بتروفنا ؟

زأراً الأمير يقول :

— أشكرك . . أش . . كر . . لك . . أء . . ت . . ذ . . ر (نسينا
 أن نقول ان الأمير اذا كان يثنئ ، فمن قبيل التجميل والتظرف أيضا) .
 وأضاف يقول شارحا وهو ينظر فى الصالون متفرسا :

- لقد أردت منذ السنة الماضية أن أجيء الى هنا ، ولكنى خفت ..
فقد قيل لى ان الكو .. ليلا .. كانت منتشرة ..

أجابت ماريا ألكسندروفنا :

- لا يا أميرى ، لم يكن عندنا كوليرا •
وتدخل موزجلياكوف قائلا ليظهر نفسه :
- كان هناك وباء من الأوبئة التى تصيب الحيوانات يا عمى •
فرشقه ماريا ألكسندروفنا بنظرة قاسية •
قال الأمير :

- نعم .. وباء .. أو شئ من هذا القيل .. فعدلت عن المجيء •
طيب .. فكيف حال زوجك يا آنا نيكولايفنا الرائعة ؟ أما يزال وكيل
نيابة ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا وقد انتصبت قامتها :

- لا يا أمير ، ليس زوجى وكيل نيابة •

هتف موزجلياكوف قائلا :

- أراهن على أن عمى يحسبك آنا نيكولايفنا آتسيوفا !

ولكن موزجلياكوف لم يلبث أن عض على شفته حين لاحظ أن
ماريا ألكسندروفنا تعرف ما عليها أن تعمله بدون تدخله •

- نعم نعم .. طبعا يا آنا نيكولايفنا .. لقد خاتمتى ذاكرتى ...
آتسيوفا .. نعم .. آتسيوفا •

كذلك كرر الأمير •

قالت ماريا ألكسندروفنا وهى تبسم ابتسامة مرة :

- لا يا أميري .. أنت مخطيء .. أنا لست أنا نيكولايفنا .. وما كان لي أن أصدق أن تراني فما تعرفني ! انك لتدهشني يا أميري .. أنا صديقتك القديمة ماريا ألكسندروفنا موسكاليوفا .. هل تذكرت يا أميري ؟

- ماريا ألكسندروفنا ؟ مستحيل ! .. كنت أحسب .. نعم كنت أحسب .. كنت أحسبك أنا فاسيلفنا ! شيء ممتع ! ... كنت أظن يا صاحبي أنك انما جئت بي الى منزل أنا ماتقشفنا تلك ! شيء رائع ! على أنني يحدث لي كثيرا أن أضل طريقى .. ولكن يسرني ، يسرني جدا أن أضل طريقى .. ولكن يسرني ، يسرني جدا أن هذا وقع لي ! اذن لست أناستازيا فاسيلفنا ؟ لط .. يف ...

- أنا ماريا ألكسندروفنا يا أميري ! آه .. ما أكبر ذنبك في حقى ! أتسى خير صديقة لك ؟

- حقا .. خير صديقة لي .. عفوا .. عفوا !
كذلك ثأنا الأمير يقول وهو يفرس نظره في زينا .
قالت ماريا ألكسندروفنا :

- هذه ابنتى زينا . انك لا تعرفها بعد يا أميري . لم تكن زينا في المنزل أثناء اقامتك الأخيرة ، هل تتذكر ...
- آ .. هي ابنتك ! رائعة ! رائعة !

هكذا جمجم الأمير وهو يتفرس زينا بشراهة ثم يقول دون أن يخفى اضطرابه :

- ولكن ما أجملها !
- هل لك بشيء من الشاى يا أمير ؟

كذلك قالت ماريا ألكسندروفنا وهي تلفت انتباه ضيفها الى القوزاقى
الواقف أمامه حاملا صينية بين يديه • فتناول الأمير الفئجان وتأمل الفتى
ذا الخدين المدورين الورديين ، ثم قال يسأل :

— أهو ابنك ؟ يا له من فتى جميل ! هل سلوكه حسن ؟

فبادرت ماريا ألكسندروفنا تقاطعه قائلة :

— لقد سمعت يا أمير عن الحادثة الرهيبة التى وقعت لك ...
فاضطربت أشد الاضطراب • وقلقت أشد القلق • هل أصبت بسوء ؟ هل
جرححت ؟ انتبه ! ما ينبغي لك أن تهمل نفسك !

صاح الأمير حانقا :

— لقد قلبنى ، قلبنى ، الحوذى قلبنى ! رأيت نجوم الظهر • • غفر
الله لى • • حسبته يوم القيامة • لم أكن أتوقع ذلك ! لم أكن أتوقعه أبدا •
هى خطيئة تيوفيل ، الحوذى ! وائنى أعتمد الآن عليك يا صديقى : قم
بتحقيق دقيق ، تحرر الأمر جملة وتفصيلا ، اكتشف الاسباب • • أنا
على يقين أنه كان يريد قتلى !

أجاب بافل ألكسندروفتش يقول :

— طيب يا عمى طيب ، سأدبر الأمور • ولكن صدقنى يا عمى • •
اغفر له هذه المرة •

— أبدا ، لن أغفر له • • لن أعفو عنه • أنا متأكد من أنه كان يريد
أن يقتلنى ، هو ولوران أيضا ، لأننى تركت لوران فى المنزل • هل
تصورون أنه أصبح يدين بالأراء الجديدة ؟ لقد أخذ يجحد كل شيء • •
انه شيوعى بأقوى معانى هذه الكلمة • صرت أخشى أن ألتقى به وحيدا •
صاحت ماريا ألكسندروفنا :

— ما أصدق ما تقوله يا أمير • لا تستطيع أن تتصور مدى ما أقاسى
أنا أيضا من هؤلاء الخدم الكريهين • تخيل أننى غيرت اثنين منهم ، فهم
من الغباء بحيث لا بد لى أن ألحقهما من الصباح الى المساء • ليس فى
وسمك أن تتصور مدى بلاهما يا أمير !

قال الامير سعيدا كسائر الشيوخ باتباه الناس الى هذرهم :

— نعم ، نعم • ومع ذلك يجب علىّ أن أقول لك اننى أوتر الخدم
الذين يكونون على شىء من الغباوة • فالغباوة تناسب الخدم : هى عندهم
مزية ، شريطة أن يكونوا صادقين صريحين طبعاً • ان الغباوة تسبغ على
الخدام مظهرا وقورا ، وتضفى عليه شيئا من الأبهة ، وتجعل أدبه أفضل؛
وما أشده أنا فى الخادم هو المظهر الحسن • مثال ذلك واحد من خدمى
هو تيرانس •• هل تذكر تيرانس يا صديقى ؟ اننى منذ رأيته فى أول
مرة تنبأت بكل شىء • قلت له : لانت السويسرى بالفطرة ! انه غبى غباء
رهيبا ! ان رأسه أشبه برأس خروف ظمآن يبحث عن ماء يشربه • ولكن
ما أروع مظهره ! ما أحسن أبهته ! ان لون جوزة عنقه هو اللون الوردى
الجميل الشاحب •• فاذا لبس ثياب الحفلات وعقد ربطة الرقبة أحدث فى
الناظر اليه أثرا عظيما ! اننى أحبه من أعماق قلبى • وفى بعض الأحيان
أقول لنفسى : ان هيئته كهيئة من يناقش رسالة •• انه أشبه بأستاذ ألماني،
انه الفيلسوف « كَنْت » ، بل هو خير من ذلك ، ديك رومى معلوف ••

ذلك هو النموذج المناسب فى خادم •

كانت ماريا ألكسندروفنا تصغى الى الأمير باتباه واعيحاب ، فلما
فرغ من كلامه طفقت تضحك وهى تصفق براحة يدها • وجارها فى
ذلك بافل ألكسندروفتش • لقد أعجبه عمه كثيرا • وانطلقت آناستازيا
بتروفا تهقه هى أيضا • أما زينا فقد تواضعت فابتسمت •

صاحت ماريا ألكسندروفنا :

- أنت تفيض فكاهة ومرحا ونكتة يا أمير ! ان لك قدرة عجيبة على اظهار أخفى المضحكات ! فكيف تعتزل المجتمع فتسجن نفسك خمس سنوات برمتها يا أمير ؟ أ تكون لك هذه الموهبة الغذة الفريدة ثم تعتكف ؟ ان عليك أن تكتب يا أمير ! لو كتبت لكنت فونفيزين ثانيا ، أو جربويدوف آخر .. لو كتبت لكنت جوجول جديدا ! *

قال الأمير مسرورا :

- طبعاً ، طبعاً .. أستطيع ذلك .. هل تعرفين أننى كنت فى شبابهى فكها جدا ؟ حتى لقد كتبت تمثيلية هزلية .. وكانت تشتمل على حوار رائع .. ولكنها لم تُمَثَّل ...

- آه .. لا بد أن قراءتها ممتعة جدا ! هل تعرفين ماذا يجب أن تعمل يا زينا ؟ اننا نستعد هنا لتمثيل مسرحية يرصد ريعها لجرحى الحرب يا أمير ، فليتك تعطينا هذه المسرحية لتمثيلها !

- حقا ! أنا مستعد لاعادة كتابتها .. ولكننى نسيتهما تماما . أتذكر أن قد كان فيها نكتتان أو ثلاث قائمة على الجنس اللفظى هى من النكت التى تبلغ من الحلاوة أن من يسمعها يلحس يديه متلظا (قال الامير ذلك وهو يجرى حركة اللحس والتلظ) . ثم اننى حين كنت فى الخارج كنت أثير أشد الحق والفيظ .. نعم أشد الحق والفيظ ! اننى أتذكر الآن اللورد بايرون . كنا صديقين . لقد رقص رقصة الكراكوفياك فى مؤتمر فيينا * فكان أحسن الراقصين .

- اللورد بايرون يا عمى ؟ صحيح ؟

- طبعاً ، طبعاً ، اللورد بايرون ! على كل حال ، ربما لم يكن هو

اللورد بايرون ! لا *** لم يكن هو اللورد بايرون ، بل شخص آخر ، شخص بولندي ! اننى أتذكره الآن تذكرنا واضحا ! لقد كان شخصا غريبا على جانب عظيم من التفرد والشذوذ ! كان يدعى أنه كوت مع أنه لم يكن الا طباحا ! ولكن ما كان أبرعه فى رقصة الكراكوفياك ! ومن المؤسف أن ساقه كسرت بعد ذلك • وفى هذه المناسبة انما كتبت أقول :

صاحبنا البولياك

قد رقص الكراكوفياك *

والتمة *** نسيت التمة

الساق منه كسرت

رقصاته توقفت

صاح موزجلياكوف وهو ماينفك يزداد حماسة :

- لا بد أن يكون هذا هو ما قلته ، هذا تماما ، أليس كذلك

يا عمى ؟

فأجاب الأمير :

- أحسب أن هذا هو ما قلته ، أو هو شيء قريب منه •• على كل

حال ، قد لا يكون هذا هو ما قلته •• ولكن هذه الأبيات قد عادت الى

ذاكرتى الآن •• اننى أنسى أشياء كثيرة •• ذلك لأننى مشغول جدا ••

سألته ماريا ألكسندروفنا باهتمام :

- قل لى يا أمير ، بماذا كنت منشغلا ذلك الانشغال كله طوال هذه

المدة من الاعتكاف ؟ لطالما فكرت فيك يا أميرى العزيز ، حتى بلغت من

ذلك أننى أصبحت أحترق شوقا الى معرفة بعض التفاصيل ••

- بماذا كنت منشغلا ؟ أو •• بأشياء كثيرة جدا •• حين يعتزل المرء

نشدانا للراحة فان خياله يعدو فى بعض الأحيان عدوا سريما لا يدرى
أحد الى أين ***

- لا شك أن لك خيالا غنيا يا عمى !

- غنيا جدا .. حتى ليتفق لى فى بعض الأحيان أن أتخيل أشياء تثير
دهشتى أنا نفسى وحين كنت فى كادوييف .. بالمناسبة ! ألم تكن
نائب حاكم كادوييف ؟

صاح بافل الكسندروفتش :

- أنا يا عمى ؟ ما هذا الكلام ؟

- تصور يا عزيزى أننى حسبك نائب الحاكم ، فقلت لنفسى :
« كيف يمكن أن يصبح له وجه آخر على حين فجأة ؟ » ... ذلك أن
نائب الحاكم كانت هيئته على جانب من الفخامة والأبهة والرصانة . وكان
رجلا فكها الى حد كبير .. وكان ينظم شعرا فى كل مناسبة ... وإذا
نظرت اليه من جانب رأيت أنه يشبه الشاه فى لعبة الشطرنج .

قالت ماريا ألكسندروفنا تقاطعه :

- أحلف لك يا أمير أن حياة كالتى تعيشها سوف تضيعك . كيف
تحبس نفسك خمس سنين ، معتزلا الناس لا ترى أحدا ولا تسمع
شيئا ؟ اسأل من شئت يقل لك انك على منحدر سىء ...

صاح الأمير يقول :

- أهذا ممكن ؟

- أؤكد لك يا أمير .. وانما أنا أقول لك هذا الكلام قول صديقة
مخلصة ، قول أخت محبة ، لأنك عزيز جدا فى قلبى ، لأن ذكرى الماضى

مقدسة فى نفسى • فىم هذا ؟ ألا انك ان لم تغير طرز حياتك رأسا على عقب ، كنت تهىء نفسك للمرض والانهاك والموت السريع ...

- آه •• يا رب ! أأنت تعتقدين اذن بأننى أوشك أن أموت ؟

كذلك صاح الأمير مذعورا ، ثم أضاف يقول :

- لقد قلت عين الصواب • اننى أتألم كثيرا من البواسير ، ولا سيما منذ زمن قريب •• وحين توافينى النوبات تظهر عندى أعراض غريبة تبعث على الدهشة • وسأصفها لك الآن تفصيلا قبل كل شئ •••

هنا قاطعه بافل ألكسندروفتش قائلا :

- ستشرح لنا ذلك فى مرة أخرى يا عمى • أما الآن فعلينا أن نفكر فى الانصراف ، أليس كذلك ؟

- بلى ! وسأشرح لك هذه الأمور فى مرة أخرى ان شئت ؟ وما هى بالأمور الشائقة التى يسر سماعها على كل حال • اننى أدرك ذلك الآن •• ولكنه مرض نادر عجيب مع ذلك •• هناك مراحل عدة • ذكرنى بهذا فى المساء يا صديقى •• سأروى لكم تفاصيل دقيقة •

وقاطعته ماريا ألكسندروفنا من جديد تقول :

- اسمع يا أمير •• عليك أن تسافر الى الخارج طلبا للعلاج •

- الى الخارج ! صحيح ! صحيح ! سأسافر الى الخارج بغير إبطاء • أتذكر اننى فى عام ١٨٢٠ قضيت فى الخارج زمنا رائعا جدا • لقد كنت شبه متزوج بفيكونتيسة فرنسية • كنت مولها بها ، وكنت أريد أن أقف عليها حياتى • ومع ذلك لست الرجل الذى تزوجها ، وانما تزوجها رجل آخر • وبالحال من قصة عجيبة ! فارقتها ساعتين لا أكثر ، فاذا برجل آخر

يسبقنى فيتزوجها أثناء هاتين الساعتين • لقد اختطفها منى • كان الرجل نوعا من بارون ألماني اضطروا بعد ذلك بقليل الى ايداعه مستشفى للمجانين •

- عليك اذن يا أميرى العزيز ، كما قلت لك ، أن تعنى بصحتك عناية جدية • ان فى الخارج أطباء ممتازين ••• ثم ان السفر سيكون فوق ذلك كله تغيير الطراز الحياة الذى تعيشه • عليك أن تترك دوخانوف هذه مهما كلف الامر ، ولو الى حين !

- طبعا ، طبعا ، أنا أفكر فى هذا منذ زمن طويل • وهل تعلمين ماذا أنوى أن أفعل ؟ أنوى أن أتداوى بالمياه !

- بالمياه ؟

- طبعا • وقد سبق أن تداويت بالمياه • ذهبت الى منطقة مياه معدنية • وهناك التقيت بسيدة من موسكو نسيت اسمها الآن ، كانت فى نحو السبعين من عمرها ، وكانت على جانب عظيم من الشاعرية الأخاذة ! وكانت تصحبها ابنتها التى كانت فى نحو الخمسين من عمرها وهى أرملة فى عينها نقطة كانت هى أيضا لا تكاد تتكلم الا شعرا • غير أن نازلة ألت بها : غضبت ذات يوم من أحد خدمها فقتلته ، حتى أنها أحييت الى القضاء • فهاتان السيدتان هما اللتان نصحتانى بالتداوى بالمياه المعدنية • طبعا لم يكن بى أى مرض ، ولكنهما كانتا تلاحقانى ، ولا تنفكان تقولان لى : « هيا •• عليك بالمياه المعدنية » • فأخذت أتبع العلاج بالمياه المعدنية مجازاة لهما ، وأدبا معهما • فلاحظت فعلا أننى تحسنت • شربت وشربت ثم شربت •• كدت أبلع نهرا بكامله مثل نياجارا •• ان التداوى بالمياه المعدنية شىء عظيم حقا ، كما قلت لكم •• لقد أحسنت الى المياه كثيرا ، ولولا أتنى مرضت فى آخر الأمر ، لكنك شفيت شفاء كاملا •••

- هذه نتيجة صادقة صدقا واضحا ياعمى • قل لى يا عمى ، هل درست المنطق ؟

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول مستاءة أشد الاستياء :
- ما هذا السؤال الذى تلقيه ؟

وأجاب الأمير :

- نعم لقد درست المنطق يا صديقى ، منذ زمن طويل • تعلمت الفلسفة بألمانيا ، حيث تابعت دروس الفلسفة كلها ، ولكننى نسيتها على الفور • غير أن على أن أقول لك *** انك قد بلغت من تخويفى من هذه الأمراض كلها أننى اضطربت اضطرابا شديدا *** سأعود فورا • • اسمح لى • •

- الى أين تذهب يا أمير ؟

كذلك صاحت ماريا ألكسندروفنا مذهولة ، فأجابها الأمير :

- أنا عائد حالا ، عائد حالا • ولكننى أريد أن أسجل فكرة تشغلنى • الى اللقاء •

هتف بافل ألكسندروفتش وهو ينفجر ضاحكا :

- هه ! فى ريعان الصبا !

فلما سمعت ماريا ألكسندروفنا ذلك نفد صبرها ، فطفت تقول بحرارة :

- أنا لا أفهم أبدا لماذا تسخر هذا السخر ! من ذا الذى يضحك من شيخ محترم ، من قريب حميم ، من ذا الذى يستغل ما يتصف به مثله من طيبة ملائكية ليستهزىء بكل كلمة يقولها ؟ ألا اننى لا أرى فيه

ما يضحك ؟ واننى لأخجل منك يا بافل ألكسندروفتش • ما الذى تراه فيه مضحكا جديرا بسخريتك ؟

- هو لا يتعرف الناس ، وهو يهرف ويخلط دائما فى كل ما يقوله !

- ولكن مرد ذلك الى الحياة التى يحياها ، الى هذه السنين الخمس الفظيعة التى عاشها سجيننا تحت رقابة تلك المرأة الجهنمية ! علينا أن نرئى لحاله لا أن نسخر منه • لقد رأيت انه لم يستطع حتى أن يتعرفنى • ذلك يتجاوز الحدود ••• واجبنا أن ننقذه ! ولئن نصحته بأن يسافر الى الخارج فانتى لم أفعل ذلك الا أملا فى أنه قد يتخلص من هذه المرأة •••

هتف بافل ألكسندروفتش يقول :

- هل تعلمين يا ماريا ألكسندروفنا ؟ يجب تزويجه !

- أما تزال تسخر منه ؟ الا انك انسان لا يمكن أن يغفر له ياسيد موزجلياكوف •

- لا يا ماريا ألكسندروفنا ! لست أهزل فى هذه المرة ، وانما أنا أتكلم كلاما كله جد • لماذا لا يُزوَّج ؟ هذه أيضا فكرة ! هذا رأى كثيره من الآراء ! فيم يمكن أن يكون الزواج ضارا به مسيئا اليه ؟ بالعكس : من كان فى مثل وضعه فان اجراء كهذا الاجراء لا يمكن الا أن ينقذه ! هو أمام القانون ما يزال من حقه أن يتخذ لنفسه زوجة • وهذا يخلصه أولا من تلك الأفافة (عفوا اذا استعملت هذا التعبير) ؛ وثانيا - وذلكم هو الأمر الأساسى - تصوروا أنه اختار فتاة أو قولوا أرملة لطيفة طيبة ذكية حنونا ، فقيرة على وجه الخصوص ، تعنى به كأنها ابنته وتدرك جميله عليها اذا تزوجته •• هل يمكن أن يتمنى ، هو ، خيرا

من أن تكون الى جانبه بغير انقطاع انسانة نبيلة مخلصه صادقة بدلا من تلك المرأة • • الثروة المهدار ؟ لا بد طبعاً أن تكون الزوجة جميلة ، لأن عمى ما يزال يحب النساء الجميلات • ألم تلاحظي كيف كانت عيناه حين نظرت زينائد آتانا سيفنا ؟

قلت آناستازيا بتروفا وقد أصغت الى كلامه باتباه شديد :

— أين عسالك واجداً له امرأة كهذه التي تصفها ؟

— عين الصواب ! انك أنت تلك المرأة اذا شئت • اسمحي لي أن ألقى عليك هذا السؤال : لماذا لا تتزوجين الأمير ؟ أولا : أنت امرأة جميلة ؟ ثانيا : أنت أرملة ؟ ثالثا : أنت نبيلة ؟ رابعا : أنت فقيرة • • ذلك انك لست في الواقع غنية كثيراً ؟ — خامسا : أنت ذكية جدا ، ومعنى ذلك انك ستحيينه ، أنك ستلفيه بالتعطف ومحافطة عليه ، وأنتك ستدفين الأفاقة في باطن الأرض • سوف تحمليه على السفر الى الخارج ، سوف تسقيه مغلي الحشائش والأعشاب النافعة ، سوف تطعمينه أنواع الحلوى الشهية ، مثل السميد بالسكر ، وكل ذلك الى الدقية التي يبارح فيها هذا العالم الفاني ، وهذا لن يتأخر كثيرا ، وانما سيقع بعد سنة وقد يقع بعد شهرين ونصف شهر • وعندئذ تصبحين أميرة غنية أرملة ، ثم تتزوجين مريزا أو جنرالا ، مكافأة لك على ما بذلت من جهد ، وقدمت من تضحية ، وأظهرت من اخلاص وتفان • هذا جميل ، أليس كذلك ؟

— أوه ! أحسب أن الاعتراف بالجميل وحده سيكون كافيا لجعلى هائمة بوجه اذا هو عرض على الزواج !

كذلك صاحت السيدة زيا بلوفا وقد أصبحت عيناها تسطعان بنيران ذات دلالة • ثم أضافت تقول :

— ولكن ذلك كله ليس الا جنونا محضا •

- ليس الا جنونا محضا ؟ طبعا هو جنون محض • ولكن اطلبيه
منى بكياسة ولباقة ، ولك على أن أقطع اصبعي اذا لم تمس في هذه
الليلة خطية الامير ! لا شيء أسهل من اقناع عمي ، أو من المكر به •
لا يقال له شيء الا ويحيب : « طبعا ، طبعا ! » • هل لاحظت ذلك ؟
لسوف نكون قد زوجناه قبل أن يخطر بباله أى شيء ؟ ولكن هذا سيكون
فى سبيل سعادته ، ومن باب الرحمة به والاشفاق عليه • هيا اعتنى
بهندامك ، وارتدى أجمل ما عندك ، يا آنستازيا بترفنا !

استعرت حماسة السيد موزجلياكوف ، وسال ريق السيدة زيا بلوفا
رغم أنها امرأة عاقلة •
وقالت تجيب :

- لست فى حاجة اليك حتى أعلم أن ملاس كملاس «سانديون»*.
اننى مذعنة مستسلمة ، ولم أعد أحلم قط • لقد أصبحت امرأة مسكينة
تعمل فى خدمة المنزل • ولكن قل لى مع ذلك : هل هيئتى هيئة طبخة ؟
فى أثناء ذلك الوقت كله ظلت ماريا ألكسندروفنا ساكنة لا تتحرك،
وقد تقبض وجهها تقبضا غريبا • ولست أخطيء اذا قلت انها أصغت الى
العرض العجيب الذى عرضه بافل ألكسندروفتش بنوع من الاستياء
والامتعاض والاستنكار ، بل بنوع من الخوف والذعر ••• ولكنها ثابت
الى نفسها فقالت تقاطع موزجلياكوف بلمهجة لا جواب عليها :

- قد يكون هذا كله خيالا جميلا ، ولكنه حماقة محضة وأمر
لا محل له هنا اطلاقا •••

فانبرت لها السيدة زيا بلوفا تسألها :

- لماذا يا عزيزتى الغالية جدا ماريا ألكسندروفنا ؟ لماذا تعدين ذلك
حماقة محضة ، ولماذا تعدينه أمرا لا محل له ؟

- لأسباب كثيرة أولها أنك عندى ، وأن الأمير ضيفى ، وأننى لن أسمح لأحد أن ينسى ما يجب لمنزلى من احترام • أنا لم أحمل أقوالك الا على محمل المزاح يا بافل ألكسندروفتش • ولكن الحمد لله ، هذا هو الأمير !

هتف الأمير وهو يدخل الغرفة :

- هأنذا ! ما أشد عجبى لسيل الأفكار الجديدة التى تتدفق فى رأسى اليوم يا صديقى ! قد لا تصدّق اذا قلت لك انه يتفق لى أن لاخطر ببالى فكرة واحدة من هذه الأفكار طوال أيام برمتها •••

- لعل مرد ذلك الى الصدمة التى عايتها فى هذا الصباح يا عمى •••
لقد هزّت الصدمة أعصابك ، و •••

- قلت لنفسى هذا يا صديقى العزيز • اننى أرى أن ذلك الحادث قد نفعنى كثيرا • لقد عزمت فى هذه المرة على أن أغفر لخادمى تيوفيل • هل تدري لماذا ؟ أعتقد أنه لم يحاول قتلى ، ما رأيك ؟ ثم انه قد سبق أن عوقب فلا حاجة الى عقاب جديد • لقد حلقتنا له لحيته فى الآونة الأخيرة •

- حلقتم له لحيته يا عمى ، وله لحية واسعة كألمانيا ؟

- طبعا طبعا كألمانيا ! ان النتائج التى تخلص اليها صادقة دائما يا صاحبى العزيز ! ومع ذلك فان هذه اللحية مصنوعة • لقد وصلتى منذ مدة قائمة أسعار على حين فجأة • وكان بعضهم قد استورد من الخارج لحى ذقون للسادة والحوذيين ، ولحى للعارضين ، وشوارب وما الى ذلك ، من نوع جيد بأسعار بخسة • قلت لنفسى : فلنطلب لحية ، ولنر ما تكون • وفعلا بعثت أطلب لحية لحودى ، فلما وصلت اللحية رايتها رائعة حقا •

ولكن المشكلة أن اللحية الطبيعية لصاحبنا توفيل كانت تساوى ضعفها طولاً وغزارة • وكان لا بد من اتخاذ قرار • فاما أن نحلق لحية الحوذى الطبيعية حتى يمكن أن نضع له اللحية المصنوعة ، واما أن ندعه بلحيته الطبيعية *** وبعد تفكير طويل قررت أن اللحية المصنوعة أفضل •

— طبعاً لأن الفن يفضل الطبيعة يا عمى !

— تماماً ! فما كان أشد حزنه حين نُزعت لحيته *** يمينا لقد حزن حُزن من تنزع منه مهنته • ولكن أما ان لنا أن ننصرف يا عزيزى؟

— أنا مستعد يا عمى !

— آمل يا أمير أن لا تذهب الا الى الحاكم •

كذلك صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول بانفعال ، وأضافت :

— أنت الآن لى أنا يا أمير ، انك ملك أسرنا طوال هذا النهار • لست أقول شيئاً عن الناس الذين قد تلقاهم فى المدينة • لعلك ترغب فى أن تزور أنا نيكولايفنا • لا أحب أن أنهاك عن هذا • ولكننى واثقة من أن التجربة ستقنعك • تذكر أمرا واحداً على كل حال ، هو أنني مضيفتك وأختك ومطعمتك فى هذا النهار كله ، واننى ارتجف خوفاً عليك يا أمير • انك لا تعرف ما هؤلاء الناس !

قال موزجلياكوف :

— سأبر بوعدى يا ماريا ألكسندروفنا *** اعتمدى علىّ •

— أأعتمد عليك أنت أيها الطائش ؟ أأعتمد عليك أنت ؟ اننى أنتظر على الغداء يا أمير • نحن نجلس الى المائدة فى ساعة مبكرة • لشد ما يؤسفنى أن زوجى الآن فى القرية • ما أكثر ما كان يسعدنى أن يراك ! انه يحترمك كثيراً ، وانه متعلق بك أشد التعلق •

قال الأمير :

- زوجك ؟ هل لك اذن زوج ؟

- آه يا أمير ... لقد ضعفت ذاكرتك * أترك نسيت الماضي كله ؟
ألا تتذكر زوجي آتاناى ماتفتش ؟ أهذا ممكن ؟ هو الآن فى أرضنا ،
ولكنك رأيته ألف مرة * تذكر يا أمير : آتاناى ماتفتش ؟

- آتاناى ماتفتش ! فى القرية ! تخيلوا هذا ! شىء جميل ...
لك اذن زوج ؟ أمر غريب ... تماما كما فى تلك التمثيلية الهزلية :
خرج الرجل من الباب ، والمرأة ... معذرة ... ها قد نسيت ! خرج
الرجل منذ هنيهة ، والمرأة خرجت بعده تذهب الى مكان ما ، الى تولا ،
أو الى ياروسلاف ... ومن ذلك تتألف لُبْسَة " مسرحية مسلية مضحكة .

- خرج الزوج من الباب ...

- والمرأة ذهبت الى تغير يا عمى *

كذلك صاح موزجليا كوف *

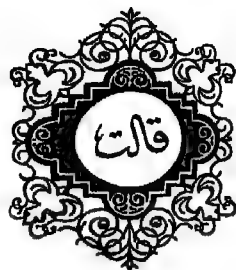
- صحيح ، طبعا ، طبعا ! أشكرك يا صديقى ! هذا هو تماما ...
الى تغير ! رائع ، رائع ! شىء متقن جدا ... قافية جميلة ... انك تجيد
القافية المناسبة دائما يا صديقى * . نعم * تذكرت الآن تذكرنا غامضا !
الزوج فى ياروسلاف ، أو فى كوستروما ، أو فى مكان آخر ، والمرأة
ذهبت أيضا ! رائع ، رائع ! على أننى نسيت ما كنت أريد أن أقوله ...
هيا بنا ، هيا بنا يا صديقى ! الى اللقاء يا سيدتى ، الى اللقاء يا آنسى
الفاتسة (كذلك أضاف الأمير يقول ملتفتا نحو زيننا ، مقبلا أطراف
أصابه) *

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول فى اثره :

- عد حتما للغداء يا أمير ! حاول أن ترجع بأقصى سرعة !

الفصل الخامس

ماريا ألكسندروفنا بعد أن شيعت الأمير :
 - عليك أن تلقى نظرة على المطبخ يا آناستازيا
 بتروفنا • يخيّل الىّ أن هذا الشيطان نيكيتكا
 سيفسد لى الغداء • وأنا واثقة أنه سكران منذ
 الان •



فسرعان ما نهضت آناستازيا بتروفنا ، ولكنها لم يفتها وهي تمضى
 أن تلقى نظرة مريبة على ماريا ألكسندروفنا اذ لاحظت أنها مضطربة أشد
 الاضطراب • لذلك لم تذهب لترى ما يفعله « الشيطان نيكيتكا » ، وانما
 اجتازت الصالون ، وانتقلت الى الدهليز ، ومضت من هناك الى غرفتها ،
 ثم مضت من غرفتها الى حجرة مظلمة تستعمل مستودعا فيها حقائب
 وصناديق وملابس قديمة معلقة ، وفيها الثياب المعدة للغسيل • تقدمت
 آناستازيا بتروفنا ماشية على رهوس الأصابع حتى وصلت الى باب مغلق ،
 فحبست أنفاسها ، ومالت الى أمام ، ونظرت من ثقب القفل ، وأخذت
 تتنصت • ان هذا الباب المحكم اغلقه واقفاله هو أحد أبواب ثلاثة تفضى
 الى الصالون الذى لبث فيه زينا وأمها •

ان ماريا ألكسندروفنا التى تعد آناستازيا بتروفنا امرأة قليلة الورع،
 تظنها أيضا طائشة طيشا كبيرا • ولا بد أن السيدة موسكاليوفا قد قدّرت
 غير مرة أن محميتها تنصت على الأبواب ، ولكنها كانت فى هذه المرة من
 شدة انشغال البال بحيث نسيت أن تحترس وأن تحاذر • وها هى ذى

غارقة فى مقعدها تنظر الى ابنتها بانتباه • ان ضيقا أليما يقبض قلب زينا
التي تحس بهذه النظرة ثقيلة عليها •

- زينا !

لفتت زينا وجهها الشاحب ببطء ، ورفعت نحو أمها عينيها الحاليتين
اللتين تنظران نظرة مظلمة قاتمة •

- زينا ، علىَّ أن أكلمك فى أمر خطير غاية الخطورة •

نصبت زينا قامتها ، وصالبت يديها ، وانتظرت ماسوف تقوله أمها .
ان وجهها يعبّر عن ضجر وسخر فى آن واحد ، ولكنها تحاول مع ذلك
أن تخفى هذا الضجر وهذا السخر •

- أريد أن أسألك يا زينا كيف رأيت اليوم موزجلياكوف «هذا» •

قالت زينا على مضض :

- أنت تعرفين رأى فيه منذ زمن طويل •

- نعم يا بنيتى ••• ولكن يخيّل الىَّ أن هذا الشاب يصبح أقرب
الى الوقاحة فى طريقة ••• مغازلتك ! •••

- هو يقول انه يحبني ، والحاحه فى السعى الىَّ يجعله خليقا بأن
يُعذر •

- عجيب ! كنت قبل الآن لا تعذرينه ! بالعكس : كنت تفضين
كلما حدثتكَ عنه •

- العجيب خاصة أنك قد دافعت عنه دائما ، أنك قد أردت دائما
أن تحملىنى على تزوجه ، وأنك تهاجمينه اليوم لأول مرة •

- تقريبا ! لست أخالفك يا زينا • لقد أردت أن أدفعك الى تزوج

موزجلياكوف • لقد شق على نفسى أن أراك دائمة الحزن ، وأن ألاحظ أن هناك سجنًا يضنى روحك ، وهو سجن استطيع أن افهمه هذا الفهم ، مهما تطنى ... وكنت من ذلك قلقة مسهدة لا أنام ، حتى وصلت الى الاعتقاد بأنه ما من شيء يمكن أن ينقذك الا أن تتغير حياتك تغيرا جذريا • وهذا التغير لا يمكن ان يتم الا بالزواج • فما نحن بالاغنياء الى حد كاف ، والا كان يمكن أن نساfer الى الخارج • ان حمير هذه المدينة يدهشهم أن تبلى الثالثة والعشرين قبل أن تتزوجى ، ويروجون عنك أنواع الشائعات • ولكن هل كان يجب على بسبب هذا أن أزوجك واحدا من موظفينا أو ان أزوجك ايفان ايفانوفتش ، المحامى المغمور ؟ هل فى هذه المدينة زوج جدير بك ؟ ورأيت أن موزجلياكوف ، رغم أنه رأس بلا دماغ ، أفضل من هؤلاء الجفافة على كل حال ، فهو من أسرة نبيلة ، وله أقرباء محترمون ، ويملك مائة وخمسين نفسا • فائرت هذا الزواج على أن أراك تعيشين فى المنزل بائسة حزينة أو ما أشبه ذلك • ولكن لئن وافقت على زواجك بموزجلياكوف يمينا ما استلطفته ، حتى اننى أعتقد الآن ان الله تعالى هو الذى حمانى منه ، أو حذرني منه ! واذا بعث الله الينا بزواج لك أفضل ... ألا انه لحظ عظيم انك لم تعطه جوابا ! هل قلت لك اليوم شيئا نهائيا يا زينا !

صاحت زينا تقول حائرة غصبي :

— لماذا اللف والدوران يا أمى اذا كان يمكن أن يقال كل شيء فى كلمتين ؟

— لف ودوران ؟ لف ودوران ؟ كيف يمكن أن تخاطبى أمك بهذا الكلام ؟ وا أسفاه ! لقد أصبحت منذ زمن طويل لا تولينى ثقتك • لقد أصبحت منذ زمن طويل تعدين أمك عدوة لك !

- كفى يا أمى ! لن تتشاجر بسبب كلمة ؟ أليس تعرف كل منا
الأخرى ؟ أحسب أن كلا منا تعرف الأخرى معرفة عميقة منذ زمن !
- ولكنك تهينينى اهانة قاسية يا بنيتى ! انك لا تريد أن تصدق
أننى مستعدة لكل شئ ، نعم لكل شئ ، تحقيقا لسعادتك !
نظرت زينا الى أمها متململة ساخرة ، وقالت وهى تبسم ابتسامه
غريبة :

- أترك مثلاً تنوين أن تدفعينى الى الزواج بالأمير « تحقيقاً
لسعادتي » ؟

- أنا ما مسست هذا الموضوع بكلمة واحدة يا زينا ، ولكن ما دام
فى وسعى أن أتحدث فيه ، فانا أقول انه اذا أتيج لك أن تزوجى الأمير
فسيكون هذا سعادة لك ، ولن يكون جنونا ...

- أما أنا فأرى ذلك جنونا •

كذلك صرخت زينا تقول فى حق • وتابعت كلامها متدفقة :

- هذا جنون ! هذا سخف ! وأنا أرى يا أمى أنك مسرفة فى
الخيال قليلاً ! انت « امرأة شاعرة » بكل معنى الكلمة ، أو هذا ما يقولونه
عك فى مورداسوف على الأقل • أنت لا تفكين تبين المشاريع فوق
المشاريع ، لا يصدقك عن ذلك أنها من أسخف الترهات والخزعبلات ! لقد
لاحظت منذ جاء الأمير إلينا • فحين أخذ موزجليا كوف يستهزئ بالأمير
زاعماً أن من الواجب تزويجه ، قرأت فى وجهك جميع أفكارك • أنا
مستعدة أن أراهن على أنك لم تفكرى الا فى هذا الأمر ، وأن جميع
ما قلته كان يرمى الى هذا الهدف • ولكن مشاريعك المستمرة التى تتعلق
بى قد أخذت تضجرنى حتى الموت يا أماء ، وأخذت تشعرنى بالخزى

والعار ! لذلك أطلب أن لا تعودى الى الكلام فى هذا الموضوع ، هل
تسمعين ؟ اعرفى هذا مرة الى الأبد !

كانت زينا تختنق غيظا وحنقا • فاجابتها ماريما السكندروفنا بصوت
منوسل ضارع :

- زينا ، بنيتى ، ما أنت الا طفلة مهتاجة مريضه ! انك تسرفين
فى امتهاني ! ما من ام يمكن ان تحتمل ما احتمله انا منك كل يوم !
ولكنك مهتاجة الاعصاب يا بنيتى ، وانا ام مسيحية قبل كل شىء ، فيجب
ان أحتمل وان أغفر • كلمة أخرى يا زينا : لماذا ترين أن هذا كله
سخف ؟ اما انا فاعتقد أن موزجلياكوف لم يكن فى يوم من الايام ذكيا
كذكائه حين أوضح حاجة الامير الى الزواج ••• لا بأناستازيا القذرة
هذه طبعاً ••• فها هنا قد تجاوز موزجلياكوف الحدود •••

- اسمعى يا أمى ، كونى صريحة ، قولى لى : أنت تلقين علىّ هذا
السؤال لمجرد حب الاطلاع ، أم لانك تبينين نية مقررّة ؟

- أنا انما أسألك لماذا ترين الأمر سخيفا الى هذا الحد •••

- مرة أخرى ؟ ما هذا المصير الذى كتب لى ! •••

كذلك صرخت زينا وهى تضرب الأرض بقدمها من شدة تمللمها :
وأردفت تشرح :

- سأقول لك لماذا أرى هذا الأمر سخيفا اذا كنت لم تدريكى ذلك
حتى الآن : لن أتعرض لجميع الأمور الغريبة العجيبة فى مثل هذا
التفكير ، وحسبى أن أشير الى أن استغلال خرف هذا الشيخ المسكين من
أجل خداعه ، وان تزوج هذا الرجل المهدم فى سبيل ابتزاز ماله ،
وتمنى الموت له فى كل يوم وفى كل لحظة أثناء ذلك ، أقول ان هذا

كله هو فى رأى عمل دنىء ، لا سخييف فحسب ... نعم ، هو عمل دنىء . يبلغ من الحطة أننى لا أهشك على أنه خطر لك ببال يا أمى !

• أعقبت ذلك لحظة صمت .

وسألت ماريا ألكسندروفنا فجأة :

– هل تتذكرين يا زينا ما حدث منذ عامين ؟

فاتنفضت زينا مذعورة ، ثم قالت بصوت رصين :

– أمى ، لقد قطعت لى على نفسك عهدا صريحا بأن لا تشيرى الى

هذا الأمر يوما •

– والآن أطلب منك طلبا صريحا يا بنيتى أن تسمحن لى فى هذه

المرّة بان أخلف هذا الوعد الذى بررت به حتى هذه اللحظة • لقد ان

لنا أن نتصارع تصارحا واضحا • لقد كانت هاتان السنتان من الصمت

رهيتين • لا يمكن الاستمرار فى هذا الصمت ! اننى مستعدة لان ابتهل

اليك راحة أن تسمحن لى بالكلام • اصفى الى • ان أمك هى التى

تضرع اليك جائية يا زينا ! ولك على عهد مقدس ، لك على عهد أم

شقية تعبد ابتها ، أن لا أتكلم فى هذا الموضوع مرة أخرى قط ، مهما

يكن العذر ، ولو لانتقاذ حياتى اذا أصبحت حياتى فى خطر • هذه آخر

مرة ... أما الآن فلا بد لى من الكلام ، لا غنى لى عن الكلام !

كانت ماريا ألكسندروفنا تعرف كيف تعتمد على الأثر الذى تحدثه

أقوالها •

قالت زينا وقد شحب وجهها شحوبا واضحا :

– تكلمى •

– شكرا يا زينا • منذ سنتين دخل الى منزلنا • لتعليم ميتيا ، أخيك

الصغير الذى مات ، دخل الى منزلنا مدرسا شاب ...

قاطعت زينا أمها تقول مشمئزة :

- لماذا تبدئين كلامك بكل هذا الانشاء الغامض يا أماء ؟ لماذا كل هذه الجمل الطويلة وكل هذه التفاصيل الجوفاء ؟ نحن نعرف هذه التفاصيل كلتنا ، وهى شاقة علينا كلتنا •
أجابت الأم :

- لأننى ، وأنا أمك ، فى حاجة الى أن أبرىء نفسى أمامك ! لأننى فى حاجة الى أن أعرض لك الأمور فى ضوء يختلف كل الاختلاف عن الضوء الفاسد الذى تنظرين إليها فيه ؛ ولسوف تدركين عندئذ ادراكا أفضل وأصدق ، النتيجة التى قررت أن أخلص إليها • لا تتصورى يا بنيتى اننى أريد أن أعبت بقلبك ! لا يا زينا ! لسوف تجددين فى أما حقيقىة ، وقد لا تملكين عندئذ أن تحبسى بضع عبارات عن الهطول بين قديمى « المرأة الدنيئة » التى هى أنا فى نظرك ••• (لقد وصفتى بهذا النعت منذ هنية) ، وأن تطلبى منى الصلح ، هذا الصلح الذى ترفضينه منذ زمن طويل • ذلك هو السبب الذى يدفعنى الى شرح كل شىء يازينا ، كل شىء ، منذ البداية ••• والا صمت فلم أقل شيئا •••
- بل تكلمى •

كذلك قالت زينا وهى فى قرارة نفسها تلعن هذا السيل المتدفق من الأقوال المتفخمة التى تصدر عن أمها •

- هأنذا أتم كلامى يا زينا • ان ذلك المدرس من مدرسى القرى ، وهو لا يبدو أن يكون صيبا ، قد أحدث فى نفسك أثرا لم أستطع أن أتخيله يوما • ومع ذلك كنت آمل أن تفلتى من الخطر ••• كنت أعتمد على ذكائك ، وعلى كبريائك الفطرية ، وكنت أعتمد خاصة على هذه النقطة الهامة: تفاهة الشاب (يجب أن أذكر الأمور كما هى) • وهأت ذى

فجأة تَجِيئين الى ذات يوم لتعلمي لى بلهجة قاطعة أنك تنوين الزواج به يا زينا • كان ذلك طعنه خنجر أصابت قلبي ! صرخت وسقطت مغشياً على • ولكن ... أنت تتذكرين هذا كله • طبعي انتى استعملت كل سلطتى ، فوصفت انت هذه السلطة بانها طغيان واستبداد وظلم • فكرى مع ذلك • لقد كان ذلك المدرس شاباً صغيراً ، وهو ابن خادم كنيسة ، وكان اجره يبلغ انتى عشر روبل فى الشهر ، وكان شويعراً مسكيناً تُنشر قصائده فى مجلة «حجرة القراءة» * من قبيل الشفقة عليه والرافه به ، كان ثرائرا لا يحسن غير الحديث الطويل عن شكسبير ذاك اللعين ! أياكون هذا الصبى زوجاً لك ؟ ايصيح هذا الصبى زوج زينائد موساليوفا ؟ الا أن ذلك ينتمى الى فلوريان* وقصائده عن الريف والبقر والرعاة • وسامحيني يا زينا اذا كان مجرد تذكر هذا الامر يخرجنى عن طورى ! ولقد طردت أنا ذلك الشاب ، ولكن لم ينفع فيك لوم ولا صدك تقرير • أما أبوك فعلى عادته لم يزد على أن يطرف بعينه دون أن يفهم شيئاً مما كنت أحاول أن أشرحه له • واستمرت أنت فى علاقاتك بهذا الشاب ، تضربين له المواعيد وتلتقين به ؟ وأنكى من ذلك أنك تجرأت فبادلته الرسائل • ومضت الاقاويل تنتشر فى المدينة • وسمعت أنا غمزاً ولمزاً جارحين • كان الناس يتهمجون شامتين منذ ذلك الحين ، وأخذوا يتقاذفون النبأ هنا وهناك • وفجأة تحققت نبوءاتى واضحة فوية : تشاجرت أنت مع الشاب لا أدري لأى سبب ، وانكشفت لك كل حقارة هذا الصبى (الذى لا أستطيع أن أصفه بأنه رجل) ، وهددك بأن يظهر الناس كلهم على رسائلك ليقرأوها ، فبلغت عندئذ من الالم فى مشاعرك انك ثرت ثورة شديدة وعنت عليه الى حد الصفع • نعم يا زينا ، أنا أعرف هذه الواقعة التفصيلية أيضاً ! ... أعرف كل شئ ، كل شئ على الاطلاق • وفعلًا ، فى ذلك اليوم نفسه ، أطلع الشاب الوغد على احدى

رسائلك تلك المرأة الدنيئة زاوشين ، وما انقضت ساعة الا وكانت الرسالة عند ناتاليا دمتريفنا ، عدوتي اللدود • حتى اذا جاء المساء استبد اليأس بهذا الشاب المجنون فحاول أن يسمم نفسه غيبا كل الغباء • فكانت فضيحة رهيبة ، كانت جرسة فظيعة • وأسرعت الى هذه البهيمة آناسازيا تخبرني بالنبا المخيف مروعة مذعورة : قالت لي ان رسالتك هي بين يدي ناتاليا دمتريفنا منذ ساعة طويلة ! وما هي الا ساعتان حتى كانت المدينة كلها تتناقل عنك النمام وتتحدث عن خزيك وعارك ! وبذلت أنا جهدا كبيرا في سبيل أن أنقلب على نفسي فما أسقط مغشيا علي ، ولكن ما كان أقسى تلك الطعنة التي طعنت بها قلبي يا زينا ! وقالت اناسيتازيا انها تستطيع اختلاس الرسالة لقاء مائتي روبل • فهرعت بنفسي ، من قبل أن يتسع وقتي لخلع خفي المنزل ، هرعت بنفسي ، تحت وابل الثلج المنهمر ، الى اليهودي بوشتاين أرهن لديه علبتي الصغيرة التي كنت أحتفظ بها ذكرى من أمي المرحومة ! وبعد ساعتين كنت أمسك الرسالة : لقد استطاعت آناسازيا أن تسرقها بكسر قفل الصندوق الذي كانت الرسالة مخبأة فيه • وبذلك أنقذ شرفك ، اذ لم يبق هنالك دليل • آه ما أكثر ما قاسيت من ذعر بسبك في ذلك اليوم الكريه المقيت ! ولاحظت في غداة ذلك اليوم ، لاحظت لأول مرة ، وجود شعرات بيض في رأسي يا زينا ! لقد غيرت أنت نفسك رأيك في هذا الصبي • ولملك تدركين اليوم ، بغير قليل من المראה ، أنك كنت ستقترفين حماقة لا توصف حين أردت أن تهبي له حياتك ! ومع ذلك لم تكفي عن الحزن حتى هذه اللحظة يا بنيتي : انك لا تستطيعين أن تنسيه ••• ومن أجل أن نبشّر عن الحقيقة تعبرا أدق يجب أن نقول انك لا تعجزين عن نسيان شخصه هو ، فلقد كان هو دونك دائما ، وانما أنت تعجزين عن نسيان سراب الحب الأول • وهذا الشاب الشقي هو الآن على وشك الموت ، فانه مصاب بالسل فيما يقال ،

لذلك لا تريدین ، وأنت ملاك من ملائكة الطيبة ، لا تريدین ما ظل حیا
أن تتزوجی حتى لا تحطمی قلبه بالغيرة التي ما تزال تعذبه • ومع ذلك
فأنا على یقین كامل من أنه لم يشعر نحوك بحب صادق نبیل فی يوم من
الأيام ! أنا أعلم أنه حين عرف بتردد موزجلياكوف علينا قد أخذ يتجسس
عليك • لقد أشفقت أنت عليه یا بنیتی ، وأدرکت أنا ذلك ، والله أعلم
بالدموع المرة التي أغرقت بها وسادتی ! ♦♦♦

قاطعت زینا أمها تقول وقد اعترها غم لا یقاوم :

- كفى یا أمی كفى ! لا داعی الى اخراج وسادتك على مسرح
الأمر لمزید من الابرار ♦♦♦ ما هذا كله الا جمل مصنوعة ، ما هذا
كله الا ریاة متكلف !

- آه یا زینا ! انك لا تريدین أن تصدقی ما أقول ! لا تنظری الى
هذه النظرة التي تفيض بالعداوة یا بنیتی ! يمينا ما جفت عینای خلال
هاتین السنتين ، ولئن استطعت أن أخفی عنك دموعی ، فأننی قد دب الى
الهرم ، احلف لك ! اننی أفهمك منذ زمن طويل یا زینا ! ومع ذلك
أعترف لك بأننی لم أدرك مدى حزنك الا الآن • أیمكن اتهامی یا عزیزتی
إذا كنت قد عددت عاطفتك ثمرة من ثمار الرومانسية التي بثها فی نفسك
شكسبير هذا اللعين الذي يبدو كأنه يحشر أنفه عمدا فی كل مكان
لا يدعی الى أن يحشر أنفه فيه ؟ أية أم لا تجد أعذارا ، سواء للذعر
الذي شعرت به آنذاك ، أو للإجراءات التي اتخذتها ، أو للقسوة التي
انصف بها حکمی ! ولكننی الآن ، أمام آلامك التي دامت سنتین ، أدرك
وأحترم وأقدر حساسیتك الموجهة • صدقی أننی فهمتك ، ولعلنی فهمتك
أكثر مما تتخيلین ! اننی لعلی یقین من أن هذا المجنون ، هذا الصبی
المسکین لیس هو الذي تحیین ، وانما أنت تحیین أحلامك الذهبية ،

وسعادتك الضائعة ، ومثلك الأعلى الذى زال • لقد أحيت أنا أيضا ، ولعلنى أحيت حبا أقوى من حبك • ولقد تأملت أنا أيضا ، وكانت لى كذلك أوهام • فما من أحد يستطيع اذن أن يديننى ، ولا سيما أنت ، اذا كنت أرى اليوم أن زواجك بالامير ليس فى الظروف الراهنة بالأمر الذى يجب رفضه ، وأنه هو الخلاص والسلامة !

كانت زينا تعلم أن أمها لا تصطنع هذه اللهجة أبدا الا لهدف • وقد أصغت الى هذا الخطاب الطويل بدهشة صارت الى ذهول حين وصلت ماريا الكسندروفنا الى هذه الخاتمة التى لم تكن فى الحسبان • صاحت وهى تنظر الى أمها مذعورة ذعرا حقيقيا :

— هل يُعقل أن تفكرى جادة فى تزويجى الامير ؟ اذن ليس الامر حلماً ، ليس مشروعا فى الهواء ، وانما هو قرار قاطع انتهت اليه ؟ اذن لقد حزرت ! ... كيف تتصورين أن هذا الزواج سينقذنى ؟ كيف ترين أنه لا بد منه فى الظرف الراهن ؟ وأية علاقة يمكن أن تكون بين ما ذكرته وبين هذه القصة ؟ لقد أصبحت لا أفهمك قط يا أمه !

— ومن حقى أنا أن أستغرب أن لا يكون هذا الأمر مفهوما عندك يا ملاكى !

كذلك صاحت تقول ماريا ألكسندروفنا ، لاهة هى أيضا ، وأردفت

توضح :

— أولا : الأمر الرئيسى بالنسبة اليك هو أن تفسرى الجو الذى تعيشين فيه ، وأن تدخلى الى عالم جديد • يجب أن تتركى الى الأبد هذه المدينة الكريهة المقيتة الملائى بمرّ الذكريات فى نظرك ، هذه المدينة التى لم تجدى فيها لا مودة ولا عاطفة ، هذه المدينة التى يقتابك كل ساكن من سكانها ، هذه المدينة التى يكرهك جميع غربانها العور من نساها التراثات

بسبب جمالك • انك تستطيعين أن تسافري الى الخارج منذ الربيع القادم ،
تسافرين الى ايطاليا ، وسويسرا ، واسبانيا ، يا زينا ، نعم اسبانيا التى فيها
قصر الحمراء ، التى فيها نهـر الوادى الكبير بدلا من الساقية الصغيرة
الكريهة التى تمر بهذه المدينة والتى يقبح حتى اسمها •••

– كفى يا أمى كفى ! ••• انك تتكلمين كما لو كنت قد تزوجت ،
أو على الأقل كما لو كان الأمير قد طلب يدى !

– لا يصدعك هذا يا ملاكى ، فأنا أعرف ما أقول • ولكن اسمحى
لى أن أتم كلامى • انتهيت الآن من البند الأول ، وهأنذا أتقل الى الثانى •
اننى أدرك يا بنيتى مدى الاشمئزاز الذى ستشعرين به اذا أنت ارتضيت
الزواج بسوزجلياكوف هذا الذى •••

صاحت زينا تقاطع أمها قائلة بحماسة :

– لن أكون زوجته فى يوم من الأيام ؛ أنا أعرف هذا دون أن
تكونى فى حاجة الى ذكره •

قالت زينا هذا وقدحت عيناها شررا •

قالت أمها :

– آه ••• ليتك تعلمين أيضا الى أى حد أفهم نفورك هذا ! انه
لا شئ أشق على نفس الفتاة من أن تحلف أمام الهيكل يمين الوفاء
لإنسان لا تستطيع أن تحبه ! لا شئ أفظع من أن يملك الفتاة رجل
لا تستطيع أن تحترمه ! ولسوف يطلب منك ملاعبات وملاطفات ومداعبات !
•• انه يتزوجك من أجل أن يمتلكك ••• هذا واضح فى النظرات التى
يلقيها عليك حين تسيحين بوجهك ! لا ، لا ، لا شئ أبشع من التظاهر
والرياء ! لقد اضطررت أنا الى هذا الرياء خمسة وعشرين عاما • كان

أبوك ضياعى ! ... فى وسعى أن أقول انه امتص صباى حتى النخاع !
ألم ترينى أبكى مرارا ؟

- دعى أبى وشأنه يا أماء ، أرجوك ... انه يقيم الآن فى القرية .
- اعرف انك دافعت عنه دائما * آه يا زينا ، لقد كان قلبي يتفطر
ألما حين كنت أتمنى أن تتزوجى موزجلياكوف فى سبيل المال * أما
زواجك بالامير فهو على الأقل لا يحتاج الى رياء ... واضح أنك
لا تستطيعين أن تحبيه ... حبا ... وواضح أنه هو نفسه «عاجز» عن
مطالبتك بالحب ...

- ما هذا الهذر يا رب ! نقي يا أمى أنك مخطئة فى الأمر كله ،
من أوله الى آخره ! واعلمى انى لا أريد أن أضحي بنفسى دون أن
أعرف لماذا ! واعلمى خاصة أنى لا أريد أن أتزوج أى رجل ، واننى
أؤثر أن أظل عانس ! لقد عذبتى تعذبا كافيا منذ سنتين الى الآن لأننى
كنت أرفض جميع الخاطئين * ولكنك أنت المخطئة فى حق نفسك *
لا أريد أن أتزوج ... هذا كل شىء ، كل شىء ...

- عزيزتى ، بنتى زينا ، ناشدتك الله لا تنفضى قبل أن تصفى الى
كلامى * ألا ما أسرع احتياجك حقا ! اسمحى لى أن أعرض لك الأمور
من وجهة نظرى ، وأنا على يقين من أننا سنتفق فى رأى فورا * ان
الامير يمكن أن يعيش سنة أخرى ، أو سنتين أخريين فى أكثر تقدير :
ولأن تكونى أرملة شابة خير من أن تكونى فتاة طاعنة فى السن ، ناهيك
عن أنك ستكونين عند موت الأمير أميرة حرة غنية مستقلة * عزيزتى ،
قد تنظرين نظرة احتقار الى جميع هذه الحسابات القائمة على موت زوج *
ولكننى أمك ، وأية أم يمكن أن تديننى اذا أنا فكرت فى المستقبل ؟
وأخيرا اذا كنت بسبب طبيعتك الملائكية تبغين من الاشفاق على ذلك الصبي

أَنْك لا تريدین أن تتزوجی ما دام حیاً (فیما أعتقد) فاعلمی انك بزواجك
الأمیر تهدین روعه وتردین الفرح الی قلبه • ذلك أنه اذا كان له ذرة
من عقل فلا بد أن يفهم أن أیة غیرة من الأمير ستكون فی غیر محلها ،
فضلا عن أنها ستكون غلظة وفظاظة • ان علیه أن یدرك انك تقدمین علی
زواج عقل لا زواج حب ، أنك تقدمین علی زواج لا بد منه ولا محیص
عنه • ویجب علیه أخیراً أن یدرك ••• أن یدرك شیئاً سأعبر عنه ببساطة
••• وهو أنك تستطيعین متى مات الأمير أن تتزوجی من تشائین •••

— لنسم الأمور بأسمائها ، ولنصفها كما هی : أقبل الأمير ، أضحك
علیه ، أنهب ، أعول علی موته لاتزوج بعد ذلك •• عشقی •• هذا
حساب ذکی محکم حتی النهاية ! انك تريدین أن تغرینى بهذه العروض
••• أنا أفهم كل شیء یا أمی ، كل شیء تماما ••• انك لا تستطيعین الا
أن تظهری عواطف نبیلة ، حتی فی قضية حقیرة دنیة ••• لقد كان أولى
بك أن تقولی لی رأساً : « زینا ، هذا عمل دنیء ، ولكن فیہ ربها فیجب
أن تعملیه » • لو قلت ذلك یا أمی لكانت لك میزة الصراحة علی الأقل •

— لماذا ، یا بنیتی ، تنظرین الی الامور من هذا الجانب وحده ،
جانب الخداع والیسوعية والطمع ؟ انك تعدین حساباتی هذه خسة
ومخادعة • ولكننی استحلفك بكل ما هو مقدس أن تقولی لی أين المخادعة ،
وأین الخسة ؟ انظری الی نفسك فی المرأة : انك جمیلة جمالاً يستحق
أن تضحی فی سبیله مملكة بأسرها • ومع ذلك ••• انك تضحین فجأة
لشیخ هرم بأحسن سنی عمرك ••• فتضیین غروبه كنجمه متلاثة
رائحة ، وتتصرین دربه كلبلاية دائمة الخضرة • أنت تنقذین من تلك
المرأة الأفافة ، من تلك الأمی السامة ، من تلك العلقه التي حجرت علیه
وأخذت تمتص دمه بشراهة • هل یعقل أن تعدی نفسك أدنی شأن من

الثراء وأهون قيمة من لقب الأمير ؟ فأين الخداع اذن وأين الحطة ؟
الا انك لا تعرفين ماذا تقولين يا زينا ؟

- أنا أقول الكلمات المناسبة لمن تتزوج رجلا ذا عاهة ! هذا خداع
يا أمى ، هذا خداع ، أية كانت الغاية !

- بالعكس يا عزيزتى بالعكس ! فانما يجب أن ننظر الى الأمر من
عل ، ولا سيما من وجهة النظر المسيحية يا بنيتى • ألم تشائى أنت نفسك ،
ذات يوم ، فى لحظة من حماسة أن تصبحى ممرضة ؟ كان قلبك مضى
ممرورا ، وكنت تقولين (عرفت أنا ذلك) انك لن تستطيعى أن تحبى بعد
الآن • فى عزيزتى ، حين يفقد الانسان ايمانه بالحب ، فهو ينقل عاطفته
الى مجال آخر ، ينقلها الى موضوع أسمى وأرفع ، ينقلها الى رحاب
أخرى براءة طفل وبكل ما يحمله طفل فى قلبه من اخلاص وتفان •
وعندئذ فان الله هو الذى سيجزيك خير الجزاء • ان هذا الشيخ قد تألم
هو أيضا • انه شقى ، وانه مستغل • أنا أعرفه منذ سنين طويلة ، ولقد
شعرت نحوه دائما بعاطفة غير مفهومة ، عاطفه قريبة من المحبة ، كأن
شيئا قد نبأنى بما سيحدث • فكونى صديقه ، كونى ابنته ، بل كونى له
لعبة اذا وجب أن تسمى الأشياء بأسمائها ، ولكن أدخلى الدفء الى قلبه •
وأؤكد لك أن هذا سيكون منك عملا خيرا ، سيكون منك حسنة ترضى
الله • هو رجل مضحك ، رجل أصبح نصف رجل • فلا تنظري اليه ،
بل أشفقى عليه ما دمت مسيحية ! احملى نفسك على ما لا تحبين • لو
ذهبت الى المستشفيات تضمدن الجراح ، لكان ذلك منك تضحية وتفايا •
انا نشمئز من تنشق الهواء الموبوء فى قاعات المرضى ! ومع ذلك هناك
ملائكة يفضلن هذا ويشكرن لله على أنه أتاح لهن أن يفعلنه ! ذلك هو
الدواء الذى يمكن أن يشفى قلبك الجريح يا زينا ؟ هذا شاغل يشغلك
عن همومك ، وعمل انسانى أخلاقى يساعدك فى مداواة جرحك ! فأين

الأنانية هنا ؟ أين الخسة هنا ؟ ولكنك تصرين على الشك فيَّ • ولعلك تتصورين أنني أبالغ حين أتكلم عن الواجب والعمل الانساني الأخلاقي؟ انك لا تستطيعين أن تدركي أنني ، وأنا المرأة الخفيفة الاجتماعية ، يمكن أن يكون لي قلب ، ويمكن أن تكون لي عاطفة ، ويمكن أن يكون لي عقل ! ودعينا من هذا ! انك لتهينين أمك برفضك تصديقها ••• ولكن عليك أن تعترفي مع ذلك بمدى ما تشتمل عليه أقوالها من حكمة ومن سلامة • افرضي ان امرأة غيري هي التي تتكلم الآن • أغمضي عينيك وأديري ظهرك وتخيلي أنك تسمعين صوتا لا ترين صاحبه • ان ما يقلقك هو أن المسألة مسألة مال ، هو أن المسألة أشبه بصفقة شراء أو بيع • فافرضي المال اذا كنت تكرهين المال هذا الكره كله ، ولا تأخذي منه الا ما هو ضروري ثم وزعي الباقي على الفقراء • ساعدي مثلا ذلك الشاب المسكين الذي يرفد الآن على فراش الموت !

قالت زينا في رفق كأنها تخاطب نفسها :

— لن يقبل أية مساعدة !

فأجابت ماريأ ألسكندوفنا بلهجة المنتصر :

— هو لن يقبل ، ولكن أمه ستقبل عنه • ستأخذ المال بدون علمه • أنا أعرف أنك بعت قرطبي الأذنين اللذين أهدتهما اليك عمك من أجل أن تساعدني ، منذ ستة أشهر • وأعرف أيضا أن أمه عملت غسالة في سينل أن تطعم ابنها الشقي •

— قريبا لن يكون في حاجة الى شيء !

قالت ماريأ ألسكندوفنا متدفقة الالهام :

— أنا أعرف أيضا ماذا تريدون أن تقولوا بهذا الكلام • ولكن من

ذا الذى يدعى هذا ؟ لقد سألت عن صحته بنفسى منذ بضعة أيام ، سألت كالستى ستانسلافتش * • اننى أهتم به لان لى قلبا يازينا • فقال لى ان مرضه خطير حتما ، ولكن فى رأيه أن المسكين لم تصب رثاء حتى الان ، وانما هو مصاب بتخرب فى القصبات • أسألى كالستى ستانسلافتش بنفسك • ولقد قال لى مخلصا كل الاخلاص ان المريض يمكن أن يبل من مرضه اذا هو غيّر الهواء ، وغيّر المناخ ، واذا تغيرت مشاعره خاصة • وذكر لى كالستى ستانسلافتش أن فى اسبانيا - وهذا شيء سبق أن سمعته من غيره ، بل وقرأته أيضا - أن فى اسبانيا جزيرة عجيبة أظن أن اسمها مالاجا ، نعم مالاجا ، فانه شبيه باسم نوع من أنواع الخمور ، يكفى مناخها لشفاء المصدورين ، وحتى المصابين بالسل • وهناك انما يذهب للاستشفاء طبا كبار أصحاب الأملاك ، وربما بعض الأثرياء جدا من التجار • على أن قصر الحمراء الساحر الأخاذ ، بما فيه من أشجار الآس والليمون ، يكفى وحده لاجداث أثر كبير فى نفس حساسة وطبيعة شاعرية • فهل تظنين أنه لن يقبل مساعدتك ، أنه لن يقبل مالك من أجل القيام بهذه الرحلة ؟ اذا كنت تظنين ذلك ، واذا كنت تشفقين عليه حقا ، فما عليك الا أن تخدعيه ، فان الكذب مغتفر حين يكون الهدف منه انقاذ حياة انسان • ابعثى فى نفسه الأمل فى حبك ، عديه مثلا أن تزوجه متى أصبحت حرة طليقة • كل شيء فى هذا العالم يمكن أن ينال بطريقة شريفة • لن تعلمك أمك شيئا منكرا يا بنيتى • وانما أنت تفعلين ذلك ، اذا فعلته ، انقاذا لحياة الشاب المسكين ، وهذا يسوِّغُ فعلك ! لسوف تردينه بالأمل الى الحياة ، لسوف يأخذ يهتم بصحته من تلقاء نفسه ، لسوف يعتنى بمعالجة مرضه ، فيسمع نصائح الطبيب ، ويحاول أن يبعث بمثا جديدا فى سبيل أن يكون سعيدا • قد لاتزوجينه، ولكنه يكون قد استرد عافيته وتكونين أنت قد أنقذته وبعثته الى الحياة •

ثم ان من الممكن أن يشعر المرء نحوه بعدئذ بشيء من العطف ، من الممكن أن يكون مصيره قد علمه شيئا ، من الممكن أن يصبح رجلا خيرا ...
 فاذا أحسست عندئذ أنه غدا جديرا بك ، فلك أن تفعل ما تشائين ، وأن تتزوجيه متى ترملت • سوف تكونين حرة مستقلة • سوف يكون من حقلك ، بعد أن شفيته من مرضه ، أن تؤمنى له مركزا في هذه الحياة ، وأن تشقى له طريقا جديدا • وسوف يكون زواجك به بعدئذ مفترا ، على حين انه الآن غير مغفر • ما الذى ينتظركما اذا أتما ارتكبتما هذا الجنون الآن ؟ لا شيء الا احتقار الناس ، وبؤس المعيشة ، والصية الصغار الذين توجب عليه المهنة أن يشد آذانهم ، وقراءة شكسبير معا ، والحياة السجينة فى مورداسوف ، ثم موته الذى لن يتأخر فى مثل هذه الظروف ؛ على حين أن الواجب الذى يقع على عاتقك هو أن تبعثيه الى الوجود ، وأن ترديه الى حياة نافعة ، وأن تضى عليه الشرف والكرامة • ان عفوك عنه سيحمله على أن يعبدك عبادة • سوف يخجل من فعلته الدنيئة ؛ وتكونين أنت ، رغم كل شيء ، قد رددته الى حياة جديدة ، تكونين قد رأفت به وأسبغت عليه من رحمتك ، ومحوت بفقرانك كل شيء ، وأعدت الرجاء والأمل الى قلبه ، وصالحته مع نفسه ! وسيكون فى وسعه عندئذ أن يسعى سعيا حثيثا الى الحصول على مركز مرموق ، وأن يرتقى فى سلم المناصب • وهبى أنه لم يبل من مرضه ، فانه سيموت عندئذ سعيدا ، مطمئن النفس ، راضى البال ، بين ذراعيك ، (اذ سيكون فى وسعك أن تمكى الى جانبه فى تلك اللحظة) واثقا من حبك ومن غفرانك ، فى ظل أشجار الآس والليمون ، تحت سماء لازوردية فى بلد جميل • آه يا زينا ... ان كل شيء هو الآن بين يديك ! ان جميع الأمور ستسلس لك قيادها اذا أنت تزوجت الأمير •

سكتت ماريا ألكسندروفنا • وأعقب ذلك صمت طويل • وكان يبدو على زينا انفعال لا يوصف •

لن نحاول أن نصف عواطف زينا ، فانا لا نستطيع أن نحزرها ••
ولكن يظهر ان ماريا ألكسندروفنا قد وجدت السبيل الذي تنفذ منه الى قلبها • لقد سارت في أول الأمر تتلمس طريقها تلمسا بين الحالات النفسية التي يمكن أن تكون عليها ابتها ، ثم أفلحت أخيرا في معرفة الوسيلة الناجعة ، فاتكأت عندئذ بغير مراعاة ولا مداراة على الجرح من قلب زينا ، دون أن تغفل طبعاً عن اظهار أنبل العواطف وأكرم المشاعر ، وهي عواطف ومشاعر لم تطل على ابتها مع ذلك ولا أعمتها عن رؤية الحقيقة • ولكن ماريا ألكسندروفنا كانت تقول لنفسها : « ماذا يهمنى أن لا تصدقنى ؟ حسبى أن أفلح فى حملها على التفكير ، وأن أثبت فى ذهنها بالاشارات البارة ما يستحيل أن أقوله لها صراحة ! » وبلغت ماريا ألكسندروفنا هدفها • لقد أحدث كلامها أثره • فكانت زينا تصفى اليها بشراة ، محترقة الخدين ، لاهثة الصدر •

وقالت زينا أخيرا بلهجة قاطعة (غير أن الصفرة التى اصطبغ بها وجهها فجأة قد كشفت عن مدى ما يكلفها قرارها) :

— اسمعى يا أمى •••

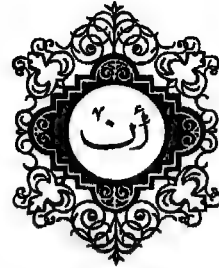
وفى تلك اللحظة نفسها سمعت فى الدهليز ضجة لم تكن فى الحسبان ، هى صوت حاد صارخ يسأل عن ماريا ألكسندروفنا • فاضطرت زينا أن تتوقف عن الكلام • ووثبت ماريا ألكسندروفنا من مكانها • وهتفت :

— أوه ! يا رب ! شيطان يأخذ هذه البومة التى تدعى كولونيلة ••
ثم أضافت تقول بلهجة تتم عن أشد الكرب :

– لقد كدت أطردها طردا منذ خمسة عشر يوما ... ولكن
يستحيل علىَّ ان لا أستقبلها الآن ... يستحيل ... لا شك أنها تحمل
أنباء ... والا لما تجرأت أن تظهر ... الأمر هام يا زينا ... يجب أن
أعرف ... ما ينبغي افعال شيء في هذه اللحظة •

ثم صاحت تقول وهي تهبُّ الى لقاء الزائرة التي دخلت الصالون :
– أوه ! .. ما أسعدنى بهذه الزيارة ! ما الذى ذكرك بى يا عزيزتى
التي ليس لها مثيل ... يا صوفيا بتروفنا ؟ ما أجمل هذه المفاجأة !
وانتهزت زينا هذه الفرصة فهربت •

الفصل السادس



السيدة الكولونية صوفيا بتروفا فاربوخينا لا تشبه البومة الا شبها نفسها ، أما من الناحية الجسمية فهي الى العصفور الدورى أقرب • هي امرأة قصيرة فى نحو الخمسين من عمرها لها أنف صغير مفلطح ، وعينان حادتان ، وبقع حمراء وصفائح صفراء على الوجه ؛ وهي تكسو جسمها اليا بس ، المغروس على ساقين دقيقتين قويتين طويلتين ، بثوب من حرير أسود ما ينفك يخفخف لأنها لا تستطيع أن تستقر فى مكان واحدٍ ثابتهين متاليتين • انها من النساء اللواتى يسعين بالاقاويل والشايات والنمائم هنا وهناك بروح الشؤم والحسد والانتقام والتسفى • ورغم أنها مزهوة الى حد الجنون بلقب الكولونية الذى تحمله ، فانها كثيرا ما تشتجر مع زوجها ، الكولونيل المحال على التقاعد ، حتى ليصل التشاجر الى حد التضارب بالأيدى ، فيتخدش وجه الرجل المسكين • هذا الى أنها تشرب فى الصباح أربعة أقداح صغيرة من الكحول، وتشرب مثل ذلك فى المساء • وهي تكره انا نيكولايفنا آتتيوفا كرها شديدا يبلغ درجة المقت ، لأن آنا قد طردتها من منزلها فى الاسبوع الماضى ، كما تكره ناتاليا دمتريفنا باسكودين التى شاركت فى ذلك الطرد •

صأت تقول وهي تدخل :

- جئت للحظة واحدة يا ملاكى • لا داعى الى جلوسى • وانما أردت أن أطلعك على ما يجرى • شىء لا يُصدّق • ان هذا الأمير قد أفقد المدينة كلها عقلها ! نساؤنا المتآمرات يطاردنه بغية اصطيداه • انهن يجتذبنه الى شباكهن • وتحاول كل منهن أن تنزعه من الأخرى ••• الشمبانيا تسيل ••• لا تستطيعين أن تتصورى الى أى حد ••• لماذا تركته يغادر منزلك ؟ هل تعلمين أنه الآن عند ناتاليا دميترىنا ؟

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول وهى تنتفض عن مقعدها :

- عند ناتاليا دميترىنا ؟ كيف ؟ لم يكن يريد أن يذهب الا الى الحاكم ، وربما الى آنا نيكولايفنا بضع دقائق بعد ذلك !

- نعم ، بضع دقائق ••• القطيه الآن اذا استطعت • لم يجد الحاكم ، وعندئذ دخل منزل آنا نيكولايفنا ، ووعدا أن يتناول الغداء عندها • وقامت هذه الشريرة ناتاليا التى لا تترك آنا لحظة فى هذه الأيام ، قامت فاقطدت الأمير الى منزلها لتناول وجبة خفيفة بانتظار الغداء • ذلك ما وصل اليه أميرك الآن !

- ولكل ••• وموزجلياكوف ؟ لقد وعد بأن •••

- اتكلت على موزجلياكوف ؟ ألا انك مسرفة فى الثقة ! هه ••• هو الآن معهم هناك • أرجو على الأقل أن لا يأخذ فى اللعب بالورق فيخسر كما حدث فى العام الماضى ! والأمير أيضا ••• لا شك أنهم سيجلسونه الى مائدة القمار لينتفوه كما تنتف دجاجة ! وما أكثر ما تذمك ناتاليا هذه ! ما أكثر ما تسوقه فى حقك من طعن وقدح ! انها ما تنفك تزعم أنك اجتذبت الأمير ••• فى سبيل أهداف معلومة ••• هل تفهمين ؟ حتى أنها تشرح هذا للأمير ••• والأمير لا يفهم شيئاً بطبيعة الحال ، بل يظل قابها كقطعة مبللة ، ويظل يجيب عن كل ما يحكى له بقوله : « طبعا •••

طبعاً ! ... » وهذا الطاعون ناتاليا ... آه .. ان الشعور بالخجل والعار لا يخفقها ... لقد جاءت بابنتها صوفيا ... تخيلي ... خمسة عشر عاماً ... وما تزال ترتدى تنورة قصيرة لا تكاد تستر ركبتيها ... تصورى ... واستدعت كذلك ماشاء اليتيمة ... ألبسوها ثوباً قصيراً ... ثوباً أقصر من تنورة صوفيا أيضاً ... يكشف عن كل ما تشائين ، ثوباً يعلو الركبتين كثيراً ! ... رأيت هذا بمنظاري ... ووضعوا على رأس الصييتين أنواعاً من قبعات صغيرة حمراء ذات ريش ... لا أدري ما معنى هذا ... وحملتهما ناتاليا على أن ترقصا رقصة القوزاق على أنغام البيانو ... وأنت تعرفين العيب الصغير فى الأمير : « ما أجملها أجساماً ! ما أجملها أجساماً ! » كذلك كان الأمير يردد واللعب يسيل من فمه . كان يتابع التحديق اليهما بنظاريته ، والصييتان تتحسنان فى الرقص وتباريان ... واحمر وجهاهما حتى صارا بلون القرمز ، وهما ما تنفكان تدوران وتدوران كالاعصار من فرط الحماسة .. رقصتا رقصة عنيفة كغف رقص الرجال ! يا له من رقص ! ... لقد سبق لى أنا أن رقصت « رقصة الشمال » ، فى المدرسة الداخلية الراقية التى كانت تديرها مدام جارنى ، فما كان أعظم نجاحى فى الرقص ! كان هناك أعضاء من مجلس الشيوخ صفقوا لى ! كانت المدرسة تضم بنات كونتات وأمراء .. ولكن الرقص فى منزل ناتاليا هذه قد غدا رقصة فاجرا حقاً ! لقد احترقت شعوراً بالخزى والعار وأنا أنظر الى الصييتين تتحركان ، نعم احترقت شعوراً بالخزى والعار ! حتى اننى لم أشأ أن أقعد !

- ولكن لماذا عدت الى عند ناتاليا دمترينا ؟ كنت أظن أنك ...

- نعم نعم ، لقد أهانتى فى الأسبوع الماضى . لست أتحرج من ذكر ذلك لجميع الناس . ولكننى يا عزيزتى كنت أحرص على أن أرى الأمير ، كنت أحرص على أن أراه من قرب ، ولو اقتضانى ذلك أن أنظر

من خلال ثقب مفتاح ! فلذلك انما ذهبت اليها رغم كل شيء ... فلولا الأمير لانتظرت كثيرا قبل أن ترانى عندها ... وتصورى هذا : لقد قدموا شكولاتة لجميع الحضور ، الا أنا ... ولم يخاطبونى بكلمة واحدة . فعلت ذلك عامدة . ولكننى سأعرف كيف أتقم لنفسى منها ، هذه البرميل ... الى اللقاء يا ملاكى ، أنا مستعجلة ، مستعجلة جدا ... يجب على حتما أن ألقى آكولينا بانفيلوفنا ، وأن أروى لها بعض الاشياء . أنت الآن كأنك ودّعت أميرك الى الأبد ! ... لن يعود اليك ! لاحظى أنه قد فقد ذاكرته تماما ، فسترده أنا نيكولايفنا اليها بغير ابطاء . انهما كلتيهما تخشيان أن تكون قد قامت فى ذهنك فكرة بشأن ... هل تفهمين ؟ بشأن زينا !

— يا للفضاعة !

— كما أقول لك ! المدينة كلها لا تهتف الا بهذا . وستدبر آنا نيكولايفنا أمورها بحيث يتناول الأمير غداءه عندها ، ثم يبقى فى منزلها . هذا « مقلب » هياته لك يا ملاكى . لقد ألقيت نظرة على فناء منزلها ، فما أكثر ما رأيت من حركة واستعداد ! انهم يحضرون الغداء . سكاكين تقطيع اللحم ما تنفك تضرب ... وقد بعثوا بمن يجيء لهم بشمبانيا . أسرعى فاقبضى عليه فى الشارع عائدا الى عندها ! ألم يصدقك قبل أن يعدها ؟ انه ضيفك لا ضيفها ! هل تسمحين لهذه المغامرة ، لهذه المتأمرة ، لهذه المخاططة ، أن تسخر بك وتضحك عليك ؟ هى السيدة زوجة وكيل النيابة ، ولكنها لا ترتقى الى كعبى ... أنا زوجة كولونيل ! تعلمت فى المدرسة الداخلية الراقية التى كانت تديرها مدام جاراننى ! هه ! ... هه ! ... والآن استودعك الله يا ملاكى . عربتى على الباب ، والا لكان يمكن أن نذهب معا ...

وغابت الجريدة المتقلبة • ان ماريا ألكسندروفنا ترتجف قلقا •
ولكن نصيحة الكولونيلة واضحة عملية الى أبعد الحدود • ما ينبغي إضاعة
دقيقة واحدة • وهرعت ماريا الكسندروفنا الى غرفة نومها •

كانت زينا تمشي في الغرفة طولا وعرضا ، مصالبة ذراعيها ،
خافضة رأسها • انها شاحبة الوجه من شدة الانفعال • وهذه دموع
تتلاها في عينيها • ومع ذلك كان عزمها يقرأ في نظرتها التي أدارتها نحو
أمها • أسرع الفتاة تخفي دموعها ، وظهرت على شفتيها ابتسامة
ساخرة •

قالت تحذر ماريا ألكسندروفنا :

— اسمعي يا أمي ، لقد لفقت لي منذ قليل عبارات جميلة كثيرة ،
كثيرة مسرفة في الكثرة ••• ولكنك لم تستطعي أن تعمي بهذه العبارات
بصرى • ما أنا بطفلة • لأن يقنع المرء نفسه بأنه يقوم بعمل من أعمال
راهبات المحبة ، مع أنه لا يحقق أية رسالة ؟ ولأن يبحث عن عذر للخصه
والحطة والدناءة التي يقتربها بدافع الأثرة المحضة ، وذلك بتزيينها بهدف
كريم ، فذلك كله تفان يسوعي لا يمكن أن ينطلي على ، وأنا أحرص
على أن تعلمي هذا •••

هتفت ماريا ألكسندروفنا تقول :

— ولكن يا ملاكي •••

— اسكتي يا أمي ••• وتكرمي على بالاصفاء الى كلامي حتى
بالنهاية • انني رغم علمي الكامل بأن هذا كله ليس الا نفاقا يسوعياً ،
ورغم يقيني التام بأن قرارا كالقرار الذي سأعلنه لك الآن لا يتصف بشيء
من الشرف ، فأنني أقبل ما عرضته على جملة واحدة ، هل تفهمين ؟

« جملة واحدة » • اننى أعلن لك أننى مستعدة لتزوج الأمير ، بل
ولمساعدتك بكل قوى فى اقناعه بزواجى • أما لماذا اتخذت هذا القرار ،
فما أنت فى حاجة الى أن تعرفى ذلك • حسبك أننى اتخذت هذا القرار •
لقد عزمت أمرى على كل شئ : على أن ألبسه حذاءيه ، على أن أكون له
خادمة ، على أن أرقص له لأسليته وأسرّى عنه • سأستر عن نظريه
شعورى بالصغار والحطة ، سأفعل كل شئ فى سبيل أن لا يندم على
زواجه بى • ولكننى أسألك ، فى مقابل رضائى هذا كله ، أن تكونى
صريحةً معى : ما الذى ستعتمدن اليك من حيلة ؟ لا شك أن فى ذهنك
خطة مدبرة ، فما كان لك أن تتكلمى عن هذا الأمر كل ذلك الكلام لولا
أن فى ذهنك خطة مدبرة • فكونى صريحةً مرةً واحدة فى حياتك على
الأقل : ان الصراحة لازمة فى مثل هذا الظرف ، فليس يمكننى أن أقر
شيئاً ما لم أعلم على وجه الدقة ما الذى ستعتمدن اليه من حيلة !

بلغت ماريّا ألكسندروفنا من الانشدهاء لهذه النتيجة أنها لبثت برهة
من الوقت متسمة أمامها ، محمقة فيها ، عاجزة عن قول كلمة أو اجراء
حركة • لقد كانت تتوقع أن تخوض معركة حامية الوطيس مع ابنتها التى
تنصف باستقامة رهبة ونزاهة مخيفة ، كما تنصف بروح رومانسية عنيدة
فاذا هى تعلم فجأة أن زينا موافقة على كل شئ رغم جميع قناعاتها •••
ألا ان الأمور لتجرى الآن اذن مجرى جديا الى أبعد حدود الجدد •

صاحت تقول فى حماسة :

— بنيتى زينا ، صغيرتى زينا ، أنت لحمى ودمى ••• أنت لحمى
ودمى •••

ثم لم تستطع أن تضيف شيئاً ، فأسرعت تحضن ابنتها بذراعيها •
صرخت زينا تقول فى تملل يشوبه اشمزاز :

– ما حاجتى الى قبلاتك هذه ! ما حاجتى الى حماسك هذه ! أنا لا أطلب منك الا جوابا عن سؤالى ، لا أكثر !

– ولكننى أحبك يا زينا ، وأعبدك ، فكيف تصديننى هذا الصد ؟ أنا فى سبيل سعادتك انما أعمل ...

قالت الأم ذلك وتلاؤلات فى عينيها دموع غير متكلفة ... ان ماريا ألكسندروفنا تحب ابنتها « على طريققتها الخاصة » ، وقد جعلها الانتصار والانفعال فى هذه المرة عاطفية حقا ! وكانت زينا ، رغم أن نظرتها الى الامور نظرة محدودة بعض الشيء ، تعلم أن أمها تحبها ، وكانت تتألم من هذا الحب . فلو كانت أمها تكرهها ، لكان كل شيء أسهل ...

قالت زينا لتهدىء أمها :

– لا تزعلى يا أمى ، فأنا مضطربة اضطرابا شديدا .

– لست زعلانة يا ملاكى ، لست زعلانة أبدا .

بهذا تمتت ماريا ألكسندروفنا وقد استردت انتعاشها على الفور ، وتابعت تقول :

– اننى أفهم انفعالك حق الفهم . وأنت تطلين منى الصراحة اذن يا عزيزتى . فاعلمى اننى سأكون صادقة ماشئت من صدق مخلص . ما شئت من اخلاص . كل ما أسألك اياه هو أن تثقى بى . يجب أن أقول لك أولا اننى لمّا أتصور بعد أية خطة نهائية . ذلك غير ممكن يا زينا . وأنت تملكين من الذكاء ما يجعلك قادرة على ادراك السبب . بل اننى لأتنبأ ببعض المصاعب . منذ هنيهة صدعت رأسى هذه البومة العوراء بأمور كثيرة ... (آه ... يا رب ! يجب أن استعجل !) . هانت ذى ترين أننى صريحة . ولكننى أحلف لك أننى سأبلغ هدفى وأحقق غايتى . وليس يستند يقينى هذا الى سراب ، كما قلت منذ برهة

يا ملاكى ، وانما هو قائم على وقائع • انه يستند على ما يتصف به الأمير من ضعف عقلى شديد • انه نسيج يمكن أن يطرز عليه المرء ما شاء له هواء أن يطرز ••• آه ••• شريطة أن يتسع لى الوقت من أجل أن أعمل ! ان جميع هاته البهائم المحقاوات يحسبن أنهن سينتصرن على ! (كذلك صاحت ساطعة العينين وهى تضرب المائدة بيدها) • ولكن سرى ! لن أضيّع دقيقة واحدة ، يجب أن أفرغ اليوم من الأمر الرئيسى ، اذا أمكن ذلك !

- طيب يا أمى ، ولكن اليك « حقيقة » أخرى : هل تعلمين لماذا يعينى كثيرا أن أعرف خطتك ، ولماذا لا أنق بك ؟ لأننى غير متأكدة من نفسى • لقد قلت لك اننى مستعدة لارتكاب هذه الدناءة • ولكن اذا كانت تفاصيل خطتك باعثة على اشمزاز شديد ، فاننى أبلغك منذ الآن أننى فى هذه الحالة لن أتبعك ، بل سأراجع عن كل شيء • أنا أعلم أننى أقترف حطة مضاعفة اذا أنا ، بعد أن ارتضيت أن أسبح فى هذا الوحل ، لم أملك من الشجاعة ما يمكننى من البقاء فيه • ولكن لا حيلة لى فى الأمر، فهذا ما سيكون !

قالت ماريا ألكسندروفنا فى خجل ووجل :

- دعيك من هذا الكلام يازينا ، أين الحطة فى هذا العمل ياملاكى؟ ليس الأمر الا أمر زواج مناسب ، كما يفعل جميع الناس • يجب أن لا ننظر الى الأمور الا من هذه الزاوية • فاذا فعلنا اكتسى كل شيء مظهرا سليما لا غبار عليه •

- أوه ••• أستحلفك بالله يا أمى أن لا تمكرى فى مخاطبتى • أنت ترين أننى موافقة على كل شيء ، كل شيء • فماذا تريدان أكثر من ذلك ؟ أرجوك ، لا تخجلنى من أن تسمى الأشياء بأسمائها ؟ وقد يكون هذا عزائى الوحيد فى هذه الساعة •

قالت الفتاة ذلك وطافت فى شفتيها ابتسامة مرة •

— طيب طيب يا ملاكى • قد نختلف فى رأى ، ثم تظل كل منا
تقدّر الأخرى • ومع ذلك اذا كنت قلقة بشأن بعض التفاصيل ، اذا
كنت تخشين أن تكون بعض التفاصيل وسخة كثيرا ، فاعمدى على ولا
يشغلن بالك أى هم • يمينا لن تلطخك قطرة واحدة من وحل • أيمكن
أن أرتضى أنا أن أسىء الى سمعتك فى نظر الناس ؟ اتكلى على • سوف
يتم كل شىء على خير وجه ، سوف يجرى كل شىء مجرى حسنا • لن
يكون ثمة أية فضيحة ، واذا عجزنا عن تفادى فضيحة ما ، فستكون
فضيحة يسيرة ، تافهة ، صغيرة ، لا قيمة لها ! ولا حظى أننا سنكون عندئذ
بعيدين ! أنت تعلمين أننا لن نقبج هنا طويلا ! فليصرخوا بعد سفرنا
ما شاءوا أن يصرخوا ، فلن يضيرنا صراخهم فى قليل أو كثير ! وصراخهم
لن يكون الا صراخ الحسد ... فعلام نهتم به ونكثر له ؟ انك
تدهشينى يا زينا (ولكن لا تفصبي !) : كيف تكونين فى مثل هذه العزة
وهذا الكبرياء ثم تخشين الناس ؟

قالت زينا مستاءة :

— آه ... أمى ... لست من الناس خائفة ! انك لا تفهمينى
أبدا •

— طيب طيب يا عزيزتى الحلوة ، لا تزعلي ! وانما أريد أن أقول
ان هؤلاء الناس يقارفون شرا فى كل يوم من الايام التى خلقها الله ، أما
أنت فمرة واحدة فى حياتك ... نعم ! ... أوه ... ما أغبانى ! ما
هذا الذى أقول ؟ أين الشر فيما تعملين ؟ أين السوء ؟ بالعكس : ان
ما نعمله لهو فعل نبيل ! سأبرهن لك بدقة ووضوح يا زينا • أولا : أعود
فأقول لك ان كل شىء رهن بالزاوية التى ننظر منها الى الأمر ...

صرخت زينا وهى تقرع الأرض بقدمها مهتاجة :

- كفى براهين يا أمى !

- طيب يا عزيزتى ! هأنذا أسكت ، هأنذا أسكت ! لقد اندفعت الى الكلام من جديد ...

أعقت ذلك دقائق صمت • كانت ماريا ألكسندروفنا تنظر الى ابنتها زينا ضارعة ككلب صغير خائف من صاحبه • واستأنفت زينا كلامها تقول باشمزاز :

- ما زلت لا أفهم كيف ستجربين الأمور • أنا متأكدة أنك ستذلين نفسك • انى أحقر رأى الناس ، ولكن الناس سيقولون عنك أنت الأقاويل ...

- أوه ! اذا كان هذا هو ما يعيدبك يا ملاكى ، فاهدئي بالا ، أرجوك ... لا تقلقى ! يكفى أن نتفق أنا وأنت حتى تستوى عندى بعد ذلك كل الأمور ! ليتك تعرفين. ما سبق أن اجتزت من مصاعب ، ليتك تعلمين ما سبق أن تغلبت عليه من مخاطر ، ليتك تعلمين ما سبق أن عانيت من مخاوف ، وما اكتويت به من نيران ! هيا ... دعنى أجرب ... وانما يجب ، قبل كل شيء ، وبأقصى سرعة ممكنة ، أن نختلى بالأمير ! تلك هى الخطوة الأولى ! والتمة كلها رهن بها ! وأنا أثنأ بالتمة ! سوف يسبقوننى ويزاحموننى ... ولكن ليس لهذا من قيمة ! سأعرف كيف أخلص من المزعجين ! ولكن الذى يقلقنى قليلا انما هو موزجلياكوف ...

- موزجلياكوف ؟

كذلك سألت زينا باحتقار • فأجابتها أمها :

- نعم موزجلياكوف ؟ ومع ذلك لا تتخشى شيئا يا زينا ! ثقي أنتى
سأعرف كيف أداوره ، حتى أنه سيهب الى مساعدتنا هو نفسه • انك لم
ترى حتى الآن كيف تعمل أمك يا زينا ! انك لا تعرفين مقدرتى فى
العمل ! آه يا بنيتى زينا ، آه يا كنزى العزيز ! اننى منذ سمعت كلاما
عن الأمير خطرت ببالى فكرة هذا الزواج ! لكأن الفكرة أشرقت فى ذهنى
بوحى والهام • هل كان يمكن أن أتوقع هذه الزيارة ؟ ان فرصة كهذه
الفرصة قد تنتظر ألف سنة ، صديقتى يا صغيرتى زينا ، ياملاكى العزيز!
ليس العار أن تتزوج الفتاة شيخا ذا عاهة ، وانما العار أن تتزوج رجلا
لا يمكن أن تطيقه ثم هو مع ذلك يطلب منها أن تكون زوجته «فعلا» •
وأنت تقدرين أنه لا شيء من هذا وارد اذا أنت تزوجت الأمير! لن تكونى
زوجه فعلا ! لن يكون هذا الزواج الا صورة ، الا خيالا ، لن يكون الا
وهما ! لن يكون الا عقد زواج • أما هذا الأبله المسكين فانه سيجنى منك
كل خير • ستكون هدية زفافه سعادة لا تقدّر ! آه ... ما أروع جمالك
اليوم يا بنيتى زينا ! أنت أكثر من فتنة ! لو كنت رجلا لوهبت لك نصف
مملكة متى رغبت فى ذلك أيسر رغبة ! جميع الرجال هنا حمير ببرادع!
كيف أملك أن لا أبوس هذه اليد الجميلة ؟ (قالت ماريا ألكسندروفنا
ذلك وباست يد ابنتها) • نعم • أنت جسدى ، أنت لحمى ، أنت دمنى •
اجبرى نفسك على تزوجه ، هذا الأبله المسكين ! ولكم سنسعد أنا وانت
ياملكتى الصغيرة ! ذلك انك لن تنفصى عنى يا عزيزتى الغالية ! لن
تطردى أمك بعد أن تجدى السعادة ! لقد أمكن أن تتشاجر ، ومع ذلك
هأنت ذى ترين أن خير صديقة لك انما هى أنا • ولكن ...

قالت زينا متململة :

— أمى ، اذا كنت قد عزمت أمرك ، فقد آن أوان ... العمل •
أنت هنا تضيعين وقتك سدى •

فأسرعت ماريا ألكسندروفنا تقول :

— نعم آن الأوان يا بنتى زينا ! آه ... لقد أسرفت فى الثروة •
ما أشد رغبتهم هناك فى تضليل الأمير ! سوف أركب عربة على الفور !
وأركض الى هناك ! أصل ، فاستدعى موزجلياكوف ، وعندئذ ...
سأجىء به عنوةً اذا اقتضى الأمر ... الى اللقاء يا صغيرتى العزيزة زينا ،
يا كنزى الحبيب ... لا تأسفى على شيء ، لا تشكى فى شيء ، لا تحزننى
من شيء • ما ينبغى أن تحزننى ... ذلك هو الامر الاساسى • ثم ان كل
شيء سيجرى هينا لينا ، سيجرى سريعا على عجالات ، سيتم على نحو
كريم طاهر نظيف ... ان كل شيء رهن بالزاوية التى ننظر منها الى
الأمر يا عزيزتى ... يا الله ... الى اللقاء ، الى اللقاء ! ...

رسمت ماريا ألكسندروفنا على ابنتها اشارة الصليب ، وأسرعت
تخرج من الغرفة • وما ان تلبثت أمام مراتها بعد ذلك دقيقتين حتى كانت
تعدو فى شوارع مورداسوف راكبةً عربتها الزلاجة التى يكون حصانها
مقرونا بها دائما فى هذه اللحظة من النهار لجولة ممكنة • لقد كانت
ماريا ألكسندروفنا تعيش حياة غنية •

« لا لن أسمح لكن بمزاحمتى • وما دامت زينا قد وافقت فقد
أنجز نصف المهمة • أما الباقي فلا أحفل به • آه ... لقد وافقت زينا
هذه أخيرا ! ان لك مطامحك أنت أيضا يا آنسة ! ولكن ما أروع آفاق
المستقبل المغرية هذه التى شققتها لها ! لقد قلبتها كما يُقلب قفاز ! شيء
لم يسبق له مثيل ، جمالها فى هذا النهار ! اننى بجمال كهذا الجمال
قادرة على وضع نصف أوروبا فى جيبي ! ولكن فلننتظر قليلا ! لسوف

يطير شكسبير أخيرا حين تصبح أميرة ، وحين تعرف مذاق بعض الأشياء ! ... ماذا تعرف الآن ؟ مordasوف ومدرّسها ! هيم ... فلتصبح أميرةً أولاً ثم نرى ما يكون ! اننى أحب فيها هذه الكبرياء ، هذه الأنفة ، هذا العجب والزهو الذى لا يلين ! لكنّها حين ترفع عينيها ملكةً تنظر ! فكيف لا تفهم مصلحتها اذن ؟ لقد فهمتها وستفهم البقية فى النهاية ... على كل حال ، سأكون الى جانبها ! يجب أن تكون على وفاق معى فى كل الأمور ! وبدونى لن تحسن صنع شيء البتة ، ولن يجرى أمر كما يجب أن يجرى ! سأكون أنا الاميرة الحقة • ستعرفنى بطرسبرج كلها • وداعا يا هذا الوكر الحقيق ، مordasوف ! سوف يموت الشيخ ، وسوف يموت الشاب أيضا • وسأزوج ابنتى عندئذ أميرا حاكما • هناك شيء يقلقنى : ألم أسرف قليلا فى الثقة بها ؟ ألم أسرف قليلا فى الصراحة معها ؟ ألم أسرف فى اللعب على العاطفة ؟ آه ... ما أكثر ما تخيفنى ! ما أكثر ما تخيفنى !

بهذا كله كانت ماريا ألكسندروفنا تحدث نفسها • وغرقت ماريا ألكسندروفنا فى تأملات شائكة • ولكن ألا يقال ان الحظ يتسم لمن كان جريئا شجاعا ؟

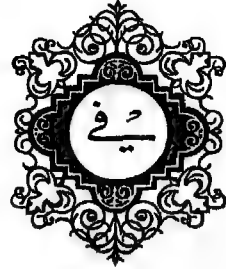
ولنعد الى زينا • ان زينا وقد تُركت وحدها ، عادت الى خواطرها وطفقت تسير فى الفرفة طولا وعرضا من جديد ، مصالبةً ذراعيها ، خافضة رأسها • كان هناك ما يبعثها على التفكير • وها هى ذى تردد قاتلة ، دون أن تشعر بذلك : « لقد آن الأوان ، لقد آن الأوان منذ مدة طويلة ، • تُرى ماذا كان معنى هذا الهاتف المتقطع ؟ • وتلاؤلات الدموع غير مرة على حافة أهدابها الطويلة الحريرية • ولم يخطر بالها لا أن تجففها ولا أن تكفكفها • لم يكن هناك اذن داعٍ الى قلق أمها

بشأنها : ان زينا قد عزمت أمرها عزمًا تامًا كاملاً ، فهي تستعد لجميع

النتائج التي تترتب على فرارها . . .

أما آناسازيا بتروفنا فقد كانت تحدث نفسها وهي تخرج من الحجرة المتخذة مستودعا ، كانت تحدث نفسها بعد انصراف الكولونيلة قائلة : « انتظروا قليلا ! هه ! كنت أتصور أن أعلق على ثوبي شريطا وردى اللون تكريما لهذا الأمير ! ألا ما أغباني حين صدقت أنه سيتزوجني ! آه . . . انه يناسبك جدا ، هذا الشريط يا آناسازيا ! وما ربا ألكسندروفنا ؟ أنا بهيمة ، شحاذاة ، قذرة ، أقبل مائتي روبل « بقشيشا » ! يا متصنعة أوضاع ! يا صانعة مزعجات ! تظنين أنني أفوت فرصة أخذ شيء منك ! لقد قبلت هذا المال بشرف ، أخذته كمشاركة مشروعة في النفقات ! ذلك أمر لا يعينك ، أنتى لم أرفض أن أسطو على قفل بيدي ! من أجلك انما عملت يا كسلى ، يا متوانية ! أنت لا تصلحين لغير التطريز ! انتظري قليلا ، لأرينك أنا كيف يكون التطريز ! لأرينكما كلتيكما هل أنا بهيمة ؟ ستعلمان معرفة آناسازيا بتروفنا وما تخبئه في جعبتها من أمور لطيفة ! » .

الفصل السابع



أثناء ذلك كانت ماريا ألكسندروفنا مقادة لعبقريتها • انها تركب مشروعاتها الكبير الجريء. ان تزويج ابنتها أميرا غنيا ذا عاهة ، على غير علم من الناس ، باستغلال ضعف العقل لدى ضيف عاجز عن حماية نفسه ، ان تزويجها ابنتها بالمكر والحيلة ، كما سيقول أعداؤها مشهرين بها ، لهو جرأة متهورة • لا شك أن المشروع مفر ، ولكن اذا لم ينجح فانه سيجلل تلك التي دبرته بخزي لم يسبق له مثيل. على أن ماريا ألكسندروفنا التي لا تجهل شيئا من هذا لا تراجع بسهولة. « ما أكثر ما سبق أن اكنوت بئران » ، بهذا اعترفت لابنتها • ولقد صدقت فيما قالت • أليس هذا دية البطولة ؟

ان هذا المشروع الذى له جميع مظاهر الأعمال التي يقوم بها قطاع الطرق لا يثبت الاضطراب في نفس ماريا ألكسندروفنا. ان لها في هذا الشأن رأيا صحيحا كل الصحة : « من تزوجت فقد تزوجت » • وهذه الفكرة البسيطة جدا قد فتحت لخيالها آفاقا تبلغ من السناء أنها تحس بتنميل يسرى في جسمها ؟ حتى يمكن أن نوجز فنقول انها بانفعالها الذى يتجاوز جميع الحدود كانت في قرارة عريتها كالقاعدة على ابر • ولقد استطاعت ماريا ألكسندروفنا ، وهى المرأة الملهمة التي تنعم بفكر خلاق لا يجحد ، أن تضع خطة عملها منذ الآن • غير أن هذه الخطة « الاجمالية » ما تزال غامضة بعض الغموض • ان ماريا ألكسندروفنا

تحس أن هذه الخطة محفوفة بهوة من التفاصيل والمفاجآت التي لا يمكن التنبؤ بها . واذ كانت ماريا ألكسندروفنا لا تعوزها الجرأة فليس الخوف من الاخفاق هو الذى يقلقها أكثر من أى شىء آخر . لا ... وانما الذى يقلقها هو استعجالها الشروع فى العمل بأقصى سرعة ، هو حرصها على خوض المعركة مستميتة على الفور . ان هذا الاستعجال ، وهو استعجال نبيل ، كان يضرم فى نفسها نارا حين تتصور العقبات التي قد توقفها عن المضى فى طريقها لمجرد أنها قد تأخرت منذ الآن تأخرا كبيرا . ولكننا نستأذن القارئ ، بمناسبة تأخرها هذا ، فى أن نشرح فكرتنا بعض الشرح . ان ماريا ألكسندروفنا تتوقع أسوأ الاحتمالات من سكان مدينتها النبلاء ، ولا سيما من كبريات سيدات مورداسوف . انها تعرف معرفة دقيقة ما تحمله لها هذه السيدات من كره لا يخدم أواره لحظة . هي مثلا واثقة كل الثقة من أن المدينة كلها فى هذه اللحظة تعرف نياتها ، رغم أن أحدا لم يتكلم عنها صراحة حتى الآن . هي تعرف بأكثر من تجربة مرة حزينة أن أيسر حادث يقع فى منزلها فى الصباح ، يصبح حديث المدينة كلها فى المساء ، مهما يكن سرا . ان كل واحد من سكان المدينة حتى آخر تاجر صغير فى قرارة دكانه ، وحتى آخر بائعة من البائعات فى السوق ، يعلق عندئذ على هذا الحادث ويطلق لسانه فى النقد والتجريح والتشهير . فمن حق ماريا ألكسندروفنا اذن أن تتصور منذ الآن الخطر الذى يحيق بمشروعها . ومهما يكن من أمر ، فان مشاعرها لم تكذبها فى هذه المرة ولا فى المرات السابقة . فاليكم ما حدث مما لم تكن تعلمه بعد علم اليقين .

فى نحو الظهر من ذلك النهار ، أى بعد وصول الأمير الى مورداسوف بثلاث ساعات تماما انتشرت شائعات غريبة . من أين خرجت هذه الشائعات ؟ لا أدري ... ولكنها انطلقت تجرى فى المدينة بسرعة

كسرعة البرق ... فكان الناس يقولون في كل جهة من الجهات ان ماريا ألكسندروفنا تطمع في الأمير زوجها لابتها التي لا تملك مهورا ، لابتها زينا التي بلغت من العمر منذ الآن ثلاثة وعشرين عاما ؟ وان موزجلياكوف قد استبعد بالتواطؤ والتآمر ، وان الأمر كله قد تقرر وتم الاتفاق عليه . ما هو أصل هذه الشائعات ؟ أكان الناس يبلغون من كمال معرفتهم بماريا ألكسندروفنا أنهم قد حزروا خواطرها الخفية على الفور ؟ المهم أنه لا شيء أمكن أن يصرف سكان مورداسوف عن تصديق هذا الأمر والاعتناع به والتأكد منه ، لم يصرفهم عن ذلك لا سخف شائعة كهذه الشائعة ، ما دام هذا النوع من المشاريع قلما يتحقق خلال ساعة واحدة في الأحوال العادية ، ولا صرفهم عنه أن هذا النبأ الذي لا يعرف أحد أصله كان يعوزه الدليل ، ويفقر افتقارا واضحا الى أساس يقوم عليه حتى يمكن تصديقه . والغريب أن هذه الشائعة كانت بسبيل الترسخ بسرعة صاعقة لحظة كانت ماريا الكسندروفنا تشرع في التحدث مع زينا في هذا الموضوع نفسه . هذه رهافة الاحساس لدى سكان الأقاليم ! ان غريزة كتاب القصة من سكان الأقاليم تبلغ في بعض الأحيان من الصدق مبلغا لا يكاد يتخيله العقل ... ولهذا أسبابه طبعاً . انه ناشئ عن سنين طويلة من الاهتمام الشديد بالناس . ان كل واحد من سكان الأقاليم يعيش تحت كرة من زجاج ان صح التعبير . فيستحيل عليه اطلاقا أن يخفي أى شيء عن مواطنيه المحترمين ... كل فرد من الأفراد يعرفك هناك على ظهر القلب ، يعرف عنك حتى ما تجهله أنت عن نفسك ! لذلك فان ساكن الاقاليم عالم من علماء النفس بطبيعته ، عارف من العارفين المرهفين بالقلب الانساني فطرة وغريزة . وهذا هو السبب في أنني أدهشني أحيانا أن أرى بين سكان الاقاليم أغنياء كثيرين بدلا من أرى علماء بالنفس وعارفين مرهفين بالقلب الانساني . ولكن

هذه الفكرة خارجة عن موضوعى • فلنعد اذن الى الموضوع • لقد انتشرت
 الشائعة بسرعة كسرعة البرق • وبدا زواج زينا بالأمير لجميع الناس أمرا
 يبلغ من الانطباق على القواعد ومن الجلب للمنافع ومن النجاش والبريق،
 أن الجانب الغريب فى القضية قد غاب عن أبصارهم • ويجب أن نلاحظ
 شيئا آخر أيضا : كان الناس يكرهون زينا أكثر مما يكرهون أمها تقريبا •
 لماذا ؟ الله أعلم ! لعل جمال زينا أحد أسباب هذا الكره ! ولعل ماريا
 ألكسندروفنا كانت رغم كل شئ أقرب الى سكان مورداسوف وأشبه بهم
 من ابنتها ، ومن يدرى ؟ لعلهم اذا غابت ماريا ألكسندروفنا عن المدينة
 ذات يوم أن يأسفوا لفراقها وأن يشعروا بالحسرة لبعدها • ألم تكن تبث
 الحياة فى المجتمع بحكاياتها التى لا تنتهى ؟ لسوف يموتون ضجرآ وساما
 اذا هى تركتهم • ولا كذلك زينا ، فانها بوضعها وبحياتها فى السحب ،
 لا تعد من مورداسوف • انها من أولئك الناس الذين لا تحس معهم
 بالألفة وزوال الكلفة • ولعلها كانت تصطح ، دون أن تشعر بذلك ،
 أوضاعا من الكبرياء والخيلاء لا تحتمل ولا تطاق • ولكن ها هى ذى
 تصبح على حين فجأة زينا اخرى غير زينا التى كانت تروج فى حقها
 الوشايات الفاضحة والنمائم المشينة • ان هذه الأنسة المتكبرة المزهوة التى
 تحقر الناس وتزدرىهم ستصبح أميرة ، ستصبح من أصحاب الملايين ،
 ستدخل المجتمع الراقى ! وبعد نحو سنتين من ترملها ستزوج دوقا وربما
 جنرالاً ، أو ربما حاكما (كان حاكم مورداسوف أرمل وهو من كبار
 عشاق النساء الجميلات) ••• وستغدو اذن السيدة المرموقة فى الاقليم •
 كان طبعيا اذن أن تثير هذه الفكرة سكان مورداسوف اثارة شديدة ،
 وأن تعضهم عضاً قويا • ما من نبأ فعل ما فعله فيهم هذا النبأ بمثل هذا
 العنف قبل اليوم • لذلك سرعان ما علا الصياح فى كل جهة حائقا مهتاجا •
 صرخوا يقولون ان هذا الزواج سيكون اثما دنيئا ، وان الشيخ لا يملك

عقله ، وان ماريأ ألكسندروفنا وابنتها تستغلان خرفه للتغريب به وخداعه وتضليله ؛ وان من الواجب انقاذ الأمير من برائن هاتين الجشعتين ؛ وان هذا الأمر يتافى الاخلاق ؛ وانه نهب وسلب ؛ وان الفيتسات الأخريات لسن دون زينا قيمة ، ولسن أقل من زينا جدارة بزواج الأمير • وكانت ماريأ ألكسندروفنا التى تتوقع هذه النائم وهذه الثروات تسترد مزاجها المشرق كله • كانت تعلم علم اليقين أن جميع سكان مورداسوف ، بغير استثناء أحد منهم ، سوف يعملون الممكن والمستحيل للوقوف فى طريقها • انهم قادرون فى هذه اللحظة على مصادرة الأمير ، فعليها من أجل استرداده أن تناضل ويكاد ينبغى لها أن تقاتل • وعليها اذا هى ظفرت بالاستيلاء عليه وردة الى منزلها رأساً أن لا تبقى فى المنزل زمناً طويلاً • فعن ذا الذى يضمن أن لا تغزو سيدات مورداسوف صالونها فى هذا النهار نفسه ، بعد ساعة أو ساعتين ، جوقة واحدة ، تحت ستار حجب تجعل التملص من زيارتهن أمراً مستحيلاً ؟ لئن أغلقت أمامهن الباب فلسوف يدخلن من النافذة ، وهذا أمر يكاد يستحيل فى غير هذه المدينة ، ولكن سبق أن حدث فى مورداسوف • الخلاصة : ما من دقيقة يجب أن تضيق ، والامر لمّا يكد يسير • هنا ومضت فى ذهن ماريأ ألكسندروفنا فكرة عبقريّة ، بسرعة كسرعة البرق ، وسرعان ما تجسدت هذه الفكرة • لن يفوتنا أن نتكلم عن هذه الفكرة فى محلها وزمانها • وحسبنا أن نذكر هنا أن بطلتنا كانت فى تلك الدقيقة تطير فى شوارع مورداسوف ، مهددة متوعدة ملهمة عازمة على القتال اذا لزم القتال ، من أجل أن ترد الأمير الى منزلها • لم تكن تعرف ، بعد ، كيف تتأتى لهذا الأمر ، وأين تجد الأمير • ولكنها كانت تعلم حق العلم أنها تؤثر أن ترى مورداسوف تغور تحت الأرض على أن تترك من مشاريعها مثقال ذرة • وكانت خطواتها الأولى انتصاراً • لقد أتيح لها أن تلتقى بالأمير فى

الشارع وأن ترده الى منزلها لتناول الغداء • فاذا سألتمونني كيف تسني لها ، رغم جميع مكائد أعدائها ، أن تحافظ على مواقعها وأن تصنع أنا نيكولايفنا هذه الصفة ان صبح التعبير ، فانتى سأكون مضطرا لأن أعترف لكم بأننى أعد هذا السؤال اهانة لماريا ألكسندروفنا • أليست تستطيع أن تنتصر على أية أنا نيكولايفنا آتتيوفا ؟ انها لم تزد على أن سدت الطريق أمام الأمير عند عتبة منزل غريمتها دون أن تراعى أى شيء ، ثم أركبت الشيخ عربتها رغم اعتراضات موزجلياكوف نفسه الذى كان يخشى وقوع فضيحة ! ان ماريا ألكسندروفنا انما تتميز على منافساتها بهذه النقطة : انها فى اللحظة الحاسمة تندفع الى أمام غير عابئة بالفضيحة ، لأن شعارها أن الغاية تبرر الوسيلة • وطبعى أن الأمير لم يظهر مقاومة تذكر • فانه على عادته سرعان ما نسي الى أين كان ذاهبا ، وأعلن أنه سعيد بهذا اللقاء • وقد ظل طوال فترة الغداء يثرثر بلا توقف ولا انقطاع ، فهو يلقي نكتا قائمة على الجناس ، ويروى نوادر ، ويقص فكاهات ويحكى ملحا لا يتمها أو يخلط بعضها ببعض قافزا من واحدة الى أخرى دون أن يشعر بذلك • وكان قد شرب ثلاثة أكواب من الشمبانيا عند ناتاليا دمترينا ؟ فما هو ذا يشرب مزيدا أثناء الغداء الى أن طاش ليه تماما • وكانت ماريا ألكسندروفنا هى التى تتولى ملء كأسه • وكان الغداء رائعا • ان « هذا الشيطان نيكيتكا » لم يغفل شيئا ولم يخطئ فى شيء • وكانت ربة الدار تحاول أن تغمر ضيوفها بأشعة مزاجها المشرق النادر • ومع ذلك كان بعضهم يظهر ضيقا شديدا • ان زينا صامتا صمتا يمكن أن يوصف بأنه صريح • وموزجلياكوف لم يكن منشرح الصدر ولا أكل بشهية • لقد كان يبدو بوضوح أنه غارق فى تأملات تبلغ من العمق انها روعت ماريا ألكسندروفنا • أما آناستازيا بتروفنا فقد كانت عابسة الوجه ، وكانت تغمز موزجلياكوف ، خفية ، غمزات غريبة لا يلاحظها

موزجلياكوف • فلولا ما كان يشع من ربة الدار من حماسة ، اذن لكان
الغداء أشبه بغداء جنازة •

وفى أثناء ذلك ازداد قلق ماريا ألكسندروفنا واشتد اشتدادا كبيرا .
لقد أصبحت مذعورة أقصى الذعر مما يبدو من حزن واضح فى وجه زينا
التي كانت عيناها حمراوين • وان أصعب ما فى المهمة لم يتم بعد : يجب
على ماريا ألكسندروفنا أن تسرع ، وأن لا تضع دقيقة واحدة • ما بال
موزجلياكوف هذا اللعين لا ينصرف بل يمكث غيبا دون أن يشعر بأن
حضوره زائد ؟ انه ليستحيل تسيير الامر أمام عينيه وا أسفاه ! ونهضت
ماريا الكسندروفنا عن المائدة وهى فى حالة نفسية رهيبية • ولكن ما كان
أشد دهشتها وفرحها ومخاوفها فى الوقت نفسه ، ان صح التعبير ، حين
رأت موزجلياكوف يجرى اليها عند النهوض عن المائدة ويعلن لها أمرا لم
يكن فى الحسبان وهو أنه مضطر الى الانسحاب أسفا أشد الأسف •

سألته ماريا الكسندروفنا بلهجة الشفقة الشديدة المألوفة فيها :

— ماذا هنالك ؟

فأخذ موزجلياكوف يقول وقد بلغ من شدة القلق أنه لا يعثر على
الكلمات التى يفصح بها عن نفسه :

— لقد حصل لى حادث سخييف يا ماريا الكسندروفنا • لا أدري
كيف أقصه عليك ••• انصحينى يا ماريا ألكسندروفنا ناشدتك الله !

— ماهو الأمر ؟

— صادفت اليوم اشينى بوردويف ••• أنت تعرفينه •• التاجر ؟
انه غاضب جدا ، هذا الشيخ المسكين ، وقد أغرقنى بسيل من اللوم
والتقريع ••• هو يزعم أننى أتكبر • أعترف أن هذه ثالث مرة أجىء

فيها الى مورداسوف دون أن أضح قدمي في منزله • قال لي أخيرا :
 « انتترك اليوم في موعد الشاي » • والساعة الآن هي الرابعة ، والرجل
 يشرب الشاي على الطريقة القديمة ، عند صحوه من القيلولة ، في الساعة
 الخامسة • فماذا يجب أن أعمل • ثقي يا ماريا ألكسندروفنا أنتي
 لا أحرص على زيارته ، ولكنه قد أنقذ أبي من مأزق في ذات يوم • كان
 أبي يوشك أن يشنق نفسه لأنه خسر في القمار مالا من أموال الحكومة •
 وقد أصبح اشينى على اثر ذلك • فاذا تزوجت زينايد أنا ناسيفنا فأننى
 لا أملك الا مائة وخمسين نفسا ، أما هو فانه يملك مليون روبل ، بل
 يزيد ، فيما يقال • وعمره سبعون عاما • • • تصورى • • • فمن يدري ؟
 ان من الجائز جدا أن يوصى لي بنحو مائة ألف روبل • • •

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول دون أن تظفر باخفاء فرحها :

— آه ! • • • رياه ! • • • ألا ما أسخفك ! ماذا تنتظر ؟ اذهب اليه
 • • لا تتباطأ ! لا مزاح في أمر كهذا الأمر ! آ • • • اذن هذا هو السبب
 في أنك كنت تبدو حزينا أثناء الغداء ! اذهب اليه يا صديقى ، اذهب اليه !
 • • كان عليك منذ هذا الصباح أن تستميله بزيارة ، أن تيسن له أنه عزيز
 عليك ، وأنك تقدر عاطفته نحوك ! آه من هؤلاء الشباب ! آه من هؤلاء
 الشباب ! • • •

هتف موزجلياكوف يقول :

— ولكنك يا ماريا ألكسندروفنا قد أخذت على هذه العلاقة أنت
 نفسك • • • لقد وصفت اشينى بأنه رجل تافه ، وقلت عنه انه لحيه عتيقة ،
 وعبته بأنه أشبه بمدنى الحانات أو أصحاب الخمارات • • •

— آه • • • يا صديقى • • • ما أكثر ما يطلق المرء من كلام في الهواء • • •
 أنا أيضا يمكن أن أخطئ • • • لست معصومة من الزلل • • • لا أتذكر

ما لعلى قلت من كلام ، ولكن لا شك فى أننى كنت عندئذ معتكرة المزاج
 ... ثم انك لم تكن فى ذلك الوقت تسمى الى ابنتى ... أنا أدرك أن
 الأثانية وحدها تدفعنى الى هذا القول ، ولكن يجب على أن أنظر الى
 الأمور الآن من زاوية أخرى مختلفة كل الاختلاف . أية أم يمكن أن
 تلومنى على هذا ؟ اذهب اليه ، اذهب اليه ، لا تضيع دقيقة واحدة ...
 اقض السهرة كلها معه ... آه ... اسمع أيضاً ... لا تنس أن تدبر
 الأمور بحيث تكلمه عنى . قل له اننى أقدره ، واننى أحمل له محبة
 واحتراماً ولكن عليك أن تقول له ذلك بأقصى ما يمكن من حذق ولطف
 وكياسة ! آه ... كيف يفوتنى هذا وقد كان يجب على أن أتنبأ به وأن
 أسدى اليك النصيح فيه ؟ ...

قال موزجلياكوف بحماسة :

— انك ترددين الى الحياة يا ماريا ألكسندروفنا ... الآن أحلف
 لأطيعنك فى كل أمر . ما أعجبنى ! لقد كنت أخشى أن أحدثك فى هذا
 الموضوع ! هيا ! ... الى اللقاء ... أنا ذاهب ! اعتذرى عنى لزيائيد
 آتانا سيفنا ... ولكننى عائد فور الانتهاء من زيارته على كل حال ! ...

— اذهب يا صديقى اذهب ! لا تنس أن تذكر اسمى ! انه فى
 الواقع رجل لطيف ! لقد غيرت رأيى فيه منذ زمن طويل ! والحق أننى
 أحبيت فيه دائماً عراقة الأرض الروسية ... الى اللقاء يا صديقى ، الى
 اللقاء ! ...

حدثت ماريا ألكسندروفنا نفسها قائلة وهى تتنفس الصعداء :
 « جاءت فى وقتها ، هذه القصة ! لا شك أن الله معى ! »

كان بافل ألكسندروفتش قد وصل الى حجرة المدخل يرتدى معطفه

حين خرجت له آناستازيا بتروفنا لا يدري أحد من أين • لقد كانت تترقبه وترصده •

سألته وهي تمسكه من ذراعه :

- الى أين ؟

- الى عند بورودوف يا آناستازيا بتروفنا • انه اشينى ، حملنى عند تعميدى •• وهو رجل واسع الثراء ، وسيورنى شيئا ، فيجب أن أتملقه قليلا ••

كان يافل الكسندروفتشى قد استرد مزاجه المشرق •

- تذهب الى عند بورودوف ! ودع خطيتك اذن الوداع الأخير !

- لماذا « الوداع الأخير » ؟

- نعم ، ودعها الوداع الأخير ••• أتخيل أنك قابض عليها مع أن الأمير هو الذى سيتزوجها ؟ لقد سمعت هذا بأذنى •

- الأمير ؟ هل جنت يا آناستازيا بتروفنا ؟

- جنت ؟ قل لى : هل تحب أن ترى بعينيك وأن تسمع بأذنيك ؟

اذن دع فراءك حيث هو واتبعنى من هنا !

ترك بافل ألكسندروفتش معطفه مذهولا وتبع آناستازيا بتروفنا سائرا على رعوس الأصابع • فقادته الى تلك الحجرة نفسها المتخذة مستودعا ، التى قبع فيها عند الصباح تنصت واضعة عينيها على ثقبى المفتاح •

- ماذا تريد منى يا آناستازيا بتروفنا ؟ اننى لا أفهم شيئا البتة !

- أريد شيئا واحدا : أن تفتح عينيك • مل على هذا الثقب ،

واسمع ! لا شك أن التمثيلية على وشك أن تبدأ •

- أية تمثيلية ؟

- شت ! ••• لا ترفع صوتك ! هى التمثيلية التى سترهن لك على

أنهم يسخرون منك ! فى هذا الصباح ، حين ذهبت مع الأمير ، أخذت ماريا ألكسندروفنا تعظ ابنتها زينا خلال ساعة كاملة بضرورة تزوجها الأمير . وقد زعمت لها أنه لا شيء أسهل من التفرير به ودفعه الى هذا الزواج ! انك لا تستطيع أن تتخيل الحيل التى عمدت اليها والمكر الذى توسلت به، حتى شعرت من ذلك بألم فى قلبى آخر الامر ! ولقد وافقت زينا . ما أحلى ما تدبرانه لك ككلاهما ! ... انها تعذلتك أغبى الاغبياء قاطبة ! ... حلفت زينا أغلظ الايمان أنها لن تكون زوجتك فى يوم من الأيام . ألا ما أعبانى أنا ! كنت أريد أن أعلق بشوى شريطا وردى اللون! اسمع ، اسمع !

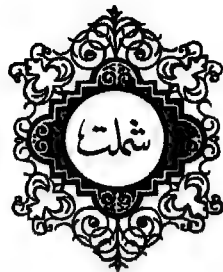
— اذا صح ما تقولين فهذا هو الخداع الشيطانى بعينه !
كذلك دمدم بافل ألكسندروفتش قائلا وهو يفرس فى آناستازيا بتروفنا نظرات بلهاء !

— أنظر ... لتسمعن المزيد أيضا .
— من أين يجب أن أتصت ؟
— من هنا ! ميل على هذا الثقب الصغير !
— آناستازيا بتروفنا ! لا أستطيع أن أتجسس هذا التجسس .
— دعك من هذا الهراء وافتح أذنيك !
— ولكن ...

— اذا كنت تعجز عن التنصت على الأبواب ، فما عليك الا أن تهلك ! أهتم بأمره وأرئى لحاله ، ثم هو يتصنع الاشمئزاز ! اننى من أجلك انما أعمل يا هذا ! والا لحملت متاعى وانصرفت من هنا قبل حلول المساء .

أذعن بافل ألكسندروفتش ، فمال على الثقب . كان صدغاه ينبضان كقلبه . أصبح لا يفهم ما يجرى له ...

الفصل الثامن



ماريا ألكسندروفنا ساحة معركتها المقبلة بنظرة نهمه
من نظرات الوحوش الكواسر والطيور الجوارح،
ثم بدأت الحديث وهي تصطنع هيئة بريئة غاية
البراءة ، بينما يتمزق قلبها قلقا ، قالت :

— هل أحسن استقبلت عند ناتاليا دمترينا يا أمير ؟

كانوا قد اقتادوا الأمير فور انتهاء الغداء الى « الصالون » الذى
استقبل فيه صباحا ، وهو الصالون الذى تعز به ماريا ألكسندروفنا اعتزازا
عظيما ، والذى تجرى فيه عندها جميع الأحداث وتقام فيه جميع
الاستقبالات . كان الشيخ وقد شرب ست أقداح من الشمبانيا لا يكاد
يستطيع الوقوف على ساقيه ، ولكنه كان يثرثر بغير انقطاع . وكانت سرعة
دندنته قد ازدادت وتفاقت ، فأدركت ماريا ألكسندروفنا أن الأمير لن
يلبث أن يستبد به النعاس بعد هذا الاتعاش الذى شب فى نفسه كنسار
الهشيم ، فلا بد اذن أن تنتهز الفرصة وتستغل اللحظة ؛ وقد لاحظت
وهي تنظر الى ساحة معركتها أن الرجل ، وهو شهوانى جدا بطبيعته ،
كان يتأمل زينا بعينين ملتصتين التماعا خاصا ، فافرحها هذا فرحا عظيما ،
وأخذ قلبها ، قلب الأم ، يرتجف ارتياحا واغباطا .

أجاب الأمير :

— جدا ، جدا وهل تعلمين ؟ انها لامرأة لا تضارع ، ناتاليا

دمترينا هذه ، لا تض ر . . . ع . . .

فلسعت ماريا ألكسندروفنا لسعا أليما من هذا المديح يُزجى
لغريمتها ، رغم انها مشغولة البال بخططها الكبرى •
صاحت تقول وقد قدحت عيناها شررا :

— أوه ! ما هذا الكلام الذى تقوله يا أمير ؟ اذا كانت صاحبك
ناتاليا دمتريفنا هذه امرأة لا تضارع ، فانتى لاتساءل من ذا الذى لا يتصف
اذن بأنه لا يضارع ؟ ألا انه لو اوضح أنك لا تعرف شيئا عن الناس هنا
يا أمير ! ان العواطف الكريمة لا وجود لها هنا الا مظهرها خلايا وتمشيلا
صرفا وطلاء ذهيبا كاذبا ، فمتى حككت الطلاء لم تجد الا جحيما تحت
أزهار ، ولم تجد الا عش زناير تنهيا للدغك حتى العظام !

هتف الامير يقول :

— أهذا ممكن ؟ ان هذا ليذهلنى حقا !

قالت ماريا ألكسندروفنا :

— يمينا ان ذلك هو الحقيقه بعينها ! آه يا أمير ! اسمعى يا زينا :
أرانى مضطرة أن أذكر للأمير ما صنعه ناتاليا دمتريفنا هذه فى الاسبوع
الماضى من أمور سخيفة تبعث على الاشمئزاز ، هل تذكرين ؟ نعم يا أمير :
حكاية صغيرة عن ناتاليا دمتريفنا هذه التى ترفعها الى السحاب مدحا ! آه
يا أمير ! ... أؤكد لك أننى لست بالنمامة ؛ ولكن لا بد لى من أن أقص
عليك هذه الحكاية مهما كلف الأمر ... لسوف تسليك هذه الحكاية ،
ولسوف تظهرك فى الوقت نفسه على حقيقة الناس هنا كأنك تراهم على
لوحة بمنظار • منذ خمسة عشر يوما جاءتتى ناتاليا دمتريفنا هذه • فبعد
أن قدمت لها القهوة اضطرت أن أخرج ، لا أذكر الآن لأى سبب •
ولكننى أذكر جيدا أن سكريتى الفضية كانت ملأى حتى لتكاد تطفح •

فلما عدت فوقع بصرى على السكرية لم أر الا ثلاث قطع من السكر فى قاعها • ولم يكن فى الغرفة أحد غير ناتاليا دمترينا ! فانظر كيف تتصرف ! ذلك أمر غليظ مضحك سخيف ، ولكن احكم على تربية الناس هنا وعلى أخلاقهم !

كرر الامير يقول وقد دهش دهشة صادقة :

— أ • • • ه • • • ذا • • • م • • • كن ؟ • • • تلك شراة عجيبة ! أيمكن أن تكون قد أكلت جميع قطع السكر ؟

— هذه هى سيدتك التى « لا تضارع » يا أمير ! فكيف ترى آدابها ؟ يمينا لكنت مت خزيا وعارا قبل أن أفارف أمرا كهذا الامر !

— طبعا ، طبعا • • • ولكن هل تعلمين ؟ انها امرأة جميلة !

— من ؟ ناتاليا دمترينا ؟ أرجوك يا أمير ! • • • أهذه « البرميل » جميلة ؟ آه • • • أمير • • • أمير • • • ما هذا الذى تقول ؟ كنت أحسب أنك صاحب ذوق لا يخطئ ! • • •

— طبعا • • • طبعا • • • برميل • • • ولكن هل تعلمين ؟ انها مغرية • • • والصغيرة أيضا ، تلك التى رقصت ، انها مغرية كذلك • • •

— الصغيرة صونيا ؟ ولكنها طفلة يا أمير ! • • • انها لم تكذب بلغ الرابعة عشرة من عمرها !

— طبعا ، طبعا • • • ولكن هل تعلمين ؟ انها مرنة جدا • • • ان لها أشكالا • • • تتشكل • • • وهى لطيفة هذه الصغيرة • • • وكذلك الأخرى • • • التى رقصت • • • أشكال تتشكل • • •

— آه • • • الثانية يتيمة بائسة يا أمير ! انهم كثيرا ما يحضرونها !

- يتيمة ! نعم ، حقا ! لقد بدت لى متسخة • كان ينبغي لها أن تغسل يديها •• ولكنها كانت جذابة جدا هى أيضا •

قال الأمير هذه الكلمات وسدد نظارته نحو زينا ، وتأملها بمزيد من النهم ، ثم زأزا يقول بصوت خافت ولهجة جدلى :

- ما أفتتها ! •••

قالت الأم :

- يا زينا ، اعزفى لنا شيئا ، بل غنى لنا شيئا ! آه ••• ما أحسن غناءها يا أمير ! يمكن أن يقال انها موسيقية موهوبة ، موهوبة حقا !

ثم تابعت تقول بصوت خافت ، بينما كانت زينا تمضى الى البيانو بخطى لينة رخصة ، بخطى مجنحة ان صح التعبير ، بخطى كفيhle بأن تدوخ الشيخ المسكين :

- ليتك تعرف أية فتاة هى يا أمير ! ليتك تعرف مدى قدرتها على الحب ! ما أشد حنانها على ! ما أعظم عاطفتها ! ما أرق قلبها !

قال الامير مقاطعا وهو يبلع ريقه :

- طبعا طبعا •• عاطفتها •• قلبها •• هل تعلمين ؟ اننى لم أرفى حياتى كلها الا امرأة واحدة يمكن أن تضاهيها جمالا •• هى المرحومة الكونتيسة نايسكى •• لقد ماتت منذ ثلاثين عاما • امرأة لا تضارع •• جمال لا يو •• صف ! •• تزوجت طباخها •

- طباخها يا أمير ؟

- طبعا طبعا ، طباخها •• هو فرنسى •• تزوجته فى الخارج ••• انها منذ وصلت الى الخارج خلعت عليه لقب كونت •• وكان رجلا مهيب الطلعة ، واسع الثقافة ، الى شاربين صغيرين جميلين •

- وهل تفاهما يا أمير ؟

- طبعا طبعا .. ولكن ذلك لم يدم زمناً طويلاً .. جردها من مالها
ثم انسل ... لقد دب بينهما الشقاق .. على أثر مسألة ما ..
سألت زينا :

- ماذا أعزف يا أمي ؟

- الأفضل أن تغنى يا زينا • انها تحسن الغناء كثيرا يا أمير • هل
تحب الموسيقى ؟

- طبعا طبعا ! شيء رائع ، رائع ... أحب الموسيقى كثيرا .. لقد
عرفت بتهوفن فى الخارج ...
صرخت ماريا ألكسندروفنا متحمسة :

- بتهوفن ؟ هل تسمعين يا زينا ؟ لقد عرف الأمير بتهوفن ! آه ..
هل صحيح أنك عرفت بتهوفن ؟

- طبعا طبعا ، كنا نعيش صديقين • وكان أنفه ملطخا دائما بالتبغ
.. شيء مضحك !
- بتهوفن ؟

- طبعا طبعا ! على كل حال قد لا يكون هو بتهوفن ، بل ألمانى
آخر • يوجد ألمان كثيرون هناك ! ييخيل الى أننى أستطرد ...
سألت زينا :

- ماذا أغنى يا أمي ؟

- آه .. زينا .. غنى أغنية الفروسية تلك .. سيدة القصر وشعراء

التروبادور *** آه يا أمير ! اننى أعبد كل ما يتصل بالفروسية • تلك
الأبراج ، القرون الوسطى ، أولئك الشعراء التروبادور ، أولئك الفرسان ،
تلك المباريات • سأرافقك فى الغناء يا زينا • تعال اجلس هنا يا أمير •
قرب • آه ما أروع تلك القصور ، ما أجمل تلك الابراج ! •

– طبعاً طبعاً •• تلك القصور ! أنا أيضاً أحب القصور •

وكان الأمير كمن يشرب زينا بعينه الوحيدة •

أردف يهتف قائلاً :

– ولكن ••• رباه ! هذه الأغنية أنا أعرفها ! سمعتها من زمان
طويل ••• هذه الاغنية ••• ذلك يذكرنى بـ ••• آه ••• رباه ! ••
لن أجازف فاحاول أن أصف الحالة النفسية التى صار اليها الأمير
من غناء زينا • لقد غنت أغنية عاطفية فرنسية كانت رائجة فى الزمان
القديم ، غنتها فأحسنت غناها غاية الاحسان • كان صوتها الصافى ينفذ
الى القلب • ان وجهها الفتان ، وعينيها الاخاذنين ، وأصابعها الطويلة
الديقة التى كانت تقلب بها صفحات دفتر الموسيقى ، وشعرها الكثيف
الأسود اللامع ، وصدرها المتموج ، وشخصها النيل المتكبر الرائع كله ،
ان هذا جميعه قد فتن الأمير عن نفسه وسحره وأجهز عليه • فكان
الأمير لا يحول عنها بصره أثناء الغناء ، ولا ينفك يسيل لعابه من شدة
الانفعال • ان قلبه الذى أدفأته الشمبانيا والموسيقى والذكريات (من منا
ليس له ذكريات حب ؟) يخفق الآن خفقاً متسارعاً كما لم يخفق منذ
زمن طويل •

صاح وهو يقبل رهوس أصابعها :

– بنيتى الفاتنة ! انك لتسحريننى ! الآن تذكرت ••• الآن تذكرت

••• آه يا بنيتى الفاتنة ! •••

عجز الأمير عن اكمال كلامه • وشعرت ماريا ألكسندروفنا
اللحظة الفاصلة قد حانت • فصاحت تقول :

- لماذا تضيع نفسك يا امير ؟ ما اكثر ما تدفن في هذه الوحدة التي
تحياها من عاطفة ، وحيوية ، وغنى روحى ! لماذا تتجنب المجتمع ،
والاصدقاء ؟ ألا ان هذا الامر لا يفتقر ! فكر يا أمير ، أنظر الى الامور
بعين بصيرة ان صح التعبير ! استحضر فى قلبك الماضى ، تذكر شبابك
الذهبي ، وأيامك البهجة ، أيقظ هذا كله فى روحك ، ابعث نفسك !
عد الى الحياة فى العالم بين الاحياء ! سافر الى الخارج ، الى ايطاليا ،
الى اسبانيا ... اسبانيا يا أمير ! ولا بد لك من مرافق يهديك ، لا بد
لك من قلب يحبك ، ويمجذك ، ويفهمك ! ان لك أصدقاء ! نادهم ،
ادعهم الى مساعدتك يهرعوا اليك ذرافات ! وأنا أول من يهرع اليك
تاركة كل شيء فى سبيل تلبية ندائك • اننى أتذكر ما كان بيننا فى
الماضى من مودة يا امير ! لسوف أترك زوجى وأتبعك ... لو كنت أكثر
شبابا ، لو كنت كابتنى جمالا ونضارة عود ، اذن لجعلت نفسى صاحبك
فى الطريق ، اذن لجعلت نفسى رفيقتك ، اذن لجعلت نفسى زوجتك ،
متى أظهرت أيسر رغبة فى ذلك !

- أوه ! أنا واثق أنك كنت فى شبابك امرأة فاتنة •

كذلك قال الأمير محتجا ، وهو يمخط ، وقد اتسخت عيناه
بالدموع •

أجابت ماريا ألكسندروفنا تقول متحمسة :

- نحن نعيش فى أولادنا حياة ثانية يا أمير • أنا أيضا لى ملاكى
الحارس : ابنتى ، صديقة أفكارى وقلبى يا أمير • لقد رفضت حتى الآن
سبعة أزواج فى سبيل أن تبقى معى •

- اذن ستصحبك اذا صحبتنى الى الخارج ؟ اذا صحَّ هذا فأنا

مسافر الى الخارج حتما ! لأسافرن فوراً اذا كان يمكن أن أمني نفسي بهذا الأمل ؟

كذلك صاح الأمير غارقاً فى الانفعال ، وأضاف يقول :

— ألا انها لصيبة لا تضا ♦♦♦♦ رع ! أوه ! بنيتى الغاتنة !

وعاد الأمير يقبل رموس أصابع زينا ♦ مسكين هذا الشيخ ! أصبح لا يشتهى الا شيئاً واحداً : أن يجثو أمامها !

— ما هذا الذى تقوله يا أمير ؟ اذا كان يمكن أن تمنى نفسك بهذا الأمل ؟ ما أغرب شأنك يا أمير ؟ أتظن اذن أن النساء يمكن أن لاتهنهن عاطفة نحوك ؟ ليس الجمال فى الشباب يا أمير ! تذكر أنك فرع من أبـل فروع ارستقراطيتنا الروسية ، وتذكر أنك تمثل أرهف العواطف وأقربها الى الفروسية ... هذا الى أرفع الآداب الاجتماعية وأسمائها . أما تولدت ماريا حبا بصاحبها مازيبا ؟ * وانى لأتذكر اننى قرأت أن لاوزون ، ذلك المركز الرائع فى بلاط لويس... نسيت أى لويس... قد كان شيخا على حافة قبره حين هامت بحبه فتاة هى أكمل فتيات البلاط جالا ! ... ومن ذا الذى قال لك انك شيخ ؟ من ذا الذى أوهمك بهذا ؟ وهل يشيخ رجال من طبيعتك ؟ هل تشيخ انت ، أنت الذى يزخر قلبك بكل هذه العواطف الغنية ، أنت الذى تفيض حياة ومرحاً وذكاء وخيالا ، انت الذى تملك آداباً رائعة كل هذه الروعة ؟ الا انه ما عليك الا أن تظهر فى أى مكان ، الآن ، فى مدن المياه المعدنية ، فى الخارج ، مع امرأة شابة ، جميلة كجمال زينا مثلاً — لست أقصد زينا ، وانما هو تشييه — حتى ترى الأثر العظيم الذى سوف تحدثه فى نفوس الناس ! أنت عمد من أعمدة ارستقراطيتنا ، وهى امرأة بارعة الحسن فتانة الجمال ! تناولها ذراعك فى فخامة وجلال ، فتغنى لك فى المجتمع الراقى . ألا ان كل انسان سيجرى

ليراكما ويعجب بكما ! ولسوف تتحدث أوروبا كلها عنك : جميع الجرائد ،
جميع الصحفيين ، سيرددون بصوت واحد : « الأمير ، الأمير ! » أبعاد
هذا تقول : « اذا كان يمكن أن أمنى نفسى بهذا الأمل » ؟ ...

همهم الأمير يقول خافضا بصره دون أن يفهم نصف كلام ماريما
ألكسندروفنا :

- طبعا طبعا ... الصحفيون ... سيكون هذا فى الجرائد ...
يا بنيتى ، اذا كنت لم تتعبى ، فأعدي لى هذه الأغنية التى غنيها !

- انها تعرف أغنية أخرى يا أمير ... أغنية أجمل من هذه
أيضا ... هل تذكر أغنية «السنونو»* يا أمير ؟ لا شك أنك سمعتها !

- طبعا طبعا ، أتذكرها ... بل نسيها • لا ، لا ، فلتغن الأخرى ،
الأخرى ، تلك التى غنتها الآن •

كذلك قال الأمير بصوت مبتهل ، كطفل •

غنت زينا الأغنية مرة أخرى ، فلم يستطع الأمير أن يتمالك نفسه ،
فاذا هو يرتضى على قدميها باكيا ، ويصيح بصوت جعله الانفعال المضاف
الى الشيوخوخة مختلجا مرتجفا :

- أواه يا صاحبة القصر الجميلة ! أواه يا ربة القصر الفاتنة !
يا بنيتى الحلوة ... لقد ذكرتى ... بما حدث منذ زمن بعيد ...
كنت أيامئذ أرى الأشياء أجمل مما أصبحت أراها بعد ذلك ... كنت
أيامئذ أغنى أغنيات لاثنتين ... أغنيها مع الفيكوتتيسة ... كنت أغنى
هذه الأغنية ... والآن ، لا أدري أين أنا من هذا كله ...

نطق الأمير بهذه الكلمات لاهثا متمتما • كان لسانه رخوا ، وكان
بين ألفاظه مالا يفهم • والشئ الوحيد الذى كان واضحا هو أن انفعاله

طافح • فأسرعت ماريا ألكسندروفنا تصب الزيت على النار • صاحت
تقول فجأة وهي تشعر أنها شارفت لحظة الانتصار :

— ولكنك هائم حبا بزينا يا أمير !

فجاء جواب الشيخ فوق كل ما كان يجيش في صدرها من آمال •
قال وهو ما يزال جاثيا وقد انتعش فجأة وعاد يرتجف :

— أنا بها مخنون • أنا مستعد أن أقف عليها حياتي كلها ! آه ...
ليتني أستطيع أن أمنّي نفسي فحسب ، ليتني أستطيع ان أومل فحسب •
ولكن ساعدوني على النهوض ... انني أشعر بوهن شديد ... آه ...
ليتني أستطيع أن أمنّي نفسي بأن أهب لها قلبي ... وعندئذ ... سوف
... تغني لي هذه الأغنية كل يوم ، وسوف أتأملها ... أتأملها بغير
انقطاع ... آه ... يا رب !

— أنت تخطبها يا أمير ... أتريد أن تنتزعها مني ؟ أن تسلبني
عزيزتي زينا ، أن تخطف ملاكي الحبيب ؟ لا ... لن أدع لك أن
تذهبي يا زينا ... كيف تُنتزعين من بين ذراعي ؟ كيف تنتزعين من بين
ذراعي أملك ؟

كذلك هتفت ماريا ألكسندروفنا ثم ارتمت على ابنتها وحضنتها حتى
لتكاد تخنقها من قوة العناق ، رغم جميع الجهود الواضحة التي بذلتها
زينا لإبعادها عنها ... كانت زينا تشعر من أعماق نفسها بأن أمها قد
تجاوزت حدود القصد والاعتدال ... وقد تابعت هذه التمثيلية مشمّرة
اشمّرازا لا يوصف • ومع ذلك فقد صمتت ، وكان هذا كل ما تريده
ماريا ألكسندروفنا •

وعادت الأم تصرخ قائلة :

- لقد رفضت تسعة ازواج حتى لا تنفصل عن أمها ! ... أما الآن فان قلبي يحدثني أن الفراق مقبل ! لقد لاحظت منذ هذا الصباح كيف كانت تنظر اليك ... لقد غلبتها بنبلك وكمال آدابك يا أمير ! آه ... انك ستفرّق بيننا ... تنبأت أنا بذلك !

- أع ... ب ... د ... ك ...

كذلك ثأناً الأمير وهو ما يزال يرتجف كورقة في مهب الريح .
صاحت ماريا ألكسندروفنا تخاطب ابنتها وهي ترتعى على عنقها مرة أخرى :

- أتركين أمك اذن يا زينا ؟

فأسرعت زينا تسدل الستار على هذا المشهد الشاق المؤلم ، اذ مدت الى الأمير يدها الجميلة صامتة ، بينما طاف في شفتيها شيء يشبه أن يكون ابتسامة . فتناول الأمير هذه اليد الصغيرة نهما وأغرقها بالقبل ، وهمهم يقول وهو يغلى حماسة :

- الآن بدأت أحيا ! ...

قالت ماريا ألكسندروفنا ظافرة منتصرة :

- زينا ! أنعمي النظر في هذا الرجل ! انه بين الرجال أنبلهم وأكرمهم ! هو فارس من فرسان القرون الوسطى ! ولكنها تعرف ذلك يا أمير ! تعرفه واحزنه ! ... أوأه ! لماذا أنت هنا يا أمير ؟ ان على أن أتنازل لك عن كنزى ، عن ملاكى ! أحطها بعنايتك يا أمير ! ان التى تضرع اليك فى هذا أم ، وأية أم يمكن أن لا تفهم حزنى !؟

دمدمت زينا تقول لأمها :

- كفى يا أمى !

- سوف تتولى حمايتها من الأشرار يا أمير ! سوف يتلألا سيفك
أمام أعين النمامين والكاثرين الماكرين الذين يجسرون أن يمسوا عزيزتى
زيننا بسوء !

- كفى يا أمى ، والا فسوف أ...

- طبعاً طبعاً ، سوف يتلألاً ... الآن بدأت أحيا ... أريد أن يتم
الزواج فوراً ، فى هذه اللحظة نفسها ! سارسل أحدا الى دوخانوف رأساً
ليأتينى بماساتى ... فأضعها بين قدميه ! ...

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول :

- يا لها من حرارة ! يا لها من حماسة ! يا له من سخاء وكرم !
فكيف كنت تريد أن تضيع نفسك يا أمير ، كيف كنت تريد أن تضيع
نفسك الى الأبد بأن تحيا حياة ناسك بعيداً عن العالم ! لن أملّ من اللقاء
هذا السؤال ألف مرة ! اننى أخرج عن طورى كلما تذكرت تلك المراه
الجهنمية التى ...

قال الأمير معتزلاً وهو يجهش فى بكاء عنيف :

- لم يكن لى فى الامر حيلة ! لقد أرادوا أن يسجنونى فى مستشفى
للمجانين ... نعم ... أرادوا ذلك ، فخفت ...

- فى مستشفى للمجانين ؟ يا للشياطين الأوغاد ! يا لهؤلاء الناس
الذين لا ضمير لهم ! يا للحقارة والدناءة ! الا أنهم هم المجانين ! ولكن
لماذا ؟ لماذا ؟

أجاب الشيخ يقول وقد بلغ من التعب أنه تهالك فى قاع المقعد :

- لا أدري . هل تعلمين ؟ لقد قصصت نكتة فى حفلة رقص ، فلم
تعجبهم ، فنجمت عن ذلك حكاية طويلة ...

– هل يُعقل أن يكون هذا هو السبب يا أمير ؟

– كلا ... ولكننى لعبت بالورق بعد ذلك مع الأمير بطرس ديمانتش ... فكانت تنقضى ورقة الستة ... كان معى ورتان « روا » وثلاثة أوراق « دام » ... بل قولى ثلاثة أوراق « دام » وورقتان « روا » ... لا بل كان معى ورقة « روا » واحدة ... وجاءت ورقات الـ « دام » بعد ذلك ...

– أمن أجل هذا ؟ أمن أجل هذا ؟ ألا ما أقل ضميرهم ... ألا ان لهم وجدانا جهنميا ! ... على أن هذا لن يقع بعد اليوم يا امير ! سأكون بعد اليوم بجانبك يا أمير ! لن أنفصل عن زينا ، وسوف نرى هل يجروون أن يفتحوا افواههم ! هل تعلم أن زواجك سيذهلهم يا امير ! سوف يشعرون بالخزى والعار من أنفسهم ! سوف يعرفون قيمتك ... سوف يدركون أن فتاة رائعة الحسن بارعة الجمال كهذه الفتاة لا يمكن أن تتزوج رجلا خرفا ! فى وسعك الآن أن ترفع رأسك عاليا ... فى استطاعتك الآن أن تحدى اليهم تحديقا ...

– طبعا ، طبعا ... تحديقا ...

كذلك تمتم الأمير الذى كانت أحفانه تطبق ...

حدثت ماريا ألكسندروفنا نفسها قائلة : « لقد نفدت قواه .. ولقد غاض ريقى ، وجف لسانى » ♦

– يا أمير ، أرى أنك متعب كثيرا ♦ فأنت بعد انفعال كهذا الانفعال ، فى حاجة الى هدوء ، الى راحة ♦

كذلك قالت له وهى تميل عليه كما تميل أم حنون على ابنها الحبيب .. فأجاب :

- طبعاً طبعاً ... أود أن أرقد لحظة ...

- نعم ، عليك بشيء من الراحة بعد هذا الانفعال يا أمير ! أنتظر ..
سوف أصحبك ... وسأرقدك على السرير بنفسى إذا اقضى الامر . لماذا
تنظر الى هذه الصورة كثيراً يا أمير ؟ انها صورة أمى ... هى ملاك
لا امرأة ! آه ... لماذا ليست معنا الآن ؟ لقد كانت هى الاستقامة بعينها ..
كذلك كنت أسميها ولم أسميها بغير ذلك ...

- الاستقامة ... هذا جميل ... أنا أيضاً كان لى أم ... الاميرة
... لقد كانت امرأة سميئة سميئة هائلة ، هل تتصورين ؟ على أن هذا
ليس ما كنت أريد أن أقوله ... اننى أشعر بشيء من التعب .. استودعك
الله يا بنتى الفاتنة ... سوف أنتظر مبتهجا أشد الابتهاج ... اليوم ..
أو غدا .. لا قيمة لهذا على كل حال ... الى اللقاء ... الى اللقاء ..

هنا أراد الشيخ أن يحرك يده بإشارة الوداع ، ولكنه لم يستطع ،
وكاد يسقط على العتبة .

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول :

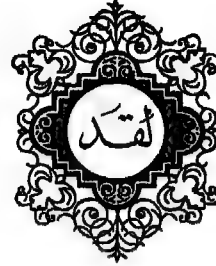
- انتبه يا أمير ! اتكئ على ذراعى !

ثأناً الأمير يقول وهو يتعد :

- رائع ! رائع ! اليوم انما بدأت أحيا ...

لبثت زينا وحدها . ان حملاً لا يطاق ، يسحق قلبها . ان اشمئزازها
من نفسها يشعرها بأنها توشك أن تختنق . لم تقم بحركة واحدة ، وظلت
خداها ملتهبتين ، ويدها منقبضتين ، وأسنانها مكتزة ، ورأسها مخفوضاً .
وفى هذه اللحظة ، صفق الباب ووثب موزجليا كوف الى الغرفة .

الفصل التاسع



سمع كل شيء ، كل شيء على الاطلاق • لم
يدخل الغرفة دخولا ، بل اقتحمها اقتحاما ، وقد
شوّه وجهه الانفعال والحرق • رفعت زينا نحوه
عينين مدهوشتين • صاح وهو يلهث :

— أأذلك أنتِ اذن ! الآن عرفت قيمتك أخيرا !

— قيمتي ؟

كذلك رددت زينا التي نظرت اليه وهي تتسائل أهو مجنون ؟ ولكن
نظرتها لم تلبث أن سطعت بكراهة وبغض • ثم قالت له وهي تتقدم نحوه :

— من منحك حق مخاطبتي بهذه اللهجة ؟

فصاح موزجلياكوف يقول باللهجة المنتصر :

— سمعت كل شيء !

قال ذلك وتراجع خطوة بالرغم منه •

قالت زينا وهي ترشقه بنظرة تحمل معنى الاحتقار العميق :

— سمعت كل شيء ؟ تنصت على الأبواب ؟

فأجابها موزجلياكوف وقد ازداد خوفه من نظرتها :

— نعم ، تنصت على الأبواب ! نعم ، ارتضيت لنفسى هذه الحطة

لأعرف أخيرا من أنت ...

- ما دمت قد سمعت ، فما مأخذك عليّ ؟ بماذا تتهمني ؟ وبأى حق تتهمني ؟ وبأى حق تخاطبني بهذه الوقاحة ؟

- أنا ؟ بأى حق ؟ أتجرؤين أن تسأليني هذا السؤال ! أتقبلين الأمير زوجا لك ، ثم لا يكون لى حق ؟ فأين العهد الذى قطعته لى اذن ؟

- متى ؟

- كيف متى ؟

- ألم أذكر لك صراحةً ، فى هذا الصباح ، حين ألححت ، أننى لا أستطيع ان أجيبك اجابة حاسمة ؟

- ولكنك لم تصدىنى ، لم ترفضينى قط أكنت تتخذينى اذن خطييا احتياطيا ؟

تقبض وجه زينا الغاضب تقبضا أليما ، كأن وجعا شديدا مفاجئا قد ألمَّ بها ، ولكنها لم تلبث أن سيطرت على نفسها ، فأجابت بصوت واضح قاطع يلقى عليه الارتجاف النفسى ظلا منه :

- اذا كنت لم أصدّك ، فما كان ذلك منى الا شفقة صرفا ! أنت نفسك ابتهلت الىّ أن أتمهل ، فلا أقول « لا » على الفور ، وأضفت تقول: « فمتى أيقنت أننى رجل شريف ، فلعلك عندئذ لا ترفضينى » . تلك أقوالك بنصّها منذ أول صلة بيننا . أفى استطاعتك أن تنكرها ؟ فكيف تسمح لنفسك أن تقول لى الآن اننى ادخرتك خطييا احتياطيا ؟ ألم تلاحظ اذن نفورى منك حين رأيتك اليوم مرة أخرى قبل الموعد المضروب بخمسة عشر يوما رغم وعودك ؟ اننى لم أخف عنك ذلك النفور بالعكس وأنت قد لاحظته جيدا ، بدليل أنك سألتنى بنفسك أنا

غاضبة من عودتك قبل الأوان • ألا فاعلم أنه ليس فى الامكان اجتذاب أحد الى شخص لا يطيق ولا « يريد » أن يكتم اشمئزازه منه • افتعرجو بعد هذا أن تدعى أننى ادخرتك خطيا احتياطيا ؟ اسمع ، سأقول لك رأى فيك • كنت أقول لنفسى : « لئن لم يكن واسع الذكاء ، فان فى وسعى أن أتزوجه اذا كان رجلا شريفا » ••• أما وقد أيقنت الآن - فى الوقت المناسب من حسن الحظ - أنك رجل أبله ، وأنتك فوق هذا - وذلك أسوأ وأنتكى - رجل أبله ولا خلاق له ، فلم يبق علىّ الا أن أتمنى لك سفرا موفقا وأن أرجو لك السعادة • الوداع !

قالت زينا هذا الكلام ، ثم استدارت واتجهت بخطى بطيئة نحو الباب •

واذ أدرك موزجياكوف أنه خسر المعركة فقد كان يغلى غيظا وحنقا •• وصاح يقول :

- نعم ، أنا الآن أبله ••• أبله لا أكثر ••• طيب ••• الوداع ! ••• ولكننى قبل أن أرحل سأقص على المدينة كلها كيف تصرفتما انت وأمك العزيزة للتغريب بالامير بعد أن أسكرتماه • سأروى كل هذا لكل انسان • لتأتينك أخبار موزجياكوف !

ارتجفت زينا وجمدت فى مكانها كأنما لتجيب ، ولكنها بعد لحظة من تفكير رفعت كتفها احتقارا ، وشفقت الباب وراءها •

وفى تلك اللحظة ظهرت ماريا ألكسندروفنا فى العتبة • لقد أدركت الأمر اذ سمعت صرخة موزجياكوف ، فألم بها خوف شديد • حدثت نفسها قائلة : موزجياكوف ما يزال هنا ! موزجياكوف سيقبى بجانب الأمير ! موزجياكوف سيقرع الأجراس فى المدينة كلها بينما يجب أن يبقى الأمر سرا مكتوما ، ولو الى حين • واذا رازت الظروف فى طرفه

عين ، عزمت على تهدئة موزجلياكوف ، فقالت له وهي تدنو منه وتمد اليه
يدها على مودة :

– ما بك يا صديقي ؟

– أتقولين يا صديقي ؟ أبعد كل ما قارفته تجبرؤين أن تنادينني :
يا صديقي ؟ كل شيء الا هذا يا سيدتي المحترمة ! أظنن أن في استطاعتك
أن تخدعيني مرة أخرى ؟

– يؤسفني ، نعم يؤسفني كثيرا يا يا فل ألكسندروفتش أن أراك في
حالة نفسية غريبة هذه الغرابة ! ما هذه التعابير التي تستعملها ؟ أتراك
أصبحت لا تستطيع حتى أن تزن أقوالك أمام سيدة ؟

– أمام سيدة ؟ أأنت سيدة ؟ أنت ما تشائين ولكنك لست بسيدة ! ♦♦
كذلك صرخ موزجلياكوف ♦

لا أدري على وجه الدقة ماذا أراد أن يقول موزجلياكوف بهذه
الصيحة ♦ لعله أراد أن يلحق بها الاهانة الكبرى ♦♦♦

فنظرت اليه ماريا ألكسندروفنا نظرة لا تخلو من اشفاق ورحمة ♦
ثم قالت له بلهجة يشيع فيها الحزن والأسى وهي تدله على المقعد الذي
كان يجلس عليه الأمير قبل ربع ساعة ♦
– اجلس ♦

فأعول موزجلياكوف يقول خاضعا مستكيناً :

– ولكن اسمعي أخيرا يا ماريا ألكسندروفنا ♦ انك تنظرين الى
نظرة عجيبة ، فكأنك لست أنت المذنب في حقى ، وكأننى أنا المذنب في
حقك ♦ ألا ان هذا لاسراف ! ما هذه اللهجة ؟ ذلك يتجاوز الحدود
أخيرا ♦♦♦ هل تفهمين ؟

أجابت ماريا ألكسندروفنا :

- صديقى ! اسمح لى أن أناديك بهذا الاسم ، لأنك ليس لك فى هذا العالم صديقة خير منى • أنت يا صديقى تتعذب وتتألم ويفيض قلبك مرارة • فلا عجب والحالة هذه أن تخاطبني بتلك اللهجة التى خاطبتني بها • ولكننى قررت أن أكشف لك كل شئ ، أن أفتح لك قلبى كله ، لا سيما وأنى أشعر بأننى مذنبه فى حقك • فاجلس اذن لتتحدث قليلا •

كان صوت ماريا ألكسندروفنا متلطفا غاية التلطف ، وكان وجهها يدل على تائر شديد • ذهل موزجلياكوف وجلس بجانبها على المقعد • فتابعت تقول وهى تنظر اليه نظرة تحمل معنى العتب المتسامح :

- هل تنصت على الباب ؟

- نعم تنصت ! ولو لم أفعل لكنت غيا غاية الغباء • فبهذا التنصت عرفت على الأقل ما تدبرينه لى فى الخفاء !

كذلك أجابها بغلظة وفظاظة موزجلياكوف الذى كان الحقن يقوم عنده مقام الشجاعة •

- أأنت ، أأنت تهذيبك وأدبك ومبادئك ، ترتضى لنفسك أن تعزم على أمر كهذا ؟ آه ... يا رب !

ارتشم موزجلياكوف على مقعده • ثم صاح :

- ماريا ألكسندروفنا ! ان سماع كلام كهذا لهو شئ لا يحتمل ولا يطلق أخيرا • تذكرى ما دبرته أنت بمبادئك من مكائد منذ قليل ، وبعد ذلك يحق لك أن تحكمى على غيرك !
قالت دون أن تجيب عن غمزاته :

- سؤال آخر : من نصحك بأن تنتصت على الأبواب ؟ من الذى نبّهك ؟ من الذى يتجسس فى منزلى ؟

- اعذرينى ، لا أستطيع أن أذكر لك ذلك !

- طيب ، سأعرفه بنفسى ! قلت لك يا بافل اننى مذنبه فى حقك .
ولكن أنظر فى جميع الظروف ، فى جميع الظروف بغير استثناء ، تدرك
اننى لست بمذنبه . كل ما هنالك اننى أريد لك خيرا كثيرا ***

- لى أنا ؟ تريدان لى أنا خيرا كثيرا ؟ لا *** لن نخدعنى فى هذه
المره ! فما أنا بصبى غر على كل حال .

قال ذلك وتحرك فى مكانه تحركا بلغ من القوة أن نوابض المقعد
صرّت صريرا مسموعا .

قالت ماريا ألكسندروفنا :

- أرجوك أن تسترد هدوءك يا صديقى اذا كان ذلك فى الامكان .
فاذا أصغيت الى كلامى بشىء من الانتباه فسرعان ما ستوافق على رأى كل
الموافقة . اعلم أولا أننى كنت أريد أن أبلغك كل شىء . فلو لم ترتض
لنفسك أن تنزل الى مستوى التنصت على الأبواب ، لعرفت منى أنا أدق
التفاصيل . ولئن لم أقل لك شيئا قبل الآن ، فما ذلك الا لأن الأمر كان
مشروعا لا أكثر ، وكان يمكن أن لا ينتهى هذا المشروع الى شىء .
ها أنت ذا ترى اننى صريحة معك كل الصراحة . واعلم ثانيا أن عليك
أن لا تتهم ابنتى ، فهى تحبك حبا جنونيا ، وقد اضطررت أن أضغط
عليها ضغطاً شديدا لأحملها على الانفصال عنك ، ولأجبرها على قبول
ما عرضه الأمير .

قال موزجلياكوف ساخرا :

- لقد أتيح لى شرف الاستماع منذ لحظة الى الدليل القاطع على هذا
الحب الجنونى ! ...

- طيب ! ولكن قل لى : كيف كلمتها أنت ؟ أهكذا يخاطب الساب
فتاة يعبدها ؟ الى طريقة كهذه الطريقه يعمد ؟ آأسلوبا كهذا الاسلوب
يختار ؟ ابلهجه كهذه اللهجه يتكلم رجل مهذب ؟ لقد اهنتها اهانة كبيرة ،
ودفعتنا الى الغضب دفعا أنت أيضا !

- ليس الامر هنا أمر لهجة كيسة أو فظة يا ماريا ألكسندروفنا •
فى هذا الصباح لاطفتماني كلناكما ، فما ان ادرت ظهري حتى أخذتما
نمولان فى حفى هاجر القول ... انا اعلم ذلك ، اعلم دل شىء !
- ولا شك أنك تعلمه من ذلك المصدر الدنيء نفسه ؟

كذلك سألته ماريا ألكسندروفنا وهى تبسم ابتسامة احتقار • ثم
تابعت كلامها تقول :

- نعم يا بافل ألكسندروفتش ... لقد سودت صفحتك ، لقد قلت
فى حقك هاجر القول ... ولقد ناضلت كثيرا حتى وصلت الى هذا •
كنت فى حاجة الى ان اسود صفحتك امامها ، وربما الى أن أغتابك بما
ليس فيك ، وهذا يدل على ما لقيت من عناء فى سبيل أن أكرهها على
الرضى بهجرك ! يالك من رجل جاحد ! لو كانت لا تجبك ، أفكنت أنا
فى حاجة الى أن أسود صفحتك ، الى أن أضلعت فى موضع الهزاء
والسخرية ، الى أن أقلل اعتبارك وأغمطت حقك ، الى أن أصطنع أساليب
مريبة كهذه الأساليب ، الى أن أتوسل بحيل سيئة كهذه الحيل ؟ وانك
لمأ تعرف بعد كل ما استعملته من سلطة الأم على ابنتها فى سبيل أن
اتزعك من قلبها • وأكثر من ذلك أننى بعد كل هذا الضغط الشديد الذى
لا يتصوره خيال لم أظفر منها الا بموافقة سلبية • فاذا كنت قد تنصت حقا

حقا على الأبواب ، فلا بد أنك لاحظت أنها لم تدعمنى أمام الأمير بإشارة ولا بكلمة • انها لم تنطق طوال المشهد الذى جرى بكلمة واحدة • ولقد غنت كما تغنى آله • وكانت نفسها تفيض حزنا وكان يفضى الشجن قلبها، فريئت لها ورأفت بها وأشفقت عليها ، فاضطرت أن أمضى بالأمر • وانى لعلى يقين من انها بكت حين خلت الى نفسها • ولا شك أنك لاحظت دموعها حين دخلت عليها •

تذكر موزجلياكوف فعلا أنه حين دخل الغرفة فاجأ زينا باكية •
وصاح يسال ماريا الكسندروفنا :

– ولكن لماذا كنت أنت ضدى يا ماريا ألكسندروفنا ؟ لماذا اغتبتى
كما تعترفين بذلك الآن ؟

– ذلك شأن آخر ••• ولو أنك ألقىت السؤال فى حكمة وتعقل ،
جمله واحدة ، اذن لحصلت على الجواب منذ زمن طويل • نعم انك على
حق • فانا ، أنا وحدى ، فعلت كل شيء • فلا تقحم زينا فى الامر • اما
لماذا فعلت ذلك فاليك الجواب : لقد فعلته أولا فى سبيل زينا • فالامير
رجل غنى محترم ، وهو ذو صلات • فزواج ابنتى به يجعلها نجما
متألئا • حتى اذا مات – وقد يموت قريبا ما دمنا جميعا سنموت – فان
زينا ستستطيع ، وقد أصبحت غنية أميرة ، ودخلت المجتمع الراقى ، ان
تتزوج من تشاء ، وأن تحقق زواجا ثريا كل الثراء • وطبعى ان تتزوج
عندئذ الرجل الذى تحبه ، الرجل الذى كانت تحبه منذ أن قبلت الامير
على مضض ، محطمة القلب • ان الندامة وحدها كافية لأن تحملها على
التكفير عن الخطيئة التى ارتكبتها فى حق الرجل الذى كان أول من
أحبت •

همهم موزجلياكوف يقول وقد ثبت بصره على حذائيه :

- هيم ٠٠٠

وتابعت ماريا ألكسندروفنا كلامها تقول :

- هذا من جهه ، ومن جهه اخرى ٠٠٠ ولكننى أريد ان أوجز ، فان من الجائز جدا ان لا تفهم ما افول ٠٠٠ انت لا تزيد على ان تقرأ صاحبك شكسبير ، فستمد منه جميع انواع العواطف العظيمه وهى عواطف « ممتازة » فى الواقع ، ولدت منازل شابا يابافل الدسندروفتش ، اما انا فانا ام يا بافل الدسندروفتش : اسنم الى جيداً : اننى ازوج زينا الامير فى سبيل الامير نفسه اولاً ، لاننى اريد بهذا الزواج ان انقذه . اننى البره من زمن بعيد لما يتصف به من نبل النفس وطيبه القلب ولاخلاف الفروسيه التى ينعم بها . لقد لنا صديقين . وهو الان شقى ، واقع بين برائن تلك المرأة الجشعه الكريهه . ولسوف تقوده هذه المرأة الى القبر . ويعلم الله اننى فى سبيل ان اجبر زينا على الموافقة اضطررت ان أوضح لها كل ما ينطوى عليه العمل الذى ستقوم به من قداسه الفداء وجمال التضحية . فبذلك تسنى لى أن أؤثر فى عواطفها الرفيعه ، لان جانب الفروسيه فى روحها قد افتتن بروعة التضحية ، لا سيما وأننى عرضت لها الأمر من الناحية المسيحية السامية ، وأبنت لها كيف أنها ستكون لهذا الانسان الذى قد لا يعيش أكثر من سنة أخرى شقية ، كيف أنها ستكون لهذا الانسان سنداً وعضداً ، وعزاء وسلوى ، وصديقة وابنةً ومعبوداً فى آن واحد ؟ فلا يشعر هذا الانسان بعد ذلك ، فى أيامه الأخيرة على هذه الأرض ، لا بخوف ولا بحزن ، ولا تحاصره امرأة ذئبة كذلك المرأة التى تحاصره الآن ، وانما تكون بجانبه امرأة تهب له الضياء والمودة والحب ، وتجعل أيامه الأخيرة تمهيداً للجنة التى سيدخلها فى القريب . فأين الأناية فى هذا كله ؟ هلاً قلت لى أين الأناية فى هذا ؟ تلك تضحية تقوم بها راهبة من راهبات المحبة ، لا أناية ٠٠٠

قال موزجليا كوف بصوت مرير :

- فانما فعلت اذن ذلك فى سبيل الامير وحده ؟ انما أردت أن
تضعى بجانبه راهبة من راهبات المحبة ؟

- اننى افهم ايضا هذا السؤال يا بافل السكندروفتش • هو سؤال
واضح • لا شك انك تظن أن هذا كله مكائد يسوعية لا تهدف الى خير
الامير ، وانما تطمع فى ترواته الشخصية ؟ ولكن لم لا ؟ هذا أيضا قد
دار فى خاطرى يا بافل السكندروفتش ، لا عن مكر يسوعى ، بل بالرغم
منى • أنا أعلم أن الصراحة فى مثل هذه الاعتراف خليقة بان تدهشك
يا بافل ألكسندروفتش ، ولكننى أحرص على هذا الاعتراف الصريح
لأرجوك أن لا تقحم زينا فى الامر ! ان زينا بريئة براءة يمامة ! انها
عاجزة عن الحساب • انها لا تحسن الا ان تحب ، بنيتى العزيزة الحلوة
العذبة ! واذا كان هنالك أحد أجرى حسابا فهو أنا ، أنا وحدى ! ومع
ذلك فانى أطلب اليك أولا أن تسال ضميرك سؤالا صارما وأن تقول لى :
أية أم فى مكانى وفى فرصة كهذه الفرصة لا تفعل ما فعلت ؟ اننا ننشد
مصلحتنا حتى فى أعظم أعمالنا وأبعدها عن المنفعة • اننا نحسب من حيث
لا نشعر ولا نريد ! وكل واحد منا تقريبا يعرف كيف يقنع نفسه بأنه لا
يصدر فى أفعاله الا عن كرم محض وجود صرف ، ولكننى لأستسلم
للأوهام فى هذا الصدد ! انه لبيدهى أن الحساب قد كان له دخل هنا ،
رغم نبل الغاية الميتة • ومع ذلك تسأل : هل أجريت أنا هذا الحساب فى
سبيل نفسى ! لقد انقضى زمانى ؟ وانما أنا أحسب من أجلها وفى سبيلها ،
نعم انما أنا أحسب فى سبيل ملاكى ، فى سبيل حبيبتى العزيزة ، فأية أم
يمكن أن تأخذ على هذا وأن تلومنى ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا هذا الكلام وتألأت الدموع فى عينيها •

وكان بافل ألكسندروفتش حائر اللب مشتب الفكر يستمع الى هذا الاعتراف الصريح وهو يدير على ما حوله عينين بلهاوين • وردّ أخيرا يقول :

- نعم ••• فعلا ••• أية أم ••• انك لتحسينين الصداح جدا يا ماريا ألكسندروفنا ••• ولكن ••• أنت قد قطعت لى عهدا ••• أنت قد جعلتلى أمل ••• لقد منيتى بأعذب المنى ، فهل تظنين أنه يسرنى الآن أن أحدث نفسى بأننى خدعت ، وأن آمالى كانت سرايا ؟ •••

- هل تجرؤ أن تصور أننى لم أفكر فيك يا عزيزى بافل ؟ لقد تضمنت حساباتى كلها منافع لك تبلغ من السعة أن ذلك قد شجعتنى مزيدا من التشجيع على المضى فى هذا المشروع وانجازه •

صاح موزجلياكوف يقول وقد طار صوابه فى هذه المرة تماما :

- منافع لى أنا ؟ كيف هذا ؟

- غريب أمرك • هل يمكن أن تكون على هذا القدر كله من البساطة والسذاجة وقصر النظر ••• رباه !

كذلك صرخت ماريا ألكسندروفنا وهى ترفع بصرها الى السماء • ثم تابعت كلامها تقول :

- شباب ! شباب ! انظروا الى الفرق فى قراءة شكسبير ما جدواه ! انظروا الى الاسترسال فى الأحلام الطائشة ما نفعه ! انظروا الى البحث عن الظهر فى الساعة الرابع عشرة ما نتيجه ! ان المرء يصل من هذا الى أن يحيا بنفس ليست نفسه ، وأن يعيش مع أفكار ليست أفكاره • تسألنى يا عزيزى الطيب بافل الكسندروفتش أين منفعتك أنت هنا ؟ فاسمح لى اذن باستطراد صغير بغية ايضاح الأمور • ان زينا تحبك ••• ذلك شئ لا مجال لانكاره أو الماراة فيه ! ولكننى لاحظت ، رغم حبها الواضح

الذى يخطف البصر ، أنها تخفى شيئاً من الشك فيك ، شيئاً من الشك فى صدق عواطفك ؟ ولاحظت أنها تشبه أن تلجم نفسها عن الاندفاع فى حبك ، وتعتمد أحياناً أن تبدو باردة تجاهك ، وذلك ثمرة التردد والشك .. ألم تلاحظ ذلك يا بافل ألكسندروفتش ؟

– لاحظته ... حتى فى هذا اليوم ... ولكن الى أين تريدان أن تصلى من هذا يا ماريا ألكسندروفنا ؟

– هل رأيت ؟ لقد لاحظت ذلك بنفسك ! ما أخطأ اذن ظنى ! ذلك هو الأمر تماماً : ان فى نفسها نوعاً غريباً من الشك فى ثبات عواطفك . أنا أم ، وكيف تعجز أم عن ادراك ما يجرى فى قلب ابنتها ؟ فتصور الآن أنك بدلاً من أن تقتحم الصالون لأنثى مقرعاً شاتماً ، بدلاً من أن تهنئها وتحنقها وتجرح شعورها ، وهى على ما هى عليه من أنفه وكبرياء وطهارة وجمال ، وان يأتى سلوكك هذا مصدفاً لشكوكها فىك ومخاوفها من سوء ميولك ، دون أن تريد أنت ذلك ، تصور أنك ، بدلاً من هذا ، قد استقبلت النبأ بتروء ورفق وهدوء وأناة ، ثم سكبت دموعاً تعبّر عن الحسرة واللوعة ، بل وتعبر عن الكمد والكرب واليأس ، وتعبر خاصةً وقبل كل شيء عن النبل والشهامة والمروءة ...

– هيم ...

– لا تقاطعنى يا بافل ألكسندروفتش ! فأنما أنا أردت أن أجعل لك جميع جوانب اللوحة التى لا بد أن تثير خيالك . تصور أنت جئت إليها وقلت لها قولاً كهذا : « زينايد ! أحبك أكثر مما أحب حياتى ... غير أن أسباباً قاطعة وبواعث حاسمة تفرق بيننا . وأنا أفهم هذه الأسباب حق فهمها . فهى تتعلق بسعادتك ، وليس لى حق الاعتراض عليها . زينايد ! انتنى أودعك الوداع الأخير ! فكونى سعيدة اذا استطعت الى السعادة

سيلا ! » • وتصور أنك نظرت إليها عندئذ نظرة حمل ذبيح ان صح
التعبير • تصور هذا كله وفكر في الأثر الذي كان يمكن أن تحدثه
أقوالك في نفسها !

– طيب يا ماريأ ألكسندروفنا • لنفرض أن هذا حدث • أنا أفهم هذا
الكلام • ولكن ماذا كان يمكن أن أجنى منه ؟ لقد كان في وسعي أن أقوله
ثم أرجع كما جئت •••

– لا ، لا ، لا ، لا يا صديقي ! لا تقاطعني ! سوف أجلو لك اللوحة
كاملة ، بجميع مراحلها ، حتى أؤثر في شعورك وأثير خيالك ! تصور
أنك لقيتها بعد ذلك في المجتمع ، بعد زمن ما • تصور أن هذا اللقاء حدث
في مكان ما ، في حفلة رقص ، تحت أضواء ساطعة ، على أنغام موسيقى
مسكرة ، بين جماعة من كبريات السيدات • وتصور نفسك في زحمة
هذا الاحتفال ، وحيدا ، حزينا ، شاحب اللون ، واجما مطرقا ، مستندا الى
عمود تتابعها بنظرك في زوبعة الرقص ، ولكن بشرط أن تكون في موضع
لا يخفيك عن الأبصار • انها ترقص • ومن حولك تنتشر نغمات ساحرة
هى نغمات فالس من تلحين شتراوس • وفي كل مكان حولك يتبادل
الناس الفكاهات ؟ وأنت واقف في مكانك لا تبرحه ، شقى النفس ،
مبتسئ الروح ، مصدع القلب هوى وجبا ! فما هو الشعور الذى ستشعر
به زينائد حين تبصرك في موضعك ذاك على حالك تلك ؟ وما هى النظرة
النى ستلقيها عليك ؟ سوف تقول لنفسها : « لقد شككت في هذا الرجل
الذى ضحى من أجلى بكل شيء ، وحطمت أنا قلبه تحطيمًا ! » • ومن
الطبيعى أن ينبعث في نفسها الحب القديم قويا قوة لا سبيل الى مغالبتها !
توقفت ماريأ ألكسندروفنا عن الكلام برهة لتنفس • واستدار
موزجلياكوف على مقعده بعنف واستأنفت ماريأ ألكسندروفنا كلامها
تقول :

- ان زينا ، من أجل صحة الأمير ، سترافقه الى ايطاليا ، الى اسبانيا حيث أشجار الاس والليمون ، حيث السماء الزرقاء ونهر الوادى الكبير ، الى اسبانيا أرض الحب ، حيث تستحيل الحياة بغير حب ، حيث الورد والقبلات تطير فى الهواء ان صح التعبير ! وستلحق بهما انت الى هناك • تترك مركزك ، وواجباتك ، وكل شيء ! وهناك يضطرم هواك اضطراما لا يستطيع شيء ان يوقفه • الحب ، الشباب ، اسبانيا ••• رباه ! وسيكون حبك افلاطونيا فى اول الامر طبعاً • ولكنكما من كثرة ماسيتامل احكما الاخر ستضويان فى النهايه ! هل تفهمنى يا صديقى ؟ سيكون هنالك اناس عاميون دينيون اشقياء يدعون ان ما دفعك الى السفر ليس هو ما يحمله قريب لقريبه الشيخ المريض من عاطفه • لذلك تعددت انا أن اصف حبك بانه افلاطونى ، فان اولئك الناس سيصفونه وصفا اخر مختلفا عن هذا الوصف كل الاختلاف • ولكنى ام يا باول الكسندروفتش ، فكيف ادفعك الى الشر واحضك عليه ؟ ••• وطبعى ان الامير بن يكون فى حاله تمكنه من مراقبتكما ، وما قيمة هذه المراقبه على كل حال ؟ وهل ينبغى أن تنتهما بأمر دنيء الى هذا الحد من الدناءة ؟ واخيرا يموت الامير ••• فقل لى : بمن عسى تتزوج زينا عندئذ ان لم تتزوجك انت ؟ انك قرابتك بالأمير قرابه تبلغ من البعد أنه لا يمكن أن يكون هنالك أية عفة تمنعكما من الزواج • فستتزوجها اذن شابة فى ريعان الشباب ، ثرية واسعة الثراء ، مدللة غاية الدلال • وفى أية لحظة ؟ فى لحظة يكون فيها أعظم العظماء مستعدا للاعتزاز بزواجها أشد الاعتزاز ؟ كذلك تدخل بفضلها أرقى المجتمعات وتصل الى أرفع الآفاق ؟ وبفضلها تحصل فجأة على مركز تحسد عليه ، وتنال رتبة عالية • أنت تملك الآن مائة وخمسين نفسا • وكذلك ستصبح عندئذ غنيا • سيكون الأمير قد رتب كل شيء فى وصيته • أنا أتمهد بذلك • فانما المهم كما ترى هو أن تثق بك زينا ثقة

تامة ، وأن تطمئن الى صدق قلبك وخلوص عواطفك ، وأن تنظر اليك
نظرتها الى بطل من أبطال السماحة والجلود والتفانى • أرأيت الآن أين
منفعتك فى هذا كله ؟ ألا انه لا بد أن يكون المرء أعمى حتى لا يتصور
ذلك وحتى لا يلاحظه ، وأن لا يطمئن الى هذه المنافع وهى على مسافة
خطوتين منه تنظر اليه وتبتسم له وتناديه قائلة : « هذه أنا » ! هلا فكرت
قليلا يا بافل ألكسندروفتش ؟

صرخ موزجلياكوف يقول وقد بلغ غاية الانفعال :

— ماريا ألكسندروفنا ! الآن فهمت كل شىء ! ألا اننى ليجان ! • •
لقد تصرفت تصرف رجل فظ غليظ القلب !

قال ذلك ووثب عن مقعده وأمسك بشعره يشده • فأضافت ماريا
ألكسندروفنا الى كلامها قولها :

— تصرفت تصرف رجل طائش على وجه الخصوص ، تصرف رجل
طائش طيشا كبيرا • • •

فاستأنف موزجلياكوف كلامه يقول وقد كاد يبلغ منتهى الكرب
والكمد :

— أنا أكبر حمار يا ماريا ألكسندروفنا ! كيف أفعل هذا ، أنا الذى
أحبها حب الجنون ! لقد ضاع الآن كل شىء !

فأجابت ماريا ألكسندروفنا فى رفق وهدهود كأنما هى تفكر فى
أمر ما :

— لا • • • ربما لم يضع كل شىء بعد • • •

فقال موزجلياكوف :

- آه ... يا ليت ! ... ساعدينى ! ... قولى لى ما الذى يجب
علىَّ أن أفعله ! أتقدينى ! ...

وأجهش موزجلياكوف باكيا *

فهمت ماريا ألكسندروفنا تقول له فى رحمة ورأفة وشفقة وهى
تمد إليه يدها :

- يا صديقى ، أنت انما صدرت فى تصرفك عن حزن شديد لاجدود
له ، عن عاطفة تغلى وتنفور ، أى عن حب صرف ... كنتَ منهمك القوى
لا تستطيع أن تسيطر على نفسك ولا أن تكبح جماحك .. ولسوف تفهم
هى هذا حق الفهم ...

صرخ موزجلياكوف يقول :

- اننى أحبها حب جنون ، واننى مستعد لبذل جميع التضحيات فى
سبيلها !

- اسمع ، سأسوِّغ تصرفك فى نظرها *

- ماريا ألكسندروفنا !

- نعم ، سأخذ هذا الأمر على عاتقى ! سأجمعكما وجها لوجه ،
فتقول لها كل شئ ، كل شئ ، على الطريقة التى نصحتك بها !

- آه ... يا رب ! ... ما أطيب قلبك يا ماريا ألكسندروفنا! ولكن
... كيف عسانا نستطيع أن نفعل ذلك فورا ؟

- لا ينقصنا الا أن نفعله فورا ! آه ما أقل خبرتك يا صديقى ! لو
فعلناه فورا لعدته من شدة كبريائها فظاظة جديدة ، اهانة ثانية ! غدا ،
نعم غدا ، سأهيه لكما لقاء ، أما الآن فامض الى مكانٍ ما ، امض الى عند

صاحبك التاجر مثلاً ... وعد في السهرة اذا شئت ، ولكنني لا أنصحك ،
بذلك !

— أنا ذاهب ، أنا ذاهب ! باركيني ! سؤال آخر: ماذا لو تأخر موت
الأمير ؟

— آه ... رباه ! ما أشد سذاجتك يا عزيزي بافل ! بالعكس ...
ان واجبنا أن ندعو له بالصحة والعافية . واجبنا أن ندعو بطول العمر لهذا
الشيخ الطيب الذي يبلغ هذا المبلغ من شرف النفس وروح الفروسية .
أنا أول من سيتهل الى الله باكية في النهار والليل من أجل سعادة ابنتي .
ولكن وا أسفاه ! ان صحة الأمير لا تشجع على الأمل . لذلك يجب أن
نسرع مزيدا من الاسراع . ان على الأمير أن يصطحب زينا الى العاصمة
... وأن يدخلها المجتمع الراقي ! ان مخاوفي رهيبة . انني أتساءل ألا
يمكن أن يجهز هذا على الأمير المسكين ؟ سوف ندعو له ، أليس كذلك يا
عزيزي بافل ، أما ما عدا ذلك فتركه لله ... آآآ منصرف منذ الآن ؟
انني أباركك يا صديقي ، اذهب في أمان الله ! لا تفقد الرجاء ، ولا تفقد
الصبر ، وكن رجلاً بخاصة ! انني ما شككت يوماً في نبل عواطفك ...
قالت له ماريا ألكسندروفنا هذا وهي تصافحه بكل ما أوتيت من
قوة ، وخرج موزجلياكوف سائراً على رموس الأصابع .

فلما صار في خارج الغرفة قالت تحدثت نفسها منتصرة : « ها قد
تخلصت من أبله . وعلى الآن بالباقيين ... » .
وفُتح الباب ، فدخلت زينا . لقد ازداد شحوبها الطبيعي ، وكانت
عينها تتقدان . صرخت تقول لأُمها :

— أُمي ، أسرع فخلصيني من هذا الأمر ! لم تبق في قدرة على
الاحتمال ! هذا شيء دنيء حقير خسيس وضع ، يبلغ من الدناءة والحفارة

والخسة والضة أننى أصبحت لا أرغب الا رغبة واحدة ، هى أن أهرب من هذا المنزل ! اننى أشعر بتقرز وغشيان ، هل تسمعين ؟ ان هذا الوحل كله يبعث فى نفسى ميلا الى التقيؤ !

– زينا ! ماذا دهالك يا عزيزتى ؟ أتركك أنصت الى ما دار بيننا من كلام ؟

كذلك صرخت تقول ماريا ألكسندروفنا وهى تلقى على ابنتها نظرة فاحصة قلقة • فأجابتها زينا بقولها :

– نعم أنصت ••• هل تظنين أنك تستطيعين ان تخجلينى وان تشعرينى بالخزى والعار كما فعلت بذلك الابله ؟ يمينا لو استمرت فى تعذيبى ، وفى حملى على تمثيل هذه الادوار الحقيرة فى هذه المسرحيه الهزلية الدنيئة ، لانتيهت من الامر كله دفعة واحدة • حسبى اننى وافقت على الخسة الاساسية ! ••• اننى ارى الآن اننى لم أكن اعرف نفسى • وهأنذا أقول لك : ان هذه العفونة تخلفنى خنقا ! •••

وهنا خرجت صافقة الباب ، فأتبعتها ماريا ألكسندروفنا نظرها ، وغرقت فى أفكارها • ثم هتفت تقول وهى تفرع الارض بقدمها : « يجب الاسراع ، يجب الاسراع ، ان زينا فتاة يخشى أمرها كثيرا ، انها هى الخطر الرئيسى ! واذا لم يدعنا جميع هؤلاء الأوغاد وشأننا ، اذا تدخلت المدينة كلها فيما لا يعينها ، وهذا ما يغلب على ظنى ، فقد ضاع كل شيء • ذلك أن زينا لن تقبل احتمال الورطة ، وسترفض المضى فى الأمر الى آخره • يجب أخذ الأمير الى القرية بأية وسيلة ! سوف أسرع أنا الى القرية أولا ، فأهز المعتوه ، وأجىء به الى هنا • ان فى وسعه أن يكون نافعا فى شيء من الأشياء مرة فى حياته ! حتى اذا استيقظ الآخر من نومه مضنيا جميعا الى القرية ودبرنا الباقي ! » •

وسرعان ما قرعت الجرس • فظهر الخادم فسأله :

- هل قرتم الخيول ؟

فأجابها بقوله :

- منذ مدة طويلة •

لقد أمرت ماريا ألكسندروفنا بالخيول منذ اللحظة التي صحبت فيها

الامير الى الطابق الاعلى •

وارتدت ثيابها ، ولكنها قبل أن تذهب ، دخلت الى غرفة ابنتها لتظهرها على الخطوط العريضة من القرار الذي اتخذته ، ولتزودها ببعض التعليمات التكميلية • غير أن زينا لم تكن في حالة تستطيع معها الاصغاء الى كلام أمها واأسفاه ! كانت زينا راقدة على سريرها ، دافئة رأسها في وسادتها ، مجهشة في بكاء شديد ، داسة ذراعيها اليضاوين حتى الكوعين في شعرها الرائع تشده من فرط حزنها • وكانت ترتعش بين الفينة والفينة كأنما من برد ، ارتعاشا يترجع في جسمها كله • ارتجلت ماريا ألكسندروفنا خطابا ، ولكن زينا لم ترفع رأسها •

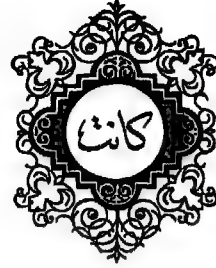
لبثت ماريا ألكسندروفنا متسمة في مكانها أمام ابنتها برهة من الوقت ، ثم خرجت من الغرفة قلقة أشد القلق • ومن أجل أن تتدارك ما فاتها وأن تعوّض خسرانها ، ركبت العربة وأمرت بضرب الخيول بالسوط استعجالا لجريها •

وحدثت نفسها وهي في العربة : « انه لشيء مزعج أن زينا أنصتت الى مادار بيني وبين موزجلياكوف من حديث • لقد أخضعت موزجلياكوف بنفس الحجاج التي أخضعتها بها تقريبا • فلا بد أن هذا جرح كبريائها • • • هم • • • المهم على كل حال أن ننجز الأمر بأي ثمن قبل أن تسرى

الشائعات وتروج الأقاويل ... ولكن ماذا اذا لم يكن معتمى هناك ؟
تلك هى الطامة الكبرى ! « ... » *

وحين خطرت ببالها هذه الفكرة بلغت من شدة الغيظ والغضب
درجةً لا تبشّر بخير يصيب المسكين آناستازى مانفئشش * ولقد وصل
نفاد الصبر عند ماريا ألكسندروفنا الى حيث كانت ترتجف وهى جالسه
فى مكانها من العربة ارتجافا شديدا * وكانت الخيول تعدو سريعه
سريعه *

الفصل العاشر



العربة تجرى اذن سريعة • وقد سبق أن قلنا ان فكرة عبقرية قد ومضت في ذهن ماريأ ألكسندروفنا في الصباح ، بينما كانت ساعية تفش عن الامير ؟ ووعدا القاريء بأن نذكر له هذه الفكرة في حينها وموضعها • فالقاريء يعرف الآن أن هذه الفكرة هي مصادرة الأمير ، واقتياده بأقصى سرعة ممكنة الى ذلك البيت الريفى الذى يعيش فيه صاحبنا الطيب آناستازى ماتفتش حياة وادعة مريحة • ويجب ان لا نكنم القاريء أن ماريأ ألكسندروفنا كانت تشعر بقلق لا يوصف يستولى عليها أكثر فاكتر • ذلك يحدث للأبطال الحقيقيين فى اللحظة التى يشارفون فيها على تحقيق الهدف وبلوغ الغاية • ان غريزة غامضة كانت تنبها الى أن فى البقاء بمورداسوف خطرا خطيرا • ولقد حدثت نفسها بقولها وقد عزمت أمرها : « أنا أعلم أن المدينة سينقلب عليها سافلها متى استقررنا فى العربة ، ولكننى لا أبالى هذا ولا أعابأ به ولا أكثر له ! » • ثم ان الأمر ، حتى فى العربة ، ليس أمر توقف أو ذهول أو راحة ، فليس على ماريأ ألكسندروفنا متى استقرت فى القرية مع الأمير أن تهدأ عن العمل والنشاط ؛ فانما ينبغى توقع كل شىء ، كل شىء على الاطلاق ؟ ومع ذلك فنحن لا نحب أن نصدق الشائعات التى أذاعها أعداء بطلتنا الألداء عنها ، وهى أنها كانت فى تلك اللحظة خائفة حتى من الشرطة • صفوة القول أن ماريأ ألكسندروفنا كانت تحس أن زواج

زينا بالأمير يجب أن يتم بأقصى سرعة ممكنه • وهى تملك لهذا وسائله واسبابه • فالزفاف يمكن أن يتم فى بيتها نفسه على يد كاهن القرية ، فى غداة غد ، بل وفى الغد اذا اقتضى الامر ذلك • وما أكثر الحالات التى انعقد فيها زواج فى غضون ساعتين ! لسوف توهم الامير بان هذا الاسراع ، بأن هذا الاستغناء عن اقامة حفلة الخطوبة انما توجهه الكياسة التى لا بد منها ، وسوف توقع فى وهمه أن الأمور تكون بهذه الطريفه اقرب الى اللياقة وأدنى الى الحشمة • ثم ان عليها أن ترتب الامور بحيث تضى على ذلك طابعا رومانسيا ، فتمس بذلك وترآ حساسا فى نفس الامير • وينبغى كذلك أن تحمله على الافراط فى شرب الخمر ، أو قل أن تبقيه فى حالة ثمل دائم وسكر مستمر • وليس يعنياها ما قد يحدث بعد ذلك ، ما دامت زينا ستصبح أميرة على كل حال • صحيح أنه لا مفر من الفضيحة ولا مناص من الجرسه ، وقد تصل الفضيحة والجرسه حتى الى بطرسبرج وموسكو ، حيث تقيم أسرة الأمير ؟ ولكن ماريا ألكسندروفنا لا تعمد بعض العزاء حتى فى هذا • فالفضيحة ما تزال الى الآن فى حيز الظن والتخمين ، أو ما تزال الى الآن خطرا لا يتعدى حدود الامكان • ذلك أولا • وأما ثانيا فلقد كانت ماريا ألكسندروفنا تعلم علم اليقين أن المجتمع الراقى لا يكاد يحدث فيه شئ بغير جرسه ، ولا سيما فى شئون الزواج • فالفضائح فى هذا المجتمع الراقى أمر مألوف ، بل انها لدليل على علو القيمة ورفعة المنزلة ؟ لقد كانت ماريا ألكسندروفنا ترى أن الجرسه فى المجتمع الراقى لا بد أن تشتمل دائما على شئ من عظمة ، كما هو الحال فى «مونت كريستو» أو فى «مذكرات الشيطان» * • أضف الى ذلك أنه سوف يكفى أن تظهر زينا فى المجتمع تحيط بها أمها وتدعمها وتسدد خطاها بالنصح حتى يذعن جميع أفراد المجتمع الراقى وحتى يخضعوا ويستكينوا • ما من واحدة من أولئك الكونتيسات أو الأميرات يشق² على

ماريا ألكسندروفنا أن « تفسل لها دماغها » سواء على مرأى ومسمع من الناس ، أو فى خلوة لا يراها فيها أحد •

كانت أمثال هذه الاعتبارات خليفة بأن تحض ماريا ألكسندروفنا على مزيد من الاسراع فى الجرى الى منزلها الريمى • انها الآن ساعية الى أناستازى الذى اصبح فى خطتها على حين فجأة امرءاً لا غنى عنه قط • ذلك أن اقتياد الامير الى القرية معناه أخذه الى أناستازى ماتفتش الذى فد لا يكون الامير حريصا على معرفته البتة • ولكن اذا قام أناستازى ماتفتش نفسه بدعوة الأمير فسرعان ما ستجرى الأمور عندئذ مجرى آخر • ثم ان مجيء الاب المحترم الوقور الى الامير ، من قرية بعيدة ، حاملا قبعته بيده ، مرتديا ثيابه الرسمية مع ربطة العنق البيضاء ، لانه سمع بوصول الامير الى منزله بالمدينة ، لا بد أن يحدث فى نفس الامير أجمل الأثر بل ولا بد أن يرضى غروره • حدثت ماريا ألكسندروفنا نفسها قائلة : « انه لمن الصعب أن يرفض الأمير دعوة سريعة ملحاحاً كهذه الدعوة ، انه لمن الصعب أن يرفض الامير دعوة تبلغ هذا المبلغ من شدة الاحتفال وعظمة الأبهة ! » •

فبعد أن قطعت العربة ثلاثة فراسخ عدواً سريعاً أوقف الحوذى سوفرونى خيوله عند مدخل مبنى خشبى طويل تحف به أشجار الزيزفون الوقور من كل جانب • ان البيت يتألف من طابق أرضى نخره السوس وصبغه الدهر بالسواد ، وله سلسلة طويلة من النوافذ • انه المنزل الريمى والمقر الصيفى لماريا ألكسندروفنا • وكانت المصايح قد اشتعلت فيه منذ ذلك الوقت •

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول وهى تدخل الى الغرف دخول الزوبعة :

— أين الأبله ؟ لماذا هذا الفسيل هنا ؟ آه ... كان يقتسل ! كان

لا يزال فى الحمام ! آه ... انه يحسنى شايه ، كما يفعل دائما ! ...
لا داعى الى الحملقة ! ... ما معنى هذا الشعر ؟ جريشا ، جريشا ! لماذا
لم تقص شعر مولاك كما أمرتك فى الاسبوع الماضى ؟

حين دخلت ماريا ألكسندروفنا المنزل كانت تهيأ لمخاطبة آناستازى
ماتفتش بلهجة أرق • ولكنها حين اكتشفت أنه خارج من الحمام ، وانه
يحسو شايه راضيا مغتبطا ، لم تملك أن تكبح جماح نفسها وأن تسيطر
على استيائها وامتاعاضها واستنكارها • فعلا : ما أكثر مشاغلها وهمومها
ومتاعبها هى ، وما أعظم الدعة والراحة التى يتمتع بها هذا التافه الذى
لا يصلح لشيء ولا ينفع فى شيء ، هذا العاجز آناستازى ماتفتش ! ذلك
تضاد من شأنه أن يدعى القلب حقا ! وفى أثناء ذلك كان الأبله ، أو قل
بمزيد من الانصاف كان الشخص الذى يوصف بهذه الصفة ، جالسا
أمام سماوره ، يشبه أن يتجمد دهشة من ظهور امرأته المفاجيء هذا ،
فهو ينظر اليها فاغر الفم محمق العينين • وفى حجرة المدخل كان يرى
وجه جريشا نعتان أخرق يطرف لهذا المشهد بكل ما أوتى من قوة •
قال يدمدم بصوت أبج :

— لم يأذن لى سيدى بأن أقصَّ له شعره • لم يرض أن أفعل •
جئت اليه حاملا المقص عشر مرات على الأقل ، أقول له : « اذا وصلت
مولاتى ، فسوف تقبض علينا كلينا ، فما عسانا نفعل عندئذ ؟ » ، فكان
مولاي يجيبني بقوله : « لا ، فأنا أريد أن أجعد شعري ليوم الأحد ،
فيجب أن أحتفظ به طويلا مزيدا من الطول • • »

— ماذا ؟ أهو يجعد شعره ؟ اذن انت ما تزال تدبر أمرك بحيث
تجعد شعرك أثناء غيابي ؟ ما معنى هذا ؟ هه ... ما أجمل الشعر المجعد
على رأسك الضخم ! ... رباه ! ما هذه الفوضى ؟ وما هذه الرائحة ؟
اننى أسألك أيها المسخ : ما هذه الرائحة التى أسمها ؟

كذلك صاحت الزوجة وقد ازداد غيظها وغضبها من الرجل البريء
آناستازى ماتفتش •

بلغ الزوج من الرعب أنه لم يتحرك من مكانه ، وانما أدار عينيه
الضارعتين نحو نصفه الجميل ، قائلا :

– صديقتى الطيبة ! صديقتى الطيبة !

فاجابته قائلة :

– كم مرة قلت لك أيها الحمار أنني لست صديقتك الطيبة ؟ كيف
يمكن أن أكون الصديقة الطيبة لغبي من طرازك ؟ كيف تجرؤ أن تنادى
بهذا سيدة نبيلة مكانها فى المجتمع الراقى لا بجانب جحش مثلك ؟

– نعم ، نعم ، ولكن ... يا ماريأ ألكسندروفنا ... أنت مع
ذلك زوجتى شرعا ، لذلك أخاطبك مخاطبة الزوج زوجته ...

كذلك أراد أن يشرح آناستازى ماتفتش وهو يرفع يديه الى رأسه
كأنما ليحمى شعره •

صرخت ماريأ ألكسندروفنا تقول :

– آه ... يا للغبي السخيف ! يا للبغل ! هل يمكن أن يسمع
الانسان جوابا أشد بلاهة من هذا الجواب ؟ اننى أئسال ماذا يريد أن
يقول بهذا الكلام ! ما من أحد يستعمل مثل هذا التعبير فى المجتمع
الراقى ! انه تعبير أحق ، مضحك ، كرهى ، خليق بتلاميذ المدارس
الدينية : « زوجته شرعا » ! ... أنظروا ماذا يقول ! ... كيف تجرؤ
أن تذكرنى بأننى زوجتك وأنا أحاول أن أنسى ذلك من أعماق قلبى ؟
ولماذا تضع يدك هكذا على رأسك ؟ أنظروا الى هذا الشعر ! انه مبلل ،

فلا بد من ثلاث ساعات حتى يجف ! فكيف آخذه الى المدينة ؟ يستحيل أن أظهره للناس وهو على هذه الحال ! ما عساي فاعلة ؟ ما عسى أصير اليه ؟

فالت ماريا ألكسندروفنا ذلك وأخذت تذرع الغرفة جيئه وذهابا وقد خرجت عن طورها وطفقت تحرك يديها بإشارات الكرب والياس . والحق أن النازلة لم تكن كبيرة ، وكان يسهل تدارك الأمر واصلاح الحال . ولكن ماريا ألكسندروفنا ، وهى امرأة تعودت أن ترى كل شئ ينحنى أمامها ويخضع لارادتها ويدعن لمشيئتها، لم تستطع أن تسيطر على مزاجها الجامح وأن وأن تروّض اندفاعها العنيف ! وكان أناستازى ماتفتش بالنسبة اليها هو التربة الصالحة دائما لأن تصب عليها جام غضبها المستمر، لأن الاستبداد عادة تغدو مع الأيام حاجة ملحة . وكل انسان يعلم على كل حال أنواع التناقض وضروب التضاد التى تتمثل وراء الكواليس لدى سيدات هن فى مجتمع الناس من أرهف السيدات لطفاً وأكيسهن سلوكاً . وكان أناستازى ماتفتش قد تخضب وجهه بحمرة شديدة أمام نظرات زوجته ، فهو يتابع كل حركة من حركاتها مضطرباً مرتعشاً فى قرارة نفسه .

وصرخت أخيراً تقول :

- جريشا ! ألبس مولاك فوراً : ألبسه سروالا ورداء وصديرة وربطة عنق بيضاء ! أسرع ! أين فرشاة الشعر ؟ أين الفرشاة ؟ الفرشاة ! ...

- صديقتى الطيبة ، اننى خارج من الحمام ، ولسوف يصينى زكام اذا أنا ذهبت الى المدينة ...
- لن يصيبك زكام !

- ولكن شعري مبلل كثيرا ...

- سيجفف لك ! جريشا ... هات فرشاة الشعر ، فلا تزل
تجريها في شعره حتى يجف • بمزيد من القوة ! بمزيد من القوة ! نعم ،
هكذا ... هيّا ابدأ !

انصاع جريشا المطواع لهذه الأوامر الصارمة فطفق يفرق شعر
مولاه بكل ما اوتى من قوة ، ممسكا كتفه لتسهيل المهمة الموكوله اليه ،
حتى لقد قلبه على الأريكة قلباً من قوة الشد • فكان آناستازى مقطب الوجه
عابس النظرة يوشك الدمع أن يطفر من عينيه •

- والآن تعال الى هنا • امسك رأسه جيذا يا جريشا ! أين دهن
الشعر ؟ هاته فوراً ! هيا ... انحنِ الى أمام يا من لا تصلح لشيء ! ...

وراحت ماريأ ألكسندروفنا تدهن زوجها بنفسها ، وهى تشد ، بغير
شفقة ولا رحمة ، شعره الكثيف الذى وخطه الشيب ولم يُجزّ • أطلق
آناستازى ماتفتش بضع آهات وأوهات ، ولكنه لم يصرخ ، وانما احتمل
العملية احتمال رجل مذعن للأقدار •

وتابعت ماريأ ألكسندروفنا كلامها تقول :

- مصصت دمي يا أيها الوبش الذى لا يصلح لشيء ! هيّا ...
انحنِ الى أمام مزيداً من الانحاء ... ما لك لا تنحنى ؟ ...

تمتم الزوج شاكيا وهو يحنى رأسه أشدّ انحاء ممكن :

- فيم مصصت دمك ؟

- غبى ... أبله ... انه لا يفهم حتى التشابيه والاستعارات ...
انه لا يفهم حتى المجاز ... والآن ، ها قد جف شعرك ! وأنت ، ألبسه
ملايسه ... أسرع ! ...

فالت بطلتنا هذا ، واستقرت على أحد المقاعد ، وتابعت بنظرة فاحصة حفلة الباس آناستازى ماتفتش • واتسع وقت الرجل أثناء ذلك لالتقاط أنفاسه ، واسترداد رباطة جأشه ، فلما وصل الخادم من الباسه الى عقد ربطة عنقه بلغ من جرأته أنه أبدى رأيه فى شكل الابزيمين وجمالهما ؛ حى اذا ألبس رداءه « الفراك » ، كان الزوج المحترم قد استرد من الثقة بنفسه ما جعله ينظر الى هندامه فى المرأة شاعرا بغير قليل من الرضى والسرور • وما هو ذا يسأل زوجته وهو يصعّر خديه أمام المرأة :

– الى أين تقودينى يا ماريا ألكسندروفنا ؟

فلم تصدق ماريا ألكسندروفنا أذنيها ، وصرخت تقول :

– هل تسمعون هذا السؤال ؟ انه يسمح لنفسه بان يسألنى الى أين

أفوده ، هذا المهرج !

– ولكن هذا شيء يجب أن أعرفه يا صديقتى الطيبة ...

– اسكت ... اذا ناديتى مرة أخرى بقولك يا صديقتى الطيبة ،

ولا سيما فى المكان الذى سأقودك اليه ، فسوف ترى مغبة فعلتك !

لأحرمك من الشاى عندئذ شهراً بكامله !

فلما سمع الزوج هذا التهديد ذعر وصمت •

وتابعت الزوجة كلامها وهى تتأمل رداء « الفراك » الجديد الذى

يرتديه آناستازى ماتفتش ، فقالت :

– تصوروا أن هذا الأبله لم يحصل حتى الآن على أى وسام !

أهذا معقول ؟

عندئذ خرج آناستازى ماتفتش عن طوره فقال محتجاً وقد جرح

شعوره وأوذيت كرامته :

- يا صديقتى الطيبة ... الأوسمة انما تمنحها الحكومة ، وأنا
مستشار فى الدولة لا أبله .

- ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ آه ... كأنك انما تتعلم هنا الردَّ على الكلام
أيها المجتر القذر ، أيها الرائل الوسخ ! ولكن وقتى لا يتسع الان للتلطيح
كرامتى بملاستك ! لسوف ترى فيما بعد ! ناوله معطفه يا جريشا !
هياً ... ناوله معطفه ... بسرعة ! وهنا ، أثناء غيابى ، رتب الغرف
الثلاث ، ونظف الغرفة الخضراء أيضا ... الغرفة التى فى آخر البيت .
وأسرع فى ذلك ... انزع غطاء المرأة ، وغطاء البندول أيضا . وافرغ
من ذلك كله فى غضون ساعة ، ساعة واحدة لا أكثر ، هل تسمع
يا جريشا !

وركب الزوجان العربية . ولبت آناستازى ماتفتش مذهولا لا يعرف
ما يراد به . كانت ماريا ألكسندروفنا تفكر أثناء ذلك فى الطريقة التى
يجب أن تعتمد اليها من أجل أن تدخل فى دماغ زوجها بعض الأوامر
اللازمة فى الظرف الراهن ادخلا يجعلها مفهومة له واضحة فى ذهنه .
ولكن زوجها سبقها الى الكلام . قال فجأة فى وسط هذا الصمت
المشترك :

- هل تعلمين يا ماريا ألكسندروفنا ؟ لقد حلمت الليلة حلماً
غريباً .

- اف ... رأس من خشب ! هذا ما يهمه بينما أنا مغرقة فى
التفكير ! ما هذا الحلم الذى حلمت به أيضا ؟ كيف تجرؤ أن تكلمنى عن
أحلامك السخيفة البلهاء ! اسمع : اننى أنذرك آخر انذار : اذا سمحت
لنفسك اليوم ، فى الدار ، مرة واحدة ، أن تجيء على ذكر أحلامك ،
أو على ذكر أى شىء آخر ... فلأفعلن فيك الأفاعيل ... والآن اصغ

جيدا الى ما أريد أن أقوله لك : ان الأمير «ك» هو الآن في بيتي ...
هل تذكر الأمير «ك» ؟

- أتذكره يا صديقتي الطيبة • ولماذا شرفنا بزيارته ؟
- اسكت ... ليس هذا من شأنك ! وانما عليك أن تصطنع كل
ما أنت قادر عليه من لطف وكياسة وذوق وأن تمثل دور رب الدار بدعوته
الى السفر معك فورا الى أرضنا • ذلك ما جئت أصطحبك من أجله •
يجب أن نرحل جميعا ، فى هذا اليوم نفسه ، الى القرية • فاذا سمحت
لنفسك بعد ذلك بأن تفتح فمك بكلمة واحدة ، مرة واحدة ، الليلة ،
أو غدا ، أو بعد غد ، أو فى أية لحظة ، فلأجعلك حارساً للأوز سنة
بكاملها ... اياك أن تتطرق بحرف ، اسكت ، وأحسن السكوت ! ذلك
هو ما عليك أن تفعله • هل فهمت ؟

- فاذا سئلت عن شيء ؟

- اسكت أيضا !

- ولكن يستحيل على المرء أن يسكت دائما ياماريا ألكسندروفنا
- فليكن جوابك اذن بحرف واحد أو ببضعة أحرف ، كأن تقول :
هيم ... نعم ... أو شيئا من هذا القيل ... أى ما لا بد منه لتظهر
انك رجل ذكى ، وأنت تفكر قبل أن تجيب •

- هيم ...

- حاول أن تفهم عنى أخيراً ... أنت انما جئت لأنك سمعت
بوصول الأمير ، فشرّفتك أن تهرع فورا لتقدم اليه تحيتك ولتعرب له
عن احترامك ولترجوه أن يقبل دعوتك اياه الى عزبتك • هل فهمت ؟

- هيم ...

- ما بك الآن حاجة الى هذه الـ « هيم » يا غبي ... وانما عليك
الآن أن تجيبنى •

— حسن ... يا صديقتى الطيبة ... لأفعلن كل شيء على ماتحين،
ولكن لماذا يجب على أن أدعو الأمير؟

— لماذا؟ لماذا؟ هأت ذا تعود الى التدخل فيما لا يعينك • ما شأنك
أنت وهذا؟ وكيف تجرؤ أن تأذن لنفسك بالقاء هذا السؤال؟
— انما أسألك هذا السؤال يا ماريأ ألكسندروفنا لأننى ، اذا لم يكن
من حقى أن أتكلم ، لا أستطيع أن أدعوه •

— سأتكلم نيابة عنك ... لن يكون عليك الا أن تنحنى ، هل
فهمت؟ تنحنى ممسكا قبعتك بيدك ، فهمت؟

— فهمت يا صديقتى الطيبة ماريأ ألكسندروفنا •

— الأمير على جانب عظيم من الذكاء • فمهما يقل ، لك أو لغيرك ،
فعليك أن تبسم ابتسامة عذبة بريئة كابتسامة طفل ، هل فهمت؟

— هم •

— عدنا الى « هم » ؟ ... لا داعى الى « هم » هذه معى ، من
فضلك ! أجب عن سؤالى بغير مداورة لا فائدة منها : هل فهمت أم أنت
لم تفهم؟

— فهمت يا ماريأ ألكسندروفنا فهمت • كيف يمكننى أن أفعل غير
ما فعلت؟ اننى أقول « هم » لأتعلم الاجابة على نحو ما تريدن لى ان
أجيب • غير أن هنالك شيئا ما يزال يقلقنى يا صديقتى الطيبة • لقد
أمرتنى بأن أنظر وأبسم حين يتكلم الأمير • فماذا أفعل اذا هو ألقى على
سؤالا ؟ ...

— حقا انك لمعتوه ! لقد سبق أن ذكرت لك مايجب عليك أن تفعله:
اسكت وأجيب أنا نيابة عنك • ليس عليك الا أن تنظر وأن تبسم •

دمدم آناستازى ماتفتش قائلا :

- ولكنه سيحبسنى أخرس !

- يا للمصيبة ! لقد يظن فيك الأمير هذا الظن .. ولكن ... لأن
يحبسك أخرس خير من أن يعرف أنك أبله !

- هم ... فماذا أفعل اذا ألقى على آخرون بعض الأسئلة ؟

- لن يلقى عليك أحد سؤالا • سنكون وحدنا • فاذا اتفق
- لا سمح الله ! - أن دخل علينا أحد ، فقال لك أى شيء أو ألقى عليك
أى سؤال ، فليكن جوابك ابتسامة سخرية • هل تعرف ماهى ابتسامة
السخرية ؟

- هى ابتسامة الفكاهة ، أليس كذلك يا صديقتى الطيبة ؟

- الفكاهة يا أحمق ؟ آه ... من الذى ينتظر منك أن تكون فكها
يا سخيف ؟ ابتسامة السخرية هى ابتسامة الاستهزاء ، هى ابتسامة التهكم
والاحقار ، هل فهمت ؟

- هم ...

قالت ماريا ألكسندروفنا تحدث نفسها على حدة : « يجب أن نخشى
كل شيء من هذا الابهل ! لا شك أنه أقسم ليتمصنّ كل دمي ! أحسب
أننى كنت أحسن صنعا لو استغنيت عنه ! » •

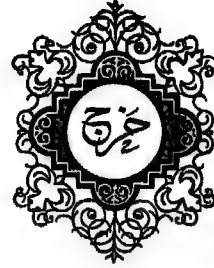
وفيما كانت ماريا ألكسندروفنا تدير فى خاطرها هذه الأفكار قلقة
النفس مهمومة البال ، كانت لا تنفك تخرج رأسها من نافذة العربة
وتصرخ مهيبةً بالخودى أن يسرع مزيدا من الاسراع • كانت الخيول

تمرق مروق الريح فى حقيقة الامر ، ولكنها فى نظر ماريا ألكسندروفنا تراوح فى مكانها ولا تتقدم ! وكان أناستازى ماتفتشش يتمرن فى ركنه بينه وبين نفسه ، على الدرس الذى أمرته زوجته بأن يحفظه • ووصلت العربّة أخيراً الى المدينة ، ووقفت أمام منزل ماريا ألكسندروفنا • فما ان وثبت بطلتنا الى درج المدخل حتى لمحت المركبة الزلاجة التى تتسع لشخصين وتظللها خيمة ، وهى المركبة التى اعتادت آنا نيكولايفنا أن تركبها حين تخرج من منزلها ، أقول ما ان وثبت ماريا ألكسندروفنا الى درج المدخل حتى لمحت هذه المركبة قادمة الى دارها • كان فى المركبة سيدتان • فأما الاولى فهى آنا نيكولايفنا طبعاً ، وأما الثانية فهى ناتاليا دمتريفنا التى أصبحت منذ برهة وجيزة صديقتها الحميمة التى تتبعها فى كل أمر والى كل مكان • شعرت ماريا ألكسندروفنا بانقباض فى صدرها • ولكن وقتها لم يتسع لأكثر من اطلاق صيحة تعجب • فها هى ذى مركبة ثانية تتبع المركبة الأولى ، ولا شك أن فيها زائرة أخرى • وسرعان ما تعالت صيحات الفرح وصرخات البهجة :

- أماريا ألكسندروفنا مع أناستازى ماتفتشش؟ انهما هما ! يالمصادفة السعيدة ! لقد جئنا نقضى السهرة عندكم ! هه ••• يا لها من مفاجأة ! ••• واجتازت الزائرات درج المدخل وهن يثرثرن كالبغاوات • لم تصدّق ماريا ألكسندروفنا لا عينها ولا أذنها •

قالت بينها وبين نفسها : « شيطان يأخذكن ••• الراححة رائحة مؤامرة ••• كان ينبغى توقع ذلك! ولكن لستن من يغلبنى ياغريباناً عوراً ! لسوف ترين ! ••• »

الفصل الحادي عشر



موزجلياكوف من عند ماريا ألكسندروفنا وقد
اطمأنت نفسه وهداً باله • لقد غيّرته ماريا
ألكسندروفنا تغيراً كاملاً • ولكنه لم يذهب الى
بورودوف • لأن حاجة الى الوحدة والعزلة
قد ألت به • ان سيلا جارقاً من الأحلام الرومانسية ، والأحلام البطولية ،
يحرمه من الراحة • انه يتخيل الموقف الرائع الذي سيفقه أمام زينا
شارحا لها أمره معتذرا اليها عن خطئه ساكبا دموع الغفران الكريمة التي
يطلق بها قلبه ؟ وانه يتخيل شحوب لونه وكمد نفسه في حفلة الرقص
الساطعة تلك التي سيحضرها بطرسبرج ، ويتخيل اسبانيا ونهر الوادي
الكبير ، والحب المتبادل بينه وبين زينا ، والأمير وهو يضم يده الى يدها
ساعة احتضاره ؟ ويتخيل نفسه بعد ذلك بجانب زينا التي ستحمضه الحب
الدائم والعبادة المستمرة جزاء بطولته وسمو نفسه وشهامة قلبه؛ ثم يتخيل
زواجه بها وهي أرملة الأمير «ك» ، ويتخيل بماقد يعود به عليه هذا الزواج
من خطوة لدى كوتيسية أصيلة ومن دخول باهر الى المجتمع الراقي حيث
لا يلبث أن ينال أنواع المساندة والدعم من أجل أن يصبح نائب حاكم
وأن يجنى مبالغ طائلة • صفوة القول أن ما وصفته له ماريا ألكسندروفنا
بنفصاحتها تلك كلها يتخاطر الآن مرة أخرى في فكره المستكين ، فيداعبه
ويهز مشاعره ويتملق غروره • لكنه حين شبع من هذه النشوة – الحق

أننى لا أعرف كيف أشرح الأمر - حين شبع من هذه النشوة وافت ذهنه على حين بفته فكرة تبعث فى القلب أشد الحزن ؛ قال يحدث نفسه : ذلك كله جميل ... ولكنه يقوم على الظن والتخمين ، فلا يمكن الركون اليه والتعويل عليه ، ولا ينفى أنه ، هو موزجلياكوف ، قد تم التآمر عليه فسُلب الفتاة التى يحبها ، وأُبعد عنها ، وحرم منها . وحين وافقه هذه الفكرة ، لاحظ أنه كان قد تاه بعيدا جدا فى ضاحية مجهولة من ضواحي مورداسوف . وكان ضوء النهار يغيب . وأخذ موزجلياكوف يسمع نباح الكلاب الشرسة فى كل مكان على طول الشوارع التى تحف بها يسوت حقيرة متداعية ، وهى تلك الكلاب التى يكثر عددها كثرة رهبة فى مدن الأقاليم ، ولا سيما فى الأحياء التى ليس فيها شيء يستحق أن يحرس وليس فيها شيء يستحق أن يؤخذ . وكان يهطل ثلج مبلل . ومن حين الى حين ، يصادف موزجلياكوف عاملا متأخرا عن موعد أوبته الى منزله ، أو امرأة من نساء الشعب تتعل حذاءين طويلين وتتدثر بجلد من جلود الخراف . ذلك كله قد انتهى أخيرا باحناق بافل ألكسندروفتش ، يعلم الله لماذا ... وكان هذا علامة شر ونذير سوء ، لأن الأشياء فى غير هذه الحالة ، حين تجرى الأمور مجرى حسنا ، انما تكتسى فى نظرنا مظهرها جميلا ممتعا . وتذكر بافل ألكسندروفتش بالرغم منه أنه كان حتى هذه اللحظة فى مدينة مورداسوف سيداً مرموقاً ؛ وكان يبهجه كثيرا أن يسمع الناس ، حينما ذهب ، يغبطونه ويهثونه على أنه شاب تمنى الأنساب أن تزوجه ، حتى لقد كان يتغطف من سماع مثل هذا الكلام . وها هو ذا الآن سيبدو فى نظر الجميع على حين فجأة خطيبا مرفوضا منبوذا ، وسيكون أضحوكة المللأ كافه . ولن يصدق أحد أقواله ، فلا بد أن يحتفظ لنفسه دون غيره برؤاه وأحلامه التى تصوّر له نهر الوادى الكبير ، وقاعة حفلات الرقص ذات الأعمدة فى مدينة بطرسبرج العظيمة ! فكان

موزجلياكوف يزداد انزعاجا وهماً وغماً كلما أمعن في التفكير . ثم اذا هو يلبث أخيراً على هذه الفكرة التي كانت تقرر قلبه منذ زمن ، متسائلاً : «أهذا كله صحيح ؟ هل سترتب الأمور كلها على نحو ما ادعت ماريا ألكسندروفنا ؟ » . وهنا تذكر أن ماريا ألكسندروفنا امرأة تتصف بأنها ماهرة مكرها شديداً ، وأنها رغم ما تنعم به من تقدير الناس كافة لا تنفك تراكم الأكاذيب فوق الأكاذيب والنمائم فوق النمائم ، نهاتها كله . فلماذا لا يكون هنالك في هذه اللحظة دواعٍ شخصية تحضها على ابتعاده عن منزلها ؟ ألم تُشتهر بأنها أستاذة قديرة في فن الكلام المزوّق والوصف البارع ؟ وفكر موزجلياكوف أيضاً في زينا ، فترأت له مرة أخرى نظرة الدواع الأخرى التي ألقها عليه ، وهي أبعد ما تكون عن النظرة التي تبهر عن حب مكظوم أو هوى مكبوح . وتذكر أنها قد طردته منذ ساعة شر طردة كما يُطرد أغبي الأغياء . فلما خطرت بباله هذه الذكرى تجمد في مكانه فجأة ، وقد احمر وجهه ودعمت عيناه خجلاً وعاراً . واختلط في ذهنه كل شيء . ثم شاء سوء الحظ في الدقيقة التالية أن يتعر في خطوه وأن تزل به قدمه فاذا هو يشب وثبة مشؤومة من على الرصيف الخشبي الى كومة من الثلج ، واذا هو حين أراد أن ينهض وأن ينفذ عنه الثلج يرى الكلاب التي كانت حتى ذلك الحين تلاحقه بنباحها تنقض عليه الآن من كل جانب ؟ واذا أصغر هذه الكلاب ، وهو أوقحها وأشرسها ، يتشبث بأذياله وينشب كلاليه في فرائئه . فلما استطاع أن يتخلص من هذا الكلب وهو يندب حظه ويلعن قدره بصوت عال ، كان أحد أذياله قد تمزق ، وكانت نفسه تفيض حزناً وكمداً ، ووصل أخيراً الى طرف شارع من الشوارع ، وعندئذ انما أدرك مدى ما بلغه من ضلال وتيه في طريقه . وأنتم تعلمون أن الانسان الذي يضل طريقه ، ولا سيما في حى ليس له فيه أى نقطة يستهدىها في سراه ، لا يتوصل

أبدا الى اتباع شارع من الشوارع رأسا ، فهو ما ينفك ، من دقيقه الى دقيقة ، يوغل في طريق ضيق أو في ممر عرضاني ، فكان حتما على بافل ألكسندروفتش أن يتوه بهذا الأسلوب توهاً كاملا لا مخرج منه .
 وها هو ذا يقول لنفسه وهو يبصق على الارض احتقارا : « شيطان يأخذ هذه الافكار الكبرى كلها ! شيطان ياخذك أنت وعواطفك العظيمة ، ونهر الوادى الكبير فوق ذلك ! ... » . ولست أزعم أن هيئة موزجلياكوف كانت فى تلك اللحظة هيئة فاتح منتصر . واخيرا ، بعد ساعتين من سير مضن ، وجد موزجلياكوف نفسه على عتبة منزل ماريا ألكسندروفنا وقد تجلد جسمه من شدة البرد . فما كان أشد دهشته حين رأى عربات عدة مرابطة هنالك . تساءل موزجلياكوف : « اهى سهره ومدعوون ؟ فما هى الغاية من السهرة اذن ؟ » . وسال عن ذلك خادما كان عائدا الى المنزل فعلم أن ماريا ألكسندروفنا كانت قد ذهبت الى العزبة لتحضر اناستازى ماتفتشس بربطة عنق بيضاء ، وأن الأمير قد استيقظ من نومه ولكنه لما ينزل الى الصالون بعد . فتسلل بافل ألكسندروفتش الى عمه فى الطابق الأول دون أن يقول لأحد شيئا . كانت حالته النفسية فى تلك اللحظة حالة انسان ضعيف الارادة سيطرت عليه الرغبة فى الانتقام ، واستبد به حب الثأر ، فهو لا يستطيع أن يفكر مزيدا من التفكير فى العواقب التى تترتب على العمل الدنى الذى سيقارفه ، ولا فى مخاطر ندمه طول حياته على ما جنت يده .

وجد الأمير مستقرا على مقعد أمام حقيية سفره عارى الجمجمة تماما ، ولكنه قد وضع شاربيه ولحيته عارضيه ؟ وكانت طاقة شعر رأسه فى يدي خادم عجوز أشيب هو ايفان باخومشتس ، كان يجرى فيها فرشاة الشعر وقد بدا فى وجهه الهم والاحترام معا . أما الامير فانه لما يصح صبحوا كاملا بعد سكره ، فمنظره منظر يبعث على الشفقة حقا . وهاهو ذا

ينظر الى دخول موزجليكوف دون أن يبدو عليه أنه تعرفه ، جالسا على مقعده ، متخدد الوجه ، طارف العينين ، فارغ الرأس •

سأله موزجليكوف قائلا :

- كيف حالك يا عمى ؟

فتمتم الشيخ أخيرا يقول :

- آ آ آ • • • أهذا أنت ؟ هل تعلم يا صديقي ؟ لقد نمت لحظة •

ثم صرخ على حين فجأة يقول بصوت منتعش قوى :

- آه آه آه • • • يا رب ! لم أضع طاقة شعري ! آه • • •

- لا تقلق يا عمى ! سوف آه • • • سوف أساعدك فى وضعها اذا

شئت •

- ولكنك اكتشفت سرى ! مع أننى أمرت باغلاق الباب بالمفتاح !

يا صديقي ، عليك أن تقطع لى على نفسك عهد الشرف بأن لا تذكر لأحد أن شعري مستعار •

- طبعا يا عمى ! أفظننى أرتضى لنفسى أن أفعل فعلا مشينا كهذا ؟

كذلك صاح يقول موزجليكوف ، راغبا فى استمالة الشيخ اليه من

أجل ما كان يريد أن يحاوله بعد ذلك •

قال الشيخ :

- طبعا طبعا آه • • • واضح أنك رجل شريف • لذلك سوف أدهشك

فأفصلي اليك بسرى كله • قل لى يا عزيزى : ما رأيك فى شاربى ؟

- هما رائعتان يا عمى ، رائعتان ! كيف فعلت حتى احتفظت بهما

على هذه الصورة مدة طويلة هذا الطول كله ؟

- الحق يا صديقي أنهما مستعاران مصنوعان •
- بهذا اعترف الامير وهو يلقى على بافل ألكسندروفتش نظرة انتصار.
- فأجابه هذا بقوله :
- مستحيل ! لا أكاد أصدق ! ولحيتا عارضيك اذن ؟ أنت تصبغهما
يا عمى ؟
- أصبغهما ؟ هه ••• لا يا صديقي ••• هما مصنوعتان أيضا !
- مصنوعتان ؟ لا يا عمى ! لا تبالغ ! لست أصدق حرفاً من هذا
الكلام ! أتضحك علىّ ؟
- صاح الشيخ يقول وقد تهلل وجهه وانبسبت أساريره :
- أقسم لك بشرفي يا صديقي ! وتصور أن جميع الناس يُخدعون
في أمرهما ، جميع الناس بغير استثناء ! حتى ستيناييد ماتشفنا لا تصدق
أنهما مصنوعتان ، رغم أنها هي التي تضعهما لي في بعض الأحيان • ولكنني
أعتمد عليك يا صديقي في كتمان هذا السر • احلف لي بشرفك أنك
ستكتم السر •
- أحلف بشرفي أنني سأكتم السر يا عمى ؟ أفتظنني أرتضى لنفسي
أن أقارف فعلاً مشينا كهذا الفعل ؟
- آه يا صديقي ! ما أكبر الوقعة التي وقعتها اليوم في غيابك ! لقد
قلبنى تيوفيل مرة أخرى •
- مرة أخرى ؟ متى يا عمى ؟
- بينما كنا ذاهبين الى الدير ؟
- أعرف يا عمى ، في هذا الصباح •

- لا ، لا ، لا فى هذا الصباح ! بل منذ ساعتين فى أكثر تقدير !
كنت ذاهبا الى الدير ، وكان تيوفيل يقود العربى ، فقلبها ... وقد بلغت
من شدة الخوف أن قلبى ما يزال يخفق خفقانا شديدا ...

قال موزجليكوف مدهوشا :

- ما هذا الكلام يا عمى ؟ لقد كنت نائما ...

- طبعا طبعا ... لقد نمت ... ثم ركبت العربى ... على كل
حال ... من الجائز جدا ... آه ... شىء غريب !

- أؤكد لك يا عمى أنك رأيت هذا فى الحلم ، فأنت قد استرحت
هادئا منذ تناولت الغداء .

- أهذا ممكن ؟

كذلك سأل الأمير ، ثم أخذ يفكر .

ثم قال أخيرا :

- طبعا ... من الجائز جدا أننى حلمت . فى أول الأمر رأيت
ثورا رهيبا ذا قرنين كبيرين مقبلا علىّ ، ثم رأيت وكيل نيابة ذا قرنين
أيضا ، فيما يخیل الىّ ...

- لا شك فى أنه نيكولا فاسيلفتشس يا عمى !

- طبعا طبعا . جائز جدا . وبعد ذلك رأيت نابوليون بونا ... برت
... هل تعرف لماذا يا صديقى ؟ ان جميع الناس يرون أن وجهى يشبه
من الأمام وجه نابوليون بونا برت ، وأنه من الجانب صورة وجه بابا قديم .
فما رأيك أنت يا صديقى ؟ هل ترى أن لى رأس بابا من بابوات الكنيسة؟

- أحسب أنك أشبه بنابوليون بونا برت يا عمى !

– طبعا طبعا ، من الأمام ! أنا أيضا متأكد من ذلك • لقد رأيته اذن
فى جزيرته ، ولا تستطيع أن تتخيل مدى ما كان عليه من مرح وبثيرة •
لقد أضحكنى كثيرا •

– أعن نابوليون تتكلم يا عمى ؟

كذلك سأل بافل ألكسندروفتش ، وهو ينظر الى الشيخ مفكرا •
قد أخذت تتجسم فى ذهنه فكرة غريبة ، فكرة لما يستطيع حتى الآن أن
يشين كل قيمتها •

أجاب الشيخ قائلا :

– طبعا طبعا ، عن نابوليون • وقد أخذنا نتحدث فى الفلسفة فلا
نتوقف عن الحديث • هل تعلم يا صديقى ؟ اننى آسف أشد الأسف على
القسوة التى عامله بها ••• الانجليز • صحيح أنه لو لم يكبل بالأغلال ،
لهجم على الناس من جديد • انه رجل مسعور حقا • ولكننى أرثى له مع
ذلك • لو كنت فى محل أعدائه لما أنزلت به هذا العقاب ، وانما اكتفيت
بسجنه فى جزيرة خالية •••

سأل موزجلياكوف وكان لا يصغى الى كلام الشيخ الا بأذن
واحدة :

– لماذا خالية ؟

فأجاب الشيخ قائلا :

– لا خالية تماما •• وانما يسكنها أناس عقلاء فحسب ••• ولكن
هيات له جميع أسباب التسلية على نفقة الدولة : مسرح ، موسيقى ، باليه •
ولكن سمحت له بأن يتتزه ••• مع حرس طبعا ••• والا هرب • ولقد
كان يحب نوعا خاصا من الفطائر الصغيرة جدا كثيرا • لذلك فأننى لو كنت

فى مكان خصومه لأطعمته منها كل يوم *** ولكنت أعامله معاملة ابن • •
ولكان ندم عندى على ما فعل ! ***

كان موزجلياكوف يقضم أظافره وهو يستمع لثرثرة الشيخ الطيب
الذى يشبه أن يكون نائما • وكان يتمنى لو يدير الحديث على مشروع
الزواج الذى انعقدت عليه النية • ان غضبا رهيبا يغلى فى نفسه دون أن
يعرف كثيرا لماذا يغلى فى نفسه هذا الغضب الرهيب • وفجأة أطلق الشيخ
صرخة دهشة ، وقال :

- آ • • • كدت أنسى أن أذكر لك أننى فى هذا اليوم قد تقدمت
بطلب زواج •

فسأله موزجلياكوف منتعشا :
- طلب زواج يا عمى ؟

- طبعاً طبعاً ، طلب زواج • هل انتهيت يا باخومتش ؟ أنت
منصرف ؟ طيب ، طيب • هى فتاة رائعة يا صديقى • • • ولكن • • يجب
أن أعترف لك يا عزيزى أننى تصرفت تصرفاً طائشاً بعض الطيش •
الآن انما أدرك ذلك • آه • • • يا رب !

- عمى ، اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال: متى تقدمت بعرض
الزواج هذا ؟

- الحق أننى يا صديقى لا أدرى • لعل هذا أيضاً كان فى الحلم !
• • • أمر غريب مع ذلك ! • • •

ارتعش موزجلياكوف من شدة الفرح • ان فكرة جديدة كانت قد
ومضت فى ذهنه بسرعة البرق •
قال وقد نفذ صبره :

- الى من تقدمت بطلب الزواج هذا يا عمى ، ومتى تمَّ ذلك ؟

- الى الفتاة التى فى هذا المنزل يا صديقى *** الى تلك الفتاة الجميلة *** نسيت اسمها على كل حال • ولكننى أعترف لك يا صديقى بأننى لست فى حالة تمكنتنى من احتمال زواج • فماذا علىَّ أن أفعل ؟
- نعم ، صحيح ، لتخسرن نفسك اذا أنت تزوجت • ولكن اسمح لى بسؤال آخر يا عمى : أأنت واثق كل الثقة من أنك تقدمت بطلب الزواج هذا ؟

- طبعا طبعا ، أنا واثق كل الثقة •

- فاذا لم يكن هذا الا حلماً كاللحم الذى رأيته فى شأن انقلاب العربى بك ؟

- آه *** يا رب ! *** على كل حال *** جائز جدا أن يكون هذا حلماً كذلك • فماذا يجب علىَّ أن أفعل حين نزل الى تحت ؟ اسمع يا صديقى : يجب أن نجد حيلة تثبت لنا بوسيلة أو بأخرى أننى تقدمت بطلب الزواج أو أننى لم أتقدم به • لا تستطيع أن تتصور مدى حيرتى وارتباكى الآن •

- هل تعلم يا عمى ؟ مهما أفكر فى الأمر ، فأننى لا أحسب أن علينا أن نحاول الاستطلاع •

- كيف ؟

- أنا على يقين من أن الأمر كان حلماً رأيته فيما يراه النائم من أحلام •

- أنا أيضا أظن ذلك يا صديقى العزيز ، لا سيما وأننى كثير ما أرى أحلاماً من هذا القيل •

- أ رأيت يا عمى ؟ ولاحظ أنك شربت قليلا أثناء الافطار ، ثم أثناء الغداء ، وأن ...

- طبعا طبعا يا صديقى ، هو كذلك ، هو كذلك ...

- أضف الى هذا يا عمى أنك ما كان لك أن تتقدم بطلب يبلغ هذا المبلغ من ... قلة التبصر ، حتى ولو كنت فى غير حالتك الطبيعية . ذلك أنك يا عمى ، اذا صدقت معرفتى بك ، رجل على جانب عظيم من الروية والأناة ، و ...

- طبعا طبعا !

- تخيل شيئا واحدا : تخيل ما قد يحدث اذا علم بهذا الطلب أقرباؤك الذين ييتون لك منذ الآن ما ييتون من سىء النيات ... تخيل ما عسى أن يقع عندئذ ! ...

صرخ الأمير مذعورا يقول :

- آه ... يا رب ! طبعا ما عسى أن يقع ؟ ...

- لسوف يهتفون بصوت واحد أنك انما فعلت ذلك لأنك فقدت عقلك ، لسوف يهتفون بصوت واحد أنك مجنون ، وأن من الواجب أن يحجر عليك ، وأنت قد ضللت وغرر بك ؟ وليس هناك أدنى شك فى أنهم سيحبسونك عندئذ ليراقبوك من كتب !

لقد عرف موزجالياكوف كيف يبت الهلع والجزع والرعب فى نفس الشيخ المسكين . فصاح الامير قائلا وهو يرتجف كورقة فى مهب الريح :

- آه ... رباه ! أيجبسوننى اذن ؟

فقال موزجالياكوف :

- لذلك أسألك يا عمى أن تحكم بنفسك : هل يعقل أن تكون قد تقدمت بطلب الزواج الا فى الحلم ؟ انك تعرف العواقب الوخيمة التى تترتب على مثل هذا الطلب حق المعرفة • وانى لاؤكد لك جازما ان ذلك كله كان حلماً أثناء النوم •

- حتما ••• كان ذلك كله حلماً أثناء النوم ••• آه ••• ما أصدق ادراكك للأشياء يا عزيزى ! اننى شاكر لك من أعماق قلبى أنك أرجعت الأمور الى نصابها ، ووضعتها فى موضعها !

- وأنا سعيد جدا يا عمى بأننى لفيتك الآن • والا كان من الممكن فعلا أن تتعذب بتوهم أنك قد خطبت الفتاة ، وبنزولك اليهم بهذه الصفة ، صفة الخطيب ••• هه ! •• هل تتصور الورطة التى كنت ستقع فيها يا عمى ؟

- طبعا طبعا ، ورطة •• ورطة ••

- ولاحظ أن هذه الفتاة قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها منذ الآن ولم يخطبها أحد ؟ ثم اذا بك أنت الغنى النييل تخيل اليهم أنك خطبتها ! لا شك أنهم سيتلقفون الكرة عندئذ فيؤكدون لك أنك خطيب ابنتهم فعلا ، وسيزوجونك اياها قسرا ••• صدقنى اذا قلت لك ان هذا هو ما كان سيقع ! ثم لا يبقى عليهم بعد ذلك الا أن ينتظروا موتك !
- هكذا ؟

- ولاحظ أخيرا يا عمى أن رجلا فى مثل قيمتك ومنزلتك •••

- طبعا طبعا ، فى مثل قيمتى ومنزلتى •••

- وفى مثل ذكائك وثقافتك وأدبك •••

- طبعا طبعا ، فى مثل ذكائى وثقافتى وأدبى ••• طبعا طبعا •••

- وأنت أخيرا أمير ••• أفيمكن أن تختار لنفسك زوجة كهذه

الفتاة اذا كنت فى حاجة الى الزواج حقا ؟ ألا فكرت فيما عسى أن يقوله
أقرباؤك ؟

— آه يا صديقى ... لسوف يلتهموننى التهاما ان فعلت ! لقد سبق
أن جربت ما هم قادرون عليه من جراه وشر وخبث ودناءة ! تصور أنتى
أشتبه فى أنهم ينوون أن يحبسونى فى مستشفى للمجانين ... فقل لى
يا صديقى : هل يمكن أن يصدق المرء أمرا كهذا ؟ ما عسى أن أصبح اذا
حبست ... فى دار مجانين ؟

— لذلك لن أبعد عنك قيد أنملة حين تنزل يا عمى • وهناك زوار
تحت !

— زوار ؟ آه ... يا رب ! ...

— لا تخف يا عمى ! سأظل بجانبك •

— آه ... ما أعظم شكرى لك وامتنانى منك يا عزيزى ! أنت
منقذى وكفى ! ولكن هل تعلم ؟ ان من الأفضل أن أسافر ...

— غدا يا عمى ، غدا فى الصباح ، منذ الساعة السابعة • أما هذا
المساء فتعلن عن سفرك أمام الجميع ، وتودّع •

— سأسافر حتما • سأذهب الى الأب • ولكن ، يا صديقى ، ماذا لو
حاولوا هناك ، تحت ، أن يزوجونى قسراً واكراها رغم ارادتى ؟

— لا تخش شيئا يا عمى ! سأكون بجانبك • ثم ان عليك ، مهما
يقولوا من كلام ، ومهما يسوقوا من اشارات ، أن تردد أنك رأيت ذلك
كله فى الحلم ... كما هى الحقيقة فعلا !

— طبعا طبعا ، فى الحلم ... ومع ذلك ، هل تعلم يا صديقى ؟ لقد

كان الحلم رائعا مثيرا • ان لها جمالا مذهلا ••• وان لها أشكالا •••
أشكالا •••

- هيا •• الى اللقاء يا عمى •• سأنزل أنا الآن ، أما أنت •••

صاح الامير مدعورا :

- ماذا ؟ أتركنى وحدى ؟

- لا يا عمى ، بل تنزل واحدا بعد آخر • أنزل أنا أولا ، ثم تنزل
أنت • ذلك أفضل •

- طيب ، طيب • ثم ان هناك فكرة هامة يجب أن أدوّنّها قبل أن
أنزل •

- هو كذلك يا عمى • دوّن فكرتك ، ثم انزل بلا ابطاء • أنت
تعلم أنك فى صباح غد •••

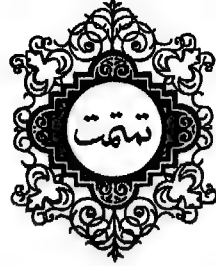
- فى صباح غد ، عند الأب ميسائيل ••• بلا ابطاء ••• عند الأب
ميسائيل ••• رائع ! رائع ! آه ••• ليتك تعلم يا صديقى ! ان لها جمالا
نا ••• د ••• را ! وأشكالا ••• أشكالا ••• لو كان علىّ أن أتزوج
لتزوجتها بلا ابطاء ، فالى هذه الدرجة أنا •••

- حماك الله يا عمى !

- طبعا طبعا ، حماني الله ! ••• هيّا ••• الى اللقاء بعد قليل
يا صديقى العزيز جدا ••• لن أزيد على تدوين فكرة • بالمناسبة ، كنت
أريد منذ زمن طويل أن أسألك هذا السؤال : هل قرأت « مذكرات
كازانوف » ؟ *

- طبعا قرأتها • ولكن لماذا تسألني هذا السؤال ؟
- طيب طيب ••• نسيت ما كنت أريد أن أقوله •••
- ستذكره فيما بعد يا عمى • الى اللقاء !
- الى اللقاء يا صديقي ، الى اللقاء • كان حلما رائعا مع ذلك ، حلما
را •• ثما ! •••

الفصل الثاني عشر



آنا نيكولايفنا تقول وهى تدخل :
 - جئنا اليك جميعا ! وستجىء براسكوفيا ايلنتشا
 أيضا ، وقد تجىء لويزا كارلوفنا كذلك .
 ان آنا نيكولايفنا سيدة قصيرة ظريفة الشكل
 تظن فى نفسها أنها لا سبيل الى مقاومتها . وهى ترتدى ثيابا غنية ولكن
 زاهية . فلما دخلت الصالون فتشت بنظرها جميع أركانها ليقينها من أن
 الامير مخبئ فيه مع زينا .

وأضافت ناتاليا دمتريفنا :

- وستجىء كاترينا بتروفنا ، وقد وعدت فيلساتى ميخائيلوفنا بأن
 تجىء أيضا .

ان ناتاليا دمتريفنا هى السيدة التى فتنت أشكالها الامير فتنة عظيمة .
 انها امرأة طويلة ضخمة يمكن أن تجعل جنديا من خيرة الجنود . وقد
 وضعت على نقرتها قبعة صغيرة وردية اللون تثير أكبر الدهشة . لقد
 أصبحت الصديقة الحميمة لآنا نيكولايفنا منذ ثلاثة أسابيع بعد أن توددت
 اليها زمنا طويلا ، فأصبحت الآن ترافق فى كل مكان تلك الانسانة الصغيرة
 التى يمكنها فى الظاهر أن تبلعها من القدم الى الرأس لقمة واحدة .

قالت ماريا ألكسندروفنا وقد فامت من انفعالها الأول :

– لن أقول شيئا عن فرحى العظيم برؤيتكما معا فى بيتى ، هذا المساء خاصة • ولكن قولالى ، أرجوكم ، بأية معجزة أراكما الليلة هنا مع أننى يئست من الحصول على هذا الشرف منذ زمن طويل ؟

فأجابت ناتاليا دمتريفنا محتجة بصوت يعمل اللطف والحلاوة :

– ما هذا الذى تقولين يا ماريا ألكسندروفنا ؟ ...

قالت ذلك متفنجة خجلى محمرة ، فكان هذا يتعارض تعارضا مضحكا أشد الاضحاك مع مظهرها وقامتها •

واستأنفت آنا نيكولايفنا كلامها تقول بصوت ما يزال يتمتم تمتمة :

– ولكن يا عزيزتى الفتاة ، كان لا بد لنا من الانتهاء من وضع برنامجنا لاجراج الحفلة التمثيلية التى نزمع اقامتها • ففى هذا اليوم نفسه قال بطرس ميخائيلوفتش لكالستى ستانسلافتش انه غاضب غضبا شديدا من انه لا شئ يجرى قُدُماً ، وانما لا يصلح لشيء غير التشاجر والتخاصم • لذلك بعد أن اجتمعنا نحن الأربع عزمنا أمرنا قائلين : « فلنذهب الى ماريا ألكسندروفنا ، ولنحل القضية دفعة واحدة » • وتولت ناتاليا دمتريفنا ابلاغ الأخريات ، فسيجن جميعا ، فنتناقش فيصبح كل شئ على ما نحب ، فلا يستطيع هؤلاء السادة بعد ذلك أن يدعوا أننا لا نصلح لشيء غير التشاجر والتخاصم ... أليس كذلك يا ملاكى (هذا ما أضافته بلهجة فرحة وهى تقبل ماريا ألكسندروفنا) • آه ... يا الهى! زينايد آنا ناسيفنا ، ما أكثر ما تزدادين جمالا وسناء ، يوما بعد يوم ! ...

كذلك قالت آنا نيكولايفنا وارتمت على زينا تعانقها •

قالت ناتاليا دمتريفنا بلهجتها المتفنجة وهى تفرك يديها العريضتين

عرض مضربين :

- نعم ، لا يمكن الا أن تزداد حسنا وجمالا •

حدثت ماريا ألكسندروفنا نفسها قائلة : « شيطان يأخذهن ! الحفلة التمثيلية ؟ ... هذا « مقلب » ميت ! يا للغربان العور ! ... » •
وتأبعت آنا نيكولايفنا كلامها قائلة :

- لا سيما ، يا ملاكى ، وأن عندك ذلك الامير العزيز • أنت تعرفين يا عزيزتى أن قد كان فى دوخانوف دائما مسرح يرثه الأبناء عن الآباء • وقد استطلعنا فعرفنا أن هذا المسرح يضم بعض اللواحق ، فهناك ستارة قديمة ، وديكورات شتى ، وملابس كثيرة مصفوفة فى ركن ما • وقد مرَّ الأمير بمنزلى هذا الصباح ، ولكننى بلغت من الدهشة لرؤيته أننى فأتنى أن أحدثه فى هذا الأمر • وانما جئنا الآن خصيصا لسأله عن هذا الموضوع ، ولا شك أنك ستساعدينا ، فيرسل الامير أحدا ليأتينا بهذه الأشياء القديمة من دوخانوف • وهل فى هذه المدينة أحد يمكن أن تتجه اليه طالبين امدادنا بأى ديكور ؟ فانما المهم أن نجعل الامير يهتم بحفلاتنا التمثيلية • ويجب أن نحمله على التبرع مهما كلف الامر • فأت تعلمين أن ربيع الحفلة للفقراء • وقد يقبل أن يمثل معنا دورا من الأدوار • انه لطيف جدا ، مطاوع جدا • فلا شك أن الامور ستجرى سريعة على عجالات •

قالت ناتاليا دمتريفنا تؤيد قول صاحبتهما ، بلهجة مثقلة بمعان مضمرة :

- سيقبل أن يمثل دورا ، من غير شك • سيقبل أن يمثل أى دور ! ... •

لم تبلغ آنا نيكولايفنا • فان سيدات أخريات ما تنفك تصل من

دقيقة الى دقيقة ؛ وماريا ألكسندروفنا ما تنفك تهب الى لقائهن مطلقه
صيحات الفرح التي لا بد منها في مثل هذه الحالة • فكانت كل واحدة
منهن تبارى الأخرى في حسن التلطف والذوق والأدب •

• لا أريد أن أصف جميع الزائرات • وحسبى أن أقول انها هيئتهن
جميعا كانت أقرب الى التعبير عن السخرية • وكان المرء يلاحظ في
وجوههن نوعا من الارتجاف العصبى الذى يدل على نفاد الصبر • ان
بعضهن ، وقد جئن خصيصا على نيه محددة هي أن يشهدن فضيحة فذة ،
كان يمكن أن يزعمهن أشد الازعاج أن يعدن أدراجهن دون أن يرين
شيئا مما كن يمينن أنفسهن برؤيته • ولئن لم تتخل واحدة منهن عن
اصطناع المبالغة في التودد والتلطف في الظاهر ، فلقد كانت ماريا
ألكسندروفنا تشعر شعورا يفيينا بقرب نشوب المعركة • ان الزائرات
يطرحن عليها أسئلة عن الأمير تبدو في ظاهرها طبيعية ، ولكنها تخفى
في باطنها غمزا ملتويا • وقدمت الشاي • واستقرت السيدات في أماكنهن •
وهذه جماعة منهن تتحلق حول البيانو • ودعت زينا الى العزف والغناء
ولكنها أجابت في جفاف وخشونة بأنها مريضة • ان شحوب وجهها يبلغ
من الدلالة على مرضها أن السيدات أخذن يرثين لها ، ولكنهن انتهزن
هذه الفرصة ليلقين غمزات لا تخلو من بعض الوضوح • وسألن عن
موزجلياكوف موجّهات أسئلتهن الى زينا • وكانت ماريا ألكسندروفنا
تلاحظ كل ما يجرى في أركان الغرفة الأربعة باتباه شديد • ورغم أن
عدد الزائرات بلغ اثنتى عشرة سيدة ، فقد كانت ماريا ألكسندروفنا تجيب
عن أسئلة كل واحدة منهن بلا كلال ولا تخاذل • وكانت ترتجف خوفا
على زينا ؛ وأدهشها أن زينا لم تخرج من الغرفة ، على عادتها في استقبالات
أمها • وقد لوحظ أيضا وجود أناستازى ماتفتش ، فكانت السيدات تحب
أن تتحكم عليه رغبة منهن في لسع امرأته • كان وجوده فرصة مواتية

لاحراج هذا الرجل الطيب الذى هو أبسط من أن يستطيع الدفاع عن نفسه • فكانت ماريّا ألكسندروفنا تنظر بغير قليل من القلق الى الموقف الذى يُحمل زوجها على وقوفه ، وهو موقف الرجل المحاصر من كل جانب ؛ وكان الرجل مرتبكا أشد الارتباك ، وكان لا يزيد على الاجابة عن الأسئلة التى توجهها السيدات اليه بقوله « هيم » ، فكان فى هذا كله من الشؤم ما هو خليف بآثارة غضب ماريّا ألكسندروفنا الى حد الحنق الشديد المسعور •

صرخت تقول سيدة قصيرة جريئة ناقية النظرة لا تخشى أحدا ولا يث الاضطراب فى نفسها شئ • :

— ماريّا ألكسندروفنا ، ان آناستازى ماتفتش يرفض أن يكلمنا فأصدرى اليه أمرى بأن يكون أرقّ من ذلك فى معاملة السيدات !

فأجابت ماريّا ألكسندروفنا تقول مبتسمة الثغر متهللة الوجه وهى تقطع حديثها مع آنا نيكولايفنا وناتاليا دمترينافنا :

— لا أدرى ماذا أصابه اليوم ! لا أدرى لماذا هو اليوم صموت الى هذا الحد ! لم أستطع أن أحمله على أن يقول كلمة واحدة ! لماذا لانجيب فليساتى ميخائيلوفنا يا آناستازى ؟ ماذا سألته ؟

قال الرجل المسكين يدافع عن نفسه مروّعا :

— ولكن •• ولكن •• يا صديقتى الطيبة ، أنت التى •••

كان فى تلك اللحظة قائما ، قد جعل ظهره للمدفأة ، وصالب ذراعيه على صدرته فى وضع تزينى ، ونهيا لتذوق شايه • وكانت أسئلة السيدات قد بلغت من احراجهم أن وجهه احمر احمرارا شديدا كوجه فتاة • فلما حاول أن يشرح سبب صمته التقى بصره بنظرة زوجته ،

فرأى ما كان فى هذه النظرة من حنق ، فكاد يسقط مغشيا عليه • واذ لم يعرف ماذا يعمل ولا كيف يتصرف ، واذ أراد أن يسترد رصاته ووقاره واعتباره ، رشف رشفة من شايه ، ولكن الشئ كان لا يزال يغلى ، فحرق الرجل حلقه حرقا شديدا ، فترك الفئجان يسقط من يده ، واحتنق ، وأخذ يسعل سعالا بلغ من القوة أنه اضطر الى ترك الصالون ، فاضطرب الحضور من ذلك اضطرابا قويا • صفوة القول أن الأمور كانت واضحة • لقد أدركت ماريا ألكسندروفنا أن زائراتها ، وهن على علم بكل شئ ، لم يجتمعن عندها الا وهن يبيتن نيات سيئة • هذا ظرف من اخرج الظروف وادقها • ان فى وسعهن أن يحملن زوجها على الاسراف فى الكلام دون أن يكون لها حيلة فى منعه • ثم ان هذه السيدات قد يفسدن الأمور بينها وبين الأمير ، حتى لقد يجبرنه الى مكان آخر أثناء هذه السهرة نفسها • نعم ، ان عليها أن تتوقع كل شئ • ولكن القدر كان يخبئ لماريا ألكسندروفنا امتحانا جديدا : فها هو ذا الباب يُفتح ، وها هو ذا موزجلياكوف يدخل الصالون وكانت تظن أنه عند بورودوييف ولم تكن تنتظر أن تراه البتة • ارتجفت ماريا ألكسندروفنا كأن شيئا قد لسمعا • ووقف موزجلياكوف فى العتبة وتفرس وجوه السيدات بشئ من الحيرة والاضطراب • ولم يقدر أن ينتصر على الانفعال الذى كان يُقرأ واضحا فى وجهه •

صرخت أصوات تقول :

— آ ••• يا رب ! بافل ألكسندروفتش !

— آه ••• يا رب ! هو بافل ألكسندروفتش حقا ! ••• فما ذلك الكلام الذى قلته لنا اذن يا ماريا ألكسندروفنا ؟ أما يجب عليه أن يكون عند بورودوييف ؟ لقد قيل لنا انك مخبئ عند بورودوييف يا بافل ألكسندروفتش •

ذلك ما هتفت به ناتاليا دمتريفنا بصوت حاد كأنه النباح • فأجاب
موزجلياكوف يقول بابتسامة متصنعة :

- مختبئ؟ يا لها من فكرة ! عفوك يا ناتاليا دمتريفنا • أنا لا أختبئ
عند أحد ، ولا أنوى قط أن أفعل (أضاف بافل بافلوفتش ذلك وهو
يلقى على ماريّا ألكسندروفتش نظرة ذات دلالة) •

ارتعشت ماريّا ألكسندروفنا مزيدا من الارتعاش • وحدثت نفسها
قائلة وهى تتم النظر فى الشاب : « أليس من الجائز أن يكون هذا الأبله
قد عصي وتمرد ؟ اذا كان ذلك كذلك فهى الطامة الكبرى والبلاء
الأكظم ! » •

- بافل ألكسندروفتش ، أصبح أنك استقلت ••• من الوظيفة
طبعاً ؟

كذلك سألته فليساتى ميخائيلوفنا الوقحة وهى تغرس فى قرارة
عينيه نظرة ساخرة •

- استقلت ؟ أنا استقلت ؟ أبدا ••• وانما انتقلت من وزارة الى
وزارة أخرى • لقد وجدت وظيفة فى بطرسبرج •
بهذا أجاب موزجلياكوف فى جفاف وخشونة •

فتابعت فليساتى ميخائيلوفنا كلامها تقول :

- ها ••• طيب ••• أهتاك أذن • لقد جزعنا أشد الجزع حين
علمنا أنك تنوى الاستقرار فى مورداسوف ! ان الوظائف هنا لا مستقبل
لها يا بافل ألكسندروفتش ، وسرعان ما تطير !

صاحت ناتاليا دمتريفنا تقول :

— بل الوظائف هنا كثيرة ! ان وظائف مدرس في مدرسه المديرية
ما تزال شاعرة •

هذه غمزة واضحة قوية عنيفة ، تبلغ من الوضوح والقوة والعنف
أن آنا نيكولايفنا اضطرت أن تدوس خفية على قدم صديقتها التي أسرفت
في دس السم في كلامها •

وماءت فليساتى ميخائيلوفنا قائلة :

— أتحسين أن بافل ألكسندروفتش يمكن أن يرضى بوظيفه مدرس
صغير ؟

ولم يجد بافل ألكسندروفتش مايجيب به على هذا الكلام • واستدار
فاصطدم بأناستازى ماتفتش فمد اليه هذا يده يريد أن يصفحه • ولكن
موزجلياكوف ، بدلا من أن يصفح اليد الممدودة اليه ، انحنى انحناء
قويا حتى صار نصفين ، متكلفا الاحترام الساخر والتعظيم المستهزئ •
وكان قد بلغ من الحق أنه مضى رأسا الى زينا ، ففرس في عينيها ودمدم
يقول :

— أنت أردت هذا كله • انتظري ! لأرينك في هذا المساء نفسه
هل أنا غبي أبله !

قال موزجلياكوف ذلك وأسرع يتقهقر مذعورا من رنة صوته
العالية •

وعزمت ماريا ألكسندروفنا أمرها أخيرا فسألته :

— أأنت عائد من عند بورودوييف ؟

— بل من عند عمى •

— من عند عمك ؟ أكنت اذن مع الأمير ؟

قالت ناتاليا دمتريفنا وهي تنظر الى ماريا ألكسندروفنا متفجعة :

— فالأمير اذن مستيقظ وقد قيل لنا انه نائم ؟ ...

فأجاب موزجلياكوف :

— لا تقلقى على الأمير يا ناتاليا دمتريفنا ! لقد صحا من نومه الآن ؛
وأحمد الله على أنه استرد عقله كاملا • لقد سقى خمرا طول النهار ؛
عندك أولا ، ثم هنا للإجهاز عليه ، فبلغ من السكر أنه فقد رشده ، وما
هو بالراشد كثيرا حتى قيل أن يسكر • غير أن حديثا طويلا جرى بيني
وبينه الآن ، فعاد يفكر تفكيرا سليما من حسن الحظ • وسينزل بعد هنيهة
ليحييك يا ماريا ألكسندروفنا وليشكر لك حسن الوفادة وكرم الضيافة •
وغدا نسافر معا منذ الفجر الى الدير ، ثم أنقله من هناك بنفسى الى
دوخانوف لأجيبه وقعةً أخرى كوقعة هذا الصباح • وهناك أسلمه يدأ
بيد ان جاز التعبير ، فان ستيانيد ماتقثفنا لا بد أن يكون قد عادت الآن من
موسكو ، ولن تدع له أن يسافر بعد الآن مهما يكن العذر • ذلك أمر
أضمنه منذ الآن •

كان موزجلياكوف ، وهو يقول هذا الكلام ، يرشق ماريا
ألكسندروفنا بنظرة عداوة ، فكانت ماريا ألكسندروفنا تبدو متجمدة من
فرط الدهول • يجب أن أعترف ، وأنا أشعر بشيء من المرارة ، أن
بطلتنا قد ألم بها جزع وهلع ، ربما لأول مرة فى حياتها •

سألت ناتاليا دمتريفنا ، مخاطبةً ماريا ألكسندروفنا :

— اذن يسافر غدا ، فى الفجر ؟

وأضافت آنا نيكولايفنا تقول وهي تتصنع البراءة والسذاجة :

— كيف يمكن هذا ؟

ورددت عدة زائرات تقول بسذاجة :

- كيف يمكن هذا ؟ لقد سمعنا أن الامير ... حقا ... ذلك أمر لا يتصوره العقل !

لم تعرف ربة الدار بماذا تجيب • ولكن انتباه الحضور جميعا لم يلبث أن استيقظ فجأة على نحو غريب لم يكن في الحسبان • لقد سمعت ضجة عجيبة تقوم في الغرفة المجاورة • وأعقب الضجة صرخات حادة • ثم ظهرت صوفيا بتروفا كاربوخينا بفتة في الصالون • ان الناس في مورداسوف يعدون صوفيا بتروفا أشد سيدات المدينة قطعا • وكان شذوذها من نوع جعل سيدات المدينة يقررن منذ زمن طويل أن ينقطعن عن استقبالها في بيوتهن • ويجب أن نذكر هنا أن هذه السيدة كانت في كل مساء • عند الساعة السابعة تماما • تتناول وجبه خفيفة • تحاشيا لمخض في معدتها كما تقول • فمتى تناولت هذه الوجبة الخفيفة أصبحت في حالة نفسية « طلقة » • حتى لا أقول أكثر من ذلك • وفي هذه الحالة النفسية بعينها انما كانت حين هرعت مسرعة الى منزل ماريا ألكسندروفنا • صاحت تقول بصوت مجلجل يُسمع من أول الغرفة الى آخرها :

- آ ... أهكذا أنت اذن يا ماريا ألكسندروفنا ؟ أهكذا تعامليننى اذن ؟ لا تخافى ! لن أمكث الا دقيقة واحدة • لا • لا أحب أن أجلس قط • وانما جئت لأعلم هل صحيح ما يقال ! ألا انه اذن لصحيح ! آ... هي في منزلك سهرة خطوبة ... ترقصون وتولون وتفرحون • بينما صوفيا بتروفا في منزلها تحيك ! دُعيت المدينة كلها الى الحفلة الا أنا • لقد وصفتنى بأننى صديقتك العزيزة و « ملاكك » الغالى حين جئت أنبئك بما يدبرونه للأمير عند ناتاليا دمتريفنا ؟ ثم ها هي ذى ناتاليا دمتريفنا نفسها التى كنت تقولين فى حقها وكانت تقول فى حقك ما يوجب أكثر

من الشبق ، ها هي ذى نفسها تزورك الآن ! لا تقلقى علىَّ يا ناتاليا
دمتريفا ! لست فى حاجة الى شكولاتتك ، « ماركة الصحة » ، التى
يباع القضيب منها بقرش ! ... نقى أنى أشرب منها فى بيتى أكثر مما
تشرين ! ...

قالت ناتاليا دمتريفا :

- حقا ، هذا واضح !

وصرخت ماريا ألكسندروفنا تقول وقد احمرت من الغيظ :

- ماذا دهالك يا صوفيا بتروفا ؟ هلاًّ ثبت الى صوابك على الأقل ؟

- وأنت أيضا لا تقلقى علىَّ يا ماريا ألكسندروفنا ! أنا أعرف كل
شئ ، كل شئ ... علمت بكل شئ ... (كذلك صرخت صوفيا بتروفا
تقول بصوتها الحاد الثاقب ؛ وقد طربت الزائرات لهذا المشهد فتحلقن
حولها) . نعم ، علمت بكل شئ ! جاءتنى صاحبك أناستازى مسرعة
فقصت علىَّ الحكاية . اصطدت هذا الأمير الذى يساوى أربعة قروش ،
فما زلت تسقيه الخمر وتسكrine حتى حملته على خطبة إبتك التى كانت
ستبور . نعم ، وتتصورين أنك ستصبحين أنت نفسك شخصية مرموقة
عالية المقام رفيعة المنزلة ، أنك ستصبحين دوقة تترين بفاخر الثياب وجميل
الحلى ! هه ... لا تجزعى ... أنا لا يهمنى أن أصبح دوقة أنا ! ...
أنا كولونيلة ! واذا لم أَدع الى حفلة الخطوبة ، فلست أعبا بهذا ولا
أكثر له . لقد عاشرت أناسا أوسع منك ثراء وأعلى مقاما ! تعيش عند
الكوتيسة زاليخفاتسكى ، وأراد المفوض كوروتشكين أن يتزوجنى .
أفأنتظر بعد هذا دعواتك القذرة ! هه ...

أجابتها ماريا ألكسندروفنا وقد خرجت عن طورها :

- صوفيا بتروفا ! لا تفتحي باب منزل محترم حين تكونين « في مثل هذه الحالة » • واذا لم تريحيني من حضورك ومن كلامك فوراً ، فسأجدي مضطرة لاتخاذ بعض الاجراءات •

- أعرف • ستأمرين خدمك بافتيادي ؟ لذلك أعود فأقول لك : لا تزعجي نفسك ، سأجد الباب وحدي بغير دليل يرشدني اليه • زوجي ابتك لمن تشائين ! أما أنت يا ناتاليا دمتريفا ، فلا حاجة بك الى هذه السخرية كلها • انني لا أعبأ بشكولاتك ! أنا لا أصلح لأن أُدعى الى هنا ، ولكنني لا أرقص رقص القوازي لأسليّ الأمراء واسرّي عنهم • وأنت يا آنا نيكولايفنا ، ممّ تضحكين ؟ لقد كسرت ساق سوشيلوف منذ هنيهة ، فأعيد الى منزله • وأنت يا فليساتي ميخائيلوفنا ، اذا لم تأمرى صاحبك ماتريوشكا بأن تطرد بقرتك التي تجيء تجأرت تحت نوافذى كل يوم ، فلاأكسرنّ ساقى هذه « الحفياته » ! الى اللقاء يا ماريا ألكسندروفنا ، أتمنى لك كثيراً من السعادة ! هه •••

وغابت صوفيا بتروفا • وانفجرت السيدات ضاحكات • وأصبحت ماريا ألكسندروفنا لا تدرى أين تفور !

سألت ناتاليا دمتريفا بصوت يتصنع الرقة :

- لا شك أنها سكرى ، أليس كذلك ؟

- هذه وقاحة رغم كل شيء !

- يا لها من امرأة كريهة !

- ما أقل كياستها !

- ولكن لماذا تكلمت عن خطوبة ؟ أية خطوبة تعني ؟

كذلك سألت فلستيا ميخائيلوفنا مستهزئة •

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول وقد نفذ صبرها وانفجرت آخر

الأمر :

- ألا انه لشيء كريه جدا ! ان نساء ممسوخات من هذا النوع هن اللواتى يسكنن بالقواديس هذا القدر كله من الشائعات البلهاء ! لا يا فليساتى ميخائيلوفنا ! لا غرابة فى أن تقع على سيدات من هذا النوع فى مجتمعنا ! وانما الغرابة فى أن هناك أناساً هم فى حاجة الى هاته السيدات ، والى الاستماع لهن ، والى دعمهن ، والى تصديقهن ...

صرخت الزائرات فجأة تقول :

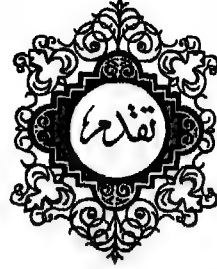
- الأمير ! الأمير !

- آه ... يا الهى ! الحمد لله ! سوف نعرف الحكاية الطريفة كلها

الآن *

بهذا وشوشت فليساتى ميخائيلوفنا جارتها *

الفصل الثالث عشر



الأمير مبتسماً في تल्प وتودد • ان كل الخوف
الذى زرعه موزجياكوف منذ ربع ساعة في
نفسه الهلعة كدجاجة قد اختفى عند رؤية
السيدات ؟ فسرعان ماتميع كالرب الذي ينوب
في الفم ذوبانا • وقد استقبلته السيدات بصرخات فرح حادة ؟ وأخذن
يتملقن صاحبنا الشيخ القصير بغير انقطاع ، ويعاملنه بألفة بالغة وبغير
كلفة أو تحرج • ان شخصيته تسليهن كثيرا • وكانت فليسانى ميخائيلوفنا
قد أكدت في صباح ذلك اليوم نفسه - على سبيل المزاح طبعاً - أنها
مستعدة أن تقعد على ركبتيه اذا كان ذلك يمكن أن يسره وأن يبهجه • •
نعم انها مستعدة أن تقعد على ركبتى « هذا الشيخ القصير اللطيف ،
اللطيف الى حد لا يصدق العقل ! » • وهذه ماريا ألكسندروفنا ، التى
تحضنه بعينها ، تحاول أن تقرأ في وجهه وأن تدرك من نظراته مخرجا
من الموقف الحرج الذى كانت فيه • كان واضحا أن موزجياكوف قد
قارف منذ قليل شراً رهيباً وأن القضية كلها ستترنح على قواعدها ترنحا
قوياً حتى لتوشك أن تتداعى • ولكن لم يكن من الممكن أن يُقرأ شئ
فى وجه الأمير الذى كان فى تلك اللحظة على ما كان عليه من قبل ، على
ما كان عليه دائما •

صاحت سيدات تقول :

— آه ... يا الهى ! هذا هو الأمير ! كنا ننتظرك ، كنا ننتظرك !

وأضافت أخريات :

— بفارغ صبر يا أمير ، بفارغ صبر !

فقال الأمير متغنجاً وهو يجلس الى المائدة التى كان يقف عليها سماور

الشأى :

— هذا يسرنى كثيراً •

وسرعان ما أحاطت به السيدات وتحلقن حوله ، فلم يبق بجانب

ماريا ألكسندروفنا الا آنا نيكولايفنا و ناتاليا دمتريفنا •

وكان أناستازى ماتفتش يتسم باحترام • وكان موزجلياكوف

يتسم هو أيضاً ، ويحدث بنظرة وقحة الى زينا التى كانت قد جلست

قرب أبيها أمام المدفأة ، دون أن تنبه أى انتباه الى مكر موزجلياكوف •

صأت فليساتى ميخائيلوفنا شاكية تقول :

— آه يا أمير ! هل صحيح أنك تريد أن تبارحنا ؟

— طبعاً طبعاً يا سيداتى ، أنا مسافر • أريد أن أسافر الى الخارج

فو • • • را • • •

صاح كورس السيدات كله قائلاً :

— الى الخارج يا أمير ؟ الى الخارج ؟ لماذا ؟

فردد الأمير يقول متلطفاً :

— نعم الى الخارج ؟ أريد أن أذهب الى الخارج لاستمد أفكارا

جديدة •

قلت السيدات وهى تتبادل النظرات :

— أفكارا جديدة ؟ فى أى أمر ؟ فى أى موضوع ؟

— طبعا طبعا ... أفكارا جديدة ... كل الناس يسافرون الآن الى الخارج لهذا الغرض وبهذه النية • هذا هو السبب فى أننى أريد أن أسافر أنا أيضا •

قال موزجلياكوف الذى كان يحرص على أن يظهر ما يملك من روح الفكاهة وحضور البديهة أمام الجنس اللطيف :

— لا أحسب مع ذلك أنك ستتنمى الى الماسونية يا عمى !

فأجابه الأمير اجابة لم تكن متوقعة • قال :

— طبعا طبعا يا صديقى ، ما أنت بمخطئ • لقد سبق فعلا أن انتميت فى الخارج الى جمعية ماسونية ، فجنيت من ذلك كثيرا من الأفكار الكريهة • وأردت عندئذ أن أعمل بقوة فى سبيل الافكار الجديدة • ففى فرنكفورت مثلا أردت أن أعتق خادمى سيدور الذى كنت قد اصطحبته • فما كان أشد دهشتى حين هرب من تلقاء نفسه ! كان سيدور رجلا غريب الأطوار حقا ! وهأنذا ألقاه فى باريس بعد سنة من ذلك : ما كان أثقل دمه ! كان بلحيتين فى العارضين ، وكان يذرع الجادة الكبرى مصطحبا « مدموزيلا » ، وكانت المدموزيل قد غاض ماء الحياء فى عينها ، صدقنى ! آه ... يا لها من وغدة ! يا لها من وبشة !

صرخ موزجلياكوف يقول وهو يقهقه قهقهة مجلجلة :

— عليك اذن فى هذه المرة يا عمى أن تعتق جميع أقنانك قبل سفرك الى الخارج !

فقال الأمير دون أن يلاحظ فى كلام موزجلياكوف أى تخايب :

- طبعاً يا عزيزى ! لقد حذرت عين الحقيقة ! أريد أن أعتقهم جميعاً !

صرخت فليساتى ميخائيلوفنا تقول :

- اسمح لى يا أمير : انهم سيهربون فوراً ، فمن ذا الذى يدفع لك عندئذ ربيع أراضيك ؟

قالت آنا نيكولايفنا قلقة :

- لا شك أنهم سيهربون جميعاً •

فصرخ الأمير يقول مدهوشاً :

- آه ... يا رب ! هل يمكن أن يهربوا جميعاً ؟

فألحت ناتاليا دمتريفنا قائلة :

- يهربون جميعاً وتبقى وحيداً •

قال الأمير :

- لن أعتقهم اذن ! على أن ما قلته لم يكن الا كلاماً ...

فقال موزجلياكوف بدوره :

- ذلك أفضل يا عمى !

حتى تلك اللحظة ، كانت ماريا ألكسندروفنا تصنى الى الحديث وتراقب الجمع دون أن تقول شيئاً • وخيّل اليها أن الأمير قد نسيها نسياناً تاماً ، وأن هذا النسيان غير طبعى • فبدأت تقول بصوت عال وهيئة وقورة :

- ائذن لى يا أمير أن أقدم اليك زوجى آناستازى ماتفتش • لقد جاء من العزبة خصيصاً منذ علم بأنك شرفت منزلى بحضورك •

تغطفرف أناستازى ماتفتش كأنما قد كيل له مديح ، وابتسم واتخذ
وضعا نبىلا •

قال الأمير :

– تشرفت • آناستازى ماتفتش ! تذكرت ••• تذكرت •••
آناستازى ماتفتش ! طبعاً طبعاً ، هو الذى يقيم فى العزبة • جميل •••
جميل ! ••• تشرفت •

ثم هتف الأمير يقول مخاطباً موزجليا كوف :

– هل تذكر يا صديقى ؟ ذلك يتفق تماما مع الجملة المقفاة المأثورة
التى كنت أفتش عنها منذ قليل • كيف كانت الجملة ؟ « الزوج على الباب
والزوجة ••• » طبعاً طبعاً ••• « ذهب الزوج الى المدينة ، فأسرعت
الزوجة تذهب الى مكان آخر ••• » •

قالت فليساتى مؤيدة :

– هو كذلك يا أمير : « عاد الزوج من رحلته ، فلم يجد امرأته
فى بيته » • كان ذلك فى المسرحية الهزلية التى مثلناها هنا فى العام
الماضى •

– طبعاً طبعاً ! صحيح ! لقد نسيت الجملة ! جميل ••• جميل ! •••
اذن هذه حالكما أنتما ! تشرفت كثيراً بمعرفتكم ••• كيف صحتك ؟

قال الأمير ذلك دون أن يتحرك عن مقعده وهو يمد يده الى
آناستازيا ماتفتش المبتسم •

– هيم •••

– صحتة جيدة جداً ، جيدة جداً •

كذلك أسرع تيجيب ماريا ألكسندروفنا •
قال الأمير :

- طبعاً طبعاً ! واضح أن صحته جيدة • اذن أنت تقيم دائماً في
العزبة ؟ تشرفت ••• تشرفت ••• ما أجمل خديه الحمراءوين ! وما
أحسن ابتسامة !

انحنى آناستازى ماتفتشش المبسم ، حتى لقد قرع كعبيه أحدهما
بالآخر • ولكنه اضطرب عند سماع الملاحظة الأخيرة التى عبّر عنها
الأمير ، فلم يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل ، ثم اذا هو ينطلق فى ضحكة
بلهاء لا محل لها ولا داعى اليها • وانطلق الجميع يقهقهون معه ، فكانت
السيدات توعوع من شدة الفرح •

تخضّب وجه زينا بحمرة شديدة ، وقدحت عيناها شرراً ، ونظرت
الى أمها التى كانت من جهتها تغلى حقناً • لقد آن أوان صرف الحديث
عن هذا الاتجاه •

سألت ماريا ألكسندروفنا الأمير بصوت مكظوم وهى ترشق
آناستازى ماتفتشش بنظرة مهددة متوعدة ، فسرعان ما يعود الزوج يقبع
فى مكانه •

- هل نعمت بقلولة طيبة يا أمير ؟

فأجابها الأمير :

- آ ••• طبعاً طبعاً ، نعمت براحة عظيمة ، وحملت حلماً رائعاً ،
نعم ••• رائعاً ! •••

هتفت فليساتى ميخائيلوفنا تسأله :

- ها ••• حملت ؟ انتى أحب سماع رواية الأحلام حبا شديدا •

وأضافت ناتاليا دمتريفنا :

— وأنا أيضا ، أحب سماع رواية الأحلام •

فردد الأمير يقول وهو يتسهم ابتسامة شرهة :

— حلم رائع ! ... را ... نع ! ولكن ذلك سر كبير ! ...

فقالت آنا نيكولايفنا بصوت هامس :

— أأئن تقول لنا شيئا عن هذا الحلم اذن يا أمير ؟ لا بد أن يكون

حلما رائعا حقا !

فقال الامير وقد أبهجه فضول السيدات :

— هو سر كبير !

فصرخت السيدات قائلات :

— لا بد أن يكون سماعه شائقا مثيرا •

وهتفت فليساتي ميخائيلوفنا :

— أراهن أن الامير رأى نفسه في المنام يغازل فتاة جميلة ، ويركع

أمامها • هيّا يا أمير ! اعترف بأن هذا ما حلمت به !

فقال الامير أخيرا :

— طبعا طبعا ... فرغم أن الحلم الذي رأيته سرّ من الأسرار يجب

أن أعترف لك يا سيدتي بأنك كدت تحزرين •

فقالت فليساتي ميخائيلوفنا متحمسة :

— لا بد أن أحزر طبعا • وانما عليك الآن أن تقول لنا يا أمير : من

هى تلك الحسناء الفاتنة التى رأيته فى حلمك ؟

— اعترف فورا !

- أهى موجودة بيننا ؟
- اعترف أيها الامير العزيز !
- اعترف أيها الامير اللطيف • انك تقتلنا قتلا ! هيا اعترف ! ...
- كذلك تعالت الهتافات من كل حذب وصوب •
- قال الأمير وقد رقّ قلبه :
- سيداتى ، سيداتى ، اذا كتنن تحرصن هذا الحرص على أن
أذكر لكن بعض الايضاحات فأننى لا أستطيع مع ذلك أن أقول لكن الا
شيئا واحدا هو أنها بين الفتيات أجملهن جمالا وأكملهن كمالا •
- قال الامير ذلك متدا فى الكلام ، متأنيا فى النطق •
- أجملهن جمالا ؟ ... وهى من هنا ... فمن عساها تكون ؟
- كذلك سألت السيدات وهن ما زلن يتبادلن نظرات ذات معنى •
- قالت ناتاليا دمتريفنا ، وهى تفرك راحتيها الضخمتين الحمراءين
وتسدّد نحو زيننا نظرة ناعمة :
- لا بد أن تكون هى الفتاة التى تُعدُّ هنا أجمل فتيات المدينة •
- قالت فليساتى ميخائيلوفنا وهى تلف الحضور بنظرة بليغة الدلالة
زاخرة بالمعانى :
- فاذا كنت قد حلمت حلما جميلا هذا الجمال كله يا أمير ، فلماذا
لا تتزوج وقد استيقظت ؟
- فصاحت سائر السيدات :
- آه ... ما أكثر ما سيسعدنا أن نراك متزوجا ! ...
- وتعالى الصياح من كل جانب :
- هلاّ تزوجت اذن يا أميرنا العزيز !

قال الامير فى مثل رجع الصدى مدعنا لهذه الصيحات :

— طبعا طبعا •

فأسرع موزجلياكوف يتدخل قائلا :

— عمى •

فأجابه الامير :

— طبعا طبعا يا صديقى ! ••• أنا أسمعك •••

ثم أردف يخاطب السيدات :

— انما أردت أن أقول لكن يا سيداتى اننى لست فى حالة تمكنى من أن أتخذ لنفسى امرأة • لذلك فانى بعد أن أقضى سهرة را •• ثمة عند مضيقتنا اللطيفة سأرحل غدا الى صومعة الأب ميسايل ، ثم أسافر من هناك رأسا الى الخارج لأشارك فى حضارة أوروبا كما ينبغى •

انكفأ لون زينا ، ونظرت الى أمها نظرة فيها من الحزن ما لا سيل الى وصفه • ولكن ماريا ألكسندروفنا كانت قد عزمت أمرها واتخذت قراراتها • لقد لبثت حتى ذلك الحين ترقب الموقف وتنظر ما عسى يحدث رغم ادراكها أن الأمور قد فسدت وأن الأحوال قد سامت وأن أعداءها قد انتصروا عليها انتصارا كبيرا ؟ فلما اتضح أمام عينيها كل شيء على حين فجأة قررت أن تهوى بضربة قوية مدمرة على الأفعى ذات الرموس المائة • فلها هى ذى تنهض من مكانها بوقار وأبهة ، وتقرب من المائدة بخطى ثابتة ، وتلقى على الأقدام ، أعدائها ، نظرة متكبرة • ان نار الوحى والالهام تسطع فى عينيها • لتصعق هؤلاء الثرثرات النمامات السامات صعقا ؟ لتسحقن هذا الموزجلياكوف الوجد كما يسحق صرصور ؟ ولتستردن ، بالضربة الحاسمة التى ستضربها ، سلطانها على هذا الامير الأبله فى ثلاثة أرباعه ! وواضح أنه لا بد لهذا من جرأة غير عادية ،

ولكن الجرأة لا تعوز ماريا ألكسندروفنا أبداً. وها هي ذى تقول متفخمة
مشددة كلماتها (ولقد كانت ماريا ألكسندروفنا تملك قدرة كبيرة على
اتخاذ الاوضاع المتفخمة) ، ها هي ذى تبدأ كلامها فتقول :

- سيداتى ، لقد أضغيت صابرة الى حديثكن المزيّن بالامازيح
المرحة ، واحسب انه قد أن لى أن أقول لكن شيئاً من عندى • آتن
تعلمن ان المصادفه وحدها جمعتنا (وأنا بذلك سعيدة ، سعيدة كل
السعادة ! ! ••• وما كان لى قط أن أقرر أن أكون البائدة باطلاعكن
على سرّ أسرتى ، وبذاذعته ونشره قبل الاوان الذى توجه به المواضعات
الاجتماعية الصارمة ؛ وأنا لذلك أستمح ضيفنا العزيز عذرا قبل كل
شيء ، ولكننى أتصور أنه لا بد أن يشاطرنى رأى بعد كل الغمزات التى
سمعتها ، فبدلاً من أن يسوء كلامى ، سوف يسره أن أشرح الامر
صراحة ، بل لا بد أن يكون راغباً فى هذا حريصاً عليه • أليس ذلك
صحيحاً يا أمير ! أنا مخطئة ؟

أجاب الامير متمتما دون أن يفهم الامر :

- لا ••• لست مخطئة ••• يشرفنى جدا ، يشرفنى جدا •••

واذ أرادت ماريا ألكسندروفنا أن تعزز تأثيرها وتقوى موقفها ،
فقد توفقت عن الكلام تسترد أنفاسها وتنظر الى مستمعاتها • كنّ جميعاً
يشربن أقوالها شرباً ، ويشعرن بفضول واحد وقلق واحد • وكان
موزجليا كوف قد انتفض مرتاعاً • وكان آناستا زى ماتفتش قد قطب
حاجبيه ومخط أنفه بانتظار الكشف عن سرّ خارق •

واستأنفت ماريا ألكسندروفنا كلامها قائلة :

- نعم يا سيداتى ، اننى لأشعر بفرح وأنا أنهيأ لظهاركن على سر

أسرنا : فى هذا اليوم ، بعد الغداء ، شرف الأمير ابنتى بخطبتها زوجة له اذ فته جمالها وفته مزاياها •

ثم ختمت كلامها مخاطبة الأمير بصوت مختلج متهدج والدموع غلاً عينها :

— ما ينبغى لك يا أمير أن تستاء من قلة تحفظى ، فان الفرح الطافح وحده ، فرح الأم بسعادة ابنتها ، هو الذى انتزع من قلبى هذا السرّ الجميل قبل اللحظة المرسومة ... وأى أمر يمكن أن تلومنى فى مثل هذا الظرف ؟

اننى لا أجسد الكلمات التى يمكن أن تصف الأثر الذى أحدثته اعتراف ماريا ألكسندروفنا هذا • لكن كل واحد قد تجمّد دهشة عند سماع هذا الكلام • ان هاته الزائرات الوقحات اللواتى توطأن على احراج ماريا ألكسندروفنا باطلاعها على أنهن يعرفن سرّها ؛ وتوطأن على السخرية منها باظهارها بمظهر من يخفى سرّاً يعرفه جميع الناس ؛ ان هاته الزائرات اللواتى أردن أن يحيّرنها بغمزاتهن ولمزاتهن وأن يبتثن فى قلبها القلق والجزع ، قد صمقهن هذا الاعتراف الجرىء صمقا • ان مثل هذه الجسارة فى الصراحة تحمل فى ذاتها برهانا على النصر وثقة به وبقينا منه • « اذن فقد خطب الأمير الفتاة حقا ؟ اذن ، فهو يتزوج زينا بإرادته ، لم يضلّل ولم يغرّر به ولم يُفتن ولم يُسكر ؟ اذن لم يدفع الى الزواج بالحيلة والمكر والدهاء ؟ اذن ليس على ماريا ألكسندروفنا أن تخشى أحدا ؟ اذن ما دام الأمير لم تُفرض عليه الخطبة فرضاً ، فليس فى الامكان صرفه عن هذا الزواج وثنى عزمه عن اتمامه ؟ » • وانقلب التهامس العام الشامل الذى أعقب كلام ماريا ألكسندروفنا ، انقلب فجأة الى صيحات فرح حادة • وبادرت ناتاليا دمتريفنا فكانت أول من ارتمت على

عنق ماريا ألكسندروفنا تعانقها ، ثم فعلت مثل ذلك أنا نيكولايفنا وفليسانى ميخائيلوفنا • وفد وثبت جميع السيدات عن مقاعدهن واندفعن الى أمام • وكانت عدة سيدات منهن قد امتقع لون وجوههن مع ذلك من شدة الحلق • وأخذ الجميع يهشون زينا التى كانت مضطربة أشد الاضطراب • حتى لقد تشبها بآناسازى ماتفتش • وشقت ماريا ألكسندروفنا طريقها الى ابنتها فاحتضنتها بحركة مسرحية • أما الأمير فكان يتأمل هذا المشهد بدهشة غريبة • انه ما يزال يبتسم ، وقد سره ما كان يجرى وأبهجه ؛ حتى أنه حين رأى القبلات التى تطبعها الأم على وجنتى ابنتها أخرج منديلته ليخفف دمة ظهرت فى زاوية عينه • وأسرع الحفل اليه يهنئه هو أيضا كما تقدرون ، فكانت الأصوات تتعالى من كل صوب قائلة له :

– تهانينا كلها يا أمير ، تهانينا كلها يا أمير •

– هل تنوى اذن أن تتزوج ؟

– هل تنوى أن تتزوج حقاً ؟

– هل عزمتم على الزواج أيها الأمير اللطيف ؟

أجاب الأمير الذى جعلته هذه الملاحظات مرحا ضاحكا :

– طبعاً طبعاً ! يجب أن أقول لكن اننى مفتتن كل الافتتان بما تظهرن

لى من كياسة ولطف ، واننى لن أنسى لكن هذا ما حيت • رائع ! رائع !

لقد أثرتن فى نفسى تأثيراً شديداً ترقرت له دموعى !

هتفت فليسانى تقول بصوت أعلى من صوت الجميع :

– قبلنى يا أمير !

تابع الأمير كلامه يقول بينما جميع السيدات يقاطعنه !

– ويجب أن أقول لكن اننى مذهول مدهوش الى أبعد حدود

الذهول والدهش • ان ماريا ايفانوفنا ، مضيفتنا الكريمة ، قد حزرت
الحلم الذى رأيته ببراعة لا يتخيلها الخيال ، حتى لكأنها كانت معى حين
رأيت ذلك الحلم • فيالها من براعة قوية ، وياها من بصيرة نافذة ! يالها
من بصيرة ناء..فذة ! ...

– آه يا أمير ، أتعود الى الكلام على حلمك ؟

– هلاًّ اعترفت بالوقائع يا أمير ! هلم اعترف بها •

كذلك صاحت تهيب بالامير جميع السيدات •

قالت ماريا ألكسندروفنا بلهجة قاسية جازمة :

– نعم يا أمير ، لم يبق ثمة ما يجب اخفاؤه وكتمانه ، آن لنا أن
نظهرهن على سرّنا • لقد أدركت أنا ما عمدت اليه من تورية لطيفة
ورهاقة فروسية فى سبيل أن تفهمهن أنك خطبت ابنتى ! نعم ياسيداتى !
ان ما قلته لكن صحيح • ففى هذا اليوم نفسه ، جثا الامير أمام ابنتى ،
وخطبها فى الواقع لا فى الحلم •

قال الامير مؤكدا :

– تماما كما لو كان ذلك قد جرى فى الواقع لا فى الحلم ؛ وتاما
فى هذا الاطار نفسه •

ثم التفت نحو زينا فتابع كلامه يقول لها فى مودة عظيمة ولطف
كبير ، وهى لما تفق من ذهولها بعد :

– يا آتسة ، يمينا ما كان لى أن أسمح لنفسى بالاشارة اليك لولا أن
سبقنى غيرى الى ذلك • ولقد كان حلما رائعا فى حقيقة الامر ، نعم كان
حلما را .. ثما ؛ واننى لسعيد سعادة مضاعفة اذ كنت شريكى فى هذا
الحلم • جميل ! جميل !

همست آنا نيكولايفنا فى أذن ماريا ألكسندروفنا التى تشعث وجهها
من شدة الانفعال :

— هل تدركين ما معنى هذا ؟ انه لا يتكلم الا عن حلمه !
ولم تكن ماريا ألكسندروفنا فى أية حاجة الى هذا الانذار ،
وا أسفاه ! لقد كان انقباض صدرها يشتد ثم يشتد •

وتهايمست السيدات وهى يتبادلن النظرات من جديد :
— ماذا هنالك اذن ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا متبسمة ابتسامة هى الى التصغير أقرب :
— اسمح لى يا أمير • انك تذهلنى حقا ! ما معنى كلامك هذا عن
حلم حلمته ؟ يمينا لقد كنت أظنك حتى الآن مازحا لا جداد • فاذا كنت
تمزح ••• اذا كنت تمزح ، فقد طالت هذه المزاحة ••• واننى لا ريد ،
واننى لأرغب أن أردّ ذلك كله الى شرودك ، ولكن •••
قالت ناتاليا دمتريفنا :

— قد يكون للشرود دخل فى هذا مع ذلك !

فقال الامير مؤيدا ، وهو ما يزال لا يفهم ما يراد منه :
— طبعا ، ذلك جائز جدا • اسمعوا : سأقص عليكم نكتة • دُعيت
مرة فى بطرسبرج الى ماتم لدى أناس كرام • انه منزل بورجوازى ،
لكنه محترم • فأخطأت فى الأمر فظننت انهم يحتفلون بعيد اسم الشخص
الشاب المتوفى • وكان عيده قد انقضى عليه أسبوع واحد على كل حال •
فأمّرت بطاقة من زهر الكاميليا ، ومضيت الى منزل المتوفى ، فماذا رأيت ؟
رأيت رجلا ضخّم الجثة عريض المنكبين ، محترما جدا ، رأيته منددا
على نعش ! دُهِشت ، فلم أعرف ماذا أصنع حقا بطاقة الزهر •••

قاطعته ماريا ألكسندروفنا قائلة في حزن وأسى :

- يا أمير ، ليس هذا أوان رواية التكت • ان ابنتى لم تسع يوما الى من يخطبونها ؟ ولكنك منذ برهة ، هنا قرب هذا البيانو قد صرحت لها بحبك وخطبتها ، لم يحضك أحد على هذا ولا دفعك اليه • ويمكن القول اننى انا التى تحيرت ••• وسرعان ما وافقتى فكرة ••• فكنت لا أنتظر الا صحوك حتى أضع الامور فى نصابها • انا أم يا أمير ، وهى ابنتى ، وانك لتفهم هذا ••• لقد تحدثت منذ لحظة عن حلم رايته ، فقدرت انا أنك أحببت بالتورية أن تطلع هؤلاء السيدات على خطبتك • واننى لاعرف ذهولك وشروذك حق المعرفة ؟ حتى اننى أحزر على وجه الدقة من الذى غير رايتك وصرفك عن عزمك ••• غير أن عليك أن تشرح الأمور يا أمير ، عليك أن تشرح الامور بأقصى سرعة شرحا مناسباً ، فليس يجوز المزاح على هذا النحو فى منزل محترم •••

ردد الامير يقول على غير شعور ، وان يكن فال ذلك وفد ألم به قلق ما ينفك يزداد :

- طبعا طبعا ، لا يجوز المزاح على هذا النحو فى منزل محترم •

- انك لم تجب عن سؤالى يا أمير ! فانما يجب عليك أن تشرح الأمور • فهلا أكدت الان ، بحضور الجميع ، انك قد خطبت ابنتى زوجة لك •

- طبعا طبعا ، أنا مستعد لأن أؤكد ذلك ••• لقد سبق لى أن قلت هذا ، ولقد حزرت فليساتى ياكوفليفنا الحلم الذى رأيته حزراً صحيحاً • صرخت ماريا ألكسندروفنا وقد بلغت ذروة الحق :

- لم يكن ذلك حلما يا أمير ! ما هذا الكلام الذى تقول ؟ لم يكن ذلك حلما بل كان واقعا ... أأنت تسمع ؟ لقد كان ذلك واقعا لا حلما !

فصاح الأمير يردّد مدهوشا وهو ينهض عن مقعده :
- واقعا لا حلما ؟

ثم أضاف وهو يلتفت نحو موزجليا كوف :
- أرايت يا صديقى ؟ ان كل ما تنبأت لى به قد وقع • أيتها السيدة المحترمة ماريا ستيانوفنا ، أؤكد لك أنك مخطئة • أنا واثق كل الثقة أن ذلك كان حلما لا واقعا !

- يا رب ! يا رب !

كذلك صاحت ماريا ألكسندروفنا •

واعتقدت ناتاليا دمتريفنا أن عليها أن تقول كلمة • فاندفعت تقول :
- لا تحزنى لأمر يسير يا ماريا ألكسندروفنا ... ان من الجائز أن يكون الامير قد نسي ، ولكن ذاكرته ستعود اليه •
فأجابت ماريا ألكسندروفنا مستاءة :

- انك لتدهشيننى يا ناتاليا دمتريفنا • أهذه أمور تُنسى ؟ كيف يمكن أن تُنسى هذه الأمور ؟ يا أمير ، أرجوك ... أأنت تسخر منا وتستهزئ بنا ؟ أتراك تريد أن تمثل هنا دور رجل ماکر من زمان « الوصاية » على نحو ما يروى دوماس ؟ أتراك تمثل دور رجل مثل « لاوزوم » ؟ أؤكد لك أن هذا لا يناسب سنك ، ولا يليق بك ! ليست ابنتى فيكونتيसे فرنسية • منذ برهة ، هنا ، فى هذا المكان نفسه ، غنّت لك ابنتى أغنية رومانسية ، فافتنت أنت بفنائها ، فارتيمت عند قدميها تطلبها زوجة لك • أأنا أحلم ؟ أأنا نائمة ؟ قل لى يا أمير : أأنا نائمة ؟

قال الأمير طائش اللب :

- طبعا طبعا ... ذلك ممكن ... يجب علىّ أن أقول اننى أعتقد
الآن أن ذلك لم يكن حلما • لقد نمت منذ قليل ، وهذا هو السبب فى
أننى رأيت ذلك الحلم ... هذا هو السبب فى أننى رأيت فى الحلم
أننى ...

- كفى يا أمير ! ما معنى هذا الكلام ؟ لم يكن ذلك فى الحلم ، لم
يكن ذلك فى الحلم ، لا ، لم يكن ذلك فى الحلم ! ... ألا ان الشيطان
نفسه ليذهب صوابه وتطير قروونه من هذا الكلام ! أترك فقدت عقلك
يا أمير ؟

- طبعا طبعا ... الشيطان يذهب صوابه وتطير قروونه ... على كل
حال ، يخيّل الىّ أننى قد ضللت ...

كذلك تابع الامير وهو يجيل على الحضور نظرة قلقة •
فقلت ماريا شارحة :

- كيف يمكن أن يكون هذا حلما اذا أنا استطعت أرويه بهذه
التفاصيل كلها قبل أن تحدث عنه أحدا بكلمة واحدة ؟
سألته ناتاليا دميتريفنا :

- لعلك قد رويت الحلم لأحد يا أمير ؟

- طبعا طبعا ... من الجائز جدا أن أكون قد رويته لأحد •
بذلك أجاب الأمير محتارا •

وهمست فليساتى ميخائيلوفنا فى أذن جارتها تقول :
- يا للتمثيلية الهزلية !

وصرخت ماريا ألكسندروفنا وهي تلوى يديها كمدا وحزنا :

- آه ... رباه ! ألا ان هذا لخليق بأن يذهب بكل صبر !
لقد غنت لك أغنية عاطفيه يا أمير ، أغنية عاطفيه ! فهل يمكن أن تكون
قد سمعت هذه الأغنية فى الحلم ؟
هتف الأمل متجها نحو موزجلياكوف :

- نسيت أن أحكى لك منذ برهة يا صديقى ، نعم نسيت فعلا أن
أحكى لك أنه كان هنالك أغنية رومانسية ، وكان فى تلك الاغنية قصور ،
قصور كثيرة ، كثيرة ... وكان فيها شعراء تروبادور أيضا ... نعم
نعم ، أتذكر الآن ذلك تذكرأ واضحا ... حتى لقد بكيت ... الآن
أحاول أن أعرف أنا سمعت هذا فى الحلم حقا !

أجابه موزجلياكوف بأهدأ لهجة ممكنة ، ولكن بصوت يجعله
الاضطراب النفسى مرتجفا بعض الارتجاف :

- يا عمى ، أؤكد لك أن من السهل جدا ايضاح الامر • أحسب
أنك حقا قد سمعت غناء • ان زينائد آتanasيفنا تغنى غناء رائعا • ولقد
جىء بك الى هنا بعد الغداء ، وغنت لك زينائد آتanasيفنا أغنية رومانسية •
أنا لم أكن معكم ، ولكنى على يقين من أن الأغنية قد أيقظت فى نفسك
ذكرى قديمة لعلها ذكرى تلك الفيكتوتيسة التى كنت تصاحبها فى الغناء
والتي حدثتنا عنها فى هذا الصباح • ثم نمت على هذه الاحساسات الممتعة
والمشاعر اللذيذة ، فرأيت نفسك فى الحلم شابا عاشقا يخطب فتاة ... •
صُعقت ماريا ألكسندروفنا من هذه الوقاحة الدنيئة الحقيرة •

وصاح الامير يقول مسرورا :

- آه يا صديقى ... تلك هى الحقيقة بعينها • تلك هى الحقيقة

بعينها ! نعم ، على أثر احساسات ممتعة ومشاعر لذیذة ! أتذكر تذكراً واضحاً أن قد غشيت لى أغنية عاطفية ، وأنتى لهذا السبب انما اردت أن أتزوج •• فى الحلم ! وكانت الفيكوتيسه موجوده ايضاً ! اه ••• ما أذكلك فى ترتيب الأمور يا عزيزى ! طبعاً طبعاً • أنا الآن واثق اننى حلمت ! يا ماريا فاسيلفنا ، أوكد لك أنك على خطأ ! لقد كان ذبث فى الحلم ! ولولا ذلك ما سمحت لنفسى بان أعبت بعواطفك النبيله ! ••• صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول مسعوره من شدة الحنق وهى تتجه بالكلام الى موزجلياكوف :

- آ ••• الان ادرك من الذى حشر آنفه فى هذا الامر ••• هو انت يا سيد ، هو أنت يا قليل الشرف ! انها حيلك ومكائذك ! لقد شوشت كل شىء فى دماغ هذا الابله المسكين ، لانك رفضت هنا ! ولكنك ستدفع لى ثمن هذا الغدر ، يا وعد ، يا دنىء ••• سوف تدفع لى ثمن هذا الغدر ، سوف تدفعه لى غالباً ! •••

صرخ موزجلياكوف يقول وقد احمر احمرارا شديدا على حين فبجأة :

- ماريا ألكسندروفنا ! ان أقوالك هذه تبلغ من ••• لا أستطيع أن أنعت أقوالك هذه بوصف ••• ما من سيدة من المجتمع الراقى تاذن لنفسها باطلاق لسانها فى أقوال كهذه الأقوال • أنا انما أحمى فريبى وأدافع عنه • هلاً اعترفت بأنك قد شدته الى حبالك وشباكك •••
- طبعاً طبعاً ، شدتنى •••

كذلك ردد الأمير وهو يحاول أن يختبئ وراء موزجلياكوف •
أعولت ماريا ألكسندروفنا تقول بصوت لا يُعرف ، وهى تلتفت الى زوجها :

- آناستازى ماتفتش ! ألا تسمع كيف نُهان وكيف يلطخ شرفنا بالعار ؟ هل فقدت الاحساس بواجباتك جميعا ؟ من أنت اذن ؟ أنت رب أسرة أم أنت قطعة حقيرة من خشب ؟ لماذا تصفق أجفانك ؟ لو كان زوج غيرك فى مثل هذا الموقف لسفح الدم منذ زمن طويل انتقاما لأهله من الاهانة التى تلحق بهم !

قال آناستازى ماتفتش فى وقار ، وقد أشعره بكثير من الاعتزاز أن يكون آخر الامر مفيدا لنصفه الحلو :

- يا امرأة ! أليس من الجائز أن تكونى قد رأيت هذا كله فى الحلم أنت نفسك ، حتى اذا استيقظت خلطت بين ما هو حق وما هو باطل كما تفعلين ؟ ...

لم يتح لآناستازى ماتفتش من الوقت ما يمكنه من التعبير عن شكوكه الذكية الى آخرها . فان الحضور الذى اقتصروا حتى ذلك الحين على اصطناع احترام منافق مراء ، قد انفجروا دفعة واحدة ، فاذا بقهقهة طويلة تدوى من أول الصالون الى آخره ، واذا ماريا ألكسندروفنا تسي جميع المواضع الاجتماعية فتندفع نحو زوجها عازمة عزمأ واضحا على أن تفقأ عينيه بأظافرها . ولكن الحضور حالوا بينها وبين ذلك بالقوة . وانهزت ناتاليا ديمتريفنا هذه الظروف لتسكب قطرة صغيرة جديدة من حقدها وسخيمتها . قالت بصوتها المتنجح :

- آوه ! ماريا ألكسندروفنا ! من الجائز جدا أن يكون هذا ماحدث . فلماذا تغضين فى غير طائل ؟

فصرخت ماريا ألكسندروفنا التى لم تدرك قول صاحبها تمام الادراك :

— ماذا ؟ ماذا تحسبن أننى ظننت ؟

فأجابتها ناتاليا دميتريفنا :

— أوه ! ... هذا يحدث كثيرا ! ...

— ما الذى يحدث كثيرا ؟ أتريدن موتى ؟

— طبعا طبعا ، لا شك أنك رأيت ذلك فى الحلم !

— فى الحلم ؟ أنا ؟ فى الحلم ؟ أفتجرو أن تقول لى هذا الكلام
وجهاً لوجه ؟

قالت فليساتى مقاطعة :

— على كل حال ، لماذا لا يكون من الجائز أن تكونى قد رأيت ذلك
فى الحلم ؟

قال الأمير مدمماً :

— طبعا طبعا ! لا شك أن هذا ما حدث !

فصرخت ماريا ألكسندروفنا تقول وهى تعقف يديها :

— ما هذا ؟ أفتدخل هو أيضا ؟

— لا تقتلى نفسك حزناً يا ماريا ألكسندروفنا ! تذكرى أن الأحلام
من عند الله ؟ وما يريد الله لا يستطيع البشر أن يزيلوه ! ما من شئ
يحدث الا بمشيئة الله • فلا داعى الى الغضب !

ردد الأمير يقول :

— طبعا طبعا ... لا داعى الى الغضب •

قالت ماريا ألكسندروفنا وقد هدَّها التعب واختنقت من الحنق :

— ماذا ؟ أظنوننى مجنونة ؟

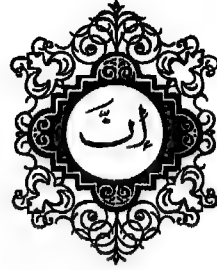
كان ذلك كله فوق ما يطيقه صبر البشر • وأسرعت ماريا ألكسندروفنا تفتش عن كرسي وتهالك عليه • وأعقب ذلك لجب وصخب •

قالت ناتاليا دمتريفنا توشوش أنا نيكولايفنا :

— انما أغمى عليها حياء واحتشاما •

ولكن فى تلك الدقيقة ، فى الدقيقة التى بلغ فيها الاضطراب أوجه ، دخلت الى المشهد شخصية لبث حتى ذلك الحين صامتة لا تتكلم ، فاذا وجه الأمور يتغير فورا •

الفصل الرابع عشر



زينائد آتانا سيفنا ذات طبع يتصف بأنه خيالى
فى الدرجة الأولى • لا ندرى هل صحيح
ما تزعمه ماريا ألكسندروفنا من أن مردّ هذا
الى « شكسير الأبله » ذاك الذى أسرفت زينا
فى العكوف على قراءته وشرحه مع مدرستها • ولكن زينا ، طوال المدة
التي قضتها من حياتها فى موردا سوف ، لم تكن قد سمحت لنفسها حتى
ذلك الحين باندفاعه فيها من الحىالية بل قل من البطولة ما فى الاندفاعه التى
سنصفها الآن •

تقدمت زينا على حين فجأة ، مرتعشة الجسم ، شاحبة الوجه ، حازمة
النظرة ، قد زاد الاستياء جمالها روعة وبهاء • ودون أن تحفل بالنظرات
المسددة اليها ، ووسط الصمت الذى شمل الغرفة على حين فجأة ، دنت
من أمها التى فتحت عينيها وصحت من اغماؤها منذ أول خطوة خطتها ابتها
نحوها ، وقالت لأمها :

— أمى ، لماذا الكذب ؟ علام تسيئين الى كرامتك بمزيد من
الأكاذيب ؟ ان كل شىء يبلغ من الخسة والدناءة والوضاعة ما لا يجوز
معه حقا اخفاء هذا الوحل كله •

صرخت الأم مرتاعة مذعورة وهى تثب عن مقعدها قائلة :

— زينا ! زينا ! ماذا دهالك ؟

تابعت زينا كلامها تقول :

— قلت لك سلفا يا أماء ، نعم قلت لك سلفا اننى لن أطيق احتمال هذا العار • فعلام تذلين نفسك مزيدا من الاذلال ، علام توسخين نفسك مزيدا من التوسخ ؟ اعلمى يا أماء أننى أتحمل تبعه كل شيء ، لاننى أنا الأئمة المذنبه أولا • اننى بموافقتى قد أتحت حبك هذه المؤامرة الحقيرة ! أنت أم • وأنت تحيينى • وقد أردت أن تكفى لى السعادة على طريقتك • فيمكن أن يُغفر لك أنت ، أما أنا فلا •••

— زينا ، ما هذا الذى تقولين ؟ !ه ••• رباه ! لقد تنبأت بأن هذا الخنجر سيطعن قلبى ! •••

— نعم يا أماء ! أريد أن أذكر كل شيء • لقد تطلخت أنا بالعار ، وتطلخت أنت به مثلى ! •••

— أنت تغالين يا زينا ! انك لا تعرفين ماذا تقولين ! وعلام الكلام ؟ انك لا تفكرين فى الأمر ••• وعلى كل حال ، اذا كان ثمة عار ، فليس عارا علينا ••• سأبرهن لك ، سأبرهن لك فورا أن العار ليس علينا !

قالت زينا محتجة بصوت جعله الاستياء مرتجفا متهدجا :

— لا يا أماء ! لا أريد أن أسكت أمام أناس أحتقر رأيهم ، أمام أناس لم يجيئوا الى هنا الا ليسيئوا الى كرامتنا • لا أريد أن أحتمل غمزاتهم ولزاتهم مزيدا من الاحتمال • ما من واحدة من هذه النسوة يحق لها أن ترمينى بحجر • انهن جميعا مستعدات ، فى هذه اللحظة نفسها ، لأن يفعطن شرا مما فعلنا أنا وأنت ، مائة مرة • فبأى حق يجرؤون أن يسمحن لأنفسهن بالحكم علينا ، بأى حق يستطيعن أن يحكمن علينا ؟

صاح الجميع من كل صوب

- كلام جميل ! كلام ليس فيه لغو ! ... لكأنا نحن المذنبات
الآثام اللواتى يجب أن يؤاخذن ! ان هذه الفتاة تهيننا نحن !

وقالت ناتاليا دمترينا :

- لقد بلغت من فرط الغضب أنها لا تفهم ما تقول •

ولنلاحظ - عابرين - أن ناتاليا دمترينا قد قالت حقا • فلو كانت
زينا ترى أن هاته النسوة ليست جديرات بأن يحكمن عليها ، فلماذا
تسوق اليهن اعترافها بهذه الأبهة كلها ؟ لقد أخطأت زينايد آتاناسيفنا
حين بادرت هذه المبادرة • وذلك هو الرأى الذى أعلنه العقلاء من سكان
مورداسوف بعد ذلك على كل حال • والحق أن ماريا ألكسندروفنا قد
أفسدت الأمور ، هى ايضا ، بفرط تعجلها وشدة تكبرها • فانه لم يكن
عليها الا أن تسخر صراحة من هذا الشيخ الأهل ، وأن تطرده من منزلها •
ولكن زينا رغم كل الحس السليم وكل الحكمة المورداسوفية ، انما اتجهت
بكلامها الى الامير تخاطبه هو ، كان الامر مقصود ، فما كان من الامير الا
أن أسرع ينهض وقد اضطرب لموقفها أشد الاضطراب • قالت :

- اغفر لى يا أمير ، اغفر لى ! لقد فتاك ، لقد ضللناك ، لقد غررنا

بك !

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول هاذية :

- هلاّ سكت أيتها الشقية !

واحتج الأمير مرتاعا يقول :

- يا آمنة ، يا آمنة ، يا ابنتى اللطيفة !

ولكن طبع زينا المتكبر الجامع ، الحالم الى أقصى حد ، حمل الفتاة

بعيدا عن المواضع التي يفرضها الواقع • لقد نسيت حتى أمها التي كان اعتراف ابنتها امام الناس يروّعها ترويعا رهيبا •

— نعم لقد ضللناك كلتانا يا امير : ضللتك أُمى لأنها أرادت أن تدفعك الى تزوجى دفعا ، وضللتك انا لاننى وافقت على ذلك • لقد سقيت خمرا ؟ وارتضيت أنا ان اغنى وان اتفنج امامك ••• أمامك أنت الضعيف لا تستطيع ان تحمى نفسك ••• نعم لقد ضللت كما قال ذلك بافل ألكسندروفتش ، طمعا فى مالك وفى لقب « الامير » الذى تحمله • وذلك كله كرهه دنىء ، وانا نادمة عليه • ومع ذلك أؤكد لك يا امير اننى لم أفرر مقارفة هذه الحطة لاجنى منها ربحا دنيا ، وانما أردت ••• ولدن ماذا انا فاعلة ؟ ألا اننى لاضاعف المسية اذ انا حاولت تسوينها وانما ينبى أن اذكر لك يا امير هذه الحقيقة : لئن ارتضيت انا اى شىء ، فاننى كنت سأدفع ثمن ذلك أن أكون لعبتك ، وخدامتك ، وراقصتك ، وعبدتك ••• لقد آليت على نفسى لا برنّ بالعهد !

وآلم بالفتاة تشنج اضطرها الى التوقف عن الكلام • كان جميع الحضور يصغون محمقين • لقد صعقهم هذا السلوك الذى لا يمكن توقعه ولا يمكن فهمه من جانب زينا • أما الأمير الذى لم يدرك نصف أقوال زينا ، فقد تأثر تأثرا شديدا حتى دمعت عيناه • وتمتم يقول :

— طبعا ، سأتزوجك يا بنيتى الجميلة اذا كنت ترغين فى ذلك هذه الرغبة كلها ، وسيسعدنى هذا أكبر السعادة • ولكننى أؤكد لك أن الأمر كله كان فى الحلم ، كان حلما جميلا ! اننى أرى فى منامى أشياء كثيرة !

والتفت الامير نحو موزجليا كوف يسأله قائلا :

— ولكن لماذا يحزنون هذا الحزن كله ؟ أحسب أننى لا أفهم من

الامر شيئا يا صديقى • هلاّ شرحت لى ما يجرى ؟

وتابعت زينا كلامها تقول مخاطبة موزجليا كوف :

- وأنت يا بافل ألكسندروفتش ، يا من قررتُ أنا في لحظة من اللحظات أن أنظر اليك نظرتي الى زوجي في المستقبل ؟ أنت يامن انتقمت مني الآن هذا الانتقام القاسي ، كيف أمكنك أن تنضم الى هؤلاء النساء لتجليلي بالخزي والعار ! لقد كنت تدعى أنك تحبني • ولكن ليس لي أن أحكم عليك وأن أدنيك • فان ذنبي أعظم من ذنبك ، وان ائمتي أكبر من ائمتك • لقد أسرفت في الاساءة اليك حين خدعتك بالوعود • وما قلته لك في هذا الصباح نفسه لم يكن الا كذبا ورياء وخداعا • أما ما أحبيتك في يوم من الايام ، واذا ارتضيتك زوجا ، فما ذلك الا لأستطيع أن أسافر من هنا ، أن أبرح هذه المدينة اللعينة ••• ومع ذلك فأنني أحلف لك أنني لو تزوجتك لكنت لك نعم الزوجة الشريفة المخلصة الوفية •• لقد قسوت في الانتقام ، حين أردت أن تضمد جرح كبريائك •••

صرخ موزجليا كوف :

- زينايد آتاناسيفنا !

- اذا ظللت تكرهني هذا الكره كله •••

- زينايد آتاناسيفنا !!!•••

- اذا كنت قد أحببتني في يوم من الايام •••

كذلك تابعت زينا تقول وهي تحبس دموعها •

- زينايد آتاناسيفنا !!!•••

قالت ماريا ألكسندروفنا منحتبة :

- زينا ، زينا ، بنتي !

وقال موزجليا كوف وقد بلغ أوج الانفعال :

— أنا جرو يا زينايد آتانا سيفنا ، أنا جرو ، أنا جرو لا غير ! ...
وتعالت صرخات الدهشة والامتعاض ، ولكن الفتى ظل واقفا كأنه
متجمد بلا فكر ولا صوت ...

ان أصحاب الطبايع الضعيفة التي اعتادت الخضوع المستمر ، اذا هم
قرروا أن يحتجوا وأن يفضبوا ، اذا هم قرروا أن يبرهنوا على صلابتهم
وتماسكهم ، يصلون دائما بسرعة عظيمة الى قصاراهم في القوة والعزم .
هم يحتجون في أول الامر باندفاع مستميت يشارف الهذيان . ينطلقون
الى أمام مغمضى الأعين دون أن يملكوا في أكثر الأحيان القدرة على حمل
العبء الذي ألقى على أكتافهم فجأة . ولكن الشخص المندفع ما يلبث أن
يتجمد متى وصل الى أوج الاندفاع . فهو الآن أشبه بقوس يرتخي .
هو يلقي على نفسه الآن هذا السؤال الذي يطيش اللب ويذهب بالعقل ،
كانما صمقه الذعر وجمده الهول : « لماذا فعلت هذا ؟ » . وهو يحس
فجأة أن قواه قد انهدت وانهارت ، يأخذ يثن ويتحب ، ويحاول أن
يتنحل الأعذار ، ويجثو على ركبتيه ، ويتضرع أن تعود الأمور الى حيث
كانت في الماضي . فذلك هو على وجه التقريب ما أحسه موزجليا كوف .
كان قد خرج عن طوره ، واستعرت نفسه غضبا ، فسبب ذلك الشقاء
كله الذي يتهم به نفسه الآن . ولقد شبع من خبثه وأنايته ، ثم اشمأز
من ذاته فتوقف يمزقه عذاب الضمير ويدمره سلوك زينا الذي لم يكن
في الحسبان ؛ ثم جاءت الكلمات الأخيرة التي قالتها فأجهزت عليه اجهازاً ،
فسرعان ما انتقل من النقيض الى النقيض . قال :

— أنا حمار يا زينايد آتانا سيفنا ... لا ، ليس يكفي أن اسمي
نفسى حمارا ... أنا أسوأ من ذلك ... أنا دون ذلك كثيرا ! ولكنني
سأبرهن لك يا زينايد آتانا سيفنا على أن في استطاعة حمار أن يكون رجلا

شريفًا مع ذلك • يا عمى ! لقد كذبت عليك ! نعم ، أنا كذبت عليك !
انك لم تحلم ؟ وانما خطبت هذه الأنسة فى الواقع • ولكنى أنا زعمت
لك أن كل شيء قد جرى فى المنام ، وذلك انتقامًا وثأرًا ، لأنتى صُدت
ورفضت •

همست ناتاليا دميتريفنا فى اذن آنا نيكولايفنا تقول :

— هذه أمور عجيبة يكشف لنا عنها !

أجاب الأمير قائلاً :

— يا صديقى ، هدىء نفسك ، أرجوك ! ان صرخاتك هذه تخيفنى •
أؤكد لك ذلك • وأؤكد لك أيضا أننى مستعد لأن أتزوج اذا اقتضى
الأمر ، ولكن ألم تشهد لى أنت نفسك بأن ذلك كان حلمًا ؟ لقد كان
ذلك كله حلمًا •••

— أواه ••• كيف أحملك على أن تصدقنى ؟ قولوا لى أتم : كيف
السييل الى اقناعه ؟ عمى ، عمى ، هذه مسألة خطيرة ، هذه مسالة عائلية
خطيرة كل الخطورة ! حاول أن تفهم ! فكّر ! •••

— لا مانع عندى يا عزيزى ! طيب انتظر ••• دعنى أرتب
ذكرياتى • فى أول الامر رأيت الحوذى تيوفيل •••

— لا شأن لنا بتيوفيل الآن يا عمى !

— طبعًا طبعًا ! لنفرض أنه لا شأن لنا بتيوفيل الآن • ثم رأيت
ناپوليون • وبعد ذلك ، أظن أننى شربت الشاى ، والتهمت سيدة من
السيدات كل السكر •••

قاطعته موزجلياكوف يقول وقد طاش صوابه تمامًا :

- دعتك من هذا يا عمى ، ان ماريا ألكسندروفنا نفسها هى التى روت لك ذلك عن ناتاليا دمتريفنا . لقد كنت أنا حاضرا ، وسمعت كل شيء . كنت قد اختبأت عن أنظاركم أراكم وأسمعكم من ثقب القفل ...

صاحت ناتاليا دمتريفنا غاضبة :

- ماذا ؟ أتروين للأمير أننى أسرق السكر من سكريتك ؟ أنا أجيء اليك من أجل ذلك خصيصا اذن ؟

فهمت ماريا ألكسندروفنا وقد جاوز يأسها كل حد :

- دعينى وشأنى !

- لا ، لن أدعك وشأنك يا ماريا ألكسندروفنا ! انك تسرفين حقا . أنا أسرق سكرك ؟ لطالما حكى لى أنك تقولين هذه السخافات فى حقى ! ان صوفيا بتروفنا لم تكتمنى حرفاً مما تقولينه عنى . اذن فأنا سرقت سكرك ، هه ؟

صاح الأمير :

- دعن هذا يا سيداتى ، ما دام الأمر أضغاث أحلام ! ما أكثر ما أرى أنا فى نومى من أحلام !

قالت ماريا ألكسندروفنا بصوت ضعيف واهن :

- يا لك من برمىل لعين !

فأعولت ناتاليا دمتريفنا تقول :

- ماذا ؟ أنا الآن برمىل ؟ فما أنت اذن ؟ انتنى أعلم منذ زمان طويل أنك تصفينى هذا الوصف ! غير أن لى أنا زوجاً على الأقل ، أما أنت فتكتفين برجل أبله ...

- طبعا طبعا ••• تذكرت الآن ••• كان هناك برميل أيضا •
- كذلك ججمحم الأمير يقول كالفائب عن وعيه وقد تذكر الكلمات
التي قالها ماريا ألكسندروفنا في الصباح • فصاحت ناتاليا دمتريفنا :
- ماذا ؟ أنت أيضا تشترك في اهانة امرأة نبيلة ؟ كيف تجرؤ أن
تفعل يا أمير ؟ لئن كنت أنا برميلا ، لأنت كسيح مقعد ! •••
- من ؟ أنا ؟ كسيح مقعد ؟
- نعم ، كسيح مقعد ••• وأنت فوق هذا الطمع لا أسنان لك •••
ذلك أنت !
- وأضافت ماريا ألكسندروفنا صارخة :
- وأنت بعد هذا وذاك أعرج !
- واستأنفت ناتاليا دمتريفنا كلامها فقالت :
- عمودك الفقري مسند بخشب !
- ووجهه من نوابض •
- وشعره كله مصنوع •
- شارباه مستعاران ، هذا النقي الأحمق •
- كذلك أضافت ماريا ألكسندروفنا •
- فصاح الأمير مبهوتا من هذه الفضائح المباغثة :
- انفي على الأقل ، دعيه لي ، يا ماريا ستيانوفنا ! انه أنفي أنا !
- لقد خنتني يا صديقي ! أنت الذي رويت لهن أن شعري مستعار !
- عمي !
- لا ، لا يا صديقي ، لا أريد أن أبقى هنا لحظة زيادة ! خذني

الى حيث تشاء ... ما هذا المجتمع الذى جئت بى اليه ؟ ما هذه المغارة
التي قدتني اليها ؟

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول :
- أبله ، تافه !

فتنهذ الأمير المسكين قائلاً :

- آه ... رباه ! لا أدري لماذا جئت الى هنا ، ولكننى سأظل أتذكر
هذه الزيارة . خذنى يا صديقى الى أى مكان ، والا فسوف أُنك هنا
قطعة قطعة ! على كل حال ، هناك فكرة جديدة أساسية يجب على أن
أدونها .

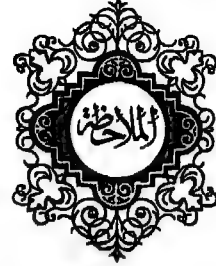
- هلم يا عمى ، لم تتأخر كثيراً ، سأُنقلك الى فندق ، وسأقيم فرياً
منك .

- طبعاً طبعاً ، الى الفندق ! ووداعاً يا ابنتى الجميلة ! أنت وحدك ،
نعم أنت وحدك تحسنين التصرف هنا . انك فتاة نبيلة ! هلم يا صديقى
هلم . آه ... يا رب ! ...

لا داعى الى وصف المشهد البشع الذى أعقب انصراف الأمير .
لقد خرجت السيدات من الدار وهن يطلقن الصرخات والشتائم . ووجدت
ماريا ألكسندروفنا نفسها آخر الأمر وحيدة بين خرائب مجدها الغابر !
واحسرتها ! لقد أفل سلطانها ، وغناها ، واحترامها ، ومهابتها ، دفعة
واحدة ! وأدركت ماريا ألكسندروفنا أنها لن تستطيع أن تنهض من هذه
الكبوة . ان استبدادها بمجتمع موردا سوف خلال سنين طويلة قد زال
نهائياً . ماذا بقى لها ؟ الفلسفة ! ... ولكنها تجهل الفلسفة . وقضت
ماريا ألكسندروفنا ليلتها فى حق مسعور . لقد تطلخت زينسا بالعار ،
ولسوف تجرى النمام فى حقها كنار جهنم ! يا للفظاعة !

يجب أن أذكر ، من حيث أنني كاتب منصف ، أن الشخص الذي
أسيئت معاملته أكثر من أى شخص آخر انما هو آناستازى ماتفتش الذى
انتهى الى الاعتصام بمكان ما فى قرارة حجرة صغيرة ؛ وطل يرتجف
هنالك حتى الصباح • وطلع الفجر ، ولكن الفجر لم يحمل خيراً • ان
المصائب لا توافى واحدةً واحدةً ، بل تأتى مجتمعةً •••

الفصل الخامس عشر



قديمة : متى أنزل القدر مصيبة بأحد، فإن الضربات تتعاقب عندئذ عليه الى غير نهاية • ان الخزي والعار والفضيحة التي تجللت بها ماريّا ألكسندروفنا في الليلة البارحة لم تكن كافية • لا ! لم تكن كافية ؟ وكان لا بد من شيء أوسع مدى وأبعد خطراً !

كان قلب كل انسان ، منذ الساعة العاشرة صباحاً ، من أقصى المدينة الى أقصاها ، ينبض بفرح حاد • ان شائعة غريبة لا تصدق قد انتشرت في أرجاء المدينة كأنما لتعزز الكره وتقوى البغض في نفوس جميع السكان • هي شائعة من تلك الشائعات التي تجري بين الناس دائماً في اعقاب كل جرسه عنيفة • « يا للعار ! يا لقلّة الحياء ! يا للدناءة ! يا لقلّة الاحتشام ! يا للوقاحة الصريحة ! ألا ان ذلك ليتجاوز الحدود ! » • كذلك كانت الصيحات تتعالى في كل ناحية •

ذلك أن شيخة بائسة مسكينة تسكب دموعاً غزيراً من فرط الألم وشدة اليأس ، قد أسرعت الى منزل ماريّا ألكسندروفنا منذ الساعة السابعة من الصباح تتضرع الى الخادم أن توظف الآنسة بأقصى سرعة ممكنة ، بشرط أن لا توظف الا الآنسة وحدها ، على غير علم من ماريّا ألكسندروفنا • وهرعت زينا الى الشيخة شاحبة الوجه مصعوفة القلب • فبحثت الشيخة على ركبتيها ، وقبلت قدمي الفتاة وأغرقتهما بالدموع ، وتوسلت اليها أن تتبعها الى حيث يحتضر فاسيا • قالت لها منتحبة : « لقد

عانى آلاماً كثيرة فى هذه الليلة ، فليس يرجى أن يعيش يوماً آخر . •
وأضافت أن فاسيا نفسه قد سأل أن تعيئه زينا ليستغفرها قبل أن يموت ،
فهو يستحلفها بجميع قديسى الجنة وبكل ما كان بينهما ، أن لا تدعه
يموت حزينا يائساً • لم تتردد زينا لحظة واحدة • فبعت العجوز لتلوى
على نوى ، ولا يهمها أن تعجى تلبيتها هذا الرجاء مصدقة لجميع النمام ،
وجميع الشائعات السيئة ، التى راجت بين الناس قبل ذلك عن رسائلها
وسوء سلوكها • ألفت على كتفيها معطفاً ، وطفقت تسعى مع العجوز
راكضة خلال المدينة ، حتى بلغت أفقر ضاحية من ضواحي مورداسوف ،
وحتى بلغت من تلك الضاحية شارعاً صغيراً هو أكثر شوارعها وحشة
وكآبة ؟ وفى آخر ذلك الشارع كان يوجد بيت حقير متداعٍ غائص فى
الأرض وأكوام الثلج ، له نوافذ ضيقة كأنها شقوق •

فى ذلك البيت ، فى قاع حجرة صغيرة واطئة السقف تشغل المدفأة
نصفها ، على سرير من أحطاب فوقها فراش رقيق ، كان يرقد فتى يلتحف
معطفاً عتيقاً بالياً ممزقاً • ان فى وجهه صفرة • هى صفرة الاحتضار ، وان
فى عينيه وميضاً هو وميض نار المرض ، وان يديه اليابستين تبدوان من
الحول كأنهما شفافتان ، وان تنفسه الأبعج يقبض صدر من يسمعه •
ورغم أن المرض قد شوه وجهه تشويهاً رهيباً ، فان من يراه يستطيع أن
يدرك أنه كان فتى وسيم الطلعة جميل المحيّا • ان قسماته الدقيقة تحمل
ذلك القناع الغريب المحزن الذى يلاحظه المرء فى وجوه جميع
المصدورين حين يصلون الى الساعة الأخيرة ، يلاحظه لدى جميع
المحتضرين • وكانت أمه الشيخة التى ظلت سنة بكاملها وحتى هذه
الدقيقة تؤمل أن يسترد ابنها فاسيا عافيته ، قد أدركت أخيراً أنه سيربح
هذا العالم • فهى الآن ، وقد هدّتها الحزن ، ماثلة اليه حانية عليه ضامة
احدى يديها الى الأخرى ، لا تذرف دمعاً واحدة ، وانما تلتهمه ببصرها

التهاما وتشربه بنظراتها شرباً ، ثم لا تنوب الى رشدتها ولا تفيء الى عقلها ، فقد أطار صوابها ما يجول في خاطرها من أن ابنها المسكين الشقي فاسيا سيدفن بعد بضعة أيام في مقبرة الفقراء تحت التراب الصاقع وأكوام التلج . ولكن فاسيا لم يكن ينظر اليها هي في تلك اللحظة . ان وجهه الضامر يعبر الآن عن معنى العبادة . ان فاسيا يرى أمامه أخيراً تلك التي ظل يحلم بها سنة ونصف سنة ، في نومه وصحوه وأرقه ، طوال ليالي مرضه التي لا تنتهي وهو يدرك الآن أنها غفرت له ما دامت قد جاءت الى فراش نزع الأخير ملاكاً من عند الله . وها هي ذى تتناول يديه ، وتبكي عليه ، وتبسم له ، وتتأمل به بعينيها الرائمتين ، وها هو ذا الماضي المتدثر ينبعث من جديد . ان الحياة قد شبت نارها مرة أخرى في نفس هذا المحتضر ، كأنما لتهب للمسكين الشقي فرصة معاناة ألم الفراق بمزيد من اللوعة . قال :

- زينا ، صغيرتي ، زينا ، لا تبكي عليّ ! لا تألمي لي ! لا تذكريني بأنتي ساموت وشيكا . سوف أموت دون أن أشعر وأنا أنظر اليك كما أنظر الآن . دعيني أظن أن روحنا التقنا من جديد ، وأنت غفرت لي ، وأنتي ما زلت أستطيع أن أقبل يدك ، وأن أموت دون أن أشعر بأنتي أموت . لقد نحت يا عزيزتي زينا ! ما أكثر الطيبة في نظرتك يا ملاكي الغالي ! هل تذكرين ضحكك في الماضي ؟ هل تذكرين ؟ آه يا زينا ! انتي لا أستغفرك ! انتي لا أريد أن أفكر فيما كان لعلك قد غفرت لي أنت يا زينا ، ولكنني لم أستطع أنا أن أغفر لنفسى قط ! قضيت ليالي لا نهاية لها يا زينا ، ليالي رهية بغير نوم ، وفي أثناء تلك الليالي ، هنا ، على هذا السرير الذي كنت أظل ممسدا عليه ، فكرت كثيراً ، وتأملت كثيراً . انتي أعلم منذ زمن طويل أن الموت خير لي من الحياة . نعم هو خير لي من الحياة كثيراً ! أنا لا أستحق الحياة يا عزيزتي زينا .

كانت زينا تتنحب ولا تزال تضغط يديه كأنها تمني أن توفه عن الكلام • وتابع المريض يقول :

- لماذا تبكين يا ملاكى ؟ ألانى أموت الآن ؟ ولكن ألم يمت ماضينا ويدفن منذ زمن طويل ؟ انت أذكى منى ، وان قلبك أنهى من قلبى ، ولقد أدركت مدى حظى وتعاستى ، فكيف يمكن أن تحينى الى الآن ؟ وكيف أحتمل أن أتصور أنك تعرفين مدى حقارتى ؟ لقد كنت شديد العجرفة يا زينا ، وهى عجرفه ربما كانت نبيلة ! آه يا عزيزتى ! لم تكن حياتى كلها الا حلماً ! أنا ماحيت ، وانما كنت أحلم دائماً بغير انقطاع • كنت متكبرا مزهواً صلفاً ، احتقرت الناس ، ومع ذلك فبأى شيء يمكننى أن أباهيمهم وأن أفأخرهم ؟ أنا نفسى أجهل ذلك ، لأن نقاء قلبى ونبل عواطفى لم يكونا الا أضغاث أحلام ! يا زينا لقد قرأنا شكسبير معا فلما كان على أن أعمل ، لمّا أن أوان العمل ، رأيت ما كان منى وعرفت قيمتى وأدركت قوتى الأخلاقية التى كنت أزعمها لنفسى •

قالت زينا :

- كفى كفى ، ما كان كل شيء باطلا كما تحب أن تقول الآن ! اسكت ! انك تقتل نفسك •••

- لماذا أسكت يا زينا ؟ أنا أعلم انك غفرت لى ، ولعلك غفرت لى منذ زمان طويل ، ولكنك حكمت على وعرفت قيمتى ، وذلك بعينه هو ما يعذبنى • لم أكن جديرا بحبك يا زينا ! كنت أنت عظيمة ! كنت أنت الكرم نفسه ، والسماحة نفسها • أعلنت لأملك أنك ان تزوجت فسوف تتزوجينى أنا ، ولن تتزوجى أحداً غيرى ! وانى لعلى يقين من أنك كنت ستفنى بالوعد وستبرين بالعهد ، لأننى أعلم أنك صادقة فيما تقولين ، فقولك ذهب خالص ! لم أدرك يومئذ يا زينا انه كان عليك أن تضحى بى •

لم أستطع أن أفهم أنك حين تقبلينى زوجا فربما كنت تحكمين على نفسك بالموت جوعا • لقد غلبنى الهوى على أمرى وأخرجنى عن طورى فكنت لا أرى الا شيئا واحدا هو أنك تتزوجين شاعرا كبيرا • أو رجلا يُعنى نفسه بأن يكون شاعرا وا أسفاه • ! لم أشأ أن أتصور الاعتراضات التى أثارها حين تقدمت اليك بطلب زواجنا • • وسرعان ما عذبتك واضطهدتك وأهنتك واحقرتك • ثم وصلت من ذلك أخيرا الى تهديدك بتلك الرسالة ، والحق أننى لم أكن وغداً فى تلك اللحظة • وانما كنت اسأناً يرثى له ! آه • • • لا بد انك شعرت نحوى بكثير من الاشمئزاز والتقزز ! نعم يا زينا انها لنعمة أن أموت ! انها لنعمة انك لم تتزوجينى ! لقد كان يمكن لو تزوجتى أن لا أفهم شيئا من توضيحتك • وكان يمكن أن أسومك سوء العذاب • وأن أحملك تبعة ما نلقى من بؤس وشقاء • وما نعانى من عسر وفقر ! الله يعلم كيف كان يمكن أن تنقضى السنين ! لعلى كنت سأكرهك كرهى عقبةً تقف فى طريقي وتحول بينى وبين الوصول الى أهدافى وتحقيق رسالتى ! أما الآن فان الدموع المرة قد طهرت قلبى وصفّت روحى على الأقل ! آه يا صغيرتى زينا ! أحيينى بعض الحب الذى محضتبه فى الماضى ! افعلنى هذا فى ساعتى الأخيرة ! • • • أنا أعلم أننى لا أستحق حبك • • • ولكن • • • ولكن • • • أوام يا ملاكى !

حاولت زينا أثناء هذه الأقوال كلها أن تسكته مرارا وهى تبكى وتتعب ولكنه كان لا يسمع لها ولا يصغى اليها • لقد استبدت به الرغبة فى الاعتراف فهو يتابع كلامه فى مشقة وعناء • بصوت مبجوح مكدود لاهت أصم • قالت زينا :

— لو لم تعرفنى ولو لم تحبنى لما كنت اليوم هنا • • • آه ! لماذا التقينا ؟

تابع المريض كلامه يقول :

- لا يا عزيزتى ... لا تهمنى نفسك بموتى ! أنا وحدى الجانى !
 لقد جاوزت أنايتى كل حد ! وما قولك فى اندفاعى ذاك الرومانسى ؟
 هل قصوا عليك قصتى الغيبة يا زينا ؟ منذ ثلاث سنين كان يسكن هنا
 رجل حكم عليه بالسجن • كان انسانا حقيرا وغداً ، كان نفسا ضائعة ،
 فلما جاءت لحظة تنفيذ العقوبة ظهر جنبه الشديد • لقد علم ان المرضى
 لا يقادون للجلد ، فهياً خمرا وصب فى الخمر تبعا والتهم هذا الشراب ،
 فألم به تقيؤ بلغ من الشدة والاستمرار ان رثيه فسدتا ، فقل الى
 المستشفى ، فما هى الا بضعة أشهر حتى مات مصدورا • آه يا ملاكى !
 تذكرت هذا السجين فى ذلك اليوم الذى ••• تعرفين ••• بعد البطاقة !
 فقررت أن أفلده ••• آه ما عساك تصورت حين علمت أننى أصبت
 بالسل • لماذا لم أتحجر شقا أو غرقا ؟ أخوفاً من موت عنيف ؟ ربما •••
 ولكننى أعتقد أيضا يا صغيرتى زينا أن الاندفاعات الجنونية الرومانسية
 العذبة قد ساهمت فى ذلك • كانت تطاردنى فى تلك اللحظة هذه الفكرة:
 كنت أقول لنفسى : ما أجمل أن أتمدد على حصيرة لأموت بمرض السل!
 وكنت أتصور أنك ستدبين حظى وترين لحلى وتمزيقين من اعتقادك
 بأنك سبب مرضى ، وستأتين الى نادمة تائبة ، تركمين أمام سريرى فأغفر
 لك يا زينا وأموت بين ذراعىك ••• غياب ذلك يا زينا غياب • أليس هذا
 حقاً يا صغيرتى ؟

صاحت زينا تقول :

- لا تذكر هذه الأشياء ! لا تتحدث عنها ! ما أنت كما تصف !
 أخرى بنا أن نتكلم عن سعادتنا الحلوة •
 - المראה هى التى تجبرنى على الكلام يا صديقتى ! لم أرك منذ
 ثمانية عشر شهرا فيجب على الآن أن أكشف لك عن نفسى عارية • انى
 طوال هذه المدة التى قضيتها مع ذاتى وجها لوجه ، لم تمرّ بى دقيقة

واحدة دون أن أفكر فيك يا ملاكى المعبود • هل تعرفين يا صغيرتى زينا
أننى وددت أيضا لو أنهض للعمل رجاة أن أستحق اعتبارك وتقديرك
من جديد ؟ وكنت حتى هذه الآونة الأخيرة لا أظن قط أنني سأموت •
اننى لم أفقد قواى دفعة واحدة بل طال بى الأمد مع صدرى المريض •
ما اكتر ما تصورت من مشاريع ضخمة ! كنت أتخيلنى مثلا أنظم على
حين فجأة قصيدة عبقرية تنشر فى مجلة « حوليات الوطن » * ؛ قصيدة
ما عرفت الدنيا لها شيئا ولا نظيرا ؛ كنت أتصور أن اسكب فى القصيدة
كل عواطفى بغية أن ابقى معك حينما تكونى ، بغية أن توقظ أشعارى
ذكرى فى نفسك بغير انقطاع • نعم كان أجمل حلم من أحلامى ان
اراك اخر الامر ترجعين عن حكمك علىّ ورأيتك فى تقولين : « لا ،
لم يكن سيئا الى الحد الذى ظننت ! » • غباء ذلك غباء يا صديقتى زينا •
توافقين على أنه غباء ؟

قالت زينا :

— لا ، لا يافاسيا ، لا ! ...

وتهافت على صدره وأخذت تلثم يديه •

— آه ما كان أشد غيرتى طوال ذلك الوقت ! كان يخيل الى أن نبأ
زواجك سيكون لى الضربة القاضية ! تجسست عليك وأرسلت من يرصدك
ويرقبك ، وقد فعلت ما أردت (قال ذلك مشيرا الى أمه) ! انك لاتحيين
موزجلياكوف ، أليس كذلك يا صغيرتى زينا ؟ أوام يا ملاكى ! أتراك
ستذكرينى بعد أن أموت ؟ أنا أعرف أنك ستذكرينى ، ولكن السنين
ستتقضى تلو السنين وسيجف قلبك شيئا فشيئا ويتجمد ، ثم يستقر الشتاء
فى روحك فتسينتى يا صغيرتى زينا ! ...

— لا ، لا ، أبدا ... لن أتزوج أبدا ... أنت حبيبى الأول ...

والأبدى

- كل شيء يموت يا صغيرتى زينا ، حتى الذكري تموت ! ...
 عواطفنا النيلة تموت ، لا يبقى فى مكانها الا العقل ! فيم الاحتجاج ؟
 انتفعى بالحياة يا زينا ! عيشى طويلا ! عيشى سعيدة ! أحبى رجلا آخر
 اذا استطعت ، بدلا من أن تتعلقى بميت . ولكن تذكرينى من حين الى
 حين . الشر ، انسيه ... اغفريه ... ذلك أن حبنا يا صغيرتى زينا كان
 فيه خير أيضا ! يا للأيام الرائعة التى لن تعود ! اسمعى يا ملاكى : لقد
 أحبيت دائما ساعة الغروب فتذكرينى فى هذه الساعة اذا أمكنك ذلك !
 ... أوه ... لا ... لا ... لماذا أموت ؟ أوه ما أشد ما أتمنى أن
 أستأنف الحياة الآن ! تذكرى ذلك الاوان يا عزيزتى : كنا أيامئذ فى
 فصل الربيع ، فأشعة الشمس صافية مضيئة ، والازهار تتفتح عن أكمامها ،
 وكل شيء من حولنا عيد بهيج . أما الآن فانظرى ! انظرى ...

قال الشقى ذلك ومد يده نحو النافذة المغطاة بالجليد ثم تناول يد
 زينا فوضعها على عينيه وشدها اليهما وأخذ ينتحب انتحابا مرا ، فكان
 النحيب كأنما يمزق صدره تمزيقا .

ظل الفتى طول ذلك النهار يتألم ويشكو ويبكى . فكانت زينا
 تواسيه وتعزيه ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، رغم العذاب القاتل الذى
 كانت تقاسيه . لقد كانت روحها تتألم ألماً رهيباً . ورددت على مسامعه
 أنها لن تنساه ، وأنها لن تحب انسانا كما أحبته ، فكان يصدقها ، ويتسم
 لها ، ويقبل يديها . غير أن ذكرى الماضى كانت تعود اليه فتحرقه وتمزقه .
 انقضى النهار كله على هذه الحال . وفى أثناء ذلك كانت ماريا ألكسندروفنا
 مرتاعة مذعورة فبعثت نحيواً من عشر مرات بمن يتوصل الى زينا أن تعود
 الى البيت وأن لا تفقد سمعتها فقدانا تاما فى نظر جميع الناس ؛ وأخيرا ،
 عند غياب الشمس ، عزمتم أمرها على أن تمضى بنفسها الى ابنتها ، وقد
 أوشكت أن تجن كرباً وكمداً ، فنادت الى غرفة مجاورة ، وتضرعت اليها

راكعةً » أن تجنب قلبها هذا الخنجر الأخير » • لقد جاءت زينا الى أمها ملهبة الرأس مريضه ، فاصغت الى كلامها دون أن تفهمه • ثم عادت ماريما الكسندروفنا ادراجها وقد اياسها قرار ابنتها التي أصرت على أن تقضى الليلة فى منزل القتي المحتضر • لبنت زينا بجانب المريض الذى كانت تبرحه فواه شيئاً بعد شيء فلما طلع الصباح كان كل أمل قد زال • وكانت العجوز تذهب وتجيء كالمجنونة تقدم الى ابنها الأدوية فيدفعها عنه رافضاً أن يتجرعها • وطال النزاع مع ذلك • حتى اذا اصبح المحتضر عاجزاً عن الكلام ظلت تحسرج فى صدره ألفاظ لا ترابط بينها ولا تسلسل فيها ، ألفاظ هى أصوات مبجوحة • ولبت الى آخر دقيقة شاخصاً بصره الى زينا ، مثبّثاً نظره عليها يتفرس فيها ويحدق اليها • وانطفأ الضوء فى حدقيه ، ومع ذلك ظل يتلمس يد الفتاة ليشد عليها فى يده • وشارف هذا النهار القصير من أيام الشتاء على نهايته الأخيرة • هذا شعاع أخير من أشعة الشمس يلقى لونه الذهبى على النافذة الصغيرة الوحيدة المغشاة بالجليد من الغرفة ، وهذه روح فاسيا المعذبة تفيض فى اثر الشعاع الغارب بعيداً عن جسمه الذى نضبت فيه الحياة • فأدركت الأم فجأة أن لم يبق أمامها الا جثة هامدة ، فرفعت ذراعيها وأخذت تعول وارتفعت على صدر ابنها •

— أنت قتلتها أيتها اللعينة ! أنت قتلتها أيتها الجنية !

كذلك صرخت الأم تقول لزينا وقد بلغت ذروة اليأس • ولكن زينا لم تكن قادرة على أن تفهم شيئاً • انها واقفة أمام الميت كالمجمدة ، ومع ذلك فما هى ذى تتخنى آخر الامر ، فترسم على فاسيا اشارة الصليب ، وتقبله ، ثم تخرج من الغرفة بخطى آلية ، عيناها تحترقان ورأسها يدور • ان المشاعر الرهيبة التى أحستها فى هاتين الليلتين اللتين قضتهما بغير نوم قد ذهبت بصوابها • كانت تشعر شعوراً غامضاً بأن الماضى كله قد انتزع

من قلبها ، وأن حياة جديدة تنفتح أمامها مثقلة بالمخاطر مشحونة بالحزن .
ولكن ما ان خطت فى خارج المنزل عشر خطوات حتى انبثق موزجليا كوف
أمامها كمن خرج من تحت الارض • لا شك أنه كان ينتظرها فى هذا
المكان •

همس يقول وهو يلقي على جميع الجهات نظرات مختلصة خاطفة ،
لان الفسق كان ما يزال فيه بقية من ضياء :

- زينائد أتاناسيفنا ، لقد كنت حمارا ••• ذلك أمر لا ينكر !
لكننى لست الآن بحمار اذا سمحت ••• ها أنت ذى ترين أننى أسلك
فى معاملتك سلوكا نبيلا • اننى نادم على أننى كنت حمارا ••• ولكن مالى
أضطرب فى الكلام فلا أعرف ماذا أريد أن أقول ؟ اعذرينى يا زينا
أتاناسيفنا ، فان هنالك أسبابا خطيرة تجعلنى مضطربا هذا الاضطراب ••

نظرت اليه زينا دون أن تراه ، وتابعت سيرها صامتة • واذا كان
الرصيف الخشبي العالى لا يتسع لشخصين يسيران جنباً الى جنب ، واذا
لم تحاول زينا أن تتسحى قليلا ، فقد نزل بافل ألكسندروفتش عن
الرصيف ، وسار محاذياً زينا رافعاً عينيه الى وجهها من تحت • وتابع
كلامه يقول :

- زينائد أتاناسيفنا ! لقد فكرت فى الامر ، وانى لأجدد طلبى اذا
كنت لا تمنعين • اننى مستعد لأن أنسى كل شئ يا زينائد أتاناسيفنا !
اننى مستعد لأن أنسى حتى الالهات • اننى مستعد لأن أغفر لك ، ولكن
بشرط واحد : هو أن تبقى الأمور سرّاً مكتوما ما بقينا هنا • تركين أنت
هذه المدينة فى أقرب وقت ، ثم أتبعك أنا خفية ، وتزوج فى ركن بعيد
على غير علم من أحد • وبعد ذلك نساfer رأساً الى بطرسبرج ، فى عربة
ركاب اذا اقتضى الأمر ، حاملين حقيبة صغيرة واحدة ••• هه ! أنت

موافقة يازينسايد أتاناسيفنا ؟ تكلمى بسرعة ، فليس فى الوقت متسع للانتظار ، والا رأونا معا .

ولكن زينا نظرت الى موزجلياكوف بدلا من أن تجيبه ، وكانت نظرتها بليغة فسرعان ما أدرك موزجلياكوف الموقف ، فرفع قبعته محيا وانحنى لزيينا احتراما ، وغاب عند أول منعطف .

حدث موزجلياكوف نفسه قائلا : « كيف هذا ؟ لقد كانت فى مساء أول امس تفيض عاطفة وتتهم نفسها بكل شيء ! ان الايام تتعاقب ولكن لا يشبه بعضها بعضا » .

وكانت الاحداث آتاء ذلك فى مورداسوف تجرى مجراها . وكان أحدها مفاجئا . فان الامير بعد أن نقله موزجلياكوف الى الفندق مرض فى تلك الليلة نفسها ، واشتدت عليه وطاة المرض حتى أصبح فى خطر . وعلم سكان مورداسوف بالنبا فى الصباح من الغداة . واسرع كاليستى ستانيسلافيتش يقيم بجانب وسادة المريض ، حتى اذا جاء المساء دعى سائر أطباء المدينة ليعودوا المريض ويتذكروا فى أمره . وقد كتبت الدعوات باللغة اللاتينية ؛ ولكن الامير ، رغم اللغة اللاتينية ، لم يشب الى رشده ، فكان يجمع ولا ينفك يتكلم عن شعره المستعار ويضرب الى كاليستى ستانيسلافيتش أن يغنى له شيئا ، ثم يلهم به هلع من حين الى حين فيأخذ يصرخ . وأجمع الأطباء على أن الاستقبال الذى استقبل به الامير فى صالونات مورداسوف قد أحدث له ارتباكا هضميا وأن المرض قد صعد من المعدة الى الدماغ حين انتقاله الى الفندق . وأشار الاطباء أيضا الى أن من الجائز أن تكون قد وقعت له هزة عصبية . والخلاصة أن النتيجة التى انتهى اليها الاطباء هى أن الامير سيموت لا محالة ، وأنه مهيا للموت منذ زمن طويل على كل حال . ولم يخطئ ظن الاطباء ، فان الشيخ

المسكين قد فاضت روحه غداة غد مع المساء . لم يكن أحد يتوقع ان تنتهى الامور هذه النهاية الخطيرة . وهرع الناس ذرافات الى الفندق حيث يرقد جثمان الامير الذى لم يكفن بعد ، فكانوا يتنافسون ويهزون رؤوسهم ثم يحكمون اخر الامر حكما فاسيا جدا على «قتلة» الامير المسكين ، وكان واضحا أنهم يقصدون بالقتلة ماريا ألكسندروفنا وابنتها . كان كل واحد يحس أن هذه القصة قد يكون لها عواقب وخيمة ، وقد تمضى بعيدا جدا بسبب الفضيحة التى لا يستها . ولكن ما أكثر ما يقوله الناس ! وكان موزجلياكوف أثناء ذلك مضطربا أشد الاضطراب فهو يسرع الى هنا ويهرع الى هناك ، ثم فقد صوابه تماما ، وعلى هذه الحالة النفسية الاليمة انما كان حين سعى الى لقاء زينا . الحق ان موقفه قد أصبح شائكا ، فهو الذى جاء بالامير الى مورداسوف ، وهو الذى نقله الى الفندق ، فماذا عساه يفعل الآن ؟ أين ينبغي أن تكون الجنازة ؟ من يجب أن ينبأ بالخبر ؟ هل ينبغي أن ينقل الجثمان الى دوخانوف ؟ لقد كان موزجلياكوف يعد قريب الامير ، فكان من حقه أن يضطرب وأن يرتعد . أليس من الممكن أن يتهم بأنه عجل وفاة الشيخ المسكين ؟ « أرجو أن لا يصل الامر الى المجتمع الراقى فى بطرسبرج على الاقل . كذلك كان يحدث نفسه جزعاً مرتاعاً . وهو لا يستطيع أن يتكل على نصيحة أحد فى مورداسوف . فلقد كان الناس كمن صعبهم الخوف . ولئن أصبح الميت مهجورا فى عزلته لقد أصبح موزجلياكوف مهجورا فى عزله هو أيضا . ولكن المشهد تغير على حين فجأة . ففى ساعة مبكرة من الصباح غداة موت الامير ، وصل أحد الى المدينة ، فاذا بمورداسوف كلها تأخذ تتكلم عن وصوله بسرعة كومض البرق . ولكنها تتكلم عن وصوله خافضة صوته هامة همسا . وأخذت العيون ترقبه من خلال شقوق مصاريع الابواب ، بينما كان يسير فى الجادة الكبرى ذاهبا الى عند الحاكم . لم

يعرف بافل ألكسندروفتش الذى اشتدت عليه وطأة القلق ما هو الموقف الذى يجب أن يتخذه تجاه القادم الجديد . ان القادم الجديد قريب للمتوفى . انه الأمير شيتيلوف ؛ وهو شخص مرموف ما يزال شابا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، على كتفيه شارات كولونيل . ان هذه الشارات وحدها قد أحدثت فى نفوس موظفى المدينة رهبة يمازجها احترام ، وقد اضطرب ضابط الشرطة أمامه أول المضطربين . وسرعان ما علم أن الأمير شيتيلوف كان اتيا من بطرسبرج فتوقف أثناء طريقه فى دوخانوف ، فلما لم يجد فيها أحدا أسرع وراء عمه الى مورداسوف ، حيث كان ينتظره هذا الخبر الذى نزل عليه نزول الصاعقة . ولم يعلم بهذا الخبر الفاجع فحسب بل علم كذلك بالشائعات المختلفة التى ذاعت عن موت الأمير الشيخ . وكان وجه بافل ألكسندروفتش وهو يدلى بمعلوماته ينم عن ذعر شديد لا يملك المرء حين يراه الا أن يرثى لحاله . على أن جميع سكان مورداسوف قد أشعروا القادم الجديد شعورا واحدا هو انهم كمن ضبطوا على حين غرة متلبسين بالانم مجترحين الجرم . وكيف لا يشعر المرء بحرج كبير وارتياح شديد أمام هذا الوارث الممتعض المستاء الرصين الوجه الصارم النظرة ؟ ولم يلبث القادم الجديد أن قبض على ناصية الامور كلها ، فما وسع موزجلياكوف ازاء هذا الرجل الذى يستطيع أن يتباهى صادقا بقرابته للأمير المتوفى الا أن يخفى على الفور . وسرعان ما تقرر أن يُنقل الجثمان الى الدير وأن يُصلّى عليه هناك . وكان القادم الجديد يلقى أوامره فى كل شأن من الشئون بعبارات موجزة ولهجة قاسية وسلطة قاطعة ولكنه يفعل ذلك بحذق مناسب وكياسة مرضية . حتى اذا جاء الغد مضت المدينة كلها الى الدير لحضور صلاة الجنازة ، وانتشرت بين السيدات شائعة بلهاء ، فقيل ان ماريا ألكسندروفنا

ستذهب الى الكنيسة من أجل أن تركع أمام النعش مستغفرة بصوت عال
كما يوجب القانون ذلك • ولكن القارىء العزيز يدرك ان تلك شائعات
لا اساس لها من الصحة ، ويحزر ان ماريا ألكسندروفنا لم تظهر في
الكنيسة قط • نسيت أن أقول ان ماريا ألكسندروفنا قد رات منذ عودة
ابنتها الى المنزل أن البقاء في المدينة اصبح مستحيلا ، فقررت أن تصطحب
ابنتها في ذلك المساء نفسه الى منزلها الريفي • ومن هناك أخذت ماريا
ألكسندروفنا تسقط أخبار المدينة قابعة في ركنها ؛ فسرعان ما علمت من
تسقط الانباء بمقدم الامير شتيتلوف ، فاتبعتها من ذلك حمى • ان الطريق
الدى يقضى من الدير الى دوخانوف يبعد عن ارضها مسافه تقل عن
فرسخ واحد ، لذلك استطاعت ماريا ألكسندروفنا بسهولة أن ترى الموكب
الذى اتجه من الدير الى دوخانوف بعد انتهاء صلاة الجنازة • كان النعش
محمولا على مركبة عالية العجلات يتبعها طابور من العربات • لقد سمعت
هذه العربات الامير المتوفى الى المكان الذى يلتقى فيه الطريق بالجادة
الكبرى ، وظلت المركبة السوداء ذات العجلات العالية التى تحمل جثمان
الامير وتسير خيولها بخطى بطيئة ، ظلت بعد ذلك زمنا طويلا تتهادى على
الحقول البيضاء من الثلج ، بما يجب لها من جلال ووقار • ولكن ماريا
ألكسندروفنا لم تستطع أن تواصل النظر فأنكفأت عن النافذة •

وبعد أسبوع ، سافرت الى موسكو مع آتاناى ماتفتش وابنتها •
فما هو الا شهر حتى علم الناس فى مورداسوف أنهم باعوا منزلهم فى
المدينة وفى القرية • فكذلك فقدت مورداسوف الى الأبد سيدة من الطراز
الاول • وحتى فى هذا لم تجر الامور بغير أقاويل • لقد قيل فيما قيل
ان آتاناى ماتفتش قد بيع مع الأرض • • • وانقضت سنة ثم انقضت
سنة أخرى ، ونُسيت ماريا ألكسندروفنا نسيانا يشبه أن يكون كاملا •
هكذا تجرى الامور على هذه الارض واحسرتها ! وحكى مع ذلك أنها

قد اشترت أرضاً أخرى ، وأنها قد استقرت في بندر آخر حيث فبضت على ناصية الأمور كلها ، وأن زينا لم تتزوج ، وأن أتانازى ماتتشتس ... ولكن فيم أردد هذه الشائعات وليس فيها واحدة صادقة ؟؟؟

انقضت ثلاث سنين على كتابتي هذه الجمل الاخيرة من الفصل الاول من « حوليات مورداسوف » . من ذا الذى كان يمكن ان يتنبأ باننى قد تناح لى فرصه فتح دفترى من جديد واضافه بضع صفحات اخرى الى قصتى ؟ ولكن فلنصل الى الوقائع ! ولابدأ بصاحبنا بافل ألكسندروفتش موزجلياكوف . انه حين اختفى من مورداسوف سافر الى بطرسبرج حيث حصل بغير عناء على الوظيفة التى كان يطمح فيها منذ زمن طويل . وسرعان ما نسي كل ما يتصل بمدينة مورداسوف من قريب أو بعيد ؟ وسرعان ما اندفع فى اعصار حياة المجتمع الراقى ، فاخذ يختلف الى جزيرة فاسيلفسكى والى بحيرة القوارب * ، ويعيش حياة بهجة وتمتع باللذائذ شاباً أيقاً عاد اليه مرحة . وقد عشق مرة أخرى فخطب فصد وطُرد من جديد فلم يتألم من ذلك ألماً شديداً . ولكنه لخفة طبعه وفراغ وقته طلب أن يسافر مع بعثة كان ينظم سفرها الى ركن بعيد من أركان امبراطوريتنا الواسعة ، فتم له ما أراد ، وكانت مهمة البعثة القيام بتفتيش لا أدري ما هو على وجه الدقة . فبعد أن قطعت البعثة صحارى وفياتى وغابات ، دون أن تلقى مصاعب كثيرة ، وبعد أسفار طويلة لا نهاية لها ، بلغت المدينة الرئيسية من تلك البلاد البعيدة ، فلم تلبث أن ذهبت تزور الحاكم العام . انه جنرال طويل القامة جافى الطبع قاسى اللهجة ، عسكري " شيخ تملأ جسمه الجروح ، ويزين صدره وسامان ، ويتدلى على عنقه صليب أبيض . استقبل الحاكم العام أعضاء البعثة بوقار متكبر ، ثم دعاهم الى حضور حفلة راقصة يقيمها فى تلك الليلة نفسها تكريماً للسيدة الجنرالة التى يقع عيدها فى هذا اليوم . سر بافل ألكسندروفتش

بهذه الدعوة وفرح لها ؛ فلما جاء المساء ارتدى رداءه البطرسبرجى الذى كان يعول عليه كثيرا لاجداث اتر كبير فى نفوس من يرونه . ثم دخل القاعة الكبرى منطلق الحركات منبسط الهيئة . ولكنه لم يلبث ان شعر بشيء من الذهول حين رأى ما رأى من ثياب باذخه ورتب عالية وأردية عسكرية مثقله بالأوسمة . وما هى الا أن تقدم ليحيى ربة المنزل التى سبق أن امتدح له صباها وجمالها ، حتى وقف متجمدا فى مكانه . لقد رأى أمامه زينا ، متكبرة متعالية متجبرة تجلجلها جواهر الماس ويزينها ثوب رائع من أثواب حفلات الرقص . لم تتعرف زينا صاحبنا بافل ألكسندروفتش ، بل مرت على وجهه بنظرة سريعة لا تبالي ولا تكثر ، لتثقل بصرها بعد ذلك فورا الى رجل اخر . بهت موزجلياكوف ، وذهل عن نفسه ، فمضى ينتحى جانبا من القاعة . والتقى بين الجمهور بموظف شاب خجول كان يشعر من وجوده فى هذه الحفلة بكثير من الروع والهول ، فأسرع بافل ألكسندروفتش يسأله عن أمرين أو ثلاثة أمور كانت تهمة كثيرا ، فعلم أن الحاكم العام قد تزوج منذ سنتين أثناء قضاء اجازته فى موسكو بفتاة تملك مهرًا ضخما وتنتمى الى أسرة عريقة نبيلة؛ وأن الجنرالة جميلة جمالا يفوق كل جمال ، فذلك أمر لا يمكن أن يمارى فيه أحد ، ولكنها متكبرة تكبرا شديدا ، ولا ترقص الا مع جنرالات ، وأن حفلة هذه الليلة تضم تسعة جنرالات بين مقيم فى المنطقة ومار بها ، وفيهم طبعا مستشارو الدولة ، وأن السيدة الجنرالة تعيش معها أمها ، وأن هذه الأم رغم اتمائها الى طبقة نبيلة جدا ورغم ذكائها النادر ، خاضعة لارادة ابنتها كالجنرال نفسه سواء بسواء . وحاول موزجلياكوف أن يعرف بالتلميح شيئا عن آتانا زى ماتفتش فأدرك أن هذا الركن البعيد من الامبراطورية يجهل وجوده كل الجهل . فلما استرد موزجلياكوف شيئا من رباطه جأشه طاف فى الصالونات ، فاذا هو يلمح ماريا

ألكسندروفنا متزينة للسهرة بأبهى حلة ممسكة بيدها مروحة فخمة
ترجحها أمام وجهها بغير اكتراث، متحدثة مع موظف من الدرجة الرابعة،
ومن حولها تزدهم سيدات يتوددن إليها ويسعين إلى الخطوة برضاها ،
فظهر ماريا ألكسندروفنا لهن جميعاً لطفاً عظيماً ورقة كبيرة • جازف
موزجلياكوف فظهر لها ، فإذا بماريا ألكسندروفنا ترتجف ارتجافة صغيرة
سرعان ما كبتها ؟ وتنازلت فسألته بكثير من اللطف عن أخبار بطرسبرج
مظهرة مع ذلك دهشتها من انه ليس فى الخارج • ما من كلمة عن
مورداسوف ! لكان هذه المدينة لم توجد فى يوم من الأيام ! وذكرت
أخيراً اسم أمير من أشهر الامراء بالعاصمة فى ذلك الوقت ، وقبل أن
يفهم موزجلياكوف شيئاً ، اتجهت بالكلام إلى رجل من كبار رجال الدولة
أشيب الصدغين معطر الشعر كان قد اقترب منها ، فسألته عن أبناء ذلك
الأمير • هكذا ، فى أقل من دقيقة ، أحس بافل ألكسندروفيتش بامتحاء
وجوده من عالمها • فعاد إلى قاعة الرقص حاملاً قبعته بيده وقد طافت بفيه
ابتسامة ساخرة • ولا ندرى لماذا اعتقد أنه بلغ من امتلاء نفسه بالمرارة
ومن اصابة كرامته بالاهانة انه قرر أن لا يرقص قط ، فلبث السهرة كلها
حزين الوجه مهموم النظرة مرّ البسمة متكئاً متكئاً مسرحياً على عمود فى
القاعة لبث عنده ساعات طويلة لا يتحرك ، جامداً فى مكانه ، متابعا زينا
بنظره • ولكن واحسرتاه ! لا حزن وجهه ولا رومانسية أوضاعه ولا
الغم الذى يلوح فى هيئته ، لا شيء من ذلك أو غيره قد أجدها نفعا • ان
زينا لم تلاحظ وجوده • واستبد به الحق أخيراً وثقلت ساقاه من طول
وقوفه فخرج عائداً إلى الفندق يجتر عاره حانقاً ، اذ لا يليق بعاشق
محزون أن يبقى للعشاء ! وهنالك فى الفندق استيقظ فى ذاكرته ما كان
قد نسيه منذ زمان طويل فتأخر نومه • غير أن أوامر قد وصلت فى الغداة

للقيام بمهمة جديدة • فتهياً موزجلياكوف للسفر وقد سرى عنه • لفد
شعر من ترك هذه المدينة بكثير من التخفف •

على الصحراء التى لا نهاية لها كان يمتد بساط من ثلج باهر ، وعند
الأفق حيث تلتقى السماء بالأرض كانت تبدو غابة من الغابات كأنها بقعه
سوداء •

الخيول تعدو صاهلة فى الثلج الباهر • الجلاجل ترن • وفى قرارة
العربة أخذ بافل ألكسندروفتش يفكر ثم يحلم ثم يفرق فى نوم هادى •
ولم يستيقظ الا عند ثالث محطة وقد طابت نفسه وأشرق مزاجه وزخر
رأسه بخواطر جديدة ♦♦♦

٣ نيسان (أبريل) ١٨٥٩

حواش

- ١٩ ★ « الفرسخ » مقياس روسي قديم يساوي كيلو مترا على وجه التقريب (١٠٦٧ متر) .
- ٢٠ ★ « ايليوشا » : تصغير ايليا ، ويقال تحببا .
- ٢٣ ★ « أوبسكا » : كلمة تعني بالروسية « زلة قلم » ، وقد اشتق منها الكاتب اسم « أوبسكين » سخرية .
- ٢٥ ★ هو ايفان ياكوفلغتش كوريشا (١٧٨٠ - ١٨٦١) ، رجل شاذ عرف في موسكو بتنبؤاته عن المستقبل ، وكان يعد « وليا من أولياء الله » .
- ٣٤ ★ تحاكي هذه العناوين محاكاة هزلية عناوين الروايات التاريخية المزعومة ، على طريقة والتر سكوت ، التي لفتتها أقلام خفيفة كأقلام زاجوسكين ولايتشمينيكوف ومازيالاسكي ومارلتسكي وأضرابهم ، والتي كان يسخر منها الناقد سنكوفسكي سخرا جميلا ممتعا ، وكان يمهر مقالاته في نقدها بتوقيع مستعار هو اسم « البارون برامبوس » ، وكان ينشر هذه المقالات زوايا في مجلة « حجرة القراءة » .
- ٤٢ ★ دمرت الحرائق مدينة قازان مرتين ، الأولى سنة ١٨٤٢ والثانية سنة ١٨٤٨ .
- ٦٣ ★ اسم فيدوبلياسوف منحوت من كلمتين احدهما « فيد » ومعناها مظهر والثانية « بلياس » ومعناها رقص ، فاذا سمع الروسي هذا الاسم استغربه .
- ٦٦ ★ « فوما » هو الصورة الروسية لاسم توما (توماس) .
- ٨٥ ★ « فرول سيلين » هو بطل قصة كتبها كارامزين بعنوان « فرول سيلين ، رجل الخير » ، وظهرت سنة ١٧٩١ .

- ٩٣ ★ « تاليران » السياسي الفرنسي المعروف في عهد نابوليون ؛
والإهابة هنا الى الاقتداء بما اشتهر به من دهاء ومكر وحيلة
واسعة .
- ٩٥ ★ « أديلانيد » ، زهرة الليلك الناصع ، والكلمة فرنسية كانت
تطلق في الماضي على نوع من الحشرات ، وهي مشتقة من الكلمة
اليونانية أديلوس ، ولا شأن لها باسم الشخص أديلانيد ،
كما سيتوهم راوى القصة .
- ٩٦ ★ « أجرافينا » : ان اسم أجرافينا هو الشكل الروسى الشعبى
لاسـم « أجريبين » .
- ١٠٥ ★ « الأخرق » : عنوان رواية آ . بيزمسكى التى ظهرت سنة
١٨٥٠ ؛ والكلمة معناها الحقيقى « الفراش » ، ومعناها المجازى
« الأخرق » .
- ١١٥ ★ « معاون قاض » ، موظف من الدرجة الثامنة يقابل رتبة
« ميجر » فى الجيش ؛ وهذه الرتبة تعطى صاحبها الحق فى لقب
« النبيل الرفيع » .
- ١١٨ ★ « أسرة هولسكى ، بعض ملامح أخلاق السادة الروس ، المتزوجين
منهم والعازبين » : رواية كتبها د . ن . بيجتشيف ، وصدرت
سنة ١٨٣٠ ، وهى تصور أسرة كثيرة الأولاد .
- ١٣٤ ★ « رقصة الكامارنسكايا » : رقصة روسية شعبية يرقصها
الرجال وحدهم ، وتصاحبها أغنية مرحة منطلقة عن « فلاح
كامارينو » .
- ١٣٨ ★ بالفرنسية فى الأصل .
- ١٤٠ ★ « كاتب ديوان » موظف من الدرجة الرابعة عشرة ، وهى أخفض
الدرجات فى سلم الرتب .
- « البيشوخونيزى » هو ساكن مقاطعة بيشوخونى ذات الغابات؛

وتطلق هذه الصفة في العادة على الرجل الجافى الثقيل
المتخلف .

١٥٦ ★ « ايفان بوروزدنا » : شاعر تافه لا قيمة له ، ولكن فوما فومتش
يضعه لجهله وحماقته في مصاف بوشكين ولرمونتوف .

١٥٦ ★ « اننى أعرف روسيا ، وروسيا تعرفنى » ، كلمة للمؤرخ الناقد
نيكولا الكسيفتش بولفوى (١٧٩٦ - ١٨٤٦) ، أثارت سخرية
معاصريه منه واستهزاءهم به .

١٥٨ ★ « نيكولا كارامزين » (١٧٦٦ - ١٨٢٦) ؛ مؤرخ شهير ألف
كتاباً جميلاً في « تاريخ روسيا » ، وكتب كذلك روايات
وأقاصيص عاطفية منها قصة « فرول سيرين » التى تصف
حياة تاجر يتحلى بالفضيلة .

١٥٩ ★ « الناسخ » : هو الاسم الأدبى المستعار الذى كان الكاتب ن .
كوكولنيك يمهز به كتاباته .

١٧٠ ★ « ايميليان بوجاتشيف » ، قوازقى من الدون ، هو قائد التمرد
الكبير الذى قام به القوازق والفلاحون بين سنتى ١٧٧٢
و ١٧٧٤ .

٢٠٢ ★ « مكيافيللى و مركادانتى » : جمع ساخر بين الكاتب والمؤرخ
الشهير مكيافيللى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) وبين الملحن الايطالى
الصغير سافريو مركادانتى (١٧٩٧ - ١٨٧٠) .

٢٠٧. ★ « فيدو بلياسوف » راجع حاشية الصفحة ٦٣

٢١٤ ★ « جرتنا - جرين » قرية بايتوسيا اشتهرت بما يتم فيها من
عقود قران لا تتطلب توافر شرطى المسكن والاعلان .

٢١٥ ★ « بورتسوف » هو آ . ب . بورتسوف (١٧٨٤ - ١٨٣٩) ،
الضابط فى سلاح الفرسان الذى اشتهر ببسائله وقصفه معا
وقد تغنى به الشاعر الفارس دينيس دافيدوف .

٢٣٤ ★ ان اسم « فيرنى » ومعناه المخلص يجانس فى النص الروسى كلمة سكفرننى ومعناها الخبيث ؛ كما ان اسم اولانوف (المشتق من كلمة « اولان ») يذكر بكلمة بالفانوف (المشتقة من كلمة « بولفان » ، ومعناها الأبله) . وقد تصرف المترجم العربى بهذين الاسمين التصرف الذى يراه القارىء ، تحقيقا للجناس اللفظى على نحو يسوغ التهكم عليهما . واسم « دانستيف » مشتق من كلمة « دانس » الفرنسية ومعناها الرقص .

٢٩٦ ★ « حصار بامبا » : قصيدة نظمها الكونت الكسى ك تولستوى بالتعاون مع أقربائه الاخوة جمتشوينيكوف ، ونشرها فى مجلة « المعاصر » عدد آذار مارس ١٨٥٤ ، باسم مستعار هو كوزما بروتكوف . والقصيدة معارضة هزلية للأسلوب الرومانسى وقد تولى الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى صياغتها للترجمة العربية شعرا .

٣٠٠ ★ « أنا راد كليف » (١٧٦٤ - ١٨٢٣) روائية انجليزية ألفت قصصا يسودها السر والرمز ؛ وقد حظيت احدى هذه القصص وهى « أسرار أودولف » بشهرة مؤقتة .

٣٠٢ ★ « كوزما بروتكوف » : راجع حاشية الصفحة ٢٩٦ .

٣٠٣ ★ كانت مجلنا « المعاصر » و « حوليات الوطن » أشهر المجلات الروسية بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ .

٣٠٤ ★ نشرت مجلة « حوليات الوطن » فى عدد شهر تموز يوليو ١٨٥١ مقالا طويلا وضعه الكاتب الروسى المعروف ، المهتم بوصف عادات الأقوام ، وهو آ . ن . آفانازيف ، بعنوان : « المنزل الروسى وما يتصف به من طابع دينى وثنى » . وقد تذكر دوستويفسكى هذا المقال فى احدى رسائله التى كتبها سنة ١٨٦١ ، فسماه سافرا « فصل المقال فى الكنيسة والمعركة والمجرفة وما من خطر الشأن فى الأساطير الروسية القديمة »

٣١٤ * « من الحرافات التي كانت شائعة في الشعب الروسي أن الرعود والصواعق انا يرسلها النبي ايليا (وتصغيره ايليوشا) الذي يتجول في السماوات على عربته ، وأنه لا بد أن تهب زوبعة في كل عام يوم عيده ، وهو اليوم العشرين من شهر تموز يوليو

٣٤٣ * « الشقاء أبو الفضيلة » : كتب نيكولا جوجول في احدى رسائله يقول : « ان الشقاء يرقق قلب الانسان ويرهف طبيعته » (« رسائل جوجول الى أصدقائه » ، ١٨٤٧) . ومن الملاحظ أن دوستويفسكي كثيرا ما يتهكم على جوجول في هذه الرواية ، من خلال شخصية فوما فومتش . راجع التقديم الذي صدرنا به هذا المجلد الثالث من أعمال دوستويفسكي ، وفيه نتعرض لهذه المسألة .

٣٤٦ * « اشمداى » اسم يرجع في أغلب الظن الى أصل فارسي ، وبه يسمى شيطان الشهوانية والحب الفاسق .

٣٥٧ * من المعروف أن الاسكندر الكبير قتل صديقه كلتيوس أثناء سورة غضب .

٣٦٠ * « المدرسة الطبيعية » المقصودة هنا هي المدرسة الواقعية في الأدب الروسي في الأربعينات من القرن التاسع عشر ؛ وكان الناقد بيلنسكي يرى طلائعها وبداياتها في أعمال جوجول . والقصيدة هنا للشاعر ن كراسوف ؛ وقد نشرت سنة ١٨٦٠ ، وفيها يخاطب الشاعر فتاة ضائعة يريد أن يبعثها بحبه بعنا جديدا .

٣٦٨ * نسبة الى ليسينيوس لوقولوص السياسى الرومانى الذى عرف بحب البذخ فى الطعام والشراب .

حلم العم

- ٣٨٠ ★ « بينتى » ، حاو ايطالى اشتهر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر .
- ٣٨١ ★ « دعاة الشرعية » هم أنصار الملكية التى يعدونها شرعية .
- ٣٨٤ ★ « نحلة الشمال » : جريدة كان يصدرها ف . بولجارين
- ٣٩٧ ★ هو « آنا ستازى فيت شنشين » ، شاعر غنائى روسى (١٨٢٠ - ١٨٩٣) ، بدأ حياته الأدبية سنة ١٨٤٠ .
- ٤١٣ ★ دنيس فونفيزين (١٧٤٤ - ١٧٩٢) ، وألكسندر جريبويدوف (١٧٩٥ - ١٨٢٩) ونيكولا جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) ، ثلاثة من كبار كتاب المسرحيات الهزلية فى روسيا .
- ٤١٣ ★ « مؤتمر فيينا » ١٨١٤ - ١٨١٥ .
- ٤١٤ ★ « الكراكوفياك » أو الكراكوفية : رقصة بولندية كانت ترقص كثيرا فى حفلات الرقص بروسيا .
- ٤٢١ ★ « ساندريون » هى فى حكاية بيرو الفتاة التى أساءت امرأة أبيها معاملتها واحتقرتها أخواتها ، وألزمت المطبخ ، وألبست ثيابا خلفة ، ثم استطاعت أن تحضر حفلة رقص أقامها ابن الملك ، فأحبها وافتتن بها . وقد أصبح اسم « ساندريون » يعنى فتاة مهملة رثة الملابس .
- ٤٢٤ ★ فى عنوان التمثيلية الهزلية Mouje v dver, a jéna v tver (ومعناه : يخرج الزوج من الباب فتذهب الزوجة الى تغير) نلاحظ أن كلمتي dver و Tner تتجانسان قافية ، أما مدن تولا وياروسلان وكوستروما فان أسماءها لا تحقق هذا التجانس فى القافية ، ولا تجعل العنوان مسجوعا .
- ٤٣٢ ★ « حجرة القراءة » ، مجلة واسعة الانتشار كان يصدرها أو سنكوفسكى .

- ٤٣٢ ★ « فلوريان » هو ه . بوير فلوريان (١٧٥٥ - ١٧٩٤) ،
مؤلف حكايات خرافية وروايات ريفية .
- ٤٤١ ★ كالستى ستانسلافتش طبيب بولندى الأصل .
- ٤٧٧ ★ « ماريا ومازيبا » ، الاشارة هنا الى غرام الفتاة ماريا كوتشوبى
بعراها الشيخ ، رئيس القوزاق ، مازيبا ، الذى ثار على بطرس
الأكبر سنة ١٧٠٧ ؛ وذلك هو موضوع القصيدة الشهيرة التى
نظمها بوشكين وعنوانها : بولتافا .
- ٤٧٨ ★ « السنونو » أغنية عاطفية شهيرة للملحن الروسى آلياييف ،
وقد وضعها سنة ١٨٣٤ ، فاقتبسها للييانو فرانتس ليست
- ٥٠٥ ★ « كونت مونت كريستو » ، رواية لألكسندر دوما ؛ و « مذكرات
الشیطان » ، رواية من تأليف ملتشيور فرانسوا سولييه
(١٨٠٠ - ١٨٤٧) .
- ٥٣٠ ★ « جيوفانى جياكومو كازانوفا » المغامر الايطالى الذى اشتهر
بمذكراته .
- ٥٨٤ ★ « حوليات الوطن » ، مجلة تحريرية كان يصدرها ف .
بيلنسكى .
- ٥٩٢ ★ « واخذ يختلف الى جزيرة فاسيلفسكى الى بحيرة
القوراب ٠٠٠ » : عبارة ساخرة ، لأن هذه الأماكن هى أحقر
أحياء العاصمة .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
قرية ستيانتيشيكوفو وسكانها	

الجزء الأول :

١	مقدمة	١٩
٢	السيد باختشايف	٤٩
٣	عمى	٧٤
٤	الشاي	٩٧
٥	ياجيفكين	١١٤
٦	البقرة البيضاء و « فلاح كامارينو »	١٣٦
٧	فوما فومتش	١٤٧
٨	تصريح	١٧٤
٩	« صاحب السعادة »	١٨٤
١٠	ميزنتشيكوف	٢٠٦
١١	بليلة قصوى	٢٢٧
١٢	كارثة	٢٤٧

الجزء الثاني والآخر :

١	المطاردة	٢٦١
---	----------	-----

الموضوع	الصفحة
٢ هناك جديد	٢٨٥
٣ عيد اليوشا	٢٩٢
٤ الطرد	٣٠٧
٥ فوما فومتش يحقق السعادة للجميع	٣٢٥
٦ خاتمة	٣٥٤
حلم العم	٣٧٧
حواش	٥٩٦

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الثامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١.
المثل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢.
<u>المجلد الثاني</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نيوتشكا نزفانوفنا	الأبله - ١.
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخاروشين	الأبله - ٢.
الجارا	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهرج	الشياطين - ١.
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	الشياطين - ٢.
قصة في سبع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	المرامق - ١.
زوجة أخرى، وزجل تحت السرب	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	المرامق - ٢.
قرية ستيفان تشيكوفوفوسكانها	<u>المجلد السادس عشر</u>
حلم العم	المرامق - ٣.
<u>المجلد الرابع</u>	<u>المجلد السابع عشر</u>
مذلولون مهانوث	المرامق - ٤.
<u>المجلد الخامس</u>	قصص
ذكريات من منزل الأموات	<u>المجلد الثامن عشر</u>
<u>المجلد السادس</u>	الأخوة كارامازوف - ١.
في قبوي	<u>المجلد التاسع عشر</u>
قصة اليمه	الأخوة كارامازوف - ٢.
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	<u>المجلد العاشر عشر</u>
التمساح	الأخوة كارامازوف - ٣.
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأبدي	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المباينين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر في سروريفيف